

الرِّيَاضُ الدِّبِيَّةُ
عَلَى

شَرْحُ الْعَقِيدَةِ الطَّائِفِيَّةِ

تأليف

الإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدين دمشقي

تفليق

فضيلة الشيخ الدكتور

عبد الله بن محمد الرحمن بن عبد الله الطبري

ضبطه أمارته وعلمه عليه له والنشر

الدكتور طارق بن محمد بن عبد الله الطبري

الجزء الرابع

دار الصميعي
للنشر والتوزيع



حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

دار الطبع والنشر والتوزيع

هاتف ٤٢٦٢٩٤٥ - ٤٢٥١٤٥٩ فاكس ٤٢٤٥٧٤٤

المركز الرئيسي ، الرياض - شارع السعودي العام

ص. ب. ٤٩٦٧ الرمزاثيريدي ١١٤١٢

الململكة العربية السعودية

فرع القصيم ، عنيزة ، امام جامع الشيخ (بن عثمان) بركة الله

هاتف ٣٦٢٤٤٢٨ تليفاكس ٣٦٢١٧٢٨

الرَّيَاضُ النَّدِيَّةُ
عَلَى

شَرْحُ الْعَقِيدَةِ الطَّائِفِيَّةِ

تَأليفُ

الإمامِ القَاضِي عَلِيِّ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي الْعِزِّ الدِّمَشْقِيِّ

تَعْلِيقُ

فضيلة الشيخ الدكتور

عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الطبري

خرج أمهاتنه وعلمه عليه وأعو للنشر

الدكتور طارق بن محمد بن عبد الله الطويرقي

المجلد الرابع

دار الصميعي
للنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الطحاوي:

وَلَا نُزِّلَ أَحَدًا مِنْهُمْ جَنَّةً وَلَا نَارًا.

قال الشارح:

يُرِيدُ: أَنَا لَا نَقُولُ عَنْ أَحَدٍ مُعَيَّنٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ: إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَوْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، إِلَّا مَنْ أَخْبَرَ الصَّادِقُ عليه السلام أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، كَالْعَشْرَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وَإِنْ كُنَّا نَقُولُ: إِنَّهُ لَا يَدَّ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ مِنْ أَهْلِ الْكِبَائِرِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ إِذْ خَالَه النَّارَ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا بِشَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ، وَلَكِنَّا نَقِفُ فِي الشَّخْصِ الْمَعْيَنِ، فَلَا نَسْمَعُ لَهُ بِجَنَّةٍ وَلَا نَارٍ إِلَّا عَنْ أُمَّ؛ لِأَنَّ الْحَقِيقَةَ بَاطِنَةً، وَمَا مَاتَ عَلَيْهِ لَا نُحِيطُ بِهِ، لَكِنِ نَرْتَمُو لِلْمُعْصِينَ، وَنَخَافُ عَلَى الْمُسِيءِ.

وَلِلسَّلَفِ فِي الشَّهَادَةِ بِالْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنْ لَا يُشْهَدَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْأَنْبِيَاءِ، وَهَذَا يُنْقَلُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ، وَالْأُورَاقِي.

والثاني: أَنَّهُ يُشْهَدُ بِالْجَنَّةِ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ جَاءَ فِيهِ النَّعْسُ، وَهَذَا قَوْلُ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ.

وَالثَّلَاثَةُ: أَنَّهُ يُشْهَدُ بِالْجَنَّةِ لِمَسْئَلَةٍ وَاسْمٍ شَهِدَ لَهُ الْمُؤْمِنُونَ، كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ»: أَنَّهُ مَرَّ بِجِنَارَةٍ، فَأَثَرُوا عَلَيْهَا بِخَيْرٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: «وَجِبَتْ»، وَمَرَّ بِأُخْرَى، فَأَثَرُوا عَلَيْهَا بِشَرٍّ، فَقَالَ: «وَجِبَتْ». وَفِي رِوَايَةٍ: كَسَّرَ: «وَجِبَتْ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا وَجِبَتْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: «هَذَا أَتَيْتُمْ عَلَيْهِ

خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَهَذَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ»^(١). وَقَالَ ﷺ: «تُوشِكُونَ أَنْ تَعْلَمُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، قَالُوا: بِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «بِالنَّاءِ الْحَسَنِ وَالنَّاءِ السَّيِّئِ»^(٢). فَأَخْبَرَ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُعْلَمُ بِهِ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ.

قال الشيخ:

أول الكلام يتعلق بمن يُشهد له بالجنة ومن يشهد له بالنار، هل يجوز ذلك أم لا؟ قد ثبت أنه ﷺ شهد لبعض أصحابه بالجنة، كالعشرة في حديث سعيد بن زيد ﷺ قال: أشهد على رسول الله ﷺ أني سمعته وهو يقول: «عشرة في الجنة: النبي في الجنة، وأبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير بن العوام في الجنة، وسعد بن مالك في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة»، قال سعيد بن زيد ﷺ: «ولو شئت لسميت العاشر، فقالوا من هو؟ فسكت، فقالوا: من هو؟ فقال: هو سعيد بن زيد»^(٣).

أي: هم الخلفاء الأربعة والستة الذين جمعهم ابن أبي داود بقوله:

- (١) أخرجه البخاري (١٣٧٦)، ومسلم (٩٤٩) من حديث أنس بن مالك ﷺ.
 (٢) أخرجه أحمد (٤١٦/٣)، و(٤٦٦/٦)، وابن ماجه (٤٢٢١)، وابن حبان (٣٩٢/١٦)، والطبراني في الكبير (٣٨٢)، والحاكم (٤٣٦/٤) من حديث أبي زهير الثقفي ﷺ.
 (٣) أخرجه أبو داود (٤٦٤٩)، والترمذي (٣٧٤٨)، وابن ماجه (١٣٣)، وأحمد (١٨٧/١)، وابن حبان (٤٥٤/١٥).

وَقُلْ: إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ
 وَرَابِعُهُمْ خَيْرُ الرِّيَّةِ بَعْدَهُمْ
 وَإِنَّهُمْ لَلرَّهْطُ لَا رَنْسَبَ فِيهِمْ
 سَعِيدٌ وَسَعْدٌ وَأَبْنِ عَوْفٍ وَطَلْحَةَ
 وَزَيْرَاهُ قَدَمًا ثُمَّ عَثْمَانُ الْأَزْجَعُ
 عَلِيُّ حَلِيفُ الْخَيْرِ بِالْخَيْرِ مُنْجِحُ
 عَلِيٌّ نُجُوبُ الْفِرْدَوْسِ بِالنُّورِ تَسْرُحُ
 وَعَسَامِرٌ فَوْهَرٌ وَالزُّبَيْرُ الْمَمْلُوحُ^(١)

هؤلاء شهد لهم النبي ﷺ بالجنة، وختم لهم بالأعمال الصالحة، ولم ينقم عليهم ما يكون سبباً لمخالفة ما شهد به النبي ﷺ، وكذلك قصة ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه، بشره النبي ﷺ أنه من أهل الجنة^(٢). يقول الراوي: فكان يمشي بيننا وهو من أهل الجنة.

وكذلك قوله ﷺ لبلال رضي الله عنه: «فَأَيُّ سَمِعْتَ اللَّيْلَةَ خَشَفَ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ»^(٣)، وغيرهم ممن شهد لهم بذلك، كما شهد لعمار وسليمان رضي الله عنهما^(٤).
 وكما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ

(١) انظر النظم في طبقات الختابلة (٣/ ١٠٠)، ولساحة شيخنا عبد الله بن جبرين - حفظه الله ورعا - شرح كامل مطبوع لهذا النظم.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٣)، ومسلم (١١٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (١١٤٩)، ومسلم (٢٤٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) كما في حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْجَنَّةَ لَتَشْتَاقُ إِلَى ثَلَاثَةٍ: عَلِيٍّ وَعَسَامِرٍ وَسَلْمَانَ». أخرجه الترمذي (٣٧٩٧)، وأبو يعلى (١٦٤/٥)، والحاكم (٣/ ١٣٧) من طريق أبي ربيعة الأيادي عن الحسن بن أنس بن مالك رضي الله عنه. قال ابن جوزي في العلل المتناهية (٢/ ١٠٠): «هذا حديث لا يصح، وأبو ربيعة اسمه: زيد بن عوف، ولقبه: فهد، قال ابن المديني: ذاهب الحديث، وقال الفلاس ومسلم بن الحجاج: متروك الحديث».

أَحَدُ الَّذِينَ بَايَعُوا مَحْتَهَا»^(١)، وكانوا أكثر من ألف وأربعمئة الذين بايعوا بيعة الرضوان، وفي هذا شهادة من النبي ﷺ أنهم لا يدخلون النار، أو أنهم من أهل الجنة؛ لأن من لم يدخل دخل الجنة، ولا بد.

وكذلك أهل بدر الذين عددهم ثلاث مئة وبضعة عشر؛ قد ثبت أن النبي ﷺ قال: «لَعَلَّ اللّٰهَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»^(٢)، فمثل هؤلاء إذا كان الله قد غفر لهم، فذلك دليل على أنهم من أهل الجنة. وبقية الصحابة رضي الله عنهم، يُرجى لهم الخير؛ وذلك لسبقهم وأعمالهم الصالحة، وقد أنزل الله فيهم آيات تدل على سبقهم وتدل على فوزهم، قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ السَّابِقِينَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]؛ المهاجرون: الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، والأنصار: الذين أسلموا في المدينة، والذين اتبعوهم بإحسان: الذين أسلموا فيما بعد.

وبقي أن نقول: وردت أحاديثُ أيضًا في تغليب الرجاء، وأن أهل التوحيد لا يدخلون النار، وفي حديث عتبان بن مالك ؓ: أن رسول الله ﷺ ذكر عنده رجل يقال له مالك بن الذخشم، فقال بعض الحاضرين: ذلك منافق، فقال:

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩٦) من حديث جابر ؓ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤) من حديث علي بن أبي طالب ؓ.

«أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟»، قالوا: إنه يقول ذلك وما هو في قلبه، قال: «لَا يَشْهَدُ أَحَدٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَيَدْخُلَ النَّارَ أَوْ تَطْعَمَهُ»^(١).

وكذلك من حقق التوحيد، كما قال النبي ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»^(٢).

فهذه أيضًا تزكية من الله، وشهادة من رسوله ﷺ بأن من أتى بهاتين الشهادتين على الحقيقة، وشهد بالجنة والنار، وشهد بالبعث بعد الموت، وشهد بما أخبر به الله تعالى، وكانت تلك الشهادة عن يقين وعن عقيدة راسخة فإنها تثمر العمل؛ فشهادة أن لا إله إلا الله تثمر طاعة الله وعبادته، وشهادة أن محمدًا رسول الله تثمر أتباعه وتعظيم سنته، وتقليده والسير على منهجه، وأثمرت شهادة أن الجنة حق طلبها والعمل لها، وكذلك شهادة أن النار حق أثبتت الحرب منها، والحرب من الأسباب التي توقع فيها، وكذلك العمل الصالح الذي يسبب أن صاحبه يدخل الجنة على ما كان من العمل، وهناك أحاديث كثيرة تدل على أن الأعمال الصالحة قد رُتب عليها دخول الجنة، وهناك أيضًا أحاديث كثيرة معروفة

(١) أخرجه مسلم (٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨) من حديث عبادة بن الصامت ؓ.

رتب عليها دخول النار، ولكن يظهر أن ذلك الدخول لأجل ذلك الذنب ثم بعد التمهيد من ذلك الذنب الذي لم يصل بصاحبه إلى الشرك، وإلى الحكم بخلوده في النار، فيعذب بقدر ذنبه، ثم يخرج من النار، وعليه تُحمل أحاديث الشفاعة التي بين رسول الله ﷺ فيها أنه يشفع في أهل (لا إله إلا الله)، وأنه يخرج من النار أهل الإيمان بالله، ولا يبقى في النار إلا مَنْ وجب عليه الخلود وحبس القرآن، وهم الكفرة والملاحدة والمشركون ونحوهم.

إذا فنحن نحكم حكماً عاماً ونقول: أهل التوحيد وأهل الإسلام وأهل الإخلاص وأهل العمل؛ هؤلاء نرجو لهم الجنة، والله تعالى لا يخيب رجاء المؤمنين، وأهل الكفر وأهل الشرك وأهل الزندقة والنفاق؛ هؤلاء نعلم أن الله تولى بهم بالنار، ونخاف عليهم.

أما أهل الكبائر فنخاف عليهم ونرجو لهم رحمة الله، نرجو أن الله تعالى يرحمهم وهو واسع الرحمة، ولكن نخاف أن يعذبهم؛ ذلك لأن عذاب الله شديد، وأنه سبحانه قد توعد بالعذاب على ما دون ذلك، ووعد بالثواب على أعمال قليلة. فنرجو لهؤلاء دون أن نجزم أنهم من أهل الجنة ولو لم يكن عندهم كبائر، ونخاف على هؤلاء دون أن نجزم لهم بالنار ولو كان عندهم كبائر، فنخاف على المذنب، ونرجو للمحسن، وهذه من عقائد أهل السنة.

قال الطحاوي:

وَلَا نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِكُفْرٍ وَلَا بِشِرْكِ وَلَا بِبِنْفَاقٍ، مَا لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ،
وَنَدَّرُ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

قال الشارح:

لِأَنَّا قَدْ أَمَرْنَا بِالْحُكْمِ بِالظَّاهِرِ، وَنُهَيْتَنَا عَنِ الظَّنِّ وَاتِّبَاعِ مَا لَيْسَ لَنَا بِهِ عِلْمٌ. قَالَ
تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرَكُم مِّن قَوْمٍ﴾ الآية [الحجرات: ١١]، وقال
تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ الآية
[الحجرات: ١٢]. وقال تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ
كُلٌّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ الآية [الإسراء: ٣٦].

قال الشيخ:

وهذا أيضًا يقتضي أننا لا نتخبط بجهل، ونقول في المسلم بغير يقين؛ لأن
المسلمين لهم ظواهر وبيواطن، والحكم للمسلم على الظاهر أيضًا، والمعاملة له على
الظاهر، فمن أظهر لنا خيرًا فإننا نحسن الظن به، ومن أظهر لنا شرًا فإننا نسيء
الظن به. وزوي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «إِنَّ
أَناسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالْوَحْيِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَإِنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ، وَإِنَّمَا
نَأْخُذُكُمْ الْآنَ بِمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا أَمِنَاهُ وَقَرَّبْنَاهُ، وَكَانَ لَيْسَ

إِلَيْنَا مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ، اللَّهُ يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءًا لَمْ نَأْمَنَّهُ وَلَمْ نُصَدِّقْهُ، وَإِنْ قَالَ: إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ^(١). فجعل الحكم على ما يظهره الإنسان.

ومما يدل على ذلك أيضًا حديث عبيد الله بن عدي بن الخيار رضي الله عنه: أن رجلاً استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في قتل رجل من المنافقين، فجهر النبي صلى الله عليه وسلم بكلامه وقال: «أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟»، قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا شَهَادَةَ لَهُ، قَالَ: «أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَبِي رَسُولُ اللَّهِ؟»، قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا شَهَادَةَ لَهُ، قَالَ: «أَلَيْسَ يُصَلِّي؟»، قَالَ: بَلَى وَلَا صَلَاةَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «أُولَئِكَ الَّذِينَ نُهَيْتُ عَنْهُمْ»^(٢). أي: أنه أمر بمعاملتهم بالظاهر ما داموا يعلنون الشهادتين، ويطعمون الصلاة إقامة ظاهرة، فليس لنا أن نتقب عن قلب أحدهم؛ لأننا لا ندري ما يكتنه.

وفي حديث ذي الخويصرة لما جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال له: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اتَّقِ اللَّهَ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم: «دَوَيْلَكَ، أَوْ لَسْتَ أَحَقَّ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ؟»، فَقَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رضي الله عنه: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ؟ فَقَالَ صلى الله عليه وسلم: «لَا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي»، قَالَ خَالِدٌ: وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنِّي لَمْ أَوْمَرُ أَنْ أَنْقُصَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ، وَلَا أَشُقَّ بُتُلُوسَهُمْ»^(٣)، يعني: أننا إنما نأخذهم بما يظهر لنا، فهذا أمر الله عز وجل.

(١) تقدم ترجمته (٣/٣٢٧).

(٢) تقدم ترجمته (٣/٣٨٨).

(٣) تقدم ترجمته (٣/٣٨٨).

ولمَّا قتل أسامة بن زيد رضي الله عنه رجلاً من المشركين بعدما قال: لا إله إلا الله؛ أنكروا عليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال: «أَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَقَتَلْتُهُ؟»، قال: قلت يا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السَّلَاحِ، قال: «أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا»^(١).

في هذه الأدلة ونحوها أن المعاملة تكون بالظاهر، سواء كان الظاهر خيراً أو شراً، فالذين يعملون الأعمال الخيرية نحبهم ونكل باطنهم إلى الله، والذين يظهرون الأعمال السيئة نبغضهم، ونكل أمر قلوبهم إلى الله تعالى.

وكثيراً ما ننكر على الذين يظهرون المعصية؛ فمثلاً الذي تراه يخلق لحيته، أو تراه يشرب الدخان، أو يسبل ثوبه، أو يتكاسل عن الصلاة، أو يقذف ويسب ونحو ذلك فتنكر عليه؛ فيقول لك: العمل على ما في القلوب، قلبي طاهر، إذا كان قلبي نقياً فلا عبرة بما أفعله، العبرة ليست بالمظاهر. وهذا ليس صحيحاً؛ فنحن لا ندري ما باطنك؛ لأن باطنك خفي. نحن نعاملك بما أظهرت لنا، وهو عملك بهذه المعاصي، وإعلانها دليل على استخفافك بأمر الله، ودليل على تهاونك بعقوبة الله، وتهاونك بنظر الله، ودليل على أن في قلبك محبة لهذه المعاصي، وأما كون قلبك نقياً وكونك مؤمناً ونحو ذلك، فهذا ليس إلينا، بل إلى الله عز وجل.

وأما إذا أظهر لنا الإنسان التقى والورع، ورأيناه يحافظ على العبادات، ولم نسمع منه شيئاً يقدح في عدالته أو ديانته، فإننا نحبّه، وليس لنا أن نتبّع أسراره الخاصة، ولا أن نبحث عن خفاياه، ولا أن نظنّ به الظنون السيئة التي حذرنا الله

(١) أخرجه مسلم (٩٦) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

منها، فقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ الآية [الحجرات: ١٢]. أي: لا تقولوا: يمكن أن فلانًا منافق، لا ندرى ما إيمانه، هلّم بنا نتجسس عليه، ولنستمع كلامه في خفيته وفي سرّه، ليس ذلك إلينا، ما دام لم يظهر سوءاً، فإننا نعامله بما أظهر، ولا نقول: إن باطنه خبيث، وإنه يسرّ كذا وكذا، وكذلك لا نتكلّم فيه قدحاً بغير علم، فندخل في المخالفة التي حذرنا الله منها بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عِنْدَ مَسْئُولٍ﴾ [الإسراء: ٣٦]، فقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾: أي لا تتبع ما ليس لك به علم، فتتكلّم بسوء أو تستمع إلى سييء، أو تنظر إلى عورة ليس لك النظر إليها، أو تظنّ ظناً سيئاً، إذا تسمّعت إلى حديث قوم وهم لا يحبّون أن تسمع، وتقول لعلّي أن أسمع منهم ما يدلّ على بغضهم، وعلى صدّهم عن الإسلام، نقول: ليس لك ذلك، وقد جاء الوعيد على لسان النبي ﷺ لمن يفعل ذلك، فقال ﷺ: «مَنْ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ أَوْ يَفْرُونَ مِنْهُ صُبَّ فِي أُذُنِهِ الْأَنْكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١). أما إذا أظهرنا ذلك علناً، فإنّ لك أن تشهد به، وهذا هو ما وجد من الصجابة رضي الله عنهم، فإنّ الذين عرّف نفاقهم ما عرف إلا لما أعلنوه.

قد يُقال: إنّ هذا قد يكون سبباً في كثرة المنكرات؟ ونقول: مادامت المنكرات خفية، فلسنا مسؤولين عنها، لكن إذا رأينا علامات ظاهرة، مثل أن نرى بيوتنا

(١) أخرجه البخاري (٧٠٤٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

يظنّ أنها بيوت دعارة، يتوافد إليها أناس مشكوك فيهم، فإنّ لنا أن نتحقّق.
دين الإسلام يحثّ على التمسك بالسنة، ويحثّ على الاجتماع على العقيدة
السلفية، وينهى عن التفرّق والتعادي والتقاطع، ويأمر بالتمسك بالصرّاط
المستقيم، والأدلة على ذلك واضحة ظاهرة، استدلال الشارح بقول الله تعالى:
﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، أمر بالاتباع، وأمر
بالتمسك بالصرّاط المستقيم الذي أمرنا الله بأن ندعوه به في صلاتنا بقولنا:
﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، وهو الطريق الذي سارت عليه الأمة
الإسلامية، ونهجه أهل السنة، وأمر الله تعالى بالسير عليه، وبالتمسك به، وأمر
النبي ﷺ بالتمسك به أشدّ ما يكون، وبالعضّ عليه بالنواجذ، التي هي أقاصي
الأسنان، وهذا دليل على أهميّة السير على هذا الصراط السويّ.

وينهى الإسلام عن التفرّق والاختلاف؛ لأنّ في الاختلاف تعادٍ، فمتى
اختلفت وجهات المسلمين، فكانت طائفة تذهب إلى هذا، وطائفة تذهب إلى
هذا، وهذه تبدع هذه، وهذه تضلل الأخرى؛ لم يكونوا مجتمعين على الحقّ، ولم
يحصل بينهم التعاون على البرّ والتقوى، بل خيف عليهم أن يشنط عليهم
عدوّهم ويتعلّب عليهم فلا يقاومونه لاختلاف وجهاتهم، ولاختلاف أنظارهم،
فالله تعالى ينهى عن التفرّق كثيراً، فيقول تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَرُوا
وَأَخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، ويقول تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا
بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وينهى أيضاً عن الاختلاف، كما في

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا ﴿[الروم: ٣١، ٣٢]، أي: أحزابًا، فيذهب كل حزب إلى رأي يتشيع له، يعني: يتعصب له، ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وبكل حال، فإذا عرفنا أن الإسلام يأمر بالاجتماع، فهذا الاجتماع لا بد أن يكون على السنة، وعلى الصراط السوي والطريق المستقيم. أما إذا كان المجتمعون اجتمعوا على ضلالة أو بدعة، فإن اجتماعهم هذا كإلّا شيء؛ وذلك لأنهم تركوا الحق جانبًا، وأعرضوا عن صراط الله الذي أمر بالتمسك به، وبسؤاله، وهو الذي سارت عليه الأمة الإسلامية، وهو صراط المنعم عليهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

كثيرًا ما تأتي الأدلة بالحث على الجماعة، وكثيرًا ما نسمع الخطباء يحثون على الجماعة ويقولون: عليكم بالجماعة، فإن يد الله مع الجماعة، أو: فإن يد الله على الجماعة. المراد بالجماعة هنا: جماعة الإسلام، الذين يجتمعون على قول صحيح سليم، ليس فيه خطأ ولا خلل. هؤلاء هم الجماعة.

إذا جاءت النصوص من الكتاب والسنة تحث على التمسك بالجماعة، وتنهى عن الفرقة والاختلاف، وتحث على أن يصبح المسلمون كلهم جمعًا، وأن الذي يشدّ منهم فإنه في سبيله إلى الهلاك، تنخطفه الشياطين، ويصير من نصيبها

وتغويه. كما أن الغنم إذا كانت مجتمعة فإن الراعي يراقبها ويرعاها، فإذا ابتعدت واحدة وغفل عنها الراعي، جاء السبع فأكلها. وكذلك جماعة المسلمين.

ونعرف أن أهل البدع قد يكونون جماعات كثيرة، وقد يكون لهم قوة وكثرة واجتماعات، حتى قد يتفوقوا في بعض الأحيان على أهل السنة، وقد يزيدون عليهم عددًا أو عدة أو قوة، ولكن هل يقال إنهم على الجماعة؟ أو هل يقال: إنهم أهل الجماعة؟ أو هل يقال: إنهم أهل السنة؟ ليس كذلك. بل هم أهل فرقة، وهم أهل بدعة، وهم أهل ضلالة، ولو كثرت عددهم، ولو كثرت جماعاتهم، ولو حصلت لهم قوة معنوية أو حسيّة، فإنهم ليسوا من أهل الجماعة، وليسوا من أهل السنة.

أهل السنة والجماعة الذين هذه أحوالهم، هم من كان على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وهم يقلّون ويكثرون، وأحيانًا يتمكّنون ويُمكن الله لهم، ويرجع ضالّهم ويرشد غاويهم، فيكثرون على الحقّ ويتمسّكون به، ويسرون عليه، وأحيانًا يكثر أعداؤهم فيضلّون الخلق، ويشتتون الجماعات، ويقلّ المتمسّكون بالسنة، ويصيرون أفرادًا لا يعرفون، وربّما يستخفون بمذهبهم وربّما يكتونهم ولا يجهرون به، ومن جهر به أوذي وطرده واضطهد وسجن وشرّد، وهو مع ذلك على السنة وعلى العقيدة وعلى التوحيد وعلى الدين الإسلامي وعلى الصراط المستقيم، ولكن إذا قويت البدع وانتشرت المنكرات في بعض البلاد، وتسلّط أهلها على الحقّ، استضعفوا أهلهم وساموهم سوء العذاب، ولكن التصرّ لهم والتمكين والعاقبة للتقوى، فإذا صبروا واحتسبوا كان ما أصابهم في ذات الله تعالى وفي دينه رفعاً لدرجاتهم وإعظاماً لأجرهم.

وعلى هذا نقول: إن ما يحصل في هذه الأزمنة من اضطهاد لأهل الحق، وإذلال لهم، واتهام لهم بالثورات والانقلابات على الدول ومطاردتهم في الأسواق والأماكن وكل من رؤي متمسكاً بالسنة، وعاملاً بها أدخل السجن وضرب وجلد، وفرضت عليه الضرائب التي تثقل كاهله، وما أشبه ذلك. كما هو موجود في بعض الدول التي تنتمي إلى الإسلام. هذا لا يدل على أنه ليس على حق، بل هو على حق، وإذا صبر واحتسب كان ذلك أعظم لأجره، ولا يدل كثرة تلك الجماهير التي خالفت الحق، وتلك الأمم وتلك الشعوب وتلك الدول التي أظهرت خلاف الحق، وانتهجت الباطل؛ لا يدل ذلك على أنهم على حق وصواب، ولو كثرت عددهم.

فالعبرة ليست بالكثرة؛ إنما العبرة بالإصابة، والعبرة بالحق لمن كان مصيباً للحق متمسكاً به، هذا هو الذي من أهل السنة والجماعة.

قال الطحاوي:

وَلَا تَرَى السَّيْفَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَّا مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ السَّيْفُ.

قال الشارح:

فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَجِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، إِلَّا بِأَحَدِي ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمَفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»^(١).

قال الشيخ:

لَا يَجُوزُ قِتَالُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ، إِلَّا مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ الْقِتْلُ؛ لِكُفْرِهِ أَوْ لِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ، مِثْلُ مَا ذُكِرَ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، فَإِنَّهُ ﷺ أَخْبَرَ بِأَنَّهُ لَا يَجِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ الشَّهَادَتَيْنِ، وَيُوحِدُ اللَّهَ وَلَا يَعْبُدُ غَيْرَهُ، وَيَتَّبِعُ النَّبِيَّ ﷺ إِلَّا بِأَحَدِي ثَلَاثِ خِصَالٍ:

الْأُولَى: «الثَّيِّبُ الزَّانِي»، الَّذِي قَدْ زَنَى وَكَانَ قَدْ تَزَوَّجَ زَوْجًا حَلَالًا، فَعَدَلَ

عَنِ الْحَلَالِ إِلَى الْحَرَامِ، فَإِنَّهُ يُقْتَلُ بِالرَّجْمِ، وَهُوَ حُدُّهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ.

الثَّانِيَّةُ: «وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ»، إِذَا قُتِلَ مَتَعَمَّدًا، جَازَ لِأَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ أَنْ يَقْتُلُوهُ

قِصَاصًا؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وَقَوْلُهُ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٨٧٨)، وَمُسْلِمٌ (١٦٧٦) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ.

تعالى: ﴿وَكُنِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]. إلى آخره.
 الثالثة: «والتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»، الذي ظهر عليه الارتداد،
 وفارق جماعة المسلمين، وترك الدين الحنيف، فممثل هذا داخل في الردة في قوله
 ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»^(١).

(١) تقدم تخريجه (٦٦٤/٣).

قال الطحاوي:

وَلَا تَرَى الْخُرُوجَ عَلَى أَيْمَتِنَا وَوُلاةِ أُمُورِنَا، وَإِنْ جَارُوا، وَلَا نَدْعُو عَلَيْهِمْ،
وَلَا نَنْزِعُ يَدًا مِنْ طَاعَتِهِمْ، وَنَرَى طَاعَتَهُمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَرِيضَةً، مَا لَمْ
يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَةٍ، وَنَدْعُو لَهُمْ بِالصَّلَاحِ وَالْمَعَاوَةِ.

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ، وَأَطِيعُوا أَيْمَانَكُمْ﴾
[النساء: ٥٩]، وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ،
وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يُطِيعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى الْأَمِيرَ
فَقَدْ عَصَانِي»^(١).

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنَّ خَالِي أَوْصَانِي أَنْ أَسْمَعَ وَأُطِيعَ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا
حَبَشِيًّا جُنَّحَ الْأَطْرَافِ»^(٢). وَعِنْدَ الْبُخَارِيِّ: «وَلَوْ لِحَبَشِي كَانَ رَأْسَهُ زَبِيبَةً»^(٣).
وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا: «عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ،
إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ»^(٤).

(١) تقدم تخرجه (٦٥٢/٢).

(٢) أخرجه مسلم (٦٤٨).

(٣) برقم (٦٩٦) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٧١٤٤)، ومسلم (١٨٣٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

قال الشيخ:

يتضمن هذا الكلام وهذه الآية وهذه الأحاديث وجوب السمع والطاعة لأئمة المسلمين وولاية أمرهم، الذين ولّاهم الله عليهم، والذين جعل الله تعالى لهم يدًا وسلطانًا، يتولون بذلك أمور المسلمين، فصار لهم ملك ولهم سلطة، فيجب على رعيّتهم أن يطيعوهم، ولا يجوز الخروج عليهم، ونبذ بيعتهم ونقضها، وتكفيرهم وحث الناس على الخروج عليهم، ولو عملوا ما عملوا من قسوة أو شدة أو ما أشبه ذلك.

فإن الخروج عليهم يسبب مصائب وفتنًا ومشاكل كثيرة، يكون من آثارها كثرة القتل، وإراقة الدماء، والإضرار بالمسلمين وما أشبه ذلك، وهذا حاصل كما هو واقع في كثير من سبق، فإن الخوارج لما خرجوا على علي عليه السلام كان خروجهم سببًا لقتلهم، وسببًا لوقوع الفتنة منهم، فهذه الفتنة سببها نبذ الطاعة ونقض العهد، كذلك أيضًا لما بويع يزيد بن معاوية خرج عن طاعته بعضهم كأهل المدينة وأهل مكة، فسبب ذلك أنه أرسل جيشًا إلى أهل المدينة فقتلوا منهم مقتلة عظيمة في وقعة تسمى (وقعة الحرّة)، بسبب عدم طاعتهم وسمعهم لولي الأمر الذي تولى أمر المسلمين؛ وكذلك لما تمت البيعة لعبد الملك قبل ذلك حصل قتال، وفتن كثيرة، كما في وقعة (مرج راهط) حيث قُتل فيها خلق كثير، حتى تم الأمر لمروان بن الحكم، ولما تم الأمر له مكث أيامًا أو أشهرًا، ولما مات تولى ابنه عبد الملك، ولما تولى خرج عن طاعته عبد الله بن

الزبير - رضي الله عنهما - الذي استولى على الحجاز والعراق، ولما خرج عن طاعته أرسل إليه الحجاج، فحاصره في مكة التي هي أم القرى، وحصل بذلك فتن ومقتلة عظيمة، وكان الأولى أن تتفق الكلمة، إما على بيعة ابن الزبير رضي الله عنهما، وإما على بيعة عبد الملك، وكلاهما من قريش من صلبيتهم، وقد ولاهم الله تعالى ولاية، وكان أيضًا من آثار عدم طاعة عبد الملك أن قاتل أهل العراق، فقتل مصعب بن الزبير، وقتل معه خلقًا بسبب عدم مبايعته له.

كذلك الذين خرجوا على الحجاج وبايعوا ابن الأشعث، وقد اجتمع مع ابن الأشعث قدر مائة وعشرين ألفًا، ولم يبق مع الحجاج إلا نحو ثلاثين ألفًا، ومع ذلك انتصر عليهم الحجاج، وأحصي الذين قُتلوا من هؤلاء الذين بايعوا ابن الأشعث ما يقرب من ثمانين ألفًا، ولا شك أنها مصيبة سببها الخروج على الأئمة وعدم السمع والطاعة لهم.

وكذلك أيضًا لما تمت البيعة ليزيد في الشام أرسل عبيد الله بن زياد فاستولى على العراق، وكان أهل العراق يحبون الحسين، فكتبوا إليه يطلبون منه أن يأتي حتى يبايعوه خليفة عليهم، ولما جاءهم وإذا الأمر قد تم ليزيد واستحكمت ولاية العراق كلها لابن زياد، فطلبوا من الحسين أن يأتي إلى ابن زياد ويبايعه على السمع والطاعة ليزيد، ولكن امتنع من ذلك وقال: «اتركوني أذهب إلى يزيد أو أرجع إلى مكة» ولم يتركوه، وكان ذلك من أسباب أنه قُتل ﷺ بسبب هذه الفتنة.

فكل ذلك من أسباب الخروج على الأئمة، ولما استخلف أبو جعفر

المنصور الذي كان العراق على المسلمين خرج عليه محمد بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب، ويسمى (النفس الزكية)، وادعى أنه المهدي، فأرسل إليه المنصور جيشاً، وكان ذلك سبب قتله، وقتل كثير ممن معه ممن يابعه، وجاء أخوه أيضاً الذي هو العباس ومعه جيوش كثيرة من البصرة وهُزموا أيضاً، وقتل الكثير منهم، كل ذلك بسبب نزع اليد من طاعتهم، فطاعتهم من طاعة الله عز وجل، كما أنه يجب طاعة الله، فكذلك يجب طاعة ولاة الأمور، إلا أن يأمرُوا بمعصية.

وندعو لهم بالصلاح والمعافاة، نقول: اللهم أصلح أئمة المسلمين، واجعلهم هداة مهتدين، ونسمع لهم ونطيع، ولا نخرج عليهم، ولا نكفرهم ما داموا يحكمون بشرع الله، فإن وجودهم سبب في أمن البلاد، وسبب في البعد عن الاختلاف والاضطراب والنهب والسلب، وكون القوي يأخذ الضعيف ونحو ذلك، وقد أمر الله تعالى بطاعتهم بقوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، أي: ولاة الأمر، فيدخل في ذلك الحكام والعلماء ونحوهم.

وكذلك الحديث الصحيح وهو قوله ﷺ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يُطِيعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي». الأمير هو: الذي يوليه النبي ﷺ، أو يوليه أحد من الأمراء، أو الملوك ونحو ذلك. إنه يُسمع له ويُطاع، ولو كان ضعيفاً أو نازل القدر أو نحو ذلك.

كذلك حديث أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: «إِنَّ خَلِيفَتِي»، يعني: الرسول صلى الله عليه وسلم «أَوْصَانِي أَنْ أَسْمَعَ وَأَطِيعَ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا مُجَدِّعَ الْأَطْرَافِ»، أي: اسمع لولاة الأمور، ولو كان ذلك الولي عبدًا مملوكًا حبشيًا، والعادة أن الحبشة يكون لون وجوههم أسود؛ ولذلك قال في بعض الروايات: «وَلَوْ لِحَبَشِيٍّ كَمَا نَرَأْسَهُ زَيْبِيَّةً»، أي: شعر رأسه يتجدد كأن كل شعرة زيبية، أي: واحدة من الزيب، فأمر بأن يُسمع ويُطاع لولاة الأمور، ولو كان ذلك الوالي ناقص القدر عند العامة.

وهكذا أيضًا حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ»، إلا أن يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا تَسْمَعُ وَلَا طَاعَةَ»، أي: أن المسلم عليه أن يسمع ويطيع إذا كان تحت ولاية ولي مسلم أو أمير من أمراء المسلمين، فيسمع له ويطيع، إلا إذا أمر بمَعْصِيَةٍ، فإذا أمر بمَعْصِيَةٍ كترك صلاة - مثلاً - أو فطر في رمضان بغير عذر، أو ارتكاب معصية بفعل فاحشة أو نحو ذلك، فلا يجوز طاعته في ذلك، إنما الطاعة في المعروف.

قال الشارح:

وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ قَالَ: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ، مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَفِيهِ دَخْنٌ»، قُلْتُ: وَمَا دَخْنُهُ؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَسْتَنْتُونَ بِغَيْرِ سُنتِي، وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هُدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ»، فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا، يَتَكَلَّمُونَ بِاللِّسَانِ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا تَرَى إِذَا أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: «تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ»، فَقُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعْضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»^(١).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيُضْمِرْ، فَإِنَّهُ مَنْ فَسَّرَقَ الْجَمَاعَةَ شِسْرًا فَسَمَاتَ، فَمِيتَسَهُ جَاهِلِيَّةً»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩).

وفي رواية: «فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ»^(١).

قال الشيخ:

هكذا كان حذيفة رضي الله عنه يسأل عن الفتن، وعن الخلافات التي قد تقع في هذه الأمة مخافة أن يدركها، فيسأل: كيف أتخلص من تلك الفتن وتلك الشرور إذا أدركتني، فأخبر أنهم كانوا قبل الإسلام في جاهلية وشر، وفتن وخلافات وشرك ومعاص.

قوله: (فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ)، الذي هو الإسلام، وهذا الدين الذي جمعنا الله تعالى عليه، وهدانا بهذا النبي الكريم، حتى صرنا ندين بهذا الإسلام. سأل: (فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟)، أي: هل بعد هذا الخير الذي نحن فيه يوجد شر في المستقبل؟ فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن هناك شر، ولعل ذلك إشارة إلى ما حصل من الخلافات في آخر ولاية علي رضي الله عنه، وكذلك خلافة بني أمية، فقد حصل فيها شرور وفتن وخلافات، وإن كان فيها الجهاد قائماً، وكذلك أيضاً فيها الإسلام ظاهر وقائم، ولكن هذه الفتن تعتبر شراً.

ثم سأل: (هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟)، فأخبر أنه هناك خير، ولكن فيه

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (١/٣٢٥)، والطبراني في الأوسط (٣/٣٦١)، وفي الكبير (١٠٦٨٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه أبو داود (٤٧٥٨)، وأحمد (٥/١٨٠)، والحاكم (١/١١٧)، والبيهقي (٨/٢٥٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

دَخَن، وفسر دَخَنَهُ بأنه قوم يستنون بغير السنة النبوية، يتركون السنة ويجعلون لهم نظماً غير السنة النبوية، ويهدون بغير الهدي النبوي، ثم قال: (تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ). الدخن هو: الدخان، أي ليس خيراً خالصاً بل يوجد فيه قذارة كالدخان؛ كالحقد والبغضاء والتفرق، فيكون ذلك مما يغيره، حيث إنهم يتركون الهدي النبوي ويهدون بغيره.

ثم سأل: (هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرُ مِنْ شَرِّ؟)، فأخبر أنه نعم، دعاة شر على أبواب جهنم، (مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا)، ولعله يشير إلى رؤوس المبتدعة؛ كالجهمية والمعتلة والرافضة ونحوهم، فإنهم يدعون إلى النار، يدعون إليها بأفعالهم وبأقوالهم، فحذر منهم، ووصفهم النبي ﷺ بأنهم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، أي: باللغة العربية، فهم عرب، كما هو الحاصل فيمن خرج منهم؛ كواصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وكذلك قبلهم وبعدهم الجهمية وأتباع الجهم، فهؤلاء يدعون إلى النار ومن أجابهم قذفوه فيها، وإن كانوا يظهرون أنهم على حق، وأخبر أنك إذا أدركت ذلك ولحقتهم (تَأْمُرُكُمْ بِلِهْجَةِ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَتِهِمْ)، أي: أكثريتهم، فإذا كانوا متفرقين لهم عدة أئمة، أو ليس لهم جماعة، وليس لهم إمام صالح، فإنك (تَعْتَزِلُ تِلْكَ الْفِرْقَ كُلَّهَا)، إذا لم تقدر على إصلاحها، ولو أن تعتزل تحت شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك.

كذلك حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شَبْرًا فَسَاتَ، فَمَيْتَهُ جَاهِلِيَّةٌ».

ألزمه أن يصبر على ما يكرهه من الأمراء والأئمة، ولا يخرج عن طاعتهم، ولا يفارق جماعة المسلمين، فإذا خرج عن طاعة المسلمين فكأنه خرج من الإسلام، وخلع ربة الإسلام من عنقه، والربة هي: الحبل أو الحيط الذي يُجعل في ربة الماعز ونحوه؛ ليحفظه حتى لا يشرد، فمثل الإسلام أنه رباط في عنق المسلم، ما دام أنه متمسك بالإسلام، فإنه يكون على الإسلام، فإذا خرج وخالف طاعة ولادة الأمور يمثل كأنه خرج من الإسلام، كأن الإسلام كان رباطاً في عنقه فخالعه وخرج عنه، وهذا - والعياذ بالله - يعتبر دليلاً على أنه ليس بمسلم، وهذا من الأحاديث الشديدة، أخبر بأنه يموت ميتة جاهلية، أي: كأنه من أهل الجاهلية الذين ليس لهم دين، أو دينهم محرف ليسوا على دين صحيح، فيكونون بذلك كالمرتدين والخارجين عن الإسلام، وفي حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - في الصحيح: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَأَتَتْهُ»^(١).

(١) تقدم تحريجه (٦٦٤/٣).

قال الشارح:

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا بُوِيعَ لِخَلِيفَتَيْنِ فَاقْتُلُوا الْآخَرَ مِنْهُمَا»^(١).

وَعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «خِيَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ، وَشِرَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ». فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ عِنْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ: «لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، أَلَا مَنْ وُلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ، فَرَأَهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَلْيَكْرِهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ»^(٢).

قال الشيخ:

يدل حديث أبي سعيد رضي الله عنه أنه لا يجوز لأحد أن يطلب البيعة وعلى المسلمين خليفة قائم بأمر الله، مصلح لأمر المسلمين، لا يُنتقد عليه شيء من المخالفات، بل يقيم شرع الله، ويحكم بالعدل، فالذي يفتات عليه ويعزله، ويقول: أنا أنا أولى بالخلافة منه فبايعوني، فبايعه أناس.

نقول: لاشك أن هذا الآخر قد يسبب فتنة، ويسبب قتالاً بين المسلمين،

(١) أخرجه مسلم (١٨٥٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٥٥).

فَيُقَاتِلُ مَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ قَدْ بَايَعُوا لِلْخَلِيفَةِ الثَّانِي، فَلِذَلِكَ هَذَا الْآخِرُ يُعْتَبَرُ قَدْ خَلَعَ طَاعَةَ الْخَلِيفَةِ الْأَوَّلِ، وَقَدْ خَرَجَ عَلَيْهِ، وَلَا شَكَّ أَنْ خُرُوجَهُ يُعْتَبَرُ فِسَادًا فِي الْأَرْضِ، فَلِذَلِكَ أَبَاحَ الشَّرْعُ قَتْلَ الْآخِرِ الَّذِي يُفَرِّقُ كَلِمَةَ الْمُسْلِمِينَ.

وحديث عوف بن مالك رضي الله عنه يخبر فيه صلى الله عليه وسلم بالأئمة الذين يتولون أمور المسلمين، فإذا كانوا يحبونهم، أي: يحبهم المسلمون، ويحبون رعيتهم، ويدعون لهم وهو معنى (وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ) أي: تدعون لهم، (وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ) أي: يدعون لكم، فهؤلاء خيار الأئمة الذين يحصل بهم نفع للبلاذ كبير، ويحصل بالإقامة معهم خير للمسلمين؛ لأنهم ينصرون الإسلام والمسلمين، ويؤمنون بالبلاذ، ويدعون إلى الخير، ويقيمون الصلاة، ويرغبون أهل الخير.

أما إذا كان أولئك الأئمة وولاة الأمور أشرارًا يبغضهم الرعية، وهم يبغضون رعاياهم، ويدعون عليهم باللعن والطرود والإبعاد من رحمة الله، وهم يلعنون أيضًا رعيتهم، فإن هؤلاء شرار ولو كانوا أئمة، ولكن لا يجوز عزلهم ولا قتالهم بالسيف؛ ولهذا قالوا: (أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ)، يعني: نخلع بيعتهم، ونثور عليهم ونقاتلهم؟ فمنع من ذلك، وقال: «لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ»، أي: ما داموا يقيمون الصلاة، وما داموا يؤمنون بالبلاذ، وما كانوا يصلون ويمكنون المسلمين من أداء الصلاة، فإنه لا يجوز قتالهم، ولا الخروج عليهم.

ثم أخبر بمن ولي عليه أحد الولاة من المسلمين، ثم رأى صلى الله عليه وسلم الولي فيه شيء من معصية الله، فلا يجوز له أن يخرج عليه، ولا ينزع يدها من طاعة،

ولا يخلع بيعته، وإنما عليه أن يكره ما يأتي من المعصية ويقول: اللهم إن هذا منكر، وأنا له منكرون، فلا تؤاخذنا بما يفعل. وبذلك يسلم من إقرارهم على المعصية، إذا لم يقدر على الإنكار عليهم أو التغيير الظاهر.

قال الشارح:

فَقَدْ دَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ عَلَى وُجُوبِ طَاعَةِ أَوْلِي الْأَمْرِ، مَا لَمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَةٍ، فَتَأْمَلْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، كَيْفَ قَالَ: ﴿أَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: وَأَطِيعُوا أَوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ؟ لِأَنَّ أَوْلِي الْأَمْرِ لَا يُفْرَدُونَ بِالطَّاعَةِ، بَلْ يُطَاعُونَ فِيهَا هُوَ طَاعَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَعَادَ الْفِعْلَ مَعَ الرَّسُولِ؛ لِأَنَّ مَنْ يَطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، فَإِنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَا يَأْمُرُ بِغَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ، بَلْ هُوَ مَعْصُومٌ فِي ذَلِكَ، وَأَمَّا وِلِي الْأَمْرِ فَقَدْ يَأْمُرُ بِغَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ، فَلَا يُطَاعُ إِلَّا فِيهَا هُوَ طَاعَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

قال الشيخ:

دل كتاب الله تعالى كهذه الآية: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، ودلت سنة النبي ﷺ كما في الحديثين السابقين قوله: «وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةِ»، على وجوب طاعة ولاية الأمور، وهم الأئمة الذين لهم ولاية، ولهم سلطة، ولهم تمكن. قوله: (مَا لَمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَةٍ)، أي: ما داموا إنما يأمرون بطاعة الله تعالى، ولا يأمرون بشيء من المعاصي والمحرمات. وكما أورد هذه الآية وفيها: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، نبه على أن طاعة الرسول واجبة على كل فرد، أخذًا من قوله - عز وجل -: ﴿أَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، هاهنا ولم يقل: (أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ)، وإن كان ورد ذلك في آيات أخرى، بل كرر الفعل

بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا﴾، وأما في الأمر بطاعة ولاة الأمر فلم يكرر الفعل، لم يقل: (وأطيعوا أولي الأمر منكم). يعني: يأتي بالفعل (أطيعوا)، وعلل الشارح ذلك بأن (أولي الأمر لا يُفَرِّدُونَ بِالطَّاعَةِ)، أي: لا يُطاعون في كل ما يأمر به.

قوله: (بل يُطَاعُونَ فِيهَا هُوَ طَاعَةٌ لِّهِ وَرَسُولِهِ)، أي: أنهم يُطاعون إذا أمروا بما هو طاعة أو مصلحة للعباد والبلاد، أما الرسول فإنه قال: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، أعاد الفعل مع الرسول؛ لأن الذي يطيع الله تعالى يلزمه أن يطيع الرسول؛ ولهذا قال تعالى في آية أخرى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، (فإن الرسول ﷺ لا يأمرُ بِغَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ)، أي: الذي يأمر به فإنه من طاعة الله ومن أمره ومن شرعه.

قوله: (فإنه معصوم في ذلك)، يعني: قد عصمه الله أن يأمر بغير طاعة الله، أما أولوا الأمر، فقد يأمر ولي الأمر بغير طاعة الله، أو بمعصية أو نحو ذلك، فلا يُطاع إلا فيما هو طاعة لله ورسوله، وقد نبه على ذلك العلماء - رحمهم الله - وتكلموا على هذه الآية وعلى ما يشبهها.

قال الشارح:

وَأَمَّا لَزُومُ طَاعَتِهِمْ وَإِنْ جَارُوا؛ فَلأنه يترتب على الخروج عن طاعتهم من
 المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم، بل في الصبر على جورهم تكفير
 السيئات، ومضاعفة الأجور، فإن الله تعالى ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا،
 والجزاء من جنس العمل، فعليتنا الاجتهاد بالاستغفار والتوبة وإصلاح العمل،
 قال تعالى: ﴿ وَمَا أَمْبَبَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾
 [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مْصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أِنَّا هَذَا
 قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ
 وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَخِيخٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩]، ﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا
 كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩]، فَإِذَا أَرَادَ الرَّعِيَّةُ أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ ظُلْمِ الأَمِيرِ
 الظَّالِمِ، فَلْيَتَرَكُوا الظُّلْمَ.

قال الشيخ:

تلزم طاعة ولاة الأمور ولو حصل منهم ظلم، ولو جاروا ولو تعدوا،
 ولو حصلت منهم مخالفات، ولا يجوز الخروج عليهم؛ ونزع طاعتهم، فإنه
 يترتب على الخروج مفسد كثيرة من: إراقة الدماء، واختلاف الكلمة، وكثرة
 الإضرار بالمسلمين، واضطهاد للصالحين وإضعاف لقرهم، ومنع لهم من
 الخير، ومنع لهم من الأعمال الصالحة، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

فيحصل من المفاسد أضعاف أضعاف ما يحصل من جور أولئك الأئمة، بل يجب الصبر على جورهم، فإن ذلك تكفير لسيئات الرعايا، وفيه مضاعفة للأجور، فيكفر الله تعالى بتسليطهم وصبر الرعية كثيرًا من السيئات، فيُضاعف الأجور للصابرين، ويعتقد الرعية أن الله تعالى ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا، وقد جاء في بعض الآثار: «كَمَا تَكُونُوا يُؤَلَّى عَلَيْكُمْ»^(١)، وهذا أمر مشاهد، فإذا صلح المسلمون، وأصلحوا أعمالهم، واستقاموا على طاعة الله، أصلح الله لهم ولآة أمورهم، وعاملوهم معاملة حسنة؛ ولهذا قال: (وَالْجَزَاءُ مِنْ جَنْسِ الْعَمَلِ).

فنقول: عليكم أيها الرعية أن تجتهدوا في الأعمال الصالحة، وأن تكثروا من الاستغفار في كل وقت، وأن تتوبوا إلى الله توبة نصوحًا؛ حتى يرفع الله عنكم جور الأئمة وظلمهم، وحتى يبدلكم بذلك أئمة صالحين، يرشدونكم ويساعدونكم، فقد أخبر الله تعالى أن المصائب تحصل بشؤم السيئات، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، أي: أن هذه المصيبة عقوبة على ذنوب اقترفتوها وكسبتها أيديكم، وما يعفو الله عنه من الذنوب ولا يعاجلكم بعقوبته أكثر وأكثر، فهو

(١) أخرجه ابن جميع في معجم الشيخ (١٤٩)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/٣٣٦) من حديث أبي بكره رضي الله عنه. وأخرجه البيهقي في الشعب (٦/٢٢) من طريق يحيى بن هاشم عن يونس بن أبي إسحاق عن أبيه، وقال: «هذا منقطع، وراويه يحيى بن هاشم وهو ضعيف».

یعفو عن كثير من المخالفات والسيئات.

وكذلك قال تعالى بعد قصة أحد: ﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَابْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا أَقْلٌ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]؛ وذلك لما أصابتهم مصيبة في أحد، وقتل منهم سبعون، ذكرهم الله بأنكم قد أصبتم مثلها - أي: في غزة بدر - فقتلتهم سبعين، وكذلك أسرتم منهم سبعين، فأصبتم مثلي ما أصابكم في هذا، مع أن هذا الذي حصل عليكم من هذه المصيبة هو من عند أنفسكم، وبسبب مخالفتكم، وجعل دليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ حتى إذا فشيئتكم وتمنزعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أركبكم ما تحبون^ط وبنكم من يريد الدنيا وبنكم من يريد الآخرة﴾ [آل عمران: ١٥٢]؛ وذلك لأن الرماة عصوا أمر الرسول ﷺ لما قال لهم: «إِنْ رَأَيْتُمُونَا نَحْطِفْنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَرَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَا هُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ»^١، ولكنهم لما رأوا أن المشركين قد انهزموا عند ذلك تركوا ذلك المكان، فجاءهم العدو من الخلف، فهذا معنى قوله: ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾، أي: بسبب عصيانكم.

وكذلك قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ

(١) أخرجه البخاري (٤٠٤٣، ٢٦٦٢) من حديث البراء بن عازب ؓ.

نَفْسِكَ ﴿ [النساء: ٧٩]، أي: أنها بسبب سوء عملك السيئات: يعني: أن العقوبات والمصائب بسبب الذنوب، فأصلح عملك، وأحسن العمل، وخف الله تعالى حتى يرفع عنك هذه السيئات، وهذه العقوبات التي قد يسلطها عليك، واعلم أنها كلها بقدر الله، ولكن لا بد من سبب، فالחסنات محض فضل، الله تعالى هو الذي تفضل بها، وهو الذي أعانكم على ذلك، وفتح عليكم، ومع ذلك قد يكون ذلك جزاء أعمال صالحة فعلتموها، وأما المصائب فإنها وإن كانت بقضاء الله وقدره ولكنها في الحقيقة بشؤم الذنوب، أو عقوبة على السيئات. وقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّبُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩]، أي: يسلط الله على الظالمين من ينتقم منهم، أو من هو أظلم منهم، كما قال بعض الشعراء:

وَمَا مِنْ يَدٍ إِلَّا يَدُ اللَّهِ فَوْقَهَا وَلَا ظَلَمٌ إِلَّا سَيْئِلِي بِظَالِمٍ^(١)

أي: أن هؤلاء الظالمين يسلط الله عليهم من هو أقوى منهم، وجاء أيضًا في الأثر عن الفضيل بن عياض أن الله تعالى يقول: «إِذَا عَصَانِي مَنْ يَعْرِفُنِي سَلَطْتُ عَلَيْهِ مَنْ لَا يَعْرِفُنِي»^(٢).

قوله: (فَإِذَا أَرَادَ الرَّعِيَّةُ أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ ظُلْمِ الْأَمِيرِ الظَّالِمِ، فَلْيَتَرَكُوا الظُّلْمَ)، أي: وليصلحوا أعمالهم، فكيفما تكونوا يولى عليكم.

(١) انظر: البداية والنهاية (٨/ ٢٧٤).

(٢) تقدم ترجمته (٣/ ٥٦٦).

قال الشارح:

وَعَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ: أَنَّهُ جَاءَ فِي بَعْضِ كُتُبِ اللَّهِ: «أَنَا اللَّهُ مَالِكُ الْمَلِكِ، قُلُوبُ الْمُلُوكِ بِيَدِي، فَمَنْ أَطَاعَنِي جَعَلْتُهُمْ عَلَيْهِ رَحْمَةً، وَمَنْ عَصَانِي جَعَلْتُهُمْ عَلَيْهِ نِقْمَةً، فَلَا تَشْغَلُوا أَنْفُسَكُمْ بِسَبِّ الْمُلُوكِ، لَكِنْ تَوَبُّوا أَعْطَفْتُهُمْ عَلَيْكُمْ»^(١).

قال الشيخ:

هكذا جاء هذا الأثر عن مالك بن دينار، وهو عالم من العلماء ومن ثقات التابعين، وهذا الأثر موقوف على مالك بن دينار، وقد رفعه بعضهم، ولكن الصواب أنه ليس بمرفوع، ويمكن أنه اطلع على بعض كتب الله المتقدمة فنقل ذلك منها، أن الله تعالى يقول: «أَنَا اللَّهُ مَالِكُ الْمَلِكِ»، الملوك كلهم تحت ملك الله تعالى.

قوله: «قُلُوبُ الْمُلُوكِ بِيَدِي»، يعني: قلوب الملوك وقلوب الرعايا بيدي، يعني: بيد الله تعالى، وتحت تصرفه وتقديره.

يقول: «فَمَنْ أَطَاعَنِي»، أي: وعملوا الصالحات «جَعَلْتُهُمْ عَلَيْهِ رَحْمَةً»،

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٧٢/٦) عن مالك بن دينار، قال: «قرأت في الحكيم أن الله تعالى يقول: ...» وساق الأثر. وأخرجه الطبراني في الأوسط (٩/٩)، وأبو نعيم في الحلية (٣٨٨/٢) عن وهب بن راشد عن مالك بن دينار عن خلاس بن عمرو عن أبي الدرداء مرفوعاً. قال الدارقطني في العلل (٢٠٥/٦): «وهب بن راشد مرفوعاً، جداً متروك، ولا يصح هذا الحديث مرفوعاً، والموقوف أشبه بالصواب».

بمعنى أنهم يكونون سبباً في الشفقة على الأمة، وعدم التشديد عليهم.

قال: «وَمَنْ عَصَانِي جَعَلْتُهُمْ عَلَيْهِ نِقْمَةً»، أي: يعذب العصاة بتسليط الولاة عليهم، فينتقمون منهم، وإن كان لا يقصدون بهذا الانتقام حق الله تعالى، ولكن هكذا العقوبة، يكونون عليه نقمة.

قوله: «فَلَا تَشْغَلُوا أَنْفُسَكُمْ بِسَبِّ الْمُلُوكِ»، أي: أنتم أيها الرعية لا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك، أي: تقولون إنهم ظلموا وأنهم جاروا.

قوله: «لَكِنْ تُوْبُوا أَعْظَفُهُمْ عَلَيْكُمْ»، أي: توبوا إلى الله تعالى وأصلحوا أعمالكم حتى يصلح أئمتكم، فكيفما تكونوا يُوبى عليكم، فإذا أطيعتم الله أعطفهم عليكم.

قال الطحاوي:

وَتَبِعُ السَّنَةَ وَالْجَمَاعَةَ، وَنَجْتَنِبُ الشُّدُوزَ وَالْخِلَافَ وَالْفُرْقَةَ.

قال الشارح:

السنة: طريفة الرسول ﷺ.

وَالْجَمَاعَةُ: جَمَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. فَاتَّبَاعُهُمْ هُدًى، وَخِلَافُهُمْ ضَلَالٌ.

قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا

بَيَّنَّ لَهُ الْهُدًى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ قُلَيْهِ مَا نُقُولُ وَنُصَلِّيهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا

عَلَيْهِ مَا نُقُولُ وَعَلَيْكُمْ مَا نَحْنُ بِمُحْسِنِينَ وَإِن تَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَآ أَلْبَسْهُمُ الشِّرْكَ﴾ [النور: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ

فَسَقَتْ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَمُ وَمَنْ كَفَرَ بِهِمُ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال

تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ

وَتَهُمْ فِي شَيْءٍ لَئِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

قال الشيخ:

في هذا حث المسلمين أن يتبعوا طريقة الرسول ﷺ، وأن يسيروا مع جماعة المسلمين الذين تمسكوا بسنته، وفسره بأن جماعة المسلمين هم الصحابة رضي الله عنهم، والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين، الذين تمسكوا بطريقتهم، وساروا على منهجهم، ولم يخالفوهم ولم يتدعوا في دين الله شيئاً لم يأذن الله تعالى به، فاتباع الصحابة وأتباعهم هدى وبيان، وخلافهم ومخالفتهم ضلال وجهل، وابتداع بما لم يأذن الله به.

ثم استدل بهذه الآيات:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، قال بعض العلماء: هذه الآية تسمى آية المحنة، أن الله امتحن بها الذين يدعون أنهم يحبون الله، وجعل لمحبة الله تعالى علامة، ألا وهي اتباع النبي ﷺ، والسير على طريقته، سواء كان في الأعمال، أو في الأقوال، أو في العقائد، أو ما أشبه ذلك، أن ذلك كله يجب اتباعه فيه، ويكون علامة على صدق الدعوة، ولهذا قال بعض العلماء: من ادعى محبة الله ولم يرافقه فدعواه باطلة. أي: هو كذاب، فلا بد أن الذي يقول: أنا أحب الله أن يطيع الله، والذي يقول: أنا أحب الرسول أن يطيع الرسول، ومتى أحب الله ورسوله وعمل بطاعته واتبع شريعته، أحبه الله؛ لقوله تعالى: ﴿يُحِبُّكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، فذكر فائدتين:

الفائدة الأولى: أن الله تعالى يجهم ويغفر لهم ذنوبهم.
والفائدة الثانية: أنهم يكونون من أتباع الرسول؛ ولأن الله تعالى يغفر لهم ويرحمهم.

الآية الثانية: قوله - جل وعلا -: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝ ﴾ [النساء: ١١٥]، هذا ضد ما كان عليه المسلمون، فالذين يشاققون الرسول وينازعونه ويخالفونه فيما جاء به مع أنه قد جاء بالهدى، وقد عرفوا الهدى، ويخالفون سبيل الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ويخالفون المؤمنين فهؤلاء يعاقبهم الله:

فأولاً: أنه يوليهم ما تولوا من هذه الشقاق ومن هذه المنازعات.
وثانياً: في الآخرة أنهم يصلون جهنم - والعياذ بالله - جزاء على مشاقتهم للرسول ومنازعتهم ومخالفتهم لما جاء به، وكذلك مخالفتهم سبيل المؤمنين والصالحين، ومن سار على نهجهم.

الآية الثالثة: قوله - عز وجل -: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝ ﴾ [النور: ٥٤]، فأمر الله بطاعته ثم بطاعة الرسول؛ لأن الرسول لا يأمر إلا بما هو طاعة لله تعالى، وأخبر بأنهم إذا تولوا وأعرضوا ولم يتقبلوا ولم يطيعوا الله ورسوله، فإنما عليك ما حُمِّلت أيها الرسول، يعني: حيث إنك دعوتهم

وبلغتهم، وعليهم ما حملوا، ﴿عَلَيْهِ مَا حُمِلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِلْتُمْ﴾، أيها الرعية، أي: عليكم ذنوبكم التي حملتموها، وإذا أطعتم هذا الرسول فإنكم تكونون من المهتدين الذين يسيرون على هدى، مع أن الرسول ﷺ ليس عليه إلا البلاغ المبين، وقد شهد له الصحابة أنه بلغ الصحابة أنه بلغ الصحابة المبين.

الآية الرابعة: قوله - عز شأنه -: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وهذه الآية من الوصايا العشر التي في سورة الأنعام، أمر الله تعالى باتباع هذا الصراط، والمراد به دين الإسلام الذي هو صراط مستقيم لا اعوجاج فيها، أي سيروا عليه واتبعوه ولا تختلفوا، وقد ثبت أنه ﷺ خَطَّ خَطًّا، فَقَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ - أي: خطوط ملتوية - ثُمَّ قَالَ: «وَهَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»^(١)، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾، أي: الطرق المنحرفة التي تخالف طريق الله وصراط الله، فإذا فعلتموه كان حريًا أن تتفرق بكم تلك السبل، وتصدكم عن سبيل الله، وعن صراطه، فهذه وصية الله لكم لعلكم أن تكونوا من المتقين.

الآية الخامسة: قوله - جل وعلا -: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (١١١٠٩)، وأحمد (٤٣٥/١)، وابن حبان (١٨٠/١)،

والحاكم (٢٣٩/٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

بَعْدَ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ [آل عمران: ١٠٥]، أي: لا تتفرقوا وتكونوا نَحْلًا وِفْرَقًا مضطربة مختلفة بعدما جاء تكم البيئات، وبعدهما جاءكم الحق، فإنكم إذا فعلت ذلك ضللتهم، والذين يفعلون ذلك يتوعدهم الله بأن لهم العذاب العظيم.

الآية السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي

شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقرأها بعضهم^(١): ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَارَقُوا دِينَهُمْ﴾، أي: الدين الصحيح، أو فرقوه أي: جعلوا منه ما هو واجب الطاعة وما ليس بواجب الطاعة، فقبلوا بعض الأحكام، كالتي تتعلق بالأحوال الشخصية، ولم يقبلوا ما فيه من الحدود، وما فيه من العبادة، فهؤلاء فرقوا دينهم، ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾، أي: كانوا أحزابًا، وكانوا فرقًا متفرقة. نزه الله نبيه منهم، فقال: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾، أي: أنت بريء منهم، وهم بريئون منك، فلا يضرك ما كانوا عليه، إنما أمرهم إلى الله، فالله تعالى هو الذي يتولى حسابهم، ثم ينبئهم بأعمالهم التي كانوا يفعلونها في الدنيا، ويميزهم بأعمالهم.

(١) انظر: تفسير الطبري (١٠٤/٨).

قال الشارح:

وَبَتَّتْ فِي السُّنَنِ الْحَدِيثَ الَّذِي صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ، عَنِ الْعَرَبِيَّاتِ بْنِ سَارِيَةَ، قَالَ: «وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةٌ مُودَّعٌ؟ فَمَاذَا تَعْهَدُ لَنَا؟ فَقَالَ: أَوْصِيكُمْ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهَدِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(١).

قال الشيخ:

هذا الحديث صححه الترمذي وهو أحد أحاديث الأربعين النووية التي اختارها الإمام النووي - رحمه الله - وذلك لأنه جامع لهذه الوصايا. وقد ذكر ابن رجب في شرحه عدة أحاديث فيها وعظ؛ لأن العرباض رضي الله عنه يقول: «وَعَظَّنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً»، ولم يذكر تلك الموعظة، هل هي موعظة بالآخرة وعذاب الآخرة وما فيها، أو بالقبر وما يكون فيه، أو بالدنيا وحقارتها وعدم المنفعة فيها، وذكر أن تلك الموعظة بليغة بكوا منها حتى ذرفت العيون دموعًا.

قوله: «وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ»، أي: حصل لها وجل شديد وخوف

(١) تقدم تحريجه (٤٣/١).

من الله تعالى. فلما وعظهم هذه الموعدة قال بعضهم: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةٌ مُوَدَّعٍ؟»، وطلبوا منه أن يعهد إليهم وأن يوصيهم بوصية؛ لأنهم استنبطوا أنه سوف يودعهم، وأن هذا دليل على أنه سوف يفارقهم، والعبادة أن الذي يفارق أهله لا بد أن يوصيهم بوصية يتمسكون بها، فأوصاهم أولاً: (بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ)، أي: لولاة الأمور إذا تولوا عليكم، فعليكم أن تسمعوا وتطيعوا، وأن لا تخرجوا عن الطاعة؛ وكذلك أيضاً السمع والطاعة لله وللرسول، إذا دعاكم الرسول ﷺ إلى أمر، أو كذلك وجدتم أمراً من الأمور الشرعية في كتاب الله تعالى، فعليكم أن تتمسكوا بذلك الأمر، وأن تسمعوا وتطيعوا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، أي: سمعنا كلامك، وسوف نلزم أنفسنا بطاعتك.

ثم أخبر بأنه (مَنْ يَعِشْ)، أي: من يحيى منهم فلا بد أن يرى اختلافاً كثيراً، فإن بعد موت الرسول ﷺ حصل اختلاف كثير في العقائد، وأدى ذلك إلى التكفير والقتال.

فأولاً: بعد موته ارتد كثير من الأعراب الذين كانوا قد آمنوا، فكان ذلك من الاختلاف.

ثانياً: وكذلك في آخر حياته تنبأ كثير من الكاذبين؛ كمسيلمة والعنسي وغيرهما.

ثم أمرهم عند ذلك الاختلاف الذي سيحصل، وتفرق الأمم، وحصول

البدع وظهور المتدعة؛ كالرافضة والخوارج والقدرية والمعطلة ونحوهم، أمرهم بأن يتمسكوا بالسنة، فقلوه: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي»، أي: الزموها وتمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ.

ثم قال: «وَأَيُّكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ»، إذا قال: فعليكم بالشيء فمعناه الزموه وتمسكوا به، والسنة: هي الطريقة التي كان عليها، والخلفاء الراشدون: هم الخلفاء الأربعة ومن سار على نهجهم. ثم وصفهم بأنهم راشدون، يعني: أنهم من أهل الرشد والصلاح، ووصفهم بالمهدين، أي: أن الله تعالى هداهم وسددهم، أمر بأن يتمسكوا بها، أي: تمسكوا بهذه السنة التي أمرتكم بها، أمسكوها بأيديكم، وإذا خشيتم أنها تتفلت فعضوا عليها بالنواجذ التي هي أقاصي الأسنان من باب الحرص عليهم.

ثم حذرهم: «وَأَيُّكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ»، يعني: ابتعدوا عن المحدثات التي هي بدع وإضافات في الدين لما لم يأذن به الله تعالى، وأخبر أن «كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»، وفي رواية: «وكل ضلالة في النار»، وهذا الحديث صححه بعض أهل العلم.

قال الشارح:

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً.. يَعْزِي: الْأَهْوَاءَ.. كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ». وَفِي رِوَايَةٍ: «قَالُوا: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»^(١).

فَبَيَّنَ ﷺ أَنَّ عَامَّةَ الْمُخْتَلِفِينَ سَالِكُونَ مِنَ الْجَانِبَيْنِ، إِلَّا أَهْلَ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةَ. وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَيْثُ قَالَ: (مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسْتَنًا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ، فَإِنَّ الْحَيَّ لَا تُؤْمِنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ، أَوْلَيْكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ، كَانُوا أَفْضَلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، أَبْرَهَا قُلُوبًا، وَأَعَمَّقَهَا عِلْمًا، وَأَقْلَبَهَا تَكَلُّفًا، قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ، فَأَعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ، وَاتَّبِعُوهُمْ فِي آثَارِهِمْ، وَتَمَسَّكُوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَدِينِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهَدَى الْمُسْتَقِيمِ)^(٢). وَسَيَأْتِي هَذَا الْمَعْنَى بَيَانًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، عِنْدَ قَوْلِ الشَّيْخِ: (وَنَسَى الْجَمَاعَةَ حَقًّا وَصَوَابًا، وَالْمُرُقَّةَ زِينًا وَعَدَابًا).

قال الشيخ:

وهذه أدلة على أن أهل الحق هم المتمسكون بالسنة النبوية، من كان على مثل

(١) تقدم ترجمته (٢/٥٠٧).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/٣٠٥)، وذكره البغوي في شرح السنة (١/٢١٤).

ما كان عليه النبي ﷺ وصحابته، الصحابة - رضي الله عنهم - ما خاضوا في علم الكلام الذي خاض فيه المتكلمون المتكلمون، وكذلك كانوا يكرهون الاختلاف حتى في الفروع، بل إذا اختلفت الأدلة عليهم قالوا: آمنا بها وفوضنا ما لم نعلم، وعملنا بما كان عليه نبينا ﷺ وبما كنا عليه في عهده.

قد تقدم أنه ﷺ كان ينهى أصحابه عن الاختلاف، وقد كان نفر من الصحابة جُلوساً بباب النبي ﷺ، فقال بعضهم: أَلَمْ يَقُلِ اللهُ كَذًا وَكَذًا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَلَمْ يَقُلِ اللهُ كَذًا وَكَذًا، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَخَرَجَ كَأَنَّمَا فُقِيَ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَانِ - يعني: احمرَّ وجهه من الغضب - فقال: «بهذا أمرتُم، أو بهذا بُعِثتُم، أن تَضْرِبُوا كِتَابَ اللهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ؟ إِنَّمَا ضَلَّتِ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ فِي مِثْلِ هَذَا، إِنَّكُمْ لَسْتُمْ بِمِثْلِ هَهنا فِي شَيْءٍ، أَنْظِرُوا الَّذِي أَمَرْتُمْ بِهِ فَأَعْمَلُوا بِهِ، وَالَّذِي تُهَيِّئُ عَنْهُ فَأَتْتَهُوا»^(١).

هكذا أمر النبي ﷺ المسلمين، أمرنا إذا عرفنا الأدلة أن نقول بها، وإذا اختلفت علينا أن نأخذ بما هو الأنسب والأظهر لنا، وندع الاختلاف، وقد أخبر - عليه الصلاة والسلام - بوقوع الاختلاف في هذه الأمة وأنها تتفرق بهم الأهواء إلى ثنتين وسبعين فرقة وطائفة، كل طائفة تزعم أنها على الحق، كل طائفة تضلل غيرها، وتبرر موقفها، وهذه الاختلافات اختلافات اعتقادية في الأمور التي يضل من خالف فيها، وليست الاختلافات في الفروع والمسائل

(١) أخرجه أحمد (٢/١٩٥)، وابن ماجه (٨٥)، والطبراني في الأوسط (١/١٦٥) من حديث

عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

الاجتهادية، التي طريقها الاجتهاد، فإن هذه لا يضلّل من اتّبعها؛ ولهذا خالف بعض الأئمة مشايخهم دون أن يضلّلوهم، فالإمام مالك كان إماماً متّبِعاً، وقد خالف أبا حنيفة في أشياء، والإمام الشافعي قرأ على مالك وأخذ عنه علمه، وقد خالفه أيضاً في أشياء، ولكن لم يعدّ هذا ضلالاً، وليست هذه المذاهب من الفرق الضالّة التي حكم النبي ﷺ أنّها في النار إلاّ واحدة. إنّما أراد تلك البدع المضلّة التي تتعلّق بالعقيدة، ولا شكّ أنّ أمور العقيدة أدلّها يقينية، أدلّها قطعيّة، لا يستدلّ عليها بالأدلة الظنيّة التي يتطرّق إليها الاحتمال في الثبوت أو عدمه، وإنّما يستدلّ عليها بأمور قطعيّة الدلالة لا لبس فيها ولا خفاء، ولكن عميت الأعين وصمّت الأذان، فأولئك المبتدعة: يرون الحقّ أبلج، يرون الصراط مستقيماً، تأتيهم بالأدلة وتوضحها لهم، ولكن:

صُمْمْ وَلَوْ سَمِعُوا بِكُمْ وَلَوْ نَطَقُوا
عَمُوا عَنِ الْحَقِّ صُصِمُوا عَنِ تَدْبِيرِهِ
عُمِّيُّ وَلَوْ نَظَرُوا بُهِتُ بِمَا شَهِدُوا
عَنْ قَوْلِهِ خَرَسُوا فِي غَيْبِهِمْ سَمِدُوا
كَسَانَهُمْ إِذْ تَسْرَى حُسْبُ مُسْنَدُهُ
وَحَسْبُ الْقَوْمِ أَيْقَاطًا وَقَدْرَقَدُوا

وهذا حرمان والعياذ بالله، وإلا فالطريق واضح، ولذلك حذّر النبي ﷺ من هذه الأهواء الثنتين والسبعين، هذه هي الأهواء، وأمر بالتمسك بالجماعة، وأخبر أن الفرق كلّها في النار إلاّ واحدة، وهي الجماعة ما عليه النبي ﷺ وأصحابه.

والصحابيّة - رضي الله عنهم - لم يتكلّموا في الجوهر والعرض، ولم يتكلّموا في الأعراض والأبعاض والأعضاء وما أشبه ذلك مما ابتلي به المتكلّمون، ولم يتكلّموا في المحدثات التي امتلأت بها كتب هؤلاء المتكلّمين، وإنّما تقبلوا ما جاءتهم به

السنة، وما نصّ عليه الرب في القرآن، تقبلوا ذلك كله واستسلموا له. كما شهد لهم ابن مسعود رضي الله عنه في هذا الأثر: (مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسْتَنًا فَلَيْسَتْ بِيَمَنِ قَدْ مَاتَ).

ابن مسعود رضي الله عنه من الصدر الأول، مات سنة ثنتين وثلاثين من الهجرة، بعد النبي صلى الله عليه وآله بسنوات معدودات، ومع ذلك بحث على طريقة الصحابة، يريد بالصحابة السابقين الأولين كالخلفاء الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم؛ لأنهم قبله أو في زمانه، وكذلك من كان معه ممن مات من السابقين، ومن مات قبله أو معه، كعبد الرحمن بن عوف، وأبي ذر، والعباس بن عبد المطلب، وأولئك الذين ماتوا قبله؛ لأنّ الحسي لا تؤمن عليه الفتنة، لا يؤمن عليه أن يضلّ، ولا يؤمن عليه أن يفتن بالدعايات المضلّة والشبهات. يقول: (أَوْلَيْكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله، كَانُوا أَفْضَلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، أَبْرَهَامًا قُلُوبًا، وَأَعَمَّتْهَا عَدِيمًا، وَأَقَلَّتْهَا تَكَلُّفًا). ما أبلغه من وصف! البر: هو الصدق والإخلاص، يعني: أن قلوبهم خالصة خالصة، وعلمهم عميق؛ لأنّه علم نبويّ، وليسوا يتكلفون.

وقد جاء رجل إلى ابن مسعود رضي الله عنه فقال: يا أبا عبد الرحمن، إن قاصًا عند أبواب كندة يقصّ ويزعّم أن آية الدخان تجيء فتأخذ بأفئاس الكفار، ويأخذ المؤمنين منه كهية الركام، فجلس ابن مسعود رضي الله عنه وهو غضبان فقال: «يا أيها الناس اتقوا الله، من علم منكم شيئًا فليقل بما يعلم، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإنه أعلم لأحدكم أن يقصّ لها لا يعلم: الله أعلم، فإن الله - عز وجل -

قال لبيبة عليه السلام: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٤٨٦] ^(١). أنكر على هذا تفسيره الآية بما يراه، أو بما يظنه من أنه يكون الدخان قرب الساعة.

وبكل حال فهو ينكر على من يتكلف في تفسير الآيات بمثل هذه الاحتمالات، فإذا نظرنا فيما روي عن السلف وعن الصحابة رضي الله عنهم، لم نجد في علمهم شيئاً من التكلف، بل وجدناهم يأخذون الأدلة بظاهرها، ويعتقدون ما دلّت عليه، وقد حدث في آخر عهدهم بعض من المنكرين لبعض الأمور الغيبية، ومما روي أن رجلاً انتفض عند ابن عباس - رضي الله عنهما - عندما قرأ آية في الصفات، أو سمعها استنكاراً لها، فقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «ما فرق هؤلاء ^(٢)؟ يَجِدُونَ عِنْدَ مُحْكَمِهِ، وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ» ^(٣).

أما الأثر المروي عن علي عليه السلام أنه قال: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟» ^(٤). فإنه دليل على أنه قد وجد في عهده من يتحدث بأشياء

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٤، ٤٨٠٩)، ومسلم (٢٧٩٨).

(٢) قوله: «ما فرق هؤلاء» يحتمل وجهين: أحدهما: أن تكون (ما) استفهامية إنكارية، و(فرق) بفتح الفاء والراء، وهو الخرف والفرع، أي: ما فرغ هذا وأضرابه من أحاديث الصفات واستنكارهم لها. والثاني: أن يكون بفتح الفاء وتشديد الراء، ويميز تخفيفها، و(ما) نافية، أي: ما فرق هذا وأضرابه بين الحق والباطل. انظر: تيسير العزيز الحميد (ص ٤٨٥).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢٣٩/٣) وفي مصنفه (٤٢٣/١١)، وابن أبي عاصم في السنة (٢١٢/١).

(٤) أخرجه البخاري (١٢٧).

قد تستغرب، وقد يستنكرها بعض الجهلة، فلأجل ذلك نهى أن يتحدثوا بأشياء فيها شيء من الغرابة، فأمرهم أن يتحدثوا بالأشياء المعروفة كالأحكام. أي اشغلوا أوقاتكم بالأحكام وبأمور الطاعة والعبادة والنوافل، وإياكم أن تشتغلوا بالأشياء التي فيها غرابة يستغربها العامة فينكرونها، وإذا أنكروها وهي قطعة هلكوا؛ لأنهم كذبوا الله ورسوله، هذه طريقة السلف الذين هم الصحابة رضي الله عنهم، ومن سار على نهجهم.

قال الطحاوي:

وَنَحِبُّ أَهْلَ الْعَدْلِ وَالْأَمَانَةِ، وَنُبْغِضُ أَهْلَ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَةِ.

قال الشارح:

وَهَذَا مِنْ كَمَالِ الْإِيمَانِ وَتَمَامِ الْعُبُودِيَّةِ، فَإِنَّ الْعِبَادَةَ تَتَّصِفُ بِكَمَالِ الْمَحَبَّةِ وَنَهَائِيَّتِهَا، وَكَمَالِ الدَّلِّ وَنَهَائِيَّتِهِ، فَمَحَبَّةُ رُسُلِ اللَّهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَعِبَادَةُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَتِ الْمَحَبَّةُ لَا يَسْتَحِقُّهَا غَيْرُهُ، فَخَيْرُ اللَّهِ يُحِبُّ فِي اللَّهِ، لَا مَعَ اللَّهِ، فَإِنَّ الْمُحِبَّ يُحِبُّ، مَحْبُوبُهُ، وَيُبْغِضُ مَا يُبْغِضُ، وَيُؤَالِي مَنْ يُؤَالِيهِ، وَيُعَادِي مَنْ يُعَادِيهِ، وَيَرْضَى لِرِضَائِهِ، وَيَغْضَبُ لِغَضَبِهِ، وَيَأْمُرُ بِمَا يَأْمُرُ بِهِ، وَيَنْهَى عَمَّا يَنْهَى عَنْهُ، فَهُوَ مُوَافِقٌ لِمَحْبُوبِهِ فِي كُلِّ حَالٍ.

وَاللَّهُ تَعَالَى يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، وَيُحِبُّ الْمُتَّقِينَ، وَيُحِبُّ التَّوَّابِينَ، وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ، وَنَحْنُ نُحِبُّ مَنْ يُحِبُّهُ اللَّهُ. وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ، وَلَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ، وَلَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَنَحْنُ لَا نُحِبُّهُمْ أَيْضًا، وَنُبْغِضُهُمْ، مُوَافِقَةٌ لَهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَالَهُ الْإِيمَانَ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجَعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ»^(١).

فَالْمَحَبَّةُ التَّامَّةُ مُسْتَلْزِمَةٌ لِمُوَافَقَةِ الْمَحْبُوبِ فِي مَحْبُوبِهِ وَمَكْرُوهِهِ، وَإِلَّا لَيْسَ

وَعَدَاوَتِهِ. وَمَنْ الْمَلُومُ أَنْ مَنْ أَحَبَّ اللَّهَ الْمَحَبَّةَ الْوَاجِبَةَ فَلَا بُدَّ أَنْ يُبْغِضَ أَعْدَاءَهُ،
وَلَا بُدَّ أَنْ يُحِبَّ مَا يُحِبُّهُ مِنْ جِهَادِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ

يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ عَمَّا كَانَتْهُمْ أَلْسِنُ مَرْصُورَةً﴾ [الصف: ٤].

وَالْحُبُّ وَالْبُغْضُ بِحَسَبِ مَا فِيهِمْ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، فَإِنَّ الْعَبْدَ يَجْتَمِعُ
فِيهِ سَبَبُ الْوِلَايَةِ وَسَبَبُ الْعَدَاوَةِ، وَالْحُبُّ وَالْبُغْضُ، فَيَكُونُ مُحْبُوبًا مِنْ وَجْهِ
مَبْغُوضًا مِنْ وَجْهِ، وَالْحُكْمُ لِلْغَالِبِ. وَكَذَلِكَ حُكْمُ الْعَبْدِ عِنْدَ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ يُحِبُّ
الشَّيْءَ مِنْ وَجْهِ وَيَكْرَهُهُ مِنْ وَجْهِ آخَرَ، كَمَا قَالَ ﷺ، فِيمَا يَرُوي عَنْ رَبِّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -:
«وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ،
وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ»^(١).

فَيَبِينُ أَنَّهُ يَتَرَدَّدُ؛ لِأَنَّ التَّرَدُّدَ تَعَارُضُ إِزَادَتَيْنِ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ يُحِبُّ مَا يُحِبُّ عَبْدُهُ
الْمُؤْمِنُ، وَيَكْرَهُ مَا يَكْرَهُهُ، وَهُوَ يَكْرَهُ الْمَوْتَ فَهُوَ يَكْرَهُهُ، كَمَا قَالَ: «وَأَنَا أَكْرَهُ
مَسَاءَتَهُ»، وَهُوَ سَبْحَانَهُ قَضَى بِالْمَوْتِ، فَهُوَ يُرِيدُ كَوْنَهُ، فَسَمِيَ ذَلِكَ تَرَدُّدًا، ثُمَّ بَيَّنَّ
أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ وَقُوعِ ذَلِكَ، إِذْ هُوَ مُفَضَّلٌ إِلَى مَا هُوَ أَحَبُّ مِنْهُ.

قال الشيخ:

واجب على المسلم أن يحب الله تعالى، وأن يحب ما يحبه الله، وأن يحب من

يحبّه الله.

(١) تقدم تخريجه (٣/٥٢٤).

يحبّ الله تعالى من كلّ قلبه؛ لأنّه ربّه والمنعم عليه، ويحبّ ما يحبّه الله من الأعمال التي تكون سبباً لرضاه، ويحبّ الذين يحبّهم الله من أوليائه وأصفيائه وعباده الصالحين. وإذا كان كذلك فإنّه يحظى بمحبّة الله تعالى له، أمّا كونه يحبّ الله ورسوله فإنّ لذلك أسباب، كيف لا يحبّ ربّه الذي هو خالقه ومالكه، كيف لا يحبّ ربّه الذي أنعم عليه وتفضّل عليه، كيف لا يحبّ ربّه الذي رزقه وخوّله وأعطاه ما يتمنّاه، كيف لا يحبّ ربّه الذي يتصرّف فيه كيف يشاء، كيف لا يحبّه وقد هداه للإسلام ونور بصيرته.

كذلك أيضاً لا بدّ أن يحبّ النبي ﷺ؛ لأنّ الله تعالى أنقذه على يديه، أنقذ الخلق، أنقذ هذه الأمة على يدي هذا النبي ﷺ، فلاجل ذلك يلزم أن يحبّوه من كلّ قلوبهم، ويقدموا محبّته على كل شيء، قال النبي ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»^(١). وقال له عمرؓ: يا رسول الله، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فقال النبي ﷺ: «لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ»، فقال له عمرؓ: فإنه الآن والله لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فقال النبي ﷺ: «الآنَ يَا عُمَرُ»^(٢).

لا شكّ أنّه - عليه الصلاة والسلام - أهلّ لأن يحبّ، وأهلّ لأن يحبّه المؤمنون الذين أنقذهم الله بدعوته، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، وأنقذهم به من

(١) تقدم تحريجه (٨٧/٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٣٢) من حديث عبدالله بن هشام ؓ.

الغواية، وبصّرهم بواسطته طريق الهداية والحق، فلذلك يقدمون محبته على كل شيء.

وفي هذا الحديث يقول ﷺ: «ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يُحِبُّه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذَف في النار»^(١). أخبر ﷺ في هذا الحديث بأن هذه ثلاث لا بدّ منها حتى يجد بها حلاوة الإيمان، مبدؤها محبة الله ورسوله أحب إليه مما سواهما من النفس والمال والولد ومن الوالد، ومن القريب والبعيد وكل شيء، ومعلوم أنه إذا حصلت له هذه المحبة تبعها غيرها، إذا أحب الله تعالى وأحب رسوله ﷺ تبعتهما الخصلتان الباقيتان: تبعها محبة ما يحبه الله، وتبعها كراهة ما يكرهه الله، فالثلاث متلازمة مترابطة.

أما الخصلة الثانية، فهي أن يحب المرء لا يحبه إلا الله، معلوم أن من أحب الله أحب ما يحبه الله، بل العادة أن الإنسان إذا أحبك أحب كل من تحبه أنت، فإذا أحببت زيداً أحببت من يحبه زيد، وأحببت من يحب زيداً؛ وذلك لأنك وثقت به، وصار له قدر في قلبك، وصار له منزلة؛ فصرت توقره وتحبه، فإذا رأيت يورث عملاً أثرت ذلك العمل معه، وإذا رأيت يمتنع شيئاً اجتنبت؛ لأنك تثق به، وتعرف أنه لا يفعل إلا الخير، ولا يتجنب إلا ما فيه ضرر، فكيف بها يكرهه الله تعالى؟ فإنك تكرهه، وكيف بها يجرمه ويغضه؟ فإنك تبغضه، وكيف بمن يحبهم الله تعالى من

(١) تقدم تخرجه (١/ ٨١).

الناس؟ لا شك أنك تحبهم.

ولعلك أن تقول: الله تعالى قد ذكر أن المؤمنين يحبون المنافقين ظاهراً في قوله

تعالى: ﴿هَكَأَنتمْ أَوْلَاءٌ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمُ﴾ [آل عمران: ١١٩]، كيف يحبهم

المؤمنون، الصحابة الذين يحبون الله ويحبون رسوله، ويؤثرونه على أنفسهم،

ويقدونه بأرواحهم، كيف يحبون المنافقين؟

الجواب: أن المنافقين يظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر، يبطنون ما هم عليه

من الضلال والبغضاء، وبغض الله، وبغض رسوله وبغض الصحابة، وبغض

المؤمنين، لا يبدون ذلك؛ إنما يظهرون أنهم أولياء الله، وأتباعه من أحبائه، لذلك

وثق بهم المؤمنون فأحبّوهم، يعني: تحبّونهم لأنهم يحبّون الله ظاهراً، وأنتم تحبّون

الله، تحبّونهم؛ لأنهم يظهرون لكم محبة الرسول، وأنتم تحبّون الرسول، ومحبة

المحبيب محبوب، ولكن هم لا يحبّونكم؛ لأنكم تحبّون الرسول وهم يبغضونه،

ومحبة المبعوض مبغوض، ولأنكم صرتم على عقيدة وعلى يقين من محبة الرسول

ﷺ وهم على ضد ذلك يبغضونه، أبغضوكم لأنكم تحبّون مبغوضهم.

فإذا نقول: عليك أن تحبّ الله، وتحبّ من يحبه الله، وتظهر عليك آثار هذه

المحبة، ومن آثارها: الولاء والبراء، العطاء والمنع، التقريب والإبعاد، من أحببته

أعطيته، ومن أبغضته حرّمته، من أحببته قربته، ومن أبغضته أبعدته وابتعدت

عنه، من أحببته واليته ومن أبغضته عاديته، فالذين يحبّون الله تحبّهم وتواليهم

وتقرّبهم وتمدحهم وتقتدي بهم وتشني عليهم؛ لأن الله تعالى يحبّهم، والذين

يبغضهم الله تبغضهم وتعاديهم وتنقطع عنهم وتبغضهم وتحذرهم وتذمهم وتحذر منهم، ومن عاداتهم وطريقهم التي أصبحوا بها مبغضين لله ومبغوضين عند الله، ولو كانوا ما كانوا.

ومن الخصال التي ذكرها الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - مما يجب على كل مسلم ومسلمة: أن من أطاع الله ووحدّه وأطاع الرسول ﷺ لا يجوز له موالاته من حادّ الله ورسوله، ولو كان أقرب قريب، واستدلّ بالآية التي في آخر المجادلة: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]؛ لا تجد المؤمنين المرحدين يوادون من حادّ الله ورسوله أبداً، بل لا بدّ أن يحادّوهم ويعادوهم وينصبوا لهم قوس العداوة، ولو كانوا أقرب الأقربين، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا إِبْنَاءَ هِمٍّ أَوْ أَبْنَاءَ هِمٍّ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، يعني أقاربهم الخاصّة، وما ذاك إلا لأنهم أحبوا الله، فأبغضوا من يبغضه الله ولو كانوا أقرب الأقارب، عاداتهم أولياء الله ومقتوهم، وابتعدوا عنهم، وقطعوا الصلة بهم. هكذا أثر المحبة.

أما أولياء الله، فإنهم أحبّوهم ولو كانوا بعيدين في النسب، صار بعضهم يؤثر أخاه المسلم على نفسه، ولو كان من الفرس أو الروم أو البربر أو الحبش. فمثلاً الصحابة - رضي الله عنهم - كان فيهم بلال من الحبشة، وصهيب رومي، وسلمان فارسي، ولكن جمعت بينهم أخوة الإسلام، ومحبة الله، فصاروا إخوة في ذات الله تعالى، يجب بعضهم بعضاً، ويؤثر بعضهم بعضاً، فهكذا تكون آثار هذه المحبة، أن

الله تعالى لِمَا أَحَبَّ الصَّالِحِينَ وَأَنْتَ تَحِبُّ اللهُ أَحَبَّتَهُمْ، وَأَنْهُ لَمَّا أَبْغَضَ الْكَافِرِينَ وَأَنْتَ تَبْغِضُ مَا يَبْغِضُ اللهُ أَبْغَضْتَهُمْ.

وكذلك الأعمال؛ فالله تعالى يبغض كثيرا من الأعمال، فيقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَّادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٤٧]، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]. إذا كان هؤلاء لا يحبهم الله فلا تحبهم بل أبغضهم، انظر من يحبه الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَذَهُم بَيْنَ مَرْمُوسٍ﴾ [الصف: ٤]، ويحب أهل هذه الخصال، ويحب أيضا الأعمال الصالحة، ويحب لعباده أن يأتوها، فالذي يدعي المحبة، لا بد أن تظهر عليه آثارها وعلاماتها الواضحة. ذكر أن اليهود والنصارى كما قالوا: ﴿يَحْنُ أَبْنَاؤُاَ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، وهم الكاذبون؛ أنزل الله آية تسمى آية الامتحان، أو آية المحنة في سورة آل عمران: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]. امتحنهم الله في هذه الآية، وقال لهم: إذا كنتم صادقين في أنكم تحبون الله، فلا بد من علامة واضحة، والعلامة أن تتبعوا هذا الرسول الكريم، فإن هذا علامة صدق من يدعي محبة الله.

روي عن بعض السلف أنه قال: من ادعى محبة الله ولم يوافق، فدعواه كاذبة؛ لأن الذي يحب الله يوافق في أوامره ونواهيه، ويفعل ما يحب الله من الطاعات، ويجتنب ما يكرهه الله من المحرمات والمعاصي، ويحب أولياء الله، ويبغض أعداء

الله، وكذلك يكون صادقاً في هذه المحبة، وإذا لم يكن كذلك فليس بصادق، الذي يتظاهر بالمعصية ومع ذلك يدعي محبة الله فليس بصادق، قال بعض الشعراء^(١):

تَفْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تَزْعُمُ حُبَّهُ هَذَا عَجِيبٌ فِي الْفَعَالِ بَبْدِيعِ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ يَتَسَدِّدُكَ بِنِعْمَةٍ مِنْهُ وَأَنْتَ لِشُكْرِ ذَاكَ مُبْضِعُ
فالطاعة علامة المحبة.

إذا محبة الله واجبة، وعلاماتها ظاهرة، علامات محبة الله طاعته، وحبّ العبادات التي يحبها وحبّ العباد الذين يحبهم، وكذلك موافقته، وكذلك بغض المعاصي التي حرّمها الله ومقتها، ومعاداة العصاة والكفرة الذين أبغضهم وكرههم ومقتهم. من كان كذلك فإنه من أحباب الله الذين وعدهم الله تعالى بالثواب العظيم.

في الحديث القدسي الذي أشار إليه الشارح، يقول الربّ تعالى: «ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت، وأنا أكره مساءته».

(١) راجع (١/٦٣٣).

قوله في الحديث: «كنت سمعته...» إلى آخره، أي: أنه لا يسمع إلا ما يحبه الله، ولا يبصر إلا ما هو محبوب لله، ولا يمدُّ يده ويبطش إلا في طاعة الله، ولا يحرك قدميه ماشياً إلا فيما أمر الله به وأحبه.

وتقدم فيما سبق حث الإسلام على الاجتماع، ونبيه عن الافتراق، وحثه على الائتلاف، وتحذيره من الاختلاف، وذلك أن المسلمين كلِّما كانوا مجتمعين، وكلِّما كانت كلمتهم واحدة، كانت قوتهم، وكان ظهور كلمتهم أقوى من غيرهم ممن خالفهم، وكلِّما تفرقت كلمتهم وتشتت أهواؤهم واختلفت آراؤهم ضعفت معنوياتهم، وقوي عليهم عدوهم، ولأجل ذلك جاء الإسلام يحث على الاجتماع، وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]؛ أمر بالاجتماع ونهى عن التفرق، والتفرق يعم تفرق الأبدان وتفرق الأهواء والآراء والمذاهب والشيع والفرق والأحزاب، يعم ذلك كله النهي عن التفرق، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، تفرقوا أي: تفرقت كلمتهم، واختلفوا اختلفت آراؤهم وأهواؤهم.

وقد امتن الله تعالى على المؤمنين بأن جمعهم على كلمة التوحيد، وألف بين قلوبهم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٢) ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَكْنَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣]، أي: جمع بينهم ورزقهم المحبة والألفة، بحيث إن بعضهم يؤثر أخاه المسلم على نفسه، وعلى ولده وعلى أحبابه وأقاربه وأحفاده وأنسابه، وذلك لِمَا في

قلبه من الود والرحمة للمسلمين عمومًا.

وهذه الأوصاف كلّمًا تأكّدت وقويت وثبتت كان المسلم مؤثرًا لهوى إخوته ومقدّمًا له ومحبًّا لهم غاية الحبّ، ومقدّمًا لمصالحهم، وإذا كانوا مجتمعة كلمتهم، ومتآلفين على كلمة التقوى نتج من ذلك تعاونهم على البرّ والتقوى، وتعاونهم على تنفيذ كلمة الله، وإظهار شعائر دينه، وكلّمًا كانوا كذلك ضعف أعداؤهم تخاذلوا وتفرّقوا، وحصل النصر والتمكين للمؤمنين، والتفريق والانهيار للكافرين. وهذه سنة الله.

فإن اختلاف الكلمات، واختلاف الآراء والأهواء سبب لتعصّب كل لرأيه ولذهبه وهواه، وهذا يحدث في أهل البدع، فإنّ هذه الطائفة إذا كانت تتحلل بدعةً وتهاواها وتفضّلها فإنّها لا تقبل ممّن خالفها، بل ترى أنّ من خالفها على باطل وعلى ضلال. نشاهد مثلاً الذين يسمّون أنفسهم شيعة، وهم الروافض، نجدهم يتآلفون فيما بينهم ويحبّ بعضهم بعضًا، ويقدم بعضهم بعضًا ربّما على نفسه. كما روي لي عن بعضهم بأنّ جماعة من أهل السنة نحو المئتين بين عشرين ألفًا أو أكثر من الرافضة، الذين تأتيهم الإمدادات والعون وتأتيهم الشيعة من العراق وإيران ويشجعونهم، الواجب أيضًا أنّ أهل السنة يشجع بعضهم بعضًا ويواسونهم ويعظّمونهم ويمكّنونهم؛ لأنّ أخوة الإسلام تجمع بينهم، فإذا كان أهل الباطل يجتمعون ويتناصرون على الباطل، الذي همّ عليهم، وظهر لهم أنّه الحق، فالأحرى بالذين على الحق أن يتعاونوا.

وقد كان المسلمون في أول القرن الثاني لما كانوا في خراسان مجتمعين من

أماكن متعدّدة؛ إذا لم يغزوا، ولم يذهبوا إلى قتال أعدائهم وقع الخلاف بينهم، وصاروا يتفاخرون كلّ يتعصّب لقبيلته، وكلّ يتعصّب لمذهبه ولأميره ولشيخه، وربّما حصل بينهم تقاتل وتناوش، أو ما أشبه ذلك، ولكن إذا جاءهم أمير عام عليهم، ناصح مخلص؛ جمع كلمتهم ووحد وجهتهم إلى قتال أعدائهم، وتوجّهوا كلّهم نحو الأعداء، عندئذ زالت الإحن التي كانت بينهم، وأصبحوا إخوة متآخين، متوجّهين إلى العدو الذي هو أكبر الأعداء، وهو العدو في الدين، فكانت الفعلة التي يفعلها القادة وهي جمعهم على التوحيد، أكبر وجهة وأكبر نصيحة يجتمعون بها حتى يقاتلوا أعداءهم.

نحن نحثّ المسلمين على أن تجتمع قوتهم وتوجه نحو أعدائهم، سواء الأعداء الكفار أو الأعداء المتدعون، أو نحوهم، وكذلك ننهاهم عن التماهي في الاختلاف؛ اختلاف الآراء، واختلاف الأهواء.

قد مرّ بنا حديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما -: أن نفرًا من الصحابة كانوا جلوسًا بباب النبي ﷺ، فقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا، وقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا، فسمع ذلك رسول الله ﷺ، فخرج كأنما فُقِيَء في وجهه حبّ الرّمّان - يعني: احمرّ وجهه من الغضب - فقال: «بهذا أمرتُم، أو بهذا بعثتُم، أن تظنّوا كتاب الله بعصه ببعضين؟ إنما صلّيت الأُمم قبلكم في مثل هذا، إنكم لستُم بمأههنا في شيء، أنظروا الذي أمرتُم به فاعملوا به، والذي نهيتُم عنه فانتهوا»^(١).

فنهى عن اختلاف الكلمة في مسألة من المسائل كمسألة القدر ونحوه.

وعلى كل حال، فالإسلام جاء بجمع الكلمة، والحث على الجماعة، وحثهم على الألفة فيما بينهم، وذكر الأسباب التي بها يتآلفون ويتعارفون ويتآخون، وذلك أنهم أولاً: يتعارفون بأنهم مسلمون، ويتحابون لأجل الإسلام، وثانياً: يتعارفون ويتآلفون بأن قصدهم وهدفهم واحد، وهو أن كلاً منهم يطلب الأجر الأخروي، ويطلب النصر من الله تعالى على الأعداء. وثالثاً: أن كلاً منهم يدينون بدين واحد يجمعهم هذا الدين، فإذا دانوا بدين واحد، فإن عليهم أن يتحابوا في ذات الله تعالى، ويزيلوا الأسباب التي توقع بينهم العداوة والبغضاء، وبذلك يتآلفون ويتحابون فيما بينهم، وكما أنهم مأمورون - على اختلاف طبقاتهم وجنسياتهم - أن يتحابوا وأن يجتمعوا ولو تفرقت بلادهم ولو تناءت أماكنهم، مأمورون بذلك؛ فإنهم مأمورون أيضاً بمقاطعة أعدائهم، وبمبايبتهم وبغضهم والابتعاد عنهم وإذلالهم، سواء كانوا مبتدعة أو كفرة أو مشركين، فإنهم إذا رأوا منهم الغلظة والشدة والبغضاء والكرامية ذلوا وهانوا، وهانت عليهم أنفسهم، وعرفوا عزة الإسلام ورفعته وتمكّنه وعزة أهله فأذعنوا له، وانقادوا إما طوعاً وإما كرهاً. هذه الأمور مجرّبة في الأزمان الماضية، أن المسلمين كلما اجتمعوا وأظهروا لأعدائهم المقت والاحتقار ذل الأعداء، وقوي الأولياء، وارتفعت كلمة الله، وانخفضت كلمة المشركين.

قال الطحاوي:

وَنَقُولُ: اللَّهُ أَعْلَمُ فِيمَا اشْتَبَهَ عَلَيْنَا عِلْمُهُ.

قال الشارح:

تَقَدَّمَ فِي كَلَامِ الشَّيْخِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنَّهُ مَا سَلِمَ فِي دِينِهِ إِلَّا مَنْ سَلَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
وَلِرَسُولِهِ ﷺ، وَرَدَّ عِلْمَ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَى عَالِيهِ.

وَمَنْ تَكَلَّمَ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَإِنَّمَا يَتَّبِعُ هَوَاهُ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ
هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُجَادِلُ فِي
اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ ② كَيْبَ عَلَيْهِ أَنَّهُمْ مِنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ
إِلَى صَلَابِ السَّمِيرِ﴾ [الحج: ٣، ٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ
سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كِبْرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ
مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ وَنَبَاهَا وَمَا
بَعَثَ فِي الْأَرْحَامِ وَالْبَغْيَ الْحَقَّ وَإِنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا تَزِيلُ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا
لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَرُدَّ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ إِلَيْهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
لَيْسُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النسف: ٢٦]، ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾
[الكهف: ٢٢]، وَقَدْ قَالَ ﷺ لَمَّا سُئِلَ عَنْ أَطْفَالِ الْمُشْرِكِينَ: «اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا

كَانُوا عَامِلِينَ»^(١).

وَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: اتَّهَمُوا الرَّأْيَ فِي الدِّينِ، فَلَوِ رَأَيْتَنِي يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ، فَلَقَدْ رَأَيْتَنِي وَإِنِّي لَأَرُدُّ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله بِرَأْيِي، فَأَجْتَهَدُ وَلَا أَلُو، وَذَلِكَ يَوْمَ أَبِي جَنْدَلٍ، وَالكِتَابُ يُكْتَبُ، وَقَالَ: «اُكْتُبْ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، قَالَ: اُكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، فَرَضِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، وَكُتِبَ وَأَبِيتُ، فَقَالَ: «يَا عُمَرُ تَرَانِي قَدْ رَضِيتُ وَتَأْتِي ۱؟»^(٢).

وَقَالَ أَيضًا رضي الله عنه: «السُّنَّةُ مَا سَنَّهَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ صلى الله عليه وآله، لَا تَجْعَلُوا حِطَاءَ الرَّأْيِ سُنَّةً لِلْأُمَّةِ»^(٣).

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه: «أَيُّ أَرْضٍ نُقِلَ نَبِيٌّ، وَأَيُّ سَمَاءٍ نُظِئَ نَبِيٌّ، إِنْ قُلْتُ فِي آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ بِرَأْيِي، أَوْ بِنِهَا لَا أَعْلَمُ»^(٤).
وَذَكَرَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ الْحُلَوَانِيُّ، حَدَّثَنَا عَارِمٌ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ سَعِيدِ

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٤)، ومسلم (٢٦٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١/٣٧٣)، والبزار (١/٢٥٣، ٢٥٤)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (١/١٢٥، ١٢٦)، والطبراني في الكبير (٨٢)، والبيهقي في المدخل إلى السنن (ص ١٩٢). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/١٤٦): «أخرجه البزار ورجاله رجال الصحيح».

(٣) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/١٣٦)، وابن حزم في الأحكام (٦/٢٢٠).

(٤) تقدم تحريجه (٢/١٥٦).

ابن أبي صدقة، عن ابن سيرين قال: «لم يكن أحد أهيب لهما لا يعلم من أبي بكر، ولم يكن بعد أبي بكر أهيب لهما لا يعلم من عمر رضي الله عنه، وإن أبا بكر نزلت به فضية، فلم يجد في كتاب الله منها أصلاً، ولا في السنة أثرًا، فاجتهد برأيه، ثم قال: هذا رأيي، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمني، وأستغفر الله»^(١).

قال الشيخ:

هذه مسألة جديدة، وهي مسألة الفتيا بغير علم، والجرأة على الفتيا والقول في الشرع بغير علم ذنب كبير، وقد روي: «أَجْرُوكُمْ عَلَى الْفُتْيَا أَجْرُوكُمْ عَلَى النَّارِ»^(٢)؛ وذلك لأن الذي يقول في الشرع وفي الدين برأيه وبهواه وبما يستحسنه؛ ينصب نفسه مشرعًا، وكأنه نائب عن الله، مزاحم للرب تعالى في شرعه، يقول: أحل الله كذا وحرّم كذا، وأمر بكذا ونهى عن كذا، وليس عنده مستند، وإنما يعتمد على ما يستحسنه وعلى ما يراه مناسبًا ملائمًا لواقعه ونحو ذلك، فلا جرم أن كان هذا ذنبًا كبيرًا حتى قال بعضهم: إن القول على الله بغير علم أكبر من الشرك ففي هذه الآية من سورة الأعراف حرّم الله بها خمسة أشياء؛ فبدأ بالأسهل، ثم بالذي فوقه حتى وصل إلى أعلاها وأشدّها تحريمًا، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي

(١) أخرجه ابن حزم في الإحكام (٦/٢١٩).

(٢) أخرجه الدارمي في سننه (١/٦٩)، وابن عدي في الكامل كبا في كشف الخفاء (١/٥١) عن

عبيد الله بن جعفر مرسلًا.

الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ
سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴿١٣٣﴾ [الأعراف: ١٣٣].

الفواحش أصغر من الإثم، والإثم أهون من البغي: وهو الاستطالة على الناس بغير حق، ثم جاء بعد البغي ما هو أكبر منه وهو الشرك، والشرك أكبر من البغي، ثم جاء أكبر منه وهو: القول على الله بغير علم، وهو أكبر الخفصة التي حُرِّمت في هذه الآية؛ لأن الذي يقول على الله كأنه رفع نفسه فوق العلماء والأنبياء، وجعل نفسه مشرِّعًا مجلَّلًا ويجرِّم ويقول على الله ما ليس له به علم.

ولذلك كان العلماء الجهابذة الذين بلغوا الذروة في المعرفة، وكانوا على جانب من الورع، يُسأل بعضهم فيتوقفون في المسألة، ويرادونها، إذا لم يكن فيها دليل واضح صريح، فيترادها هذا إلى هذا وهذا إلى هذا إلى أن يتولَّى أحدهم الفتيا فيها، فيكتفي به عن نفسه، وكان الإمام أحمد رحمه الله كثيرًا ما يتلو الآية التي في سورة النحل: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

الذين يقولون هذا حلال بأهوائهم وهذا حرام بأهوائهم دون دليل، نقول: هذا من الافتراء الكاذب على الله تعالى بغير علم.

والإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة الذي تضرب إليه أعناق الإبل، والذي هو المرجع في زمانه، سأله قوم عن أربعين مسألة فأجاب عن أربع مسائل، وتوقف عن ست وثلاثين مسألة، فقالوا له: أتوقف وتقول: لا أدري، وأنت

مالك بن أنس؟ فقال: نعم، لا أدري لا أدري، قولوا: مالك بن أنس لا يدري، قولوا: مالك يقول: لا أدري.

وكان كثير من العلماء يبحثون على التوقف عن المسائل، ويقولون: «من أخطأ لا أدري أصيبت مقاتله». أي: إنه إذا صار يفتي ولا يتوقف، ويستحيي أن يقول: لا أدري، فإنه قد تصاب مقاتله، بأن يزل مرة هنا ومرة هنا، ويجاسبه الله تعالى على أقواله بغير علم، ويقع في الهلاك والعياذ بالله.

أما الذي عنده علم من المسألة، وعنده دليل عليها، وعنده يقين بحكمها إذا سئل عنها فلا يجوز له السكوت، ولا يجوز له التوقف، بل يقول بموجب علمه بالدليل، ولا يكتفم العلم لقوله ﷺ: «من سُئِلَ عن عِلْمٍ فَكْتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ من نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

أما إذا سئل وهو لا يعلم، وليس عنده خبرٌ بهذه المسألة، فلا يجوز له الإقدام عليها، بل يحيله إلى من هو أعلم منه، وإلى من عنده علم بتفصيل هذه المسائل ونحوها.

ولقد اعتنى علماء الإسلام بهذه المسائل التي يمكن أن تقع غاية الاعتناء، واجتهدوا في بيانها وفي إيضاها أتم الاجتهاد، وألحقوا كل مسألة بنظيرتها، فلم يبق لأحد قول، فأنت إذا سئلت عن مسألة، فارجع إليها في كتب أهل العلم،

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦٦)، وأحمد (٣٤٤/٢)،

وابن حبان (٢٩٧/١)، والحاكم (١٠١/١) من حديث أبي هريرة ؓ.

وقل هذه المسألة أفتى فيها العالم الفلاني بكذا، والشيخ الفلاني بكذا، ويوجد جوابها في الكتاب الفلاني، وتوقف أنت أن تستحسن فيها، أو تقول فيها ويقول بعضهم^(١):

وَقُلْ إِذَا أَعْيَاكَ ذَلِكَ الْأَمْرُ مَسَالِي بِمَا تَسْأَلُ عَنْهُ خُبْرُ
فَذَاكَ شَطْرُ الْعِلْمِ فَأَعْلَمْنَاهُ وَاحْتَدَرْ هُدَيْتَ أَنْ تَزِيغَ عَنْهُ

ويقولون: إن كلمة (الله أعلم) شطر العلم؛ كأن الذي تعلم مسائل كثيرة، وقرأ العلوم المتنوعة، فقرأ في التفاسير، وقرأ في كتب الحديث، وكتب الأحكام والآداب والعقائد، وحصل منها معلومات، يقال له: أنت لم تحصل إلا على علم قليل، ولذلك يقول بعضهم^(٢):

وَلَيْسَ كُفْلَ الْعِلْمِ قَدَّ حَوَيْتَهُ أَجَلٌ وَلَا الْعُشْرَ وَلَوْ أَحْصَيْتَهُ

ما حصلت إلا على العشر أو أقل، فالعلوم واسعة، وما فزت منها إلا بالنزر اليسير، فعليك أن تقتصر على ما تعلمه وتحققه وتتنه.

معلوم أيضًا أن هناك مسائل فيها مجال للاجتهاد؛ ولأجل ذلك اختلفت فيها آراء العلماء، واختلفت فيها المذاهب، فذهب الصحابي الفلاني إلى كذا، والصحابي الفلاني إلى قول مخالف، وذهب الإمام أبو حنيفة إلى كذا والإمام الشافعي إلى كذا، ومالك إلى كذا. هذه المسائل مجال للاجتهاد، والاختلاف الذي

(١) انظر: جامع بيان العلم وفضله (١/١٤٧).

(٢) المرجع السابق.

حصل فیها سببه اختلاف الأفهام واختلاف الآراء وسعة المعلومات أو قلتها، ونحن نعذر الذین خالفوا الدلیل وأفتوا بخلافه، ونقول: هذا ما وصل إليه اجتهادهم، فهم قالوا عن اجتهاد لما اضطروا إلى القول فیها، وإلى الحکم بما یلزم السائل، وكانت واقعة لا بدّ إلى الفتیا فیها فاجتهدوا، ولو خالفوا الدلیل فهم معذورون، فإنّ النبی ﷺ قد عذر المجتهد فقال: «إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ اثْنَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ»^(١)، یعنی: علی اجتهاده.

فالمجتهد معذور علی خطئه، ولكن هذا العذر لیس لكلّ أحد، فالذی لم یتأهل للاجتهاد، ولم یصل إلى رتبة المعرفة، ولم یکن من أهل الإتقان للأعمال، ولا یعرف مراجع المسائل، ولا تفاصيل الأدلة، ولا وجوه الاستدلال ولا ثبوت الأدلة أو عدمه ولا یعرف الجمع بین مختلفها، ولا یعرف متقدمها ومتأخرها، ولا یفرق بین خاصها وعامها ومطلقها ومقیدها، فهذا لا یفتی بالشیء إلا إذا اتضح عنده كالشمس، أما الباقي فإنه یتوقف فیہ حتی لا تنطبق علیه هذه الآیات التي استدلل بها الشارح رحمه الله، والآیات التي أمر الله بها نبیّه أن یردّ العلم إلى الله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ [الكهف: ٢٦]. ونحن نقول: الله أعلم، والملائكة یقولون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢].

والله تعالی یدم الذین یجادلون فی آیات الله بغير علم، فدلّ علی أنهم إذا كان عندهم علم وجادلوا فتلك مجادلة حسنة، أما الذین یجادلون بغير علم فإنهم

(١) تقدم تحريجه (١٦٨/٢).

مذمومون: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾^(٣)
 كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿ [الحج: ٣، ٤]، يعني: أنه
 في هذه المجادلة قد أتبع الشيطان.

وبكلِّ حال فالعلوم - والحمد لله - مدونةٌ وموجودةٌ ميسرة، والعلماء
 موجودون وهم يعرفون مراجعها ويعرفون الراجح منها والمرجوح، ومن كان له
 أهليةٌ فأخذ العلم عن مظانِّه فله أن يقول به، ولا يتبع غيره ممَّن لم يتمكن ومن
 لم يكن عنده أهليةٌ رجع إلى أهل العلم وقال بما قالوا به، أو بما وصلت إليه
 أفهامهم واجتهاداتهم.

قال الطحاوي:

وَنَرَى الْمَسْحَ عَلَى الْخُفَيْنِ، فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، كَمَا جَاءَ فِي الْأَثَرِ.

قال الشارح:

تَوَاتَرَتِ السَّنَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْمَسْحِ عَلَى الْخُفَيْنِ وَبِغَسْلِ الرَّجْلَيْنِ، وَالرَّافِضَةُ تُخَالِفُ هَذِهِ السَّنَةَ الْمُتَوَاتِرَةَ، فَيَقَالُ لَهُمْ: الَّذِينَ نَقَلُوا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ الْوُضُوءَ قَوْلًا وَفِعْلًا، وَالَّذِينَ تَعَلَّمُوا الْوُضُوءَ مِنْهُ وَتَوَضَّؤُوا وَهُوَ يَرَاهُمْ وَيَقْرَهُهُمْ، وَنَقَلُوهُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ أَكْثَرَ عَدَدًا مِنَ الَّذِينَ نَقَلُوا لَفْظَ هَذِهِ الْآيَةِ. فَإِنَّ جَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا يَتَوَضَّؤُونَ عَلَى عَهْدِهِ، وَلَمْ يَتَعَلَّمُوا الْوُضُوءَ إِلَّا مِنْهُ، فَإِنَّ هَذَا الْعَمَلَ لَمْ يَكُنْ مَعَهُودًا عِنْدَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَهُمْ قَدْ رَأَوْهُ يَتَوَضَّأُ مَا لَا يُحْصِي عَدَدَهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَنَقَلُوا عَنْهُ غَسْلَ الرَّجْلَيْنِ فِي مَا شَاءَ اللَّهُ ﷻ الْحَدِيثَ، حَتَّى نَقَلُوا عَنْهُ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ فِي كُتُبِ الصَّحِيحِ وَغَيْرِهَا أَنَّهُ قَالَ: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ وَبُطُونِ الْأَقْدَامِ مِنَ النَّارِ»^(١).

مَعَ أَنَّ الْفَرَضَ إِذَا كَانَ مَسْحَ ظَاهِرِ الْقَدَمِ كَانَ غَسْلُ الْجَمِيعِ كُفْلَةً لَا تَدْعُو إِلَيْهَا الطَّبَّاعُ، كَمَا تَدْعُو الطَّبَّاعُ إِلَى طَلَبِ الرِّيَاسَةِ وَالْمَالِ، فَلَوْ جَازَ الطَّعْنُ فِي تَوَاتُرِ

(١) أخرجه بهذا اللفظ: أحمد (١٩١/٤)، وابن خزيمة (٨٤/١)، والحاكم (١٦٢/١)،

والدارقطني (٩٥/١)، والبيهقي (٧٠/١) من حديث عبد الله بن الحارث ﷺ. وأخرجه

البخاري (٦٠)، ومسلم (٢٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، دون قوله:

«وبه لئن الأقدام».

صِفَةُ الوُضوءِ، لَكَانَ فِي نَقْلِ لَفْظِ آيَةِ الوُضوءِ أَقْرَبَ إِلَى الجَوَازِ.

قال الشيخ:

مسأله المسح على الخفين من المسائل التي يذكرها الفقهاء في أبواب الطهارة، يقولون: (باب المسح على الخفين)، والناس يسمعون ذلك ويفهمونه ويعرفونه، فهبي من المسائل الفروعية مثل باب التيمم، ومثل باب الغسل من الجنابة وموجباته، وخصال الفطرة، وما أشبه ذلك. ولكن لماذا تذكر هذه المسألة الفروعية في كتب العقائد؟

الجواب: أن الخلاف فيها مع المخالفين في العقيدة، والذين خالفوا فيها خالفوا في أكثر العقائد، وردوا السنة الصحيحة الصريحة في كثير من الأحكام الثابتة في هذه السنة، وطعنوا في الذين يفعلونها، وخالفوا الأدلة، الذين خالفوا في هذه السنة هم الرافضة الذين يسمون أنفسهم شيعة، يقولون: إثم شيعة عليّ، أي: أعوان عليّ، مع أن عليّاً عليه السلام بريء منهم ومن مشابعتهم، وإثمهم في الحقيقة لا شايعوه ولا نصره، بل خذلوه وخذلوا أولاده، ولم يكن منهم نصر له ولا معاونة له ولا لأهله في زمن من الأزمان، ولكن زين لهم الشيطان فسموا أنفسهم شيعة عليّ، وأهل السنة يسمونهم رافضة؛ لأنهم رفضوا الحق، ولأنهم تركوا السنة وتركوا الحق، وهم يعرفونه يعني أوائلهم وكذلك يعرفه أو اخرهم، ولكنهم عاندوا في تركه، فصدق عليهم اسم الرافضة.

وقولهم في هذه المسألة قول باطل؛ لأنهم خالفوا المسلمين في أمرين: في غسل

الرجلين، وفي المسح على الخفين، فهم لا يرون غسل الرجلين إذا كانت الرجل بارزة، لا يرون غسلها، بل يمسحون الرجل كما يمسحون الرأس، وقد خالفوا السنة الصريحية في غسل القدمين إن كانتا مكشوفتين، وخالفوا السنة في مسح الخفين إن كانا على القدمين، فخالفوا مرتين. ولأجل ذلك أنكروا عليهم السلف، وأساؤوا بهم الظن، وحذروهم وحذروا منهم.

وروي عن ابن المبارك - رحمه الله - أنه كان يقول: «إذا رأيت الرجل يسأل عن حكم المسح على الخفين أسأت به الظن». يعني: اتهمته في معتقده، خوفاً من أن يكون من هؤلاء الشيعة؛ وذلك لأنه لم يكن أحد من أهل السنة المتمسكين بها يشك في حكم المسح على الخفين وفي جوازها؛ لأنه متلقى عن النبي ﷺ نقله عنه جمع عن جمع، وأعداد عن أعداد، وتلقاه المسلمون وتقبلوه، وروي في المسح أكثر من أربعين حديثاً، يقول الإمام أحمد - رحمه الله -: «ليس في نفسي من المسح على الخفين شيء، فيه أربعون حديثاً عن رسول الله ﷺ». يعني: أربعين حديثاً صحيحاً لا توقّف فيها ولا ارتياب.

وهناك أحاديث كثيرة قد يكون بها مقال، ولكن يستدل بها، وقد أوصلها بعضهم إلى سنة وخمسين حديثاً كما في «نصيب الرواية»، وكذلك نقل الحسن البصري - رحمه الله - وهو أحد كبار التابعين قال: حدثني سبعون من أصحاب النبي ﷺ أنه مسح على الخفين وأمر به، فما دام أنها سنة ثابتة متواترة مشهورة، ليس فيها اختلاف، وليس في ثبوتها تردد، فكيف ينكرها هؤلاء الرافضة؟ لا شك أن إنكارهم لها لأجل أن الذين قالوا بها هم من أهل السنة، وهم يردون على أهل

السنة، ولا يقبلون شيئاً مما جاء به السنّيون حتّى الآن.

وقد حدّثني أحد المدرّسين في الأحساء في مدرسة متوسطة تجمع بين أبناء السنة وأبناء الشيعة، يقول: ألقيت عليهم اختباراً شهرياً ولما أعدّته اخترت مسائل في المسح على الخفين، فكانت أجوبتهم على ما في الكتب، ولكن إذا كان في النهاية فإنه يقول أحدهم: اعلم أيها المدرّس بأني أجبتك على ما في الكتاب، وإلا فأنا لا أقول بهذا، ولا أعتقده، ولا أصدّقه، ولو قلت ما قلت يا أهل السنة، لا نذهب مذهبكم، ولا نقبل منكم. هذا مقتضى كلامه، مع أنّه طالب في المرحلة المتوسطة، يتلقّى العلم عن مدرّسين من أهل السنة، لكن لما كان الذين يلقّنونهم عقيدتهم على تلك العقيدة، لم يتقبّلوا حتّى هذه المسألة الفرعية التي هي من فروع المسائل، ولكن الذين نقلوها من الصحابة الذين يطعن فيهم الرافضة، الرافضة لا يقبلون كلام أبي بكر ولا عمر ولا عثمان ولا طلحة والزبير ولا عبد الرحمن بن عوف ولا أبي عبيدة، ولا غيرهم من أكابر الصحابة ولا رواية أبي هريرة ولا عائشة ولا حفصة ولا غيرهم؛ لأنهم يعتقدون أنّهم كفّار، فلا جرم أن ردّوا هذه المسألة كلياً؛ لأنّهم لا يقبلون أحاديث المسح على الخفين أصلاً.

أما أهل السنة فإنهم يقولون: هذه سنة الرسول ﷺ، وهو الذي علّمنا الشريعة، وتلقينا عنه علومها، تلقينا عنه الصلاة وكيفيتها وعددها، ولم يكن ذلك متوسّعاً في القرآن؛ من الذي أخبرنا أن صلاة الظهر أربع، والفجر اثنتان، والمغرب ثلاث، غير الرسول ﷺ؟، وكذلك الذي أخبرنا أنّ كلّ ركعة سجدتان، وأنّ في كلّ سجدة دعاء كذا وكذا؟ لا شك أنّ النبي ﷺ، فهو الذي

علّمنا صفة الصلاة، وعلّمنا الطهارة وكيفيتها، وكيفيّة الغسل وموجباته، وما أشبه ذلك، وحيث أنّه هو الذي علّمنا ذلك فهو الذي أيضًا علّمنا هذه السنّة التي هي سنّة المسح على الخفين، ونقلها عنه صحابته الذين نشق بهم، والذين نعرف أنّهم صحبوه مدّة طويلة، والذين نقلوا عنه العلوم الشرعيّة والفرعيّة والأصوليّة نقلًا تامًا، وثبتوا في نقلها، فلا يتهمون في نقلها بنقص ولا زيادة ولا خيانة فيما داموا كذلك فكيف تتوجّه إليهم التّهم، نقول: نقبل هذه السنّة كما قبلنا بقيّة السنن، فما الفرق؟ إذا قبلنا ما نقلوه في العقيدة، فكذلك نقبل ما نقلوه في الأحكام، وما نقلوه في الفروع، فهي سنّة ثابتة متواترة لا شكّ فيها.

أمّا مسألة غسل القدمين، فالرافضة لا يغسلون القدمين ولو كانتا مكشوفتين، بل يكتفون بمسحهما ويستدلون بقراءة الجرّ: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾، وأهل السنّة يحملون الجرّ على أنّه للمجاورة، ويستدلّون بقراءة النّصب: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، يعني: واغسلوا أرجلكم، فهذا متعلّقهم، وأهل السنّة يرون غسل القدمين، وأنها تغسل كما تغسل اليدين إلى المرفقين، ويستدلّون بالسنّة؛ لأنّه تواتر عن النبي ﷺ أنّه كان إذا توضّأ غسل قدميه، ولم ينقل عنه أنّه مسحها وهما ظاهرتان، لم ينقل عنه المسح إلا على الخفين، أما إن لم تكن في خفين فإنّه يغسلها. هذا الذي تواتر عنه، رواه عنه الأعداد الكثيرة من الصحابة رضوان الله عليهم، ورواه عن الصحابة رضوان الله عليهم التابعون، وتلقته الأمة بالقبول قولاً وعملاً واشتهر ذلك فيما بين

المسلمين، وجاءت الرافضة فأنكروا ذلك، وقالوا: نقتصر على المسح.
سبب ذلك أنهم لا يقبلون - كما ذكرنا - أحاديث الصحابة؛ لأن هؤلاء
الصحابة الأجلاء في زعمهم كفار، ولأنهم ارتدوا بعد الرسول ﷺ، هذه عقيدتهم
قاتلهم الله، يكفرون الصحابة وهم الكفار، فأهل السنة عملوا بالسنة المتواترة في
المسح على الخفين وغسل الرجلين إذا لم تكونا في خفين، وخالفهم الرافضة في
ذلك.

وبكل حال هذه مسألة فرعية وليست اعتقادية؛ لأن العقائد إنما تكون في
الأمر التي تحتاج إلى أمر خفي، دليله خفي أو هو من الأمور الغيبية وما أشبه
ذلك من أمور الآخرة ونحوها، وأما مسائل الصلاة والطهارة وما أشبهها، فإنها
من الفروع، ولكنها قد تدخل في الأصول إذا كانت أدلتها قطعية يقينية، وهكذا
مسألة المسح على الخفين مسألة يقينية، إذا كان الثابت فيها أربعين حديثاً،
ووصلت إلى ستة وخمسين بها فيها الروايات المنقطعة التي وصلت من طرق
أخرى، والضعيفة التي قويت بالتواتر، أو نحو ذلك فأصبح الدليل يقينياً، وليس
ظنياً كما يقولون هم، وأصبح الذين عملوا به وأتبعوه من الصحابة، هم الذين
نقلوا لنا كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

قال الشارح:

وَإِذَا قَالُوا: لَفْظُ الْآيَةِ ثَبَتَ بِالتَّوَاتُرِ الَّذِي لَا يُمَكِّنُ فِيهِ الْكُذِبُ وَلَا الْخَطَأُ، فَثُبُوتُ التَّوَاتُرِ فِي نَقْلِ الوُضُوءِ عَنْهُ أَوَّلُ وَأَكْمَلُ، وَلَفْظُ الْآيَةِ لَا يُجَالِفُ مَا تَوَاتَرَ مِنْ السَّنَةِ، فَإِنَّ الْمَسْحَ كَمَا يُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهِ الْإِصَابَةُ، كَذَلِكَ يُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهِ الْإِسَالَةُ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ: تَمَسَّحْتُ لِلصَّلَاةِ، وَفِي الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ بِمَسْحِ الرَّجُلَيْنِ الْمَسْحَ الَّذِي هُوَ قَسِيمُ الْغَسَلِ، بَلِ الْمَسْحُ الَّذِي الْغَسَلُ قَسِمٌ مِنْهُ، فَإِنَّه قَالَ: ﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: إِلَى الْكَعْبِ، كَمَا قَالَ: ﴿إِلَى الْكِرَافِقِ﴾، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ فِي كُلِّ رِجْلٍ كَعْبٌ وَاحِدٌ، كَمَا فِي كُلِّ يَدٍ مِرْفَقٌ وَاحِدٌ، بَلْ فِي كُلِّ رِجْلٍ كَعْبَانِ، فَيَكُونُ تَعَالَى قَدْ أَمَرَ بِالْمَسْحِ إِلَى الْعَظْمَيْنِ النَّاتِيَيْنِ، وَهَذَا هُوَ الْغَسَلُ، فَإِنَّ مَنْ يَمَسَحُ الْمَسْحَ الْخَاصَّ يَجْعَلُ الْمَسْحَ لِظُهُورِ الْقَدَمَيْنِ، وَجَعَلَ الْكَعْبَيْنِ فِي الْآيَةِ غَايَةً يَرُدُّ قَوْلَهُمْ. فَدَعَوَاهُمْ أَنَّ الْفَرَضَ مَسْحُ الرَّجُلَيْنِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ، اللَّذَيْنِ هُمَا مُجْتَمِعُ السَّاقِ وَالْقَدَمِ عِنْدَ مَعْقِدِ الشَّرَاكِ مَرْدُودٌ بِالْكِتَابِ وَالسَّنَةِ.

وَفِي الْآيَةِ قِرَاءَتَانِ مَشْهُورَتَانِ: النَّصْبُ وَالْحَفْضُ، وَتَوْجِيهِهُ إِعْرَابُهُمَا مَبْسُوطًا فِي مَوْضِعِهِ، وَقِرَاءَةُ النَّصْبِ نَعْنُ فِي وُجُوبِ الْغَسَلِ؛ لِأَنَّ الْعَطْفَ عَلَى الْمَحَلِّ إِنَّمَا يَكُونُ إِذَا كَانَ الْمَعْنَى وَاحِدًا، كَقَوْلِهِ:

..... فَلَسْنَا بِالْجِبَالِ وَلَا الْحَدِيدِ^(١)

(١) عجز بيت لعقبة بن هيرة الأسدي، وصدرة: (معاوي إنا بشر فأسجح). انظر: تاريخ دمشق

وَلَيْسَ مَعْنَى: مَسَّحْتُ بِرَأْسِي وَرَجَلِي، هُوَ مَعْنَى: مَسَّحْتُ رَأْسِي وَرَجَلِي، بَلْ ذَكَرَ الْبَاءُ يُفِيدُ مَعْنَى زَائِدًا عَلَى مُجَرَّدِ الْمَسْحِ، وَهُوَ الْإِصْطِقُ شَيْءٌ مِنَ الْمَاءِ بِالرَّأْسِ، فَتَعَيَّنَ الْعَطْفُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَيْدِيكُمْ﴾. فَالسُّنَّةُ الْمُتَوَاتِرَةُ تَقْضِي عَلَى مَا يَفْهَمُهُ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ ظَاهِرِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّ الرَّسُولَ بَيَّنَّ لِلنَّاسِ لَفْظَ الْقُرْآنِ وَمَعْنَاهُ، كَمَا قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ: حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرَأُونَ الْقُرْآنَ: عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَغَيْرُهُمْ: أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُتَجَاوَرُوا هَا حَتَّى يَتَعَلَّمُوا مَعْنَاهَا^(١).

وَفِي ذِكْرِ الْمَسْحِ فِي الرَّجْلَيْنِ تَنْبِيهِ عَلَى قَلَّةِ الصَّبِّ فِي الرَّجْلَيْنِ، فَإِنَّ السَّرْفَ يُعْتَادُ فِيهِمَا كَثِيرًا. وَالْمَسْأَلَةُ مَعْرُوفَةٌ، وَالْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي كُتُبِ الْفُرُوعِ.

قال الشيخ:

هذا يتعلق بغسل القدمين والإنكار على من يمسح القدمين كالرافضة، وهم يستدلون بقراءة الخفض {وَأَمْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ} والجواب: أننا نستدل بقراءة النصب، فالقراءتان تفسر إحداهما الأخرى. هذا من جهة.

ومن جهة ثانية: أن المسح يطلق على الغسل، يسمى الغسل مسحاً؛ تقول العرب: تمسحت للصلاة، يعني غسلت أعضائي غسلًا خفيفًا، فالأمر بقوله:

(١) أخرجه أحمد (٤١٠/٥)، وابن أبي شيبة (٤٦٠/١٠)، والطبري (٦٠/١).

﴿وَأَمْسَحُوا بِرءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، أي: اغسلوها غسلًا خفيفًا، قيل: إن سبب ذلك أن القدمين مظنة الإسراف؛ لأنهما قد يحتاج إلى كثرة صب الماء عليهما، ولأجل ذلك نهي عن الإسراف في صب الماء، فأمر بالغسل الخفيف الذي هو المسح.

وهناك جواب ثالث وهو أن الله حدّد موضع الغسل في اليدين والرجلين أي نهايته، ففي اليدين قال: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾، ومعلوم أن التحديد يدل على أنه مغسول، تُغسل اليد إلى المرفق، ثم قال: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾، فبيّن أنّها تغسل إلى الكعبين حيث ذكر النهاية، ولم يذكر ذلك في الرأس حيث قال: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرءُوسِكُمْ﴾، ولم يقل إلى القُدال، أو إلى العنق، أو إلى الأذن، بل أطلق ﴿وَأَمْسَحُوا بِرءُوسِكُمْ﴾، فالمسح لم يذكر له تحديداً، والغسل ذكر له تحديداً إلى الكعبين، والكعبان: هما العظمان اللتان في ظاهر القدم. والرافضة يقولون إنّ الكعب هو العظم الذي في المفصل، وهو كعب واحد، فيقولون: إنّ في كلّ رجل كعباً واحداً، وهو العظم الذي في المفصل بين الكعبين وبين الساق، ولو كان كذلك لقال: إلى الكعاب، كما قال إلى المرافق.

وعلى كلّ حال، فتنصيل الكلام في المسألة لا يطل به، والمسألة ظاهرة جليّة والحدود جمة.

كان من جملة ما مرّ بنا من أمور العقيدة وآثارها: مسألة المحبة والبغض والولاء والبراء، وهو أن أهل السنة يحبّون أهل الإيمان وأهل التقوى، ويبغضون

أهل الكفر والعناد، يحبون أهل الطاعات، ويبغضون أهل المعاصي، وينتج من آثار هذه المحبة الولاء لمن يحبونه، والمعاداة والبغضاء لمن يبغضونه، ويكون سبب الولاء والبراء هو آثار الطاعة وآثار المعاصي. وهذه صفة مدح بها الله أوليائه، مدح بها صحابة نبيه ﷺ؛ وذلك أنهم لَمَّا أَلَفَ اللهُ بينهم جمعهم على الإيمان، وَلَمَّا اجتمعت كلمتهم على تقوى الله تعالى تآلفوا فيما بينهم، فصار يحب بعضهم بعضًا، ويألف بعضهم بعضًا، ويوالي بعضهم بعضًا ويقرب بعضهم بعضًا، بل وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ مَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، وهل أكثر من هذا الوصف؟ أنهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، يقدمون إخوتهم في ذات الله تعالى على مصالحهم الدنيوية، ويقدمونهم على شهواتهم الدنيوية، فيؤثر أحدهم أخاه بالطعام ويبيت جائعًا، ويؤثره بالشراب ويبيت ظامئًا، ويؤثره بالكسرة الجميلة، ويؤثره بالمكان الوطيء والمركب اللين ونحو ذلك، من باب المحبة التي رسخت في قلوبهم، فهم لما أحبوا الله تعالى أحبوا أوليائه، وأحبوا من يحبه، ومحبة المحبوب محبوب.

هكذا وصفهم الله تعالى، وألف بين قلوبهم، بالرغم مع تباعدهم في الأرحام، وتباعدهم في الأنساب، وتباعدهم في البلاد، ولكن جمعهم وصف الإيمان، وتآلفت قلوبهم ولو كانوا قبل ذلك متعادين ومتقاتلين ومتناحرين. فهم قبل الإسلام كان بعضهم ينهب بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا، ويقتل بعضهم

بعضًا؛ لأنّه لم يوجد إيمان يؤلف بينهم، ويجمع بين قلوبهم، فلمّا من الله عليهم بهذا الإيمان تآلفوا وتآخروا وتقاربوا، وهذا من الله تعالى لا من خلقه، ولهذا امتنّ على رسوله ﷺ بجمعهم عليه، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصِيرَةٍ وَالْأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ تَوَافَقَتْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَأَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣]، فتأليف القلوب هو اجتماعها وتجاؤها وتوادها، ولو كانوا متباينة أنسابهم، فبعضهم من الحبشة كبلال، وبعضهم من الروم كصهيب، وبعضهم من الفرس كسليمان، وبعضهم من العرب، وبعضهم من العجم، ولكن جمعهم الوصف الوحيد الذي هو الإيمان بالله تعالى. فلنا بهم قدوة، وكذلك كلّ المسلمين في كلّ زمان وفي كلّ مكان، يتآلفون فيما بينهم ويتوادون ويتحابون.

وكذلك أيضًا من آثار التواد لأجل الإيمان: السبغض لأجل الكفر والنفاق؛ لأن الكفر والإيمان ضدّان لا يجتمعان، فلا يجتمع أنّك تحبّ الله وتحبّ أعداءه، فإذا أحببت الله أحببت أوليائه، وأحبيت طاعته وأحبيت أهل طاعته، وإذا أحببت أوليائه فلا بدّ أن تبغض أعداءه، ولا بدّ أن تبغض من يبغضهم الله، وتقاطعهم وتعاديتهم وتبتعد عنهم كلّ الابتعاد؛ وذلك لأن ربّك الذي أنعم عليك يبغضهم، وأنت تبغضهم لأجل ذلك، ومبغض المحبوب مبغوض، والذين يبغضهم محبوبك لا بدّ وأن تبغضهم، وهذا ما جرى للصحابّة - رضي الله عنهم - ومن بعدهم، فإن الله تعالى مدحهم فقال: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، لا تجدهم يوادون أهل المحادّة،

ولا تجدهم إلا يباعدونهم ويبغضونهم، لا تجد المؤمنين حقاً يوادون أهل المعصية، وأهل المحادة أبداً، بل لا تجدهم إلا وقد قاطعواهم، وبأينوهم، وخالفوهم، وأبغضوهم، واحتقروهم وحقروا شأنهم، وكرهوا مجالستهم ومؤانسبتهم، وقطعوا الصلة بهم ونفروا منهم ونفروا منهم وحقروا شأنهم، وأذلوهم، وأهانوهم وحرصوا على إهانتهم بكل ما يستطيعون، وإذا استطاعوا أن يقاتلوهم قاتلوهم، ولو كانوا أقرب قريب آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم. ضرب الله مثلاً بهؤلاء الذين هم أقرب الأقارب، الآباء والأبناء هم أقرب الأقارب، فإذا كان الله يبغضهم لمعصيتهم ولأجل خروجهم عن الاستقامة، فإن المؤمن يبغضهم، يحبهم من أجل النسب، ولكن يبغضهم لأجل المعصية، يبغضهم لأجل الخروج عن طاعة الله، هكذا يكون أولياء الله، يبغضون من أبغضه الله تعالى، ولو كانوا أقارب، ويحبون من يحبه الله تعالى ولو كانوا أباعد.

كذلك مرّ بنا مسألة فرعيّة، وذكرنا أنّها أدخلت في الأصول؛ لأجل أنّ الخلاف فيها مع المخالفين في الأصول، وهي مسألة المسح على الخفين، وذلك لأنّ الرافضة أنكروا المسح على الخفين وصاروا مع ذلك يمسحون على القدمين المكشوفين، فتركوا سنة وارتكبوا بدعة، ولما كانوا مخالفين في العقيدة مخالفين في محبة الصحابة، بل يبغضونهم، كذلك يغفلون في بعض الصحابة ويعبدونهم، ونحن نخالفهم في هذا المعتقد الذي هو بغض الصحابة وردّ السنة والطعن في الكتاب والسنة ونحو ذلك، وكانوا أيضاً مخالفين لنا في هذه السنة التي هي المسح على الخفين، فكانوا لا يرون ذلك ولا يعتقدونه، وأضافوا إلى ذلك بدعة أخرى

وهي أتهم يمسخون على القدمين المكشوفين؛ لأتهم لا يقبلون السنة، ولا يعملون بالأحاديث الصحيحة التي في صحيح البخاري ومسلم، بل ولا يعترفون بهما، ولا يعترفون بأكثر الصحابة - رضي الله عنهم - وبأكثر الأسانيد التي وردت في الكتب، فلما كان كذلك لم يقبلوا هذه السنة، مع أنها سنة ماثورة متواترة نقلها جم غفير من الصحابة - رضي الله عنهم - عن النبي ﷺ، ورواها عن الصحابة - رضي الله عنهم - الجم الغفير أيضا، واشتهرت في عهد التابعين وتابعي التابعين، وعمل بها أهل السنة في مختلف البلاد وعلى اختلاف الطبقات، وانفردت الرافضة بأن أنكرت هذه السنة مع شهرتها.

فلأجل ذلك صار الذين ينكرونها محل سوء ظن، كما ذكرنا عن ابن المبارك قوله: «إن الرجل ليسألني عن حكم المسح على الخفين فأسيء به الظن». يعني: يتهم بأنه من الرافضة، وهذا هو المعمول به، أنه لا ينكرها إلا هؤلاء الرافضة فلا التفات لهم، وأما أحكام المسح على الخفين فمذكورة في كتب الأحكام.

قال الطحاوي:

وَالْحَجُّ وَالْجِهَادُ مَا ضَيَّانٍ مَعَ أَوْلِي الْأَمْرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، بَرُّهُمْ وَفَاجِرُهُمْ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، لَا يُبْطَلُهُمَا شَيْءٌ وَلَا يَنْقُضُهُمَا.

قال الشارح:

يُشِيرُ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - إِلَى الرَّدِّ عَلَى الرَّافِضَةِ، حَيْثُ قَالُوا: لَا جِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَخْرُجَ الرَّضَا مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ، وَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: اتَّبِعُونِي!! وَبُطْلَانُ هَذَا الْقَوْلِ أَظْهَرُ مِنْ أَنْ يُسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بِدَلِيلٍ. وَهُمْ شَرَطُوا فِي الْإِمَامِ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا، اشْتِرَاطًا بَغَيْرِ دَلِيلٍ! بَلْ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»^(١) عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكِ الْأَشْجَعِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «خِيَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ، وَشَرَّ أَرْأْسِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا تُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ: «لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، أَلَا مَنْ وُلِيَ عَلَيْهِ وَالِ فَرَّاهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَلْيُكْرِهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَتِهِ».

وَقَدْ تَقَدَّمَ بَعْضُ نِظَائِرِ هَذَا الْحَدِيثِ فِي الْإِمَامَةِ. وَلَمْ يَقُلْ: إِنَّ الْإِمَامَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا. وَالرَّافِضَةُ أَخْسَرُ النَّاسِ صَفَقَةً فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ؛ لِأَنَّهُمْ جَعَلُوا الْإِمَامَ الْمَعْصُومَ هُوَ الْإِمَامَ الْمَعْدُومَ، الَّذِي لَمْ يَنْفَعَهُمْ فِي دِينٍ وَلَا دُنْيَا!! فِيمَا نَمَّ يَدَّعُونَ أَنَّ

(١) برقم (١٨٥٥).

الإمام المنتظر، مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيِّ، الذي دَخَلَ السَّرْدَابَ فِي رَعْمِهِمْ، سنة سِتِّينَ وَمِائَتَيْنِ، أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ بِسَامَرَا! وَقَدْ يُقِيمُونَ هُنَاكَ دَابَّةً، إِمَّا بَغْلَةً، وَإِمَّا فَرَسًا، لِيُرْ كَبَهَا إِذَا خَرَجَ! وَيُقِيمُونَ هُنَاكَ فِي أَوْقَاتٍ عَيْنُوا فِيهَا مَنْ يُنَادِي عَلَيْهِ بِالْخُرُوجِ: يَا مَوْلَانَا، اخْرُجْ! يَا مَوْلَانَا، اخْرُجْ! وَيُسْهِرُونَ السَّلَاحَ؛ وَلَا أَحَدَ هُنَاكَ يُقَاتِلُهُمْ! إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَضْحَكُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا الْعُمَّالَاءُ!!

وقوله: (مع أولي الأمر برهم وفاجرهم)؛ لِأَنَّ الْحُبَّ وَالْجِهَادَ فَرَضَانِ يَتَعَلَّقَانِ بِالسَّفَرِ، فَلَا بُدَّ مِنْ سَائِسِ يَسُوسُ النَّاسَ فِيهِمَا، وَيُقَامُ فِيهَا الْعَدُوُّ، وَهَذَا الْمَعْنَى كَمَا يَحْضُلُ بِالْإِمَامِ الْبَرِّ يَحْضُلُ بِالْإِمَامِ الْفَاجِرِ.

قال الشيخ:

يتعلق هذا بالإمامة، وهي الولاية العامة والولاية الخاصة، وذلك لأن أهل السنة يرون السمع والطاعة للأئمة، وقد تقدم الاستدلال على ذلك بمثل قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وبمثل قوله ﷺ لحذيفة بن اليمان ﷺ: «تَسْمَعُ وَتَطِيعُ لِلْأَمِيرِ وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ فَاسْمَعِ وَأَطِعْ»^(١)، وقوله ﷺ: «أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا»^(٢)، وفي حديث أبي ذر ﷺ قال: «إِنَّ خَلِيلِي أَوْصَانِي أَنْ أَسْمَعَ وَأَطِيعَ،

(١) تقدم ترجمته (٣/ ٦٤٤).

(٢) تقدم ترجمته (١/ ٤٣).

وَإِنْ كَانَ عَبْدًا مُجَدَّعَ الْأَطْرَافِ»^(١).

وفي هذا الحديث الذي أورده الشارح: آتاه ﷺ قال: «خيارُ أئمتِّكم الذين يُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ، وَشِرَارُ أئمتِّكم الذين تَبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»، قال: قلنا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نُنَادِيهِمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ: «لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ...».

قوله: «تُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ»، أي: تدعون لهم ويدعون لكم، «وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ»، أي: تدعون عليهم ويدعون عليكم، «مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ»، أي: ما داموا يقيمون الصلاة فيكم، فيبنون المساجد، ويعتنون الأئمة والمؤذنين، ويرفعون صوت الأذان في كل وقت، ويجتمع المصلون ويقيمون الصلاة جماعة؛ لأن الصلاة هي شعار الإسلام وشعار المؤمنين.

فهذه الأدلة تدل على وجوب السمع والطاعة للأئمة، ولو كان فيهم شيء من النقص، ولو حصل فيهم شيء من الخلل والمعصية؛ لأن الاجتماع على الأئمة مصلحة للأئمة؛ لأن ترك الاجتماع والتفرق والاختلاف يكون سبباً للنهب والسلب والضرب والقتل، فيكون الضعيف نهياً للقوي، وليس هناك من يأخذ حقه، وتسلب الأموال، ولا يكون هناك حدود، ولا إنصاف للمظلوم إلا بهذه الولاية. فهذا هو السبب في أنه أمر بالسمع والطاعة لولاية الأمور، بل حرص على أن يكون في كل طائفة أمير يرجعون إليه، فقد قال ﷺ: «إِذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ

(١) تقدم تخرجه (١٩/٤).

فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ»^(١)، فإذا كانوا ثلاثة أو أكثر وقد خرجوا في سفر فليؤمروا واحداً منهم؛ ليرجعوا إليه ويستشيرونه ويشير عليهم، كل ذلك حث للأمة أن يسمعوا ويطيعوا الولاة أمورهم.

وقد تقدّم شرح حقوق الأئمة وما يجب لهم، ولكن ذكر هنا أنّ الجهاد والحج ماضيان مع الأمراء أبراراً كانوا أو فجاراً كما وردت بذلك السنة، وكما عمل بذلك السلف الصالح، فكانوا يحجّون ويكون أمير الحجّ أحد الولاة، وقد يكون سفيهاً، وقد يكون فيه شيء من النقص، فقد يؤخّر الصلاة عن وقتها مثلاً، وقد يستمع شيئاً من اللهو، وقد يتعاطى شيئاً من الأشربة المكروهة كالنبيذ ونحوه، ولكن مصلحة جمعه لهؤلاء الحجاج، وحمائتهم عن قطع الطريق مصلحة كبيرة لا يستهان بها.

وقد كانوا في الأزمنة المتقدّمة من عهد الخلفاء إلى عهد قريب لا بدّ أن يكون للحجّ أمير، كل أهل جهة يخرج بهم أمير يتأمر عليهم، وإذا وصلوا إلى مكة تأمر عليهم واحد يرجعون إليه، فأهل العراق يحجّون مع أمير خاصّ بهم يحميهم عن قطع الطريق إلى أن يصلوا إلى مكة، وكذلك أهل الشام، وأهل خراسان، وأهل البحرين، كل أهل جهة وإقليم يجتمعون مئآت وربّما ألوفاً ويسيرون جميعاً، ولا يتفرّقون خوف قطع الطريق، فإذا وصل هؤلاء وهؤلاء إلى مكة، كان الأمير واحداً، وهو الذي يؤدّن فيهم بوقت الوقوف في عرفة، ويؤدّن فيهم بوقت

(١) تقدم تحريجه (٣/٦٥٢).

الانصراف من عرفة، ويؤذّن فيهم بوقت رمي الجمار، وكذلك بوقت الخروج من مزدلفة، وهكذا، ويسرون إذا سار، وينزلون إذا نزل، ويقتدون به، ويقوم لهم الأحكام، ويعلمهم المناسك.

في الأثر عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنه سُئل: متى نرمي الجمار؟ فقال: «إذا رمى إمامك»^(١)، يعني: انتظر حتى يرمي الإمام، فإذا رمى، فإن ذلك وقت الرمي. فدلّ على أنهم لا يبدؤون برمي الجمار إلا إذا رمى أئمتهم.

في هذه الأزمنة لما أمنت البلاد، وتقاربت الطرق وقُطع دابرُ قطاع الطريق، ونكبوا ولم يبق هناك من يعترض إلا فئة قليلة، صارت الطرق آمنة وأصبحوا ينجّون أفراداً، وجاءت هذه الناقلات الجديدة، الحافلات والسيارات والطائرات والبواخر ونحوها، وسهّلت للناس الطرق، وصاروا لا حاجة إلى أن يستصحبوا أميراً أو يجتمعوا كلهم، فهذا السبب في التساهل في أمر الولاية حتى في المناسك، أصبحوا يعرفون المناسك، وقد حدّدت أماكنها وأوقاتها، وما أشبه ذلك، ولم يعد هناك ضرورة إلى إقامة أمير في الحج.

أمّا بالنسبة إلى الجهاد فمعلوم أنه يحتاج أميراً ذا حنكة ومعرفة بطرق السير، وكذلك بأوقات القتال وبمناسباته، فلاجل ذلك ما كانوا يغزون إلا ومعهم أمير قد عرف الطرق وعرف القتال: وقد صارت له فطنة وتجربة قويّة، فكانت كلّ سرية أو كلّ جيش يخرج للغزو - السرية ما دون الثلاثمئة، والجيش ما فوق ذلك

(١) أخرجه البخاري (١٧٤٦).

إلى عشرين ألفاً أو مئة ألف - فلا يخرجون إلا مع أمير يسير بهم، فيرفق بضعفهم،
 ويزجي متخلفهم، وينتظر منقطعهم، هذا لما كان السير في ذلك الوقت على
 الرواحل التي يكون سيرها بطيئاً، ويحتاجون إلى أن يتأثروا في سيرهم، فكان لا بدّ
 من تأمير واحد عليهم، ثم هو الذي يحدّد لهم وقت القتال، ويعيّن لهم الأماكن
 التي يقيمون فيها، ويقسمهم أقساماً، ويجعل منهم ميمنة وميسرة وقلباً، ويعجّل
 فيهم بالحملة على القتال عندما يأذن لهم، وينصب لهم الرايات والأعلام، لم يكن
 بدّ من أن يكون هذا الأمير ذا تجربة، وقد يكون الأمير فيه شيء من الخلل، أو عليه
 شيء من الخلاف، أو فيه نقص أو عيب، أو يفعل شيئاً من المعاصي، أو يترك شيئاً
 من الطاعات، ولكن لا يكون ذلك العمل الذي يعمله كفرة؛ لقوله ﷺ: «إِلَّا أَنْ
 تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»^(١). يعني: فلا تسمعوا ولا تطيعوا
 ولا تقاتلوا معه والحال هذه. فأمر بأن يقاتل مع هؤلاء ولو كانوا ذوي معصية أو
 خلل أو نقص. وبكلّ حال فهؤلاء الذين أمرنا أن نجاهد معهم ونسير معهم.

في هذه الأزمنة قد يقال: تغيّرت الأحوال، ومع كلّ ذلك لا بدّ لكلّ غزو، أو
 لكلّ رباطٍ من رئيس يرأسهم يمثلون إرشاداته وأوامره، يقفون إذا وقفهم،
 ويرابطون، ولا يراجع أحد منهم إلا بعدما يأذن له. فهذه الأمور لا بدّ من
 اعتبارها.

هذه الأزمنة يقولون إنه تبدلت الأمور التي كانت سائدة قديماً؛ لأنّ

(١) تقدم تحريمه (٣/١١٢).

الأسلحة تغيرت عما كانت عليه، كان القتال قديماً مواجهة بالسيف والرمح والنبال والسهام، وجهاً لوجه، وأما الأسلحة الآن فقد يكتفى بقذفها من بعيد، كالصواريخ والقنابل وما أشبهها، ولكن لا يزال هناك حاجة إلى منقذ وإلى أمير يُطاع في مثل هذه الأمور، هذا هو السرّ في الأمر بطاعة الولاة، وفي الأمر بالحجّ معهم وبالغزو معهم، ولو كان فيهم شيء من النقص أو الخلل.

ثم ذكر أن هذا أتى به الطحاوي ردّاً على الرافضة، والرافضة من عقيدتهم أنه لا يجاهد أحد إلا مع إمام معصوم، ولا يحجّ إلا مع إمام معصوم، ولا يزالون على هذه العقيدة إلى يومنا هذا، لدرجة أنهم لا يصلّون خلفنا؛ لأنهم يرون أن الصلاة لا تصحّ إلا خلف معصوم، أو خلف من يتمسك بعقيدة ذلك المعصوم.

ومعلوم أن الرافضة اعتمدوا أن أئمتهم الذين يعود نسبهم إلى أهل البيت اثنا عشر، وقد انقطعوا، وأولهم الإمام علي عليه السلام، في نظرهم أنه هو الإمام، وأن له الإمامة، وأن خلافة أبي بكر عليه السلام باطلة وأبو بكر عليه السلام مغتصب للخلافة، وكذلك خلافة عمر وعثمان رضي الله عنهما، يدعون أنهم أخذوا ما لا يستحقّونه، ويسبّونهم ويدعون أنهم ظلمة، وكذلك يخونون الصحابة - رضي الله عنهم - الذين بايعوهم وأقرّوهم هذه المدّة، مع أن من بينهم عليّاً وأبناء علي عليه السلام، فهذا معتقدهم. ثم يجعلون بعد عليّ الحسن، ثم بعد الحسن الحسين، ثم عليّ بن الحسين وهو زين العابدين، ثم بعده محمد الباقر، ثم جعفر الصادق، ثم علي الرضى إلى آخرهم، وهو محمد بن الحسن العسكري.

لما أن الحسن العسكري لم يكن عنده أولاد، وكان عندهم أن الإمامة في

ذرية عليّ، ثم في ذرية ذريته، كلّ واحد يخلفه ولده، فلم يكن للحسن العسكري أولاد، وتوفي، وأوحى إليهم الشيطان أنه لا يمكن أن ينقطع الأمر، وأن لا يكون لهم أولاد يخلفونهم، فإذا الثاني عشر من أئمتهم هو محمد بن الحسن العسكري، أين هو؟ دخل سرداب سامراء ولم يخرج، يدعون أنه دخل وهو طفل أو عندما ترعرع، وأنه لا يزال في ذلك السرداب، وأتهم ينتظرونه ليخرج من سنة مئتين وستين أو نحوها، وهم ليس لهم إمام، مع أنهم يقولون: لا تصلح الدنيا إلا بإمام، والإمام لا بدّ أن يكون معصوماً، وأن الإمامة لا تخرج عن ذرية عليّ، ثم ذرية الحسين، ثم ذرية زين العابدين، ثم ذرية الصادق والباقر والرضا إلى الحسن، فلا بدّ أن يكون له ولد يخلفه.

أهل العلم والمؤرخون يقولون: إنّ الحسن العسكري ليس له ولد، مات قبل أن يولد له، ولكن هؤلاء كما كانت العقيدة راسخة عندهم أن نسله لا ينقطع، جاءهم الشيطان، وقال: إنّ له ولداً، ولكنه دخل هذا السرداب، ولا بدّ له أن يخرج فانتظروه، فصاروا ينتظرونه من ألف ومئة وسبع وستين سنة، كانوا في تلك المدة في الأزمنة القديمة يجلسون واحداً ينتظره ويصيح: اخرج يا مولانا، اخرج يا مولانا، ولا يجيبه أحد، وقد جعلوا عند طرف السرداب فرساً، وجعلوا عليها سرجاً، وجعلوا مع الحراس الذين يحرسونها سيوفاً حتى يجموه إذا خرج، ويدعون أنه سيخرج الآن ويركب الفرس، ويذهب إلى مكانهم، ويقتل أعداءهم، ويتنصر لهم بمن خالفهم، ولا يزالون إلى اليوم على هذه الطريقة يؤملون خروجه. في زمن الشارح كانوا يقيمون عند السرداب فرساً، والآن لا أدري أستبدلوا

مكان السرداب سيارة أم غيرها؟ وقد ذكروا أنهم جعلوا هناك دباباً مهيئاً لركوبه، فهم لا زالوا ينتظرونه. وهذا غاية الحمق، وغاية الضلال.

لما ذكر ابن القيم في آخر كتابه «المنار المنيّف»^(١) حالتهم، وأنّ الحسن

العسكري هو منتظرهم، وأنّهم لا يزالون ينتظرونه، أشدّ قول الشاعر:

مَا أَنْ لِلسَّرْدَابِ أَنْ يَلِدَ الَّذِي كَلَّمْتُمُوهُ بِجَهْلِكُمْ مَا أَنَا
فَعَلَى عَقُولِكُمُ الْعَقَاءِ فَإِن كُمْ نَلَّسْتُمُ الْعَنْبَاءَ وَالْغِيَالَانَا

السرداب الذي تحرسونه ما أنّ له أن يلد الولد الذي حملتموه به، فلا بد للحامل أن تلد، فمتى يلد هذا السرداب هذا الولد؟ فلا بد أنّكم ممسوخو العقول. وهذا غاية السفه، وغاية الضلالة، يشترطون أن يكون للدنيا إمام معصوم، وأنّ الدنيا لا تخلو من إمام معصوم، وأنّ ذلك الإمام هو الذي يدبّر الناس، ويدبّر الأمور! إمامكم يا معشر الرافضة لم ينفعكم، فمنذ ألف ومئة وسبع وستين سنة لم تنتفعوا بهذا الإمام الذي تزعمونه.

هذه حالتهم، ولكنّهم لمّا أن استعمل عليهم قريباً الخميني، الذي سمّوه آية الله الخميني، قالوا له نتظر أن يخرج المهدي المنتظر، يعني العسكري. فيقولون: إنّهُ قال: نحن نخلفه حتّى يخرج، خدعهم بذلك، وادّعوا أنّهُ خليفة عن المهدي المنتظر، الذي هو محمد بن الحسن العسكري؛ ولذلك صاروا يطيعونه، ويقدّسونه تقديساً يخرج عن المعتاد، كما ذكر لنا من صحبهم أنّه عندهم كأنّه رسول، بل قد

يشرع لهم، ويأمرهم بأوامر لا يأمر بها إلا الرسل، أو من يتلقى عن الرسل،
يطيعونه بذلك؛ لأنه عندهم خليفة المهدي المنتظر.
وبكل حال فقد خالفوا في هذا الأمر، وهو أنهم لا يطيعون الأئمة في كل
زمان، لا يثبتون خلف أئمة الزمان، بل كثيراً ما يخرجون عن الطاعة وينبذونها
ويقاتلون الأئمة والخلفاء، ويفعلون ذلك كثيراً، إلى أن جاء الوقت الذي تفرقت
فيه الولايات، واستقلت كل دولة في جهتها، فصار كل من تولى بلداً سمّوه رئيساً
وزعيماً وصار يتولى فيمن تولى عليه من رافضة أو غيرهم.

قال الطحاوي:

وَنُؤْمِنُ بِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَهُمْ عَلَيْنَا حَافِظِينَ.

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ﴾ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْمَلُونَ مَا تَقُولُونَ ﴿[الانفطار: ١٠-١٢]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يَنْتَقِي الْمَلَائِكَةُ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قِيْدٌ﴾ (١٧) مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَبِيدٌ ﴿[ق: ١٧، ١٨]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا رُسُلْنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ١٢].

وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، فَيَضَعُدُ إِلَيْهِ الَّذِينَ كَانُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِهِمْ. كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَفَارَقْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»^(١). وفي الحديث الآخر: «إِنَّ مَعَكُمْ مَنْ لَا يُفَارِقُكُمْ إِلَّا عِنْدَ الْخَلَاءِ وَعِنْدَ الْجَمَاعِ، فَاسْتَحْيُوهُمْ، وَأَكْرِمُوهُمْ»^(٢).

(١) تقدم تخريجه (١٤١/٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٠٠) بنحوه، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقال: «هذا حديث

غريب». وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٤٦/٦) من حديث زيد بن ثابت ؓ.

جَاءَ فِي التَّفْسِيرِ: اثْنَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ، يَكْتُبَانِ الْأَعْمَالَ، صَاحِبُ الْيَمِينِ يَكْتُبُ الْحَسَنَاتِ، وَصَاحِبُ الشِّمَالِ يَكْتُبُ السَّيِّئَاتِ، وَمَلَكَانِ آخِرَانِ يَحْفَظَانِهِ وَيَحْرُسَانِهِ، وَاحِدٌ مِنْ وَرَائِهِ، وَوَاحِدٌ أَمَامَهُ، فَهُوَ بَيْنَ أَرْبَعَةِ أَمْلَاقٍ بِالنَّهَارِ، وَأَرْبَعَةَ آخِرِينَ بِاللَّيْلِ، بَدَلًا، حَافِظَانِ وَكَاتِبَانِ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿يَحْفَظُونَ نَسْمَانَ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، قَالَ: مَلَائِكَةٌ يَحْفَظُونَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، فَإِذَا جَاءَ قَدْرُ اللَّهِ خَلَّوْا عَنْهُ (١).

قال الشيخ:

نؤمن بالكرام الكاتين وبالملائكة الحافظين، نؤمن بهم كما أمرنا الله، وإن كنا لا نراهم، ولكن الإيمان بهم من أمر الغيب، وذلك لأن الله تعالى أخبر عن أشياء غيبية، فنحن نقبل بها ونصدقها، ويكون لتصديقنا آثار.

أخبرنا عن هؤلاء المخلوقين، فإن الملائكة مخلوقون وإن كنا لا نراهم، يكون أحدهم خلفنا أو أمامنا أو عن جانبينا ولا نراه، كما أخبرنا أيضًا بأن الشياطين يكونون معنا ولا نراهم، بل أخبر بأن الشيطان يلبس الإنسان، ويجري منه مجرى الدم، ويوسوس في صدور الناس، ومع ذلك لا نحس بهم ولا نراهم، فالإيمان بهم من الإيمان بالغيب الذي مدح الله أهله بقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٢) الَّذِينَ:

(١) تقدم تخريجه (٣/١٣٩).

يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿البقرة: ٢، ٣﴾؛ لأنه إيمان بشيء خفي، ولكن العمدة فيه خبر الله تعالى، وخبر الله صدق وحق، وكذلك خبر الرسل المصدقين، تؤمن بما جاؤوا به وتقبله، وإن كان ذلك خلاف ما نألفه ونعرفه، وخلاف ما يقوله من يقوله، وينكره من ينكره، فلا نلتفت إلى إنكار من أنكروا؛ لأن الذين أنكروا وجود الشياطين أو وجود الأرواح أو أنكروا الملائكة، أو أنكروا وجود الجن أو نحو ذلك لم يتسع فهمهم للأمور الغيبية، ولا للأمور السماوية، ولا للقدرة الإلهية، فلاجل ذلك لم يتجاوزوا ما يدركون بالحس، فهؤلاء إيمانهم ناقص.

الحاصل: أن الكلام على الملائكة، الكرام الكاتبين ذكره الله تعالى في كتابه الكريم، مثل قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿الانفطار: ١٠-١٢﴾، حافظين: يحفظونكم، وكاتبين: يكتبون أعمالكم، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ يُلْقَى الْمُتَلَقَاتِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿ق: ١٧، ١٨﴾، هذان الرقيب والعتيد، هما الملكان اللذان يكتبان الحسنات والسيئات، الذي على اليمين يكتب الحسنات، والذي على الشمال يكتب السيئات، وذكروا أنّ الذي على اليمين أمير على الذي على الشمال، إذا عمل سيئة قال له: لا تكتبها رجاء أن يتوب ويستغفر، فإذا استمر عليها كتبت سيئة، وإذا عمل الحسنة كتبها صاحب اليمين عشر حسنات كما ورد في الحديث وفي القرآن.

هؤلاء هم الحفظة للأعمال، وللأقوال ﴿تَأْيِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾، آية لفظة يتلفظ بها
 إلا وتكتب وتسجل في سجل هؤلاء الملائكة، كتابة الله أعلم بها، قد تكون
 بالأحرف، أو غير ذلك، لهم قدرة على الكتابة وإن كانت ما كانت، وكذلك
 يكتبون كل الأعمال، ولذلك وصفهم بقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، يعلمون
 كل ما تفعلونه، أو كل ما يدور في بال أحدكم، فإنه مكتوب، ويطلعهم الله على
 أعمال القلوب، أعمال القلوب التي تكنها القلوب، يثاب عليه العبد أو يعاقب،
 فيثاب على النصيحة، ويعاقب على الحسد والغل والغش، ويثاب على الإيمان
 الذي هو التصديق الجازم، ويعاقب على النفاق الذي هو الشك والريب، والذي
 هو من أعمال القلوب. فلا بد أن الملائكة يعلمونها؛ لقوله - عز وجل -: ﴿يَتْلُونَ مَا
 تَفْعَلُونَ﴾، هؤلاء هم الكتبة، ويسمّون أيضًا حفظة الأعمال.

وهناك أيضًا الحفظة الذين يحفظون الإنسان من الأضرار والأخطار التي
 يتعرض لها، حتى يأتي الأمر الذي قدره الله تعالى فيخلون بينه وبينه، وهم
 المذكورون في سورة الرعد في قوله: ﴿لَهُ مُّحَقَّبَتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ﴾
 من أمر الله ﴿الرعد: ١١﴾، أي: يحفظونه بأمر الله، فإذا جاء الأمر الذي قدره الله،
 فإنهم يخلون بينه وبينه، ويدفعون عنه الأمور التي لم يقدرها الله عليه، فيدفعون
 عنه الشرور، والآفات، والأضرار، ويدفعون عنه الاعتداءات التي ما كتبها الله
 تعالى. فهم أربعة: ملكان عن اليمين وعن الشمال يحفظون أعماله، وملكان أمامه
 وخلفه يحفظون جسده عما لم يكتب عليه، فيبيت بين أربعة، ويصبح بين أربعة،

موكل بكل إنسان ثمانية أربعة بالليل وأربعة بالنهار، فهؤلاء هم المعقبات الذين يتعاقبون. كما في الحديث: «يَتَعَاقِبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْمَعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، فَيُصْعَدُ إِلَيْهِ الَّذِينَ كَانُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ - وَاللَّهِ أَعْلَمُ بِهِمْ -: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَفَارَقْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»^(١). هذا من حفظ الله تعالى لأعمال العباد، الله تعالى قادر أن يحفظ عباده وأعمالهم من دون وكيل ومن دون كتابة، ولكنه أراد بذلك قيام الحجة على العبد حتى لا يقول إني ظلمت وإني ما عملت كذا وكذا، بل يجد ما عمله كله مدوناً، فينشر له سجل بأعمال حسناته وسيئاته، ويقال له:

﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤].

وصف الله المتقين بالإيمان بالغيب، قال تعالى: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ

بِالْغَيْبِ ﴾ [البقرة: ٢، ٣]، والغيب: كل ما أخبر الله به من الأمور الغائبة، التي ما رآها جنس البشر، وإن كان الله قد يطلع عليها بعض عباده.

ومن الإيمان بالغيب: الإيمان بالملائكة، الذي هو ركن من أركان الإيمان الستة. فالإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره. والمذكور في قول الله تعالى: ﴿ ءَأَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ - وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فالإيمان بالملائكة وأنهم

(١) تقدم تحريجه (٣/١٤١).

مخلوقون لله تعالى، وإن كنا لم نرهم، وأتتهم مسخرون في أمر الله، وأتتهم مطيعون له، وأن لهم وظائف، ولهم أعمال، فمن جملة الملائكة الذين نؤمن بهم الحفظة، الذين يحفظون الإنسان، ويحفظون الأعمال.

والحكمة في الإخبار عنهم: أن يؤمن الإنسان بأنه غير مهملي، وبأن أعماله محفوظة، فإذا آمن الإنسان بهذا، فما نتيجة هذا الإيمان، وما علامة هذا الإيمان؟ لا شك أن علامة التصديق الجازم أن يكثر من الحسنات ويتحفظ من السيئات، إذا علم أن سيئاته مكتوبة ومدونة، وأنه لا يد أن يحاسب عليها، حرص على أن يتعد عنها وأن يقلل منها، وإذا علم أن حسناته مكتوبة وأنها مرادة، وأنه سيلقى جزاءها في اليوم الذي هو بحاجة إلى حسنة تزيد في أعماله، حرص في هذه الحياة على أن يتزود من الحسنات، وأن يشغل وقته كله بعمل الخير الذي يكون في سجل حسناته.

هذه نتيجة الإيمان بالملائكة عمومًا، والإيمان بالملائكة الحفظة، ويعرف أيضًا أنه ليس بمهملي، وليس بمطلق السراح، وليس له الحرية، وليس له التصرف في نفسه، بل هو مأمور ومنهي، ومحاسب ومجزى، وهو أيضًا محفوظ أوقاته، ومحفوظة أعماله، ومدونة حسناته وسيئاته.

نرى كثيرًا من الناس يقولون: نعم، نحن نؤمن بالغييب، ونؤمن بالملائكة، ونؤمن بالكرام الكاتبين، ونؤمن بكتاب الحسنات والسيئات، ونعلم أننا محفوظة علينا أعمالنا، ولكن مع الأسف تجدهم متهاكين في السيئات، مقبلين من الحسنات، إذا ذكرتهم قد يتبهون، إذا قلت له: يا أخي، كلامك هذا الذي أكثرت

منه في هذا المجلس، فكّر هل هو في سجلّ حسناتك أو في سجلّ سيئاتك؟ عند ذلك يتبّه. إذا قلت له: كلامك هذا هل هو لك أو عليك؟ ينظر ويفكّر ويقول: صحيح أن أكثره عليّ لا لي، أن أكثره لا يزيدني بل ينقصني، وأكثره لا ينفعني بل يضرّني. إذا لماذا تكثر من هذا الكلام الذي تعلم أنّه يضرّك، ولماذا تكثر من الأفعال التي تضرّك ولا تنفعك؟!^(١)

يقول بعض السلف: من عرف أن كلامه من عمله، قلّ كلامه إلاّ فيما يعنيه. ويستدلّ عليه بقوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَن أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١٤]، نجواهم: كلامهم الذي يتكلمون فيه، ومثل ذلك الحديث المروي: «كُلُّ كَلَامٍ بَنِ آدَمَ عَلَيْهِ لَا لَهُ إِلَّا أَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيٌ عَنِ مُنْكَرٍ أَوْ ذِكْرٌ لِلَّهِ»^(١). فكلّ ما ينطق به الإنسان وكل ما يتلفظ به، فإنّ لديه رقيب وعتيد موكلان به، فليحاسب نفسه عند الكلام قبل أن ينطق به، وكذلك عند الأفعال قبل أن يفعلها، وينظر فيما ينفعه أو فيما يضرّه. والذي لا يتبّه ناقص العقل أو ناقص المعرفة.

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٢)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (ص ٨، ٩)، وابن ماجه

(٣٩٧٤)، وعبد بن حميد (١/٤٤٨)، وأبو يعلى (١٣/٥٦)، والحاكم (٢/٥١٢) من

حديث أم حبيبة رضي الله عنها.

قال الشارح:

وروى مسلم^(١) والإمام أحمد^(٢) عن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وَكَّلَ بِهِ قَرِينَهُ مِنَ الْجِنِّ، وَقَرِينُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ»، قالوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَإِيَّايَ، لَكِنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ». الرَّوَايَةُ بِفَتْحِ الْمِيمِ مِنْ: «فَأَسْلَمَ»، وَمَنْ رَوَاهُ: «فَأَسْلَمَ» بَرَفَعَ الْمِيمِ، فَقَدْ حَرَفَ لَفْظَهُ. وَمَعْنَى «فَأَسْلَمَ»، أَي: فَاسْتَسَلَمَ وَانْقَادَ لِي، فِي أَصْحَحِ الْقَوْلَيْنِ؛ وَهَذَا قَالَ: «فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ»، وَمَنْ قَالَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ صَارَ مُؤْمِنًا فَقَدْ حَرَفَ مَعْنَاهُ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا.

ومعنى: ﴿يَحْفَظُونَ نُسُوحَ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، قِيلَ: حَفِظْتَهُمْ لَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، أَي اللَّهُ أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ، يَشْهَدُ لِذَلِكَ قِرَاءَةَ مَنْ قَرَأَ: ﴿يَحْفَظُونَهُ بِأَمْرِ اللَّهِ﴾^(٣). ثُمَّ قَدْ نَبَتَ بِالنُّصُوحِ الْمَذْكُورَةِ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَكْتُبُ الْقَوْلَ وَالْفِعْلَ، وَكَذَلِكَ النَّبِيُّ؛ لِأَنَّهَا فِعْلُ الْقَلْبِ، فَدَخَلَتْ فِي عُمُومِ ﴿يَعْمَلُونَ مَا تَأْمُرُونَ﴾ [الانفطار: ١٢]. وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَارْتَبُوهَا عَلَيْهِ سَيِّئَةً، وَإِذَا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَارْتَبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا فَارْتَبُوهَا عَشْرًا». وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: ذَلِكَ

(١) برقم (٢٨١٤).

(٢) في المسند (١/٣٨٥).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١١٨/١٣).

عَبْدٌ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ، فَقَالَ: ارْزُقُوهُ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَارْتَبُوهَا بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا فَارْتَبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّائِي»، خَرَجَاهُمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ^(١).

قال الشيخ:

الحديث الذي بدأ به الشارح في بيان أن الإنسان موكلٌ به ملائكةٌ يأمرونه بالخير، وهناك شياطين يأمرونه بالشر، ويسمى هذا قريناً وهذا قريناً، الجنّي الذي هو الشيطان قرين سوء، والملاك قرين خير، وقد ورد في الحديث: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ، وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَايْعَادُ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبُ بِالحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَكِ فَايْعَادُ بِالحَيْرِ وَتَصْدِيقُ بِالحَقِّ»^(٢).

الشيطان من أهل النار، ومن المعذّبين بها؛ لأنه خلق من النار، فأقدم على العذاب وأقدم على اللعنة، وأقسم أن يغوي جنس الإنسان، وأن يحرص على أن يخرج من الإيمان، أقسم بذلك، وقال: ﴿لَا تَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ (١١٨) وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا امْتَنَيْتَهُمْ وَلَا مَرَدَّهُمْ فَلْيَبْتَئِكُنَّ إِذَا كُنَّ الْأَنْعَامُ وَلَا مَرْتَبَهُمْ فَلْيَغَيِّرْ

- (١) أخرج الرواية الأولى: البخاري (٧٥٠١)، ومسلم (١٢٨) من حديث أبي هريرة ؓ. وأخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وانفرد مسلم بالرواية الثانية (١٢٩) من حديث أبي هريرة ؓ.
- (٢) أخرجه الترمذي (٢٩٨٨)، والنسائي في الكبرى (١٠٩٨٥)، وأبو يعلى (٤١٧/٨)، وابن حبان (٢٧٨/٣)، والطبراني في الكبير (٨٥٣٢) من حديث ابن مسعود ؓ.

خَلَقَ اللَّهُ ﷻ [النساء: ١١٨، ١١٩]. وتوعد الله تعالى من اتبع الشيطان بقوله:

﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾

يَعِدُّهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﷻ [النساء: ١١٩، ١٢٠]، هذا الشيطان عدو للإنسان، ليس من جنس بني آدم أحد إلا وقد سُلِّطَ عليه شيطان ووكل به ملك، فالملك يأمره بالخير، والشيطان يأمره بالشر.

وقد سأل الصحابة - رضوان الله عليهم - النبي ﷺ: هل سُلِّطَ عليك شيطان ووكل بك ملك؟ قال: «نعم». لكن الشيطان الذي وُكِّلَ بالنبي ﷺ أعانه الله عليه، فيقول ﷺ: «لَكِنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمْتُ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ». وليس معناه أنه أصبح مسلماً، بل المراد أنه أذعن واستسلم، ولم يعد يأمر إلا بالخير؛ لأن الله تعالى عصم نبيه ﷺ عن أن يتسلط عليه الشيطان، فأعانه عليه، كما أن الله تعالى سخر الشياطين لسليمان - عليه السلام - وذلكم له، وصاروا يعملون عنده، قال تعالى:

﴿وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٣٧﴾ وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﷻ [ص: ٣٧، ٣٨]. وأمَّا نبيُّنا ﷺ فذلل الله له شيطانه، فلم يعد يأمره إلا بخير.

أمَّا جنس بني آدم، فإن كل إنسان لا بد أن يتسلط عليه هذا الشيطان ويوسوس له، فإذا رزقه الله قوَّة الإيمان ورزقه قوَّة اليقين، فإن تلك الوسوس التي يوسوس بها الشيطان لا تبقى في قلبه، ولا يصدق بها، بل ينكرها، ويدفعها، هذا حقيقة المؤمن الصحيح الإيمان، ثم يعوضه الله أن الملك الذي هو قرينه يثبته وينشطه ويذكره ويدعوه إلى الخير، ويحثه عليه، فيقوى الجانب الإيماني فإذا قوي

عزم على ترك الأعمال السيئة، وعمل الأعمال الصالحة. فهذا هو المؤمن.

أما ضعيف الإيمان، فإن الشيطان هو الذي يتقوى عليه، وتتمكّن وسوسته من قلبه، وتصده عن الهدى وتوقعه في الردى، ولا ينفعه نصيح الناصحين، ولا ينيب إلى لمة الملك ولا يلتفت إليها، فيبقى بعد ذلك بعيداً عن الخير، مقبلاً على الشر.

وهكذا أصناف الخلق؛ فإما إيمانه ضعيف فيقوى عليه قرين السوء وهو الشيطان، وإما إيمانه قوي فيقوى عليه قرين الخير وهو الملك، والقوة والضعف ليست القوة البدنية، ولكنها القوة الإيمانية، كون الإيمان راسخاً في القلب، إذا جاءته وساوس الشيطان اضمحلت، وإذا جاءته تهيئات الملك تمكّنت وقويت، وهذا هو السبب في انقسام الناس إلى من يكون عدواً لله، ومن يكون ولياً لله، من يكون ولياً للشيطان ومن يكون ولياً للرحمن، فأولياء الرحمن هم الذين أطاعوا الله تعالى وأطاعوا رسله، وصارت الملائكة الذين معهم يرسلونهم إلى الخير فيتبعونهم، وأولياء الشيطان هم الذين استحوذ عليهم الشيطان، فأنساهم ذكر الله. فهذا معنى كون الإنسان معه ملكٌ ومعه شيطان.

فيكون الإنسان معه ملائكة يدعونه إلى الخير ويحثونه عليه، وملائكة يحفظونه، وملائكة يكتبون أعماله. الملائكة الذين يحفظونه هم الذين يقول الله ﴿لَهُمْ مَعْجَبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]؛ وفسرها بعض المفسرين بقوله: يحفظونه امتثالاً لأمر الله تعالى، فإذا جاء القدر

خَلَّوْا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ.

ثم هؤلاء الملائكة الذين هم الحَفَظَةُ يكتبون الحسنات والسيئات، ومرر معنا الحديث المشهور في «الصحیحین»^(١)، حيث أخبر النبي ﷺ أَنَّ فَضْلَ اللَّهِ أَوْسَعُ عَلَى عِبَادِهِ، فَالَّذِي يَهْتَمُّ بِحَسَنَةٍ وَلَا يَعْمَلُهَا يَكْتُبُهَا اللَّهُ حَسَنَةً، وَالَّذِي يَهْتَمُّ بِهَا وَيَعْمَلُهَا يَكْتُبُهَا عَشْرًا، وَالَّذِي يَهْتَمُّ بِسَيِّئَةٍ وَلَا يَعْمَلُهَا يَكْتُبُهَا اللَّهُ حَسَنَةً، وَالَّذِي يَهْتَمُّ بِسَيِّئَةٍ وَيَعْمَلُهَا يَكْتُبُهَا اللَّهُ سَيِّئَةً مِنْ دُونِ مِضَاعِفَةٍ، وَإِذَا رَزَقَهُ اللَّهُ تَرْبَةً مِنْهَا مُجِئَتْ عَنْهُ بِتَوْبَتِهِ، وَإِذَا أَصْرَّ عَلَيْهَا وَعَمِلَ سَيِّئَةً إِلَى جَانِبِ سَيِّئَاتٍ أُخْرَى تَكَاثَرَتْ عَلَيْهِ وَتَرَاكَمَتْ عَلَيْهِ وَأَصْبَحَ مَثْقَلًا بِالسَّيِّئَاتِ، وَلَكِنْ قَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ يَمْحُوهَا بِالتَّوْبَةِ وَيَمْحُوهَا بِالْحَسَنَاتِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]. وقال النبي ﷺ: «وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا»^(٢)، يعني: متى وقعت في سيئة، فأتبعها حسنة، إما حسنة العمل الصالح، وإما التوبة، وإما غير ذلك.

وقد تكلم العلماء على هذا الحد . ث، وبيّنوا المراد منه، وأطالوا الكلام في ذلك، وملخص ما ذكروا: أن الذي يهتم بحسنة، ثم يتركها عجزًا أو تعبًا أو نحوه ذلك، يكتبها الله حسنة وإن لم يعملها، هم مثلًا أن يتصدق على مسكين، ولكن لم يجد في ذلك الوقت شيئًا وفات حاجته، يكتبها الله له حسنة. وإذا هم مثلًا أن يقوم في آخر الليل للصلاة، ولكن غلبه النوم، أو الكسل أو التعب، ولم يتيسر له،

(١) تقدم تخريجه (٤/١٠٤).

(٢) تقدم تخريجه (٣/٣١٢).

يكتب الله له كآته قام، يكتب له ذلك حسنة، فإذا يسّر الله له أن يتصدق، أو يصلي، أو يصوم، أو ذكر الله أو قرأ القرآن، فإنّ الحسنة بعشر أمثالها، ويكتب الدرهم بعشرة دراهم، يكتب الركعة بعشر ركعات، وقد تضاعف أضعافاً أخرى في أوقات أخرى.

أما بالنسبة إلى السيئات، فإذا همّ بسيئة، ولكن تذكر أنّها سيئة، وتذكر عقوبتها وإثمها، وتذكر آثارها على قلبه، وآثارها على سيرته، وآثارها في دنياه وآخرته، من جراء الله، يقول في الحديث: «إِنَّمَا تَرَكَّهَا مِنْ جَرَّائِي»^(١)، فهذا تكتب له حسنة، رغم أنه ما عمل حسنة، ولا عمل سيئة، ولكنه همّ بها، ثم تذكر مخافة الله فتركها، يكتب على الترك حسنة، يقول تعالى: «إِنَّمَا تَرَكَّهَا مِنْ جَرَّائِي»، أما إذا غلبته نفسه، وعمل تلك السيئة، كتبت له سيئة، والسيئات تتكاثر، سيئات النظر، وسيئات السمع، وسيئات الكلام، وسيئات الأكل والشرب، وسيئات المكاسب، لا شك أنّها أيضاً تتكاثر عليه، وإذا عملها كتبها الله بمثلها حتى يتوب عنها.

أما إذا تركها عجزاً، فإنه يآثم ويكون على نيته، فمثلاً همّ بزنى وبذل كل الأسباب، وقصد المكان، وحاول فتح الأبواب، وحاول صعود السلالم أو الحيطان، فلم يجد منفذاً، أو عثر عليه الحرس فقبضوا عليه وجسوه، فمثل هذا يجازي على فعله؛ لأنّه ما تركها خوفاً من الله، ولكن تركها عجزاً. وكذلك إذا همّ بسرقة، ولكنه ما قدر، حاول أن يكسر الأبواب ويفتح الأقفال، ولكنه لم يستطع،

(١) تقدم تخريجه (٤/١٠٤).

فهذا يكتب عليه سيئة، وكذلك لو هم بحسنة ولكن دعتهم نفسه إلى تركها تهاوناً ليس عجزاً، فمثل هذا لا يثاب، وفي بعض الروايات لا تكتب عليه شيئاً. فالحديث هذا مخصوص بما إذا ترك السيئة خوفاً من الله، أو ترك الحسنة عجزاً عنها، أو لعدم توفر أسبابها، وإلا فقد يجازى بما نوى.

وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: «إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةٍ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحْمَهُ، وَيَعْلَمُ اللهُ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرزُقْهُ مَالًا، فَهُوَ صَادِقُ النَّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَلَمْ يَرزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحْمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ اللهُ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرزُقْهُ اللهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَوَزْرُهُمَا سَوَاءٌ»^(١).

الأول: رجل آتاه الله مالا وعلما دينيا، وعمل في ماله بعلمه، فيصل الأرحام، ويتصدق بهاله، وينفق في الجهاد، وينفق في وجوه الخير، ويبني المساجد والمدارس وينشر العلم، يعمل بعلمه في ماله، فهذا بأفضل المنازل: يعني أرقاها، نفعه علمه بتصرف ماله.

الثاني: رجل آتاه الله علما ولم يرزقه مالا، فهو يقول: لو أن لي مثل مال فلان

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٥) واللفظ له، وابن ماجه (٤٢٢٨)، وأحمد (٢٣٠/٤)، والطبراني

في الكبير (٨٦٨) من حديث أبي كبشة الأنباري ؓ.

لعملت فيه مثل عمله، أعطاه الله العلم، فهو يتمنى أن يكون له مال حتى يتصدق ويصل الأرحام، وينشر العلم، وينفق على أبناء السبيل ويجهز الغزاة وينفق في وجوه البر. يقول: فهو بنيته وقصده، وهما في الأجر سواء.

الثالث: رجل آتاه الله مالا، ولم يؤته علما، حرمه من العلم، ورزقه الأموال، فهو ينفقها في المعاصي، فينفقها في قطيعة الرحم، والملاهي، والقتل والزنى، والغناء؛ لأنه لا علم عنده بمآل هذا المال، ولا كيف يكسب فيه الأجر. هذا بأخيث المنازل.

الرابع: رجل حرمه الله، لم يؤته مالا، ولم يؤته علما، ولكن يتمنى أن يكون له مال مثل ذلك الجاهل، ويقول: لو كان لي مال لعملت فيه مثل ذلك الجاهل، يعني لقطع الطريق، ولسافرت إلى المعاصي، ولصرفت في الأغاني وفي آلات اللهو؛ لأنه ما عنده علم. فيقوله ﷺ: فهو بنيته وقصده، وهما في الوزر سواء.

فأخذنا من هذا أن من نوى الشر ولو لم يعمله، فإنه يجازى على نيته، وليس كل من نوى الشر وتركه يثاب، وإنما يثاب إذا تركه الله وخوفاً من الله.

قال الطحاوي:

وَنُورٌ مِنْ بِيَمَانِكِ الْمَوْتِ، الْمُوَكَّلِ بِقَبْضِ أَرْوَاحِ الْعَالَمِينَ.

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتُوقَكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١]. وَلَا تُعَارِضْ هَذِهِ الْآيَةَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿سَخَّجَ إِذَا جَاءَهُ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ قَوْلَهُ رُسُلْنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]، وَقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]؛ لِأَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ يَتَوَلَّى قَبْضَهَا وَاسْتِخْرَاجَهَا، ثُمَّ يَأْخُذُهَا مِنْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ أَوْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، وَيَتَوَلَّوْنَهَا بَعْدَهُ، كُلُّ ذَلِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ وَقَدْرِهِ، وَحُكْمِهِ وَأَمْرِهِ، فَصَحَّتْ إِضَافَةُ التَّوَفِّيِّ إِلَىٰ كُلِّ بِحَسَبِهِ.

قال الشيخ:

الإيمان بملك الموت من عقيدة أهل السنة، وهو داخل في الإيمان بالملائكة، الإيمان بملك الموت، الذي وكله الله تعالى بقبض الأرواح، ذكره الله تعالى في سورة المائدة: ﴿قُلْ يَتُوقَكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾، وورد في الأحاديث أنه هو الموكل بقبض الأرواح، وهو ملك واحد. وقد تقول: كيف يقبض ملك واحد أرواح العالم في شرق الأرض وفي

غيرها؟ نقول: لا ينافي ذلك قدرة الله تعالى الذي أقدره عليها، ويمكن أن يكون ملك الموت معه أعوان يقبضون تلك الأرواح.

ونقول: الإنسان مُركَّبٌ من جسد، وهو اللحم والجلد والعظم وغيره، ومن روح وهي التي تسري في هذا الجسد حتى يعيش ويتحرك، فما دامت الروح في الجسد، فإنه قابل للحركة، فإذا خرجت من الجسد، أصبح ميتًا جثة لا حياة به، فهذه الروح هي التي تُقبض عند الموت.

وقد أخبر النبي ﷺ كما في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه ^(١) أن الروح هي التي تخرج، وأنه يخاطبها، وأنها تنزع من جسده أو تنشط منه، كما قال تعالى: ﴿وَالنَّشِطَاتِ نَشْطًا﴾ [النازعات: ٢]. يقال النازعات التي تنزع أرواح الكافرين نزعًا شديدًا، والناشطات التي تنشط أرواح المؤمنين برفق.

وبكل حال؛ فالملائكة يقبضون أرواح المؤمنين ويصعدون بها إلى الله تعالى، أمّا أرواح الكفار، فإنه لا تفتح لهم أبواب السماء، بل تذهب أرواحهم إلى حيث شاء الله. وقد تكلم العلماء على حقيقة الروح وأطالوا فيها، وقد يأتي بعض الكلام على حقيقة الروح، والحاصل أننا نؤمن بالآيات الواردة في ذلك، مثل قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١]، تأكّدنا أن هناك رسلاً يتوفونهم، وأخبر في آية أخرى أن ملك الموت واحد: ﴿قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١].

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/٢٨٧).

وإذا قيل: إنه ملك واحد، فيمكن أن يكون اسم الموت الذي هو خروج الروح من الجسد هو الذي ورد في الأحاديث أنه يفنى يوم القيامة أو يذبح^(١). فالذي يفنى ويذبح هو حقيقة الموت، وهو خروج الروح من الجسد. فنحن نشاهد الأموات عندما تخرج أرواحهم، ولا نشاهد الملائكة الذين يقبضون الروح غالباً، ولكننا نؤمن بذلك، نؤمن بأن الملائكة يحضرون وإن كنا لا نراهم، يقول تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نُنظَرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٥]، يعني: الملائكة أقرب إليه منكم، ولكنكم لا تبصرونهم، ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿﴾ [الواقعة: ٨٦، ٨٧]؛ إذا كنتم ترعمون أنكم غير مبعوثين، فردوا هذه الروح إلى هذا الجسد الذي مات.

كما أخبر الله تعالى أيضاً بأن الملائكة يحضرون عند الميت، في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظُّلُمُوتِ فِي عَمَزَاتِ الْمُوتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿﴾ [الأنعام: ٩٣]، يُخاطبون أرواح الكفار عند إخراجها.

فإذا من عقيدة أهل السنة أنهم يؤمنون بملك الموت، وبأعوان ملك الموت الذين يقبضون الأرواح، وبأن الروح التي تخرج هي التي يقبضها الملك أو الملائكة، وهي التي تبقى بعد الموت، وأما الجسد فإنه يفنى وأما الروح التي تخرج

(١) كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، المتقدم تحريمه (١/٤٣٢).

فهی التي تعذب فی البرزخ أو تنعم، فإذا آمن الإنسان بذلك لم یستغرب عذاب القبر الذي ورد فی الأحادیث، وما ورد أن النبی ﷺ أخبر أن فی القبر عذابًا ونعیماً، مع أننا نشاهد الأموات یفنون، وتأكلهم الأرض ولكن مع ذلك أرواحهم باقیة، وهی التي تتألم وتتعدّب، كما أنها هی التي تقبض، وهی التي تجعل فی أكفان من الجنة، أو أكفان من النار علی حسب ما ورد فی السنة، فبهذا يؤمن كل مسلم اعتماداً علی النصّوص، ولا منافاة بین الآیات؛ فالملك واحد ومعه أعوان هو یقبض وهم یقبضون، ویجعلون الأرواح فی أكفان، ویصعدون بها.

قال الشارح:

وَقَدْ اِخْتَلَفَ فِي حَقِيقَةِ النَّفْسِ مَا هِيَ؟ وَهَلْ هِيَ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ الْبَدَنِ؟ أَوْ عَرَضٌ مِنْ أَعْرَاضِهِ؟ أَوْ جِسْمٌ مُسَاكِنٌ لَهُ مُودَعٌ فِيهِ؟ أَوْ جَوْهَرٌ مُجَرَّدٌ؟ وَهَلْ هِيَ الرُّوحُ أَوْ غَيْرُهَا؟ وَهَلِ الْأَمَّارَةُ، وَاللَّوَامَةُ، وَالْمُطَمِّئَةُ نَفْسٌ وَاحِدَةٌ، أَمْ هِيَ ثَلَاثَةٌ أَنْفُسٌ؟ وَهَلْ تَمُوتُ الرُّوحُ، أَوِ الْمَوْتُ لِلْبَدَنِ وَحْدَهُ؟ وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ تَحْتَمِلُ مُجَلَّدًا، وَلَكِنْ أُشِيرُ إِلَى الْكَلَامِ عَلَيْهَا مُخْتَصِرًا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى:

فَقِيلَ: الرُّوحُ قَدِيمَةٌ، وَقَدْ أَجْمَعَتِ الرَّسُلُ عَلَى أَنَّهَا مُخْلُوقَةٌ مَخْلُوقَةٌ مَصْنُوعَةٌ مَرْبُوبَةٌ مُدَبَّرَةٌ، وَهَذَا مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ مِنْ دِينِهِمْ، أَنَّ الْعَالَمَ مُخْدَثٌ، وَمَضَى عَلَى هَذَا الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ، حَتَّى نَبَغَتْ نَابِغَةٌ مِمَّنْ قَضَرَ فَهَمُّهُ فِي الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ، فَزَعَمَ أَنَّهَا قَدِيمَةٌ، وَاحْتَجَّ بِأَنَّهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَأَمْرُهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ! وَبِأَنَّ اللَّهَ أَضَافَهَا إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]، كَمَا أَضَافَ إِلَيْهِ عِلْمَهُ وَقُدْرَتَهُ وَسَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَيَدَهُ. وَتَوَقَّفَ آخَرُونَ وَاتَّفَقَ أَهْلُ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّهَا مُخْلُوقَةٌ، وَمِمَّنْ نَقَلَ الْإِجْمَاعَ عَلَى ذَلِكَ: مُحَمَّدُ بْنُ نَضْرِ الْمُرُوزِيِّ، وَابْنُ قُتَيْبَةَ وَغَيْرُهُمَا.

وَمِمَّنْ الْأَدِلَّةُ عَلَى أَنَّ الرُّوحَ مُخْلُوقَةٌ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، فَهَذَا عَامٌّ لَا تَخْصِيصَ فِيهِ بِوَجْهِ مَا، وَلَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ صِفَاتُ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّهَا دَاخِلَةٌ فِي مَسْمَى اسْمِهِ، فَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْإِلَهَ الْمَوْصُوفُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، فَحِلْمُهُ وَقُدْرَتُهُ وَحَيَاتُهُ وَسَمْعُهُ وَبَصَرُهُ وَجَمِيعُ صِفَاتِهِ دَاخِلٌ فِي مَسْمَى اسْمِهِ، فَهُوَ

سبحانه بِأَدَاتِهِ وَصِفَاتِهِ الْخَالِقِ، وَمَا سِوَاهُ مَخْلُوقٍ، وَمَعْلُومٌ قَطْعًا أَنَّ الرُّوحَ لَيْسَتْ هِيَ اللهُ، وَلَا صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ مَصْنُوعَاتِهِ. وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ أَقْنَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى لِيُزَكِّرِيَا - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: ﴿وَقَدْ خَلَقْتَكُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩]. وَالْإِنْسَانُ اسْمٌ لِرُوحِهِ وَجَسَدِهِ، وَالْخِطَابُ لِيُزَكِّرِيَا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِرُوحِهِ وَبَدَنِهِ، وَالرُّوحُ تُوصَفُ بِالْوَفَاةِ وَالْقَبْضِ وَالْإِمْسَاكِ وَالْإِرْسَالِ، وَهَذَا شَأْنُ الْمَخْلُوقِ الْمُحَدَّثِ.

وَأَمَّا احْتِجَاجُهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، فَلَيْسَ الْمُرَادُ هُنَا بِالْأَمْرِ الطَّلَبُ، بَلِ الْمُرَادُ بِهِ الْمَأْمُورُ، وَالْمَصْدَرُ يُذَكَّرُ وَيُرَادُ بِهِ اسْمُ الْمَفْعُولِ، وَهَذَا مَعْلُومٌ مَشْهُورٌ.

وَأَمَّا اسْتِدْلَالُهُمْ بِإِضَافَتِهَا إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]، فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ الْمُضَافَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى نَوْعَانِ:

صِفَاتٌ لَا تَقُومُ بِأَنْفُسِهَا، كَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْكَوْنِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ، فَهَذِهِ إِضَافَةٌ صِفَةٍ إِلَى الْمَوْصُوفِ بِهَا، فَعِلْمُهُ وَكَلَامُهُ وَقُدْرَتُهُ وَحَيَاتُهُ صِفَاتٌ لَهُ، وَكَذَا وَجْهُهُ وَيَدُهُ سَبْحَانَهُ.

وَالثَّانِي: إِضَافَةُ أَعْيَانٍ مُتَفَصِّلَةٍ عَنْهُ، كَالْبَيْتِ وَالنَّاقَةِ وَالْعَبْدِ وَالرَّسُولِ وَالرُّوحِ، فَهَذِهِ إِضَافَةٌ مَخْلُوقٍ إِلَى خَالِقِهِ، لَكِنَّهَا إِضَافَةٌ تَقْتَضِي تَخْصِيصًا وَتَشْرِيفًا، يَتَمَيَّزُ بِهَا الْمُضَافُ عَنِ خَيْرِهِ.

وَاخْتِلَافٌ فِي الرُّوحِ: هَلْ هِيَ مَخْلُوقَةٌ قَبْلَ الْجَسَدِ أَمْ بَعْدَهُ؟ وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ ذِكْرِ

الميثاقِ الإِشَارَةِ إِلَى ذَلِكَ.

وَاخْتُلِفَ فِي الرُّوحِ: مَا هِيَ؟ قِيلَ: هِيَ جِسْمٌ، وَقِيلَ: عَرَضٌ، وَقِيلَ: لَا نَدْرِي مَا الرُّوحُ، أَجَوْهَرٌ أَمْ عَرَضٌ؟ وَقِيلَ: لَيْسَ الرُّوحُ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ اعْتِدَالِ الطَّبَائِعِ الأَرْبَعِ، وَقِيلَ: هِيَ الدَّمُ الصَّافِي الخَالِصُ مِنَ الكَدْرَةِ وَالْعُقُونَاتِ، وَقِيلَ: هِيَ الحَرَارَةُ الغَرِيزِيَّةُ، وَهِيَ الحَيَاةُ، وَقِيلَ: هُوَ جَوْهَرٌ بَسِيطٌ مُنْبَعَثٌ فِي العَالَمِ كُلِّهِ مِنَ الحَيَوَانِ، عَلَى جِهَةِ الإِعْمَالِ لَهُ وَالتَّدْبِيرِ، وَهِيَ عَلَى مَا وَصِفَتْ مِنَ الإِنْبِسَاطِ فِي العَالَمِ غَيْرٌ مُتَقَسِّمَةٌ لِذَاتِ وَالبِنْيَةِ، وَأَنَّهَا فِي كُلِّ حَيَوَانٍ العَالَمِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ لَا غَيْرِ، وَقِيلَ: النَّفْسُ هِيَ النَّسِيمُ الدَّاخِلُ وَالخَارِجُ بِالتَّنَفُّسِ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ.

وَلِلنَّاسِ فِي مَسْمَى (الإِنْسَانِ): هَلْ هُوَ الرُّوحُ فَقَطُّ، أَوِ البَدَنُ فَقَطُّ، أَوْ جَمْعُهُمَا، أَوْ كُلُّ مِنْهُمَا؟ وَهَذِهِ الأَقْوَالُ الأَرْبَعَةُ لَهُمْ فِي كَلَامِهِ: هَلْ هُوَ اللَّفْظُ، أَوِ المعْنَى فَقَطُّ، أَوْ هُمَا، أَوْ كُلُّ مِنْهُمَا؟ فَالْخِلَافُ بَيْنَهُمْ فِي النَّاطِقِ وَنُطْقِهِ. وَالحَقُّ: أَنَّ الإِنْسَانَ اسْمٌ لِهُمَا، وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى أَحَدِهِمَا بِقَرِينَةٍ، وَكَذَلِكَ الكَلَامُ.

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَاجْتِمَاعُ الصَّحَابَةِ وَأَدِلَّةُ العَقْلِ: أَنَّ النَّفْسَ جِسْمٌ مُخَالِفٌ بِالمَاهِيَّةِ هَذَا الجِسْمِ المَحْسُوسِ، وَهُوَ جِسْمٌ نُورَانِي عُلُويٌّ، خَفِيفٌ حَيٌّ مُتَحَرِّكٌ، يَتَفَقَّدُ فِي جَوْهَرِ الأَعْضَاءِ، وَيَسْرِي فِيهَا سَرِيانَ المَاءِ فِي الوَرْدِ، وَسَرِيانَ الدُّهْنِ فِي الزَّيْتُونِ، وَالنَّارِ فِي الفَحْمِ. فَهَا دَامَتْ هَذِهِ الأَعْضَاءُ صَالِحَةً لِقبُولِ الأَثَارِ الفَائِضَةِ عَلَيْهَا مِنْ هَذَا الجِسْمِ اللطيفِ، بَقِيَ ذَلِكَ الجِسْمُ اللطيفُ سَارِيًا فِي هَذِهِ الأَعْضَاءِ، وَأَفَادَهَا هَذِهِ الأَثَارُ، مِنَ الحِسِّ وَالحَرَكَةِ الإِرَادِيَّةِ، وَإِذَا فَسَدَتْ هَذِهِ بِسَبَبِ اسْتِيلاءِ الأَحْلَاطِ العَلِيظَةِ عَلَيْهَا، وَخَرَجَتْ عَنِ قَبُولِ تِلْكَ الأَثَارِ خَارِقًا

الرُّوحُ الْبَدَنَ، وَانْفَصَلَ إِلَى عَالَمِ الْأَرْوَاحِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]،

فَ فِيهَا الْإِخْبَارُ بِتَوَفِّيِّهَا وَإِمْسَاكِهَا وَإِرْسَالِهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْقُلُوبُ حَمِلَتْ

فِي غُرَّتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٣]، فَ فِيهَا

بَسْطُ الْمَلَائِكَةِ أَيْدِيَهُمْ لِتَنَاوُلِهَا، وَوَضْفُهَا بِالْإِخْرَاجِ وَالْخُرُوجِ، وَالْإِخْبَارُ بِعَذَابِهَا ذَلِكَ

الْيَوْمَ، وَالْإِخْبَارُ عَنْ مَجِيئِهَا إِلَى رَبِّهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّىكُمْ بِاللَّيْلِ

وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾، الْآيَةُ [الأنعام: ٦٠]. فَ فِيهَا الْإِخْبَارُ

بِتَوَفِّيِ النَّفْسِ بِاللَّيْلِ، وَبِعَثِّهَا إِلَى أَجْسَادِهَا بِالنَّهَارِ، وَتَوَفِّيِ الْمَلَائِكَةَ لَهَا عِنْدَ الْمَوْتِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْتَضَةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخُلُ فِي عِبْدِي

﴿٢٩﴾ وَأَدْخُلُ جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠]، فَ فِيهَا وَضْفُهَا بِالرَّجُوعِ وَالرَّحُولِ وَالرِّضَا.

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ»^(١). فَ فِيهِ وَضْفُهُ بِالْقَبْضِ، وَأَنَّ الْبَصَرَ

يَرَاهُ. وَقَالَ ﷺ فِي حَدِيثِ بِلَالٍ: «قَبْضُ أَرْوَاحِكُمْ حِينَ شَاءَ، وَرَدَّهَا عَلَيْكُمْ حِينَ

شَاءَ»^(٢). وَقَالَ ﷺ: «نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ تَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ»^(٣).

وَسَيَأْتِي فِي الْكَلَامِ عَلَى عَذَابِ الْقَبْرِ أدَلَّةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ خِطَابِ مَلِكِ الْمَوْتِ لَهَا،

(١) أخرجه مسلم (٩٢٠) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٥) من حديث أبي قتادة ﷺ.

(٣) أخرجه النسائي (٢٠٧٣)، وابن ماجه (٤٢٧١)، وأحمد (٤٥٥/٣)، ومالك (٢٤٠/١)،

وابن حبان (٥١٣/١٠)، والطبراني (١١٩) من حديث كعب بن مالك ﷺ.

وَأَمَّا تَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السَّقَاءِ، وَأَمَّا تَضَعُدُ وَيُوجَدُ مِنْهَا مِنْ
 الْمُؤْمِنِ كَأَطْيَبِ رِيحٍ، وَمِنْ الْكَافِرِ كَأَتْنِ رِيحٍ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ. وَعَلَى
 ذَلِكَ أَجْمَعَ السَّلْفُ وَدَلَّ الْعَقْلُ، وَلَيْسَ مَعَ مَنْ خَالَفَ سِوَى الظُّنُونِ الْكَادِبَةِ،
 وَالشُّبْهَةِ الْفَاسِدَةِ، الَّتِي لَا يُعَارِضُ بِهَا مَا دَلَّ عَلَيْهِ نُصُوصُ الْوَحْيِ وَالْأَدِلَّةُ الْعُقْلِيَّةُ.

قال الشيخ:

كلمة الروح والنفس الصحيح أتمها مترادفتان، فالروح هي النفس، وقد
 اختلف في حقيقة الروح ما هي. إذا مات الميت وخرجت روحه لا نبصرها، مع
 أننا نتيقن أتمها خرجت، والملائكة أرواح ينزلون ويقبضونها ونحن لا نراهم لأنهم
 أرواح، كذلك الشياطين، أرواح شريرة، يقول تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرِنُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ
 حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]، نحن لا نرى الشياطين، مع أن الشيطان يدخل في
 الإنسان، ويجري منه مجرى الدم، ويوسوس له، ولا نراه، لكنه ينخنس إذا ذكر
 الله، ولهذا سماه الوسواس الخناس. وأقرب مثال: الجن وهي أرواح، يسلم الله
 الجنّي على الإنسي، فيلابسه حتى يغلب على جسده، ويصير كأنه هو روحه،
 ونحن لا نرى الجنّي إذا أتى أو إذا خرج، لا نراه، ولكننا نسمعه مثلاً إذا تكلم
 وهو ملابس ذلك الإنسي، وأنه ينطق ويتكلم، ثم يخرج عندما يعذب، ولا نراه
 يدخل، ولا نراه خرج. فإذا هو روح بلا جسد، ولعله يأتينا كلام في حقيقة
 الروح وماهيّتها.

الكلام هنا عن الروح هل هي مخلوقة أو غير مخلوقة؟

دعوى الفلاسفة أنّها غير مخلوقة، وأنّها قديمة، والفلاسفة هم الذين يقولون: إنّ هذا الإنسان ليس له مبدأ، ينكرون أنّ الله خلق آدم من تراب، ويقولون: إنّ الإنسان قديم، وهذه الأرض قديمة لم يسبقها عدم، وينكرون الحشر والمعاد، ويقولون: ليس هناك حشر ولا نشر، ولا قيامة، ولا جنة ولا نار، إنّما هذا البشر يتوالد ويبقى على الأرض دائماً وأبداً، كما أنّه عليها منذ الأزل، هؤلاء الفلاسفة ينكرون خلق الروح، ويقولون: الروح ليست مخلوقة وليست محدثة، بل هي باقية، وقديمة، وليس لها مبدأ ويستدلّون بهذه الآية في سورة الإسراء: ﴿وَسَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥].

والسؤال هو: ماهية الروح، ما هي؟ ولما كانت حقيقتها بأنّها لا ترى ولا توصف، أجاهم بأنّها من أمره، ولا يمكن أن نتصوّروها؛ لهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَوْتِيَتْهُمَنِ الْعِلْمَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. وليس المراد بأنّها صفة من صفاته، بل المراد أنّها من أمره، أي: مخلوقة بأمره، وكذلك إضافتها إلى الله في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]، ليس المراد أنّ الروح صفة من صفات الله، أو أنّها من ذات الله، بل المراد من الروح التي خلقتها، وكذلك قوله في عيسى - عليه السلام -: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، أي: روح من الأرواح التي خلقتها، أي ليس من ذات الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وبكل حال، نعرف أن هذه الروح التي بين جنبي الإنسان مخلوقة كسائر المخلوقات، ولكن لا ندرك كيفيتها ولا ماهيتها.

قال تعالى: ﴿ وَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا

قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما رواه عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: بينا أنا أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم في خرب المدينة، وهو يتوكأ على عسيب معه، فمر بنقر من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا نسأله لا يجيء فيه شيء تكرهونه، فقال بعضهم: لنسألنه، فقام رجل منهم فقال: يا أبا القاسم، ما الروح؟ فسكت، فقلت: إنه يوحى إليه، فقممت، فلما انجلت عنه فقال:

﴿ وَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١)،

أجابهم الله تعالى بأن الروح غير معروفة لكم، ولا تدرون ماهيتها، ولا يمكنكم إدراكها، وذلك دليل على عظمة الله، وعلى عجب قدرته، حيث نوع المخلوقات، وجعل منها ما يرى وما لا يرى، وجعل منها أجراماً، وجعل منها أرواحاً، وجعل منها جماداً، وجعل منها متحركاً حياً متقلباً في أمره، فهذا دليل على كمال قدرة الله عز وجل، ودليل على أنه على كل شيء قدير، ودليل على قصر علم الإنسان، وقصر باعه في العلوم، وأنه لا يطلع على المغيبات، وأنه لا يصل بفكره، ولا بأمره،

(١) أخرجه البخاري (٧٤٦٢)، ومسلم (٢٧٩٤).

ولا يبحثه إلى الأمور التي أخفاها الله عنه، فعلى هذا ليس عليه أن يتدخل في أمور الغيب، وليس له أن يتخَرَّص فيها.

وقد استدَلَّ العلماء بأمر الرّوح أنّ الإنسان لا يستطيع أن يتدخل في أمر صفات الرّبّ سبحانه وتعالى؛ لأنّ الكثير من الذين تدخلوا في صفات الله، وقالوا: كيف يتّصف بأنّه حيّ، وبأنّه سميع بصير، متكلم بكلام مسموع ونحو ذلك، هذا مما يخالف الخيال ويخالف العقول ويخالف الفكر، ويخوضون في مثل هذا خوفاً زائداً، فيقول لهم العلماء: أنتم قد عجزتم عن إدراك الروح التي بين جنوبكم، كلّ منكم خلقه مكوّن من جسد وروح، هذه الروح التي يحيا بها البدن ويموت بخروجها، هل أدركتم ماهيتها؟ هل قدرتم على معرفة كنهها؟ هل عرفتم من أيّ شيء هي؟ هل هي جسم أو عرض أو جوهر؟ هل هي صافية أو كذرة؟ وإذا خرجت أين تذهب وأين تكون؟ وكذلك الأرواح الأخرى التي تتحقّقونها وتؤمنون بها كيف لا ترونها؟

فإذا عجزتم عن إدراك ماهيتها، فأنتم عن إدراك صفات الرّبّ بطريق الأولى أن تعجزوا، أنتم تتحقّقون أنّ هناك نوعاً من المكلفين، وهم الجنّ الذين خلقهم الله من نار السّموم، تتحقّق أنّهم موجودون معنا، وأنهم ينطقون ويتكلمون، وأنهم يقدرّون على أن يتشكّلوا بأشكال متعدّدة، يتشكّلون بأشكال الحيوانات، أو الجمادات، أو يتصوّرون بصورة إنسان، وبصورة حشرة، وبصورة هامة، ونحو ذلك، وكذلك يلبسون الإنس، يدخلون في جسد الإنسي ويلبسونه، ولا يشعر

بهم أحد، ولا يعرف أحد من أي شيء أجسامهم، بل نقول: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، إذا حجزنا وعجزنا عن إدراك ماهية هذه الأرواح التي هي أقرب شيء إلينا، والتي نشاهد أن الميت تخرج روحه ومع ذلك لا نراها، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٢﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ﴿٨١﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصُورَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ عَيْرَ مَدِينٍ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٧]، فإذا كان هذا عجز الإنسان عن إدراك هذه الروح التي هي أقرب شيء إليه، فكيف يخوض في خالقه؟ وكيف يخوض في صفات البارئ عز وجل؟ الأولى له أن يسلم بذلك، وأن يرد علمها إلى عالمها. وكذلك أيضًا لا يخوض في أمر المخلوقات التي لم يرها، لا يقول مثلًا: ما كيفية خلق الملائكة؟ ومن أي شيء أجسامهم؟ وكيف تركيب أعضائهم؟ وكيف يسجدون؟ على أي أعضاء، وهل لهم يداً ورجلان كما لنا؟ وهل لهم وجوه مثل وجوهنا؟ وكيف ينطقون ويتكلمون؟

نقول: الله أعلم، لا علم لنا إلا أنهم مخلوقون، وأن لهم أرواحاً مستغنية عن أجساد ظاهرة، فينزلون ولا نراهم كما أخبر الله تعالى بأنهم ينزلون إلى الأرض في ليلة القدر في قوله: ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [القدر: ٤]. إذا تنزلوا نحن لا نراهم.

وكذلك أخبر النبي ﷺ بتزلهم أو باجتماعهم عند صلاة العصر وعند صلاة الفجر، بقوله: «يَتَعَاقِبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَسْتَمِعُونَ فِي

صَلَاةِ الصُّبْحِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، فَيَضَعُهُ إِلَيْهِ الَّذِينَ كَانُوا فِيكُمْ...»^(١). هل نراهم؟ نحن لا نراهم، فهم عالم ونحن عالم.

حتى الشياطين الذين سلطهم الله على الإنسان، يقول تعالى في وصفه: ﴿الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٥]، وقال النبي ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ بِجَرَى الدَّمِّ»^(٢)، يعني: يجري في عروقه، ويصل إلى جميع جسده، ولا يمنعه شيء إلا إذا استعاذ بالله من الشيطان الرجيم فإن الشيطان ينخنس؛ ولذلك سمي بالوسواس الخناس، ونحن مع ذلك لا نراهم.

فإذا هم عالم ونحن عالم، فليس لنا أن ننكرهم ولا أن نجحدهم؛ لأن الله أخبر بهم، وخبر الله حق، وأخبر أنهم يروننا في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرُنْكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرُونَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]، يعني: أن الشياطين يرونكم هم وأمثالهم كالجنّ ونحوهم، يرونكم دون أن تروهم. فما دمنا متحققين أن لنا أرواحاً لا نراها، وبأن هناك أرواحاً مخلوقة كالجنّ والشياطين، نعرف بذلك قصر علمنا عن إدراكها وعن معرفة تركيبها.

وقد مر معنا أن العلماء قد تكلموا فيها وأطالوا، وعرفوها بتعريفات مختلفة، وكان من جملة من عرفها تعريفاً مناسباً ابن القيم - رحمه الله - في كتابه الذي سماه «الروح»، وهو كتاب مطبوع مشهور، تكلم فيه عن الأرواح وعذاب القبر

(١) تقدم تخرجه (٣/ ١٤١).

(٢) تقدم تخرجه (١/ ٤٠٤).

ونعيمه، وتكلم فيه عن حقيقة الروح، وما ورد فيها من صفاتها، وبين فيه الرّد على الذين أنكروها، أو وصفوها بصفات غريبة، وعرفها بأثما جسم خفيف شفاف علويّ نوراني متحرّك، يسري في جسد الإنسان كما يسري الدهن في الورد وكما تسري النار في الفحم، فما دام ذلك الجسد قابلاً لتلك الإفاضات منه، فإنه يبقى فيها، وإذا تغيرت ماهيّة هذا الجسم، وبقي لا يصلح لفيضاناتها، أمر الله بفراق هذه الروح لهذا الجسم، فبقي جسم الإنسان جامداً لا حركة فيه، وذلك هو الموت الذي نشاهده، نشاهد خروج الروح ويبقى الجسد جثة هامة.

فإذا لا حاجة إلى كثرة الخوض فيها وإطالة الكلام فيها، مع أن الله تعالى قد حجز أنظار العباد عنها، وفوض أمرها إليه جل وعلا.

وقد كتب بعض العلماء كالمحلّي أحد صاحبي كتاب «تفسير الجلالين»، الذي ألفه آخره جلال الدين المحلّي، وأوله جلال الدين السيوطي، فجلال الدين المحلّي لما أتى على قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتَهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢]، عرف الروح: بأنها جسم لطيف يحيا به الإنسان بنفوذ فيه، ولكن السيوطي لما أتى على قوله تعالى: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ (٢٨) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتَهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩]، لم يذكر هذه الجملة التي هي تفسير الروح؛ لأنه أتى على هذه الآية في قوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، فتوقف عن تفسيرها، وبكل حال فالأولى التوقف، فالذين خاضوا فيها من العلماء وأطالوا القول فيها عذرهم أنهم يريدون

بذلك إقناع أولئك الكاذبين الذين ضاروا يعرفونها بتعريفات بعيدة عن الواقع،
فما حمل ابن القيم على الإطالة في تعريفاتها وفي صفاتها إلا أنه يناقش فيها أقوامًا
ينكرون وجودها، أو ينكرون خصالها أو ينكرون تميزها، ولهم أقوال عجيبة كما
حكاهما في ذلك الكتاب، كالفلاسفة ونحوهم الذين يسمونها مثلًا النفس
الناطقية، أو يزعمون أنها الكون كله أو هذا الهواء أو النفس، أو ما أشبه ذلك مما
لا أصل له، والأولى أننا نكيل علمها وعلم الغيب إلى الله تعالى.

قال الشارح:

وَأَمَّا اخْتِلَافُ النَّاسِ فِي مَسْمَى النَّفْسِ وَالرُّوحِ: هَلْ هُمَا مُتَعَايِرَانِ، أَوْ مُسَمَّاهُمَا وَاحِدًا؟ فَالتَّحْقِيقُ: أَنَّ النَّفْسَ تُطْلَقُ عَلَى أُمُورٍ، وَكَذَلِكَ الرُّوحُ، فَيَتَّحِدُ مَدْلُوهُمَا تَارَةً، وَيَخْتَلِفُ تَارَةً.

فَالنَّفْسُ تُطْلَقُ عَلَى الرُّوحِ، وَلَكِنْ غَالِبُ مَا تُسَمَّى نَفْسًا إِذَا كَانَتْ مُتَّصِلَةً بِالْبَدَنِ، وَأَمَّا إِذَا أُخِذَتْ مُجَرَّدَةً فَتُسَمَّى الرُّوحَ أَغْلَبَ عَلَيْهَا. وَتُطْلَقُ عَلَى الدَّمِ، فَصِي الْحَدِيثِ: «مَا لَا نَفْسَ لَهُ سَائِلَةٌ لَا يُنَجِّسُ الْمَاءَ إِذَا مَاتَ فِيهِ»^(١).

وَالنَّفْسُ: الْعَيْنُ، يُقَالُ: أَصَابَتْ فَلَانًا نَفْسًا، أَي عَيْنًا.

وَالنَّفْسُ: الذَّاتُ، ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾

[النساء: ٢٩]، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَأَمَّا الرُّوحُ فَلَا تُطْلَقُ عَلَى الْبَدَنِ، لَا بِإِنْفِرَادِهِ، وَلَا مَعَ النَّفْسِ، وَتُطْلَقُ الرُّوحُ عَلَى الْقُرْآنِ، وَعَلَى جِبْرَائِيلَ، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحَنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿نَزَّلَ الرُّوحَ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣].

(١) أخرج نحوه الدارقطني (٣٣/١)، والبيهقي (٢٥٣/١) من قول إبراهيم النخعي. وقال ابن القيم في زاد المعاد (٤/١١٢): «وأول من حُفِظَ عَنْهُ فِي الْإِسْلَامِ أَنَّهُ تَكَلَّمَ بِهَذِهِ اللَّفْظَةِ فَقَالَ: "مَا لَا نَفْسَ لَهُ سَائِلَةٌ": إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَعَنْهُ تَلَفَاها الْفُقَهَاءُ». انظر: المغني (١/٤١). ويروى في هذا الباب حديث سليمان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «يا سليمان، كل طعام وشراب وقعت فيه دابة ليس لها دم فماتت فيه فهو حلال، أكله وشربه ووضوؤه». أخرجه الدارقطني (٣٧/١)، وقال: «لم يروه غير بقية عن سعيد بن أبي سعيد الزبيدي، وهو ضعيف».

وَتُطَلَّقُ الرُّوحُ عَلَى الهَوَاءِ الْمَرْدِدِ فِي بَدَنِ الْإِنْسَانِ أَيْضًا.

وَأَمَّا مَا يُؤَيِّدُ اللَّهُ بِهِ أَوْلِيَاءَهُ، فَهِيَ رُوحٌ أُخْرَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْلِيَائِكَ

كُتِبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وَكَذَلِكَ الْقَوَى الَّتِي فِي الْبَدَنِ، فَإِنَّهَا أَيْضًا تُسَمَّى أَرْوَاحًا، فَيُقَالُ: الرُّوحُ الْبَاصِرُ، وَالرُّوحُ السَّامِعُ، وَالرُّوحُ الشَّامُ.

وَتُطَلَّقُ الرُّوحُ عَلَى أَحْصَ مِنْ هَذَا كَلَهُ، وَهُوَ: قُوَّةُ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَحُبَّتِهِ، وَأَنْبِعَاتُ الْهَمَّةِ إِلَى طَلَبِهِ وَإِرَادَتِهِ، وَنَسَبَةُ هَذِهِ الرُّوحِ إِلَى الرُّوحِ، كِنَسَبَةِ الرُّوحِ إِلَى الْبَدَنِ، فَلِلْعِلْمِ رُوحٌ، وَلِلْإِحْسَانِ رُوحٌ، وَلِلْمَحَبَّةِ رُوحٌ، وَلِلتَّوَكُّلِ رُوحٌ، وَلِلصِّدْقِ رُوحٌ.

وَالنَّاسُ مُتَفَاوِثُونَ فِي هَذِهِ الْأَرْوَاحِ، فَمِنْ النَّاسِ مَنْ تَغَلَّبَ عَلَيْهِ هَذِهِ الْأَرْوَاحُ فَيَصِيرُ رُوحَانِيًّا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْقِدُهَا أَوْ أَكْثَرَهَا فَيَصِيرُ أَرْضِيًّا بَهِيمِيًّا.

وَقَدْ وَقَعَ فِي كَلَامِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ ثَلَاثَةَ أَنْفُسٍ: مُطْمَئِنَّةً، وَلَوَّامَةً، وَأَمَّارَةً، قَالُوا: وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ تَغَلَّبَ عَلَيْهِ هَذِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَغَلَّبَ عَلَيْهِ هَذِهِ، كَمَا قَالَ

تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنِّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]، ﴿وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]،

﴿إِنَّ النَّفْسَ لِأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

وَالتَّحْقِيقُ: أَنَّهَا نَفْسٌ وَاحِدَةٌ، لَهَا صِفَاتٌ، فَهِيَ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ، فَإِذَا عَارَضَهَا الْإِيمَانُ صَارَتْ لَوَّامَةً، تَفْعَلُ الذَّنْبَ ثُمَّ تَلُومُ صَاحِبَهَا، وَتَلُومٌ بَيْنَ الْفِعْلِ وَالتَّرْكِ، فَإِذَا قَوِيَ الْإِيمَانُ صَارَتْ مُطْمَئِنَّةً؛ وَهَذَا قَالَ ﷺ: «مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ،

فَهُوَ مُؤْمِنٌ»^(١). وقوله: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»^(٢)، الحديث.

قال الشيخ:

تكلم الشارح - رحمه الله - على تعريف النفس وتعريف الروح بهذا الكلام السابق؛ وذلك لاختلاف العلماء: هل الروح النفس، أو الروح غير النفس؟ لأن كلمة النفس قد تطلق على بعض الأشياء، كما في هذه التعريفات التي مرت معنا، فتطلق على الدّم، وفي الأثر: «مَا لَا نَفْسَ لَهُ سَائِلَةٌ لَا يُنَجِّسُ الْمَاءَ إِذَا مَاتَ فِيهِ»^(٣)، يعني: كالذباب والبعوض والفراس إذا مات في الماء فإنه لا ينجسه؛ لأنه ليس له نفس، أي ليس له دم إذا ذبح.

كذلك تطلق النفس على ذات الإنسان كما في هذه الآيات: قوله تعالى: ﴿فَسَلِمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]، يعني: على ذواتكم، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، يعني: لا تقتلوا ذواتكم، فذات الإنسان هي نفسه. وقد يكثر استعمال النفس في مثل هذه المعاني وغيرها.

فإذا النفس في الأصل هي ماهية الشيء وذاته، وأمّا الإنسان الذي كلفه الله تعالى، فقد ناداه بنداء الإنسان: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾

(١) تقدم تحريجه (٤١٢/٣).

(٢) تقدم تحريجه (٢٥٦/٣).

(٣) تقدم تحريجه (١٢٧/٤).

[الانشقاق: ٦]، والإنسان هو هذا الجنس من بني آدم، ومعلوم أنه مؤلف من جسد وروح، وهذا النفس الذي يدخل ويخرج ويجذب الهواء، هذا نفس وهو ملازم للإنسان، ونفسه يعني ذاته توصف بصفات، كما مر معنا أنها توصف بأنها نفس لؤامة، وأنها نفس مطمئنة، وأنها نفس أمارة بالسوء.

وبناءً على ذلك، فمن العلماء من يقول: إن للإنسان ثلاثة أنفس: نفس لؤامة، ونفس أمارة بالسوء، ونفس مطمئنة.

والصحيح أنها نفس واحدة: تارة يغلب عليها الاطمئنان، فتوصف بأنها مطمئنة، فنقول: هذا الإنسان نفسه مطمئنة، وتارة يغلب عليها وصف اللوم، يفعل الشيء فتلومه نفسه على فعله، فيقال: هذا الإنسان نفسه لؤامة، وتارة يغلب عليه بالسوء، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، فهي نفس واحدة تتصف بهذه الصفة تارة، وبهذه الصفة تارة، ولا تكون ثلاثة أنفس، وهذا هو الصحيح من أقوال العلماء.

فما دامت الروح في الجسد، فإنها تسمى نفساً وتسمى روحاً، وإذا خرجت الروح من الجسد فإنها لا تسمى نفساً غالباً، وإن كانت قد تسمى، في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَلْمَلِكُ كُتَّةً بِأَسْطُوأَ أَيْبِهِمَ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٣]، يعني: أخرجوا أرواحكم، فإذا خرجت فإنها روح تقبضها الملائكة وتكفنها. وكذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ كُتِّمَتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، فسماها هنا أنفساً؛ لأنها ما دامت في الجسد فإنها تسمى نفساً، والله يتوفها يعني

يقبضها، أما بعد قبضها، فإنها يغلب عليها اسم الروح.

وكذلك في النوم، نفس النائم تخرج، ولكنها لا تخرج خروجاً كلياً، بل يبقى تأثيرها على البدن؛ ولهذا إذا نام الإنسان ذكروا أنّ روحه تخرج وتصعد إلى السماء وترى كذا وكذا من الرؤيا، ونحو ذلك.

وفي الحديث في الدعاء عند النوم: «بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَأَرْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَأَحْفَظْهَا بِسْمِ تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ»^(١). أفاد بأن النفس قد تمسك ولا ترجع إلى صاحبها إذا أراد الله، وقد ترجع، فهو يقول: «إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي» ولم تردها عليّ «فَأَرْحَمْهَا»، «وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَأَحْفَظْهَا» يعني: رددتها عليّ «فَأَحْفَظْهَا».

كلمة الروح هي مادة الحياة، وكل شيء تحصل به الحياة فإنه يسمى روحاً، فالله تعالى سمى القرآن روحاً: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، لماذا سمى القرآن روحاً؟ لأنّ به الحياة المعنوية، حياة القلوب، التي هي حياة صحيحة، وإن كان أهلها لا يشعرون بها، أو لا يهتمون بها؛ لأنّ القرآن إذا تأثرت به القلوب، فإنه روح لها، وحياة القلوب أعظم حياة وأعظم منفعة لها، ولذلك سمّاه الله روحاً، فكما أنّ الأبدان تحيا بالأرواح، فكذلك القلوب تحتاج إلى أرواح معنوية وهي هذا القرآن، وما فسّر به وما يتبعه من السنة.

كذلك سمى الله جبريل - عليه السلام - روحاً في قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ

(١) أخرجه البخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤) من حديث أبي هريرة ؓ.

الْأَمِينُ ﴿١٣٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿الشعراء: ١٩٣، ١٩٤﴾، الروح الأمين هو جبريل عليه السلام، هو الذي نزل به؛ لأن الملائكة كلهم أرواح، وجبريل - عليه السلام - من جملتهم، ولا ينافي ذلك أنهم يصعدون وينزلون، وأن لهم أجنحة، وأن لهم أجسادًا معنوية لا نراها، فهم أرواح وجبريل - عليه السلام - منهم، ولكن لجبريل - عليه السلام - خصوصية بهذه التسمية، حتى قال بعضهم: إن الروح في قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ ﴿النبا: ٣٨﴾، هو جبريل عليه السلام.

وقيل: إن المراد بالروح هنا هو الأرواح، سواء كانت أرواح الملائكة، أو أرواح البشر، أو أرواح الجن، أو الشياطين؛ تقوم الأرواح وتقوم الملائكة صفوفًا، وبها أيضًا فسرت الروح التي في سورة القدر: ﴿نَزَّلَ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ ﴿القدر: ٤﴾، أن الروح هي أرواح بني آدم، أو أرواح الملائكة تنزل في تلك الليلة. أيضًا لكل شيء روح تحيا به، تلك هي الماهية، فكما مر في كلام الشارح، أن القرآن يسمي روحًا، فالإسلام له روح، والإيمان له روح، كذلك التوكل له روح، والعبادة لها روح، والاستعانة لها روح، وكذلك المحبة والخوف والرجاء وسائر أنواع العبادات لها روح، أي: لها حقيقة معنوية تتأكد فيها وتؤكدها، وتصير بها حياة مؤثرة نافعة، فقد عُرف بذلك أن الروح هي الذي تحصل به الحياة، وسميت بذلك؛ لأن فيها حياة البدن ولأمتها حية.

وقد رجح العلماء المحققون أن الأرواح بعد خروجها من الأجساد باقية، كما

يقول السفاريني في منظومته^(١):

وَأَنَّ أَرْوَاحَ الْوَرَى لَمْ تُعْدَمْ مَعَ كَوْنِهَا مَخْلُوقَةٌ فَاسْتَفْهِمِ

فهذه حقيقتها: أن أرواح بني آدم ما عُدت بعد خروجها من أجسادهم، مع اعتقادنا أنها مخلوقة مكوّنة بعد أن كانت معدومة، أوجدها الله وكوّنها.

وقد تقدّم الخلاف في وقت خلقها، متى خلقت؟ وأنّ الراجح أنّها تخلق مع خلق الإنسان، وتبقى بعد موته، وعلى كل حال فأمر هذه الأرواح وحقاتها يختلف باختلاف الإنسان وقوّة معنويّته وضعفها.

والراجح أنّها نفسٌ واحدة، تغلب عليها صفات الإيمان، فتسمّى نفساً مطمئنة، وتغلب عليها المعاصي، فتسمّى النفس اللوامة، وتغلب عليها صفة الكفر والبدع ونحوها، فتسمّى نفساً أمارة بالسوء، وهي نفس واحدة. هذا هو الصواب.

(١) انظر: العقيدة السفارينية (ص ٧٥).

قال الشارح:

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ: هَلْ تَمُوتُ الرُّوحُ أَمْ لَا؟

فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: تَمُوتُ؛ لِأَنَّهَا نَفْسٌ، وَكُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةٌ الْمَوْتِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى:

﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِنَا فَإِنِ ﴿٦١﴾ وَيَقُولُ وَجِبَةٌ رَّبِّكَ ذُو الْجَنْدَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، وَقَالَ

تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصاص: ٨٨]. قَالُوا: وَإِذَا كَانَتِ الْمَلَائِكَةُ تَمُوتُ، فَالنُّفُوسُ الْبَشَرِيَّةُ أُولَى بِالْمَوْتِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: لَا تَمُوتُ الْأَرْوَاحُ، فَإِنَّهَا خُلِقَتْ لِلْبَقَاءِ، وَإِنَّمَا تَمُوتُ الْأَبْدَانُ.

قَالُوا: وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الدَّالَّةُ عَلَى نَعِيمِ الْأَرْوَاحِ وَعَذَابِهَا بَعْدَ الْمَفَارَقَةِ إِلَى أَنْ يُرْجِعَهَا اللَّهُ فِي أَجْسَادِهَا.

وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ: مَوْتُ النُّفُوسِ هُوَ مَفَارَقَتُهَا لِأَجْسَادِهَا، وَخُرُوجُهَا مِنْهَا، فَإِنْ أُرِيدَ بِمَوْتِهَا هَذَا الْقَدْرُ، فَهِيَ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، وَإِنْ أُرِيدَ أَنَّهَا تُعْدَمُ وَتَفْنَى بِالْكُلِّيَّةِ، فَهِيَ لَا تَمُوتُ بِهَذَا الْاِخْتِبَارِ، بَلْ هِيَ بَاقِيَةٌ بَعْدَ خَلْقِهَا فِي نَعِيمٍ أَوْ فِي عَذَابٍ، كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَقَدْ أَخْبَرَ سَبْحَانَهُ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ

الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦]، وَتِلْكَ الْمَوْتَةُ هِيَ مَفَارَقَةُ الْأَرْوَاحِ لِلْأَجْسَادِ، وَأَمَّا قَوْلُ

أَهْلِ النَّارِ: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَلْفِينَ وَلَاحِقَتْنَا أَلْفَيْنِ﴾ [غافر: ١١]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَتْرَابًا فَأَخْبَحَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾

[البقرة: ٢٨].

فَالْمَرَادُ: أَمَّتُمْ كَانُوا أَمْوَاتًا وَهُمْ نَطَفٌ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ وَفِي أَرْحَامِ
أُمَّهَاتِهِمْ، ثُمَّ أَحْيَاهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ، ثُمَّ أَمَاتَهُمْ، ثُمَّ يُحْيِيهِمْ يَوْمَ النُّشُورِ، وَلَيْسَ فِي
ذَلِكَ إِمَاتَةٌ أَرْوَاحِهِمْ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِلَّا كَانَتْ ثَلَاثَ مَوْتَاتٍ.

وَصَفَقُ الْأَرْوَاحِ عِنْدَ السَّفْحِ فِي الصُّمُورِ لَا يَلْزَمُ مِنْهُ مَوْتُهَا، فَإِنَّ النَّاسَ
يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جَاءَ اللَّهُ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِهِ،
وَلَيْسَ ذَلِكَ بِمَوْتٍ. وَسَيَأْتِي ذِكْرُ ذَلِكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَكَذَلِكَ صَعَقَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمْ يَكُنْ مَوْتًا^(١)، وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ
نَفْخَةَ الصَّعِقِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - مَوْتُ كُلِّ مَنْ لَمْ يَدُقِ الْمَوْتَ قَبْلَهَا مِنَ الْخَلَائِقِ، وَأَمَّا
مَنْ ذَاقَ الْمَوْتَ، أَوْ لَمْ يَكْتَسِبْ عَلَيْهِ الْمَوْتَ مِنَ الْحُورِ وَالْوِلْدَانِ وَغَيْرِهِمْ، فَلَا تَدُلُّ
الآيَةُ عَلَى أَنَّهُ يَمُوتُ مَوْتَةً ثَانِيَةً. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قال الشيخ:

تكلم الشارح - رحمه الله - هنا على مسألة موت الأرواح، وهل تموت أو لا؟
فقال بعض العلماء: إنها تموت، فإذا خرجت من الأجساد، فإنها تحس إذا سعدت

(١) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي أخرجه البخاري (٣٤٠٨).

ولأهل العلم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمَ مَوْتَهُنَّ صَوْقًا﴾ قولان: أحدهما: مغشياً عليه، قاله ابن
عباس رضي الله عنهما، والحسن، وابن زيد. والثاني: ميتاً، قاله قتادة، ومقاتل.
والأول أصح؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آذَقَ﴾، وذلك لا يتم للميت.

انظر: تفسير الطبري (٩/٥٢، ٥٣)، وزاد المسير (٣/٢٥٧)، وتفسير ابن كثير (٢/٢٤٥).

إلى السماء، ويخرج منها ريح طيبة أو خبيثة، وتتألم أو تتنعم، فهي لا تزال حية في هذا العالم في البرزخ بعد فراق الجسد، وأما الجسد فإنه يفنى ويصير تراباً؛ كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥].

وهناك من يقول: إن الأرواح بعد خروجها تبقى مدة ثم تموت، فإنها لا بد أن يأتي عليها الموت الذي كتبه الله على كل شيء؛ لأنّها أنفس وكل نفس ذائقة الموت، ولأنّها لا بد من فنائها؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ [الرحمن: ٢٦]. هذا دليل من قال إنّها تفنى وتموت، وقاسوها على الملائكة؛ لأنّ الملائكة لا بدّ لهم أن يموتوا، وكذلك الجنّ، فهم يموتون مع كونهم أرواحاً، فلا بدّ أن يكون موتهم شيء يحسون به، ويحصل بذلك عدم الحياة لهم. فإذا كان الجنّ يموتون والملائكة يموتون، فكذا الأرواح التي هي أرواح الإنسان فكيف لا تموت؟

والقول الآخر: أنّها بعد خروجها لا تموت، بل تبقى إما منعمة، وإما معدّبة، كما ذكر في أحاديث عذاب القبر، وأنّ موتها هو مفارقتها لهذا الجسد، فإنّها كانت عامرة لهذا الجسد، وكانت منعمة فيه فنزعت منه وخرجت منه، كما في الحديث البراء بن عازب رضي الله عنه الوارد في نعيم القبر وعذابه^(١).

فهذا دليل على أنّ خروجها ومفارقتها لهذا الجسد هو الذي يسمّى الموت، وهو الموت الذي كتب الله عليها، فإذا خرجت فإنّها ماتت، ولو كانت بعد ذلك

(١) أخرجه أحمد (٢٨٧/٤). وقد تواترت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في إثبات عذاب القبر وتعيمه؛ كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه الذي أخرجه البخاري (١٣٣٨، ١٣٧٤)، ومسلم (٢٨٧٠).

تبقى حية، أو متحركة، أو متلذذة، أو متألمة، والآيات التي فيها: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [الفصص: ٨٨]، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، المراد بها أنها يأتي عليها الموت الذي هذه صفته، فقد أتى على هذه الروح الموت الذي هو مفارقة الجسد.

وعند بعض الفلاسفة أن الروح قديمة ليست مخلوقة وعبر عن ذلك شاعرهم ابن سينا في قصيدته التي في أولها^(١):

هَبَطْتُ إِلَيْكَ مِنَ الْمَحَلِّ الْأَرْفَعِ وَرَقَاءُ ذَاتِ تَقَلُّبٍ وَتَفَجُّعِ
وَصَلَّتْ عَلَى كُرْهِ فَلْتِمًا وَاصَلَّتْ أَلْفَتْ مُرَافِقَةَ الْحَرَابِ الْبَلْقَعِ

فمثلها بأنها هبطت من المحل الأرفع، وهو السماء، وشبهها بالورقاء وهي: طير من الطيور الورق، وأنها وصلت إلى هذا الجسد وهي كارهة، ولكنها بعدما وصلت تمكنت، وألفت مرافقته مع كونه خراباً من دونها.

لكن لا يسلم لهم أنها قديمة، وإنما هي مخلوقة مكونة بعد أن كانت عدماً؛ فإن الله تعالى هو خالق كل شيء، فأما فناؤها، فإنه يحصل بمفارقة هذا الجسد، والله تعالى أخبر بأن كل شيء هالك إلا وجهه، فهلاكها معناه خروجها من أجسادها، فهذا موت.

وبعضهم يقول: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، المراد به كل من خلق للفناء، أما الذي خلق للبقاء فإنه لا يفنى، ويقول: فيما خلق الله في الجنة من الحور ونحوها: إنها

(١) انظر: تاريخ الإسلام (٢٩ / ٢٣٠).

خلقت للبقاء فلا تفنى، ولا يأتي عليها الموت. ومنهم من يقول: إنها تبقى، ثم بعد ذلك تموت.

وأما الصعق الذي ذكره الله في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، وكذلك عن الفزع: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَمِّ ذَخِيرٍ﴾ [النمل: ٨٧]. فهذا الفزع فزعٌ أولاً، ثم صعقٌ ثانياً، فهذا الصعق إن كان على الأحياء فإنه موت، يعني: أن الناس متى سمعوا النفخ في الصور ماتوا كلهم، عبر بالصعق عن الموت، فالناس الذين تدركهم الساعة، إذا نفخ في الصور ماتوا كلهم موتة واحدة، ثم ينفخ فيه أخرى، وقال النبي ﷺ: «بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ»^(١). قيل: إنه أراد أربعين سنة، فهذا الصعق موت في حق الأحياء، ولكن الأرواح ليس موتاً في حقها، ولكن إذا صعقت، فلا يلزم أن تموت، وقيل إن الأرواح هي المستنى في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾، فالذين شاء الله: مثل الأرواح، ومثل حيور الجنة، وما خلق للبقاء.

وبكل حال، نؤمن بأن هذا الكون يفنى، وأن هناك مخلوقات خلقت للبقاء كالأرواح، والله هو الذي خلقها، وقدر لها مقاديرها، فإذا حصل النفخ في الصور، فيأتي عليها هذا الفناء والفزع والصعق الذي يأتي على غيرها.

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٤)، ومسلم (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة ؓ.

أخبر النبي ﷺ عن الصعق بعد البعث: وكأنه صعق وفزع يأتيه، فيقول: «النَّاسُ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذًا بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ جُوزِي بِصَعْقَةِ الطُّورِ؟»^(١). وهي صعقة الطور المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَجَّلَ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فدلَّ على أن هناك صعقاً في يوم القيامة، وهذا الصعق ليس بموت، وإنما هو غشية تحصل من هذا الفزع، ثم يحصل بعدها إفاقة، ويكون النبي ﷺ أول من يفيق، فيجد موسى - عليه السلام - قد أفاق قبله، أو لم يُصعق جزاء له على صعقته يوم الطور..

تكلم الشارح أيضاً على قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١٦]، والصحيح في هاتين الموتين والحياتين أمتها في الدنيا والآخرة: الموتة الأولى: هي الموت في الأرحام وفي الأصلاب، فإنه في حال كونه في الرحم شبه ميت، لا حركة فيه مثل حركة الحي، حتى ينفخ فيه الروح بعد الشهر الرابع.

والموتة الثانية: خروجه من هذه الدنيا.

والحياة الأولى: خروجه إلى هذه الدنيا من الرحم، فإنها حياة مشاهدة.

والحياة الثانية: هي حياته بعد البعث يوم القيامة، وبعد النفخ في الصور، وهي حياته الأخرى الباقية.

(١) تقدم تخريجه (٦١٨/١).

هاتان الموتان: موتة في الرحم وموتة في الدنيا، والحياتان: الحياة الدنيا، والحياة الآخرة، وهي مفسرة في قوله: ﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا﴾، يعني: في الأرحام، ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾، يعني: في الدنيا، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾، يعني: الموتة الأولى، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، للآخرة.

كذلك أخبار الأنبياء ورسول الله - عليهم الصلاة والسلام - هم الصادقون المصدّقون، الذين ائتمنهم الله تعالى على وحيه، وأمرهم بتبليغه: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

وكذلك نصب الأدلة على الأمور الغيبية والأمور الآخروية، وأمر العباد أن يتفكروا فيما بين أيديهم وفيما خلفهم، ومن نظر في ذلك اعتبر وتذكّر وأتّعظ، إذا نظر إلى خلق الإنسان ومبدأ أمره، عرف أنّ الذي خلقه قادر على أن يعيده، وليس بدء الخلق أهون من إعادته، نظر إلى الأفلاك العلوية والسفلية أخذ منها آية دلّ الله عليها بقوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، خلق السموات والأرض، مع اتساعها وثباتها، وتنوع موجوداتها، أكبر من خلق الناس.

وكذلك فالآيات التي أمر الله عباده بأن يتّعظوا فيها وينظروا فيها، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [الروم: ٢١]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَافُ

السِّنِّكُمْ وَالْوَزْنُكُمْ [الروم: ٢٢]، ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الروم: ٢٣]،
 ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ﴾ [الروم: ٢٤]، ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ﴾ [الروم: ٤٦]، وفي هذه الآيات عبرة لمن اعتبر وعظة لمن اتعظ.

فلأجل ذلك أصبح اليوم الآخر يقيناً عند أهل الإيمان؛ لأنها قامت عليه البراهين، بعدما كان المشركون ينكرونه، ويقولون: ﴿وَكَأَنَّا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَّابًا أَوْنَا الْأَوْلُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧، ٤٨] يستنكرون ذلك، فأقام الله عليهم الحجّة، وبين لهم الأدلة.

ومعلوم أن الإنسان يتكوّن من جسد وروح، فبعد الموت تخرج هذه الروح من جسده، ويبقى الجسد ليس به حركة، فيفنى ويكون تراباً، ولكن قدرة الله أعلى من كل شيء، فهو قادر سبحانه أن يوصل إليه الألم أو النعيم أو العذاب ولو كان تراباً أو رماداً، قادر على كل شيء فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

أمّا روحه التي كانت تعمر جسده، فقد ذكرنا أن الروح لا تعدم، وأنها باقية، وأنها في هذا البرزخ بين الدنيا والآخرة إمّا في نعيم وإمّا في عذاب، وإن كنا بعقولنا لا ندرك ماهيتها، ولا ندري أين مستقرها، بل نتحقّق بأن الروح إذا خرجت من البدن لا تعدم كما ينعدم البدن، بل تبقى والدليل على بقائها الأحاديث التي فيها أنّها تحضر، وأنها يُعرج بها، وأنها ترى من يقبضها، ونحو ذلك. فهي إذاً باقية في هذه المدة بين الدنيا والآخرة، وفي يوم القيامة يأمر الله الأرض فتجتمع ما فيها من رفات الأموات، وتتجمّع عظامهم حتّى تتكامل، ويكسوها الله لحماً ثم بعد ذلك

يعيدها ويرسل إليها أرواحها.

وقد وقع مثل ذلك في الدنيا، فحكى الله قصة الرجل الذي مر على قرية وهي خاوية، فقال تعالى: ﴿أَوَكَلِّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾، فاستبعد إعادتها وقال: ﴿أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، فاستبعد أن تحيا بعد أن فנית، فأراه الله الآية في نفسه، ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾، وكان معه حمارٌ وكان معه سلّة طعام وفاكهة، فلما أن بعثه بعد مئة عام ونفخ فيه الروح، أراه الله كيف يحيي الموتى، ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، فقال الله: ﴿بَلْ لَبِثْتُمْ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾، أي: لم يتغير، ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾، يقولون: إنه بقي ينظر إلى عظام الحمار كيف تجتمع ويلتصم بعضها على بعض ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، أولاً: التأمّت العظام، ثم كساها الله لحماً، ثم نبت عليها جلدها، ثم نفخ فيها الروح، وقام الحمار ونهق، فأراه الآية في نفسه وفي ما كان معه، وذلك بلا شك آية وعبرة على أنن الله تعالى قادر على أن يحيي الموتى ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتِينَ﴾ [القيامة: ٤٠]، فإذا أيقن الإنسان بذلك فإن يقينه يحمله على أن يستعدّ للموت.

قال الطحاوي:

وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ لِمَنْ كَانَ لَهُ أَهْلًا، وَسُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ فِي قَبْرِهِ عَنِ رَبِّهِ وَدِينِهِ وَنَبِيِّهِ عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَعَنِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ. وَالْقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفْرِ النَّيرانِ.

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَالِ يُقَالُ فَرَعُونَ سِوَاهِ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا

وَهَشِيْمًا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ

كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَئِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ [الطور: ٤٥-٤٧].

وَهَذَا يُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ عَذَابُهُمْ بِالْقَتْلِ وَغَيْرِهِ فِي الدُّنْيَا، وَأَنْ يُرَادَ بِهِ عَذَابُهُمْ فِي الْبَرْزَخِ، وَهُوَ أَظْهَرُ، لِأَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَاتَ وَلَمْ يُعَذَّبْ فِي الدُّنْيَا، أَوْ الْمُرَادُ أَعْمٌ مِنْ ذَلِكَ.

وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كُنَّا فِي جِنَارَةِ فِي بَيْعِ الْخَرْقِدِ، فَأَتَانَا النَّبِيُّ

ﷺ، فَهَدَى وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ، كَانَ عَلَى رُؤُوسِنَا الطَّيْرُ، وَهُوَ يُلْحَدُ لَهُ، فَقَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ

مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي إِقْبَالٍ مِنَ

الْآخِرَةِ وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، نَزَلَتْ إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ، كَانَتْ عَلَى وُجُوهِهِمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ

كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ

مَلَكَ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفَرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ، قَالَ: فَتَخْرُجُ تَسِيلٌ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السَّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَتَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةٍ مَسْكٍ وَجَدْتَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، قَالَ: فَيَضَعُدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا - يَعْنِي عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ - إِلَّا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهَوْا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيَفْتَحُ لَهُ، فَيُشِيعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا، إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللَّهُ، فَيَقُولُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أَعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أَخْرَجْتُهُمْ تَارَةً أُخْرَى.

قَالَ: فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيَجْلِسَانِيهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا عَلِمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رُوحِهَا وَطِيْبِهَا، وَيُقْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّةَ بَصَرِهِ، قَالَ: وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرَّيْحِ، فَيَقُولُ: أَبْنِيْزُ بِالَّذِي يَسْرُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي.

قَالَ: وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودٌ الْوُجُوهَ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: آتَيْتَهَا النَّفْسَ الْحَيَّةَةَ، أَخْرَجْتَنِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَعَظَبٍ، قَالَ: فَتَفَرَّقَ فِي جَسَدِهِ، فَيَسْتَرْعُهَا كَمَا يُسْتَرْعُ السُّفُودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُورِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ خَبِيثَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَضَعُونَ بِهَا، فَلَا يَمْرُونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْحَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانُ ابْنُ فَلَانٍ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمِّي بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُتَهَيَّئَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَبِيعَ الْجَمَلُ فِي سَوَاءِ الْبِلَادِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فَيَقُولُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سَجِّينَ، فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

فَتَعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهَا، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهَا، لَا أَدْرِي، فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسُمُومِهَا، وَيَضِيقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الشَّيَابِ، مُتَّيْنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبَشِرْ بِالَّذِي

يَسْؤُوكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ، فَوَجْهُكَ الْوَجْهَ يَجِيءُ
بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْحَبِيثُ، فَيَقُولُ رَبِّ لَا تَقِمِ السَّاعَةَ».

رواه الإمام أحمد^(١) وأبو داود^(٢)، وروى النسائي^(٣) وابن ماجه^(٤) أوله، ورواه
الحاكم^(٥) وأبو عوانة الإسفرائيني^(٦) في صحيحيهما، وابن حبان^(٧).

وَذَهَبَ إِلَى مُوجِبِ هَذَا الْحَدِيثِ جَمِيعُ أَهْلِ السَّنَةِ وَالْحَدِيثِ، وَلِهَذَا شَوَّاهِدُ مِنَ
الصَّحِيحِ، فَذَكَرَ الْبُخَارِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - عَنْ سَعِيدِ بْنِ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ
ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ،
فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيَقْعِدَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ، مُحَمَّدٌ ﷺ؟ فَأَمَّا
الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ لَهُ: انظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ
أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ، فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا»^(٨).

(١) في المسند (٤/٢٨٧).

(٢) برقم (٤٧٥٣).

(٣) في المجتبى (٢٠٠١).

(٤) برقم (١٥٤٩).

(٥) في المستدرک (١/٣٧).

(٦) كما في إتحاف المهرة (٢/٤٥٩).

(٧) أشار إليه عقب حديث أبي هريرة ﷺ (٧/٣٨٧)، وقال: «زادان لم يسمعه من البراء، فلذلك
لم أخرجه».

(٨) أخرجه البخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠).

قَالَ قَتَادَةُ: وَرُوي لَنَا: أَنَّهُ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَبْرِئُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»، فَدَعَا بِجَرِيدَةِ رَطْبَةٍ، فَشَقَّهَا نِصْفَيْنِ، وَقَالَ: «لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَنْبَسَا»^(١).

وفي «صَحِيحِ أَبِي حَاتِمٍ»^(٢) عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا قُبِرَ أَحَدُكُمْ، أَوْ الْإِنْسَانُ، أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَرْقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا الْمُنْكَرُ، وَ لِلْآخَرِ: النَّكِيرُ»، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ ... إلخ.

قال الشيخ:

الإيمان بالبرزخ وبما يكون فيه ثبت تفصيلاً بالسنة، وثبتت أدلته مجملة من القرآن، وقد روي أن امرأة من اليهود دخلت على عائشة رضي الله عنها، فكان من جملة ما قالت: أعاذك الله من عذاب القبر، فاستغربت عائشة - رضي الله عنها - أن يكون في القبر عذاب، فلما جاء النبي ﷺ سألته عن عذاب القبر، فقال: «لَوْصَمُ، عَذَابُ الْقَبْرِ حَقٌّ»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٢١٦)، ومسلم (٢٩٢).

(٢) (٣٨٧/٧).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٧٢)، ومسلم (٩٠٣).

وقد استدلل على عذاب البرزخ بآيات؛ منها الآية التي ابتدأ بها الشارح - رحمه الله تعالى - وهي قصة آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وأخرج الطبري^(١): أن رجلاً سأل الأوزاعي، فقال: رحمك الله، رأينا طيوراً تخرج من البحر تأخذ ناحية الغرب بيضاً فوجاً فوجاً، لا يعلم عددها إلا الله، فإذا كان العشي رجع مثلها سوداً، قال: وفطنتم إلى ذلك؟ قالوا: نعم، قال: إن تلك الطيور في حواصلها أرواح آل فرعون، يُعرضون على النار غدوًّا وعشيًّا، فترجع إلى وكورها وقد احترقت رباشها وصارت سوداء، فتنبت عليها من الليل رباش بيض وتتناثر السود، ثم تغدو، ويعرضون على النار غدوًّا وعشيًّا، ثم ترجع إلى وكورها، فذلك دأبها في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قال الله: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

وإذا كان هذا في حق آل فرعون، فكذلك كل كافر، وكل خارج عن الإسلام وكل مبتدع، يثبت له هذا العذاب الذي ثبت لآل فرعون.

والآية الثانية التي يُستدل بها على عذاب القبر في آخر سورة الطور ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: ٤٥]، يعني: يوم القيامة، قال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور: ٤٧]، فُسِّرَ ﴿دُونَ

(١) في تفسيره (٢٤ / ٧١).

ذَلِكَ ۞: - أي قبل ذلك - بأنه إنه عذاب القبر، وقيل: إنه عذاب في الدنيا، ورجح الشارح أنه عذاب القبر، وذلك أن كثيراً منهم مات ولم يعذب في الدنيا، فلعل على أنه لا بد أن يأتيهم عذاب قبل عذاب يوم القيامة، ولا يكون إلا عذاب البرزخ. وقد استدلل أيضاً بقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١]، العذاب الأدنى: فُسر بعذاب القبر، وهو قبل العذاب الأكبر وهو العذاب الآخروي.

واستدل أيضاً عليه بقوله تعالى في سورة التوبة، لما ذكر المنافقين قال: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّوْنَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١]، المرتان: مرّة في الدنيا، ومرّة في البرزخ، أو مرّتين في البرزخ، وهما: عذاب على الأرواح، وعذاب على الأبدان.

هذه الآيات تدل على أنه وجد ذكر عذاب القبر في القرآن.

وقد تكلم العلماء على القبور وما يكون فيها، فكتب المتقدمون كتباً كبيرة مثل ابن أبي الدنيا الذي ألف كتاب «القبور»، وكذلك ابن القيم تكلم على عذاب القبر في كتاب «الروح»، ذكر الأدلة عليه، وذكر أنواعه، وكذلك تلميذه ابن رجب في كتابه «أهوال القبور» تكلم فيه على عذاب القبر وأنواعه، وتوسّع في ذلك، وذكروا أدلة وأمثلة على ذلك.

وقد وردت أحاديث كثيرة تدل على إثبات عذاب القبر، ذكر الشارح بعضها كما مر معنا، وذكر ابن كثير في «التفسير» عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ

ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ [إبراهيم: ٢٧]، أتمها نزلت في عذاب القبر، وقد أورد عندها أحاديث طويلة وقصيرة فيها ذكر ما يعرض على الميت في قبره وما يناله من العذاب، ومنها هذا الحديث الطويل الذي ذكره الشارح، فتأمل في هذا العذاب وتأخذ منه العبرة.

فمثلاً: اشترك المؤمن والكافر في أن ملك الموت يجلس عند رأس كل واحد منهما، إلا أنه يقول للمؤمن: «يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، أَخْرِجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ». ويقول للكافر: «يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْحَيْسِيَّةُ، أَخْرِجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَغَضَبٍ».

أما روح المؤمن، فتخرج كما تسيل القطرة من في السقاء، وأما روح الكافر فتفرق في جسده، فيتزعمها بقوة كما يتزعم السقود من الصوف المبلول. والسقود: هو الذي له أطراف محددة إذا أدخل في الصوف المبلول، فلا يخرج إلا بعد أن يتقطع ما علق به. فمثلاً إذا أردت أن تخرج شوكة من وسط صوف أو قطن لا تخرج إلا بعد أن يتقطع ما يحيط بها، فهذا لأنه يتزعمها بقوة فتقطع العروق وتتقطع الشرايين، ولا تخرج إلا بقوة، وهذا دليل على أن هذا أول عذابه.

بعدها تخرج الروح تأخذها الملائكة، فملائكة المؤمن كأن وجوههم الشمس، وملائكة الكافر سود الوجوه، ومع ملائكة المؤمن أكفان من الجنة، وحنوط من الجنة، والحنوط: هو الطيب الذي يطيب به الميت، فهذا الحنوط

تطّيب به روح المؤمن. وأمّا الكافر فإنّ روحه تجعل في تلك المُسوح، وهي خشن الثياب.

بعدما يُصعد بها يخرج من المؤمن كأطيب ريح مسك وجدت على الأرض، ويخرج من الكافر كأنتن ريح جيفة وجدت على الأرض، مع أنّها روحه كذلك المؤمن يسمّى بأحسن أسمائه في الدنيا، والكافر بأسوأ أسمائه في الدنيا. والمؤمن تفتح له أبواب السماء، ويرحب به، وتصل روحه إلى السماء السابعة، فعندئذ يقول تعالى: ﴿اَكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾، كما في قوله تعالى: ﴿إِن كِتَابَ الْأَنْبَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨]، وهو مشتق من العلو.

وأمّا الكافر، فيقول تعالى: ﴿اَكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ﴾، قال تعالى: ﴿إِن كِتَابَ الْأَنْبَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧]، قالوا: إنّه مشتق من السجن، يعني: كأن أرواحهم مسجونة في جبّ في أسفل الأرض السفليّة. فهذا مستقرّ أرواحهم ومحلّ كتابهم، روح الكافر لا تفتح لها أبواب السماء، كما قال تعالى: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْبِغَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، وسَمّ الخياط: هو ثقب الإبرة، فكيف يتصوّر أنّ الجمّل يدخل في ثقب الإبرة، والمعنى: أنّهم لا يدخلون الجنة، وكذلك فإنّ روح الكافر تطرح طرحاً من السماء إلى الأرض كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْرَىٰ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ﴾ [الحج: ٣١].

والمؤمن والكافر كلٌّ منهما تعاد روحه إلى جسده، وينزل به ملكان يقال لهما: منكر ونكير، يسألانه عن ثلاث مسائل: عن ربّه، ونيّته، ودينه. فثبت الله المؤمن، ويُنطقه بالصواب، ولو كان أمّياً لا يقرأ، ولكن تكون عقيدته التي مات عليها يبقى عليه أثرها، فيقول: ربّي الله، وديني الإسلام، ونيبي محمد ﷺ.

أما الكافر ولو كان قارئاً، ولو كان عالماً، فلا يدري بالجواب، ويزيغه الله، فيقول: هاه هاه لا أدري، وفي بعض الروايات أنّه يضربُ بمرزبةٍ من حديد، والمرزبة: هي حديدةٌ كبيرةٌ لها رأسٌ كبير يضرب بها، وفي بعض الروايات: «لو ضُربَ بها جَبَلٌ لَصَارَ تُرَابًا»^(١)! ماذا يتحمّل هذا الإنسان، يُضرب بهذه المرزبة، ولكن لَمَّا أنّ الله ما أراد إفناءه لا يفنى، ولكن يتألّم بذلك، ولو كنّا لا نشعر بذلك، ولا تدركه أفهامنا.

ولكن إذا سئل المؤمن وأجاب بالجواب الصحيح، «فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رُوحِهَا وَطَيْبِهَا، وَيُفْسَخُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ»، وينظر إلى منزله من الجنة، وفي بعض الروايات: «يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ، فيقول: هذا كان مَنْزِلَكَ لو كَفَرْتَ بِرَبِّكَ، فَأَمَّا إِذْ أَمَنْتَ فَهَذَا مَنْزِلُكَ، فَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ»^(٢)، فينظر إليه فيراهما جميعاً، فيقول: ربّ أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي، ويفسح له في قبره مدّ

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٥٣) من حديث البراء بن عازب ؓ.

(٢) أخرجه أحمد (٣/٣) من حديث أبي سعيد الخدري ؓ.

بصره، ويكون قبره روضة من رياض الجنة، وإن كنا لا ندرك ذلك.

كذلك الكافر والعياذ بالله، «فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ، فَأَقْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسُمُومِهَا، وَيَضِيقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ»، ويكون عليه حفرة من حفر النار، وإن كنا لا ندرك ذلك؛ لأنه في عالم ونحن في عالم.

وقد وردت الأدلة توّضح مثل هذا، وثبتت عذاب القبر، مثل ما في حديث أنس رضي الله عنه الذي مر معنا قوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قُرْعَ نِعَالِهِمْ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُقْعِدَانِهِ...»^(١). إلى آخره.

فإذا قال قائل: أين هذا؟ فنحن قد نحفر القبر بعد يومين أو ثلاثة، فنجده كما وضعناه لم يتغير، ويقول بعضهم: إننا نضع على صدره الزّبّيق الذي هو خفيف الحركة، فنجده لا يتغير عن موضعه، كيف يكون ذلك؟

الجواب: أنكم في عالم، وهم في عالم، العالم الذي هم فيه هو عالم الأرواح، التي يكون عليها الحساب وعليها العذاب، وهي التي تتعذب وتنعم ونحن لا نشعر بذلك ولا تدركه أفهامنا. ولذلك يقول في الحديث: «يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهُ صَعِقَ»^(٢). لو أسمعنا الله ما يكون من أهل القبور، كما استقرّ الناس في الدنيا، ولما تهنّوا في مأكلي ولا مشربي، ولما عمرت هذه

(١) تقدم تحريجه (٤/١٤٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٣١٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الدنيا بأهلها؛ لأنهم لو كانوا يسمعون عذاب هؤلاء ويكأهم وعويلهم وأتهم سيصيرون إلى مثل ذلك تنكّدت عليهم الحياة، وتكدر عليهم صفوها. ولذلك لما أراد الله عمارة هذه الدنيا حجب عنهم الأمور الأخروية التي أولها ما بعد الموت فلا يسمعون شيئاً مما فيها، ولا يعلمون ما فيها.

لكن قد يطلع الله أفراداً منهم على شيء من ذلك، فمن أراد أن يعرف شيئاً من ذلك، فليرجع إلى الكتب التي ذكرنا، مثل: كتب ابن أبي الدنيا، وكتاب «أهوال القبور» لابن رجب، وكتاب «الروح» لابن القيم؛ فقد ذكروا أناساً أطلعوا على بعض من الأمور الأخروية، منها ما هو أحلام ورؤى، ومنها ما هو رأي عين، فقد روي أن شاباً مات فدفن، فرآه رجل من جيرانه في المنام وقد شاب، فقال له: ما قصتك؟ قال: دُفن بشر الميسي في مقبرتنا، فزفرت جهنم زفرة شاب منها كل من في المقبرة^(١).

معلوم أن الاثنين قد يكون أحدهما سعيداً والآخر شقيماً، ويدفنان في قبرين متجاورين، فيكون هذا قبره روضة من رياض الجنة، وهذا قبره حفرة من حفر النار، وهما متلاصقان ولا يتألم هذا بعذاب هذا، ولا يتنعم هذا بنعيم هذا، والله قادر على كل شيء؛ لأنه يقدر على إيصال كل ما يستحقه، ولا يستبعد في قدرة الله أمثال هذه الأمور.

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٦/٧). وأخرج نحوه الخطيب في تاريخ بغداد

(٤٣٣/١٤)، وابن الجوزي في المنتظم (٢٧٨/١٠).

وأما الحكایات الدنیویة، فقد ذكروا منها أشياء كثيرة: ذكروا أن رجلاً من الناس لما دفنوه وسووا عليه كَبْنَهُ، سقطت قلنسوة واحد منهم، فخفض رأسه ليأخذها، فرأى القبر قد مدَّ وقد وسَّع في نظر عينه، ولو لم ير ذلك غيره، وهذه بشرى للميت.

وكذلك أيضاً ما يحكى عن كثير من الذين يُشهد لهم بالخير، أنه يخرج من قبورهم رائحة المسك، وأتهم يشمّ منهم قبل أن يدفنوا ورائح طيبة على الأبدان، فكيف بالأرواح؟! والله تعالى أخبر على لسان رسله بهذه الأمور، وبيّن منها علامات؛ لتكون شاهداً ودليلاً للأمة على مثل هذه الأمور التي لم يروها.

وكذلك يُطلع الله نبيه ﷺ على ما لا يُطلع عليه غيره، فقد أخرج مسلم في «صحيحه»^(١) عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: بَيَّنَّا النَّبِيَّ ﷺ فِي حَائِطِ لَيْبِي النَّجَّارِ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ وَنَحْنُ مَعَهُ، إِذْ حَدَّثَ بِهِ فَكَادَتْ تُلْقِيهِ، وَإِذَا أَقْبُرُ سِتَّةَ أَوْ خَمْسَةَ أَوْ أَرْبَعَةَ، فَقَالَ: «مَنْ يَعْرِفُ أَصْحَابَ هَذِهِ الْأَقْبُرِ؟»، فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا، قَالَ: «فَمَتَى مَاتَ هَؤُلَاءِ؟»، قَالَ: مَاتُوا فِي الْإِشْرَاكِ، فَقَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافِنُوا لِلدَّعْوَةِ اللَّهُ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ». فأطلعه الله على ما لم يطلع عليه غيره، ولا يلزم من ذلك أن يكون مطرّداً، فليس كل من ركب حماراً ومراً على قبر يشعر بذلك الحمّار.

والدوابّ قد يكون لها سماع وانتباه لشيء لا يسمعه الإنسان، ولكن قد

(١) برقم (٢٨٦٧).

لا يظهر عليها أثر هذا السماع، وقد أخبر النبي ﷺ بأنَّ الدوابَّ في صباح كلِّ يوم جمعة تصيخ قرب الصباح أو بعد الصباح إلى طلوع الشمس، تخشى أن يكون ذلك يوم القيامة. يقول في الحديث في فضل يوم الجمعة: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُهْبِطَ، وَفِيهِ تَبَّ عَلَيْهِ، وَفِيهِ مَاتَ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَمَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا وَهِيَ مُسِيخَةٌ»^(١) يوم الجمعة من حين تَصْبِحُ حتى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شَفَقًا مِنَ السَّاعَةِ إِلَّا الْجِنَّ وَالْأَنْسَ»^(٢). ونحن لا نشعر بهذه الإصاخة التي فيها هذا الوجل وهذا الخوف، وكذلك أيضًا لا نشعر بما يحصل لها من الخوف، أو من السماع المفزع أو نحو ذلك.

أما الرسل، فإنَّ الله سبحانه قد يطلُعهم على بعض الأمور الغيبية؛ فمن ذلك أنَّ الله تعالى أطلع نبيَّه على هذين القبرين الذين يعدَّبان، وقد مرَّ بنا حديثهم في قوله: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ»^(٣). وهذا من خصائص الرسول ﷺ، فالله تعالى هو الذي يطلعه على ما يشاء، ولا يجوز لغيره أن يغرز جريدة، أو عصًا رطبةً على أيِّ قبر، ولا يمكن أن تكون تلك الجريدة تؤثر كغيرها، ولا يمكن أن يقاس على الجريدة التي غرزها الرسول ﷺ غيرها.

(١) قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر (٤٣٣/٢): «مسيخة: أي مصغية مستمعة، ويروى بالصاد وهو الأصل».

(٢) أخرجه أبو داود (١٠٤٦) واللفظ له، والنسائي (١٤٣٠)، وأحمد (٤٨٦/٢)، (٤٥٣/٥)، ومالك (١٠٨/١)، وابن حبان (٧/٧)، والحاكم (٢٨٧/١) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٣) تقدم ترجمته (١٤٧/٤).

وقد ذكر أن بعض الناس يستدلون بهذا الحديث على مشروعية أن يُغرز على كل قبر جريدة، وكلما يبست نزعت وغرز مكانها أخرى، وهذا لم يفعله النبي ﷺ مع كل أحد، ولم يفعله الصحابة رضي الله عنهم، فلا يجوز، ولا وزن له ولا دلالة، ولكن علينا أن نعمل الأعمال الصالحة التي تُنجي من عذاب القبر، وعلينا أن ننصح المسلمين بأن لا يعملوا عملاً يدخلهم في العذاب، أو يؤهلهم في العذاب، ونحثهم على الأعمال الصالحة التي يستحقون بها نعيم البرزخ، وينجيهم الله بها من عذاب النار وعذاب القبر.

واستحب العلماء في الصلاة على الجنازة أن يدعى للميت بالنجاة من عذاب القبر، كأن يُقال في الدعاء له - بعد ما يدعى له بالمغفرة وتكفير الخطايا -: اللهم افسح له في قبره، ونور له فيه. هذا مما يُرجى إجابته، أن يُفسح له في قبره. ويقال أيضاً: اللهم أنجِه من عذاب القبر، ومن عذاب النار. هكذا يستحب أن يدعى للميت.

ويدعى كذلك لكل المسلمين، أن ينجيهم الله من عذاب القبر، ومن فتنة القبر، ومن فتنة ما بعد الموت... وهكذا

أجمع المسلمون على الدعاء بذلك، بل أوجه بعضهم في آخر الصلاة، فهو دليل على أنهم موقنون بذلك، ويدل على وجوبه قوله ﷺ: «إِذَا فَرَّغَ أَحَدُكُمْ مِنْ التَّشْهُدِ الْأَخِيرِ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ: مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ

فِتْنَةِ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ، وَمِنْ شَرِّ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ»^(١). فجعل من جملتها عذاب القبر، فدلّ على أنّه عقيدة راسخة عند المسلمين أنّ القبر فيه عذاب، ولو لم يقبر، قد يقال: إنّ هناك أمم لا يدفنون أمواتهم بل يحرقونهم، وهناك من يموت في الصحراء ولا يُدفن بل تأكله الطيور، وتقطّعه السباع ولا يبقى له جنة أبدًا؟ نقول: يأتيه عذابه ولو كان رمادًا، ولو كان ترابًا؛ فقدرة الله تأتي على كلّ شيء، يعذب أيّا كانت حياته وحالته، لكن الأصل شرعيّة الدفن للأموات، فالإسلام شرع التدافن. يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَّا لَهُ فَاقْبَرَهُ﴾ [عبس: ٢١]، أي: فشرع أن يقبر. ويقول النبي ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافِنُوا لَدَعَوْتُ اللَّهُ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ»^(٢). كأنه يقول: لو أنّه أسمعهم ما يسمع من عذاب القبر حُشِي أتهم لا يتدافنون، وأتهم يقولون لا حاجة إلى الدفن؛ فإنّه يعذب في قبره، ولكن شرع الله التدافن، وقدّر أن يصل العذاب أو النعيم إلى كلّ واحد، سواء أدفن أم لم يدفن.

(١) أخرجه مسلم (٥٨٨) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٢) تقدم تحريره (١٥٥/٤).

قال الشارح:

وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي ثُبُوتِ عَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ لِمَنْ كَانَ لِذَلِكَ أَهْلًا، وَسُؤَالِ الْمَلَائِكَةِ، فَيَجِبُ اعْتِقَادُ ثُبُوتِ ذَلِكَ وَالْإِيْمَانُ بِهِ، وَلَا يَتَكَلَّمُ فِي كَيْفِيَّتِهِ، إِذْ لَيْسَ لِلْعَقْلِ وَقُوفٌ عَلَى كَيْفِيَّتِهِ، لِكَوْنِهِ لَا عَهْدَ لَهُ بِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَالشَّرْعُ لَا يَأْتِي بِمَا تُحْمِلُهُ الْعُقُولُ، وَلَكِنَّهُ قَدْ يَأْتِي بِمَا تَحَارُّ فِيهِ الْعُقُولُ. فَإِنَّ عَوْدَ الرُّوحِ إِلَى الْجَسَدِ لَيْسَ عَلَى الْوَجْهِ الْمَعْهُودِ فِي الدُّنْيَا، بَلْ تَعَادُ الرُّوحُ إِلَيْهِ إِعَادَةً غَيْرَ الْإِعَادَةِ الْمَأْلُوفَةِ فِي الدُّنْيَا.

قال الشيخ:

قد كثرت الأدلة في إثبات عذاب القبر، فأخبر النبي ﷺ به، وعلينا أن نصدق به، وقد كتب العلماء في ذلك وتوسعوا فيه، كتب في ذلك ابن القيم - رحمه الله - في كتاب «الروح» وأورد الأدلة، ثم إنه أورد شبهات من الفلاسفة ونحوهم الذين يكذبون بذلك، ويقولون: كيف يُجلَس في قبره، وكيف يوسع عليه، وكيف يُضيق عليه، ويقولون: إننا وضعنا على صدره الزئبق الذي هو أخف شيء حركة، وفتحنا عليه بعد ثلاثة أيام فوجدناه كما وُضع لم يتحرك أية شيء منه، ونحو ذلك من شبههم.

فنحن نصدق بما جاء في الأحاديث ونقول: سمعنا وأطعنا، نعتقد أن ذلك

حق.

قوله: (وَسُؤَالِ الْمَلَائِكَةِ)، أي: سؤلهم لكل ميت من ربك؟ وما دينك؟

ومن نبيك؟

ونظرًا لتواتر الأخبار عن الرسول ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه كان ذلك مما يجب تصديقه، وإن لم تدركه العقول، وإن لم يكن في متناول الأنفس، بل إن هذا من الأمور الغيبة التي نؤمن بها وإن لم نرها.

يقول: (وَالشَّرْعُ لَا يَأْتِي بِمَا تُحِيلُهُ الْعُقُولُ، وَلَكِنَّهُ قَدْ يَأْتِي بِمَا تَحَارُّ فِيهِ الْعُقُولُ)، تحير العقول وتسلم أمرها لله، ولا تكيف، ولا تنكر الأشياء التي جاءت الأدلة عليها يقينًا.

ثم قال: (فَإِنَّ عَوْدَ الرُّوحِ إِلَى الْجَسَدِ لَيْسَ عَلَى الْوَجْهِ الْمَعْهُودِ فِي الدُّنْيَا)، ما جاء في الحديث: «وَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ...»^(١) إلى آخره، ليس معناه أن روحه تعود إليه كما كانت في الدنيا بحيث يستيقظ ويحتاج إلى أكل ويحتاج إلى شراب، وإلى حركة طبيعية، ولكنه اتصال الله تعالى أعلم بحقيقته. قوله: (بَلْ تُعَادُ الرُّوحُ إِلَيْهِ إِعَادَةٌ غَيْرَ الْإِعَادَةِ الْمَأْلُوفَةِ فِي الدُّنْيَا)، أي: كما يشاء الله تعالى.

(١) تقدم تحريجه (١٤٦).

قال الشارح:

فَالرُّوحُ لَهَا بِالْبَدَنِ خَمْسَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ التَّعَلُّقِ، مُتَغَايِرَةٌ الْأَحْكَامِ:
أَحَدُهَا: تَعَلُّقُهَا بِهِ فِي بَطْنِ الْأُمِّ جَنِينًا.

الثاني: تَعَلُّقُهَا بِهِ بَعْدَ خُرُوجِهِ إِلَى وَجْهِ الْأَرْضِ.

الثالث: تَعَلُّقُهَا بِهِ فِي حَالِ النَّوْمِ، فَلَهَا بِهِ تَعَلُّقٌ مِنْ وَجْهِهِ، وَمُفَارَقَةٌ مِنْ وَجْهِهِ.

الرابع: تَعَلُّقُهَا بِهِ فِي الْبَرْزَخِ، فَإِنَّهَا وَإِنْ فَارَقَتْهُ وَتَجَرَّدَتْ عَنْهُ فَإِنَّهَا لَمْ تُفَارِقْهُ فِرَاقًا

كُلِّيًّا بِحَيْثُ لَا يَبْقَى لَهَا إِلَيْهِ التَّفَاتُ الْبَتَّةَ، فَإِنَّهُ وَرَدَّ رَدُّهَا إِلَيْهِ وَقَتَ سَلَامِ الْمُسْلِمِ^(١)،

وَوَرَدَ أَنَّهُ يَسْمَعُ خَفَقَ نَعَالِهِمْ حِينَ يُؤَلُّونَ عَنْهُ^(٢)، وَهَذَا الرَّدُّ إِعَادَةٌ خَاصَّةٌ،

لَا يُوجِبُ حَيَاةَ الْبَدَنِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

الخامس: تَعَلُّقُهَا بِهِ يَوْمَ بَعْثِ الْأَجْسَادِ، وَهُوَ أَكْمَلُ أَنْوَاعِ تَعَلُّقِهَا بِالْبَدَنِ،

وَلَا نِسْبَةٌ لِمَا قَبْلَهُ مِنْ أَنْوَاعِ التَّعَلُّقِ إِلَيْهِ، إِذْ هُوَ تَعَلُّقٌ لَا يَقْبَلُ الْبَدَنُ مَعَهُ مَوْتًا وَلَا نَوْمًا

وَلَا فَسَادًا، فَالنَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ. فَتَأْمَلْ هَذَا يُزِيحُ عَنْكَ إِشْكَالَاتٍ كَثِيرَةً.

قال الشيخ:

قوله: (فَالرُّوحُ لَهَا بِالْبَدَنِ خَمْسَةُ أَنْوَاعٍ)، كما ذكر ذلك ابن القيم - رحمه الله -

في كتاب «الروح»، وتوسع في ذلك، في نحو عشرين صفحة.

(١) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي أخرجه أبو داود (٢٠٤١)، وأحمد (٥٢٧/٢).

(٢) كما في حديث أنس رضي الله عنه الذي أخرجه البخاري (١٣٣٨، ١٣٧٤)، ومسلم (٢٨٧٠).

قوله: (أَحَدُهُمَا: تَعَلَّقُهَا بِهِ فِي بَطْنِ الْأُمِّ جَنِينًا)، فإذا كان في بطن أمه فإن فيه روح، ولكن تلك الروح لا نعلم كيفيتها؛ ولذلك لا يتنفس ولكنه يتحرك في بطن أمه مما يدل على حياته.

قوله: (الثاني: تَعَلَّقُهَا بِهِ بَعْدَ خُرُوجِهِ إِلَى وَجْهِ الْأَرْضِ)، وهو هذا التعلق المشاهد، إذا ولد البشر فساعة ما يخرج يُسمع له صوت، يعني: صيحة تدل على حياته، وكذلك أيضًا حركة، ثم بعد ذلك يبقى في هذه الحياة الدنيا يتنفس التنفس العادي، ويأكل ويشرب، ويحتاج إلى إخراج فضلات الأكل والشرب، وينام ويستيقظ، ويذهب ويحيى، ويسعى ويمشي، ويصعد وينزل، فهو حي كما هو مشاهد، يتكلم، ويتحرك، وينطق، ويسمع، ويبصر على ما هو معروف.

قوله: (الثالث: تَعَلَّقُهَا بِهِ فِي حَالِ النَّوْمِ، فَلَهَا بِهِ تَعَلُّقٌ مِنْ وَجْهِهِ، وَفُفَّارِقَةٌ مِنْ وَجْهِهِ)، النائم لم يفقد الحياة؛ ولأجل ذلك يتنفس التنفس العادي، ولكن ليس به الحركة، وليس به اليقظة، وقد جاء في حديث أبي قتادة رضي الله عنه أنه قال: سُرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: لَوْ عَرَّسَتْ بِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «أَخَافُ أَنْ تَنَامُوا عَنِ الصَّلَاةِ»، قَالَ بِلَالٌ: أَنَا أَوْ قِطُّكُمْ، فَأَضْطَجَعُوا، وَأَسْنَدَ بِلَالٌ ظَهْرَهُ إِلَى رَاحِلَتِهِ، فَعَلَبَنَهُ عَيْنَاهُ فَنَامَ، فَاسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَدْ طَلَعَ حَاجِبُ الشَّمْسِ، فَقَالَ: «يَا بِلَالُ، أَيَّنَ مَا قُلْتَ؟» قَالَ: مَا أَلْقَيْتَ عَلَيَّ نَوْمَةً مِثْلُهَا قَطُّ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ أَرْوَاحَكُمْ حِينَ شَاءَ، وَرَدَّهَا عَلَيْكُمْ حِينَ

شَاء...» الحديث^(١). إلى آخر ما ذكر، فمفارقتها له بالنوم ليست بمفارقة كاملة كالمفارقة بعد الموت، ولكن خرجت وبقي أثرها، فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه.

قوله: (الرَّابِعُ: تَعَلُّقُهَا بِهِ فِي الْبَرْزَخِ)، وهذا هو ما يحصل به عذاب القبر أو نعيمه، فنعتقد أنه إذا مات فإن روحه تبقى حية، وموتها خروجها من هذا الجسد ومفارقتها له، ولكنها باقية؛ ولهذا توصف بأنها تصعد وتنزل، وتذهب وتجيء، وتوصف بأنها حية تتحرك كما يشاء الله، ونحن نعجز عن أن ندرك ماهية الروح التي كانت في البدن وخرجت منه، ولكن نعلم أنها مخلوقة، ونعلم أن لها حركة وانتقال وذهاب ورجوع، فإذا مات وفارقت هذه الروح لا يُقال: إنها فارقت فراقاً كلياً، بل لا يزال لها تعلق به، يبقى لها إليه التفات، لا تفارقه فراقاً كاملاً أبداً، وقد ورد أنها تُرد إليه وقت سلام المسلم، ثبت ذلك في حق النبي ﷺ، أنه قال: «ما من أحدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي حتى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ»^(٢)، وورد أيضاً كذلك في حق غيره أن الإنسان إذا سلم على

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥). قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٦٧/٢): «هو كقوله تعالى:

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَازِحِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، ولا يلزم من قبض

الروح الموت، فالموت: انقطاع تعلق الروح بالبدن ظاهراً وباطناً، والنوم: انقطاعه عن ظاهره فقط.»

(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٤١)، وأحمد (٥٢٧/٢) من حديث أبي هريرة ؓ.

الميت أو على أهل القبور يسمعون سلامه، ولما وقف النبي ﷺ على جثث القتلى في بدر، أخذ يخاطبهم مخاطبة الأحياء، ويوبخهم على أعمالهم ورددهم لرسالته، وقال لأصحابه: «مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرُدُّوا عَلَيَّ شَيْئًا»^(١)، ويريد بذلك أرواحهم التي قد فارقت أجسادهم، هكذا أخبر.

وورد أن الميت إذا انصرف أصحابه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، وفي حديث عن أنس رضي الله عنه الذي أخرجه البخاري ومسلم: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرَعَ نِعَالِهِمْ، أَنَّهُ مَلَكَانَ فِي قَبْعِدَانِهِ»^(٢). ثم قال: (وَهَذَا الرَّدُّ إِعَادَةٌ خَاصَّةٌ، لَا يُوجِبُ حَيَاةَ الْبَدَنِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ)، فترد عليه الروح مع أن البدن قد فني وصار ترابًا أو رمادًا، أو أحرق، أو أكلته الطيور أو السباع، ومع ذلك فإن الروح باقية إذا سلم عليه أحد يرد عليه السلام.

قوله: (الْخَامِسُ: تَعَلَّقُهَا بِهِ يَوْمَ بَعْثِ الْأَجْسَادِ)، فعندما يعيد الله الأجساد وتنبت إلى أن تتواصل وتكمل ولو كانت قد أحرقت الأبدان، ولو أكلها الدود، ولو أكلها التراب يعيدها الله، وهو سبحانه على كل شيء قدير؛ كما في قصة ذلك الرجل الذي مر على قرية فقال: ﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾

(١) أخرجه البخاري (١٣٧٠) بنحوه، ومسلم (٢٨٧٣) واللفظ له، من حديث عمر رضي الله عنه.

(٢) تقدم تحريجه (١٤٦/٤).

فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةً عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﷺ، ومعلوم أنه بعد موته مئة عام يصير ترابًا، وكان معه أيضًا حمار فأحيا الله أيضًا ذلك الحمار، وقال له: ﴿وَأَنْظِرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ وَأَنْظِرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﷺ [البقرة: ٢٥٩]، فكل ذلك دليل على قدرة الله تعالى، وأنه في الآخرة يعيد الأجسام حتى تتكامل، ثم تدخلها الأرواح، ثم يقوم حيًا سويًا، وهذه الإعادة هي أكمل الإعادات.

ثم قال: (وَهُوَ أَكْمَلُ أَنْوَاعِ تَعَلُّقِهَا بِالْبَدَنِ، وَلَا نِسْبَةَ لِمَا قَبْلَهُ مِنْ أَنْوَاعِ التَّعَلُّقِ إِلَيْهِ، إِذْ هُوَ تَعَلَّقَ لَا يَقْبَلُ الْبَدَنُ مَعَهُ مَوْتًا وَلَا نَوْمًا وَلَا فَسَادًا، فَالنَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ. فَتَأْمَلُ هَذَا يُزِحُّ عَنْكَ إِشْكَالَاتٍ كَثِيرَةً).

قال الشارح:

وَلَيْسَ السُّؤَالُ فِي الْقَبْرِ لِلرُّوحِ وَحَدَهَا، كَمَا قَالَ ابْنُ حَزْمٍ وَغَيْرُهُ، وَأَفْسَدُ مِنْهُ قَوْلُ مَنْ قَالَ: أَنَّهُ لِلْبَدَنِ بِلَا رُوحٍ! وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ تَرُدُّ الْقَوْلَيْنِ. وَكَذَلِكَ عَذَابُ الْقَبْرِ يَكُونُ لِلنَّفْسِ وَالْبَدَنِ جَمِيعًا بِاتِّفَاقِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، تَنْعَمُ النَّفْسُ وَتُعَذَّبُ مُفْرَدَةً عَنِ الْبَدَنِ وَمُتَّصِلَةً بِهِ.

وَأَعْلَمُ أَنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ هُوَ عَذَابُ الْبَرْزَخِ، فَكُلُّ مَنْ مَاتَ وَهُوَ مُسْتَحِقٌّ لِلْعَذَابِ نَالَهُ نَصِيبُهُ مِنْهُ، قَبْرًا أَوْ لَمْ يُقْبَرْ، أَكَلَتْهُ السَّبَاعُ أَوْ احْتَرَقَ حَتَّى صَارَ رَمَادًا وَنُسِفَ فِي الْهَوَاءِ، أَوْ صُلِبَ، أَوْ غَرِقَ فِي الْبَحْرِ، وَصَلَّ إِلَى رُوحِهِ وَبَدَنِهِ مِنَ الْعَذَابِ مَا يَصِلُ إِلَى الْمَقْبُورِ.

قال الشيخ:

أخبر النبي ﷺ بأن السؤال في القبر للبدن والروح، فقد جاء في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «وَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجَلِّسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فيقول: هَاهُ هَاهُ هَاهُ، لَا أَدْرِي»^(١)، وإن كنا لا نسمع ذلك السؤال والجواب، وإن كنا نتيقن أن البدن لا يتحرك، فالله تعالى على كل شيء قدير، قادر على أن يعيد إليه الحياة حياة برزخية، كما أخبر الله عن حياة الشهداء في قوله: ﴿بَلْ أَحْيَاكُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَدُّونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وقال

(١) تقدم ترجمته (٤/١٤٦).

النبي ﷺ: «أَرَوَّاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضِرٍ، لَهَا قَنَادِيلٌ مُمَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرُحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ...»^(١)، مع أن أجسادهم قد دُفنت، فقد دفنهم أهلهم، حفروا لهم ودفنوهم مما يدل على أنهم ماتوا الموتة التي كتبها الله عليهم، وأخبر الله أن أهل الجنة لا يموتون بقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦]، فهكذا يكون عذاب القبر، فليس السؤال في القبر للروح وحدها ولا للبدن بلا روح بل لهما كما يشاء الله.

وكذلك العذاب يكون على البدن ولو كان ترابًا، ويكون على الروح، باتفاق أهل السنة والجماعة، فأهل السنة والجماعة يقولون: (تَسْعَمُ النَّفْسُ وَتُعَذَّبُ مُفْرَدَةً عَنِ الْبَدَنِ وَتُتَّصِلُهُ بِهِ)، كما يشاء الله.

ثم يقول - رحمه الله -: (وَاعْلَمَ أَنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ هُوَ عَذَابُ الْبَرْزَخِ)، البرزخ هو: ما بين الدنيا والآخرة، فالعذاب الذي يُسمى (عذاب البرزخ) هو العذاب الذي قيل: إنه عذاب القبر، ولكن عُبر بعذاب القبر؛ لأنه هو الغالب.
قوله: (قَبْرٍ أَوْ لَمْ يُقْبَرْ، وَلَوْ أَكْمَلْتَهُ السَّبَاعُ، أَوْ احْتَرَقَ حَتَّى صَارَ رَمَادًا...)، هذا هو الصحيح عند أهل السنة أنه يصل إليه ما كتب الله عليه من العذاب ولو لم يكن مدفونًا، هكذا يعتقد أهل السنة.

(١) أخرجه مسلم (١٨٨٧) من حديث ابن مسعود ؓ.

قال الشارح:

وَمَا وَرَدَ مِنْ إِجْلَاسِهِ وَاخْتِلَافِ أَضْلَاعِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَيَجِبُ أَنْ يُفْهَمَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ مُرَادُهُ مِنْ غَيْرِ غُلُوٍّ وَلَا تَقْصِيرٍ، فَلَا يَحْمَلُ كَلَامُهُ مَا لَا يَحْتَمِلُهُ، وَلَا يَقْصُرُ بِهِ عَنْ مُرَادِ مَا قَصَدَهُ مِنَ الْهُدَى وَالْبَيَانِ، فَكَمْ حَصَلَ بِإِهْمَالِ ذَلِكَ وَالْعُدُولِ عَنْهُ مِنَ الضَّلَالِ وَالْعُدُولِ عَنِ الصَّوَابِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ. بَلْ سُوءُ الْفَهْمِ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَصْلُ كُلِّ بَدْعَةٍ وَضَلَالَةٍ نَشَأَتْ فِي الْإِسْلَامِ، وَهُوَ أَصْلُ كُلِّ خَطَأٍ فِي الْفُرُوعِ وَالْأَصُولِ، وَلَا سِيَّامَا إِنْ أُضِيفَ إِلَيْهِ سُوءُ الْقَصْدِ. وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

قال الشيخ:

صح أن الميت يجلس في قبره، ويأتيه ملكان فيجلسانه، ونحن نعلم أنه ليس الإجلال الحقيقي؛ لأننا نعلم أن القبر يضيق به لو جلس في حياته الدنيا، وورد أيضًا أنه إذا كان شقيًا ينضم إليه القبر حتى تختلف أضلعه، يعني: من شدة ضم القبر، هذا أيضًا ليس كالضم الذي نعرفه، بل هو كما يشاء الله، وكذلك أيضًا أن القبر يوسع عليه مد بصره، ليس كما ندركه نحن؛ لأننا في عالم وهم في عالم.

قوله: (فَيَجِبُ أَنْ يُفْهَمَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ مُرَادُهُ مِنْ غَيْرِ غُلُوٍّ وَلَا تَقْصِيرٍ)، أي: يجب أن نفهم مراد النبي ﷺ، ونقول: هذا كله صحيح، ولكن لا نقول: إنه كحالته في الدنيا، فإن ذلك معلوم أنه ليس بصحيح، فالذين غلوا وقالوا: إن الأموات في قبورهم كأنهم أحياء، كما يعتقد ذلك أهل الغلو، الذين يغفلون في

الأولياء ونحوهم، فهذا خطأ؛ لأنهم قد ماتوا كما يموت غيرهم، وما ورد من إحياء الشهداء ونحوهم أمر لا يعرف كيفيته إلا الله، ولا نقصر كما فعلت الفلاسفة الذين أنكروا ذلك إنكاراً حقيقاً.

قوله: (فَلَا يَحْتَمِلُ كَلَامَهُ مَا لَا يَحْتَمِلُهُ)، أي: لا نحمل كلام النبي ﷺ ما لا يحتمله، فنقول: إنه حقيقي وأنه يصوت وأنه يُسمع ونحو ذلك.

قوله: (وَلَا يُقَصِّرُ بِهِ عَنْ مُرَادِ مَا قَصَدَهُ مِنَ الْهَدَى وَالْبَيَانِ)، وكذلك لا نقصر به عن مراده، إذا أراد شيئاً فلا نقصر به عنه، ولا عما قصده من الهدى والبيان فإن له قصد أن يهدي الناس ويبين لهم.

قوله: (فَكَمْ حَصَلَ بِإِهْمَالِ ذَلِكَ وَالْعُدُولِ عَنْهُ مِنَ الضَّلَالِ وَالْعُدُولِ عَنِ الصَّوَابِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ. بَلْ سُوءُ الْفَهْمِ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَصْلُ كُلِّ بِدْعَةٍ وَضَلَالَةٍ نَشَأَتْ فِي الْإِسْلَامِ)، حيث إنهم صدوا عن سبيل الله، وفهموا عن الله فهماً بعيداً خاطئاً، ثم أدى بهم ذلك إلى أن ابتدعوا بدعاً ما أنزل الله بها من سلطان، وشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله.

قوله: (وَهُوَ أَصْلُ كُلِّ خَطَايَا فِي الْفُرُوعِ وَالْأُصُولِ)، يعني: كل من أخطأ في الفروع التي هي الاجتهادات والأعمال، والأصول التي هي: العقائد، أصلها سوء الفهم، فأصل كل خطأ سوء الفهم عن الله ورسوله.

قوله: (وَلَا سَبِيحًا إِلَّا أَنْ أُضِيفَ إِلَيْهِ سُوءُ الْقَصْدِ)، يعني: أن يكون قصده شيئاً

كحالة المبتدعة ونحوهم.

قال الشارح:

فالحاصل أن الدور ثلاثة: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار. وقد جعل الله لكل دار أحكاماً تخصها، وركب هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام الدنيا على الأبدان، والأرواح تبعاً لها، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح، والأبدان تبعاً لها، فإذا جاء يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد جميعاً.

فإذا تأملت هذا المعنى حق التأمل، ظهر لك أن كون القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار مطابق للعقل، وأنه حق لا مرية فيه، وبذلك يتميز المؤمن بالغيب من غيرهم.

ويجب أن يعلم أن النار التي في القبر والنعيم، ليست من جنس نار الدنيا ولا نعيمها، وإن كان الله تعالى يحمي عليه التراب والحجارة التي فوقه وتحتة حتى تكون أعظم حرًا من جهر الدنيا، ولو مسها أهل الدنيا لم يحسوا بها. بل أعجب من هذا أن الرجلين يذفن أحدهما إلى جنب صاحبه، وهذا في حفرة من النار، وهذا في روضة من رياض الجنة، لا يصل من هذا إلى جاره شيء من حر ناره، ولا من هذا إلى جاره شيء من نعيمه. وقدرة الله أوسع من ذلك وأعجب، ولكن النفوس مولة بالتكذيب بما لم تحيط به علمًا.

وقد أرانا الله في هذه الدار من عجائب قدرته ما هو أبلغ من هذا بكثير. وإذا شاء الله أن يُنجح على ذلك بعض عباده أطلعته وغيبه عن غيره، ولو أطلع الله على ذلك العبادة كلهم لزالَّت حكمة التكليف والإيمان بالغيب، ولما تدافن الناس، كما

في «الصحيح» عنه عليه السلام: «لَوْ لَا أَنْ لَا تَدَا فَنُؤَا لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَا أَسْمَعُ»^(١). وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْحِكْمَةُ مُتَّفِقِيَةً فِي حَقِّ الْبَهَائِمِ سَمِعَتْ وَأَدْرَكَتْ.

قال الشيخ:

قوله: (فَالْحَاصِلُ أَنَّ الدُّورَ ثَلَاثَةٌ: دَارُ الدُّنْيَا، وَدَارُ الْبِرْزَخِ، وَدَارُ الْقَرَارِ)، كما يشاء الله، دار الدنيا: معروفة، ودار البرزخ: بين الدنيا والآخرة، ودار القرار: هي الآخرة التي ليس بها ظعن ولا ارتحال.

قوله: (وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ دَارٍ أَحْكَامًا تَخُصُّهَا)، فدار الدنيا لها أحكام، ودار البرزخ الذي هو بعد الموت لها أحكام تخصها، وهكذا دار الآخرة.

قوله: (وَرَكَّبَ هَذَا الْإِنْسَانَ مِنْ بَدَنِ وَنَفْسٍ)، والمراد بالنفس الروح، أي: أنه بدن الذي له ثقل، ونفس التي ليس لها ثقل، فإن الإنسان إنما ثقله ووزنه هو بهذا البدن الذي هو دم وجلد وعظم وعصب ولحم وأمعاء.. ونحو ذلك؛ ولهذا إذا خرجت منه الروح لا يخف وزنه بل هو كما كان عليه.

قوله: (وَجَعَلَ أَحْكَامَ الدُّنْيَا عَلَى الْأَبْدَانِ)، أي: جعل الله أحكام الدنيا على الأبدان: الجلد والعقوبات والطعن والقصاص ونحو ذلك على هذه الأبدان، التي هي الجسد واللحم والعظم.

(١) تقدم تخريجه (٤/١٥٥).

قوله: (وَالْأَرْوَاحُ تَبَعًا لَهَا)؛ لأنها هي التي تتألم؛ لأن بها الحياة، فالأرواح تابعة للأبدان، وإلا فالأحكام في الدنيا كلها على الأبدان.

قوله: (وَجَعَلَ أَحْكَامَ الْبَرْزَخِ عَلَى الْأَرْوَاحِ، وَالْأَبْدَانُ تَبَعًا لَهَا)، بحيث إن الروح هي التي تُعذب وتُنعم، وهي التي تذهب وتجيء، وهي التي تخرج وترجع، والأبدان تبع لها قد يوصل إليها الله تعالى شيئًا من النعيم، ومن العذاب، وإن كنا لا ندرك ذلك.

قوله: (فَإِذَا جَاءَ يَوْمُ حَشْرِ الْأَجْسَادِ وَقِيَامِ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ صَارَ الْحُكْمُ وَالنَّعِيمُ وَالْعَذَابُ عَلَى الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَادِ جَمِيعًا)، أي: إذا رُدت الأرواح إلى أجسادها في الآخرة فإن الأحكام تتعلق بالبدن والروح جميعًا؛ لأنها اتصلت بالبدن اتصالًا كليًا بحيث إنها لا تفارقه أبدًا لا في موت ولا في نوم ونحو ذلك، فإذا قام الناس من قبورهم وردت إليهم أرواحهم، فالحكم حينئذٍ والنعيم أو العذاب عليهما جميعًا: الروح والجسد.

ثم قال: (فَإِذَا تَأَمَّلْتَ هَذَا الْمَعْنَى حَقَّ التَّأَمُّلُ، ظَهَرَ لَكَ أَنَّ كَوْنَ الْقَبْرِ رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةً مِنْ حُفْرِ النَّارِ مُطَابِقٌ لِلْعَقْلِ) أي: عليك أن تتأمل اتصالات أو تعلق الروح بالبدن، وكذلك أيضًا تتأمل الدور الثلاثة، وتعرف بذلك أن النبي ﷺ لما أخبر أن القبر روضة من رياض الجنة على المؤمنين أن ذلك صحيح، أو كذلك حفرة من حفر النار^(١) أن ذلك مطابق للعقل، وأن

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٦٠) من حديث أبي سعيد الخدري ؓ.

الذين أنكروا ذلك قصرت عقولهم.

قوله: (وَأَنَّهُ حَقٌّ لَا مِرْيَةَ فِيهِ)؛ لأنه أخبر به الصادق المصدوق؛ (وَبِذَلِكَ يَتَمَيَّزُ الْمُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ غَيْرِهِمْ)، فنحن نؤمن بالغيب الذي مدح الله تعالى به المتقين، قال تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٢٤]، [٣]، أي: من الغيب كل ما أخبر الله به وأخبر به نبيه ﷺ مما يكون بعد الموت كعذاب القبر ونعيمه ونحو ذلك.

ثم يقول: (وَيَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ النَّارَ الَّتِي فِي الْقَبْرِ وَالنَّعِيمَ، لَيْسَتْ مِنْ جِنْسِ نَارِ الدُّنْيَا وَلَا نَعِيمِهَا، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى يَحْمِي عَلَيْهِ التُّرَابَ وَالْحِجَارَةَ الَّتِي فَوْقَهُ وَتَحْتَهُ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ حَرًّا مِنْ جَهَنَّمَ الدُّنْيَا، وَلَوْ مَسَّهَا أَهْلُ الدُّنْيَا لَمْ يُحْسُوا بِهَا)، أي: ليست محسوسة، والتي لها حرارة، والله تعالى قادر على أن يجعل التراب الذي عليه، واللبن الذي عليه يشتعل حرارة شديدة، ولكن ذلك ليس بمحسوس؛ لأننا لا نحس به ولا نشعر بشيء من ذلك، وكذلك لو كان عليه حجارة فالله قادر على أن يجعلها حارة شديدة الحرارة، ولكن لا نحس بشيء من ذلك، نحن نجعل فوقه هذه اللبنة، وقد يجعل فوقه أيضًا حجارة على فم اللحد، وكذلك يكون تحته لبن أو تحته تراب، والله تعالى قادر على أن يجعله حارًا حتى يكون أعظم حرارة من جمر الدنيا، ولكن أهل الدنيا لو لمسوه ما أحسوا بذلك؛ لأن هذا شيء من الأمر الأخروي الذي لا يصل إليه فهم الناس، ولا معرفة أذهانهم ولا ما هم عليه.

يقول: (بَلْ أَعْجَبُ مِنْ هَذَا أَنَّ الرَّجُلَيْنِ يُدْفَنُ أَحَدُهُمَا إِلَى جَنْبِ صَاحِبِهِ، وَهَذَا فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ، وَهَذَا فِي رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، لَا يَصِلُ مِنْ هَذَا إِلَى جَارِهِ شَيْءٌ مِنْ حَرِّ نَارِهِ، وَلَا مِنْ هَذَا إِلَى جَارِهِ شَيْءٌ مِنْ نَعِيمِهِ)، أي: إذا كان أحدهما شقيًّا كافرًا فاسقًا خارجًا عن طاعة الله أو مبتدعًا، والآخر مؤمنًا نقيًّا عقيدته سليمة يحب الله ورسوله، ويجب صحابة رسوله رضوان الله عليهم، ويجب العمل الصالح ويعمل بها، فالله تعالى قادر على أن يجعل هذا كأنه في حفرة من حفر النار، والآخر في روضة من رياض الجنة، وكل منهما إلى جنب صاحبه لا يحس هذا بحرارة النار التي على صاحبه، ولا هذا بالنعيم والزهور والروح والرياحان الذي فيه الآخر، فالله تعالى على كل شيء قدير، (وَقُدْرَةُ اللَّهِ أَوْسَعُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْجَبُ).

قوله: (وَلَكِنَّ النَّفْسَ مُوَلَّعَةً بِالتَّكْذِيبِ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ عِلْمًا)، كما يقول ذلك ويفعله الفلاسفة والمكذبون، كأنهم يقولون: لا نصدق إلا بما نشاهد، وهذه حالة كثير من الفلاسفة ونحوهم الذين لا يقرون إلا بما يشاهدونه بالحواس، أي: بما يرونه وبما يسمعونه وبما يلمسونه، فالفلاسفة كذبوا بما لم يروه، وقالوا: إنا وضعنا على الميت زئبقًا ووجدناه لم يتحرك ولم يتغير.

يقول: (وَقَدْ أَرَانَا اللَّهَ فِي هَذِهِ الدَّارِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ مَا هُوَ أَبْلَغُ مِنْ هَذَا بِكَثِيرٍ)، بمعنى أننا رأينا عجائب قدرة الله في أنه يتصرف في عبادته، فيكون هذا مؤمنًا وأهله كفارًا، ويعكس ذلك، وهذا من العجائب، وقدرة الله أوسع من ذلك كله.

وقد ذكر العلماء الذين كتبوا في هذا الباب وقائع كثيرة، فذكر ابن أبي الدنيا في كتاب (القبور) أمثلة تدل على عذاب هذا ونعيم هذا، مما اطلع الله عليه العباد، وكذلك أيضًا ذكره ابن القيم في كتاب (الروح) فقد توسع في مثل ذلك، وكذلك أيضًا ابن رجب في كتابه (أهوال القبور)، أمثلة كثيرة مما أطلعهم الله على بعض الأموات المعذبين أو المنعمين، هذا كله مما قدره الله، ومما أطلع به عباده على المغيبات.

قوله: (وَإِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُطْلَعَ عَلَى ذَلِكَ بَعْضَ عِبَادِهِ أَطْلَعَهُ وَغَيْبَهُ عَنْ غَيْرِهِ)، كما وقع ذلك لكثير حتى ذكروا أن إنسانًا رأى إنسانًا يخرج ثم يشتعل نازًا ثم يغيب، وغير ذلك من الأمثلة. ثم قال: (وَلَوْ أَطَّلَعَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ الْعِبَادَ كَلَّهُمْ لَزَالَتْ حِكْمَةُ التَّكْلِيفِ وَالْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ، وَلَمَّا تَدَافَنَ النَّاسُ)، يعني: لو أنهم اطلعوا على هذه الأحوال لزالَت حكمة الإيمان بالنيب.

يقول: (كما في الصحيح عنه ﷺ): «فَلَسُوا أَنْ لَا تَدَافِنُوا لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَا أَسْمَعُ»، أي: يقول: إنه يسمع كثيرًا من عذاب القبر ويطلع على بعض من يُعذب، كما في الصحيح أنه ﷺ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»^(١)، فهكذا أطلعه الله، وأخبر ﷺ بأن الميت، يصبح، وقال: «ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا

(١) تقدم ترجمته (٤/١٤٧).

من يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ»^(١)، وقال ﷺ: «إِذَا وُضِعَتِ الْجِنَازَةُ فَاحْتَمَلَهَا الرَّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ: قَدُمُونِي، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ قَالَتْ لِأَهْلِهَا: يَا وَيْلَهَا، أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا؟ يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَ الْإِنْسَانُ لَصَعِقَ»^(٢)، ولكن الله أخفى عن الإنسان هذه الأمور الغيبية، وليحصل الإيمان بالغيب الذي قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُعِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٢، ٣]، ومن جملة الغيب أن يؤمنوا بما أخبرهم الله به، وبما أخبرهم رسوله، ولو لم تدرك ذلك أذهانهم، ولا أعينهم، ولا أيديهم، بل يصدقون بذلك.

ثم قال: (وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْحِكْمَةُ مُتَّفِقِيَةً فِي حَقِّ الْبُهَائِمِ سَمِعَتْ وَأَدْرَكَتْ)؛ لأنها تسمع شيئاً من عذاب القبر، كما رُوي في ذلك أمثلة، رُوي أن بعض الدواب تحيى بصاحبها، ويُقال: إنها تسمع ولا نسمع ونحو ذلك كثير.

ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «ولهذا السبب يذهب الناس بدوابهم إذا مغلّت إلى قبور اليهود والنصارى والمنافقين؛ كالأسماعيلية والنصيرية وسائر القرامطة من بنى عبيد وغيرهم، الذين بأرض مصر والشام وغيرهما، فإن أهل الخيل يقصدون قبورهم لذلك، كما يقصدون قبور اليهود

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٨) من حديث أنس ؓ.

(٢) أخرجه البخاري (١٣١٦) حديث أبي سعيد الخدري ؓ.

والنصارى، والجهال تظن أنهم من ذرية فاطمة، وأنهم من أولياء الله، وإنما هو من هذا القبيل، فقد قيل: إن الخيل إذا سمعت عذاب القبر حصلت لها من الحرارة ما يذهب بالمغل»^(١).

وقال أيضًا: «وطلبت طائفة من سياس الخيل، فقلت: أنتم بالشام ومصر إذا أصاب الخيل المغل أين تذهبون بها؟ فقالوا: في الشام يُذهب بها إلى قبور اليهود والنصارى، وإذا كنا في أرض الشمال يُذهب بها إلى القبور التي ببلاد الإسماعيلية كالعليقة والمنيقة ونحوهما، وأما في مصر فيُذهب بها إلى دير هناك للنصارى، ونذهب بها إلى قبور هؤلاء الأشراف - وهم يظنون أن العبيدين شرفاء؛ لما لبسوا أنهم من أهل البيت - فقلت: هل يذهبون بها إلى قبور صالحى المسلمين، مثل: قبر الليث بن سعد، والشافعي، وابن القاسم، وغير هؤلاء؟ فقالوا: لا، فقلت لأولئك: اسمعوا، إنما يذهبون بها إلى قبور الكفار والمنافقين، ويثبت لهم سبب ذلك، قلت: لأن هؤلاء يُعذبون في قبورهم، والبهايم تسمع أصواتهم، فإذا سمعت ذلك فرعت، فبسبب الرعب الذي حصل لها تنحل بطونها فتروث، فإن الفرع يقتضى الإسهال، فيعجبون من ذلك، وهذا المعنى كثيرًا ما كنت أذكره للناس ولا أعلم أن أحدًا قاله، ثم وجدته قد ذكره بعض العلماء»^(٢).

(١) مجموع الفتاوى (٤/٢٨٧).

(٢) الرد على البكري (٥٠١-٥٠٣).

قال الشارح:

وَلِلنَّاسِ فِي سُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ: هَلْ هُوَ خَاصٌّ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَمْ لَا؟ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:
الثَّالِثُ التَّوَقُّفُ، وَهُوَ قَوْلُ جَمَاعَةٍ، مِنْهُمْ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ، فَقَالَ: وَفِي حَدِيثِ
زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا»^(١)، مِنْهُمْ مَنْ
يُرْوِيهِ «تُسْأَلُ»، وَعَلَى هَذَا اللَّفْظِ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَدْ خُصَّتْ بِذَلِكَ،
وَهَذَا أَمْرٌ لَا يُقْطَعُ بِهِ، وَيُظْهَرُ عَدَمُ الْإِخْتِصَاصِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قال الشيخ:

قوله: (وَلِلنَّاسِ فِي سُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ: هَلْ هُوَ خَاصٌّ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَمْ لَا؟
ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ)، القول الأول: إنه خاص، والقول الثاني: إنه عام، القول الثالث:
التوقف، وهو قول جماعة منهم أبو عمر بن عبد البر.

ثم ذكر حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى
فِي قُبُورِهَا»، فأخبر أنها تُبْتَلَى، ولكن لا ينفي ذلك أن الأمم الأخرى تُبْتَلَى، فإن
الحكم واحد، وأن عذاب القبر يستحقه كل كافر من هذه الأمة ومن غيرها،
فالصحيح والأقرب أن عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ليس خاصاً بهذه
الأمة، بل يكون أيضاً للأمم كلها، الأمم السابقة، وهذه الأمة وغيرها.
وهذا الحديث فيه: «إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا»، ويرويه بعضهم:

(١) تقدم تخرجه (٤/١٥٥).

(تُسأل)، وعلى هذا اللفظ يحتمل أن تكون هذه الأمة قد خُصت بذلك، وهذا أمر لا يُقطع به، ويظهر عدم الاختصاص، وهذا هو الصحيح، أن عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ليس خاصًا بهذه الأمة، بل الأمم السابقة يبيئهم مثل هذا، وكذلك أيضًا الأمم اللاحقة المعاصرون ولو كانوا يحرقون أمواتهم، ولو كانوا لا يدفنونهم، فإن عذاب القبر يأتي كل من قدر الله أن يعذب ولو كان رمادًا، ويقدر الله أن يوصل إليه العذاب ولو كان ترابًا، ولو كان لحمه في أجواف السباع أو نحو ذلك.

قال السارح:

وَكَذَلِكَ اِخْتَلَفَ فِي سُؤَالِ الْأَطْفَالِ أَيْضًا.
وَهَلْ يَدُومُ عَذَابُ الْقَبْرِ أَوْ يَنْقَطِعُ؟

جوابه أنه نوعان: منه ما هو دائم، كما قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وكذا في حديث البراء بن عازب في قصة الكافر: «ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ فَيَنْظُرُ إِلَى مَقْعَدِهِ فِيهَا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»، رواه الإمام أحمد^(١) في بعض طرقه.
والتَّوَعُّ الثَّانِي: أَنَّهُ مُدَّةٌ ثُمَّ يَنْقَطِعُ، وَهُوَ عَذَابٌ بَعْضِ الْعَصَاةِ الَّذِينَ خَفَّتْ جَرَائِمُهُمْ، فَيُعَذَّبُ بِحَسَبِ جُرْمِهِ، ثُمَّ يُخَفَّفُ عَنْهُ، كَمَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ فِي الْمَحْصَاتِ الْعَشْرِ.

قال الشيخ:

قوله: (وَكَذَلِكَ اِخْتَلَفَ فِي سُؤَالِ الْأَطْفَالِ أَيْضًا)، كما بحث ذلك ابن القيم في كتاب «الروح»^(٢)، ولعل الأقرب أنهم لا يُسألون؛ وذلك لأنهم لم يُكلفوا، والسؤال إنما يكون على المكلف الذي يُعذب أو يُنعم، أما الأطفال فقد اختلف في أطفال الكفار الذين يموتون وهم صغار، والراجح أنهم

(١) في المسند (٤/٢٩٥).

(٢) (٤/٢٩٥، ٢٩٦).

يمتحنون في الآخرة كالذين لم تبلغهم الرسالة وهم أهل الفترات .

يقول: (وَهَلْ يَدُومُ عَذَابُ الْقَبْرِ أَوْ يَنْقَطِعُ؟) ، هذا أيضًا فيه خلاف، ثم

ذكر أنه نوعان: الأول: ما هو دائم، والثاني: ما هو مدة ثم ينقطع .

وقد ذكر الله عذاب آل فرعون بقوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا

وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، دل على

أنه دائم عرضهم على النار، وهذا في الدنيا قبل يوم القيامة، تُعرض أرواحهم

على النار، وقد ذُكر في بعض الروايات أنها تذهب في أول النهار وهي

صحيحة، وترجع وهي محترقة كأنها صور طير أو نحو ذلك، وهي أرواحهم،

وأخرج الطبري^(١) أن رجلاً سأل الأوزاعي فقال: رحمك الله، رأينا طيورًا تخرج

من البحر تأخذ ناحية الغرب بيضًا فوجًا فوجًا، لا يعلم عددها إلا الله، فإذا

كان العشي رجع مثلها سودًا، قال: وفطتم إلى ذلك؟ قالوا: نعم، قال: إن تلك

الطيور في حواصلها أرواح آل فرعون، يُعرضون على النار غدوًّا وعشيًّا،

فترجع إلى وكورها وقد احترقت ريشها وصارت سوداء، فتنبت عليها من

الليل ريش بيض وتتناثر السود، ثم تغدو، ويعرضون على النار غدوًّا وعشيًّا،

ثم ترجع إلى وكورها، فذلك دأبها في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قال الله:

﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

(١) في تفسيره (٧١/٢٤).

وذكر في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل في قصة الكافر: «ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ، فَيَنْظُرُ إِلَى مَقْعَدِهِ مِنْهَا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»، هذا الحديث مشهور أخرجه الإمام أحمد وغيره، وقد سبق قريباً، فهكذا أخبر بأنه يُفْتَحُ له بَابٌ إلى النار، وأنه يأتيه من لهبها، ويأتيه من حرها، وأنه ينظر إلى ذلك المقعد ويقول: رب لا تقم الساعة؛ لأنه يعرف أنه إذا قامت الساعة جاء إلى ذلك المكان من النار الذي هو أشد عذاباً، فهؤلاء لا ينقطع عذابهم، عذاب القبر يستمر إلى قيام الساعة.

والنوع الثاني: ما هو مدة ثم ينقطع عذاب القبر في حقهم، وهذا عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم، فإذا ماتوا وهم على هذه المعاصي، فقد يُعَذَّب بقدر جرمه، ثم يخفف عنه.

قوله: (كَمَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ فِي الْمَمَحَّصَاتِ الْعَشْرِ)، يعني: المكفرات، يعني: أن هناك مكفرات للذنوب وهي عشرة، كالتوبة، والابتلاء في الدنيا، والحسنات الماحية، وكذلك عذاب القبر، والألم الذي في المرقف ونحو ذلك، وعلى كل حال فالأصل أن عذاب القبر قد اعترف به أهل السنة، وكذلك غيرهم وأنكره هؤلاء الفلاسفة ونحوهم، ولا عبرة بإنكارهم، والله تعالى على كل شيء قدير، والله تعالى أعلم.

قال الشارح:

وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي مُسْتَقَرِّ الْأَرْوَاحِ مَا بَيْنَ الْمَوْتِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ:
فَقِيلَ: أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ، وَأَرْوَاحُ الْكَافِرِينَ فِي النَّارِ.
وَقِيلَ: إِنَّ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ بِفَنَاءِ الْجَنَّةِ عَلَى بَابِهَا، يَأْتِيهِمْ مِنْ رَوْحِهَا وَنَجِيمِهَا
وَرِزْقِهَا.

وَقِيلَ: عَلَى أَفْنِيَةِ قُبُورِهِمْ.
وَقَالَ مَالِكٌ: بَلَّغَنِي أَنَّ الرُّوحَ مُرْسَلَةٌ، تَذْهَبُ حَيْثُ شَاءَتْ.
وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: بَلَّ أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَمْ يَزِيدُوا عَلَى ذَلِكَ.
وَقِيلَ: إِنَّ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَنَّةِ مِنْ دِمَشْقَ، وَأَرْوَاحَ الْكَافِرِينَ بِبَرْهُوتَ بِشْرٍ
بِحَضْرَمَوْتِ!

وَقَالَ كَعْبٌ: أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ فِي عِلِّيِّينَ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، وَأَرْوَاحُ الْكَافِرِينَ فِي
سِجِّينَ فِي الْأَرْضِ السَّابِعَةِ تَحْتَ خَدِّ إِبْلِيسَ!
وَقِيلَ: أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ بِبِشْرِ رَمَزَمَ، وَأَرْوَاحُ الْكَافِرِينَ بِبِشْرِ بَرْهُوتَ.
وَقِيلَ: أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ يَمِينِ آدَمَ، وَأَرْوَاحُ الْكُفَّارِ عَنْ شِمَالِهِ.
قَالَ ابْنُ حَزْمٍ وَغَيْرُهُ: مُسْتَقَرُّهَا حَيْثُ كَانَتْ قَبْلَ خَلْقِ أَجْسَادِهَا.
وَقَالَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَرْوَاحُ عَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ
عَلَى أَفْنِيَةِ قُبُورِهِمْ.

وَعَنِ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّهُ قَالَ: بَلَّغَنِي أَنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ كَطَائِرٍ خُضِرَ مُعَلَّقَةٌ
بِالْعَرْشِ، تَغْدُو وَتَرْوِحُ إِلَى رِيَاضِ الْجَنَّةِ، تَأْتِي رَبَّهَا كُلَّ يَوْمٍ تُسَلِّمُ عَلَيْهِ.

وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: مُسْتَقَرُّهَا الْعَدَمُ الْمَحْضُ. وَهَذَا قَوْلٌ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ النَّفْسَ عَرَضٌ
مِنْ أَعْرَاضِ الْبَدَنِ، كَحَيَاتِهِ وَإِذْرَاقِهِ! وَقَوْلُهُمْ مُخَالَفٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: مُسْتَقَرُّهَا بَعْدَ الْمَوْتِ أَبْدَانٌ أُخْرَى تُنَاسِبُ أَخْلَاقَهَا وَصِفَاتِهَا الَّتِي
اِكْتَسَبَتْهَا فِي حَالِ حَيَاتِهَا، فَتَصِيرُ كُلُّ رُوحٍ إِلَى بَدَنِ حَيَوَانٍ يُشَاكِلُ تِلْكَ الرُّوحَ!
وَهَذَا قَوْلُ التَّنَاسُخِيَّةِ مُنْكَرِي الْمَعَادِ، وَهُوَ قَوْلُ خَارِجٍ عَنِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ كُلِّهِمْ.
وَيَضِيقُ هَذَا الْمُخْتَصِرُ عَنْ بَسْطِ أُدْلَةٍ هَذِهِ الْأَقْوَالِ وَالْكَلَامِ عَلَيْهَا.

وَيَتَلَخَّصُ مِنْ أُدْلَتِهَا: أَنَّ الْأَرْوَاحَ فِي الْبَرْزَخِ مُتَفَاوِتَةٌ أَعْظَمَ تَفَاوُتٍ:
فَمِنْهَا: أَرْوَاحٌ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ، فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى، وَهِيَ أَرْوَاحُ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ
عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ، وَهُمْ مُتَفَاوِتُونَ فِي مَنَازِلِهِمْ.

وَمِنْهَا: أَرْوَاحٌ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضِرٍ، تَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، وَهِيَ
أَرْوَاحُ بَعْضِ الشُّهَدَاءِ، لَا كُلِّهِمْ، بَلْ مِنَ الشُّهَدَاءِ مَنْ مُجْبَسٌ رُوحُهُ عَنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ
لِدَيْنٍ عَلَيْهِ. كَمَا فِي «الْمُسْنَدِ»^(١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ: «أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ،
فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا لِي إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْجَنَّةُ»، فَلَمَّا وُلِّيَ، قَالَ: «إِلَّا
الدَّيْنَ، سَارَنِي بِهِ جِبْرِيلُ أَنْفًا».

وَمِنَ الْأَرْوَاحِ مَنْ يَكُونُ مَحْبُوسًا عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الَّذِي قَالَ فِيهِ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَأَيْتُمْ صَاحِبِكُمْ مَحْبُوسًا عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ»^(٢).

(١) (٤/١٣٩، ١٥٠).

(٢) أخرجه بنحوه: أحمد (٥/١١، ١٣)، والطبراني في الكبير (٦٧٥٠، ٦٧٥١)، والحاكم

وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ مَحْبُوسًا فِي قَبْرِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ مَحْبُوسًا فِي الْأَرْضِ، وَمِنْهَا أَرْوَاحٌ فِي تَنْوِيرِ الزُّنَاةِ وَالرَّوَايِ، وَأَرْوَاحٌ فِي نَهْرِ الدِّمِّ تَسْبِغُ فِيهِ وَتُلْقَمُ الْحِجَارَةَ، كُلُّ ذَلِكَ تَشْهَدُ لَهُ السَّنَةُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قال الشيخ:

ذكر الشارح - رحمه الله - أن الأرواح باقية بعد الموت، وأن الفناء يكون على الأجساد. وإذا عرفنا أن الأرواح باقية، فأين تكون مصيرها؟ ذكر الشارح كثيرًا من الأقوال في مستقر الأرواح، وهذه الأقوال الغالب أنها مبنية على الظن، وقد يكون بعضها له دليل من الكتاب والسنة، ولكن يظهر أن الأرواح تتفاوت بحسب الأعمال.

فقد ثبت في «الصحيح» أن أرواح الشهداء «في جَوْفِ طَيْرٍ خُضِرٍ، لها قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرُحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ...»^(١). فدل على أن أرواحهم تكون في الجنة.

وثبت في القرآن أن أرواح آل فرعون تعرض على النار: ﴿الَّذِينَ يُعْرِضُونَ عَلَيْهَا غُذُوءًا وَعَشْيًا﴾ [غافر: ٤٦]. وعلى هذا فأرواح آل فرعون في النار يعرضون

(٢/ ٢٥)، والبيهقي (٦/ ٧٦) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

(١) تقدم تخريجه (٤/ ١٦٧).

علیها غدواً وعشیاً.

وقد ورد فی القرآن ایضاً قول الله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينَ﴾ [المطففين: ٧]، وسجین: فسّر بآته فی الأرض السابعة، أو تحت الأرض السابعة، وقال تعالى: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨]، وعلیون: فوق السماء السابعة فی أعلى ما شاء الله. ومعناه كتاب أعمالهم، وقيل إن أرواحهم كذلك.

وقد سبق فی حدیث البراء الطویل^(١): أن الله يقول: «اكتبوا كتاب عبدي فی عِلِّيِّينَ، وأعيدوه إلى الأرض، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى». ويقول فی الكافر: «اكتبوا كتابه فی سِجِّينَ، فی الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرَحًا»، ثُمَّ قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]. فدلّ على أنه يطرح من السماء ويتألم بهذا الطرح.

ومعلوم أن الروح بعد خروجها من الجسد ليست مرئية فلا يراها البشر، ولا تدركها الأبصار، كما لا يرون الشياطين، ولا يرون الجن، فكذلك لا يرون أرواحهم عند خروجها.

فأما مستقرّها، فلم يرد نصّ صريح في أنها تستقرّ في مكان كذا وكذا، فالذين قالوا: إنّها تنعدم، العدم المحض؛ هؤلاء ينكرون عذاب القبر وينكرون نعيمه

(١) تقدم تحريمه (٤/١٤٦).

وينكرون تألم الروح، وينكرون إعادتها في الجسد؛ لأنها إذا عدمت كما عدم الجسد لا يبقى لها حياة، ولا بقي لها تألم ولا عذاب، ولا يبقى القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار كما تقدّم. فهذا قول باطل.

وكذلك القول الذي هو أشبع منه، وهو قول الفلاسفة: أنها تكون في أجساد ثلاثمها؛ فروح الكافر إذا مات جعلت في كافر آخر، وروح المؤمن إذا مات جعلت في مؤمن آخر جديد، إذا مات هذا وولد هذا أخذت روح هذا ونفخت في هذا. يسمّى هؤلاء بأهل التناسخ، أو التناسخيون؛ لأنّهم يقولون: نسخت روح هذا وجعلت في هذا. وينكرون أيضًا بعث الأجساد، فهم يقولون الأجساد لا تعود، وكذلك ينكرون بدء الخلق، فيقولون: الخلق ليس له مبدأ، وينكرون فناء الدنيا ويقولون: هذه الدنيا مستمرة، وليس لها نهاية، بل تستمرّ هكذا إلى غير نهاية، بل ينكرون الحشر والجزاء في الآخرة والنفخ في الصور وما أشبه ذلك.

أما الأقوال الأخرى؛ فالذين يقولون: إن هذه في الجنة وهذه في النار. والذين يقولون: إن أرواح المؤمنين على أبواب الجنة، وأرواح الكفار على أبواب النار. أو يقولون: إن أرواح المؤمنين على أفنية قبورهم، وكذلك أرواح الكافرين. أو يقولون: إنها بداخل القبور، أو يقولون: إن أرواح المؤمنين في بئر زمزم، وأرواح الكافرين في بئر برهوت، وهي بئر متنتة يذكرها بعضهم، وهي في بلاد حضر موت. كل هذه أقوال ظنيّة ليس عليها دليل قطعيّ.

نحن نحققنا أنّ الأرواح تخرج من الأبدان، وأنّ أرواح المؤمنين منعمة، وأرواح الكفار معذّبة. وأمّا مقرّها، فلا علم لنا بها.

وكذلك إذا خرجت الأرواح، وقلنا إنها باقية فكيف مع ذلك تتعارف؟ ورد في الحديث أن: «الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا ائْتَلَفَ»^(١). إذا كانت أرواحاً مجردة، ومع ذلك يلقى بعضها بعضاً، فكيف يعرف هؤلاء أن هذه روح فلان؟ لا بد أنهم يعرفونه بميزة يتميَّز بها مع أنها أرواح؛ لأن الأجساد فيها علامات ظاهرة يتميَّز فيها الناس في صورته، وفي طوله وشعره وقصره، وفي بياضه أو سواده. وأما الروح، فليس لها ميزة. فهذا هو الصحيح: أنها باقية وأنها تتعارف وتتألف، وأتَمُّهم يلقى بعضهم بعضاً، وأتَمُّهم يسألونه.

وقد ورد في الحديث أنه: «إِذَا حَضَرَ الْمُؤْمِنُ أُمَّتَهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ بِحَرِيرَةٍ بَيْضَاءَ، فَيَقُولُونَ: أَخْرِجِي رَاضِيَةً مَرْضِيًّا عَنْكَ إِلَى رَوْحِ اللَّهِ وَرَيْحَانٍ وَرَبِّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَتَخْرُجُ كَأَطْيَبِ رِيحِ الْمِسْكِ، حَتَّى أَنْتَهُ لِيَتَاوَلَهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ بَابَ السَّمَاءِ، فَيَقُولُونَ: مَا أَطْيَبَ هَذِهِ الرَّيْحَ الَّتِي جَاءَتْكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، فَيَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِغَائِبِهِ يَقْدَمُ عَلَيْهِ، فَيَسْأَلُونَهُ: مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ فَيَقُولُونَ: دَعُوهُ فَإِنَّهُ كَانَ فِي غَمِّ الدُّنْيَا، فَإِذَا قَالَ: أَمَا أَتَاكُمْ؟ قَالُوا: ذَهَبَ بِهِ إِلَى أُمَّهِ الْهَآوِيَةِ»^(٢)، إذا كان كافراً ولم يأتهم، عرفوا أنه بعد موته

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣٦) من حديث عائشة رضي الله عنها، ومسلم (٢٦٣٨) من حديث

أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه النسائي (١٨٣٣)، وابن حبان (٧/٢٨٤)، والحاكم (١/٢٥٢) من حديث

أبي هريرة رضي الله عنه.

وكونه لم يأتهم، فلا بدّ أنه شقيّ، وأنّه ذهب به إلى دارٍ غير دارهم. فدلّ على أن أرواح المؤمنين تجتمع ويأتي بعضهم بعضًا، ويعرف بعضهم بعضًا، ويتفقّد بعضهم بعضًا، ويفرحون بمن جاءهم إذا مات، وصار معهم في أرواح المؤمنين، ويجزون إذا مات أحد أقاربهم ولم يأتهم، ويعرفون أنه ذهب به إلى غير موضعهم ومحلّهم، وهو الهاوية التي هي دار العذاب. فكلّ ذلك دليل على أنّهم يتلاقون.

أمّا مقرّهم، فالله أعلم، هل هم في السماء أو في الأرض؟ وهل هم على أفنية القبور أو في الجنة أو في النار، أو في بئر زمزم، أو في بئر برهوت، أو في أي مكان؟ وكلّ ذلك ليس عليه دليل يقينيّ، ولكنهم متحقّق بقاؤهم وتلاقيهم.

قال الشارح:

وَأَمَّا الْحَيَاةُ الَّتِي اخْتَصَّ بِهَا الشَّهِيدُ وَأَمْتَارَ بِهَا عَنْ غَيْرِهِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءُ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]، فهي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضِرَ. كَمَا فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ - يَعْنِي يَوْمَ أُحُدٍ - جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضِرَ، تَرِدُ أَمْهَارَ الْجَنَّةِ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثَمَرِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُظَلَّلَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ»، الْحَدِيثُ، رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ^(١)، وَأَبُو دَاوُدَ^(٢)، وَبِمَعْنَاهُ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ، رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٣).

فَأَيْتَهُمْ لَمَّا بَدَلُوا أَبْدَانَهُمْ لِلَّهِ. عَزَّ وَجَلَّ - حَتَّى اتَّלَفَهَا أَعْدَاؤُهُ فِيهِ، أَعَاضَهُمْ مِنْهَا فِي الْبَرْزَخِ أَبْدَانًا خَيْرًا مِنْهَا، تَكُونُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَكُونُ نَعِيمُهَا بِوَاسِطَةِ تِلْكَ الْأَبْدَانِ أَكْمَلَ مِنْ تَنَعُّمِ الْأَرْوَاحِ الْمُجَرَّدَةِ عَنْهَا.

وَلِهَذَا كَانَتْ نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ فِي صُورَةِ طَيْرٍ، أَوْ كَطَيْرٍ، وَنَسَمَةُ الشَّهِيدِ فِي جَوْفِ طَيْرٍ. وَتَأَمَّلْ لَفْظَ الْحَدِيثَيْنِ، فَفِي «الْمَوْطَأِ»^(٤) أَنَّ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ

(١) في المسند (١/٢٦٥).

(٢) برقم (٢٥٢٠).

(٣) تقدم تخرجه (٤/١٦٧).

(٤) (١/٢٤٠).

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ نَسَمَةَ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يُرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»؛ فَقَوْلُهُ: «نَسَمَةَ الْمُؤْمِنِ» تَعْمُّ الشَّهِيدَ وَغَيْرَهُ، ثُمَّ خَصَّ الشَّهِيدَ بِأَنَّ قَالَ: «هِيَ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضِرٍ»، وَمَعْلُومٌ أَنَّهَا إِذَا كَانَتْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ صَدَقَ عَلَيْهَا أَنَّهَا طَيْرٌ، فَتَدْخُلُ فِي عُمُومِ الْحَدِيثِ الْأَخْرَجِي هَذَا الْإِعْتِبَارِ، فَتَصِيبُهُمْ مِنَ النَّعِيمِ فِي الْبَرْزَخِ أَكْمَلُ مِنْ نَصِيبِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَمْوَاتِ عَلَى فُرْشِهِمْ، وَإِنْ كَانَ الْمَيِّتُ عَلَى فِرَاشِهِ أَعْلَى دَرَجَةٍ مِنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ، فَلَهُ نَعِيمٌ يَخْتَصُّ بِهِ لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ مَنْ هُوَ دُونَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ، كَمَا رُوِيَ فِي السُّنَنِ ^(١). وَأَمَّا الشُّهَدَاءُ فَقَدْ شُوهِدَ مِنْهُمْ بَعْدَ مُلْدِدٍ مِنْ دَفْنِهِ كَمَا هُوَ لَمْ يَتَغَيَّرْ، فَيُحْتَمَلُ بَقَاؤُهُ كَذَلِكَ فِي تَرْبَتِهِ إِلَى يَوْمِ مَحْشَرِهِ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ يَبْلَى مَعَ طُولِ الْمُدَّةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَكَانَهُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - كُلَّمَا كَانَتْ الشَّهَادَةُ أَكْمَلًا، وَالشَّهِيدُ أَفْضَلَ، كَانَ بَقَاءُ جَسَدِهِ أَطْوَلَ.

قال الشيخ:

ما تقدم عن الأرواح عموماً، وهذا الكلام عن أرواح الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، وأخبر الله بحياتهم فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (٣١) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ

(١) أخرجه أبو داود (١٠٤٧)، والنسائي (١٣٧٤)، وابن ماجه (١٦٣٦)، وأحمد (٨/٤)،

والدارمي (٤٤٥/١)، والبيهقي (٣/٢٤٨) من حديث أوس بن أوس الثقفي ؓ.

يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧١﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧٢﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١].

وكونهم أحياء هي حياة برزخية: معلوم أنهم أموات، أي: أرواحهم خرجت من أبدانهم، ومعلوم أن أبدانهم بقيت لا إحساسَ فيها ولا حياة كحياة أهل الدنيا، ومعلوم أنهم ليسوا كما كانوا في حياتهم قبل أن يموتوا أو يقتلوا، فلا يحتاجون إلى أكل ولا شرب ولا تحلُّ ولا تنقل. فإذا هي حياة برزخية، وقد فارقوا الدنيا، وقسمت أموالهم على الورثة، وحلَّت نساؤهم لغيرهم.

ذكر الله أنهم أحياء عنده، وهذه العنصرية تفيد مزية وفضيلة، فهم عند ربهم يرزقون. ولو كانوا في الجنة فهم عند ربهم، فلو كانوا في قبورهم فأرواحهم عند ربهم. وقد أخبر بأنهم يرزقون، والرزق قد يكون حسياً وقد يكون معنوياً، فإن كان حسياً: فمعناه أنهم يحتاجون إلى ما يحتاج إليه أهل الدنيا من الأكل والشرب، ولكن معلوم أن ذلك ليس للأرواح وإنما هو للأجساد. ففي الأحاديث الواردة أن أرواحهم نقلت إلى أجساد طير خضر تعلق في شجر الجنة، وتأوي إلى قناديل معلقة في الجنة. معلوم أن الطير تشاهد بالعين، ولذلك وصفها بأنها خضر، فكأن روح هذا الشهيد أدخلت في هذا الطير، فأصبح حياً يطير ويتقلب ويدخل الجنة، ويعلق في شجرها، يعني: يأكل، ويأوي إلى قناديل يعني: سرج معلقة في الجنة. فهذه هي أرواحهم.

وذكر الله أنهم يستبشرون بأصحابهم الذين يأتونهم، كلما جاءهم شهيد

فرحوا به، ويستبشرون بمن جاءهم من الأحياء، ويستبشرون أيضًا بنعمة الله، التي أنعم عليهم.

لا شك أن الشهداء لهم هذه المزية، وأن أرواحهم باقية، وأنها في أجساد، وأنها تنتعم. أما أرواح غيرهم، فلم يذكر أنها تكون في أجساد، بل تكون روحًا من غير جسد، هذه أرواحهم كأرواح الشياطين وأرواح الجن التي لا تكون لهم أجساد تقوم بها.

ومعلوم أن أبدانهم تدفن في الأرض، وقد يكون بعضها لا يستطيع دفنه، فمعلوم أن هناك الكثير من الوقائع التي تكون بين المسلمين والمشركين، فيقتل فيها الجَم الغفير، الذين يصعب دفنهم، فتطول مدتهم وهم باقون من غير دفن وقد لا تطول، ومن غير شك أنهم يفنون بالعيان، وتأكلهم الأرض أو الطيور وما أشبه ذلك. وأما الذين يدفنون فقد ورد أنهم يقون مدة.

وفي «الصحيح»^(١) عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: لَمَّا حَضَرَ أَحَدٌ دَعَانِي أَبِي مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: مَا أُرَانِي إِلَّا مَقْتُولًا فِي أَوَّلِ مَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَإِنِّي لَا أَتْرُكُ بَعْدِي أَعَزَّ عَلَيَّ مِنْكَ غَيْرِ نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِنِ عَلَيَّ دِينًا فَأَقْضِ، وَاسْتَوْصِ بِأَخَوَاتِكَ خَيْرًا، فَأَصْبَحْنَا فَكَانَ أَوَّلَ قَتِيلٍ، وَدُفِنَ مَعَهُ آخَرُ فِي قَبْرِ، ثُمَّ لَمْ تَطِبْ نَفْسِي أَنْ أَتْرُكُهُ مَعَ الْآخَرِ، فَاسْتَخَرَجْتُهُ بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ، فَإِذَا هُوَ كَيَوْمٍ وَصَعْتُهُ هُنَيْئَةً غَيْرَ أُذُنِهِ».

(١) أخرجه البخاري (١٣٥١).

وكذلك ذكر لنا عن بعض الإخوان الذين قُتلوا في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة وألف، في الواقعة التي تسمى (تربة)، أنهم حضروا في بعض الأماكن، فعثروا على جثة أحد الإخوان الذين قتلوا، وإذا هو لم تأكله الأرض، أي بعد خمسين أو ستين سنة، وهو لا يزال بدنه باقياً.

وكذلك ذكر لنا من القتلى الذين قتلوا في أفغانستان في أول القرن الخامس عشر أن كثيراً منهم نُبشوا بعد أيام، ووجدوا كما هم لم تأكلهم الأرض. ويذكرون أيضاً أنهم يجدون القتلى من الشيوعيين روائحهم نتنة خلال يومين، لا يستطيع أحد أن يقربهم، والقتلى من المسلمين من الشهداء يؤتون بعد خمسة أيام ويدفنون ولا يحسّ برائحهم، بل تكون منهم رائحة المسك.

فهذا دليل على أن الحياة يصل أثرها إلى البدن، ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَدُّونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]؛ ولأجل ذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]، ولو كانت حياة برزخية، ولو كانت حياة على الأرواح ولكن يصل أثرها إلى الأجساد، ولو أنها فنيت بعد مدة، ولو أنها تمزقت فصارت أشلاءً، لكن لا بد أن أثر هذه الحياة ونعيمها ينال الجسد كما ينال الروح، وهذه كرامة الله لأوليائه الذين بذلوا أنفسهم في سبيل الله، كما رخصت عندهم هذه الحياة، وكما آثروا الحياة الآخرة، على الحياة الدنيا، وقدموا رضا الله تعالى على شهوات نفوسهم، عجل لهم الثواب، عاجلاً يعني يرى أثره في الدنيا، ويراه أهل الدنيا، ولعل في ذلك ما يحمل أهل الدنيا على المنافسة، وعلى

بذل المهج في سبيل الله، وعلى بذل كل شيء فيه إعزاز دين الله ونصره.
 فهذا معنى الحياة التي وصف الله بها الشهداء من عبادته، وقد سماهم شهداء
 في قوله: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، الشهداء: هم الذين يقتلون في
 سبيل الله، وصفهم الله بذلك، قيل: لأنهم يشاهدون الآخرة كراي عين، وقيل:
 لأنهم شهداء على غيرهم، وشهداء على الأمة؛ كقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى
 النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨]، هذا بالنسبة إلى أرواح الشهداء.

أما الأنبياء، فهم أعلى مقامًا من الشهداء؛ لأن الله ميّزهم بميزة، وخصّهم
 بكرامة، وهي الوحي والرسالة والفضيلة التي فضّلهم بها على غيرهم، ومعلوم
 أنهم يموتون، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. وإذا كانوا يموتون
 فلا بد أن لهم حياة أكمل من حياة الشهداء، ولكن حياة برزخية أكمل من حياة
 الشهداء، أي: أجسادهم قد ذكر أنها لا تبلى، بل تبقى في قبورهم لا تأكلها
 الأرض. وقد ذكر في الحديث الصحيح أنه ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ
 الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصُّعْقَةُ، فَأَكْثَرُوا عَلَيَّ مِنْ
 الصَّلَاةِ فِيهِ، فَإِنْ صَلَّاتِكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ»، قالوا: يا رسول الله، وكيف تُعرَضُ
 صَلَاتُنَا عَلَيْكَ وقد أُرِمْتَ؟ - أي: بليت. فقال: فَإِنَّ اللَّهَ - عز وجل - حَرَّمَ عَلَى
 الْأَرْضِ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ»^(١). فأجساد الأنبياء لا تأكلها الأرض ولا تبلى، ولو أنهم

(١) تقدم تخریج: (٤/١٩١).

دفنوا في الأرض، أو لم تعرف أماكنهم.

ومن العلماء من يقول: إنهم يرفعون. ولذلك رأى النبي ﷺ الأنبياء في السماء؛ فرأى آدم - عليه السلام - في السماء الدنيا، ورأى يحيى وعيسى - عليهما السلام - في السماء الثانية، ورأى يوسف - عليه السلام - في السماء الثالثة، ورأى إدريس - عليه السلام - في السماء الرابعة، ورأى هارون - عليه السلام - في السماء الخامسة، وموسى - عليه السلام - في السادسة، وإبراهيم - عليه السلام - في السابعة. ولكن الصحيح أن الذي رآه هو أرواحهم، ولكنها مثلت في أجساد حتى رأوه وعرفوه، وسلموا عليه، وقالوا: «مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْإِبْنِ الصَّالِحِ»^(١). أما أجسادهم فيمكن أن تكون رفعت، ويمكن أنها دفنت في الأرض، وهو المتبادر.

وبكل حال فشهادتهم كونهم شهداء لا شك أنهم أكمل من الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله. وبلا شك أن بعضاً من الشهداء قد يكون عليه شيء من الذنوب التي لا تكفرها الشهادة. ففي الحديث أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: أرأيت إن قُتِلْتُ في سبيلِ الله، تُكفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فقال له رسول الله ﷺ: «نعم إن قُتِلْتَ في سبيلِ الله، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ مُقْبِلٌ غَيْرٌ مُدْبِرٌ»، ثم قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ قُلْتِ؟»، قال: أرأيت إن قُتِلْتُ في سبيلِ الله، أَتُكفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ مُقْبِلٌ غَيْرٌ مُدْبِرٌ، إِلَّا السَّيِّئَاتِ، فَإِنْ

(١) حديث الإسراء تقدم تخريجه (٢/ ٣٣٤).

جَبْرِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ لِي ذَلِكَ^(١). فَإِذَا مَنْ كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنْ حَقُوقِ
الْأَدْمِيينَ لَا تَغْفِرُ لَهُ، بَلْ لَا بَدَّ فِيهَا مِنَ الْمَحَاصِصِ وَالْمَقَاصِصِ فِي الْآخِرَةِ، إِذَا لَمْ يَوْفِّهَا
عَنْهُ أَوْلِيَاؤُهُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا تَأْخُذُ مِنْ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا ذُنُوبُهُ الَّتِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ
رَبِّهِ فَالْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمْحُوهَا كُلُّهَا وَلَا يَبْقَى عَلَيْهِ ذَنْبٌ.

(١) أخرجه مسلم (١٨٨٥) من حديث أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه.

قال الطحاوي:

وَتُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ، وَجَزَاءِ الْأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالْعَرْضِ وَالْحِسَابِ، وَقِرَاءَةِ
الْكِتَابِ، وَالْثَوَابِ وَالْعِقَابِ، وَالصِّرَاطِ وَالْمِيزَانِ.

قال الشارح:

الإيمانُ بالمعادِ مما دَلَّ عليه الكتابُ والسنة، وَالْعَقْلُ وَالْفِطْرَةُ السَّليمةُ. فَأَخْبَرَ
الله سبحانه عنه في كتابه العَزِيزِ، وَأَقَامَ الدَّلِيلَ عليه، وَرَدَّ عَلَى الْمُنْكَرِينَ، فِي غَالِبِ
سُورِ الْقُرْآنِ.

وَذَلِكَ: أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، فَإِنَّ
الْإِفْرَارَ بِالرَّبِّ عَامٌّ فِي بَنِي آدَمَ، وَهُوَ فِطْرِي، كُلُّهُمْ يُقِرُّ بِالرَّبِّ، إِلَّا مَنْ عَانَدَ،
كَفَرَعُونَ، بِخِلَافِ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَإِنَّ مُنْكَرِيهِ كَثِيرُونَ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ لَسَمَا كَانَ
خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ، وَكَانَ قَدْ بَعِثَ هُوَ وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ^(١). وَكَانَ هُوَ الْحَاشِرُ الْمُقْصِي^(٢)،
بَيْنَ تَفْصِيلِ الْآخِرَةِ بَيَانًا لَا يُوجَدُ فِي شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ. وَهَذَا ظَنٌّ طَائِفَةٌ مِنَ
الْمُتَّفَلِسِفَةِ وَنَحْوِهِمْ أَنَّهُ لَمْ يُفْصِحْ بِمَعَادِ الْأَبْدَانِ إِلَّا مُحَمَّدٌ ﷺ، وَجَعَلُوا هَذَا حُجَّةً
لَهُمْ فِي أَنَّهُ مِنْ بَابِ التَّخْيِيلِ وَالْحِطَابِ الْجُمُهوري!

وَالْقُرْآنُ بَيْنَ مَعَادِ النَّفْسِ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَمَعَادِ الْبَدَنِ عِنْدَ الْقِيَامَةِ الْكُبْرَى، فِي غَيْرِ

(١) كما في حديث سهل بن سعد ؓ الذي أخرجه البخاري (٤٩٣٦)، ومسلم (٢٩٥٠).

(٢) كما في حديث جبر بن مطعم ؓ الذي أخرجه البخاري (٤٨٩٦)، ومسلم (٢٣٥٤).

مَوْضِعٍ . وَهُوَ لِأَنَّ يُنْكِرُونَ الْقِيَامَةَ الْكُبْرَى ، وَيُنْكِرُونَ مَعَادَ الْأَبْدَانِ ، وَيَقُولُ مَنْ يَقُولُ مِنْهُمْ : إِنَّهُ لَمْ يُخْبِرْ بِهِ إِلَّا مُحَمَّدٌ ﷺ عَلَى طَرِيقِ التَّخِيلِ !! وَهَذَا كَذِبٌ ، فَإِنَّ الْقِيَامَةَ الْكُبْرَى هِيَ مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ الْأَنْبِيَاءِ ، مِنْ آدَمَ إِلَى نُوحٍ ، إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَغَيْرِهِمْ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ بِهَا ، مِنْ حِينَ أَهْبَطَ آدَمَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قَالَ أَهْبَطُوا بِمَعْشَرِكُمْ لِعِضٍ

عَدُوٍّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْمِيُونَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا

تُنْتَجِحُونَ ﴿ [الأعراف: ٢٥] ، وَلَمَّا قَالَ إِبْلِيسُ لِلْعَيْنِ : ﴿ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ،

[الحجر: ٣٦] ، قَالَ : ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ [الحجر: ٣٧] ،

[٣٨] .

وَأَمَّا نُوحٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَقَالَ : ﴿ وَاللَّهِ أَنْبَأْتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ بُنَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُبْعِدُكُمْ فِيهَا

وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ [نوح: ١٧، ١٨] .

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾

[الشعراء: ٨٢] ، إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ . وَقَالَ : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ

الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١] ، وَقَالَ : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُنحَى الْمَوْتَى ﴾ [البقرة: ٢٦٠] .

[البقرة: ٢٦٠] .

وَأَمَّا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَمَّا نَاجَاهُ : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آيَةٌ أَكَادُ

أَخْفِيهَا لِنَجْمِي كُلِّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ فَلَا يُصَدِّقُكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَأَسْمِعْ هَوْبَهُ

فَقَرَدْنِي ﴾ [طه: ١٥، ١٦] .

بَلْ مُؤْمِنٌ آلَ فِرْعَوْنَ كَانَ يَعْلَمُ الْمَعَادَ، وَإِنَّمَا آمَنَ بِمُوسَى، قَالَ تَعَالَى حِكَايَةَ
عنه: ﴿وَيَقَوْمِ إِذِ اتَّخَفُوا بِرَأْسِهِمْ صَرْبِيَّةً وَمَا لَهُمْ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ بِخَبْرٍ﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣]، إلى قوله: ﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا هِيَ أُنثَىٰ
الذَّيْنِ مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ لَهِيَ آخِرَةٌ﴾ [غافر: ٣٩]، إلى قوله: ﴿أَدْخَلُوا آلَ
فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]. وَقَالَ مُوسَى: ﴿وَأَكْتُمِبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا أَيْنِكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ فِي قِصَّةِ الْبَقْرَةِ: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُعَذِّبُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٧٣].

قال الشيخ:

هذا الكلام وما بعده يتعلّق بالبعث بعد الموت، الذي هو بعث الأجساد
وحشرها، والنشْرُ، وإعادة الأرواح إلى الأجساد، وجمع الأجساد بعد أن بليت،
وبعد أن كانت ترابًا، وبعد أن تمزقت وتفترقت، يبعثها الله، ويعيد إليها الحياة،
وتعود كما كانت، وتتصل بها أرواحها اتصالاً أبدياً محكماً ليس فوقه اتصال،
وليس كاتصالها في هذه الدنيا الذي يعتره شيء من الانفصالات.

هذا هو البعث بعد الموت، ويكون يوم القيامة عندما ينفخ في الصور، وقيل:
إن الصور هو قرن واسع كبير، فيه ثقب سمعته أرواح بني آدم، ينفخ فيه إسرافيل،
فتخرج كل روح على ثقب وتصل إلى جسدها، وأنه قبل النفخ في الصور ينزل الله

مطرًا فتنبت منه أجسادهم، والله قادر على أن ينبتها من دون مطر وغيره كما في هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧]، يعني: أخرجكم إلى هذا الوجود.

والإيمان بالبعث وما بعده، والإيمان باليوم الآخر ويوم القيامة ركن أساسي من أركان الإيمان. وقد يكون هو الركن الأکید؛ ولأجل هذا كثيرٌ ما يقتصر عليه مع الإيمان بالله في كثير من الأحاديث، كقوله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِي جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ صَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»^(١)، وقوله ﷺ: «لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ تُحِدُّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثِ إِعْلَى زَوْجٍ»^(٢). لم يذكر مع الإيمان بالله إلا الإيمان باليوم الآخر؛ لأن الإيمان باليوم الآخر وقع فيه الخلاف بين الأمم ورسولهم، وأنكره المشركون، وبالغوا في إنكاره، واعتقدوا أن الأجساد بعد موتها تضمحل ولا تعود، وأنه ليس هناك حياة، وأن هذه الدنيا باقية وليس لها فناء، وقد حكى الله عنهم أنهم يقولون: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، أي: الزمان. ومعنى قولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: يموت قوم ويحيا آخرون، وهو معنى قولهم: أرحامٌ تدفع وأرض تبلع. هذه عقيدة أولئك المشركين، وهي أيضًا عقيدة الدهريين.

(١) تقدم تخريجه (٤٠١/٣).

(٢) تقدم تخريجه (٤٠١/٣).

ولمّا كان الإيمان بالله واليوم الآخر أكدّ الأركان، وهو أكد من الإيمان بالكتب والرسل والملائكة؛ لأن الخلاف في الإيمان بها قليل، بخلاف الإيمان باليوم الآخر، فإن المنكرين له كثير، فلما كان كذلك؛ جاءت الأدلة عليه كثيرة، في الآيات التي تؤكّد البعث بعد الموت، وسيأتي شيء من الآيات التي توضح البعث بعد الموت، والتي ردّ الله بها على المشركين الذين أنكروا البعث بعد الموت، وكيف احتجّ عليهم بحجج عظيمة، فإذا آمن العباد باليوم الآخر وبالبعث بعد الموت فإنهم يستعدون لذلك بالأعمال الصالحة التي يكونون بها سعداء، وإذا لم يؤمنوا به، فإنهم لا يهتمون إلا بهذه الحياة؛ لأنه ليس هناك - في ظنهم - حياة بعد هذه الحياة.

والإيمان باليوم الآخر من أكدّ أركان الإيمان، وهو يعمّ البرزخ والحشر، ولكن أكثر ما يركّز على الحشر، الذي هو حياة الأجساد وحشرها وحسابها، وجمع الناس في الدار الآخرة وما أشبه ذلك؛ حتى يحصل الجزاء على الأعمال، وإدخال أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار. هذا هو الذي اتفقت عليه دعوة الرسل. وهذه الآيات التي مرت معنا تدل على أن الرسل مجمعون على أن اليوم الآخر لا بدّ منه، وأنه سيأتي، كما في هذه الآيات من قول نوح - عليه السلام -: ﴿وَأَللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۗ ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۗ ﴿١٨﴾﴾. هذا كلام نوح لقومه، ينبههم على أنهم سيخربون منها مثل قوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۗ ﴿٢٠﴾﴾. وكذلك بقية الرسل ذكروا ذلك لأقوامهم يحثونهم على الإيمان بالله، وعلى الإيمان بالبعث بعد الموت،

وعلى الاستعداد له.

كذلك غير الأنبياء؛ ذكر الله عن مؤمن آل فرعون، الذي قال: ﴿وَنَقُومَ إِيَّاهُ
أَخَافُ عَلَيْكَ يَوْمَ الثَّنَادِ﴾ [غافر: ٣٢]، أي: يوم القيامة إلى آخر الآيات حيث قال:
﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠]. فكل ذلك دليل
على أن أتباع الأنبياء أيضًا صرّحوا على أنهم يؤمنون باليوم الآخر الذي هو يوم
القيامة وما بعده.

الإيمان باليوم الآخر خبر الله. فالله سبحانه هو الذي أخبر باليوم الآخر، وبما
يكون فيه، فمن آمن بالله آمن بأخبار الله.

واليوم الآخر يشمل البعث وما بعده. بل يشمل الموت وما بعده، ولكن
أكثر ما يذكرون البعث بعد الموت، وما بعده من الجزاء والحساب والثواب
والحوض والميزان، وجزاء الأعمال، ومحاسبة الله تعالى للعباد، وما يكون في
عرصات القيامة من طول الوقوف، ومن طلب الشفاعة، ومن الأهوال وطول
ذلك اليوم الذي يجعل الولدان شيبًا. يؤمن بذلك أهل السنة على التفصيل
الذي ذكره الله تعالى، ويكون من آثار إيمانهم الاستعداد ليوم المعاد. فإن الذي
يؤمن بالشيء ويصدق به تظهر عليه آثاره فيستعد له ويتهيأ لذلك اليوم
ويعرف أنه لا نجاة له إلا بالأعمال الصالحة التي كلف بها.

إذا قرأنا القرآن وجدنا فيه الأدلة الكثيرة على الإيمان بالبعث، وضرب
الأمثلة على ذلك، ولعل السبب في ذلك، كثرة المنكرين له من المشركين، الذين

يستبعدون إعادة الموتى من القبور بعد التفرُّق وذهاب الأشلاء وضرورة الأجزاء ترابًا، ويقولون: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]، يستبعدون ذلك، ويطلبون شططًا، فيقولون: ﴿أَتَشْرَابُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥]، أي: ابعثوا آباءنا الذين ماتوا من قبل حتى نعرف صدقكم.

ولمَّا كان هذا تكذيبهم، فإن الله سبحانه ضرب لهم الأمثلة، وذكر الأدلة، وبين لهم كمال القدرة، ولأجل ذلك يقول العلماء: إنه لم يشتمل كتاب من الكتب السابقة على تقرير البعث وذكر أدلته مثل ما اشتمل كتاب الله المنزل على محمد ﷺ. ففيه التصريح به تصريحًا بليغًا لا يحتمل أن يتطرق إليه تأويل، أو حمل على محمل بعيد، ومع هذه الأدلة وقوتها وصراحتها وكثرة ضرب الأمثلة عليها، فإن كثيرًا ممن تسموا بأئمتهم مسلمون ينكرون هذا البعث الجسماني، ويقال لهؤلاء: الفلاسفة الإلهيون؛ وهم الذين ينكرون أولًا: بدء الخلق، ويقولون إنَّ جنس الإنسان لم يزل قديمًا، وليس له أول، وينكرون أن يكون أبو البشر آدم، وينكرون أن يكون بدء خلقه من طين، وينكرون أن يكون هناك وقت للإنسان لم يكن شيئًا مذكورًا. وثانيًا: ينكرون نهاية الدنيا ويقولون: الدنيا ليس لها آخر، وهذه الحياة تستمر أبدًا إلى غير نهاية، ويعبرون بقولهم: أرحام تدفع وأرض تبلع. ينكرون عودة الأجساد وجمعها بعد تفرُّقها، ويجعلون الجزء على الأرواح، ويدعون أن هذه الأرواح هي التي أهبطت من السماء، واتصلت بالجسد، ثم بعد ذلك خرجت منه إلى حيث كانت. ويقول رئيسهم ابن سينا - وهو من أكابرهم - في مطلع قهيدته العينية:

هَبَطَتْ إِلَيْكَ مِنَ الْمَحَلِّ الْأَرْفَعِ وَرُقَاءُ ذَاتِ تَقَلُّبٍ وَتَفَجُّعٍ
وَصَلَتْ عَلَى كُرِّهِ فَلَمَّا وَاصَلَتْ أَلْفَتْ مُرَافِقَةَ الْحَرَابِ الْبَلْقَعِ^(١)

يصف الروح بأنها هبطت من المكان الأرفع، واتصلت بجسدك إلى أن ألفتها، ثم صارت جزءاً منه، ثم بعد ذلك تنفصل وتعود كما كانت. فهؤلاء ما آمنوا بالله حق الإيمان؛ فإن الإيمان بالله يستدعي الإيمان بخبره، ومن خبره حشر الأجساد، وبعثها، وجمعها بعدما تفرقت، وهذا لم يكن من هؤلاء.

(١) راجع (٤/١٣٧).

قال الشارح:

وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّهُ أَرْسَلَ الرَّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، فِي آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ،
وَأَخْبَرَ عَنِ أَهْلِ النَّارِ أَنَّهُمْ إِذَا قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا: ﴿الَّذِينَ يَأْتِيَكُمُ الرُّسُلُ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ
آيَاتِ رَبِّكُمُ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بِئْسَ لَكِنِّ حَقَّتْ لِكَلِمَةِ الْعَذَابِ عَلَى
الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]. وَهَذَا اعْتِرَافٌ مِنْ أَصْنَافِ الْكُفَّارِ الدَّاخِلِينَ جَهَنَّمَ أَنَّ
الرُّسُلَ أَنْذَرْتَهُمْ لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا، فَجَمِيعُ الرُّسُلِ أَنْذَرُوا بِمَا أَنْذَرَ بِهِ خَلْقَهُمْ مِنْ
عُقُوبَاتِ الْمُذْنِبِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَعَامَّةُ سُورِ الْقُرْآنِ الَّتِي فِيهَا ذِكْرُ الْوَعْدِ
وَالْوَعْدِ، يُذَكَّرُ ذَلِكَ فِيهَا: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَأَمَرَ نَبِيَّهُ أَنْ يُقَسِّمَ بِهِ عَلَى الْمَعَادِ، فَقَالَ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ
بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ﴾ [سبأ: ٣]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَلِئُونَكَ أَحْسَنُ هُوَ
قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ذَمَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

وَأَخْبَرَ عَنِ اقْتِرَابِهَا، فَقَالَ: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]،
﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ
وَاقِعٍ ۝١ لِكَافِرِينَ﴾ [المعارج: ١، ٢]، إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَرَوْنَهُ قَرِيبًا﴾
[المعارج: ٦، ٧].

وَذَمَّ الْمَكْدُونِ بِالْمَعَادِ، فَقَالَ: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ كَذِبًا عَصِيًّا إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ
بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا قَرَرْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١]، ﴿إِلَّا إِنْ الَّذِينَ يُمَارُونَكَ فِي السَّاعَةِ

لَفِي ضَلَالٍ بِعِيدٍ ﴿ [الشورى: ١٨]، ﴿ بَلِ ادْرَاكِطِهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل: ٦٦]، ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ [النحل: ٣٨]، إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴾ [النحل: ٣٩]، ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [غافر: ٥٩]، ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَائًا وَبِكُفْرِهِمْ كَانُوا بِأَيْمَانِهِمْ كَلِمَاتٍ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ هُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِعَائِدِنَا وَقَالُوا آءَ ذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنًا آءَ نَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٩٧-٩٩]، ﴿ وَقَالُوا آءَ ذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنًا آءَ نَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿١٠٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْتُمُونَ فِي صُدُورِهِمْ فَيَسْقُوتُونَ مِنْ رُبِّدْنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْخِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَسْجُدُونَ لَكَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِمَحْمُودِهِمْ وَتَقُولُونَ إِن لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٩-٥٢].

فَتَأْمَلُ مَا أُجِيبُوا بِهِ عَنْ كُلِّ سُؤَالٍ عَلَى التَّفْصِيلِ: فَإِنَّهُمْ قَالُوا أَوْلَا: ﴿ آءَ ذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنًا آءَ نَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾. فَقِيلَ لَهُمْ فِي جَوَابِ هَذَا السُّؤَالِ: إِنْ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّهُ لَا خَالِقَ لَكُمْ وَلَا رَبَّ لَكُمْ، فَهَلَّا كُنْتُمْ خَلْقًا لَا يُفْنِيهِ الْمَوْتُ، كَالْحِجَارَةِ وَالْحَدِيدِ وَمَا هُوَ أَكْبَرُ فِي صُدُورِكُمْ مِنْ ذَلِكَ؟! فَإِنْ قُلْتُمْ: كُنَّا خَلْقًا عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ الْبَقَاءَ، فَمَا الَّذِي يَحْوُلُ بَيْنَ خَالِقِكُمْ وَمُنْشِئِكُمْ وَيَبْنِي إِعَادَتِكُمْ خَلْقًا جَدِيدًا؟!

وَاللُّحْجَّةَ تَقْدِيرِ آخَرٍ، وَهُوَ: لَوْ كُنْتُمْ مِنْ حِجَارَةٍ أَوْ حَدِيدٍ أَوْ خَلْقٍ أَكْبَرَ مِنْهُمَا، فَإِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُفْنِيَكُمْ وَيُحْيِلَ دَوَاتِكُمْ، وَيَنْقُلَهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَمَنْ يَقْدِرُ عَلَى التَّصَرُّفِ فِي هَذِهِ الْأَجْسَامِ - مَعَ سِدَّتِهَا وَصَلَابَتِهَا - بِالْإِفْنَاءِ وَالْإِحَالَةِ، فَمَا الَّذِي يُعْجِزُهُ فِيهَا دُونَهَا؟ ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ سُؤَالَ آخَرَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿مَنْ يُعِيدُنَا﴾، إِذَا اسْتَحَالَتْ جُسُومُنَا وَفَنِيَتْ؟ فَأَجَابَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، فَلَمَّا أَخَذَتْهُمْ الْحِجَّةُ، وَلَزِمَتْهُمْ حُكْمُهَا، انْتَقَلُوا إِلَى سُؤَالٍ آخَرَ يَتَعَلَّلُونَ بِهِ بِعِلَلِ الْمُتَقَطِّعِ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: متى هُوَ؟ فَأَجِيبُوا بِقَوْلِهِ: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾

قال الشيخ:

قد ذكرنا أن القرآن قد اشتمل على الأدلة الكثيرة على تقرير البعث والنشور، وعلى تعظيم قدرة القادر، وعلى أنه لا يعجزه شيء، وعلى أن الرسل أولهم وآخرهم بلغوا هذا البيان، الذي هو اليوم الآخر والبعث والجزاء في الدار الآخرة، وذكروا ما يكون بعد الموت، فقد اتفقت دعوة الرسل كلهم على ذلك. والحكمة تقتضي ذلك، فإن هذه الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، فالناس في هذه الدنيا يعملون، وفي الآخرة يلقون جزاء أعمالهم. ولذلك صار اهتمام العقلاء بما بعد الموت، وذلك بعمارة الدار الآخرة، عمارة ما سيفدون إليه، وقد انتبهوا إلى أنهم مأمورون بالعمارة، مأمورون بالبناء، ولكن البناء هو الذي يبقى، وليس الذي يفنى، فإن بناء الدنيا يفنى ويفنى ساكنوه، تفنى الدار ويموت صاحبها. وأما

العمارة في الآخرة فإنها هي الباقية، يقول بعضهم^(١):

لَا دَارَ لِلْمَرْءِ بَعْدَ الْمَوْتِ يَسْكُنُهَا إِلَّا الَّتِي كَانَ قَبْلَ الْمَوْتِ يَبْنِيهَا
فَإِنْ بَنَاهَا بِحَيْرِ طَابَ مَسْكَنُهَا وَإِنْ بَنَاهَا بِبَشْرٍ خَابَ بَانِيهَا
النَّفْسُ تَرْغَبُ فِي الدُّنْيَا وَقَدْ عَلِمَتْ أَنَّ الزَّهَادَةَ فِيهَا تَرْكُ مَا فِيهَا
فَاغْرِسْ أَصُولَ التَّقَى مَا دُمْتَ مُجْتَهِدًا وَأَعْلَمْ بِأَنَّكَ بَعْدَ الْمَوْتِ لَاقِيهَا

فإذا انبسطت به أمور بالعمارة للآخرة فوق العمل للدنيا؛ لأن الآخرة هي دار الجزاء، فالؤمنون يعملون لها، بمعنى أنهم يقدمون ما تعمرو به مساكنهم في الجنة. روي في بعض الآثار: أن الملائكة يبنون القصور لبني آدم، فإذا توقف الإنسان عن العمل توقفوا عن البناء، وقالوا: نتوقف حتى تأتينا النفقة. ومعلوم أن من يبني في الدنيا يتوقف العمال حتى يعطيهم أجرتهم، وكذلك في الآخرة لا تُبنى الغرف التي فوقها غرف إلا بالأعمال الصالحة.

مرّت بنا هذه الأدلة، ومنها: أن الرسل كلهم أخبروا باليوم الآخر، واعترفت الأمم التي تدخل النار بأن رسلهم قد بلغوهم، واعترفوا بأنهم لم يصدقوا بذلك لنقص في عقولهم، وحكى الله عنهم ذلك بقوله تعالى: ﴿كَمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ خَزَنَتُهَا أَلَّا يَدْعُونَ نَذِيرًا ۗ ﴿٨﴾ قَالُوا يَا بَلَاءَ قَدِ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا ۗ ﴿٩﴾ [الملك: ٨، ٩]، فاعترفوا بالنذير، وتكذيبهم لهذا النذير حتى أوقعهم هذا التكذيب بالعذاب، حتى قالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۗ ﴿١٠﴾ [الملك: ١٠]، كما قال الله عنهم: ﴿وَقَالَ لَهُمْ

(١) انظر: الإشراف في منازل الأشراف لابن أبي الدنيا (ص ١٧١).

حَزَنُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُولٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ [الزمر: ٧١]، وكذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَأْتِكُمْ رَسُولٌ مِّنْكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠]. يقول الله تعالى لهم هذه المقالة، فيقولون: بلى، ويعترفون بأنهم جاءتهم الرسل الذين أنذروهم لقاء يومهم هذا، ولكنهم لم يتقبلوا، بل كذبوا الرسل، واستبعدوا أن يكون هناك بعث بعد الموت، وظنوا أنه ليس هناك إلا هذه الدنيا، وأتتهم إنمَّا خلقوا لكي يأكلوا ويشربوا ويمتصوا أنفسهم، وأجسامهم، وأتتهم بعد أن يخرجوا من الدنيا، لا يعودون للحياة مرة أخرى. هذه عقيدة أويقتهم، وأهلكتهم، وأنستهم ما خلقوا له.

ومن الأدلة - ما مر بنا - أن الله أمر نبيه ﷺ أن يقسم بربه على اليوم الآخر في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣]. الضمير في ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾، يعود على البعث وما بعد الموت، من الجزاء على الأعمال، أي: أحق ثابت ما أخبرتنا به من البعث والجزاء؟ قل: إِي وَرَبِّي؛ أمره أن يحلف بالله رب المخلوقات جميعًا.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي﴾ [سبأ: ٣]، ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي﴾ هذا حلف أيضًا، ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، أي: لا بد أن تأتيكم هذه الساعة، وكذلك قوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَّنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]، هذا أيضًا قسم ثالث، ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ أي: لا بد من البعث.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مَثَلِ مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣]، ونحو ذلك من الآيات التي يأمر الله بها نبيه أن يقسم بأنتهم لا بد أن يبعثوا.

أما المشركون فإنهم ينكرون هذا، بل ويحلفون عليه، فيقول تعالى في سورة النحل: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]. هذا على حسب نظرهم، فالله تعالى يقيم عليهم الحجج بعد جزمهم هذا، ويخبرهم بأنه هو الذي بدأ خلقهم، فلا بد أن يعيدهم، وهو الذي خلق هذه المخلوقات التي هذه عظمتها، فلا بد أن يعيد الإنسان الذي هو أحقر وأصغر وأذل من هذه المخلوقات العظيمة. فيقول تعالى: إِنَّ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِهَا فِيهَا أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ، وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي خَلَقَهَا، وَالْإِنْسَانُ لَا شَكَّ أَنَّهُ مِنْ أَفْضَلِ الْمَخْلُوقَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَيْبِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، لَمَّا أَنَّهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ، وَأَعْطَاهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ، وَخَصَّهُ بِالْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَأَمْرَهُ بِأَنْ يَتَعَبَّدَ لِرَبِّهِ وَيَطِيعَ، وَأَمْرَهُ بِأَنْ يَسْتَعِدَّ لِلْقَاءِ اللَّهِ، وَأَخْبَرَهُ بِأَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِ، وَأَنَّ اللِّقَاءَ حَتْمٌ لَا بَدَّ مِنْهُ.

فمن حَقَّق ذلك الإيمان وذلك الرجاء استعدَّ له، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف: ١١٠]، أي: من كان موقناً بأنه لا بد من أن يلقى الله تعالى، فليستعدَّ بالعمل الصالح الخالي من الشرك.

وقد أخبر الله تعالى بأن هذه الدنيا وما عليها حقيرة مهينة، لا تستحق أن يهتم لها هذا الاهتمام، فقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠]، هذه أكثر ما يشتغل به أهلها. ثم ضرب لها مثلاً في أنها سوف تنقضي وجعلها: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ آجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾، الكافرون بالله هم الذين تعجبهم زهرة الدنيا، وهم الذين تعجبهم زينتها وزينة ما عليها؛ لأنهم لهم رغبة في الدنيا، وليس لهم رغبة في الآخرة.

وقيل: إن الكفار هنا هم الزرّاع.

ولكن الأولى أنهم الكفار بالله، فهم الذين يعجبهن نباته، وبعد مدة ما يكون هذا النبات؟ لا شك أنه يبس، ويصير حطاماً، وتذروه الرياح. وهكذا هذه الدنيا: تزهر لأهلها وتخصر، ثم بعد ذلك تدبر عنهم، ولا تقبل، ويدوقون الضر كما ذاقوا الخير، وتنزع عنهم، أو ينزعون عنها، ولسان حالها يقول، كما أنشد بعضهم^(١):

هِيَ الدُّنْيَا تَقُولُ بِمِلْءِ فِيهَا حَذَارِ حَذَارِ مِنْ بَطْشِي وَفَتْكِي
فَلَا يَنْغُرُكُمْ طُغُولُ ابْتِسَامِي فَقُولِي مُضْحِكٌ وَالْفِعْلُ مُبْكِي

فهذه حالة هذه الدنيا، إذا فكر العباد فيها عليها، علموا أنها متاع، وقنعوا منها باليسير، وشمروا للدار الآخرة، ونصبوا الأقدام، وهجروا التواني والتكاسل، الذي يعوقهم عن السير إلى الآخرة، وهجروا الفتور الذي يثني همهم، وأنصبوا

(١) البيتان لأبي الفرج الساوي قالهما في مرثية فخر الدولة. انظر: بريمة الدمهر (٣/ ٤٥٨).

أبدانهم في طاعة الله تعالى، وعلموا أن الدنيا فانية، وجعلوا رغبتهم في الآخرة، ووثقوا بقول الله تعالى: ﴿لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ۳۰]، هذه حال المصدقين.

أما المكذبون فقد مرّ معنا ما ذكر الله من حالهم في قوله - عز وجل -: ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا آءَآءَ مَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنَا آءَآءَ مَا لَمَبَعُوثُونَ خَلَقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٧- ٤٩]. ثم يقول تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْتُمُونَ فِي صُدُورِهِمْ فَمَسِيئُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥٠، ٥١]. فهذه حجة عليهم أن الذي يعيدهم هو الذي فطرهم أول مرة، ﴿فَسَيَغْفُونَ إِلَيْكَ رءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾، متى هذا البعث؟ ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِمَحْمُودَةٍ وَتَنْظُرُونَ إِن لِّئِنَّكُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢].

إذا دعاهم الله وأخرجهم، تذكروا حياتهم الأولى، ويقولون: كم لبثتم؟ فيظنون أنهم ما لبثوا في الدنيا إلا أيامًا قليلة، ويظنون أنهم ما لبثوا إلا يومًا أو بعض يوم، كما قال الله تعالى عنهم ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لِّئِنَّكُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه: ١٠٣]، ويقول أمثلهم وأعقلهم: ﴿إِن لِّئِنَّكُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٤]، يتقألون الزمن الذي لبثوه والذي مكثوه في الدنيا؛ لأنهم لما كانوا في سرور كلّمهم مرّت عليهم الأيام قصيرة، ولا شك أنهم سيلقون بعد ذلك السرور جزاء ينسيهم ما كانوا فيه من قبل، فإنهم يعدّون في الآخرة أو يشابون في الآخرة، فقد ورد في

الحديث أنه ﷺ قال: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا بَنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ حَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟» فيقول: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا بَنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيقول: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتَ شِدَّةً قَطُّ»^(١)، نسي النعمة التي في الدنيا؛ لأن لحظة واحدة تنسيه ما كان فيه من النعيم الذي كان في الدنيا، ويضرب ذلك بعضهم مثلاً فيقول^(٢):

مَسْرَةٌ أَحْقَابٍ تَلْقَيْتُ بَعْدَهَا مَسَاءَةً يَوْمٍ إِنَّمَا شَبَّهَ أَنْصَابِ
فَكَيْفَ بِأَنْ تَلْقَى مَسْرَةَ سَاعَةٍ وَرَاءَ تَقْضِيهَا مَسَاءَةً أَحْقَابِ

لو أن إنساناً نَعِمَ في الدنيا عشرات السنين، وهو أنعم ما يكون، وألذ ما يكون من الحياة والبهجة، ثم بعد ذلك ناله عذاب ساعة واحدة، فإنه سينسي ذلك النعيم والسرور والبهجة، أنساه إياه عذاب ساعة أو بعض ساعة. فكيف إذا كان نعيم الدنيا بأسرها قليلاً، والذي تناله أنت في عمرك أقل من القليل، فكيف إذا تعقب هذا النعيم العذاب المستمر الذي لا انقضاء له ولا انقطاع، وهو عذاب الآخرة، عذاب النار وبئس القرار. فإنه الذي لا انقضاء له أبداً. فهذا يبين لك أن الدنيا قليل متاعها، وأن حظ الإنسان منها أقل من القليل.

(١) أخرجه مسلم (٢٨٠٧) من حديث أنس بن مالك ؓ.

(٢) انظر: الكشف للزمخشري (٢/٢٨٢).

قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»^(١). فإذا رأينا أماراتها أو أشراطها؛ فإنّ علينا أن نتظر الساعة بغتة، أو يأتي أمر الله.

أولها: النفخ في الصور، وهي نفخة الصعق، ثم تموت الأجساد وتفنى، ثم ينفخ فيه نفخة أخرى هي نفخة البعث، وهي نفخة القيام من القبور. فيبعث الناس، ويجتمعون في دار الجزاء للآخرة، وليس دون ذلك إلا أيامٌ قليلة، فالمسلم يكون متأهباً لذلك، فإذا جاءه أمر الله، يكون على أهبة لذلك، وقد أعدّ للساعة عدتها، وقد وثق بعمله، عمل عملاً صالحاً يكون سبباً في نجاته.

وقد كان السلف يهتمون للآخرة، حتى ولو قيل لأحدهم: إنك ميتٌ هذا اليوم، لم يستطع أن يزيد في عمله؛ إذ قد بلغ الغاية القصوى من العمل، ومن الاجتهاد في الأعمال الصالحة؛ لأنه يترقب الموت في كلّ حالة، ويمثل قول النبي ﷺ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»، وكان ابن عمر - رضي الله عنهما - يقول: «إِذَا أُمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرْضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»^(٢). أي: ترقب الموت بينك وبين الصباح، أو بينك وبين المساء، مخافة أن يأتيك أمر الله. ومن مات فقد قامت قيامته.

(١) أخرجه البخاري (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٦).

قال الشارح:

وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ. قَالَ مَنْ يُعْجِبُ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، إلى آخِرِ السُّورَةِ. فَلَوْ رَامَ أَعْلَمَ الْبَشَرِ وَأَفْصَحُهُمْ وَأَقْدَرُهُمْ عَلَى الْبَيَانِ، أَنْ يَأْتِيَ بِأَحْسَنَ مِنْ هَذِهِ الْحُجَّةِ، أَوْ بِمِثْلِهَا، بِالْأَفْظِ تَشَابِهِ هَذِهِ الْأَلْفَافِ فِي الْإِيْجَازِ وَوَضْعِ الْأَدِلَّةِ، وَصِحَّةِ الْبُرْهَانِ، لَمَا قَدَرَ. فَإِنَّهُ سَبِحَانَهُ افْتَتَحَ هَذِهِ الْحُجَّةَ بِسُؤَالٍ أَوْرَدَهُ مُلْحِدٌ، افْتَضَى جَوَابًا، فَكَانَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾، مَا وَفَى بِالْجَوَابِ، وَأَقَامَ الْحُجَّةَ وَأَزَالَ الشُّبُهَةَ، لَوْلَا مَا أَرَادَ سَبِحَانَهُ مِنْ تَأْكِيدِ الْحُجَّةِ وَزِيَادَةِ تَقْرِيرِهَا، فَقَالَ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]، فَاحْتَجَّ بِالْإِبْدَاءِ عَلَى الْإِعَادَةِ، وَبِالنُّشْأَةِ الْأُولَى عَلَى النُّشْأَةِ الْآخَرَى؛ إِذْ كُلُّ عَاقِلٍ يَعْلَمُ عِلْمًا صَرُورِيًّا أَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى هَذِهِ، قَدَرَ عَلَى هَذِهِ، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ عَاجِزًا عَنِ الثَّانِيَةِ لَكَانَ عَنِ الْأُولَى أَعْجَزَ وَأَعْجَزَ.

وَلَمَّا كَانَ الْخَلْقُ يَسْتَلْزِمُ قُدْرَةَ الْخَالِقِ عَلَى الْمَخْلُوقِ، وَعِلْمَهُ بِتَفَاصِيلِ خَلْقِهِ، اتَّبَعَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]، فَهُوَ عَلِيمٌ بِتَفَاصِيلِ الْخَلْقِ الْأَوَّلِ وَجُزْئِيَّاتِهِ، وَمَوَادِّهِ وَصُورَتِهِ، فَكَذَلِكَ الثَّانِي. فَإِذَا كَانَ تَامَ الْعِلْمُ، كَامِلَ الْقُدْرَةِ، كَيْفَ يَتَعَدَّرُ عَلَيْهِ أَنْ يُعْجِبِيَ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ؟

ثُمَّ أَكَّدَ الْأَمْرَ بِحُجَّةٍ قَاهِرَةٍ، وَبُرْهَانٍ ظَاهِرٍ، يَتَضَمَّنُ جَوَابًا عَنِ سُؤَالِ مُلْحِدٍ آخَرَ يَقُولُ: الْعِظَامُ إِذَا صَارَتْ رَمِيمًا عَادَتْ طَبِيعَتُهَا بَارِدَةً يَابِسَةً، وَالْحَيَاةَ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مَادَّتِهَا وَحَامِلُهَا طَبِيعَتُهُ حَارَّةَ رَطْبَةٍ، بِمَا يَدُلُّ عَلَى أَمْرِ الْبَعْثِ، فَفِيهِ الدَّلِيلُ

وَالْجَوَابُ، فَقَالَ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ [يس: ٨٠]، فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ بِإِخْرَاجِ هَذَا الْعُنْصُرِ، الَّذِي هُوَ فِي غَايَةِ الْحَرَارَةِ وَالْيُبُوسَةِ، مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ الْمُتَمَلِّئِ بِالرُّطُوبَةِ وَالْبُرُودَةِ، فَالَّذِي يُخْرِجُ الشَّيْءَ مِنْ ضِدِّهِ، وَتَنَقُّدَ لَهُ مَوَادُّ الْمَخْلُوقَاتِ وَعَنَاصِرُهَا، وَلَا تَسْتَعْصِي عَلَيْهِ، هُوَ الَّذِي يَفْعَلُ مَا أَنْكَرَهُ الْمَلْحِدُ وَدَفَعَهُ، مِنْ إِحْيَاءِ الْعِظَامِ وَهِيَ رَمِيمٌ.

ثُمَّ أَكَّدَ هَذَا بِأَخْذِ الدَّلَالَةِ مِنَ الشَّيْءِ الْأَجَلِّ الْأَعْظَمِ، عَلَى الْأَيْسَرِ الْأَصْغَرِ، فَإِنَّ كُلَّ عَاقِلٍ يَعْلَمُ أَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى الْعَظِيمِ الْجَلِيلِ فَهُوَ عَلَى مَا دُونَهُ بِكَثِيرٍ أَقْدَرُ وَأَقْدَرُ، فَمَنْ قَدَرَ عَلَى حَمْلِ قِنْطَارٍ، فَهُوَ عَلَى حَمْلِ أُوقِيَّةٍ أَشَدَّ أَقْدَارًا، فَقَالَ: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١]، فَأَخْبَرَ أَنَّ الَّذِي أَبْدَعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، عَلَى جَلَالَتَيْهِمَا، وَعِظَمِ شَأْنَيْهِمَا، وَكِسْرِ أَجْسَامَيْهِمَا، وَسَعَتَيْهِمَا، وَعَجِيبِ خَلْقَيْهِمَا، أَقْدَرُ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ عِظَامًا قَدْ صَارَتْ رَمِيمًا، فَيُرُدَّهَا إِلَى حَالَتَيْهَا الْأُولَى. كَمَا قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، وَقَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِنَّ يَخْلُقِينَ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٣]. ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ وَبَيَّنَّهُ بَيَانٍ آخَرَ، وَهُوَ أَنَّهُ لَيْسَ فِعْلُهُ بِمَنْزِلَةِ غَيْرِهِ، الَّذِي يَفْعَلُ بِالْأَلَاتِ وَالنُّكُفَةِ، وَالنَّصَبِ وَالْمَشَقَّةِ، وَلَا يُمَكِّنُهُ الْإِسْتِقْلَالُ بِالْفِعْلِ، بَلْ لَا يَبْدُ مَعَهُ مِنْ آلَةٍ وَمُعِينٍ، بَلْ يَكْفِي فِي خَلْقِهِ لِمَا يُرِيدُ أَنْ يَخْلُقَهُ وَيُكَوِّنَهُ نَفْسُ إِرَادَتِهِ، وَقَوْلُهُ لِلْمُكُونِ: «كُنْ»، فَإِذَا هُوَ كَاتِبٌ كَمَا شَاءَهُ وَأَرَادَهُ.

ثُمَّ حَتَمَ هَذِهِ الْحُجَّةَ بِإِخْبَارِهِ أَنَّ مَلَكَوَتَ كُلِّ شَيْءٍ بِيَدِهِ، فَيَتَصَرَّفُ فِيهِ بِفِعْلِهِ
وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُضْحِكُونَ﴾ [يس: ٨٣].

قال الشيخ:

هذه الآيات في آخر سورة يس احتج الله بها على بعض المشركين. روي أن الوليد بن المغيرة، أو العاص بن وائل، جاء ومعه عظم ميت قد بلي وجعل يحثه، وقال: أنزعم يا محمد أن ربك قادر على أن يعيد هذا حيًا بعد أن صار فتاتًا وترابًا. فقال: «نعم، يميتك الله ثم يحييك، ثم يحشرك إلى جهنم». نزلت فيه هذه الآيات، وهي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٧٧].

فهذه هي الحجة الأولى يذكره بأنه خلق من نطفة، والنطفة: ماء قدر لو تُرك لحظةً لفسد، والله هو الذي أوجد الإنسان من هذه النطفة، ثم طوره إلى أن أخرج إنسانًا سويًا، وجعله بشرًا متكامل الخلق، فإذا هو يخاصم ربه ويجادله، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ. قَالَ مَنْ يُعِى الْعِظْمُ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].

فهذا المثل كأنه أتى بهذا العظم يفته. نسي مبدأ خلقه، نسي أن الله هو الذي أوجده من تلك النطفة إلى أن صار رجلًا، نسي قول الله تعالى له ولغيره: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿[المرسلات: ٢٠، ٢١]. نسي خلقه

فقال: من يحيي العظام وهي رميم.

الآيات التي بعدها في تقرير الحياة، وفيها عدة حجج:

الحجة الأولى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]، فإن من ابتداء الخلق قادر على أن يعيده، وليس بدء الخلق أهون من إعادته. هذه حجة قاطعة لكل خصومة، وذلك لأن الذي ابتداء خلق الإنسان وأحياه في هذه الدنيا، وكذلك سائر المخلوقات، قدّر الله أنها تتوالد وأنها تنشأ على هذه الحياة شيئاً فشيئاً، فالذي أوجده وخلقته وكونه وقدّره ما يقدر عليه؟ لا شك أنه قادر على أن يعيده كما كان.

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]، فهو عالم بكل شيء، ولا يخفى عليه شيء، يعلم عدد المخلوقات، علم عدد الرمل والتراب، وأبصر فلم يستر بصره حجاب، وسمع جهر القول وخفي الخطاب، لا يخفى عليه شيء من أمر عباده، علم عددهم قبل أن يخلقهم، وعلم آجالهم، وعلم أعمالهم، وعلم أوقاتهم التي يولدون فيها، فهو بكل خلق عليم، فإذا كان عليماً فلا يليق به أن يهمل الخلق.

الحجة الثالثة: قول الله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَشْمُمْتَهُ تَوَقَّدُونَ﴾ [يس: ٨٠]. يقولون: هناك شجر اسمه المرخ، وشجر اسمه العفار، يعرفه أهل البوادي، إذا أرادوا أن يقدحوا ناراً قطعوا عودين أخضرين وحزوا في أحدهما جزءاً، ثم إتهم يحركونه تحريكاً جيداً فتتقدح منه النار، ثم

يجعلون الشرارة التي تنقدح منه في خرقة، ثم بعد ذلك ينفخونها ثم يشعلونها نارا،
ويغني هذا عن الكبرين الذي نستعمله، وهذا كانت تعرفه العرب، ويعرفه أهل
البوادي إلى القريب. يقولون:

في كل شجرٍ نارٍ يستنجد المرخ والعفار

الله تعالى يخرج النار من هذا العود الأخضر، مع أن طبيعة النار حارة،
وطبيعة هذا العود أنه رطب وأنه مائي، فتندح منه هذه الحرارة؛ أليس ذلك دليلاً
على أن الذي أوجد هذه الحرارة في هذا العود قادر على أن يعيد إلى الإنسان حياته،
ولو كان تراباً، فهو قادر على أن يجمع أشلاءه، ولو كانت متفرقة، فهو لا يصعب
عليه أن يعيد إليه حرارته وحياته وطبيعته، كما لم يستعص عليه أن يخرج النار من
ذلك الشجر الأخضر، الذي توقدون منه.

الحجة الرابعة: قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ
يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١]؛ لأن خلق هذه السموات، مع ارتفاعها، وما فيها من
الأفلاك، وما فيها من النجوم السائرة والثابتة، وما فيها من الشمس والقمر وهذه
الأجرام العلوية، وكذلك هذه الأرض وما فيها من الشعاب والجبال والوهاد،
أكبر من خلق الإنسان. فإن المخلوق العظيم يدل على عظمة خالقه، فإذا القادر
على أن يخلق هذه الأشياء، قادر على أن يخلق الإنسان مع صغره ومع حقارته،
وقادر على أن يعيده كما كان. وقد قال الشارح: من يقدر أن يحمل قنطاراً، لم
يصعب عليه حمل أوقية. والقنطار ملء الثوب من الذهب أو الفضة، والأوقية

ملء اليد. ومن يستطيع أن يخلق هذه المخلوقات العلوية العظيمة، لا يستطيع عليه أن يوجد الإنسان.

الحجة الخامسة: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].
ليس كالذي يحتاج إلى حرفة وإلى صنعة وإلى عمل وإلى مواد يجمعها. فإن أراد الصانع أن يصنع طاولة، فإنه يحتاج إلى خشب ومسامير ومنشار ومطرقة ودهان، وكذلك من يريد صنع الزجاج، فإنه يحتاج إلى مواده التي يصنع منها. أما الرب تعالى فلا حاجة به إلى مواد ولا إلى أعوان ولا إلى أجهزة، بل يأمر مجرد أمر، ويريد مجرد إرادة، إذا أراد فإنها يقول له: كن فيكون. فأمره بين الكاف والنون. فهذه أدلة واضحة على أن الله تعالى قادر على إعادة الإنسان كما كان، فإذا عرف الإنسان ذلك استعدّ لما بعد الموت.

والإيمان بالحساب والجزاء والحوض والميزان، كلّ ذلك داخل في الإيمان باليوم الآخر، وأن الشريعة الإسلامية قد فصلت ذلك في الكتاب والسنة، ما لم يكن مفصلاً في الشرائع قبلها، وأن الإيمان باليوم الآخر قد توافقت عليه الشرائع، شرائع الأنبياء المنزلة عليهم متفقة على أنّ هناك بعثاً بعد الموت، وجزاء على الأعمال، خيرها وشرّها، وكذلك هناك حساب عسير أو يسير كما أخبر الله، وهناك وقوف في الموقف الذي هو موقف الناس يوم يقوم الناس لرب العالمين، وتضمنت إثبات البعث الذي هو بعث الأجساد وإعادتها بعد أن كانت تراباً ورميماً، وأن ذلك يسير على الله تعالى. ووردت آيات كثيرة في القرآن في تقرير هذا

البعث. ومّرت بنا آيات توضّح ذلك. وأنّ الله تعالى يَحْتَجُّ على البعث بحجج عقلية معقولة مشاهدة، ويَحْتَجُّ عليه للمنكرين بإحياء الأرض بعد موتها. فيقول تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ﴾ [الروم: ١٩]. لما ذكر بأنه يحيي الأرض بعد موتها، أخبر بأنهم كذلك يخرجون من الأرض، ويقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بِيَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا بِقَالًا سُقِنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾، يعني: كانت أرضًا ميتة، فأحييناها فأحيينا به الأرض بعد موتها، ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾ [الأعراف: ٥٧]، يعني: كما تحيا هذه الأرض الميتة التي ليس فيها عود أخضر أو ورقة خضراء، ينزل عليها المطر فيغمرها فتصبح بعد ذلك تهتزُّ خضراء، فيها من أنواع النباتات المختلفة الطُعم والألوان والروائح والطبائع والأغراض. لا شك أنّ ذلك آية بينة على إخراج الموتى وإعادتهم، بعد أن يكونوا ترابًا.

ويحتج أيضًا ببدء الخلق، فيقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، أي: كما أنه بدأ خلق الإنسان وأحياه بعد أن كان عدمًا، وكذلك يعيده بعد أن يكون ترابًا، فالذي أخرج الإنسان بعد أن كان ماءً مهينًا، وبعد أن كان نطفةً قَدْرَةً، أخرج به بشرًا سويًا حيًّا عاقلًا متكلمًا له حركاته وله حواسه، فلا شك أنّه قادر على أن يعيده ولو تفرقت أشلائه، ولو أكلته الدود أو أكله التراب وانعدم، فلا يعجز الله أن يعيده كما كان، فهذا من حجة الله على خلقه، كذلك يحتج الله بمخلوقاته العلوية والسفلية التي هي أعظم من خلقه،

فيقول تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، ويقول تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]. ويقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ مِثْلَهُنَّ بَقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُخْزِيَ الْمُؤْمِنَ﴾ [الأحقاف: ٣٣]. ونحو ذلك من الأدلة.

ويخبر أنه سبحانه لا يحتاج في خلقه ولا في تصرفه إلى حركة ولا إلى عمل، ولا إلى معين ولا مساعد ولا شريك. وإنما يأمر أمراً لا يرد، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. فالذي تذلل له المخلوقات وتطيعه كلها، ولا تستعصي عليه، إنما إذا أمرها انقادت لأمره، لا يستعصي عليه أن يعيد خلق الإنسان كما كان، فهذه من الأدلة التي سمعنا إيضاها، ودلالاتها على إعادة الخلق.

والإنسان العاقل الذي يسمع هذه الأدلة يقنع أشد القناعة، ويصدق بذلك غاية التصديق، ويستسلم لذلك ولا يبقى في قلبه شك ولا ريب، ولكن لا يكفي بذلك، لا يكفي بأن يقول: أنا مؤمن وأنا مصدق وأنا موقن بذلك كله، وأنا لا أشك ولا أتردد، بل يطلب منه فوق ذلك العمل الذي يلقي به ربه في ذلك اليوم، فلا بد أن يعمل العمل الذي ينجو به في ذلك اليوم. فإذا علم أن ذلك يوم عسير، ويوم طويل، كألف سنة مما تعدون، وأنه لا يخف إلا على أهل الإيمان، وعلم أن فيه الحساب، وأن الحساب يكون عسيراً إلا على أهل الإيمان، وأهل

الأعمال الصالحة، فإنّ الله يحاسبهم حسابًا يسيرًا، وعلم أنّ فيه الوزن للأعمال، وأتمّها تخفّ وتثقل، وأنّ الذي تثقل موازينه هم أهل الأعمال الصالحة، وأنّ فيه الحساب على الأعمال، وأنّ الله سريع الحساب، وأنّ الله يحاسبهم على الأعمال في طرفة عين، ولا يشغله شأن عن شأن، وعلم أيضًا أنّ فيه تطاير الصحف، فأخذ كتابه بيمينه، وأخذ كتابه بشماله، وأخذ كتابه من وراء ظهره. لاشكّ أنه يستعدّ لمثل هذه الأشياء، فيعلم أنّها لا تحصل إلا بعمل، فيسأل عن العمل ويتقربّ بذلك العمل.

قال الشارح:

وَمَنْ هَذَا قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٣٦) أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَرْمٍ يُعْمَى ﴿٣٧﴾
 ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ الْكَوْثَ ﴿٤٠﴾
 [القيامة: ٣٦-٤٠]، فَاحْتَجَّ سُبْحَانَهُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَتْرُكُهُ مُهْمَلًا عَنِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ،
 وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَأَنَّ حِكْمَتَهُ وَقُدْرَتَهُ تَأْتِي ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِبَاءِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:
 ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [النور: ١١٥]، إِلَى آخِرِ
 السُّورَةِ. فَإِنَّ مَنْ نَقَلَهُ مِنَ النُّطْفَةِ إِلَى الْعَلَقَةِ، ثُمَّ إِلَى الْمَضْغَةِ، ثُمَّ شَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ،
 وَرَكَّبَ فِيهِ الْحَوَاسَّ وَالْقُوَى، وَالْعِظَامَ وَالْمَنَافِعَ، وَالْأَعْصَابَ وَالرِّبَاطَاتِ الَّتِي هِيَ
 أَشَدُّهُ، وَأَحْكَمَ خَلْقَهُ غَايَةَ الْإِحْكَامِ، وَأَخْرَجَهُ عَلَى هَذَا الشَّكْلِ وَالصُّورَةِ، الَّتِي هِيَ
 أَمُّ الصُّورِ وَأَحْسَنُ الْأَشْكَالِ، كَيْفَ يَعْجِزُ عَنِ إِعَادَتِهِ وَإِنْشَائِهِ مَرَّةً ثَانِيَةً؟ أَمْ كَيْفَ
 تَقْتَضِي حِكْمَتَهُ وَعِنَايَتَهُ أَنْ يَتْرُكَهُ سُدًى؟ فَلَا يَلِيْقُ ذَلِكَ بِحِكْمَتِهِ، وَلَا تَعْجِزُ عَنْهُ
 قُدْرَتُهُ.

فَانظُرْ إِلَى هَذَا الْإِحْتِجَاجِ الْعَجِيبِ، بِالْقَوْلِ الْوَجِيزِ، الَّذِي لَا يَكُونُ أَوْجَزَ مِنْهُ،
 وَالْبَيَانَ الْجَلِيلِ، الَّذِي لَا يُتَوَهَّمُ أَوْضَحُ مِنْهُ، وَمَأْخِذِهِ الْقَرِيبِ، الَّذِي لَا تَقَعُ الظُّنُونُ
 عَلَى أَقْرَبَ مِنْهُ.

وَكَمَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ مِثْلِ هَذَا الْإِحْتِجَاجِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ إِنْ
 كَسَرَ فِي رَبِّهِ مِنَ الْبَشَرِ وَإِنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ [الحج: ٥]، إِلَى أَنْ قَالَ:
 ﴿وَأَلَمْ يَلْمِزْ يَوْمَ الْفَتْورِ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ

سَأَلْتَهُمْ هَلْ يَسْمَعُونَ ﴿١٢﴾ [المؤمنون: ١٢]، إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿تُرَىٰ كَيْفَ يَوْمَ يُفْعَلُونَ﴾ ﴿١٦﴾ [المؤمنون: ١٦]، وَذَكَرَ قِصَّةَ أَصْحَابِ الْكُهْفِ، وَكَيْفَ أَبْقَاهُمْ مَوْتَى ثَلَاثِينَ سَنَةً شَمْسِيَّةً، وَهِيَ ثَلَاثِينَ وَتَسْعُ سِنِينَ قَمَرِيَّةً، وَقَالَ فِيهَا: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْرَجْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٢١].

وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّ الْأَجْسَامَ مُرَكَّبَةٌ مِنَ الْجَوَاهِرِ الْمَفْرَدَةِ، لَهُمْ فِي الْمَعَادِ حَبْطٌ وَاضْطِرَابٌ. وَهُمْ فِيهِ عَلَى قَوْلَيْنِ: مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: تُعَدَّمُ الْجَوَاهِرُ ثُمَّ تُعَادُ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: تُفَرَّقُ الْأَجْزَاءُ ثُمَّ تُجْمَعُ. فَأُورِدَ عَلَيْهِمُ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَأْكُلُهُ حَيَوَانٌ، وَذَلِكَ الْحَيَوَانُ أَكَلَهُ إِنْسَانٌ، فَإِنْ أُعِيدَتْ تِلْكَ الْأَجْزَاءُ مِنْ هَذَا، لَمْ تُعَدَّ مِنْ هَذَا؟ وَأُورِدَ عَلَيْهِمْ: أَنَّ الْإِنْسَانَ يَتَحَلَّلُ دَائِمًا، فَإِذَا الَّذِي يُعَادُ؟ أَهوَ الَّذِي كَانَ وَقْتُ الْمَوْتِ؟ فَإِنْ قِيلَ بِذَلِكَ، لَزِمَ أَنْ يُعَادَ عَلَى صُورَةٍ ضَعِيفَةٍ، وَهُوَ خِلَافُ مَا جَاءَتْ بِهِ النُّصُوصُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَيْسَ بَعْضُ الْأَبْدَانِ بِأَوْلَى مِنْ بَعْضٍ! فَادَّعَى بَعْضُهُمْ أَنَّ فِي الْإِنْسَانِ أَجْزَاءً أَصْلِيَّةً لَا تَتَحَلَّلُ، وَلَا يَكُونُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ الْحَيَوَانِ الَّذِي أَكَلَهُ الثَّانِي! وَالْعُقَلَاءُ يَعْلَمُونَ أَنَّ بَدَنَ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ كُلَّهُ يَتَحَلَّلُ، لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ بَاقٍ، فَصَارَ مَا ذَكَرُوهُ فِي الْمَعَادِ مِمَّا قَوَّى شُبُهَةَ الْمُتَفَلِّسَةِ فِي إِنْكَارِ مَعَادِ الْأَبْدَانِ.

وَالْقَوْلُ الَّذِي عَلَيْهِ السَّلَفُ وَجْهُهُوَ الْعُقَلَاءُ: أَنَّ الْأَجْسَامَ تَتَقَلَّبُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، فَتَسْتَجِيلُ تَرَابًا، ثُمَّ يُنْشِئُهَا اللَّهُ نَشْأَةً أُخْرَى، كَمَا اسْتَحَالَ فِي النَّشْأَةِ الْأُولَى، فَإِنَّهُ كَانَ نُطْفَةً، ثُمَّ صَارَ حَلَقَةً، ثُمَّ صَارَ مُضْغَةً، ثُمَّ صَارَ عِظَامًا وَلَحْجًا، ثُمَّ أَنْشَأَهُ

خَلْقًا سَوِيًّا. كَذَلِكَ الْإِعَادَةُ: يُعِيدُهُ اللهُ بَعْدَ أَنْ يَبْلَى كَلَهُ إِلَّا عَجَبَ الذَّنْبِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إِلَّا عَجَبَ الذَّنْبِ، مِنْهُ خُلِقَ ابْنُ آدَمَ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ»^(١). وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «إِنَّ السَّمَاءَ تُمَطَّرُ مَطَرًا كَمَنِي الرَّجَالِ، يَنْبُتُونَ فِي الْقُبُورِ كَمَا يَنْبُتُ النَّبَاتُ»^(٢).

قال الشيخ:

الاحتجاج الأول لتكميل الأدلة، يقول تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، قيل: إن المراد أن يهمل في الدنيا فلا يؤمر ولا يُنهى، مع أنه قد أكملت عليه النعم، فيهمل دون أن يكلف أو أن يؤمر بعبادة يدين بها لمن خلقه، ولن تكفل برزقه؛ هذا لا يليق، فلا يليق بعاقل أن يعتقد أن الإنسان في هذه الحياة مهمل بمنزلة البهائم التي لا عقول لها، لا يليق بحكمة الحكيم أن يهمل الإنسان على هذا، ولا بد أن جنس الإنسان الذي من الله عليه بالعقل والإدراك أن يكون قد خلق لحكمة وهي طاعة من خلقه وعبادته والامتثال لما أمر، فلا يليق أن يكون مهملًا دون أن يكلف وأن يؤمر وينهى.

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٨)، ومسلم (٢٩٩٥) عن أبي هريرة ؓ.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٥١١/٧)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢٧٨٤/٨)، والطبراني في

الكبير (٩٧٦١)، موقوفًا على ابن مسعود ؓ، وصححه الحاكم (٥٩٨/٤ - ٦٠٠)، وانظر:

مجمع الزوائد (٣٢٩/١٠ - ٣٣٠).

والقول الثاني: أن المراد: أن يهمل فلا يبعث، وأن يترك سدىً، فإذا مات لا يُبعث ولا يُحاسب، بل يكون آخر عهده إذا مات وصار ترابًا، فلا يكون بعد موته جزاء ولا حساب، ولا ثواب ولا عقاب، فهل يعتقد العاقل مثل هذا؟ لا يليق بالخالق الرازق المتصرف المالك العالم بأحوال عباده، أن يتركه فلا يثيب من أطاع، ولا يعاقب من عصى، ولا يبعثهم ويجمعهم ليوم الحساب وجزاء الأعمال، بل لا بدّ وأن يحاسبهم وأن يثيب من يستحقّ وأن يعاقب من يستحقّ.

ثم إن مثل هذه الآية: قول الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [النور: ١١٥]، يعني: أنحسبون أنكم مهملون في الدنيا، وأنكم مخلوقون كالبهائم السائمة، لا تحاسب ولا تكلف، أحسبتم أنكم إلينا لا ترجعون رجوعًا حقيقيًا تحاسبون فيه على أعمالكم، هذا ظنّ خاطئ بعيد.

ومثل هذه الآية قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]. وأن الإنسان ما خلق هملاً وسدىً. احتج عليه بأول خلقه، ألم يك نطفةً. يعني ألم يكن خلق ابن آدم أوله نطفةً من ماء مهين، وجعله الله في قرار مكين وهو الرحم، ثم خلقه وطوره من حال إلى حال، من نطفة، ثم من علقة، وهي قطعة من الدم، ثم من مضغة، وهي قطعة اللحم الصغيرة بقدر ما يمضغها الماضغ، ثم خلق هذه المضغة عظامًا، ثم صورها على هذه العظام التي تكون في الإنسان؛ الرأس والعنق والمنكب واليدين بما فيهما من مفاصل والظهر والرجلان، ثم كسيت هذه العظام لحماً وجلدًا

وعروقاً ومفاصل وأعضاء، وشدها سبحانه وأحكمها، وخلق ما في جوف الإنسان من كبده ورثتيه وكلتيه وأمعائه وأعضائه الداخلة، وأحكم خلقه على هذا الخلق، أيجب بعد ذلك أن يتركه مهملاً، لا يؤمر ولا ينهى، أليس أوله نطفة من مني يمني، ثم كان علقة فخلق فسوى، فجعل منه الزوجين، هل يستطيع الإنسان أن يخلق نفسه؟ أو يخلق ولده؟ أو يتحكم في جنسه ذكر أو أنثى، بل الله هو الذي يخلقهم فيجعل هذا ذكراً وهذا أنثى، حتى تتم حكمته التي شاء أن يكون الإنسان مكوّناً من الزوجين الذكر والأنثى ﴿فَجَعَلْنَاهُ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [٣٩] أليس ذلك يقدر على أن يحيى الموتى ﴿[القيامة: ٣٩، ٤٠]﴾، بلى ونحن على ذلك من الشاهدين، نشهد بأنه قادر على أن يحيى الموتى بعد موتهم وتفرقهم، وهو على كل شيء قدير.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَحْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تَرَابٍ﴾، يعني: أباكم آدم. ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥]، يعني: تارة تكون مخلقة، وهي التي يتم خلقها، وتارة تكون غير مخلقة وهي التي يقذفها الرحم ولا يتم خلقها. ثم ذكر بعد ذلك حالة الإنسان وتطوره، ثم ذكر أن القادر على هذا قادر على أن يحيى الموتى. بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٦] ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٦، ٧].

كذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]،

خلق الله آدم من طين، وخلق زوجه منه، أما أولاده فقد ذكر الله خلقهم فقال:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارِ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّظْمَةَ عَاقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ

مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴿١٤﴾

[المؤمنون: ١٣، ١٤]، إلى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّظْمَةَ عَاقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ

﴿ الْمُضْغَةَ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّظْمَةَ عَاقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ

﴿ الْمُضْغَةَ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّظْمَةَ عَاقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ

والذي أوجد الإنسان على هذا لا يهمل خلقه، ولا يليق به أن يتركهم هملاً وسُدَى، لا يؤمرون ولا ينهون. وعلى هذا فالإنسان لا بدّ وأنه مكلف، ولا بدّ وأنه مأمورٌ ومنهيٌّ، وأن فرضاً عليه أن يفعل ما أمر به، وأن يجتنب ما نهى عنه، حتى يصدق عليه أنه ممتثل، وأنه مستحقّ للجزاء في الآخرة.

وقد مرّ معنا أنّ الفلاسفة والمتكلمين يقولون: إن الإنسان مكوّنٌ من الجواهر المفردة، وأنه تكوّن وتجمّع حتى صار على هذه الحالة، والجوهر عندهم هو أصغر شيء في الوجود يُدرّك بالبصر، فكأنهم يقولون إنّ الإنسان مجموعة من هذه الجواهر تجمّعت هذه على هذه على هذه حتى أصبح بهذه الصورة، كما في سارية المسجد المكوّنة من حبات التراب الصغيرة، قد تجمّعت حبة مع حبة مع حبة، إلى أن صارت سارية، كذلك السقف وكل الأشياء الموجودة مكوّنة من هذه الجواهر المفردة. وذلك أنا نشاهد أنّ الإنسان يولد وهو طفل صغير، غاية في الصغر، ثمّ ينمو ويكبر، فمن أين تأتيه هذه الجواهر، أليس ذلك إنّما نموّه ونباته وكبره،

بسبب ما يغدقه الله عليه وما يعطيه إياه، وما يتولد منه .

ومن ذلك أن نشاهد أن الشجرة تنبت من الأرض وهي ورقة صغيرة كالنخلة مثلاً، ثم بعد ذلك تصبح نخلة صغيرة، فمتى جاءت هذه الجواهر وتركبت منها حبات حبات، إلى أن صارت نخلة سووية؟ ومن أين جاءت الجواهر إلى جسم الإنسان ودخلت في أعضائه وكبرت منها أعضاؤه؟ فهذا قول يستنكره كل عاقل .

وأيضاً قالوا: إن الإنسان إذا تُوفي، فإن تلك الأجزاء تتفرق وتصير تراباً، ثم تعود تلك الحبات كما كانت . معلوم أن الإنسان الذي يطول عمره حتى يبلغ مئة سنة يضعف خلقه، ويموت وهو أضعف ما يكون، كما قال تعالى: ﴿لَتُرْفَجَعَلْ مِنْ بَعْدِ قُوْفِرِ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤]. فيموت وهو في غاية الضعف، فهل يليق أنه إذا أعيد بعد الموت أن يحيا في هذه الحالة من الضعف؟! هذا يخالف ما ذكر الله؛ فقد ذكر الله أنه يجيهم أقوى ما يكونون، ويعيد إليهم قوتهم، وأنهم يكمل خلقهم، فيعود هذا الإنسان أكمل ما كان، ويعاد إليه ما فقد من أجزاء، قال النبي ﷺ: «إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا»^(١). فهذا يبين ضعف مقالاتهم .

وضرب الشارح لذلك مثلاً: لو أن إنساناً أكلته سمكة، وأصبح في بطنها، ثم إن تلك السمكة اصطادها إنسان، فأكلها شيئاً فشيئاً وأصبحت غذاءً له . أين يكون الإنسان الأول؟ اضمحلّ في جوف تلك السمكة ولم يبق منه شيء، وأين تلك السمكة؟ فإن تلك السمكة - ولو كانت كبيرة - قد يأكلها الإنسان في سنة أو

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

أكثر، شيئاً فشيئاً، أو يأكلها عدة أناس، فأين ذلك الذي أكلته؟ لا شك أنه أصبح غذاء لها، ولكن الله تعالى قادر على أن يعيده حياً سوياً، ولو أكلته السمك أو السباع أو الطيور وما أشبه ذلك.

فهؤلاء الفلاسفة الإلهيون ونحوهم، يدعون أن الذي يعاد إنما هو الأرواح، وهناك كثير من المتكلمين يدعون أن الإنسان مركب من جواهر مفردة، وأن تلك الجواهر هي التي تعاد، وذلك كله قول باطل. فالإنسان قد أخبر الله أنه مركب من هذه الخلقة الظاهرة التي نقلها طوراً بعد طور من نطفة، ثم علقته، ثم مضغته، ثم عظام، ثم كسيت العظام لحماً. ولم يذكر أنه مكوّن من جواهر تواردت عليه في الرحم شيئاً فشيئاً إلى أن تكوّن منها هذا الإنسان.

فبطلت بذلك أقوالهم، وصحّ أن الله هو الذي يحيي الإنسان ويعيده كما كان عليه، وأنه يعيد خلق الإنسان كما يشاء، دون أن يقال: إنه مكوّن من جواهر مفردة أو غير مفردة، أو أعراض. وذلك لأنّ المتكلمين يقسمون الموجودات إلى جواهر وأعراض، ويقولون: كل ما تركّب من الجواهر المفردة هو ما يدركه البصر وما تدركه الحواس. وأما الأعراض: فهي التي ليس لها جرم، وإنما هي صفات أو أعراض كالبياض والسواد، والظلمة والنور، والألوان كالحمرة والخضرة، وما أشبه ذلك. وكذلك الأعراض من الأعمال كالأقوال والأفعال هذه أيضاً يسمونها أعراضاً، وهذا مما توّغلوا فيه، ولا حاجة لأهل السنّة إلى مناقشتهم في ذلك، بل يقولون: إن هذه المخلوقات خلق الله عرضها وجوهرها، وهو الذي يجسّد هذا ويجمع هذا متى شاء وكيف شاء.

قال الشارح:

فَالنَّشَاتَانِ نَوْعَانِ تَحْتَ جِنْسٍ، يَتَّفِقَانِ وَيَتَمَثَّلَانِ مِنْ وَجْهِ، وَيَفْتَرِقَانِ وَيَتَنَوَّعَانِ مِنْ وَجْهِ، وَالْمَعَادُ هُوَ الْأَوَّلُ بِعَيْنِهِ، وَإِنْ كَانَ بَيْنَ لَوَازِمِ الإِعَادَةِ وَلَوَازِمِ البِدَاءِ فَرَقٌ، فَعَجَبُ الذَّنْبِ هُوَ الَّذِي يَبْقَى، وَأَمَّا سَائِرُهُ فَيَسْتَحِيلُ، فَيُعَادُ مِنَ المَادَّةِ الَّتِي اسْتَحَالَ إِلَيْهَا. وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ رَأَى شَخْصًا وَهُوَ صَغِيرٌ، ثُمَّ رَأَاهُ وَقَدْ صَارَ شَيْخًا، عَلِمَ أَنَّ هَذَا هُوَ ذَاكَ، مَعَ أَنَّهُ دَائِمًا فِي تَحَلُّلٍ وَاسْتِحَالَةٍ. وَكَذَلِكَ سَائِرُ الحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ، فَمَنْ رَأَى شَجَرَةً وَهِيَ صَغِيرَةٌ، ثُمَّ رَأَاهَا كَبِيرَةً، قَالَ: هَذِهِ تِلْكَ. وَلَيْسَتْ صِفَةٌ تِلْكَ النِّشَاءُ الثَّانِيَّةُ مُكَافِئَةٌ لِصِفَةِ هَذِهِ النِّشَاءِ، حَتَّى يُقَالَ: إِنَّ الصِّفَاتِ هِيَ المَغْيِرَةُ، لِأَسِيْمَا أَهْلِ الجَنَّةِ إِذَا دَخَلُوهَا فَإِنَّهُمْ يَدْخُلُونَهَا عَلَى صُورَةِ آدَمَ، طُولُهُ سِتُونَ ذِرَاعًا، كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»^(١) وَغَيْرِهِمَا، وَرُوي: أَنَّ عَرَضَهُ سَبْعَةُ أَذْرُعٍ. وَتِلْكَ نَشَاءٌ بَاقِيَةٌ غَيْرُ مُعَرَّضَةٌ لِلْآفَاتِ، وَهَذِهِ النِّشَاءُ فَانِيَةٌ مُعَرَّضَةٌ لِلْآفَاتِ.

وقوله: (وَجَزَاءِ الأَعْمَالِ)، قَالَ تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، ﴿يَوْمَ يُؤْتِيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهُ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ﴾ [النور: ٢٥]، وَالدِّينُ: الجَزَاءُ، يُقَالُ: كَمَا تَدِينُ تُدَانُ، أَي كَمَا يُجَازِي مُجَازَى، وَقَالَ تعالى: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، ﴿جَزَاءُ وَفَاقًا﴾ [النبا: ٢٦]، ﴿مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا بِمِثْلِهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ﴿مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ

(١) أخرجه البخاري (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَبَّتْ وَجْهُهُمُ فِي النَّارِ هَلْ
 تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ [النمل: ٨٩، ٩٠]، ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ
 بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٨٤]، وَأَمْثَالُ
 ذَلِكَ.

وَقَالَ ﷺ، فِيمَا يَرُوي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرِّ الْعَقَّارِيِّ ﷺ: «يَا
 عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصَيْهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْفَيْكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ
 اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»^(١).
 وَسَيَأْتِي لِذَلِكَ زِيَادَةٌ بَيَانٍ عَنْ قَرِيبٍ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قال الشيخ:

ما سبق يتعلّق ببقية الردّ على الفلاسفة والمتكلّمين الذين يزعمون أنّ الإعادة
 هي الإعادة لتلك الجواهر المفردة، ويزعمون أنّ الإنسان مرّكب من تلك
 الجواهر.

فيقول الشارح: إنّنا نرى أنّ الإنسان يتغيّر من حال إلى حال، فيتغيّر من
 مرضٍ إلى صحّة، ومن صحّة إلى مرض، ويتغيّر من صغر إلى كبر. والتغيّر
 الظاهر: بأن يشاهد أنّه رضيع طفل، ثم بعد ذلك يكون شابًا، ثم يكون كهلاً، ثم
 يكون شيخًا كبيرًا، ثم يكون هرمًا. تقلّبه من هذه الحال إلى هذه الحال؛ هل يكون

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

قد تغير، واكتسب روحًا غير روحه الأولى، أو اكتسب اسمًا غير اسمه الأول؟ لم يتغير، فإذا رُؤي، قيل: هو هذا الطفل، الذي رأته قبل خمسين سنة وهو رضيع، قد أصبح كهلاً كبيراً، ما تغير منه شيء إلا أنه نما جسمه وكبر وترعرع.

وكذلك مثل الشارح بالشجر؛ من غرس شجرة وهي عود، ثم جاءها بعد ستين، وقد أصبحت شجرة كبيرة ذات عروق وساق وأغصان وأوراق وثمر، فيقول: هذه هي تلك الشجرة التي غرسها فلان قبل كذا وكذا، وهي عود دقيق. فعلى هذا يقال: كيف تركبت من جواهر؟ ومن أين جاءت هذه الجواهر حتى اتصلت بها، مع أننا نشاهدها فقط تنمو وتكبر بواسطة غذائها الذي تتغذى به، وهو ماؤها الذي تشربه.

كذلك الحيوانات كلها، فيشاهد مثلاً أن السخلة تولد وهي صغيرة، ثم بعد ذلك تنمو بسبب الغذاء الذي تتغذى به، وكذلك بقية الأنعام، كلها تنمو بسبب الغذاء الذي تتغذاه دون أن تأتي جواهر لتلتصق بها، وتزيدها كبراً. فهذا دليل على بطلان قول هؤلاء.

وعلى الرغم من هذا فإن كلامهم قد انتشر وتمكن من كثير من العقلاء، وصاروا يغالون في كتب الفلاسفة، ويرجعون إليها مع ما فيها من هذا التهافت والتناقض. وبذلك يعلم أن هؤلاء الفلاسفة الإلهيين الذين يُمدحون ويُثنى عليهم ويُعظم شأنهم، ويتعجب من أفكارهم، ومن ابتكاراتهم، أنهم ليسوا على شيء، وأن كلامهم متهافت، لا أصل له.

أما الكلام على جزاء الأعمال، فقد مر بنا أن الله سبحانه يُجازي عباده على

أعمالهم، فكثيراً ما يقول تعالى: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢]، ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]. فيذكر الله تعالى أن الثواب الذي يحصل لعباده وأوليائه في الجنة هو جزاء على أعمالهم. وكذلك في الأحاديث.

ففي القرآن يقول تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، ويقول تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَنْتَنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. يحاسبهم على حبة الخردل، يعني: على مثقال هذه الحبة.

وكذلك يذكر الله تعالى أنه يجازيهم في أعمالهم في هذا الحديث القدسي: «إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ بِهَا»^(١)، أي: جزاءها. مع أنه سبحانه قد أخبر بأنه يضاعف الحسنات أضعافاً كثيرة، ويقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]. أخبر أنه لا يظلم عباده، ولا يكتب عليهم مالم يفعلوا، ولا يجازيهم على السيئة بأكثر منها وإنما بمثلها. وأما الحسنة فإنه يضاعفها أضعافاً كثيرة، كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَلٍهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]. وقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ

(١) تقدم تخريجه قريباً.

كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَّ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً^(١).

والحاصل: أن القرآن مشتمل على أن الإنسان يُجازى على عمله، وأن أعماله التي يعمل في الدنيا يلاقي جزاءها، ولا يضيع منها شيء، فهو: **أولاً**: قد كُتِبَ عليه قبل أن يُخلَقَ أنه يفعل كذا وكذا. وثانياً: تكتبها الملائكة في صحفهم ﴿مَا يَلْفُظُونَ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. وثالثاً: يثبت الله مما في صحف الملائكة ما فيه حساب وعلية ثواب أو عقاب، ويمحو غير ذلك؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩].

والإنسان إذا علم أنه مجازى على عمله، اهتم بهذا العمل، فيحمله على أن يخلص فيه حتى يثاب عليه، فإنه إن لم يكن خالصاً بطل ثوابه، ثم يحرص على أن يستكثر من الأعمال الصالحة حتى يتضاعف له أجرها ويكثر، فإنه كلما كثرت الحسنات كثر الثواب عليها. فهذا هو جزاء الأعمال حيث أخبر الله بأن الإنسان يجازى على أعماله في الآخرة.

وقد عرفنا أن من أركان الإيمان بالإيمان باليوم الآخر، وهو يوم القيامة، وهو الركن الخامس من أركان الإيمان، وسُمِّيَ باليوم الآخر؛ لأنه ليس بعده يوم،

(١) تقدم تخرجه (٣/ ٣١٥).

والدار الآخرة هي يوم القيامة. اليوم الأول هو الدنيا وتعدّ كأنها يوم. ثمّ اليوم الآخر هو الذي يكون بعد البعث. فعندنا يومان: الدنيا يوم، والآخرة يوم. الدنيا سمّيت بذلك؛ لأنها دنيّة، أو لأنها دانية، وهي اليوم الأول. والآخرة سمّيت بذلك؛ لأنها متأخرة عن هذه الدنيا، أو لأنها آخر ما يمرّ به الإنسان، وليس بعدها يوم، بل هي مستمرة دائمة وأبداً. وأوّل ما يكون في اليوم الآخر هو البعث، الذي هو: إعادة الناس وإحياءهم بعد تفرّق أشلائهم، وبعد صيرورتهم تراباً ورفاتاً، فإعادتهم هو أوّل ما يكون في هذا اليوم، ثم بعده الحشر، الذي هو سوقهم إلى الموقف. وقد أخبر الله تعالى بأنهم يحشرون على هذه الأرض، وأنهم يحشرون زرقاً ﴿يَوْمَ يُفْعَفُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾ [طه: ١٠٢، ١٠٣]، يقول بعضهم لبعض: ما لبثتم في الدنيا إلا عشرة أيام، ويقول أمثلهم طريقة: ما لبثتم إلا يوماً واحداً. فالحشر هو سوقهم إلى الموقف.

والموقف هو موضع خصصه الله على الأرض، وقد أخبر الله بأنّ الأرض تبدل: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وأخبر بأنّها تمدّ مداً: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَدْنَتْ لِرَبِّهَا وَخَفَّتْ ﴿٥﴾﴾ [الانشقاق: ٣ - ٥]، وذكر بأنّه يزال ما فيها، أي تمدّ كما يمدّ الأديم، كذلك يزال ما عليها من بنيان وجبال، ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، وتفتت. تصير أولاً كالرمل، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَّهِيلًا﴾ [الزلزل: ١٤]؛ يعني: رملاً ينهال. ثم بعد ذلك تكون كالهباء الذي يسير: ﴿وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرًّا﴾ [الشمس: ١٤]، أي كأنها تمرّ كأنها تمرّ.

السَّحَابِ ﴿ [النمل: ٨٨]، أي: كأنها السحاب الذي هو هباء وغييم. وبعد ذلك يزال ما عليها، فيقول تعالى: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧]، مستوية ليس فيها منخفض ولا مرتفع، تزال الجبال والأبنية والمرتفعات والكتب ونحو ذلك ويقوم الناس عليها أولهم وآخرهم، يجمعهم الله تعالى كلهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]. فأخبر بأن أوليهم وآخرهم كلهم مجتمعون في ذلك اليوم الذي هو يوم الجمع.

والعرض يكون على الله تعالى، ولكن ذلك بعد أن تطول المدة في ذلك الموقف، وبعد أن يلحقهم التعب والعناء، ويستشفعون بالأنبياء ونحوهم، ويشفع محمد ﷺ لينزل الله تعالى لفصل القضاء، وبعد ذلك العرض الذي هو عرض الناس، يقول تعالى: ﴿وَعَرَّضُوا عَلَيَّ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف: ٤٨]، أي: صفوفًا، صفًا بعد صف ليحاسبهم.

وأخبر تعالى بأنه يحاسبهم، وكذلك أخبر النبي ﷺ أن الناس يحاسبهم الله ويناقشهم ويذكرهم بما عملوا، فيقول ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ»^(١)، وقد أخبر الله تعالى بأنه سريع الحساب، لا يشغله شأن عن شأن.

(١) أخرجه البخاري (٣٥٩٥)، ومسلم (١٠١٦) من حديث عدي بن حاتم ؓ.

وكذلك من الأحوال التي تكون يوم القيامة نصب الميزان، وتطير الصحف، فإنّ الناس يأتيهم الهول عندما تنصب الموازين، حتّى يعلم من يخفّ ميزانه ومن يثقل. وعندما تطير الصحف حتّى يعلم من يأخذ كتابه يمينه، ومن يأخذ كتابه بشماله. فإذا ثقلت موازينه نودي: سعد فلان سعادةً لا يشقى بعدها أبدًا. وإذا أوتي كتابه يمينه: عندئذ يفوز فوزًا عظيمًا، ويقرأ كتابه، ويعرضه على من يعرفه، ويقول: ﴿هَاؤُمِ اقْرَءْ وَأَكْتَبِ﴾ [الحاقة: ١٩].

ونعرف أنّ ذلك كلّ مفصّل في القرآن بعبارات لا يعترها الشكّ والريب. ولكنّ الفلاسفة الذين ينكرون هذه الأشياء حقيقة يتسلطون على تأويلها سرفها عن ظاهرها، حتّى تسلّم لهم عقيدتهم، كما تسلط إخوانهم من المعتزلة على نصوص الصفات فتأولوها، وفتحوا للناس باب التأويل.

وبكل حال؛ فهذه الأمور التي وردت في القرآن، لا يتمّ إيمان العبد إلا بالإيمان بها وتحققها وتيقنّها ومعرفة أنّها صحيحة ثابتة، ولا يعلم ذلك إلا بالاستعداد لها والتأهب؛ لأنّ من آمن باليوم الآخر استعدّ لذلك اليوم، وقدم العمل الصالح الذي يكون سببًا في نجاته وفوزه. وأما من يصدّق به بلسانه؛ ولا يستعدّ له فإنّ هذا يقول ما لا يفعل، ولا ينفعه قوله بلسانه ما دام أنّه لا يطبّق ما يقوله. كما يقول بعضهم في مثل هؤلاء المقرّطين: ألسنة تصف، وقلوبٌ تعرف، وأعمال تخالف.

قال الطحاوي:

وَالْعَرْضُ وَالْحِسَابُ، وَقِرَاءَةُ الْكِتَابِ، وَالثَّوَابُ وَالْعِقَابُ.

قال الشارح:

قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فِيهَا يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةً ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٥-١٨] إلى آخر السورة.

﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْجِدٌ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَنُفِثَ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْعَقُ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ [الانشقاق: ٦-١٥].

﴿وَعَرْضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَمًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتَنَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿٤٨﴾﴾ [الكهف: ٤٨].

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَحْدُثُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَيْنَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: ٤٨]، إلى آخر السورة.

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ ﴿١٥﴾﴾ [غافر: ١٥]، الآية، إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعٌ

الْحِسَابِ ﴿ غافر: ١٧.]

﴿ وَأَتَقُوا أَيَّامًا تُرْجَعُونَ فِيهَا إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

[البقرة: ١٨١].

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «صَحِيحِهِ»^(١)، عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا هَلَكَ». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ، بِيَمِينِهِ ﴾ ٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿ [الانشقاق: ٧، ٨]. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرَضُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُنَاقَشُ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا عُدَّ ب». يَعْنِي: أَنَّهُ لَوْ نَاقَشَ فِي حِسَابِهِ لِعَبِيدِهِ، لَعُدَّ بِهِمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى يَعْفُو وَيَصْفَحُ، وَسَيَأْتِي لِدَلِيلِكَ زِيَادَةٌ بَيَانٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قال الشيخ:

عرفنا من إيراد الآيات السابقة أن القرآن مشتمل بإيضاح على ذكر الدار الآخرة وما يكون فيها، وأن أول ما يكون هو النفخ في الصور، وقد ذكر في القرآن في عدة مواضع، فذكر الله تعالى نفختين أو ثلاث نفخات: نفخة سماها نفخة الفزع حيث ذكر بعدها الفزع في سورة النمل: ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فُزْعٌ ﴾ [النمل: ٨٧].

(١) برقم (١٠٤).

وسميت في سورة الزمر بنفخة الصعق: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

يقول بعض العلماء: إنها نفختان؛ نفخة فزع ونفخة صعق. وقال بعضهم: بل نفخة واحدة، يفزعون في أولها، ثم يصعقون في آخرها. وقال بعضهم: إنَّ الفزع صعق، أي موت، أوله فزع ثم موت.

أما النفخة الثانية فهي نفخة البعث. كما في قوله: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]. وهي النفخة التي يبعثون بعدها. وقد ورد في الحديث: «بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ»^(١)؛ توقف الراوي لا يدري: أربعون يوماً، أو أربعون شهراً، أو أربعون سنة. وجزم بعضهم بأنها أربعون سنة، أي ما بين نفخة الصعق، ونفخة القيام لرب العالمين.

بعد ذلك السَّوق: فتسوقهم الملائكة إلى الموقف، ويسمى أيضاً الحشر في قوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]. وبعد ذلك العرض، في قوله: ﴿وَعَرَّضُوهُمْ عَلَىٰ رَيْكٍ صَفًّا﴾ [الكهف: ٤٨]، أي: صفوفاً. وبعده القيام الطويل، ثم ما يكون بعده.

إذا تأملنا النصوص وجدنا ما يؤيد هذه الأشياء في آيات متتابعة متكررة؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣]، هي نفخة البعث أو

(١) تقدم تخريجه (٤/١٣٨).

نفخة الصعق. ﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّنَا ذَكَّةً وَجِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤]، أي: جعلت الأرض والجبال شيئاً واحداً، حتى تكون مستوية صالحة لأن يوقف عليها، ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٥]، أي: حصلت الواقعة التي هي يوم القيامة. الله تعالى سمى يوم القيامة بهذه الأسماء: الواقعة، الحاقة، القارعة، وسمّاه بيوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿لَا أُقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ١]، وسمّاه بالطامة والصاخة: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى﴾ [النازعات: ٣٤]، ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَةُ﴾ [عبس: ٣٣].

هذه أسماء لهذا اليوم، الذي هو يوم القيامة، وكل اسم له معنى؛ فمعنى كونها الطامة: أمّا تطمّ ما قبلها وتنسي ما قبلها، والطمّ في الأصل: التغطية، وطمّ البئر: إذا غطاها. أو أمّا طامة مذهلة، أو عامّة لكلّ الخلق. وأما تسميتها بالصاخة: فإنه لثقلها على الناس، والصخّ: هو الضرب بقوة، أو الثقل، ونحو ذلك.

وكلّ هذه الآيات تخوف بها اشتملت عليه؛ وذلك أنّ هذا اليوم الذي هو يوم القيامة، الذي ذكر بقوله: ﴿وَأَنْقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، ﴿وَأَنْقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨]. هذا اليوم هو يوم الجزاء، وهو اليوم الذي يوقف فيه الناس ويقومون ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦].

والآيات التي ذكرت فيه ووضّحت معناه متقاربة المعنى، ولو اختلفت الأسماء والألفاظ، فإنّ المعاني متقاربة؛ لأنّ الله تعالى يذكره في كلّ موقع بما يناسبه.

والقصد من تكرار ذكر يوم القيامة تحقّقه حتى لا يقال إنّه خيال، أو أنّه تقريبيّ وما أشبه ذلك، وحتى لا تتسلّط عليه التأويلات التي يسلكها النّفاة من الفلاسفة ونحوهم، فإنّهم يعجزون أن يصرفوا الآيات عن معناها إذا جُمِعَتْ.

ولذلك آمن أهل السنّة وآمن المسلمون بالبعث بعد الموت. وقالوا: ليس في العقول ما ينكره، والقدرة الإلهية عامّة له ولغيره، والعقل يقتضيه لأجل الجزاء على الأعمال، ولأجل الانتقام من الظالم، وأخذ الحق للمظلوم، ولأجل ثواب المطيع، وعقوبة العاصي. وذلك لأنّنا نشاهد في الدنيا أنّ هناك ظلمة يموتون وهم مصرّون على الظلم، معهم أموالٌ اغتصبوها، ومنهم من قتل، ومنهم من انتهب مالا سرقةً أو اختلاساً أو غضباً. ومنهم من انتهك عرضاً، ومع ذلك لا يؤخذ الحقّ منهم، ويموتون ويبقى الحقّ عندهم، والله تعالى أعدل من أن يذهب صاحب المظلمة دون أن يتقمّ منه؛ فلا بدّ أن يكون هناك يوم آخر ينصف فيه الله المظلوم، ويتقمم من الظالم بما يستحقّه، فيكون ذلك هو اليوم الآخر الذي هو يوم القيامة.

كذلك نشاهد من يجدّ في الأعمال الصالحة، ويتقرّب بالحسنات، فلا يأتيه جزاء في الدنيا إلا ما يجده من لذة الطاعة ونحوه، فلا بدّ أنّ الله لا يضيع عمله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]. فلا يضيع أجره، مادام أنّه لم يتمتّع بشيء من أجره في الدنيا، فأجره يوقى إليه في الدار الآخرة. ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّادِقُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

كما أننا نشاهد الكفرة والفجرة الذين تمتعوا من الدنيا بملذات، وهم يظهر الكفر والفسوق والسخرية بالرسول ويكذبونهم، ويسخرون من الحق، ويفعلون المعاصي، ويتركون الطاعات، ومع ذلك يموت أحدهم وهو على إصراره لم ينله عقوبة في الدنيا، فلا بد أن يكون هناك دار أخرى يعاملهم الله فيها بما يستحقونه، أو يعاملهم فيها بعدله، إذا لم يعف عن المحسن منهم. فهذه الأمور العقلية تدعو المؤمن أن يؤمن بالبعث بعد الموت، وأن يتحقق وقوعه.

قال الشارح:

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ النَّاسَ يُصَعَّقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مَوْسَى أَخَذَ بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ جُوزِي بِصَعْقَةِ يَوْمِ الطُّورِ؟»^(١) وَهَذَا صَعَقٌ فِي مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ، إِذَا جَاءَ اللَّهُ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ، وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِهِ، فَحَيْثُ يَضَعُ الْخَلَائِقُ كُفُّهُمْ.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ تَصْنَعُونَ بِقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ النَّاسَ يُصَعَّقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ تَنَشَّقُ عَنْهُ الْأَرْضُ، فَأَجِدُ مَوْسَى بَاطِئًا بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ»^(٢).

قِيلَ: لَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا اللَّفْظَ قَدْ وَرَدَ هَكَذَا، وَمِنْهُ نَشَأَ الْإِشْكَالُ. وَلَكِنَّهُ دَخَلَ فِيهِ عَلَى الرَّوَايِ حَدِيثٌ فِي حَدِيثٍ، فَكَتَبَ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ، فَجَاءَ هَذَانِ الْحَدِيثَانِ هَكَذَا: أَحَدُهُمَا: «أَنَّ النَّاسَ يُصَعَّقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ»، كَمَا تَقَدَّمَ، وَالثَّانِي: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنَشَّقُ عَنْهُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، فَدَخَلَ عَلَى الرَّوَايِ هَذَا الْحَدِيثُ فِي الْآخَرِ. وَمَعْنَى نَبَّهَ عَلَى هَذَا أَبُو الْحَجَّاجِ الْمُرِّي، وَبَعْدَهُ الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ ابْنُ الْقَيْمِ، وَشَيْخُنَا الشَّيْخُ عِمَادُ الدِّينِ ابْنُ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

وَكَذَلِكَ اشْتَبَهَ عَلَى بَعْضِ الرَّوَاةِ، فَقَالَ: «فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ كَانَ مِنِّي اسْتَنْتَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ؟» وَالْمَحْفُوظُ الَّذِي تَوَاطَأَتْ عَلَيْهِ الرَّوَايَاتُ الصَّحِيحَةُ هُوَ الْأَوَّلُ، وَعَلَيْهِ الْمَعْنَى الصَّحِيحُ، فَإِنَّ الصَّعَقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَتَجَلَّى اللَّهُ لِعِبَادِهِ إِذَا جَاءَ

(١) تقدم تخريجه (١/٦٢٣).

(٢) تقدم تخريجه (١/٦٢٣).

لِفَضْلِ الْقَضَاءِ، فَمُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِنْ كَانَ لَمْ يُصَعَّقْ مَعَهُمْ، فَيَكُونُ قَدْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ يَوْمِ تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ فَجَعَلَهُ دَكًّا، فَجُعِلَتْ صَعْقَةُ هَذَا التَّجَلِّيِّ عِوَضًا عَنْ صَعْقَةِ الْخَلَائِقِ لِتَجَلِّيِّ رَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. فَتَأَمَّلْ هَذَا الْمَعْنَى الْعَظِيمَ وَلَا تُنْهَمِلْهُ.

وروى الإمام أحمد^(١)، والترمذي^(٢)، وأبو بكر بن أبي الدنيا، عن الحسن، قال: سَمِعْتُ أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُعْرَضُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ، فَعَرَضَتَانِ جِدَالٌ وَمَعَاذِيرٌ، وَعَرَضَةٌ تَطَايُرِ الصُّحُفِ، فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وَحُوسِبَ حَسَابًا يَسِيرًا، دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ، دَخَلَ النَّارَ».

وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنْ ابْنِ الْمُبَارَكِ: أَنَّهُ أَتَشَدَّ فِي ذَلِكَ شِعْرًا^(٣):

وَطَارَتِ الصُّحُفُ فِي الْأَيْدِي مُنْشَرَّةً	فِيهَا السَّرَائِرُ وَالْأَخْبَارُ تُطَلَّعُ
فَكَيْفَ سَهُوكَ وَالْأَنْبَاءُ وَأَقِيعَةٌ	عَمَّا قَلِيلٍ وَلَا تَدْرِي بِمَا تَقَعُ
أَفِي الْجِنَانِ وَفَوْزٍ لَا انْقِطَاعَ لَهُ	أَمْ الْجَحِيمِ فَلَا تُبْقِي وَلَا تَدْعُ
تَهْوِي بِسَاكِنَيْهَا طَوْرًا وَتَسْرِفُهُمْ	إِذَا رَجَوْا مَحْرَجًا مِنْ غَمَّهَا قُمِعُوا

(١) في المسند (٤/٤١٤).

(٢) برقم (٢٤٢٥)، ولكنه من طريق الحسن عن أبي هريرة ؓ، وقال عقبه: «ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة، وقد رواه بعضهم عن علي الرقاعي عن الحسن عن أبي موسى عن النبي ﷺ، ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي موسى».

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/٩٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢/٤٧٣).

طَالَ الْبُكَاءُ فَلَمْ يُزَحِّمْ تَضَرُّعُهُمْ فِيهَا وَلَا رِقِيَّةَ تُغْنِي وَلَا جَزَعُ
لِيَنْفَعِ الْعِلْمُ قَبْلَ الْمَوْتِ عَالِمِهِ قَدْ سَأَلَ قَوْمٌ بِهَا الرَّجْعَى فَمَا رَجَعُوا

قال الشيخ:

تحقيق لما مر بنا من أمر الحشر والبعث بعد الموت، أخبر النبي ﷺ بأنه أول من تنشق عنه الأرض. فدل على أنهم يجمع خلقهم ويكمل وهم في جوف الأرض، إما في نفس القبور، وإما في بطن الأرض، ثم بعد ذلك تنشق الأرض عنهم، فتخرج الأرواح والأجساد على وجه الأرض، يقومون من قبورهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]؛ الأجداث: القبور. ﴿قَالُوا يَا بُولَلَاءَ أَلْمَسْنَا مِنْ رَبِّنَا مِمَّنْ مَرَقَدْنَا﴾، كأنهم شعروا بأنهم قبل بعثهم كانوا نيامًا، قد رقدوا فيقال: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢].

الأنبياء لهم مزية، ونبينا ﷺ أفضلهم، فهو أول من تنشق عنه الأرض، ثم بعد ذلك بقية الأنبياء، ولو كانت أرواحهم قد رُفعت في الملاء الأعلى، وأما أجسادهم فبقيت في الأرض، وبعد ذلك يعثهم الله؛ لأنه أخبر أن الأرض هي مرد كل إنسان في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَانَهُ، فَأَقْبَرَهُ﴾ [عبس: ٢١]، وفي قوله: ﴿وَمِنَّا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنَّا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]. يعث الأنبياء وغيرهم، وبعدهما يجتمعون في ذلك المجمع، وفي ذلك المكان الذي يجتمع فيه أولهم وآخرهم،

لا يحصي عددهم إلا الله تعالى. ويطول فيه وقوفهم، أخبر في هذا الحديث بأنهم يصعقون؛ وهذه صعقة جديدة. إِمَّا أَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ صَوْتًا مَزْعَجًا عِنْدَمَا تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ لِتَنْزِلِ الْمَلَائِكَةِ، وَيَكُونُ مِنْ أَسْرِ تَشَقُّقِهَا أَصْوَاتٌ مَزْعَجَةٌ، يَصْعَقُ النَّاسُ فِيهَا يَعْنِي: يَغْشَوْنَ. وَقَدْ تَطَوَّلَ هَذِهِ الْغَشْوَةُ، يَكُونُ نَبِيَّنَا ﷺ أَوَّلَ مَنْ يَفِيْقُ، وَلَكِنْ يَجِدُ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَيْضًا قَدْ أَفَاقَ قَبْلَهُ، وَيَكُونُ فِي ذَلِكَ مَزِيَّةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ جُوزِي بِصَعْقَةِ الطُّورِ»^(١)؛ وصعقة الطور: هي المذكورة في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ لُدِّيَّ رَبُّهُ، إِلَى الْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَوْعًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَهِكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. فهذا صعق في الدنيا، يعني: كأنه جوزي بهذا الصعق.

وبكل حال: فَإِنَّ هَذَا الصَّعْقَ يَكُونُ فِي الْمَوْقِفِ، وَفِي الْمَوْقِفِ أَيْضًا أَسْوَالٌ عَظِيمَةٌ مِنْهَا: الْعَرَضُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَمِنْهَا نَصَبُ الْمَوَازِينِ، وَمِنْهَا تَطَايُرُ الصَّحْفِ، وَمِنْهَا نَشْرُ كُتُبِ الْأَعْمَالِ الَّتِي هِيَ دَوَاوِينُ الْأَعْمَالِ، كُلٌّ يَنْشُرُ لَهُ دِيْوَانَ فِيهِ أَعْمَالُهُ، وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ (١٣) أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإمراء: ١٣، ١٤]. وَيَقْرَأُهُ مِنْ يَقْرَأُ وَمَنْ لَا يَقْرَأُ. فَيَقُولُونَ كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ اللَّهُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ

(١) تقدم تخريجه (١/٦٢٣).

وَيَقُولُونَ يَتَوَلَّنَا مَا لِ هَذَا الْكُتُبِ لَا يَفَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَنَاهَا وَوَجَدُوا مَا
عَمِلُوا حَاضِرًا ﴿٤٩﴾ [الكهف: ٤٩].

فهذه بلا شك حقائق يقينية دل عليها القرآن، ودل على أنه يُحضر للإنسان كل شيء عمله من خير أو شر، فيسره أن يجد الحسنات مضاعفة موفرة، وأما إذا وجد السيئات، فيستاء لذلك ويحزن. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، فتجد النفس ما عملت من خير محضراً، وما عملت من سوء تودّ لو أنه يبعد عنها؛ لأن السيئات تسوء صاحبها، ويخاف من الجزاء عليها. وهذه كلها حقائق يجب الإيمان بها، والاستعداد والتأهب لها، ولما بعدها.

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (وَالصَّرَاطُ)؛ أَي: وَنُؤْمِنُ بِالصَّرَاطِ، وَهُوَ جِسْرٌ عَلَى جَهَنَّمَ، إِذَا
 أَنْتَهَى النَّاسُ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِمْ مَكَانَ الْمَوْقِفِ إِلَى الظُّلْمَةِ الَّتِي دُونَ الصَّرَاطِ، كَمَا
 قَالَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ: أَيْنَ النَّاسُ يَوْمَ تَبَدَّلُ
 الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ؟ فَقَالَ: «هُمُ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ»^(١). وَفِي
 هَذَا الْمَوْضِعِ يَفْرَقُ الْمُنَافِقُونَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَتَخَلَّفُونَ عَنْهُمْ، وَيَسْبِقُهُمُ
 الْمُؤْمِنُونَ، وَيَجَالُ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْوُصُولِ إِلَيْهِمْ.

وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ^(٢) بِسَنَدِهِ عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: «يَجْمَعُ اللَّهُ
 النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، إِلَى أَنْ قَالَ: «فَيُعْطُونَ نُورَهُمْ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، قَالَ: فَمِنْهُمْ
 مَنْ يُعْطَى نُورَهُ مِثْلَ الْجَبَلِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ مِثْلَ النَّخْلَةِ بِيَمِينِهِ،
 وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى دُونَ ذَلِكَ بِيَمِينِهِ، حَتَّى يَكُونَ آخِرُ ذَلِكَ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ عَلَى
 إِبْهَامِ قَدَمِهِ، يُضِيءُ مَرَّةً وَيُطْفَأُ مَرَّةً، إِذَا أَضَاءَ قَدَمَ قَدَمَهُ، وَإِذَا طُفِئَ قَامَ، قَالَ:
 فَيَمُرُّ وَيَمُرُّونَ عَلَى الصَّرَاطِ، وَالصَّرَاطُ كَحَدِّ السَّيْفِ، دَحَضَ مَرَلَةً، فَيُقَالُ:
 امْضُوا عَلَى قَدْرِ نُورِكُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَأَنْفِضَاضِ الْكَوْكَبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ

(١) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم (٣١٥).

(٢) أخرجه مختصراً بغير سنده في شعب الإبان (١/٣٣٩)، وأشار إلى سنده في كتابه «البعث
 والنشور» (ص ٢٥٢). وأخرجه بطوله الطبراني في الكبير (٩٧٦٣)، والحاكم (٢/٣٧٦)،
 والدارقطني في رؤية الله (ص ١٣٩). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٤٠): «رواه
 الطبراني من طرق، ورجال أحدها رجال الصحيح غير أبي خالد الدالاني، وهو ثقة».

كَالرِّيْحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالطَّرْفِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَشَدِّ الرَّحْلِ، وَيَزُمُّلُ رَمَلًا، فَيَمُرُّونَ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، حَتَّى يَمُرَّ الَّذِي نُورُهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمَيْهِ، نُجْرُ يَدًا، وَتَعْلُقُ يَدًا، وَنُجْرُ رِجْلًا، وَتَعْلُقُ رِجْلًا، وَتُنْصَبُ جَوَانِبُهُ النَّارُ، قَالَ: فَيَخْلُصُونَ، فَإِذَا خَلَصُوا قَالُوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنْكَ، بَعْدَ أَنْ أَرَانَاكَ، لَقَدْ أَعْطَانَا اللَّهُ مَا لَمْ يُعْطِ أَحَدًا» الْحَدِيثُ.

قال الشيخ:

هذا من الأحوال التي ذكرت في يوم القيامة، فذكر الله تعالى أن الأرض تبدل. وقد سئل النبي ﷺ: أَيَّنَ النَّاسِ يَوْمَ تَبْدَلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ؟ فَقَالَ: «هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ». وقال في رواية أخرى: «عَلَى الصَّرَاطِ»^(١).

وقد تكاثرت الأدلة بأنهم يعبرون على الصراط. والصراط: الطريق الذي يسار عليه، وفي الدنيا صراط، قال تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وهو صراط معنوي. وفي الآخرة صراط حسبي يعبر الناس عليه، أي يسرون عليه. وهذا الصراط منصوب على متن جهنم، يمر الناس عليه على قدر أعمالهم. وقد أخبر الله تعالى

(١) أخرجه مسلم (٢٧٩١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

بأنهم يتميرون؛ فميز الله المؤمنين من المنافقين، في قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَسِمْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٢، ١٣]؛ إذا أعطوا نوراً وفرقت عليهم الأنوار انطفأ نور المنافقين، وسار المؤمنون بنورهم، فإذا ساروا تأخر المنافقون في تلك الظلمة، فعند ذلك يحجزون ويمنعون، ويقولون انتظرونا، نأخذ قبساً من نوركم نستضيء به، فيقال: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾، ارجعوا إلى المكان الذي قُسمت فيه الأنوار، فيرجعون، فإذا رجعوا ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ سُورًا﴾، حاجز منيع ﴿لَهُ بَابٌ﴾، لا يدخل إليه إلا من خلال ذلك الباب، ﴿بِاطْنِهِ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَهْرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديث: ١٣]، فهذا الوقت الذي يتميرون فيه المنافقون من المؤمنين.

وقد ورد في الحديث أيضاً: «إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن: لِيَسْبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ، مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَيُدْعَى الْيَهُودُ، فَيَقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عَزْرَبَ بْنَ اللَّهِ، فَيَقَالُ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ قَالُوا: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ، فَيَحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى، فَيَقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ بْنَ اللَّهِ، فَيَقَالُ

لهم: كَدَبْتُمْ، مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَالِدٍ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَاذَا تَبْعُونَ؟
فَيَقُولُونَ: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا، قَالَ: فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ، فَيُحْشَرُونَ إِلَى
جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يُحْطَمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَسَاقُطُونَ فِي النَّارِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا
مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ، أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ . سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى . فِي
أَذْنِي صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا، قَالَ: فَمَا تَنْتَظِرُونَ، تَتَّبِعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ،
قَالُوا: يَا رَبَّنَا فَارْقِنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرًا مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ وَلَمْ نُنْصَحِبْهُمْ، فَيَقُولُ: أَنَا
رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا . مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا . حَتَّى إِنْ
بَعْضُهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا؟ فَيَقُولُونَ:
نَعَمْ، فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ، فَلَا يَبْقَى مِنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَدِنَ
اللَّهُ لَهُ بِالسُّجُودِ، وَلَا يَبْقَى مِنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ ظَهْرَهُ
طَبَقَةً وَاحِدَةً، كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ^(١)، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ
يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَشِيعَةً أَنْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ
وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ [القلم: ٤٢، ٤٣]؛ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ فِي
الدُّنْيَا إِلَى الصَّلَاةِ وَهُمْ سَالِمُونَ فَلَا يَسْجُدُونَ، فَكَذَلِكَ إِذَا دُعُوا إِلَى السُّجُودِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وَأَرَادُوا أَنْ يَسْجُدُوا لَمْ يَحْصِلْ لَهُمْ، وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا السُّجُودَ، وَحِينَئِذٍ
تُقَسَّمُ عَلَيْهِمُ الْأَنْوَارُ، وَيَتَمَيَّزُ الْمُؤْمِنُونَ عَنِ الْمُنَافِقِينَ، وَيُنَادُونَ الْمُؤْمِنِينَ:

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٣) واللفظ له، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

﴿يَأْتِدُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾، فيقولون: ﴿بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتِنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ﴾

[الحديد: ١٤].

وفي الأحاديث التي وردت عن النبي ﷺ الإخبار عن الجسر الذي يُنصبُ على متن جهنم يوم القيامة، ويعبرونه، ويقول العلماء: إنَّ هذا هو المرور أو الورود.

أخبر الله تعالى بأنَّ كلاً يرد على النار. قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۗ﴾ ﴿٧١﴾ ثُمَّ نَجَّيَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَادَرْنَا الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثْيًا ﴿٧١﴾ [مريم: ٧١]، فمرورهم على هذا الصراط، هو ورودهم المذكور في هذه الآية، فأما المؤمنون المتقون فإنَّ الله تعالى ينجيهم: ﴿ثُمَّ نَجَّيَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، لا تضرهم، بل كلما مروا على لهبٍ منها طفئ ذلك اللهب، كما جاء في الحديث: «وَتَقُولُ النَّاسُ لِلْمُؤْمِنِينَ: جُزْ يَا مُؤْمِنِينَ، فَقَدْ أَطْفَأَ نُورُكَ لَهْبِي»^(١)، فإذا عبروا يتساءلون: ألم يعدنا ربنا أننا نرُدُّ النار، فيقال: إنكم قد وردتموها وهي هامةٌ خامدةٌ. هذا هو مرورهم على هذا الصراط.

وقد ورد أيضاً في وصف هذا الصراط بأنه: دحضٌ مزلةٌ، نزل عنه الأقدام إلا من ثبته الله، وأنه أدقُّ من الشعرة، وأحد من السيف الأبر، وأنَّ الناس يمرون عليه، على قدر أعمالهم، أو على قدر النور الذي أعطاهم الله، فمنهم من يكون

(١) سيأتي تخرجه.

نوره الذي أعطيه مثل الجبل، ولكن لا يضيء إلا له، ومنهم من يكون نوره أقل من ذلك، وبعضهم إنما يعطى نوراً على رأس إبهام قدمه يضيء مرةً ويطفأ مرةً، إذا أضاء مَدَّ رجله، وإذا طُفئ وقف.

ويصف النبي ﷺ مروهم على الصراط لَمَّا سُئِلَ: وما الجِسْرُ؟ قال: «دَخَضٌ مَزْلَةٌ، فِيهِ خَطَايِفٌ وَكَلَالِبٌ وَخَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا سُوءُ نَكَّةٍ يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرَفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرَّيْحِ، وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ، وَالرَّكَّابِ، فَتَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَتُخَدُّشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ»^(١). هذه الكلاليب التي مثل شوك السعدان، تخطف العصاة إذا مروا على هذا الصراط من أهل كبائر الذنوب ونحوهم، فإذا اختطفته وسقط وتكردس في النار، عُدب فيها على قدر عمله، أما الذين يعبرون على هذا الصراط إلى أن يتجاوزوه، فأولئك هم الذين يحمدون العاقبة، حتى ولو كان أحدهم يسير زحفاً، ولكن في نهايته أنه سلم ونجا فيحمد العاقبة ويقول إذا التفت إلى النار: الحمد لله الذي أنجاني منك، لقد أعطاني ما لم يعطه أحدًا من العالمين. فاغتبط حيث نجا من عذاب النار.

يتذكر المؤمن مثل هذه الأهوال فيستعد لها، ويذكر بها إخوانه الغافلين، ليستعدوا لها، وليعلموا أنها حق ويقين، وأنه ليس بينك وبين هذا إلا خروج هذه الروح من هذا الجسد، ثم بعد ذلك يلاقي أول الحساب.

ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بما أخبر الله مما يكون في يوم القيامة، فقد

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٣) واللفظ له، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

أخبر الله وأخبر رسوله ﷺ بطول الموقف، فنؤمن بذلك اليوم النبي يقوم فيه الناس لرب العالمين. أخبر النبي ﷺ بعرض الناس على ربهم، وأنهم يحشرون حفاة عراة غرلاً^(١)، دل على ذلك قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، أي: كما خلقهم أول مرة. وأخبر تعالى بالحشر كما في قوله - جل وعلا -: ﴿يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدَا﴾^(٨٥) وَنُوقُوا الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرَدَا﴾ [طه: ٨٥، ٨٦]؛ والحشر: هو الجمع، حشر الناس في يوم القيامة، وأخبر الله تعالى بأنهم يأخذون صحفهم وكتبهم بأيامهم أو بشئاتهم، ومن وراء ظهورهم، وأخبر تعالى بالحساب: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٧]، ويقول ﷺ: «مَنْ نُوقِسَ الْحِسَابَ عُذِّبَ»^(٢).

وأخبر ﷺ بالحوض المورود يوم القيامة، ومن يرده ومن يذاد عنه، وأخبر بالصراف الذي ينصب على متن جهنم، ليرده الناس، أو يسرون من فوقه، على قدر أعمالهم وإيمانهم سيراً سريعاً أو بطيئاً. وكذلك أخبر تعالى بالميزان: ﴿فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١٠٤) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣].

أخبر الله تعالى وأخبر رسوله ﷺ بجملة هذه التفاصيل، ومن جملتها: كون الرب - سبحانه وتعالى - يبرز لعباده، ويسجد المؤمنون، ولا يستطيع المنافقون

(١) تقدم تخرجه (٤/ ٢٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٣، ٦٥٣٦)، ومسلم (٢٨٧٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

السجود. وأخبر تعالى بأن نور المؤمنين يسعى بين أيديهم وبأيامهم، وبأن نور المنافقين ينطفئ إذا بدؤوا بالسير. وهي تفاصيل كثيرة، والإيمان باليوم الآخر يلزمه أن يؤمن المسلم بكل هذه التفاصيل، ما فصل منها وما أجهل، من آمن بهذا اليوم آمن بكل ما فيه. والنهاية كما قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

وأخبر الله تعالى ورسوله ﷺ بالأعمال التي تدخل الجنة، والأعمال التي تدخل النار، وأخبر ﷺ بمن يُخْرِج من النار بشفاعاة الشافعين، أو برحمة الله تعالى، ومن لا يخرج منها، بل يخلد فيها.

فكل هذه من التفاصيل التي وردت عن اليوم الآخر الذي هو يوم القيامة، وقد عرفنا أن الإيمان باليوم الآخر من أركان الإيمان، وأن المؤمنين يصدّقون به، وأن من يصدّق به لا يكون تصديقه مجرد قوله: آمنت بذلك، وصدّقت به، بل يكون من آثار تصديقه العمل الصالح الذي يستعدّ به لذلك، فيستعدّ به ليكون نوره كالشمس، ويستعدّ بالعمل الصالح الذي يرجح به الميزان، ويستعدّ بالعمل الصالح الذي يسير به على الصراط كالبرق، والعمل الصالح الذي يجعله يعطى كتابه بيمينه، ويقول: ﴿هَؤُومٌ أَقْرَأُ وَأَكْتَبُ﴾ [الحاقة: ١٩]، وبقية الأمور التي تكون في هذا اليوم لا بدّ من عمل صالح ينجوه به من طريقة أهل الجحيم، ويفوز به بطريقة أهل النعيم.

قال الشارح:

وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُرَادِ بِالْوُرُودِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ
 إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]. مَا هُوَ؟ وَالْأَظْهَرُ وَالْأَقْوَى أَنَّهُ الْمُرُورُ عَلَى الصَّرَاطِ،
 قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا﴾ [مريم: ٧٢]. وَفِي
 «الصَّحِيحِ»^(١) أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَلْجُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ
 الشَّجَرَةِ»، قَالَتْ حَفْصَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَيْسَ اللَّهُ يَقُولُ: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ
 إِلَّا وَارِدُهَا﴾، فَقَالَ: «أَلَمْ تَسْمَعِيهِ قَالَ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا
 جِثِيًا﴾». أَشَارَ ﷺ إِلَى أَنَّ وُرُودَ النَّارِ لَا يَسْتَلْزِمُ دُخُولَهَا، وَأَنَّ النِّجَاةَ مِنَ الشَّرِّ
 لَا يَسْتَلْزِمُ حُصُولَهُ، بَلْ يَسْتَلْزِمُ انْعِقَادُ سَبَبِهِ، فَمَنْ طَلَبَهُ عَدُوَّهُ لِيُهْلِكُوهُ
 وَلَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنْهُ، يُقَالُ: نَجَاهُ اللَّهُ مِنْهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا
 هُودًا﴾ [هود: ٥٨]، ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ [هود: ٩٤]. وَلَمْ يَكُنِ
 الْعَذَابُ أَصَابَهُمْ، وَلَكِنْ أَصَابَ غَيْرَهُمْ، وَلَوْ لَا مَا حَصَّهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ أَسْبَابِ
 النِّجَاةِ، لَأَصَابَهُمْ مَا أَصَابَ أَوْلِيكَ.
 وَكَذَلِكَ حَالُ الْوَارِدِينَ النَّارِ، يَمُرُّونَ مِنْ فَوْقِهَا عَلَى الصَّرَاطِ، ثُمَّ يُنَجِّي
 اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا، وَيَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا، فَقَدْ بَيَّنَّ ﷺ فِي حَدِيثِ جَابِرِ الْمَذْكُورِ:
 أَنَّ الْوُرُودَ هُوَ الْمُرُورُ عَلَى الصَّرَاطِ.

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩٦) من حديث أم مبشر رضي الله عنها.

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو نَصْرِ الْوَائِلِيُّ، عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ صلى الله عليه وسلم: «عَلِمَ النَّاسَ سُنَّتِي وَإِنْ كَرِهُوا ذَلِكَ، وَإِنْ أَحْبَبْتِ أَنْ لَا تُوقَفَ عَلَى الصَّرَاطِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى تَدْخُلَ الْجَنَّةَ، فَلَا تُحَدِّثَنَّ فِي دِينِ اللَّهِ حَدَثًا بَرَأَيْكَ». أَوْرَدَهُ الْقُرْطُبِيُّ ^(١).

وَرَوَى أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ سَلْمَانَ النَّجَّادُ، عَنْ يَعْلَى بْنِ مُنِيَّةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «تَقُولُ النَّارُ لِلْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: جُرْ يَا مُؤْمِنُ، فَقَدْ أَطْفَأْنَا نُورَكَ لِهَبِي» ^(٢).

قال الشيخ:

قال تعالى لَمَّا ذَكَرَ النَّارَ: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مریم: ٧١]، ظاهره أن كل الناس واردون للنار، فما هذا الورود؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم: «لَا يَمُوتُ لِمُسْلِمٍ ثَلَاثَةٌ مِنْ الْوَالِدِ فَيَلْبِغُ النَّارَ إِلَّا لِحَلَّةِ الْقَسَمِ» ^(٣)، والمراد: الورود المذكور في هذه الآية، كأن الله أقسم أنكم لا بد أن تردوها.

والورود في الأصل: الإتيان إلى الشيء، ومنه تسمية الإبل التي تأتي إلى الماء وورودًا، يُقال: وردت الإبل أو الدواب المياها: جاءت إليه.

(١) في كتاب التذكرة (ص ٣٣٦، ٣٣٧).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٦٦٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/٣٤٠)، وأبونعيم في الحلية (٩/٣٢٩)، وابن عدي في الكامل (٦/٣٩٤)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٩/٣٣٢). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٦٠): «رواه الطبراني وفيه سليم بن منصور بن عمار وهو ضعيف». وانظر: لسان الميزان (٦/٩٨).

(٣) أخرجه البخاري (١٢٥١)، ومسلم (٢٦٣٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخبر تعالى ببعض من يردها كآل فرعون في قوله تعالى عن فرعون:
﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدَ الْمَوْرُودُ ﴾ [هود: ٩٨]. فظاهر هذا أنه أدخلهم
فيها، فوردوا إليها وسقطوا فيها، أما في يوم القيامة: «يُدْعَى الْيَهُودُ، فَيَقَالُ لَهُمْ:
مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قالوا: كنا نعبدُ عزيرَ بنَ اللّٰهِ، فَيَقَالُ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللّٰهُ مِنْ
صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ قالوا: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا، فَيَسْأَلُ إِلَيْهِمْ
أَلَا تَرُدُونَ، فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يُحِطُّمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَسَاقُطُونَ فِي
النَّارِ، ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى، فَيَقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قالوا: كنا نعبدُ المسيحَ بنَ
اللّٰهِ، فَيَقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ، مَا اتَّخَذَ اللّٰهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَيَقَالُ لَهُمْ: مَاذَا تَبْغُونَ؟
فَيَقُولُونَ: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا، قال: فَيَسْأَلُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرُدُونَ، فَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ
كَأَنَّهَا سَرَابٌ يُحِطُّمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَسَاقُطُونَ فِي النَّارِ»^(١).

فالورود في هذه الآيات وفي هذه الأحاديث هو الوصول إليها، فكيف يكون
ورود الأنبياء والأتقياء والصالحين والصحابة الذين لا بد أن يردوها؟ يخاطبنا الله
بقوله: ﴿ وَإِنْ مَنَعَكَ إِلَّا وَاوْرَدُهَا كَانَ عَلَى رَيْكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم: ٧١]، الحتم: الأمر
الذي لا بد منه، ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا ﴾ [مريم: ٧٢]،
أخبر بأنه يُنَجِّي أهل التقوى، ويُتقي أهلها الظالمين جاثنين فيها.
الأشهر أن هذا الورود هو المرور على الصراط. وقد تقدم أن الصراط جسر

(١) تقدم ترجمته (٤/٢٥٦).

مزلة، منصوب على متن جهنم، أحد من السيف، وأدق من الشعرة، يمرّ الناس عليه بأعمالهم؛ فإذا مرّ المؤمن فإنه بنوره وإيمانه لا يحسّ بحرارة، ولا يحسّ بلهب، ولذلك تقول النار: «جُزِيَ يَا مُؤْمِنُ، فَقَدْ أَطْفَأَ نُورَكَ هَبِي»^(١). النار لها لهب، وهذا اللهب ينطفي من نور المؤمن، ولا يحسّ بأنّ تحتها نارا، ثم يمرّ على هذا الصراط كالبرق؛ والبرق أسرع من طرفة العين. ويمرّ بعضهم كالريح، ومنهم من يمرّ كأجاود الخيل، ومنهم من يمرّ كأجاود الرّكاب، ومنهم من يعدو عدواً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً. فهذا سيرهم على قدر أعمالهم.

فإِذَا: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾، أي: لا بدّ أن تمرّوا عليها مروراً على الصراط، وإن لم يحسّ بها المؤمنون. ففي بعض الآثار أنّ المؤمنين بعدما يدخلون الجنّة يقولون: أليس قد أخبرنا الله أنّا نرد النار، أين النار؟ ما شعرنا بها؟ فيقال لهم: مررتم عليها وهي خامدة. يعني: بمرور المؤمنين تخمد فلا يحسّون بلهب، ولا يحسّون بحرارة أبداً، وأمّا المنافقون والعصاة؛ فيخطفون وهم على الصراط. فقد ورد في الحديث أنّ على جنبات الصراط كلاليب، والكُّلوب: حديدة محنية محدّبة، وهي مثل شوك السعدان، أي: كلاليبها كثيرة، ولكن لا يقدر قدرها إلا الله، تخطف الناس بأعمالهم، فتخطف من أمرت بخطفه؛ فتخطف اليد، وتخطف الرجل، وتخطف بعد منتصف الطريق، وتخطف بعد ثلثه، وتخطف عند آخره. فإذا جاوزها الإنسان ولو كان مخدوشاً، وأصابه اللهب، ولو

(١) تقدم تحريجه (٤/٢٥٧).

بعد مئة سنة، فإنه عندما يجوز الصراط يلتفت نحو جهنم ويقول: الحمد لله الذي نجّاني منك، لقد أعطاني ما لم يعط أحدًا من خلقه؛ لأنه رأى أنه نجا منها ومن عذابها المستمر، ورأى أن ذلك سعادة، وأي سعادة ولو أن غيره قد ظفر بالنجاة قبله.

ففي الحديث أن حفصة - رضي الله عنها - استشكلت قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾، ولكن النبي ﷺ بيّن لها أن الورود يكون للجميع، ولكن ينجي الله سبحانه الذين اتّقوا. كيف ينجيهم؟ هل يدخلونها ثم يخرجون منها؟ لا يلزم ذلك، ولكن كل من تجاوزها يقال بأنه نجا منها، ويقال: لقد أنجاك الله من النار، وسلّمك منها، وأنقذك من دخولها. فكل من سلم من شرّ، يقال: هذا قد نجا، ولا يلزم أنه دخل فيها ثم أخرج.

فالنجاة تستعمل فيمن سلّم من العذاب الذي عدّب به غيره، ولا يلزم أن العذاب قد أصابه. فقد قال الله عن لوط - عليه السلام - وأهل بيته: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ﴾ [العنكبوت: ٣٢]، أي: لنخرجه حتى يسلم من العذاب، فلا يحسّ بالعذاب ولا يدخل به. هذه هي النجاة. وأنت دائماً تدعو وتقول: اللهم أنجنا من النار. وكذلك حكى الله عن الذين آمنوا بموسى - عليه السلام - أنهم قالوا: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٥) وَجِنَّا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس: ٨٥، ٨٦]، نجّنا: سلّمنا وأنقذنا، فكل من سلم من العذاب فهو ناج.

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (وَالْمِيزَانَ)، أَي: وَنُؤْمِنُ بِالْمِيزَانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُغْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنْ بِتَارْحِينٍ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [١٠٤] وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدِينَ ﴿[المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣].

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِذَا انْقَضَى الْحِسَابُ، كَانَ بَعْدَهُ وَزْنُ الْأَعْمَالِ؛ لِأَنَّ الْوِزْنَ لِلْجَزَاءِ، فَيَتَّبَعِي أَنْ يَكُونَ بَعْدَ الْمُحَاسَبَةِ، فَإِنَّ الْمُحَاسَبَةَ لِتَقْرِيرِ الْأَعْمَالِ، وَالْوِزْنَ لِإِظْهَارِ مَقَادِيرِهَا؛ لِيَكُونَ الْجَزَاءُ بِحَسَبِهَا، قَالَ: وَقَوْلُهُ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ الْمَوَازِينَاتُ، فَجَمَعَ بِإِغْتِيَارِ تَنَوُّعِ الْأَعْمَالِ الْمَوَازِينَةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ: أَنَّ مِيزَانَ الْأَعْمَالِ لَهُ كِفَّتَانِ حَسِيَّتَانِ مُشَاهِدَتَانِ، رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ^(١)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبْلِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو رضي الله عنه يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُنْشَرُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ سِجِلًا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدُّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتَنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظْلَمَكَ كَتَبْتَنِي الْحَافِظُونَ؟ قَالَ:

(١) في المسند (٢/٢١٣).

لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَلَيْكَ عُذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ؟ فَيَبْهَتُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً، لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَيَقُولُ: أَحْضِرْهُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَّلَاتِ؟! فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَظْلُمُ، قَالَ: فَتَوْضَعُ السَّجَّلَاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، قَالَ: فَطَاشَتِ السَّجَّلَاتُ، وَثُقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، وَلَا يَتَّقُلُ شَيْءٌ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. وَهَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ^(١)، وَابْنُ مَاجَهَ^(٢)، وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا، مِنْ حَدِيثِ اللَّيْثِ، زَادَ التِّرْمِذِيُّ: «وَلَا يَتَّقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ». وَفِي سِيَاقٍ آخَرَ: «تَوْضَعُ الْمَوَازِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ فَيَوْضَعُ فِي كِفَّةٍ»، الْحَدِيثُ^(٣).

وَفِي هَذَا السِّيَاقِ فَائِدَةٌ جَلِيلَةٌ، وَهِيَ أَنَّ الْعَامِلَ يُوزَنُ مَعَ عَمَلِهِ وَيَشْهَدُ لَهُ مَا رَوَى الْبُخَارِيُّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ. وَقَالَ: اقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]»^(٤).

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ^(٥)، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكَا مِنَ الْأَرَاكِ،

(١) برقم (٢٦٣٩)

(٢) برقم (٤٣٠٠).

(٣) تقدم تخريجه (٤٣٠/١).

(٤) أخرجه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

(٥) في المسند (٤٢٠/١)، (٤٢١).

وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقِينِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفُؤُهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مِمَّ تَضْحَكُونَ»؟ قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقِيهِ، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أَحَدٍ».

قال الشيخ:

نؤمن بالميزان الذي أخبر الله تعالى به في قوله: ﴿وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ ﴿[الأعراف: ٨، ٩]. وقوله - جل وعلا -: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقوله - عز وجل -: ﴿فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿[المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ (١١) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ (٨) فَأَمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿[القارعة: ٦- ٩]، وكذلك في كثير من الآيات.

كما وردت أحاديث كثيرة ذكر فيها النبي ﷺ الميزان، مثل قوله ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ»^(١). وكذلك في الحديث الصحيح في «صحيح مسلم»^(٢):

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٦) و (٧٥٦٣)، ومسلم (٢٦٩٤) من حديث أبي هريرة ؓ.

(٢) برقم (٢٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري ؓ.

«الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ»، أي: كلمة (الحمد لله) تملأ الميزان، مما يدل على أن الكلمات أيضًا توزن. وغير ذلك من الأدلة.

وقد أنكرت المعتزلة الميزان في الآخرة، وقالوا: لا يحتاج إلى الميزان إلا البقال. والله تعالى ليس بحاجة إلى أن ينصب الميزان، وفسروا الميزان في هذه الآيات بالعدل؛ ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ﴾، يعني: العدل، ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾، يعني: نجح عندما يعدل بين الناس.

ولا شك أن هذا إنكار لخبر الله، وخبر رسوله ﷺ، فالله تعالى ينصب الموازين ويظهرها؛ حتى لا يكون هناك ظلم، ولذلك أخبر تعالى عن هذه الموازين بأنها يوزن فيها القليل والكثير، ففي هذه الآية في سورة الأنبياء يقول - عز وجل -: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، بعد أن قال: ﴿فَلَا تَظْلِمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾، فالإنسان لا يُظلم بمِثْقَالِ حبة من خردل. وكذلك يقول تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. المتقال: بمعنى الوزن، أي: إن الله تعالى يحضر الأعمال؛ صغيرها وكبيرها، حسنها وسيئها، وتوزن حتى مثاقيل الدر. وهذه الموازين موازين حقيقيّة، وردت بالجمع، فهو لم يقل ميزانه، فدل على أن هناك عدد، يوزن لهذا ولذاك.

ثم اختلفوا في الموزون ما هو؟ على ثلاثة أقوال:

الأول: أن الذي يوزن الأعمال، ولو كانت أعراضًا، يقبلها الله تعالى أجسامًا،

ثم توزن؛ لأن الأعراض ليس لها جرم، فكلمة الحمد لله ليس لها جرم تمسك به. وقراءتك وأذكارك وأدعيتك يقلبها الله أجسامًا مثل الخشب والحجر، فهي لها جسم ولها وزن. وكذلك يقلب الله الكلام، فيصبح جسمًا وجرمًا ووزنًا؛ ولذا يقول ﷺ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ تَمَلُّؤُ الْمِيزَانِ». ويقول: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَيَحْمَدُهُ؛ يدلُّ على أن كلمة سبحان الله وبحمده، تصبح جرمًا وتوزن. ولا يخرج عن قدرة الله شيء، فهو قادر أن يقلب الأعراض أجسامًا.

الثاني: أن الذي يوزن هو الصحف، وتثقل الصحف وتخف بحسب ما كتب فيها، ودلَّ على ذلك الحديث الذي مرَّ بنا^(١): عن الرجل الذي كتبت عليه الملائكة سيئات كثيرة، حتى بلغت تسعة وتسعين سجلاً، والسجل: هو الصحيفة التي تكتب فيها القضايا. هذه السجلات تطوى طويلاً، ثم إذا نشرت كانت مدَّ البصر، نهايتها لا يدركها البصر الحديد. فهذه السجلات مليئة بالسيئات من كلام أو فعل أو غير ذلك، لما وقف على هذه السجلات يسأله الله تعالى: هل تنكر شيئاً من هذا؟ لا يستطيع الإنكار. ويسأله: هل ظلمك الكرام الكاتبون؟ فلا يستطيع أن ينكر. ويسأله: هل لك عذر؟ فما له عذر. هل لك حسنة تقابل هذه السيئات وتمحوها، فإن الحسنات يذهبن السيئات؟ فينهر وينبهت، ويقول: لا ليس لي حسنات، كأنه أيس من النجاة، عندما وجد هذه السجلات المليئة بالسيئات

(١) تقدم تخريجه (٤/٢٦٦).

ولا يستطيع أن ينكرها، ولكن الله تعالى يقول: بلى لك عندنا حسنة واحدة، فتخرج له هذه البطاقة: وهي ورقة صغيرة مكتوب فيها: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. ولكن: قالها عن يقين، وتصديق وعقيدة، وختمت بها أيامه وأعماله، وخرج من الدنيا وهو على هذه الحسنة، التي أثرت فيه وفي قلبه. ولكنه عندما يرى البطاقة يقول: ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول الله تعالى: إنك لا تظلم. فتجعل السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فعند ذلك تخف السجلات وتثقل البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء. فكانت سبباً في نجاته.

معلوم أن كثيراً من الذين يقولونها يعدّون؛ لأنهم لم يقولوها عن يقين، ولم تؤثر في عقيدتهم، ولم تصدر عن قلب مصدق بها؛ ولذلك تخف موازينهم. أما هذا، فقد قالها عن علم ويقين وإخلاص وتقبل فأثرت في قلبه، فوقعت موقعا، فتقلت موازينه. وهو ممن يصدق عليه أنه ثقلت موازينه، فهو في عيشة راضية.

الثالث: أن العامل نفسه يوزن، فيثقل إن كان قلبه ممتلئا إيماناً، ويخف إن كان قليل الإيمان. ونستدل على ذلك من قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]. وإن كانت محتملة: لا نقيم لهم قدراً. ولكن ظاهرها أنهم يوزنون، ولا يكون لهم وزن ظاهر. ويؤيد ذلك هذا الحديث: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلَ الْعَظِيمُ السَّوِيئُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِينُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ»^(١). فإذا جعل في الميزان كان أخف من جناح الناموسة، فدل على أن العامل نفسه يوزن، وأنه يثقل إذا كان

(١) تقدم ترجمته (٤/٢٦٧).

تقيًا. كما مرّ بنا من حديث ابن مسعود: فقد صعد مرّة على شجرة الأراك يقطع منها سواكًا، ولما صعد ورآه بعض الصحابة عجبوا من دقة ساقه، فجعلوا يضحكون. فقال لهم النبي: «لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أَحَدٍ»^(١) فالعامل نفسه يوزن، فيثقل إن كان من أهل السعادة، ويخفّ إذا كان من أهل الشقاوة.

وقد قال الشارح: إنّ الوزن بعد الحساب، وذلك بأن يقال: حاسب نفسك، هذه صحائفك، هذه حسنة وهذه سيئة، وبعدهما يحاسب، ويقرّ بها له وما عليه، توزن هذه الأعمال حتّى يعرف مقدارها، وحتّى يحقّق في أمرها. فإذا وزنت عرف من يستحقّ أن يكون سعيدًا، وهو الذي حسناته ثقيلة، ومن بخلاف ذلك؛ لأنّ الحساب إنّما هو لتمييز الحسنات من السيئات.

ولكن الميزان يميّز الحسنات؛ فقد تكون كثيرة وخفيفة، وقد تكون قليلة وثقيلة في الوقت نفسه. فقد يكون هناك إنسان له أذكار وأوراد وقراءات، ولكنها خفيفة. وآخر أذكاره قليلة ولكنها ثقيلة، بسبب صدورها عن الإخلاص والإيمان الراسخ المتمكّن في القلب.

(١) تقدم تخرجه (٤/٢٦٨).

قال الشارح:

وَقَدْ وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ أَيْضًا بِوَزْنِ الْأَعْمَالِ أَنْفُسِهَا، كَمَا فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ»^(١) الحديث.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»، وَهُوَ خَاتِمَةُ كِتَابِ الْبُخَارِيِّ، قَوْلُهُ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»^(٢).

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَيْهَقِيُّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ؓ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُؤْتَى بِابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُوقَفُ بَيْنَ كِفَّتَيْ الْمِيزَانِ، وَيُوَكَّلُ بِهِ مَلَكٌ، فَإِنْ ثَقُلَ مِيزَانُهُ، نَادَى الْمَلَكُ بِصَوْتٍ يُسْمَعُ الْخَلَائِقُ: سَعِدَ فُلَانٌ سَعَادَةً لَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا، وَإِنْ خَفَّ مِيزَانُهُ، نَادَى الْمَلَكُ بِصَوْتٍ يُسْمَعُ الْخَلَائِقُ: شَقِيَ فُلَانٌ شَقَاوَةً لَا يَسْعُدُ بَعْدَهَا أَبَدًا»^(٣).

(١) تقدم تخريجه (٤٣٣/١).

(٢) تقدم تخريجه (٢٦٩/٤).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٧٤/٦) وقال: «تفرد به داود بن المحبر»، والبزار - كما تفسير ابن كثير ٤٩٧/٥، وقال ابن كثير: «إسناده ضعيف، فإن داود بن المحبر متروك». وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٥٠/١٠): «رواه البزار، وفيه صالح المري، وهو مجمع على ضعفه». كما ذكره الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب (٤٢٥/٤) بصيغة التضعيف، ونسبه إلى البزار والبيهقي.

فَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى مُلْحِدٍ مُعَانِدٍ يَقُولُ: الْأَعْمَالُ أَعْرَاضٌ لَا تَقْبَلُ الْوِزْنَ، وَإِنَّمَا يَقْبَلُ الْوِزْنَ الْأَجْسَامُ!! فَإِنَّ اللَّهَ يَقْلِبُ الْأَعْرَاضَ أَجْسَامًا، كَمَا تَقَدَّمَ، وَكَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ^(١)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَبْشًا أَغْبَرَ فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَسْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، وَيُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَسْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، وَيَرَوْنَ أَنْ قَدْ جَاءَ الْفَرْجُ، فَيُدْبِحُ، وَيُقَالُ: خُلُودٌ لَا مَوْتَ». وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ بِمَعْنَاهُ^(٢). فَتَبَّتْ وَزْنَ الْأَعْمَالِ وَالْعَامِلِ وَصَحَائِفِ الْأَعْمَالِ، وَتَبَّتْ أَنَّ الْمِيزَانَ لَهُ كِفَّتَانِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْكَيْفِيَّاتِ.

فَعَلَيْنَا الْإِيمَانَ بِالْغَيْبِ، كَمَا أَخْبَرَنَا الصَّادِقُ عليه السلام مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ. وَيَا حَيْبَةَ مَنْ يَنْفِي وَضَعَ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ كَمَا أَخْبَرَ الشَّارِعُ، لِحِفَاءِ الْحِكْمَةِ عَلَيْهِ، وَيَقْدَحُ فِي النَّصُوصِ بِقَوْلِهِ: لَا يَجْتَأِجُ إِلَى الْمِيزَانِ إِلَّا الْبَقَالُ وَالْفَوَالُ!! وَمَا أَحْرَاهُ بِأَنْ يَكُونَ مِنَ الَّذِينَ لَا يُقِيمُ اللَّهُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنَ. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي وَزْنِ الْأَعْمَالِ إِلَّا ظُهُورُ عَدْلِهِ سَبْحَانَهُ لِجَمِيعِ عِبَادِهِ، فَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ الرَّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، فَكَيْفَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمِ مَا لَا اِطِّلَاعَ لَنَا عَلَيْهِ. فَتَأَمَّلْ قَوْلَ الْمَلَائِكَةِ لَمَّا قَالَ اللَّهُ لَهُمْ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ

(١) في المسند (٢/٤٢٣).

(٢) البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ٣٠﴾. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَوْتَيْنَاهُم بِالْأَيْدِي إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].
 وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ ذِكْرِ الْحَوْضِ كَلَامُ الْقُرْطُبِيِّ . رَحِمَهُ اللَّهُ .: أَنَّ الْحَوْضَ قَبْلَ الْمِيزَانِ، وَالصَّرَاطَ بَعْدَ الْمِيزَانِ . فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»: «أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا عَبَرُوا الصَّرَاطَ وَفُقُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصَّرُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا هُدُّبُوا وَنُقُوا، أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ»^(١). وَجَعَلَ الْقُرْطُبِيُّ فِي «التَّذَكِيرَةِ» هَذِهِ الْقَنْطَرَةَ صِرَاطًا ثَانِيًا لِلْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً، وَلَيْسَ يَسْقُطُ مِنْهُ أَحَدٌ فِي النَّارِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

قال الشيخ:

من الأقوال الواردة في تفسير وزن الأعمال: أن الأعمال تُجسَّد، وأنها توزن ولو كانت أعراضًا، فالله تعالى قادر على أن يقلب الأعراض أجسادًا كما يشاء، فيقلب التسييح والتكبير أجسادًا وأجرامًا، ويكون لها ثقل ويكون لها وزن. وقد دلت على ذلك السنة كما في الأحاديث التي مرّت، والتي تدلّ على أن الأعمال تجسَّد، وأنها توزن، وأن الله لا يستعصي عليه شيء، كأن يقلب هذه الأعراض أجرامًا، وأن يكون لها وزن يخفّ ويثقل.

وقد أنكر المعتزلة الميزان الذي ينصب يوم القيامة، مع وروده في الآيات

(١) تقدم تحريجه (٣/٣١٣)، ولم يخرج مسلم في صحيحه.

الصريحة، والأحاديث الصحيحة، ومع ذلك يقولون: (لَا يَحْتَأَجُّ إِلَى الْمِيزَانِ إِلَّا الْبَقَّالُ وَالْفَوَّالُ)، تعالى الله عن قولهم. أنكروا أن يكون الميزان حقيقياً، ولذلك يردّ عليهم الشارح، فيقول: إنهم حريون بأن يكونوا من الذين لا يقيم الله لهم يوم القيامة وزناً.

ولا شك أن في وضع الموازين يوم القيامة حكمة عظيمة، ولو لم يكن فيها إلا العدل، ولذلك وصفها الله تعالى بالقسط: ﴿ وَنَضَحَ الْمَوْزِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ [الأنبياء: ٤٧]؛ القسط: العدل، يعني: الموازين العادلة. إذا نُصِبَ الميزان وحضر الموزون وزن أعماله، يقال: احضر وزن أعمالك، فإذا رجع ميزانه، نادى ذلك الملك: سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً. وإذا خف ميزانه نادى ذلك الملك: شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً. وإذا تساوت الحسنات والسيئات، عومل بما يستحقه، بأن يعذب بقدر سيئاته، ثم يخرج إذا كان من أهل التوحيد، أو نحو ذلك مما يشاؤه الله.

وأول ما يكون يوم القيامة هو الحساب، ثم بعده الميزان، ثم بعده المرور على الصراط، ثم بعده القنطرة، ثم دخول الجنة. أما الكفار الذين لا حسنات لهم ولا حساب، فلا يحاسبون؛ لأنهم ليس لهم حسنات، فإن كان لهم حسنات فقد استوفوها في الدنيا.

فأول شيء تعرض أعمالهم، ويقال: حاسبوا أنفسكم، ثم بعد ذلك تُنصب الموازين، ويعرف خفة الأعمال وثقلها، ثم بعد ذلك ينصب الصراط فيسلكونه إن

كان لهم حسنات وسيئات فيسلم من يسلم، ويخدش من يخدش. ثم بعدما يسلمون ويعبرون الصراط، يوقفون على قنطرة بين الجنة والنار، وهذه القنطرة يحاسبون فيها عن مظالم كانت بينهم، فمن كان عنده مظلمة يُجَازى بها، فيؤخذ من حسناته، ومن كان له حقٌ يؤخذ له. فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة؛ لأنهم لا يدخلون الجنة وفي قلوبهم غلّ، كما قال تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ ﴾ [الأعراف: ٤٣]. فلا يدخلون الجنة إلا بعد التنقية والتصفية، وبعد أن يكونوا متحايين ليس بينهم إحن ولا بغضاء.

ومن آمن بتفاصيل اليوم الآخر على الحقيقة واليقين، ظهرت آثار ذلك في أعماله وفي سيرته وفي نهجه، وكلما كان أشدّ يقيناً وأشدّ إيماناً كان أكثر استعداداً وتأهباً، وهكذا كانت حال المؤمنين الصادقين في إيمانهم، فإيمانهم حملهم على الاستعداد للموت، وللقاء ربهم وللجزاء، وأن يعملوا الأعمال الصالحة، التي ينجون بها ويكونون بها من أهل السعادة وأهل الفلاح. حتى إن أحدهم لو قيل له: إنك تموت في هذا اليوم؛ لم يكن له عملٌ يزداد به؛ لأنه لم يضيّع لحظة من لحظاته في غير طاعة، وقد علم أن الموت لا بدّ نازل، وأنه قد يأتي فجأة على غير موعد، وأن بعد للموت حساباً وعذاباً أو ثواباً، وعلم أن بعد الموت بعثاً ونشوراً، وجنةً أو ناراً، فاستعدّ لذلك، فصار كل دقيقة تمرّ عليه يشغلها في طاعة الله. هكذا هو حال أولياء الله.

أما المفرطون الذي يقولون آمنا، ولكن يقولونه بالألسن، وقلوبهم كأنها غير

مصدّقة، ولذلك لا يستعدّون، فهؤلاء إيمانهم ضعيفٌ. ألسنتهم تصف، وقلوبهم تعرف، وأعمالهم تخالف؛ لأنّ إيمانهم وتصديقهم كان عن تردّد أو كان يقينهم قد أتاه ما يضعفه؛ من أمثال الشهوات، وزينة الدنيا، والركون إليها، ومحبة التوسّع في الملذّات وعدم استحضار الموت، وما بعد الموت، فكان ذلك حاملاً لهم على كثرة الغفلة، والانغماس في لذّة الدنيا، وعدم التفكّر في عاقبتها، وعدم التفريق بين الحلال والحرام، فحصل التفريط منهم، فجاءهم أمر الله بغتة وهم لا يشعرون، فدموا حين لا ينفع الندم، وقال أحدهم: ﴿بِحَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي حُبِّ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦].

فيجب أن نتفقّد أنفسنا، ونتفقّد إخواننا، فإذا رأينا الذي شغل وقته كلّه بأعمال الآخرة، قلنا: هذا صادق الإيمان بالآخرة، هذا مؤمن حقاً، هذا ممّن استعدّ للقاء ربّه. وإذا رأينا ضعيف الإيمان، قليل الأعمال، ضعيف الاحتمال؛ قلنا: هذا ضعيف الإيمان، وقليل الاهتمام، وضعيف الإيمان بالآخرة، ولو كان إيمانه قوياً لما قرّط في أيامه، ولما تناسى لقاء ربّه. فنثبّت الأول ونحثّه على الزيادة، ونحذّر الثاني، وننبّه على هذا التفريط، ونخوفه من أن يأتيه الأجل وهو على هذا الإهمال. وبذلك نكون من المؤمنين بالدار الآخرة.

قال الطحاوي:

وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ مَخْلُوقَتَانِ، لَا تَفْنِيَانِ أَبَدًا وَلَا تَبِيدَانِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ قَبْلَ الْخَلْقِ، وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا، فَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ فَضْلًا مِنْهُ، وَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ إِلَى النَّارِ عَذَابًا مِنْهُ، وَكُلٌّ يَعْمَلُ لِمَا قَدْ فُرِغَ لَهُ، وَصَائِرٌ إِلَى مَا خُلِقَ لَهُ، وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ مُقَدَّرَانِ عَلَى الْعِبَادِ.

قال الشارح:

أَمَّا قَوْلُهُ: (إِنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ مَخْلُوقَتَانِ)؛ اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ مَخْلُوقَتَانِ مَوْجُودَتَانِ الْآنَ، وَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ أَهْلُ السُّنَّةِ، حَتَّى نَبَغَتْ نَابِغَةٌ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْقَدْرِيَّةِ، فَأَنْكَرَتْ ذَلِكَ، وَقَالَتْ: بَلْ يُنْشِئُهُمَا اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَحَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَصْلُهُمُ الْفَاسِدُ الَّذِي وَضَعُوا بِهِ شَرِيعَةً لِمَا يَفْعَلُهُ اللَّهُ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَفْعَلَ كَذَا، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا، وَقَاسُوهُ عَلَى خَلْقِهِ فِي أَعْمَالِهِمْ، فَهُمْ مُشَبَّهَةٌ فِي الْأَفْعَالِ، وَدَخَلَ التَّجَهُُّمُ فِيهِمْ، فَصَارُوا مَعَ ذَلِكَ مُعْطَلَةً! وَقَالُوا: خَلَقَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْجَزَاءِ عَبَثٌ؛ لِأَنَّهَا تَصِيرُ مُعْطَلَةً مُدَدًا مُتَطَاوِلَةً. فَرَدُّوا مِنَ النُّصُوصِ مَا خَالَفَ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ الْبَاطِلَةَ الَّتِي وَضَعُوهَا لِلرَّبِّ تَعَالَى، وَحَرَّفُوا النُّصُوصَ عَنِ مَوَاضِعِهَا، وَضَلُّوا وَبَدَّعُوا مَنْ خَالَفَ شَرِيعَتَهُمْ.

فَمِنْ نُّصُوصِ الْكِتَابِ: قَوْلُهُ تَعَالَى عَنِ الْجَنَّةِ: ﴿أُجِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:

۱۳۳]، ﴿أُجِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ۲۱]. وَعَنِ النَّارِ: ﴿أُجِدَّتْ

لِلْكَافِرِينَ ﴿ [البقرة: ٢٤]، ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿١٣﴾ لِلطَّغْيِينِ مَتَابًا ﴿ [النبا: ٢١، ٢٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴿ [النجم: ١٣، ١٥]. وَقَدْ رَأَى النَّبِيُّ ﷺ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى، وَرَأَى عِنْدَهَا جَنَّةَ الْمَأْوَى.

كَمَا فِي «الصَّحِيحِينَ»، مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي قِصَّةِ الْإِسْرَاءِ، وَفِي آخِرِهِ: «ثُمَّ انْطَلَقَ بِي جِبْرِيْلُ حَتَّى أَتَى سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى، فَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لَا أَذْرِي مَا هِيَ، قَالَ: ثُمَّ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا جَنَابُذُ اللَّوْلُو، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ»^(١).

وَفِي «الصَّحِيحِينَ» مِنْ حَرِيصِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، يُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

وَتَقَدَّمَ حَدِيثُ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَفِيهِ: «يُنَادِ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا»^(٣).

وَتَقَدَّمَ حَدِيثُ أَنَسٍ بِمَعْنَى حَدِيثِ الْبَرَاءِ^(٤).

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).

(٣) تقدم تخريجه (١٤٦/٤).

(٤) تقدم تخريجه (١٤٦/٤).

قال الشيخ:

نعلم أن بعد الموقف في يوم القيامة دار الجزاء: جزاء المحسنين جنات النعيم، وجزاء الكافرين نار الجحيم.

الجنة في الأصل هي البستان الذي يجمع الخضرة والزهور والأنهار والظلال والأشجار والنضرة والبهجة والسرور، وسُمِّي بذلك؛ لأنه يَجَنُّ مَنْ دَخَلَهُ يَسْتَرُ بِهِ، ومنه قول الله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧]، يَعْنِي: أَصْحَابَ الْبُسْتَانِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ [الكهف: ٣٢].

فالجنة في الدنيا هي البساتين التي تبهج وتفرح مَنْ دَخَلَهَا، وَسُمِّيَتْ دَارُ النَّعِيمِ بهذا الاسم؛ لأنَّ فِيهَا مَا لَا عَيْنَ رَأَتْ، وَلَا أُذُنَ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ مَا فِي الْجَنَانِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانٌ﴾ [الرحمن: ٥٢]، ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠]، ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]. وَكَذَلِكَ ذَكَرَ الْكَثِيرَ مِنْ نَعِيمِهَا فِي الْأَحَادِيثِ وَفِي الْآيَاتِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَلَأٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَنْغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [محمد: ١٥]. وَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة: ٢٥]. وَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧] وَقَوْلِهِ:

﴿ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾ [الزخرف: ٧١]. وكذلك قوله تعالى:
 ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة: ١٧] وغير ذلك من الآيات
 الدالة دلالة واضحة على أن هذه الجنة مشتملة على ما يجلب السرور والحبور،
 وأن فيها الجزاء الأوفى، وأن فيها النعيم الذي ليس بعده نعيم، وأن أهلها يغتبطون
 فيها، ويقولون: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّكَ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر:
 ٣٤]. وكذلك يقولون: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْزَنَا الْأَرْضَ نَبَوًّا مِّن
 الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴾ [الزمر: ٧٤]. هكذا نعيمهم.

و ضد ذلك الجحيم التي هي: نار تلظى، نار موقدة، نار حامية، ذكر الله لها
 عدة أسماء، وقال في وصفها: ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾
 [الحجر: ٤٤]، وأخذ العلماء لها سبعة أسماء من الآيات: لظى، والحطمة، وجهنم،
 والجحيم، وسقر، والسعير، والهاوية، وكلها موجودة في القرآن بهذه الأسماء،
 وكلها دالة على شدة الحرارة.

وقد أخبر الله تعالى بشدة العذاب فيها، وأن أهلها كلما نضجت جلودهم
 بدلهم الله جلودًا غيرها، وأنه يحشرهم يوم القيامة على وجوههم، عميًا وصمًا
 وبكمًا، كلما خبت زادهم سعيرًا، أي: كلما انطفأت زيد في حرها، وأن وقودها
 الناس والحجارة، وأنها تطلع على الأفئدة، وأنها عليهم مؤصدة؛ أي: مقفلة.
 وذلك من أنواع العذاب الذي ذكره الله.

وعندما يذكر الجنة يشوق إليها، كأنه يقول: أيها المؤمنون بالجنة المصدقون

بها! اطلبوها بالأعمال الصالحة، فهذا نعيمها وهذه صفتها. وبأيتها المؤمنون بالنار والمصدّقون بها! احذروا منها وابتعدوا عنها، فهذه حرارتها، وهذا عذابها. وأيتها المفرطون، وأيتها الكافرون! أفلا تتوبون، أفلا تندمون وتبتعدون عن الأعمال السيئة التي تجعلكم من أهل ذلك العذاب.

هكذا ذكر الله هذا العذاب وهذا الثواب، وسمّى دار الكفار بالنار، والنار في الأصل: هي هذه النار التي نوقدها في الدنيا، ونتفع بها، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَنْتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَرَمَقًا لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الواقعة: ٧١ - ٧٣]؛ تذكرة أي: تذكرة بالنار الأخرى، فسمّى ذلك العذاب نارا؛ لأنّ فيه نارا تشتعل، وتتقد، وقودها الناس والحجارة.

وقد ورد ذكر الجنة والنار كثيرا في القرآن الكريم، لكي يرغب الله في هذه الدار التي هي دار الثواب، ويحذر من تلك الدار التي هي دار العقاب. عقيدة أهل السنة أنّ الجنة والنار موجودتان الآن، وإن كنا لا نعلم جهتهما ولا مكانهما، فإن علمنا قاصر، لا نحيط إلا بالأرض وما على الأرض، ولكن الجهات كثيرة لا يعلمها إلا الله. ففي يوم «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مع كل زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يُحْرِقُونَهَا»^(١)، أولئك الملائكة قد يكون أحدهم لو تمكّن لقلع الجبال، وجرها خفيفةً بإذن الله، ومع ذلك هذا عددهم، فما مقدارها؟! فإخبار الله تعالى بأنّه يجاء بها يوم القيامة دليل على أنّها موجودة.

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وكذلك الجنة موجودة أيضًا، وتُبرَز يوم القيامة؛ يقول تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٠]، أزلفت: يعني أطلعت وأظهرت، وهذا دليل على أنها موجودة، وأنها تبرز، فيقال: هذه الجنة دار المتقين، ﴿ وَبُرُزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ [الشعراء: ٩١]، بُرُزَت أي: أبرزت وأظهرت، وإبرازها يدل على أنها موجودة الآن، وكذلك الآيات التي مرّت بنا: قول الله تعالى: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾، أي: هيئت لهم، وفي النار: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾، أي: هيئت لهم؛ دليل على أنها موجودة، وقد أعدت لأهلها.

وكذلك قوله في الجنة: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزَّلَةً أُخْرَىٰ ۗ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴾ [النجم: ١٣ - ١٥]، دليل أن الجنة فوق السماء السابعة حيث يشاء الله أنها موجودة الآن. وذكر الله أيضًا سعتها فقال: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَعْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وأنه يقال للبعد في قبره: افتحوا له بابًا إلى الجنة، فيأتيه من روحها وريحانها، فيقول: ربّ أقم الساعة. ويقال للكافر: افتحوا له بابًا إلى النار، فيأتيه من حرّها وسمومها، فيقول: ربّ لا تقيم الساعة^(١). وهذا أيضًا دليل على أنها موجودة، وأنه يفتح له باب إليها، ويقال للمؤمن: هذا مقعدك من الجنة، وللكافر: هذا مقعدك من النار. أليس ذلك دليلًا على أنها موجودة؟

(١) تقدم في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل (٤/١٤٦).

وقد ذكر الشارح أن قوماً من المعتزلة أنكروا وجود الجنة والنار الآن، وقالوا: لا حاجة إلى وجودها الآن، وما دام أنه ليس فيها أحد، تبقى مغلقة الأبواب، ومغلقة الغرف، وتحتاج إلى من يسقيها، ويرعاها هذه المدة الطويلة قبل أن يأتي إليها أهلها، فجعلوا أفكارهم متحكّمة في أمر الله، فقالوا: إن الجنة والنار ليستا موجودتين، وزعموا أنهما تُنشآن في يوم القيامة، عندما يبعث الله الخلق، ينشئ الجنة وينشئ النار.

ولكن الذي عليه أهل السنّة والجماعة، أن الجنة موجودة الآن، وقد دخلها النبي ﷺ، وأن النار موجودة، وقد عرضت عليه الجنة والنار في صلاة الكسوف، فلما عرضت عليه الجنة تقدّم، ولما عرضت عليه النار تقهقر وتأخّر^(١). كل هذا دليل على أنه رآها، وأنها موجودة الآن، ولا يلزم ما يقوله أولئك المعتزلة، من أنها معطّلة، وأنه لا حاجة إلى وجودها، على أصلهم الفاسد الذي أصلوه، وهو أنهم يتحكّمون في أمر الله، ويفرضون على الله ما يريدونه، ويقولون: يجب على الله أن يفعل كذا، فكأنهم هم الذين يُوجبون بعقولهم ما يشاؤون. فهذه عقيدة ثابتة، ولا يضّرّ خلاف من خالفها.

(١) انظر: التعليق التالي.

قال الشارح:

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»^(١) عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: حَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرَتِ الْحَدِيثَ، وَفِيهِ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَأَيْتُ فِي مَقَامِي هَذَا كُلَّ شَيْءٍ وَعِدْتُمْ بِهِ، حَتَّى لَقَدَ رَأَيْتُنِي أَخْذُ قِطْفًا مِنَ الْجَنَّةِ حِينَ رَأَيْتُمُونِي أَقْدَمُ، وَلَقَدَ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»^(٢)، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: انْحَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ، وَفِيهِ: فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعَّكَعْتَ؟ فَقَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ فَتَنَاوَلْتُ عُقُودًا، وَلَوْ أَصَبْتُهُ، لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا، وَرَأَيْتُ النَّارَ، فَلَمْ أَرْ مَنْظَرًا كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ»، قَالُوا: بِسْمِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «يَكْفُرْنَ»، قِيلَ: أَيَكْفُرْنَ بِاللَّهِ؟ قَالَ: «يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الْإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتُ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّهُ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ خَيْرًا قَطُّ!!».

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»^(٣) مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ: «وَأَيْمُ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ رَأَيْتُمْ

(١) برقم (٩٠١)، وأخرجه البخاري أيضًا برقم (١٢١٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٥٢)، ومسلم (٩٠٧).

(٣) برقم (٤٢٦).

مَا رَأَيْتُ، لَصَحِيحِكُمْ قَلِيلًا وَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»، قَالُوا: وَمَا رَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟
قَالَ: «رَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ».

وَفِي «الموطأ» وَ«السُّنَنِ»، مِنْ حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَيْرٌ يعلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يُرْجِعَهَا اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١). وَهَذَا صَرِيحٌ فِي دُخُولِ الرُّوحِ الْجَنَّةَ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»^(٢)، وَ«السُّنَنِ»^(٣)، وَ«المُسْنَدِ»^(٤)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، أَرْسَلَ جِبْرِيلَ إِلَى الْجَنَّةِ، فَقَالَ: اذْهَبْ، فَانظُرْ إِلَيْهَا، وَإِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَذَهَبَ فَانظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَرَجَعَ، فَقَالَ: وَعِزَّتْكَ، لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، فَأَمَرَ بِالْجَنَّةِ فَحُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، فَقَالَ: ارْجِعْ فَانظُرْ إِلَيْهَا، وَإِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ: فَانظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ رَجَعَ، فَقَالَ: وَعِزَّتْكَ، لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ، قَالَ: ثُمَّ أَرْسَلَهُ إِلَى النَّارِ، قَالَ: اذْهَبْ فَانظُرْ إِلَيْهَا، وَإِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ: فَانظَرَ إِلَيْهَا، فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، ثُمَّ رَجَعَ

(١) تقدم تحريجه (١١٨/٤).

(٢) لم يخرج مسلم كما ذكر المصنف، وإنما أخرج حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٢٨٤٢)، وفيه: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ».

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٤٤)، والترمذي (٢٥٦٠) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٣٧٦٣).

(٤) (٢٣٢/٢).

فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ، لَا يَدْخُلُهَا أَحَدٌ سَمِعَ بِهَا، فَأَمَرَ بِهَا، فَحُقِّفَتْ بِالشَّهَوَاتِ، ثُمَّ قَالَ:
 اذْهَبْ، فَانظُرْ إِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَذَهَبَ فَانظَرَ إِلَيْهَا، فَرَجَعَ فَقَالَ:
 وَعِزَّتِكَ، لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَنْجُو مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا».
 وَنَظَائِرُ ذَلِكَ فِي السُّنَّةِ كَثِيرَةٌ.

قال الشيخ:

هذه الأحاديث صريحة في وجود الجنة وفي وجود النار، وأن الرسول ﷺ رآها أكثر من مرة، ففي صلاة الخسوف ذكر أنه عرضت عليه الجنة، وأنه تناول منها عنقودًا لو أخذه لأكلوا منه ما بقيت الدنيا؛ لأن نعيم الجنة لا ينفد. وعرضت عليه النار فتكعكع، يعني: تقهقر وتأخر، وذكر أنه رأى فيها فلانًا وفلانًا، وسمى فيها عمرو بن لحي، وهو أول من غير دين إبراهيم عليه السلام، ورأى فيها سارق الحاج، الذي يسرق المتاع بمحجنه، ورأى المرأة التي تعذب بهرة ربطتها حتى ماتت جوعًا، وفي هذا الحديث يقول: «رَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ»؛ لأنهن يكفرن الإحسان، إذا أحسن الزوج إلى المرأة غالبًا وليس دائمًا، ثم رأت منه شيئًا يخالف ما تشتهي أنكرت إحسانه، ويكون ذلك سببًا في عذابها.

وكذلك أخبر النبي ﷺ أن أرواح الشهداء في أجواف طير خضر تعلق في شجر الجنة. حتى يردها الله إلى أجسادها. وأخبر الله تعالى أن أرواحًا من الكفار - كآل فرعون - تعرض على النار، فقال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾

[غافر: ٤٦]. مما دلّ على أنّها موجودة، وأنّهم يعرضون عليها في الصباح والمساء. فكلّ هذه الأدلّة واضحة الدلالة في أنّ الجنّة والنار موجودتان الآن، ولا يهّمنا ما يقوله المعتزلة من أنّها تبقى معطّلة سنين طويلة، فإنّها تبقى تذكره، وتعتبر ظاهرة لمن أطلعه الله عليها، وقد ذكر ابن عمر - رضي الله عنهما - أنّه رأى رؤيا، وفيها: أنّ رجلين أتيا به النار، فإذا هي مطوية كطيّ البئر، يقول: رأيت فيها رجالاً أعرفهم، فقيل: لن تراهم.

وكذلك أخبر النبي ﷺ في حديث سمرة رضي الله عنه الطويل^(١) في المنام، أنّه دخل الجنّة في المنام مع رجلين هما ملكان، وأنّه رأى فيها كذا وكذا، وهذا كلّ دليل على أنّها معدّة موجودة، وأنّ من مات وصل إليه ألمه إن كان من أهل العذاب، ونعيمه إن كان من أهل الثواب.

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٦، ٧٠٤٧).

قال الشارح:

وَأَمَّا عَلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْجَنَّةَ الْمَوْعُودُ بِهَا هِيَ الْجَنَّةُ الَّتِي كَانَ فِيهَا آدَمُ ثُمَّ أُخْرِجَ مِنْهَا، فَالْقَوْلُ بِوُجُودِهَا الْآنَ ظَاهِرٌ، وَالْخِلَافُ فِي ذَلِكَ مَعْرُوفٌ.

وَأَمَّا شُبُهَةٌ مَنْ قَالَ: إِنَّهَا لَمْ تُخْلَقْ بَعْدُ، وَهِيَ: أَمَّا لَوْ كَانَتْ مَخْلُوقَةً الْآنَ لَوَجِبَ اضْطِرَارًا أَنْ تَفْنَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنْ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ فِيهَا وَيَمُوتُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، و﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ فِي «جَامِعِهِ»^(١)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِيءْ أُمَّتَكَ مِنْ نَبِيِّ السَّلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيَعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ». قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وَفِيهِ أَيْضًا^(٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنِ جَابِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ»، قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، قَالُوا: فَلَوْ كَانَتْ مَخْلُوقَةً مَفْرُوعًا مِنْهَا لَمْ تَكُنْ قِيَعَانًا، وَلَمْ يَكُنْ لِهَذَا الْغِرَاسِ مَعْنَى.

وَقَالُوا: وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى عَنِ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ أَنَّهَا قَالَتْ: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا

(١) برقم (٣٤٦٢).

(٢) برقم (٣٤٦٤، ٣٤٦٥).

في الْجَنَّةِ ﴿ [المحریم: ١١].

فَالْجَوَابُ: إِنَّكُمْ إِنْ أَرَدْتُمْ بِقَوْلِكُمْ: إِنَّهَا الْآنَ مَعْدُومَةٌ بِمَنْزِلَةِ النَّفْخِ فِي الصُّورِ، وَفِيَامِ النَّاسِ مِنَ الْقُبُورِ، فَهَذَا بَاطِلٌ، يَرُدُّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَدِلَّةِ وَأَمْثَالِهَا بِمَا لَمْ يُذْكَرْ، وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنَّهَا لَمْ يَكْمُلْ خَلْقُ جَمِيعِ مَا أَعَدَّ اللَّهُ فِيهَا لِأَهْلِهَا، وَأَنَّهَا لَا يَزَالُ اللَّهُ يُحَدِّثُ فِيهَا شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، وَإِذَا دَخَلَهَا الْمُؤْمِنُونَ، أَحَدَثَ اللَّهُ فِيهَا عِنْدَ دُخُولِهِمْ أُمُورًا أُخْرَى، فَهَذَا حَقٌّ لَا يُمَكِّنُ رَدَّهُ، وَأَدَلَّتْكُمْ هَذِهِ إِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى هَذَا الْقَدْرِ.

قال الشيخ:

هذه الأحاديث وأشباهاها دالة على أن الجنة موجودة، ولكن يحدث الله فيها ما يشاء، ويجدد فيها ما يشاء.

ففي حديث الإسراء: أخبر ﷺ أنه لقي إبراهيم عليه السلام، فقال: «أَقْرِيءْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيَعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ»، يعني: أن الجنة موجودة، ولكن كل أحد يُغْرَسُ له فيها غراس، أعمال يعملها في الدنيا، تكون مما يُغْرَسُ له في الجنة، فإذا قال: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، غرست له شجرة في الجنة، وإذا كررها فكذلك. وأيضاً بيني له غرف بأعماله الصالحة. ففي بعض الآثار أن الملائكة تبني لابن آدم بيوتاً وغرفاً ما دام يعمل الصالحات، يذكر الله ويشكره ويأتي بالحسنات، فإذا توقّف عن العمل

توقفوا عن البناء، فإذا قيل: لماذا توقفتم؟ قالوا: حتى تأتينا النفقة. الباني في الدنيا يحتاج إلى نفقة، فالعمال لا يعملون لك من دون نفقة، ونفقة الملائكة الذين يبنون لك في الجنة هي: ذكر الله وعبادته وعمل الحسنات. والبناء الذي تبنيه في الآخرة هو الذي يبقى، ولذا يقول بعض الشعراء^(١):

لَا دَارَ لِلْمَرْءِ بَعْدَ الْمَوْتِ يَسْكُنُهَا إِلَّا الَّتِي كَانَ قَبْلَ الْمَوْتِ يَبْنِيهَا
فَإِنْ بَنَاهَا بِخَيْرِ طَابَ مَسْكَنُهَا وَإِنْ بَنَاهَا بِشَرٍّ خَابَ بَانِيهَا
النَّفْسُ تَرْغَبُ فِي الدُّنْيَا وَقَدْ عَلِمَتْ أَنَّ الزَّهَادَةَ فِيهَا تَرَكَ مَا فِيهَا
فَاغْرِسْ أَصُولَ التَّقَى مَا دُمْتَ مُجْتَهِدًا وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ بَعْدَ الْمَوْتِ لَاقِيهَا

فهكذا يكون الإنسان في الدنيا، أعماله تكون بمنزلة الغراس في الجنة، فكلما عمل حسنة، غرس له شجرة، أو بني له بيوت ومنازل في الجنة. مما يدل على أن الجنة موجودة، وأنها تتكامل في يوم القيامة بالأعمال الصالحة. كلما توفي إنسان بني له بقدر أعماله، وهكذا إلى أن يأذن الله بقيام الساعة.

في حديث عبادة رضي الله عنه الذي في الصحيحين: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»^(٢). ففي الدار الآخرة جنة هي دار الجزاء أعدها الله لأوليائه، ودار

(١) راجع (٢٠٩/٤).

(٢) تقدم تحريجه (٧/٤).

سمّاها النَّار، هي دار العذاب أعدّها لأعدائه ولمن كفر به .

وصفات الجنّة والنّار تؤخذ من الكتاب والسنة؛ حيث ذكر الله تعالى ما فيهما من العذاب وما فيهما من الثواب . ولا شك أنّ من آمن بذلك حقاً يستعدّ لذلك . وقد قال بعض السلف: عجبت للجنّة كيف ينام طالبها، وعجبت للنّار كيف ينام هاربها؛ يعني: أنّ من تحقّق هذه الجنّة فإنّه يطلبها، وإذا طلبها فإنّه لا يهينأ بالمنام ولا بالمقام . وكذلك من تحقّق وجود النّار وعذابها وما فيها من الأنكال والأكبال فإنّه يهرب منها، ولا يهينأ بالمنام ولا يهينأ بالمقام .

الكلام عن الجنّة والنّار يتعلّق بالكلام عن أحقيتهما، وهذا يؤمن به كل من يؤمن بالله، وأما يتعلّق بوجودهما الآن، فهذا يؤمن به أهل السنة، ويخالف فيه المبتدعة، ويتعلّق ببقائهما واستمرارهما، وهذا يؤمن به أهل السنة أيضاً، فيؤمنون بأنّ الجنّة والنّار موجودتان الآن، وأتمها مخلوقتان، وأنّ النبي ﷺ قد رأى الجنّة ورأى النّار رؤياً حقيقية، إمّا في المنام، وإمّا في الإسرائاء، ويؤمنون بما ذكر الله عنهما، وأنّ الجنّة أعدّت للمتّقين، وأنّ النّار أعدّت للكافرين، وغير ذلك من الأدلّة من الكتاب والسنة التي أوردها الشارح .

ويدخل في ذلك ردنا على من أنكر ذلك، كما عرفنا عن المعتزلة ونحوهم الذين أنكروا وجود الجنّة والنّار الآن، وقالوا: إنّما يخلقان يوم القيامة، وبين أنّ هذا مصادمة لكتاب الله وسنة رسوله، والتي أخبر فيها بأنّه هيّا الجنّة وأعدّها لمن آمن، فهي مخلوقة موجودة الآن بما فيها من النعيم، وهيّا النّار فهي مهيبّة بما فيها من عذاب . وأنّ الميت في قبره يفتح له بابان؛ باب إلى الجنّة، وباب إلى النّار، فإذا

كان مؤمناً قليل له: هذا منزلك من الجنة، وهذا منزلك من النار لو كفرت. فيزداد فرحاً حيث يرى العذاب الذي سلم منه، والثواب الذي حظي به ويفتح للكافر بابان؛ باب إلى الجنة، ويقال: هذا منزلك لو آمنت بالله، وباب إلى النار، ويقال: هذا منزلك ومقيلك، فيزداد حسرة على ما فاته من الثواب، وما فاته من النعيم. وهذا بلا شك دليل على أنّهما موجودتان الآن، مهيتتان كما أخبر الله. فيؤمن أهل الإيمان بما أخبر الله، ومن هذا: هذه الأخبار الواضحة التي تدلّ على وجود الجنة والنار.

قال الشارح:

وَأَمَّا اخْتِجَاجُكُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].
فَأُتَيْتُمْ مِنْ سُوءِ فَهْمِكُمْ مَعْنَى الْآيَةِ، وَاخْتِجَاجُكُمْ بِهَا عَلَى عَدَمِ وُجُودِ الْجَنَّةِ
وَالنَّارِ الْآنَ نَظِيرُ اخْتِجَاجِ إِخْوَانِكُمْ بِهَا عَلَى فَنَائِهِمَا وَخَرَابِهِمَا وَمَوْتِ أَهْلِهِمَا!!
فَلَمْ تُوفَّقُوا أَنْتُمْ وَلَا إِخْوَانُكُمْ لِفَهْمِ مَعْنَى الْآيَةِ، وَإِنَّمَا وَفَّقَ لِذَلِكَ أُمَّةُ الْإِسْلَامِ،
فَمِنْ كَلَامِهِمْ: أَنَّ الْمُرَادَ كُلُّ شَيْءٍ مِمَّا كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْفَنَاءَ وَالْهَلَاكَ هَالِكٌ،
وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ خُلِقَتَا لِلْبَقَاءِ لَا لِلْفَنَاءِ، وَكَذَلِكَ الْعَرْشُ، فَإِنَّهُ سَقْفُ الْجَنَّةِ. وَقِيلَ:
الْمُرَادُ إِلَّا مُلْكُهُ، وَقِيلَ: إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهَهُ، وَقِيلَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ: ﴿كُلُّ مَنْ
عَلَيْهَا فَإِنَّ﴾ [الرحمن: ٢٦]، فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: هَلَكَ أَهْلُ الْأَرْضِ، وَطَمِعُوا فِي الْبَقَاءِ،
فَأَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَنَّهُمْ يَمُوتُونَ، فَقَالَ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا
وَجْهَهُ﴾؛ لِأَنَّهُ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، فَأَيَقَنَتِ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ ذَلِكَ بِالمَوْتِ، وَإِنَّمَا قَالُوا
ذَلِكَ تَوْفِيقًا بَيْنَهَا وَبَيْنَ النُّصُوصِ الْمُحْكَمَةِ، الدَّالَّةِ عَلَى بَقَاءِ الْجَنَّةِ، وَعَلَى بَقَاءِ
النَّارِ أَيْضًا، عَلَى مَا يُذَكَّرُ عَنْ قَرِيبٍ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قال الشيخ:

الذين يحتجون بهذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، هم
المبتدعة من المعتزلة وغيرهم، قالوا: لو كانت موجودة، لآتى عليها الفناء والهلاك،
وكذلك النار لو كانت موجودة لفنى كما يفنى غيرها؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿كُلُّ

شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ، والرَّدُّ: أن الله أخبر بأن الذي خُلِقَ للبقاء فإنه باق، وذلك أن الجنة والنار خلقتا للبقاء، يثاب بهما ويعاقب بهما، أي بعد الموت وبعد البعث من الموت، فهما خلقتا للبقاء وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، أي: كل شيء خلقه الله في الدنيا لا بد أن يهلك ويفنى إلا وجه الله، أي: إلا الله وحده، أو ما أريد به وجهه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، الضمير في ﴿مَنْ عَلَيْهَا﴾ يعود على الأرض، فإنه فانٍ ويبقى وجه ربك، ويقال إن المراد: كل من على الحياة. ولا مانع من أن يموت أهل السماء وأهل الأرض، من الملائكة والمخلوقات التي خلقها الله للبقاء، ثم بعد ذلك يعودون ويبعثون كما كانوا؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

ويقول الرسول ﷺ في الحديث: «أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون»^(١)، فأخبر بأن الحياة لله وحده، وأن كل ما سواه يموت، ولا يلزم أن ذلك يعم المخلوقات كلها كالجمادات ونحوها.

وقد ذكر الله أن الجبال تكون هباءً، وأن الأرض تتغير بغيرها ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ تَطْفَرُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وأن السموات تنفطر ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْبِ﴾ [المعارج: ٨]، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ

(١) تقدم تخريجه (٣٨٥/١).

السَّمَاءِ بِالْغَمَمِ وَنَزَّلَ الْمَلَكَةَ تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾ [الفرقان: ٢٥]. فذكر أنّ كلّ هذه الأشياء تتغيّر في ذلك اليوم الذي هو يوم القيامة، ولكن لا يكون ذلك عامًا في كلّ الموجودات. وعلى كلّ حال: لا يلزم من ذلك فناء الجنّة؛ إذ هي من الذي خلقه الله للأخرة.

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (لَا تَفْنِيَانِ أَبَدًا وَلَا تَبِيدَانِ)، هَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْأَئِمَّةِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ.

وَقَالَ بِقَاءِ الْجَنَّةِ وَفَنَاءِ النَّارِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ، وَالْقَوْلَانِ مَذْكُورَانِ فِي كَثِيرٍ مِنْ كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَغَيْرِهَا.

وَقَالَ بِقَاءِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ الْجَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ إِمَامُ الْمُعْطَلَةِ، وَلَيْسَ لَهُ سَلَفٌ قَطُّ، لَا مِنَ الصَّحَابَةِ وَلَا مِنَ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَلَا مِنْ أُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَأَنْكَرَهُ عَلَيْهِ عَامَّةُ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَكَفَرُوا بِهِ، وَصَاحُوا بِهِ وَبِاتِّبَاعِهِ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ، وَهَذَا قَالَهُ لِأَصْلِهِ الْفَاسِدِ الَّذِي اعْتَقَدَهُ، وَهُوَ امْتِنَاعُ وُجُودِ مَا لَا يَتَنَاهَى مِنَ الْحَوَادِثِ! وَهُوَ عُمْدَةُ أَهْلِ الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ، الَّتِي اسْتَدَلُّوا بِهَا عَلَى حُدُوثِ الْأَجْسَامِ، وَحُدُوثِ مَا لَمْ يَحُلْ مِنَ الْحَوَادِثِ، وَجَعَلُوا ذَلِكَ عُمْدَتَهُمْ فِي حُدُوثِ الْعَالَمِ، فَرَأَى الْجَهْمُ أَنَّ مَا يَمْنَعُ مِنْ حَوَادِثِ لَا أَوَّلَ لَهَا فِي الْمَاضِي يَمْنَعُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ!! فَدَوَّمَ الْفِعْلَ عِنْدَهُ عَلَى الرَّبِّ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مُتَمَتِّعٌ، كَمَا هُوَ مُتَمَتِّعٌ عِنْدَهُ عَلَيْهِ فِي الْمَاضِي!! وَأَبُو الْهَذِيلِ الْعَلَّافُ شَيْخُ الْمُعْتَزِلَةِ وَافَقَهُ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ، لَكِنْ قَالَ: إِنَّ هَذَا يَقْتَضِي فَنَاءَ الْحَرَكَاتِ، فَقَالَ بِقَاءِ حَرَكَاتِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى يَصْبِرُوا فِي سُكُونٍ دَائِمٍ، لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى حَرَكَةٍ!! وَقَدْ تَقَدَّمَ الْإِشَارَةُ إِلَى اخْتِلَافِ النَّاسِ فِي تَسْلُسُلِ الْحَوَادِثِ فِي الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ، وَهِيَ مَسْأَلَةٌ دَوَامِ فَاعِلِيَّةِ الرَّبِّ تَعَالَى، وَهُوَ لَمْ يَزَلْ رَبًّا قَادِرًا فَعَالًا لِمَا يُرِيدُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَمْرُلْ حَيًّا عَلَيْهِ قَدِيرًا. وَمِنَ الْمَحَالِ أَنْ يَكُونَ الْفِعْلُ مُتَمَتِّعًا عَلَيْهِ لِذَاتِهِ، ثُمَّ يَنْقَلِبُ،

فَيَصِيرُ مُمَكِّنًا لِدَاتِهِ، مِنْ غَيْرِ تَجَدُّدِ شَيْءٍ، وَلَيْسَ لِلأَوَّلِ حَدٌّ مَحْدُودٌ حَتَّى يَصِيرَ
الْفِعْلُ مُمَكِّنًا لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ الْحَدِّ، وَيَكُونُ قَبْلَهُ مُتَمَنِّعًا عَلَيْهِ، فَهَذَا الْقَوْلُ تَصَوُّرُهُ
كَافٍ فِي الْجَزْمِ بِفَسَادِهِ.

فَأَمَّا أَبَدِيَّةُ الْجَنَّةِ، وَأَنَّهَا لَا تَفْنَى وَلَا تَبِيدُ، فَهَذَا مِمَّا يُعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ
الرَّسُولَ ﷺ أَخْبَرَ بِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُوِّدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ غَيْرَ مَجْدُوفٍ﴾ [هود: ١٠٨]، أَي: غَيْرِ
مَقْطُوعٍ، وَلَا يُتَابَعِي ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾.

وَاحْتَلَفَ السَّلَفُ فِي هَذَا الِاسْتِثْنَاءِ؛ فَقِيلَ: مَعْنَاهُ إِلَّا مُدَّةٌ مُكْثِرُهُمْ فِي النَّارِ،
وَهَذَا يَكُونُ لِمَنْ دَخَلَ مِنْهُمْ إِلَى النَّارِ، ثُمَّ أُخْرِجَ مِنْهَا، لَا لِكَأَلِهِمْ.
وَقِيلَ: إِلَّا مُدَّةٌ مُقَامِهِمْ فِي الْمَوْقِفِ، وَقِيلَ: إِلَّا مُدَّةٌ مُقَامِهِمْ فِي الْقُبُورِ
وَالْمَوْقِفِ.

وَقِيلَ: هُوَ اسْتِثْنَاءٌ اسْتِثْنَاهُ الرَّبُّ وَلَا يَفْعَلُهُ، كَمَا تَقُولُ: وَاللَّهِ لَأَضْرِبَنَّكَ
إِلَّا أَنْ أَرَى غَيْرَ ذَلِكَ، وَأَنْتَ لَا تَرَاهُ، بَلْ تَجْزِمُ بِضَرْبِهِ.

وَقِيلَ: «إِلَّا» بِمَعْنَى الْوَاوِ، وَهَذَا عَلَى قَوْلِ بَعْضِ النُّحَاةِ، وَهُوَ ضَعِيفٌ،
وَسَبِيوِيهِ يَجْعَلُ «إِلَّا» بِمَعْنَى «لَكِنْ»، فَيَكُونُ الِاسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعًا، وَرَجَّحَهُ ابْنُ
جَرِيرٍ، وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا خُلْفَ لَوَعْدِهِ، وَقَدْ وَصَلَ الِاسْتِثْنَاءَ بِقَوْلِهِ:
﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوفٍ﴾. قَالُوا: وَنَظِيرُهُ أَنْ تَقُولَ: أَسْكَنْتُكَ دَارِي حَوْلًا إِلَّا مَا
شِئْتُ. أَي: سِوَى مَا شِئْتُ، أَوْ لَكِنْ مَا شِئْتُ مِنَ الزِّيَادَةِ عَلَيْهِ.

وَقِيلَ: الاستِثْنَاءُ لِإِعْلَامِهِمْ بِأَنَّهُمْ مَعَ خُلُودِهِمْ فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ، لَا أَنَّهُمْ يُخْرَجُونَ عَنْ مَشِيئَتِهِ، وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ عَزِيمَتَهُ وَجَزْمَهُ لَهُمْ بِالْخُلُودِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيْنُ شِئْنَا لَنذَهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٦]. وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَيْكَ﴾ [الشورى: ٢٤]. وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ أَوْشَاءَ اللَّهِ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْهِ كُمْ وَلَا أَدْرِي كُمْ بِهِ﴾ [يسونس: ١٦]. وَنَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ، يُجْبِرُ عِبَادَهُ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا بِمَشِيئَتِهِ، مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

وَقِيلَ: إِنَّ «مَا» بِمَعْنَى «مَنْ»، أَي: إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ دُخُولَهُ النَّارَ بِدُنُوبِهِ مِنْ السَّعْدَاءِ. وَقِيلَ: غَيْرُ ذَلِكَ.

وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ، فَهَذَا الاستِثْنَاءُ مِنَ الْمُتَشَابِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مُجْدُوفٍ﴾ [هود: ١٠٨]، مُحْكَمٌ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا الرَّقْمَ مَا لَمْ يَمِنْ نَفَادٍ﴾ [ص: ٥٤]. وَقَوْلُهُ: ﴿أَسْكُلُوا دَائِمًا وُظْلَهَا﴾ [الرعد: ٣٥]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا هُمْ بِمِنهَا بِمُشْرَبِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].

وَقَدْ أَكَّدَ اللَّهُ خُلُودَ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِالتَّأْيِيدِ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦]. وَهَذَا الاستِثْنَاءُ مُنْقَطِعٌ، وَإِذَا ضَمَمْتَهُ إِلَى الاستِثْنَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٨]، تَبَيَّنَ لَكَ الْمُرَادُ مِنَ الْآيَتَيْنِ، وَاسْتِثْنَاءُ الْوَقْتِ الَّذِي لَمْ يَكُونُوا فِيهِ فِي

الجنة من مدة الخلود، كاستثناء الموتة الأولى من جملة الموت، فهذه موتة تقدمت على حياتهم الأبدية، وذلك مفارقة للجنة تقدمت على خلودهم فيها.

والأدلة من السنة على أبدية الجنة ودوامها كثيرة، كقوله ﷺ: «مَنْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ فِيهَا وَلَا يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ وَلَا يَمُوتُ»^(١). وقوله: «يُنَادِي مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَأَنْ تَشَبُّوا فَلَا تَهْرُمُوا أَبَدًا، وَأَنْ تَحْيُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا»^(٢).

وتقدم ذكر ذبح الموت بين الجنة والنار، ويُقال: «يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ»^(٣).

قال الشيخ:

هذا دليل واضح على أبدية الجنة ودوامها. أهل السنة يقولون بأبدية الجنة والنار ودوامهما، وعدم انقطاعهما. وبعض العلماء قالوا: إن عذاب النار ينقطع، أما الجنة، فنعيمها دائم أبدي لا ينقطع. وهناك مبتدعة إمامهم الجهم بن صفوان، قالوا: بأن الجنة والنار تغنيان، أول من قال هذا القول: الجهم بن صفوان، وهو

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٦) بنحوه، وأخرجه بلفظه أحمد (٣٠٤/٢)، والترمذي (٢٥٢٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٣٧) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الذي جمع ثلاث بدع: بدعة التعطيل، وبدعة الجبر، وبدعة الإرجاء.
 ومّر بنا أنّ من عقيدته: أنه يقول بامتناع حوادث لا نهاية لها، ولا بداية لها.
 وهذا على قاعدة له ابتكرها، ولم يسبق إلى هذا القول، وليس هناك أحد قبله قال
 بأنّ الجنة تنقطع وتنفى وتزول، فهو أوّل من قال بذلك، ثم أبو الهذيل العلاف من
 رؤوس المعتزلة، ومن رؤوس المتكلمين، وافقه في أنّ النار تنفى، وكذلك الجنة،
 ولكن يقول: إنّ فناءها بمعنى أنّها تبقى موجودة، وأهلها كأثمهم ليسوا أحياء، أي
 تذهب حياتهم وتذهب حركاتهم. ولا شك أنّ هذا قول بالفناء.
 وهناك قول في أنّ أهل النار يبقون فيها بلا حركة، أو أنّ طبائعهم تتقلب
 طبيعة نارية، بمعنى أنّهم يبقون في النار من دون تألم، أي لا يحسّون بألمها؛
 لأنّهم يصبحون ناريتين، كالجنّ والشياطين الذين لا تحرقهم النار في الدنيا.
 وكلّ هذه أقوال لا دليل عليها.

أما أبدية الجنة فقد أكدها الله تعالى، وورد التأكيد بالأبدية في القرآن في عدّة
 آيات، فيها: قول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَدُخُلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ [النساء:
 ٥٧]، فأكد الخلود بالأبدية. وكذلك في قوله: عز وجل: ﴿ وَالسَّعِيدُونَ
 الْأُولُونَ مِنَ الْمُهْجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ
 وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [التوبة: ١٠٠]، أكد
 الخلود بالأبدية، بمعنى: أنّهم مخلّدون فيها مخلدًا دائمًا لا يتحوّل، فالأبدية بمعنى

الدوام. وكذلك في قوله تعالى: ﴿جَزَاءُكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [البينة: ٨]، أكد الخلود بالأبدية، وهذا دليل على البقاء.

وقد ورد التأكيد بثلاثة أشياء في قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١]، مقسم: دائم، خالدین: دائمين، أبداً: مؤبداً. وهذا دليل مهم على الأبدية والاستمرار.

واستدل الشارح على ذلك أيضاً بقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦]، الموتة الأولى: يعني: التي في الدنيا، فهم دائمون فيها لا يموتون، بل مستمرّ بقاؤهم ولا يتحولون منها. وهذا أيضاً دليل على بقائها.

واستدل أيضاً بقوله ﷺ في وصف أهل الجنة: «يُنَادِي مُنَادٍ إِنْ لَكُمْ أَنْ تَسْتَحُوا فَلَا تَسْتَمُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَحْيُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَسْتَبُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا»^(١)، والحديث الذي تقدم في ذبح الموت بين الجنة والنار، وأنه يقال: «يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ»^(٢). فيزداد أهل الجنة فرحاً، ويزداد أهل النار سوءاً؛ لأنهم يتمنون الخلاص، ويتمنون أن يقضى عليهم، ﴿وَنَادَىٰ يَمْلِكُ لِيقْضِ عَلَيْكَ نَارُكَ قَالَ إِنَّكُمْ

(١) تقدم تخريجه (٣٠١/٤).

(٢) تقدم تخريجه (٢٧٤/٤).

مَكْتُوبَةٌ ﴿ [الزخرف: ٧٧]، فيتمنون أن يقضي عليهم الله ليموتوا، فيخبر الله بأن ذلك لا يكون فيقول: ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر: ٣٦]، ويقول في آية أخرى: ﴿ ثُمَّ لَا يَبُوتُ فِيهَا وَلَا يَخَيَّرُ ﴾ [الأعلى: ١٣]، يتمنى الموت فلا يموت، ولا يجيا حياة طيبة يسعد فيها وينعم، هذه حالتهم. وهذا دليل على البقاء، ودليل على دوامهم وعدم انقطاع نعيم هؤلاء وعذاب هؤلاء. ومر بنا كلام الشارح على ما يتعلق بقول الله - عز وجل -: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ ﴾ [هود: ١٠٨]، أكد البقاء بقوله تعالى: ﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾، أي: ما دامت باقية السماء والأرض، ومعلوم أن السماء يعيدها الله كما شاء، وأن الأرض يبدها ﴿ يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، فتبقى السموات وتبقى الأرض التي تبدل، ولا نهاية لبقائها، وما دامت السموات والأرض باقية، فالجنة والنار باقيتان. وكذلك قوله: ﴿ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ ﴾، أي: غير مقطوع ولا مصروم ولا نهاية له، وباقٍ مستمر متواصل، ليس له ما يكدره ولا ما يقطعه. فهذا من المحكم؛ أي إن الآيات التي فيها الخلود والأبدية والدوام وعدم الانقطاع هي محكمة تدل على الأبدية والاستمرار، وأن أهل الجنة إن قيل لهم: إن نعيمكم سينقطع، ولو بعد مئة ألف سنة، ولو بعد ألف ألف سنة، سيتكدر نعيمهم ويقولون: لا هناء لنا ما دام أنه سينقطع، فإنه سيأتي ذلك اليوم ولو كان بعيداً. فهذا معلوم. ومما يكدر نعيم الدنيا على أهلها معرفتهم بأن نعيمها يزول،

وأنه يتبدل. وأما نعيم الجنة فهو لا يزول، ولذلك بشرهم ربهم بأنهم باقون فيها، وأنهم لا يحولون ولا يزولون.

والاستثناء في آية هود: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾، فقد مر بنا أن العلماء قالوا: هذا الاستثناء من المتشابه، ومنهم من حمله على ما قبل دخولها، يعني: أنه قد يقضي عليهم قبل دخولها زمان. وهو وقت الحساب، فيكون فعله لذلك هو الاستثناء، أو يكون ذلك وقت الوقوف يوم القيامة قبل نزول الله لفصل القضاء، فيكون هذا هو زمن الاستثناء، وقيل: إنه استثناء، ولكن لا يدل على أنه يؤتى أو يقطع عليهم نعيمهم، ومثله الشارح بقولك: سأكرمك إلا أن أشاء، وأنت عازم على إكرامه. وقد ورد ذلك أيضًا في القرآن، في قوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٤٨].

وعلى كل حال فهو من المتشابه، والآيات الدالة على استمرار النعيم وبقائه محكمة ليس فيها خفاء.

فيؤمن أهل العقيدة السلفية بما تتضمن تلك الآيات ويستعدون للقاء الله، ويطلبون هذا الثواب الذي لا يحول ولا يزول.

قال الشارح:

وَأَمَّا أَبَدِيَّةُ النَّارِ وَدَوَامُهَا، فَلِلنَّاسِ فِي ذَلِكَ ثَمَانِيَةٌ أَقْوَالٍ:
أَحَدُهَا: أَنَّ مَنْ دَخَلَهَا لَا يَخْرُجُ مِنْهَا أَبَدًا، وَهَذَا قَوْلُ الْخَوَارِجِ
وَالْمُعْتَزَلَةِ.

وَالثَّانِي: أَنَّ أَهْلَهَا يُعَذَّبُونَ فِيهَا، ثُمَّ تَنْقَلِبُ طَبِيعَتُهُمْ، وَتَبْقَى طَبِيعَةُ نَارِيَّةٍ
يَتَلَذَّذُونَ بِهَا لِمَوَافَقَتِهَا لَطَبْعِهِمْ! وَهَذَا قَوْلُ إِمَامِ الْأَنْحَادِيَّةِ ابْنِ عَرَبِي الطَّائِي.

الثَّالِثُ: أَنَّ أَهْلَهَا يُعَذَّبُونَ فِيهَا إِلَى وَقْتٍ مُخَدُّودٍ، ثُمَّ يَخْرُجُونَ مِنْهَا،
وَيُخَلِّفُهُمْ فِيهَا قَوْمٌ آخَرُونَ، وَهَذَا الْقَوْلُ حَكَاهُ الْيَهُودُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَأَكْذَبَهُمْ فِيهِ،
وَقَدْ أَكْذَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَنْتَانَا
مَقْدُودَةٌ قُلْ أَخَذْتُمُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ

النَّكَارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ [البقرة: ٨٠، ٨١].

الرَّابِعُ: يَخْرُجُونَ مِنْهَا، وَتَبْقَى عَلَى حَالِهَا لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ.

الخَامِسُ: أَنَّهَا تَفْنَى بِنَفْسِهَا؛ لِأَنَّهَا حَادِثَةٌ، وَمَا ثَبَتَ حَدُوثُهُ اسْتَحَالَ بِقَاوُؤُهُ!!
وَهَذَا قَوْلُ الْجَهْمِ وَشِيعَتِهِ، وَلَا فَرْقَ عِنْدَهُ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، كَمَا تَقَدَّمَ.

السَّادِسُ: تَفْنَى حَرَكَاتُ أَهْلِهَا، وَيَصِيرُونَ جَمَادًا، لَا يُحْسِنُونَ بَأْمًا، وَهَذَا قَوْلُ
أَبِي الْهَدَيْلِ الْعَلَّافِ كَمَا تَقَدَّمَ.

السَّابِعُ: أَنَّ اللَّهَ يُخْرِجُ مِنْهَا مَنْ يَشَاءُ، كَمَا وَرَدَ فِي السُّنَنِ، ثُمَّ يُبْقِيهَا مَا يَشَاءُ

ثُمَّ يُفْنِيهَا، فَإِنَّهُ جَعَلَ لَهَا أَمَدًا تَنْتَهِي إِلَيْهِ.

الثَّامِنُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُخْرِجُ مِنْهَا مَنْ يَشَاءُ، كَمَا وَرَدَ فِي السُّنَّةِ، وَيَبْقَى فِيهَا
الْكَفَّارُ، بَقَاءً لَا انْقِضَاءَ لَهُ، كَمَا قَالَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَمَا عَدَا هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ الْأَخِيرَيْنِ ظَاهِرُ الْبُطْلَانِ.

وَهَذَانِ الْقَوْلَانِ لِأَهْلِ السُّنَّةِ يُنظَرُ فِي دَلِيلِهِمَا.

فَمِنْ أَدِلَّةِ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ مِنْهُمَا: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا

مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمَنْ

أَتَارَ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشِهيقٌ ﴿١٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ

رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٦، ١٠٧]. وَلَمْ يَأْتِ بَعْدَ هَذَيْنِ الْأِسْتِثْنَاءَيْنِ مَا أَتَى

بَعْدَ الْأِسْتِثْنَاءِ الْمَذْكُورِ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿عَطَاةٌ غَيْرَ مَجْدُوفَةٍ﴾ [هود: ١٠٨].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [النبا: ٢٣].

وَهَذَا الْقَوْلُ - أَعْنِي الْقَوْلَ بِفَنَاءِ النَّارِ دُونَ الْجَنَّةِ - مَنْقُولٌ عَنِ عُمَرَ، وَابْنِ

مَسْعُودٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَأَبِي سَعِيدٍ، وَغَيْرِهِمْ.

وَقَدْ رَوَى عَبْدُ بَنِ مُحَمَّدٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» الْمَشْهُورِ، بِسَنَدِهِ إِلَى عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ:

«لَوْ لَبِثَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ كَقَدْرِ رَمْلِ عَالِجٍ، لَكَانَ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَقْتُ

يَخْرُجُونَ فِيهِ». ذَكَرَ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ: ﴿لَيْسِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾.

قَالُوا: وَالنَّارُ مُوجِبٌ عَظِيمٌ، وَالْجَنَّةُ مُوجِبٌ رَحِيمٌ، وَقَدْ قَالَ صلى الله عليه وسلم: «لَسَا

قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ كِتَابًا، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ

غَضَبِي»، وَفِي رِوَايَةٍ: «تَغْلِبُ غَضَبِي». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»^(١)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

قال الشيخ:

تكلم الشارح على فناء النار ومن يخرج منها، والأقوال الستة التي مرت بنا من أقوال المبتدعة، فمن عقيدة الخوارج والمعتزلة أنّ من دخل النار لا يخرج منها، وأنّ العصاة وأصحاب الكبائر لا يخرجون منها، فمن دخلها فهو فيها مخلّد، ويستدلون بمثل قول الله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِيُخْرَجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، ويقولون تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]، ونحو ذلك من الآيات. ولكن هذه الآيات يراد بها الكفار، ولا يراد بها أهل الكبائر من المؤمنين، أو من أهل التوحيد، فقد ورد الدليل بأنهم يخرجون بالشفاعة، أو برحمة أرحم الراحمين، يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون. فهذا القول الذي هو قول الخوارج والمعتزلة بتخليد أهل الكبائر في النهار تخليدًا مؤبدًا، قول يخالف الأدلة الصريحة. وأمّا قول اليهود: إنّ أهل النار الذين يدخلونها هم اليهود، ثم يخرجون منها، ويخلفهم فيها هذه الأمة. لما قال لهم: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟»، قالوا: نكُونُ فِيهَا يَسِيرًا، ثُمَّ تَخْلُفُونَا فِيهَا، فقال صلى الله عليه وسلم: «أَخْسَرُوا فِيهَا، وَاللَّهِ لَا تَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا»^(٢). وكذبهم

(١) . رقم (٣١٩٤، ٧٤٠٤)، وأخرجه مسلم أيضًا برقم (٢٧٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٦٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الله تعالى بقوله: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَيُّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ﴾ [البقرة: ٨٠]. وقولهم هذا باطل أيضا؛ لأنها لا يدخلها إلا أهلها.

وكذلك قول المعتزلة الذي مر بنا، وهو قول أبي الهذيل العلاف: أنهم تفنى حركاتهم، وتبقى ليس فيها حركة. قول باطل.

وكذلك القول بأنهم يصبحون فيها نارين، وتنقلب طبيعتهم طبيعة نارية، يتلذذون بها كما يتلذذ أهل الجنة بالجنة. هذا قول لا دليل عليه؛ لأن الأدلة دلت على أنهم يتألمون، وأتهم ينادون، ويقولون: ﴿ يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَيْنَارُكَ ﴾ [الزخرف: ٧٧]. ويقولون: ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ (١٠٧) قَالَ أَشْتَوْا فِيهَا وَلَا تَكْفُمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨]، وأخبر بأن ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ (١٠٦) خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا سَاءَ رَبُّكَ ﴾ [هود: ١٠٦، ١٠٧]. فهذا دليل على أنهم يتألمون، ولا ينقطع ألمهم، بل أخبر تعالى بتجديد العذاب عليهم بقوله: ﴿ كَمَا نَجَعْتُمْ جُلُودَهُمْ بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ [النساء: ٥٦]. فالنار تحرقهم حتى يصيروا فحما، ثم بعد ذلك يجدد لهم الجلد واللحم حتى يتألموا من جديد مرة بعد مرة. وهذا دليل على بطلان قول من قال بأن طبيعتهم تتبدل فتصبح نارية، وكذلك قول الذين قالوا: إنها تبطل حركاتهم، فيصبحون جهادا لا حركة بهم، وغير ذلك من أقوال المعتزلة ونحوهم.

وما بقي غير القولين الأخيرين. قال بعضهم: إنهم يبقون فيها مدة، وبعد

ذلك تفتنى، وأتهم لو مكثوا فيها ما مكثوا لا بدّ من نهايتها. والقول الآخر: أتهم
 يبقون فيها، وأتهم لا يفنون، وأنها لا تفتنى. فالذين استدّلوا على فنائها بقوله تعالى:
 ﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [النبا: ٢٣]، كأتهم يقولون: الأحقاب معدودة، ومعروفة،
 فيدلّ على أنّ لبيّتهم فيها محدّد، ثم بعد ذلك يفتنى ذلك العذاب.

ومرّ بنا هذا الأثر الذي يستدل عليه بهذه الآية، وأتهم لو لبثوا فيها من السنين
 عددًا، كمثل عدد رَمَلِ عَالِيَجٍ؛ لكان لهم يوم يخرجون منها أو يفنون. والصحيح أنّ
 هذه الآية ليس فيها تحديد الأحقاب، وقد فسّر بعضهم الحقب بأنّه: مئة عام، وقد
 أخبر الله تعالى عن موسى - عليه السلام - أنه قال لفتاه: ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَتَبْلُغَ
 مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠]، فإذا كان الحقب مئة عام، فالعام
 اثنا عشر شهرًا، والشهر ثلاثون يومًا، واليوم الواحد كألف سنة مما تعدّون، فلو
 قال الله: مئة حقب، أو ألف حقب، أو مئة ألف حقب؛ لكان للكافر نظر ورغبة
 وأمل ورجاء في أنّ عذابه سيزول، ولكن لم يحدّها الله، ولأجل ذلك يقول بعض
 العلماء في قوله تعالى: ﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾، أي: «كلّما مضى حقب جاء حقب
 بعده»^(١)، إلى غير نهاية؛ لأنها لم تحدّد.

فلا دلالة في هذه الآية ولا في الآيات التي فيها استثناء، فهو كالأستثناء الذي
 في نعيم أهل الجنة، وليس فيه ما يدلّ على أنّ أهل الجنة يخرجون من نعيمهم، أو

(١) أخرجه الطبري (١١/٣٠) عن قتادة رحمه الله.

أن أهل النار يخلصون من عذابهم، بل الأصح والمعتقد أن الجنة والنار دائمتان، باقيتان، لا تفتيان، ولا تبيدان أبداً. وبذلك يرغب العباد في الدار التي لا ينقطع نعيمها، وينخشون من الدار التي لا ينقطع عذابها.

ومرّ بنا أنه يجب على المؤمن أن يؤمن بالثواب والعقاب، والجنة والنار، في قول النبي ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»^(١)، وفي رواية: «فتبحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»^(٢).

اشترط في هذا الحديث الإيمان بالجنة والنار. وقد مرّ بنا أن من الإيمان بالجنة والنار الإيمان بوجودهما الآن، ومرّت بنا الأدلة على ذلك، ومن الإيمان بهما الإيمان بالأبدية والدوام والسرمدية، وأتت لا ينقطعان.

والحكمة في ذلك صدق الرغبة. فلو قيل لأهل الجنة: إنكم ستزولون عن هذه الحياة، وإن نعيمكم سينقطع، ولو بعد مئة ألف عام أو أكثر؛ لتكدّر النعيم، وما صفا العيش، لعلمهم أن له انقطاع. كما في هذه الحياة؛ فإن الحياة الدنيا ما تكدّرت عند العارفين إلا بسبب زوالها وانقطاعها وانقضائها وتغيراتها، لذلك رغب عنها العارفون، وزهد فيها المؤمنون الأتقياء، ولم ينافسوا في نعيمها، ولا في

(١) تقدم تخريجه (٧/٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٤) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

زخرفها، ولا في زيتها. فإذا عرفوا أن الجنة دائمة مستمرّ نعيمها، حملتهم هذه العقيدة على أن يجعلوا المنافسة فيها، وأن يجعلوا فيها تمام الرغبة، وأن يكثرُوا من العمل الذي يكون مستمرًا ثوابه، ويكون أجره دائمًا، لا يأتي عليه زوال ولا تحوّل ولا انتقال. وأن يهربوا من الألم والعذاب الأبديّ السرمدي. وهذا يظهر بقوة التصديق واليقين، فكلمًا كان هذا الإيمان قويًا ويقينيًا، وكلمًا كان أتمّ وأقوى، كان الجدّ والنشاط والمثابرة والمنافسة أشدّ وأقوى في طلب الجنة، وكان البعد عن النار وأعمالها أشدّ، وكان الهرب منها أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف الطلب.

وقد ذكرنا فيما سبق قول بعض السلف: «عجبت من الجنة كيف ينام طالبها، وعجبت من النار كيف ينام هاربها»^(١). فالؤمن لا يزال مثابرًا على طلب ذلك النعيم المقيم الدائم، والهابر من النار لا يزال هاربًا منها ومن أسبابها، فاعلًا كلّ سبب يخلصه منها. فيستدلّ من ذلك على صدقه وإيمانه وإخلاصه.

فما ازدادت منافستنا في هذه الدنيا إلا لضعف إيماننا، وضعف هذا التصوّر لأبدية هذا النعيم، وأبدية هذا العذاب. وقد روي عن بعض السلف أنّه كان كثير البكاء، فقال له رجل: ما لعينك لا تجف؟ قال: «ويحك! إن ربي تواعدني أن يحبسني في جهنم، ولو كان يواعدني أن يحبسني في حمام، لكان ينبغي أن لا يجف لي دمعة»^(٢). والحمام معروف أنّه بيت فيه حرارة وشدة وهج يسير، وليس كالنار.

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١١٩/٢) ونسبه إلى هرم بن حيان.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٧٧/٦٥) ونسبه إلى يزيد بن مرثد.

ورُوي أنّ بعض السلف لَمَّا أُهديت إليه جارية أدخله ابن أخيه الحمام، ثم أدخله بيتاً مطيباً، فقام يصلي، فقامت فصلت، فلم يزالا يصليان حتى برق الفجر، فأتاه فقال له: أي عم! أهديت إليك ابنة عمك الليلة فقامت تصلي وتركتها؟ فقال: «إنك أدخلتني أمس بيتاً أذكرتني به النار، ثم أدخلتني بيتاً أذكرتني به الجنة، فما زالت فكرتني فيهما حتى أصبحت»^(١).

وفي بعض الأحاديث أن الرسول ﷺ قال لجبريل - عليه السلام -: «ما لي لم أر ميكائيلَ ضاحكاً قط؟ قال: ما ضحك ميكائيلُ منذ خلقت النار»^(٢).

ورُوي أن جبريل - عليه السلام - جاء إلى النبي ﷺ وهو يبكي، فقال له النبي ﷺ: «ما يبكيك؟»، قال: «ما جفت لي عينٌ منذ خلق الله جهنم، مخافة أن أعصيه فيلقتني فيها»^(٣). مع أن الملائكة من أشرف الخلق وأبعدهم عن المعاصي، ولكن كما قال بعض السلف: من كان بالله أعرف، كان منه أخوف.

فهذا حال الجنة والنار وحال العاملين لها.

(١) أخرجه ابن الجوزي في صفة الصفوة (٢١٩/٣) ونسبه إلى صلة بن أشيم العدوي.

(٢) تقدم تخريجه (١٣٨/٣).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة النار (٢١٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٢١/١) عن أبي

عمران الجوني مرسلًا.

قال الشارح:

قَالُوا: وَاللَّهِ سُبْحَانَهُ يُخَبِّرُ عَنِ الْعَذَابِ أَنَّهُ: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥]،
 وَ﴿الْبَاسِ﴾ [هود: ٢٦]، وَ﴿عَقِيبٍ﴾ [الحج: ٥٥]، وَلَمْ يُخَبِّرْ وَلَا فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ
 عَنِ النَّعِيمِ أَنَّهُ نَعِيمٌ يَوْمٍ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿عَذَابٍ أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَةٍ
 وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. وَقَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ الْمَلَائِكَةِ: ﴿رَبَّنَا
 وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ وَرَحْمَةٌ وَعَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧]. فَلَا بُدَّ أَنْ تَسَعِ رَحْمَتُهُ هَؤُلَاءِ
 الْمُعَذِّبِينَ، فَلَوْ بَقُوا فِي الْعَذَابِ لَا إِلَى غَايَةٍ لَمْ تَسَعَهُمْ رَحْمَتُهُ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي
 «الصَّحِيحِ»^(١) تَقْدِيرُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَالْمُعَذَّبُونَ فِيهَا مُتَفَاوِثُونَ
 فِي مُدَّةِ لُبْسِهِمْ فِي الْعَذَابِ بِحَسَبِ جَرَائِمِهِمْ، وَلَيْسَ فِي حِكْمَةِ أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ،
 وَرَحْمَةِ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقًا يُعَذِّبُهُمْ أَبَدَ الْأَبَادِ عَذَابًا سَرْمَدًا لَا نِهَايَةَ لَهُ،
 وَأَمَّا أَنَّهُ يَخْلُقُ خَلْقًا يُنْعِمُ عَلَيْهِمْ، وَيُحْسِنُ إِلَيْهِمْ نَعِيمًا سَرْمَدًا، فَمِنْ مُقْتَضَى
 الْحِكْمَةِ، وَالْإِحْسَانِ مُرَادٌ لِذَاتِهِ، وَالْإِنْتِقَامِ مُرَادٌ بِالْعَرَضِ.

قَالُوا: وَمَا وَرَدَ مِنَ الْخُلُودِ فِيهَا، وَالتَّأْيِيدِ، وَعَدَمِ الْخُرُوجِ، وَأَنَّ عَذَابَهَا
 مُقِيمٌ، وَأَنَّهُ عَرَامٌ، كُلُّهُ حَقٌّ مُسَلَّمٌ، لَا نِزَاعَ فِيهِ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي الْخُلُودَ فِي
 دَارِ الْعَذَابِ مَا دَامَتْ بَاقِيَةً، وَإِنَّمَا يَخْرُجُ مِنْهَا فِي حَالِ بَقَائِهَا أَهْلُ التَّوْحِيدِ.
 فَفَرَّقَ بَيْنَ مَنْ يَخْرُجُ مِنَ الْجَبَسِ وَهُوَ حَبْسٌ عَلَى حَالِهِ، وَبَيْنَ مَنْ يَبْطُلُ حَبْسُهُ

(١) انظر: صحيح مسلم (٩٨٧).

بِحَرَابِ الْحَبْسِ وَأَنْتِقَاضِهِ.

قال الشيخ:

هذا يتعلّق بقول من يقول: إنّ عذاب النار لا يبقى، بل ينقطع وإنّ له حدًّا ونهايةً. وهذا قول قاله بعض العلماء عن اجتهاد. وعلّلوا بهذه التعليلات التي مرّت. ونحن لا نشكّ بأنّ الله رحيم بالعباد، وأنّ رحمته تغلب غضبه، ولكن نعرف أنّ خلق الله للرحمة أهلاً وخلق للعذاب أهلاً، ولا نشكّ أيضاً بأنّ سبّحانه جعل هذا العمل اليسير في الدنيا له ثواب عظيم مضاعف مستمر، وكذلك الكفر اليسير له عذاب دائم مستمر كثير، وذلك لمقتضى حكمته.

فمثلاً: قول النبي ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا»^(١). يعني: أنّ بعض الناس قد يولد كافراً ويحيا كافراً أو مبتدعاً، ويمضي عليه عمره وهو على بدعته أو كفره، وقبل موته بيوم أو ساعة أو سويعات؛ يمتنّ الله عليه، فيهدّي ويسلم، ويموت على العقيدة وعلى الإسلام، فتكون تلك الساعة أو ذلك اليوم مكفراً لما مرّ في عمره، ماحياً لسيئاته وآثامه وكفره وشركه وذنبه طول حياته، فتكون ساعة واحدة محت

(١) تقدم تخریجه (٢/٤٣٩).

كل أعماله الكفرية، ختم له بها.

ومن هؤلاء: رجل مقنع بالحديد أتى النبي ﷺ، فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ، أَقَاتِلُ وَأَسْلِمُ، قال: «أَسْلِمْتَ ثُمَّ قَاتِلٌ»، فَأَسْلَمَ ثُمَّ قَاتَلَ فَقُتِلَ، فقال رسول الله ﷺ: «عَمِلَ قَلِيلًا وَأُجِرَ كَثِيرًا»^(١). فعمله هذا القليل، ثوابه عليه دائم لا ينقطع.

وبالمقابل قاتل رجلٌ مع المسلمين قتالاً شديداً، لا يدعُ لهم شاذةً ولا فاذةً إلا اتبعتها يضرُّ بها بسيفه، فقالوا: ما أَجْزَأُ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدُهُ كَمَا أَجْزَأَ فُلَانٌ، فقال رسول الله ﷺ: «أَمَّا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، فتبعه رجلٌ من القوم، فَجَرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعَجَلَ الْمَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالْأَرْضِ وَدُبَابُهُ بَيْنَ تَدْيِيهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ^(٢). حبط عمله بهذه الفعلة.

نقول: العمل اليسير يُؤجر عليه العبدُ أبد الآباد، والكفر اليسير يعذب عليه أبد الآباد. فلا بد أن نقول: إن الله تعالى قدّر هذا العذاب لمن كفر به، وخرج عن طاعته، وجعل ذلك مستمرًّا لمن يستحقه بلا نهاية، كما خلق النعيم والأجر والثواب المستمرَّ الباقي، ولم يجعل له نهاية، وجعل ذلك ثوابًا لمن عمل صالحًا على عمله بغير نهاية، وهذا كله لا يخرج عن حكمة الله.

أمَّا الذين خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا، فهؤلاء أمرهم بيد الله، إن شاء غفر لهم وعفا عنهم، وإن شاء عذبهم بقدر سيئاتهم. يدخلون النار ويبقون فيها

(١) أخرجه البخاري (٢٨٠٨)، ومسلم (١٩٠٠) من حديث البراء ؓ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢) عن سهل بن سعد الساعدي ؓ.

مدّة طويلة أو قصيرة بقدر ذنوبهم، ثم يخرجون منها بعدما يمكثون فيها المدّة التي قدر الله. فأما أنّ النار تحمد وينقطع عذابها، فهذا على الصحيح لا يكون، بل الله تعالى يقول: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. وقد ذكرنا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [النبأ: ٢٣]، يقول العلماء: «كلّما مضى حقب جاء حقب بعده»^(١). فالصحيح أنّها دائمة مستمرة.

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٣١٠).

قال الشارح:

وَمِنْ أَدَلَّةِ الْقَائِلِينَ بِبَقَائِهَا وَعَدَمِ فَنَائِهَا: قَوْلُهُ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌّ﴾
 [المائدة: ٣٧]، ﴿لَا يَمْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُّسَلِّمُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥]، ﴿فَلَنْ تَزِيدَكُمْ إِلَّا
 عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠]، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء: ١٦٩]، ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُحْرَجِينَ﴾^(١)
 [الحجر: ٤٨]، ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ
 الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، ﴿لَا يَقْنِصُ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ
 عَذَابِهَا﴾ [فساطر: ٣٦]، ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥]، أي: مُقْسِمًا
 لازماً.

وَقَدْ دَلَّتِ السُّنَّةُ الْمُسْتَفِيضَةُ أَنَّهُ يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،
 وَأَحَادِيثُ الشَّفَاعَةِ صَرِيحَةٌ فِي خُرُوجِ عَصَاةِ الْمُؤَحِّدِينَ مِنَ النَّارِ، وَأَنَّ هَذَا حُكْمٌ
 مُخْتَصٌّ بِهِمْ، فَلَوْ خَرَجَ الْكُفَّارُ مِنْهَا، لَكَانُوا بِمَنْزِلَتِهِمْ، وَلَمْ يُخْتَصَّ الْخُرُوجُ بِأَهْلِ
 الْإِيمَانِ، وَبِقَاءِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ لَيْسَ لِذَاتِهِمَا، بَلْ بِإِبْقَاءِ اللَّهِ لَهَا.

وَقَوْلُهُ: (وَخَلَقَ لَهُمَا أَهْلًا)، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ

الْبَيْنِ وَالْإِنْسِ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٩]. وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ:
 دُعِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى جَنَازَةِ صَبِيٍّ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،
 طُوبَى لِهَذَا، عَصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الْجَنَّةِ، لَمْ يَعْمَلِ السُّوءَ وَلَمْ يُدْرِكْهُ، فَقَالَ:

(١) هذه الآية من سورة الحجر وردت في أهل الجنة وليست في أهل النار.

«أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ». رواه مسلم^(١)، وأبو داود^(٢)، والنسائي^(٣).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(٤)
 إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿[الإنسان: ٢، ٣]. وَالْمُرَادُ: الْهِدَايَةَ الْعَامَّةَ،
 وَأَعَمُّ مِنْهَا الْهِدَايَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾
 [طه: ٥٠].

قال الشيخ:

مرّت بنا الآيات التي تتعلّق بأبدية النّار، وهذه الآيات تدلّ على أنّ النّار باقية لا فناء لها، فإنّ قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]، المقيم: الدائم الذي لا يتحوّل ولا يتغيّر ولا ينقطع. وكذلك التعبير بالخلود والأبدية، يدلّ على أنّ الخلود مستمرّ وكذلك الأبدية. وكذلك قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]، صريحة في أنّهم لا خروج لهم منها، بل هم مستمرّ بقاؤهم. وكذلك لما قالوا:

(١) برقم (٢٦٦٢).

(٢) برقم (٤٧١٣).

(٣) في المجتبى (١٩٤٧).

﴿يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْكَ رَبُّكَ﴾، تمتوا الموت، فقال: ﴿إِنَّكُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].
وكذلك قوله: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَنُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]،
لا يُقْضَىٰ عليهم فيستريحون من هذا العذاب، ولكنهم دائماً ما كانوا فيها.
فالأدلة التي مرّت معنا واضحة في أنّ النّار والجنّة باقيتان دائماً مستمرتان.
وهذه عقيدة أهل السنّة. التي يؤمن بها المسلمون، ويدلّ إيمانهم بها على أنّهم
يؤمنون بالغيب وإن لم يروه.

وأما أنّ الله تعالى علم أهل الجنّة، وعلم أهل النّار. فهو سبحانه قدّر من
يعمل للجنّة، ومن يعمل للنّار، قبل أن يخلق الخلق، وقد كتب ذلك في اللوح
المحفوظ، قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة، أو قبل أن يخلق السموات
والأرض. ولا شك أنّ خلقهم على هذا ابتداء منه، وهو بكلّ شيء عليم، فهو يعلم
من هم أهل الجنّة، ومن هم أهل النّار. والآية صريحة في أنّهم خلّقوا هؤلاء للجنّة
وهؤلاء للنّار: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]،
ذرائعنا: أي خلقنا، لجهنّم أهلاً. وكذلك في الحديث قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ
لِلْجَنَّةِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ
لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ»، بل في صلب آدم.

وورد في الحديث: أنّ النبي ﷺ سئل عن قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ
بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فقال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً، قَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ

وَيَعْمَلِ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً قَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَيَعْمَلِ أَهْلَ النَّارِ يَعْمَلُونَ^(١)، فلا يتجاوز أحد ما خلق له، ومع ذلك فإنهم مأمورون ما داموا في هذه الحياة بأن يستعدوا وأن يعملوا.

وَلَمَّا قَالَ الصَّحَابَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَفَلَا تَنْكُلُ عَلَيَّ كِتَابِنَا وَنَدْعُ الْعَمَلَ؟ قَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»^(٢).

الله تعالى أمرنا بالعمل، مع أنه علم من يعمل ومن لا يعمل، وكذلك أمرنا بالدعوة إليه، وأمرنا بأن نعلم الناس، وأن ندعوهم، وأن نبشروا وننذر، بل لذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، مع أنه علم من يطيع ومن يعصي، وعلم من هم أهل الجنة، ومن هم أهل النار، ولكنه جعل لذلك أسباباً، فجعل رسالة الرسل سبباً من أسباب معرفته، والدعوة إليه، والإيمان به، وكذلك جعل ورثة الرسل الذين يدعون إليه من أسباب العمل الصالح؛ لأن الله يهدي على أيديهم من جعله الله من أهل الجنة.

(١) تقدم تخرجه (٢/٤٠٤).

(٢) تقدم تخرجه (٢/٤٣٣).

قال الشارح:

فَالْمَوْجُودَاتِ نَوْعَانِ: أَحَدُهُمَا مُسَخَّرٌ بِطَبْعِهِ، وَالثَّانِي: مُتَحَرِّكٌ بِإِرَادَتِهِ، فَهَدَى الْأَوَّلَ لِمَا سَخَّرَهُ لَهُ طَبِيعَةً، وَهَدَى الثَّانِي هِدَايَةً إِرَادِيَّةً تَابِعَةً لِشُعُورِهِ وَعِلْمِهِ بِمَا يَنْفَعُهُ وَيَضُرُّهُ.

ثُمَّ قَسَمَ هَذَا النَّوْعَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ:

نَوْعٌ لَا يُرِيدُ إِلَّا الْخَيْرَ، وَلَا يَتَأَنَّى مِنْهُ إِرَادَةُ سُوَاهِ، كَالْمَلَائِكَةِ.

وَنَوْعٌ لَا يُرِيدُ إِلَّا الشَّرَّ، وَلَا يَتَأَنَّى مِنْهُ إِرَادَةُ سُوَاهِ، كَالشَّيَاطِينِ.

وَنَوْعٌ يَتَأَنَّى مِنْهُ إِرَادَةُ الْقِسْمَيْنِ، كَالْإِنْسَانِ. ثُمَّ جَعَلَهُ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ:

صِنْفًا يَغْلِبُ إِيْمَانُهُ وَمَعْرِفَتُهُ وَعَقْلُهُ هَوَاهُ وَشَهْوَتُهُ، فَيَلْتَحِقُ بِالْمَلَائِكَةِ.

وَصِنْفًا عَكْسَهُ، فَيَلْتَحِقُ بِالشَّيَاطِينِ.

وَصِنْفًا تَغْلِبُ شَهْوَتُهُ الْبَهِيمِيَّةَ عَقْلُهُ، فَيَلْتَحِقُ بِالْبَهَائِمِ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْطَى الْوُجُودَيْنِ: الْعَيْنِي وَالْعِلْمِي، فَكَمَا أَنَّهُ

لَا مَوْجُودٌ إِلَّا بِإِيجَادِهِ، فَلَا هِدَايَةَ إِلَّا بِتَعْلِيمِهِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ الْأَدِلَّةِ عَلَى كَمَالِ

قُدْرَتِهِ، وَثُبُوتِ وَحْدَانِيَّتِهِ، وَتَحْقِيقِ رُبُوبِيَّتِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَقَوْلُهُ: (فَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ فَضَلًا مِنْهُ، وَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ إِلَى النَّارِ عَذَابًا

مِنْهُ) الْإِلْح. يَمَّا يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَمْنَعُ الشَّوَابَ إِلَّا إِذَا مَنَعَ سَبِيَّهُ،

وَهُوَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ، فَإِنَّهُ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا

وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]. وَكَذَلِكَ لَا يُعَاقِبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ حُصُولِ سَبَبِ

العِقَابِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ۲۰].

وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْمُعْطِي الْمَانِعِ، لَا مَانِعَ لِمَا أُعْطِيَ، وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعَ، لَكِنْ إِذَا مَنْ عَلَى الْإِنْسَانِ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، لَا يَمْنَعُهُ مُوجِبُ ذَلِكَ أَصْلًا، بَلْ يُعْطِيهِ مِنَ الثَّوَابِ وَالْقُرْبِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَحَيْثُ مَنَعَهُ ذَلِكَ، فَلِإِنْفَاءِ سَبَبِهِ، وَهُوَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ.

وَلَا رَبَّ أَنَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، لَكِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ حِكْمَةٌ مِنْهُ وَعَدْلٌ، فَمَنَعُهُ لِلْأَسْبَابِ الَّتِي هِيَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ مِنْ حِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، وَأَمَّا الْمُسَبِّبَاتُ بَعْدَ وُجُودِ أَسْبَابِهَا، فَلَا يَمْنَعُهَا بِحَالٍ، إِذَا لَمْ تَكُنْ أَسْبَابًا صَالِحَةً، إِمَّا لِفَسَادِ فِي الْعَمَلِ وَإِمَّا لِسَبَبٍ يُعَارِضُ مُوجِبَهُ وَمُقْتَضَاهُ، فَيَكُونُ ذَلِكَ لِعَدَمِ الْمُقْتَضِي، أَوْ لَوْجُودِ الْمَانِعِ، وَإِذَا كَانَ مَنَعُهُ وَعَقُوبَتُهُ مِنْ عَدَمِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَهُوَ لَمْ يُعْطِ ذَلِكَ ابْتِدَاءً حِكْمَةً مِنْهُ وَعَدْلًا، فَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْحَالَيْنِ، وَهُوَ الْمَحْمُودُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، كُلُّ عَطَاءٍ مِنْهُ فَضْلٌ، وَكُلُّ عَقُوبَةٍ مِنْهُ عَدْلٌ، فَإِنَّهُ تَعَالَى حَكِيمٌ، يَضَعُ الْأَشْيَاءَ فِي مَوَاضِعِهَا الَّتِي تَصْلُحُ لَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا

جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَا حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمِينَ ﴾ [الأنعام: ۱۲۴]. وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيُتْلُوا أَهُوَ لَوْلَا مَنَعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ۵۳]، وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَسَيَأْتِي لِهَذَا زِيَادَةٌ بَيَانٍ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قال الشيخ:

الكلام الأول يتعلق بخلق الله تعالى أهل الجنة وأهل النار وتقسيمهم؛ لأنه سبحانه خلق الجنة وخلق لها أهلاً، وخلق النار وخلق لها أهلاً، وكلّ موفّق وميسر لما خلق له، ولا يتجاوزون ما قدر لهم. ولكنه سبحانه جعل بعض الخلق شراً محضاً، وبعضهم خيراً محضاً، وبعضهم فيه مادّتان؛ مادة خير، ومادة شر.

فالملائكة - كما مرّ بنا - كلّهم خير، ليس فيهم نفوس شريرة، بل كلّهم يعبدون الله. يقول النبي ﷺ: «أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَنْطَطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ»^(١).

وعن رجلٍ من أصحاب النبي ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مَلَائِكَةً تَرْعُدُ فَرَائِصُهُمْ مِنْ خِيفَتِهِ، مَا مِنْهُمْ مَلَكٌ تَقَطَّرُ مِنْهُ دَمْعَةٌ مِنْ عَيْنِهِ إِلَّا وَقَعَتْ عَلَى مَلَكٍ يُصَلِّي، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَلَائِكَةً سُجُودًا مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَمْ يَرْفَعُوا رُؤُوسَهُمْ وَلَا يَرْفَعُونَهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ مِنْهُمْ مَلَائِكَةً رُكُوعًا لَمْ يَرْفَعُوا رُؤُوسَهُمْ مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا يَرْفَعُونَهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَإِذَا رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ نَظَرُوا إِلَى وَجْهِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ»^(٢).

(١) تقدم تحريجه (٣/١١٨).

(٢) أخرجه محمد بن نصر المروزي كما في تفسير ابن كثير (٤/٤٤٦)، وقال ابن كثير: «إسناده

وقد ذكر من عبادتهم واجتهادهم في الطاعات وأنواع القربات، مع أنهم ليس لهم شهوة تحملهم على المعاصي، فلأجل ذلك كانوا كلهم على خير، وأخبر الله بأنهم يخدمون أهل الجنة، قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (١٣) **سَلَّمَ عَلَيْهِمْ** [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقال: ﴿وَقَرَى الْمَلَائِكَةُ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥].

أما القسم الثاني: فهم الشياطين، ولا شك أنهم خلقوا للشر، وأنهم خلقوا للنار، وأنهم مستعدون للقدوم عليها؛ لأنهم خلقوا منها. ولهذا لا يتألمون بالنار في الدنيا، ومنهم شياطين الجن، فإِنَّهم أيضاً خلقوا من نار، قال تعالى: ﴿وَالجَّانَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُورِ﴾ [الحجر: ٢٧]، ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [الرحمن: ١٥]. الشياطين - الذين هم إبليس وذريته - كلهم شر محض، ليس فيهم خير أصلاً، وهؤلاء أهل النار.

القسم الثالث: الإنسان، وقيل: الثقلان: الجن والإنس، فهؤلاء فيهم خير، وفيهم شر، فمنهم من يغلب خيره، أو يكون كله خير وهم الأنبياء، وورثة الأنبياء والأتقياء والعباد والزهاد المؤمنون صادقوا الإيمان، هؤلاء يحميهم الله عن

لا بأس به»، وأخرجه بنحوه: البيهقي في شعب الإيمان (١/١٨٣)، وسمى الصحابي أبا جحش، وأبو الشيخ في العظمة (٣/٩٩٣)، وابن بطه في الإبانة (٣/٤٧)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١٢/٣٠٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٠/٦١).

الذنوب وعن الكبائر فلا يقربونها، ويحفظون أوقاتهم كلها بالطاعة، ويتقربون إلى ربهم بأنواع العبادة، فهؤلاء يلحقون بالملائكة، ومنهم من يكونون بضد ذلك، منهم أشرار وكفرة وفجرة وفساق خارجون عن الطاعة، لا يألون العبادة، ولا يجوبونها، ويألفون الكفر والفسوق والعصيان، ويتلذذون بالمعصية، وينفرون من الطاعة، فهؤلاء يلحقون بالشياطين، ويكونون منهم ومن أتباعهم، يدخلون في قول الله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]، وكذلك قوله: ﴿فَكَبِّرُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَخُودٌ أَيْلِسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤]، [٩٥]. فهذا القسم ملحق بالشياطين.

ومن القسم الثالث نوع تغلب عليهم الحياة البهيمية: وهم الذين يجعلون عقولهم تبعاً لما يشتهونه، فيسخرّون عقولهم للشهوات البهيمية الدنيوية، فهؤلاء ملحقون بالبهائم، ولكن هم أقرب إلى من أتبع هواه وعبده، فإن الله تعالى أخبر بأنّه يكون منهم من يعبد هواه، فقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]. وفي الأثر: «مَا تَحْتِ ظِلِّ السَّمَاءِ مِنْ إِلَهٍ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ هَوَى مُتَّبِعٍ»^(١). الذي يعبد هواه: هو الذي لا يهوى شيئاً ولا يشتهي شيئاً إلا ركبه. فانظر أي الأقسام أحسن، فاختر أن تكون منهم.

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٨/١)، والطبراني في الكبير (٧٥٠٢)، وأبو نعيم في الحلية (١١٨/٦) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/١٨٨): «رواه الطبراني في الكبير، وفيه الحسن بن دينار، وهو متروك الحديث».

يقول بعض العلماء: إن نفوس البشر ثلاثة أقسام:

نفوس علوية ملكية، وهي نفوس الأتقياء الأصفياء، عباد الله المخلصين.

ونفوس بهيمية: بمعنى أنها ليس لها إلا هواها وشهواتها، وما تميل إليه

بطباعها، فهؤلاء ملحقون بالبهايم، أشبه ما يكونون بمن لا عقول لهم، داخلون

في قول الله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقسم نفوسهم سبعة: وهم الذين من طبعهم الاعتداء والظلم والتجبر

والتكبر والتسلط على الغير وحب السلطة والسيطرة والتعدي، فهؤلاء أشبه ما

يكونون بالسباع الضارية. وأفضل الأقسام: القسم الذين نفوسهم ملكية علوية،

همتهم رفيعة وليست دنيئة.

هكذا اقتضت حكمة الله تقسيم الخلق هذه الأقسام الثلاثة. يعني: الملائكة

والشياطين وبنى آدم، وجعل الله في بنى آدم هذه الأقسام الثلاثة. والله تعالى هو

الذي يخلق ما يشاء ويختار.

وأما تقدير الله تعالى لأهل الجنة ولأهل النار؛ فمعلوم أن الله تعالى حكيم في

قدرته وفي تدبيره وفي تقديره، وأنه لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لما كان ظالماً

لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته أكبر من أعمالهم، فإتّهم ما عملوا ولا آمنوا ولا اتقوا

إلا بفضلته^(١):

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ كَسَلًا وَلَا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعٌ

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/٣٣٩).

إِنْ عَذَّبُوا فَبِعَذَابِهِ أَوْ نُعْمُوا فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الْكَرِيمُ الْوَاسِعُ
فهو سبحانه خلق الجنة وخلق لها أهلاً، وقدر أعماهم ويسر لهم السبل
والوسائل التي تجعلهم من أهلها، وتلحقهم بالعباد الصالحين، وكذلك قدر للنار
أهلاً؛ لأن هاتين الدارين دار الثواب ودار العقاب قد وعدهما الله تعالى بأن يملأ
كلًا منهما. فلا بد من أن يدخلها الله من يستحقها، فبفضله يُنعم على أهل الجنة،
وبعدله يعذب أهل النار، لا يظلم أحداً. ﴿وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعَمِيدِ﴾ [لق: ٢٩]، ﴿وَمَا
اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١].

من أركان الإيمان: الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره. وكل
منهما يحتاج إلى تفاصيل كثيرة. والمؤمن الذي يؤمن بالله يؤمن بما أخبر به من
التفاصيل في هذه الأشياء؛ لأنه من تمام الإيمان بالله الإيمان بما أخبر به عما هو
كائن، ومن علامات الإيمان باليوم الآخر الاستعداد له.

ويوم القيامة: عظيم الهول، عظيم الكرب، سماه الله يوم الفزع الأكبر. وأما
تفاصيله، فإنها مأخوذة من الأدلة التفصيلية التي اشتملت عليها الآيات
والأحاديث، فإذا عرفها المؤمن؛ ظهر عليه أثرها، فيستعد لهذا اليوم إذا آمن به،
ويؤمن بأن الجنة دار الكرامة لأولياء الله، وأن النار دار العذاب لأعداء الله. ولكل
منهما أهل، وقد وعد الله كلًا منهما بملئها، كما في قول النبي ﷺ: «مَخَاجَتِ الْجَنَّةِ
وَالنَّارِ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوْثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلْنِي
إِلَّا ضِعْفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ

من أَشَاءُ من عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكَ من أَشَاءُ من عِبَادِي،
وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَلُؤَهَا»^(١).

وإذا كان كذلك، فإنه يستعد لما ينجيه من النار، ويدخله الجنة، وأما صفة ما فيها فقد فصلت في الأدلة، وألفت فيها المؤلفات؛ فلابن القيم رحمه الله كتاب قيم اسمه «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح»، جمع فيه صفة الجنة وما ورد فيها، وذكر فيه درجاتها، وأبنيتها وقصورها وأنهارها وأشجارها وثمارها وحورها وسرورها وفرشها، وجميع ما أخبر الله، وفضل ذلك. وكذلك لتلميذه ابن رجب رحمه الله كتاب سماه «التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار»، تكلم فيه عن النار وعذابها وحميمها وزقومها وأغلاها وزمهريرها ودركاتها وحال أهلها وما ورد فيهم. فإن قرأ القارئ هذا الكتاب اشتد خوفه، واشتد فرجه، وإن لم يكن فيه تفصيل الأعمال التي يستحق بها النار، وإنما فيه ذكر العذاب في النار. وأما الأعمال فهي مذكورة في الأدلة مبسطة تجدون مثلاً الأحاديث والآيات التي ذكر فيها أهل النار وأهل الجنة، وهي مشروحة وموسع الكلام فيها، فإذا عرفها المسلم فلا شك أنه يهتم بها. ويعرف الأعمال الصالحة التي تصير أهلها من أصحاب الجنة فيعملها، ويعرف الأعمال التي تُوعد عليها بالعذاب والنار، فيتركها ويتعد عنها وعن أهلها، حتى يكون من أهل الوعد ويسلم من الوعيد.

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الطحاوي:

والاستِطَاعَةُ الَّتِي يَجِبُ بِهَا الْفِعْلُ، مِنْ نَحْوِ التَّوْفِيقِ الَّذِي لَا يُوصَفُ
المَخْلُوقُ بِهِ تَكُونُ مَعَ الْفِعْلِ، وَأَمَّا الاستِطَاعَةُ مِنْ جِهَةِ الصَّحَّةِ وَالْوُسْعِ
والتَّمَكُّنِ وَسَلَامَةِ الْآلَاتِ، فَهِيَ قَبْلَ الْفِعْلِ، وَبِهَا يَتَعَلَّقُ الْخِطَابُ، وَهُوَ كَمَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال الشارح:

الاستِطَاعَةُ وَالطَّاقَةُ وَالْقُدْرَةُ وَالْوُسْعُ، أَلْفَاظٌ مُتَقَارِبَةٌ، وَتَقْسِيمُ الاستِطَاعَةِ
إِلَى قِسْمَيْنِ. كَمَا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ. هُوَ قَوْلُ عَامَّةِ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَهُوَ الْوَسْطُ،
وَقَالَتِ الْقَدْرِيَّةُ وَالْمُعْتَرِئَةُ: لَا تَكُونُ الْقُدْرَةُ إِلَّا قَبْلَ الْفِعْلِ، وَقَابَلَهُمْ طَائِفَةٌ مِنْ
أَهْلِ السُّنَّةِ، فَقَالُوا: لَا تَكُونُ إِلَّا مَعَ الْفِعْلِ.

وَالَّذِي قَالَه عَامَّةُ أَهْلِ السُّنَّةِ: أَنَّ لِلْعَبْدِ قُدْرَةً هِيَ مَنَاطُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَهَذِهِ
قَدْ تَكُونُ قَبْلَهُ، لَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مَعَهُ، وَالْقُدْرَةُ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْفِعْلُ لَا بُدَّ أَنْ
تَكُونَ مَعَ الْفِعْلِ، لَا يَجُوزُ أَنْ يُوجَدَ الْفِعْلُ بِقُدْرَةٍ مَعْدُومَةٍ.

وَأَمَّا الْقُدْرَةُ الَّتِي مِنْ جِهَةِ الصَّحَّةِ وَالْوُسْعِ، وَالتَّمَكُّنِ وَسَلَامَةِ الْآلَاتِ،
فَقَدْ تَتَقَدَّمُ الْأَفْعَالِ، وَهَذِهِ الْقُدْرَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجٌّ
أَلْبَيْتٍ مَنْ اسْتَقَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. فَأَوْجَبَ الْحُجَّ عَلَى الْمُسْتَطِيعِ، فَلَوْ
لَمْ يَسْتَطِيعِ إِلَّا مَنْ حَجَّ، لَمْ يَكُنِ الْحُجُّ قَدْ وَجَبَ إِلَّا عَلَى مَنْ حَجَّ، وَلَمْ يُعَاقَبْ أَحَدٌ

عَلَى تَرْكِ الْحَجِّ! وَهَذَا خِلَافُ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ.
 وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، فَأَوْجَبَ التَّقْوَى
 بِحَسَبِ الْإِسْتِطَاعَةِ، فَلَوْ كَانَ مَنْ لَمْ يَتَّقِ اللَّهَ لَمْ يَسْتَطِعِ التَّقْوَى، لَمْ يَكُنْ قَدْ
 أَوْجَبَ التَّقْوَى إِلَّا عَلَى مَنْ اتَّقَى، وَلَمْ يُعَاقَبْ مَنْ لَمْ يَتَّقِ! وَهَذَا مَعْلُومُ الْفَسَادِ.
 وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامٌ سِتْرَيْنِ مِن مَّسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤]. وَالْمُرَادُ
 مِنْهُ اسْتِطَاعَةُ الْأَسْبَابِ وَالْآلَاتِ.

وَكَذَا مَا حَكَاهُ سُبْحَانَهُ مِنْ قَوْلِ الْمُنَافِقِينَ: ﴿لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾
 [التوبة: ٤٢]، وَكَذَّبَهُمْ فِي ذَلِكَ الْقَوْلِ، وَلَوْ كَانُوا أَرَادُوا الْإِسْتِطَاعَةَ الَّتِي هِيَ
 حَقِيقَةُ قُدْرَةِ الْفِعْلِ، مَا كَانُوا يَنْفِيهِمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ كَاذِبِينَ، وَحَيْثُ كَذَّبَهُمْ دَلَّ
 أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِذَلِكَ الْمَرَضَ، أَوْ فَقَدَ الْمَالِ، عَلَى مَا بَيَّنَّ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ عَلَى
 الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾، إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ
 وَهُمْ أُغْنِيَاءُ﴾ [التوبة: ٩١-٩٣]. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ
 طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥]. وَالْمُرَادُ اسْتِطَاعَةُ الْآلَاتِ
 وَالْأَسْبَابِ. وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ لِعُمَرَ بْنِ حُصَيْنٍ: «صَلِّ قَائِمًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ
 فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَتَعَلَى جَنْبٍ»^(١). وَإِنَّمَا نَفَى اسْتِطَاعَةَ الْفِعْلِ مَعَهَا.

(١) أخرجه البخاري (١١١٧).

قال الشيخ:

هذا الكلام يتعلّق بركن من أركان الإيمان وهو القدر. والقدر كما نُقل عن الإمام أحمد: هو قدرة الله. والمعنى: أن الله قادر على كلّ شيء، وأنه يدخل في قدرته أفعال العباد وقدرتهم، وأنه هو الذي يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء، ومن الإيمان بالقدر الإيمان بأنّ للإنسان قدرة وإرادة على أفعاله وبها أصبح مكلفاً، وأمّا من فقد القدرة فقد سقط عنه التكليف؛ لأنّ هذا شيء محسوس ظاهر ليس فيه خطأ، فالإنسان الأعمى لا يكلف أن يقرأ في الكتاب، والإنسان الأعرج لا يكلف أن يسعى السعي الشديد في الرّمل أو الطواف أو السعي. وقد أسقط الله الجهاد عن المعذورين، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ [الفتح: ١٧]، ونحو ذلك من الآيات.

كما مرّ معنا من كلام الشارح: أن الاستطاعة تنقسم قسمين: استطاعة بمعنى التوفيق، وهذه لا يملكها إلا الله، واستطاعة بمعنى مزاولة الفعل، وهذه يوصف بها العبد.

فأمّا التوفيق والإلهام والهداية، فهي إلى الله، ولا يستطيعها العباد، وقد نفاها الله تعالى عن نبيه، فقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]. وقال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]. وقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، وفي قراءة: ﴿لَا يُهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾، أي: من أضله الله لا أحد يقدر على هدايته. فهذه الهداية تستدعي توفيق الله وإلهامه

وإفهامه، وتستدعي الإقبال بقلبه وقالبه إلى الأعمال، وتستدعي هدايته وتوفيقه، هذه هي حقيقة خلق الله وفعل الله، ولكن الإنسان أيضًا له قدرة على بعض الأسباب، فيجعلها الله سببًا لهداية بعض الناس.

ولأجل ذلك قال النبي ﷺ لعليّ عليه السلام: «لَأَنَّ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»^(١)؛ يهدي الله بك: أي يجعلك سببًا في الهداية، والله هو الهادي، بمعنى أنك بينت لذلك الرجل ودعوته وحذرتة وخوفته وأذرتة، ودعوته إلى ما ينفعه، وبينت له ما ينفع، وما يضر، وعاقبة هذا وعاقبة هذا، فالله قذف في قلبه المعرفة والقبول، وتقبل ما جئت به، فأصبح بذلك قابلاً وأي قبول. فمثل هذا يكون سببًا في الهداية. فأصلها من الله، وأنت منك الأسباب.

ويدخل في ذلك قول الرسول ﷺ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ»^(٢). سَمَاهُ هُدًى، أي: ضد الضلال. فالداعي متسبب، والله هو الذي جعل السبب مؤثراً ومفيداً.

وبعد ذلك القسم الثاني من الاستطاعة: وهي الاستطاعة التي هي مزاوله الفعل والقدرة عليه، وهي التي لا يكلف الله إلا من قدر عليها. فالعاجز عن الحج مالياً لا يستطيعه، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد ؓ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة ؓ.

إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴿ [آل عمران: ٩٧]، فالفقير الذي لا يجد مالا يوصله إلى مكة؛ فهذا لا يستطيع، ولو كان يستطيع بدنيًا. والذي لا يستطيع بدنيًا كالذي لا يستطيع ركوب سيارة أو طائرة مثلًا لمرض أو شلل أو خوف، يقال: لا يستطيع الثبوت على المركوب، فهو بذلك لا يستطيع بيده.

معلوم أن الله تعالى لا يكلف الإنسان مع عجزه، إنما يكلفه إن كان قادرًا وإن كان فاهمًا. ولذلك أسقط الله التكاليف عن الأطفال؛ لكونهم غير قادرين أو فاهمين، وأسقطها عن فاقد العقل لنقصه معنويًا، وكذلك أسقطها عن العاجزين، كما في قوله تعالى في الجهاد: ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ [التوبة: ٩١]، يعني: ليس عليهم حرج في أن يتخلفوا عن الجهاد؛ لأن مثل هؤلاء لا يستطيعون، فالضعفاء لا يستطيعون أن يخوضوا المعارك، وكذلك المرضى لا يستطيعون ذلك، وكذلك الذين لا يجدون ما ينفقون، فهو لا يجد مركوبًا أو سلاحًا وعدة، هؤلاء أسقط الله عنهم الجهاد، كما أسقط عن العاجزين ماليًا وبدنيًا الحج بقوله تعالى: ﴿ مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وفُسرَت السبيل: بالزاد والراحلة، كما في حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ما يوجب الحج؟ قال: «الزَادُ وَالرَّاحِلَةُ»^(١)، فدَلَّ على أن الاستطاعة قدرة العبد من حيث المال والبدن.

(١) أخرجه الترمذي (٨١٣)، وابن ماجه (٢٨٩٦)، والبيهقي (٤/٣٢٧).

فإن كان الفعل يستدعي مالا مثل الحج والجهاد، سقط عنه إن كان لا يجد، فإن كان لا يستدعي مالا كالقريب من مكة، ولكن يستدعي قوة بدن، وكان هذا الإنسان عاجزا بدنيا سقط عنه. والجهاد كذلك يسقط عنه إن كان عاجزا بدنيا، فإن كان عاجزا ماليا، ولكن هناك من تكفل به، وجّهزه فإنه لا يسقط عنه. كذلك العبادات البدنية المحضة، فإن كان فيها مشقة، فإنها تسقط أو تؤجل، مثل: فطر الصائم في المرض أو في السفر، يقال: لا يستطيع الصيام وهو مريض أو مسافر للمشقة، فيؤجل الصيام. أما الصلاة فإنها عمل بدني، ولذلك تتوقف أعمالها على القوة والقدرة، فإذا لم يستطع أن يحصل على الماء، سقطت عنه الطهارة بالماء، واكتفى بالتميم، فيقال: لا يستطيع أن يجد الماء، أو لا يستطيع استعمال الماء لمرض أو حرق أو نحو ذلك. وكذلك فعل الصلاة إذا لم يستطع أن يصلي وهو قائم صلى وهو جالس، وإن لم يستطع صلى على جنب أو مستلقيا؛ لأن هذا قد فقد نوعا من الاستطاعة البدنية فانتقل إلى ما يستطيعه، ويعرض ذلك العرض في كل شيء، حتى قال بعضهم^(١):

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئًا فَدَعُهُ وَجَاوِزُهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ

أراد بذلك الأمور العادية، يعني الأفعال المحسوسة، في الحرف مثلا الأجسام تختلف، فالإنسان الذي معه قوة بدنية يستطيع حمل الأثقال، وآخر لا يستطيع ذلك، ولكن يستطيع أن يفعل الأفعال التي ليس فيها حمل ولا ثقل

(١) ذكر هذا البيت ابن كثير في البداية والنهاية (٧/ ١٦٠) ونسبه إلى عمرو بن معد يكرب ؓ.

ونحو ذلك؛ كحراسة وما أشبهها، فالناس يتفاوتون في هذه الاستطاعة.

معلوم أن الاستطاعة تكون قبل الفعل ومع الفعل. فمثلاً نرى إنساناً قوياً مكتملاً، فنقول: أنت تستطيع أن تصلي قائماً. وإن رأينا إنساناً قوياً غنياً فنقول: أنت مكلف بالحج؛ لأنك تستطيعه مالياً وبدنياً. وهذه الاستطاعة تستمر إلى أن ينتهي من العمل، فتكون قبل الفعل، وفي أثناء الفعل. ولأجل هذا لو صلى ركعتين من الظهر وهو قائم ثم عجز، جلس وأتم بقية صلاته جالساً. وكذلك في الحج، فلو أنه عمل أعمال الحج، ثم عجز عن بعضها كالرمي مثلاً، وكُل فيه وسقط عنه لعجزه. ويقال هكذا في سائر الأفعال. فالاستطاعة تكون قبل الفعل، ولا يخاطبها إلا من كان مستطيعاً قبل مزاوله الفعل. وتكون في أثناء الفعل.

وقول من قال: إن الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل، قول باطل؛ لأنه لو كان كذلك، لم يكن الإنسان مكلفاً حتى يفعل، فلا يكون على القادر توبيخ، فإذا كان الإنسان قادراً على الحج، ولكنه تركه، وقال: أنا غير مكلف حتى أفعل، قلنا له: أنت مكلف من الآن؛ لأنك موصوف بالقدرة المالية والبدنية، فيلزمك أن تبشر الفعل. ويقال كذلك أيضاً في الإنسان الصحيح البدن الذي يسمع النداء بالصلاة ولا عُذر له، يستطيع أن يأتي المسجد فيؤدي الصلاة فيه، فهل يقال: أنت لا تستطيع حتى تبشر الفعل، أنت غير مكلف حتى تبدأ في الفعل؟! لو قيل كذلك، لسقطت كثير من العبادات. لو قيل: وأنت لست بمكلف ما دمت في بيتك حتى تبدأ بمباشرة الفعل، لاعتذر الكثير، وقالوا: لا نكون قادرين إلا إذا بشرنا. وهذا قول لا يقوله عاقل.

فمثلاً في النكاح يقول النبي ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ! مِنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَخْضٌ لِلْبَصْرِ، وَأَخْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ»^(١)، فما معنى الاستطاعة هنا؟ هل يقال: أنت لا تستطيع حتى تدخل بالزوجة؟ إذا رأينا مثلاً يملك المال والأهلية، قلنا: أنت مستطيع أن تتزوج، فلو قال مثلاً: ما دمت لم أتزوج؛ فأنا لي رخصة في أن أترك الزواج، قلنا: هذا خلاف العقل. وقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٥]، رخصة في أن ينكح الأمة المملوكة، فهل هذه الرخصة ما تكون إلا لمن عاجز بعد الفعل، نقول: ليس كذلك، بل إذا رأينا ذا مال يقدر على مهر الحرّة، منعناه أن يتزوج الأمة، وقلنا: لا تحلّ لك. قد يقول: ما دمت لم أتزوج فأنا غير مستطيع، نقول: أنت الآن مستطيع، والمال موجود عندك. وهكذا يقال في أنواع الاستطاعة.

أمّا الجهميّة الذين قالوا: إنّ العبد ليس له حركة، وإنّ حركاته ليست اختيارية، بل اضطرارية، ويسمّون المجبرة. فهؤلاء سلبوا العبد قدرته، وسلبوه اختياره، وجعلوا حركات يديه أو ركوعه أو سجوده أو زناه أو سكره اضطراراً أو إجباراً ليس له أي اختيار، وقالوا: إنّها هو بمنزلة أغصان الشجرة التي تحركها الرياح، أو حركة المرتعش الذي ترتعش يداه ولا يقدر على إمساكهما، وكذا جعلوا طاعته ومعاصيه خارجة عن استطاعته ليس له أي اختيار، فأبطلوا بذلك الأوامر

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٥، ٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠) من حديث ابن مسعود ؓ.

والتواهي، وأبطلوا بذلك الشريعة كلها، ومع ذلك فإنهم متناقضون، وقد مر معنا كثير من تناقضهم. وذلك أنك لو ضربت أحدهم واحتججت بالقدر ما عذرَكَ، ولا تركت تضربه، فكذلك أيضاً نقول: لا تحتج بالقدر على فعل المعاصي وترك الطاعات، بل عليك أن تزاوِل الفعل بقدر استطاعتك التي منحك الله، فالله أعطى الإنسان استطاعة بها يزاوِل الأفعال، ولو لا تلك الاستطاعة لما حصل تكليفُ هذه العبادات وهذه الأفعال، ولو نُفيت لبطلت الشريعة.

أما مذهب المعتزلة الذين يجعلون أفعال العباد صادرة منهم، ليس لله قدرة على أفعالهم، فإن المعتزلة من مذهبهم أن العبد هو الذي يخلق فعله، وليس لله قدرة على أفعال العبد، فجعلوا العبد مستقلاً بفعله، ونفوا قدرة الله عليه، ونفوا الأدلة التي تدل على ذلك. فقالوا: إن الله لا يقدر أن يهدي ولا أن يضل، بل العبد هو الذي يهدي نفسه، ويضل نفسه. وجعلوا للعباد الاختيار، لا لله تعالى، وأبطلوا قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، وأبطلوا عموم قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠]، وقالوا: لا يقدر إلا على ما يشاء، لا على كل شيء. وهكذا قالوا بكل ما هذا سبيله.

فنقول: لا شك أن هذا قول باطل؛ لأننا نؤمن بقدرة الله، ونؤمن بعمومها، ولا ينافي ذلك أنه أعطى العباد قدرة يزاوِلون بها أعمالهم، أصبحوا بها مكلفين يثابون على الخير، ويعاقبون على الشر. ولكن تلك القدرة مغلوبة بقدرة الله، فقدرة الله غالبية على قدرتهم، وإرادته غالبية على إرادتهم.

قال الشارح:

وَأَمَّا دَلِيلُ ثُبُوتِ الْإِسْتِطَاعَةِ الَّتِي هِيَ حَقِيقَةُ الْقُدْرَةِ، فَقَدْ ذَكَرُوا فِيهَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ۲۰]، وَالْمُرَادُ: نَفْسِي حَقِيقَةُ الْقُدْرَةِ، لَا نَفْسِي الْأَسْبَابِ وَالْأَلَاتِ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ ثَابِتَةً. وَسَيَأْتِي لِدَلِيلِكَ زِيَادَةٌ بَيَانٍ عِنْدَ قَوْلِهِ: (وَلَا يُطِيقُونَ إِلَّا مَا كَلَّفَهُمْ)، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَكَذَا قَوْلُ صَاحِبِ مُوسَى: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ۶۷]، وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ أَقْبَلُوا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ أَلْفَ سَلْوَةٍ مِنْ لَدُنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الصَّابِرُونَ﴾ [الكهف: ۷۲]، وَالْمُرَادُ مِنْهُ: حَقِيقَةُ قُدْرَةِ الصَّبْرِ، لَا أَسْبَابِ الصَّبْرِ وَالْأَلَاتِ، فَإِنَّ تِلْكَ كَانَتْ ثَابِتَةً لَهُ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ عَابَهُ عَلَى ذَلِكَ؟ وَلَا يُبْلَغُ مَنْ عَدِمَ آتَاتِ الْفِعْلِ وَأَسْبَابِهِ عَلَى عَدَمِ الْفِعْلِ، وَإِنَّمَا يُبْلَغُ مَنْ امْتَنَعَ مِنْهُ الْفِعْلُ لِتَضْيِيعِهِ قُدْرَةَ الْفِعْلِ؛ لِأَسْتِغَالِهِ بِغَيْرِ مَا أَمَرَ بِهِ، أَوْ شُغْلِهِ بِأَيَّامٍ بِضِدِّ مَا أَمَرَ بِهِ. وَمَنْ قَالَ: إِنَّ الْقُدْرَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا حِينَ الْفِعْلِ. يَقُولُونَ: إِنَّ الْقُدْرَةَ لَا تَصْلُحُ لِلضَّيِّقِينَ، فَإِنَّ الْقُدْرَةَ الْمُقَارِنَةَ لِلْفِعْلِ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِذَلِكَ الْفِعْلِ، وَهِيَ مُسْتَلْزِمَةٌ لَهُ، لَا تُوجَدُ بَدُونِهِ.

قال الشيخ:

معلوم أن للإنسان قدرة عامة، ولكن قد يغلب تلك القدرة والاستطاعة ما يفوتها عليه، ففي قصة موسى - عليه السلام - والخضر، أن الخضر قال: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، خَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧-٦٨]، وَلَكِنَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ

أَمْرًا ﴿[الكهف: ٦٩]، مع ذلك لم يستطع الصبر؛ لأنه رأى ما أنكره، فهو لم يستطع أن يصبر عندما حرق الخضر السفينة؛ لأنه رأى حرق السفينة سببًا لإغراقها، فأخبره الخضر بأنه أراد بذلك عيها حتى لا تؤخذ منهم. ولَمَّا رآه قتل غلامًا بغير ذنب لم يصبر؛ لأنه لم يعلم عاقبة هذا الغلام أنه طبع كافرًا. ولَمَّا أَنَّ الخضر أقام الجدار في تلك القرية التي لم يضيفه أهلها، استنكر ذلك وقال: لم يضيفونا، ومع ذلك تقيم جدارهم! وهو لم يستطع أن يصبر مع أنه قادر على أن يمسك نفسه. فقولُه: ﴿لَنْ نَسْتَطِيعَ﴾، ليس المراد: لن نستطيع بدنيًا، ولن نستطيع عقلاً، بل نقدر أنك إن رأيت شيئًا تستنكره وتستقبحه، فالعادة أنك تندفع، ولو كنت لا تدري ما عاقبته. فهذا معنى الاستطاعة في هذا الباب، وبلا شك أن هذه الاستطاعة مقدورة، ولو لم تكن كذلك، لما قال موسى - عليه السلام -: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾، فأراد بأنه قادر على الاستطاعة.

فالاستطاعة إذاً: استطاعة مالية، وهي استطاعة الذي يريد الحج ونحوه، واستطاعة بدنية كاستطاعة صوم الكفارات ونحوها. وفي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَكَوِّعَيْنِ﴾ [النساء: ٩٢]، يعني: في كفارة القتل، وفي كفارة الظهار، هذا فيمن لم يستطع العتق وهو استطاعة مالية. واستطاعة بدنية ﴿فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤]. أي: فمن لم يستطع الصيام لعذر من الأعذار.

ويقال كذلك في قدرة الله تعالى، وأن قدرته عامة، وأنه جعل للعباد القدرة

على مزاوله أعمالهم.

وأما الآية التي بدأ بها الشارح هنا، وهي قوله: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، فمعلوم أن لهم أسياعاً، وأبصاراً، ولكن كأثمهم ينفرون من هذا الشيء، فلا يستطيعون أن ينعصوا ويستمعوا له، وكذلك لا يستطيعون مقابلته، ففي إمكانهم أن يستمعوا، ولكن الدوافع تدفعهم.

وقد ذكر الله مثال ذلك عن المشركين في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيْءِ آذَانِنَا وَقُرْءٍ مِّنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، معلوم أن هذا ليس بظاهر، فقلوبهم كقلوب غيرهم، ولكن كأثمهم يقولون: كلامك لا يدخل في قلوبنا، ولا يدخل في أسياعنا، ولو سمعناه لم نتأمله ولم نتعقله، ولا ننظر إليك نظر اعتبار. هل يقال: إثمهم عاجزون عن السمع؟ والجواب: أنهم ليسوا عاجزين، فكذلك قوله: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾، هم قادرون على السمع ولكن ينفرون منه، والنفرة من الحق بسبب وسوسة الشيطان.

وكثير من أهل البدع لا يستطيعون أن يستمعوا النصائح التي تخالف بدعهم، بل إما أنهم لا ينعصون إليها، وإما أنهم إذا حضروها أخذوا يتكلمون، كما في قول المشركين لبعضهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْعَوَاقِبِ﴾ [فصلت: ٢٦]. وإما أن يهربوا، ويخرجوا ويبتعدوا، كما حكى الله تعالى عن نوح - عليه السلام - أنه قال: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغُرَهُمْ فِيْءِ آذَانِهِمْ وَأَسْتَغِيثُوا يُغَايِبُهُمْ وَاصْرُؤُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧]، كأثمهم يقولونه: نخشى أن نسمع فيدخل

شيء في قلوبنا أو يعلق به. وهكذا يقوله كثير من المبتدعة الآن.

كما حكى لنا بعض الإخوة الذين ذهبوا إلى نجران، وألقى له محاضرة تتعلق بعقيدة أهل السنة، وكان الغالب على أهل المسجد أنهم من المكرمية الذين هم إسماعيلية، فلما جلسوا يستمعون، جاء مشايخهم وجعلوا يقيمونهم واحداً واحداً، مخافة أن يقع في أسماهم أو يصل إلى قلوبهم شيء يغير معتقداتهم. فهم ولو كان الكلام حقاً لا يقبلونه، ليس معهم قدرة ولا استطاعة على أن يقولوا: نستمع وننظر إن كان حقاً نقبله، ونعرضه على الحق، ولا يضرنا سماعنا. بل يتعدون عنه.

وهناك أحد إخواننا الذين درسوا في المدارس المتوسطة في مدارس الشيعة، فاتفقوا مع أبنائهم أن يناظروهم في القرآن والسنة، وعندما حان الموعد وهم يظنون أنهم غالبون لهم جلسوا معهم مرة أو مرتين، وكان آباءهم أحسوا بشيء من التغيير، فما كان منهم إلا أن رحلوه، وقالوا: ابتعد عن بلادنا ولا تعد تدرس أولادنا، لماذا؟ هل لا يستطيعون أن يسمعوا، مع أنه بين لهم معاني الآيات والأحاديث ونحوها؟ نقول: يستطيعون، ولكن في هذه الآية: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾، نحن نعلم أنهم يستطيعون السمع، ولكن هناك ما يرجعهم، ويحول بينهم وبين هذا الاستماع، فأسماعهم موجودة، ولكن هناك ما يمنعهم عن السمع.

قال الشارح:

وَمَا قَالَتْهُ الْقَدْرِيَّةُ بِنَاءً عَلَى أَصْلِهِمُ الْفَاسِدِ، وَهُوَ إِقْدَارُ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِ
وَالْكَافِرِ، وَالْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، سَوَاءً، فَلَا يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ خَصَّ الْمُؤْمِنَ الْمُطِيعَ بِإِعَانَةٍ
حَصَلَ بِهَا الْإِيمَانُ، بَلْ هَذَا بِنَفْسِهِ رَجَحَ الطَّاعَةَ، وَهَذَا بِنَفْسِهِ رَجَحَ الْمَعْصِيَةَ!
كَالْوَالِدِ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ بَنِيهِ سَيْفًا، فَهَذَا جَاهَدَ بِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ،
وَهَذَا قَطَعَ بِهِ الطَّرِيقَ.

وَهَذَا الْقَوْلُ فَاسِدٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ الْمُشْتَرِكِينَ لِلْقَدَرِ، فَإِنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ
عَلَى أَنَّ لِلَّهِ عَلَى عَبْدِهِ الْمُطِيعِ نِعْمَةً دِينِيَّةً، خَصَّهُ بِهَا دُونَ الْكَافِرِ، وَأَنَّهُ أَعَانَهُ عَلَى
الطَّاعَةِ إِعَانَةً لَمْ يُعِنْ بِهَا الْكَافِرَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ
وَزَيَّنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾

[الحجرات: ٧]، فَالْقَدْرِيَّةُ يَقُولُونَ: إِنَّ هَذَا التَّحْسِيبَ وَالتَّزْيِينَ عَامٌّ فِي كُلِّ الْخَلْقِ،
وَهُوَ بِمَعْنَى الْبَيَانِ وَإِظْهَارِ دَلَائِلِ الْحَقِّ. وَالآيَةُ تَقْتَضِي أَنَّ هَذَا خَاصٌّ بِالْمُؤْمِنِ،
وَهَذَا قَالَ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾، وَالْكَفَّارُ لَيْسُوا رَاشِدِينَ. وَقَالَ تَعَالَى:

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَمْشِمْحْ سَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ سَدْرَهُ ضَبْحًا

حَرِيًّا كَمَا كُنَّا يَمْشِمْحْ فِي السَّمَلَةِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا

يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ، يُبَيِّنُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ

هَدَى هَذَا وَأَضَلَّ هَذَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ

لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، وَسَيَأْتِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ زِيَادَةً بَيَانًا، إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قال الشيخ:

في هذا ردُّ على القول الذي حكاه عن المعتزلة؛ لأنَّه حكى في أول الكلام ثلاثة أقوال:

القول الأوَّل: عن الجبريَّة الذين يقولون: إنَّ العبد مجبور وليس له اختيار، وأنَّه بمنزلة الشجرة التي تحركها الرياح، فهو مدفوع إلى الزنى، وهو مدفوع إلى الربا، وهو مدفوع إلى شرب الخمر، وهو مدفوع إلى الصلاة، وليس له أيُّ اختيار. القول الثاني: قول المعتزلة: بأنَّ العبد هو يخلق فعله، ويزاوله، وليس لله أيُّ قدرة على فعله.

والقول الثالث: قول أهل السنة: وهو أنَّ للعبد قدرةً واختياراً، ولكنَّ قدرته واختياره مغلوبة بقدرة الله وباختياره، فهو الذي يهدي من يشاء، ويضلُّ من يشاء. وهدايته للمؤمنين تُعدُّ فضلاً منه وكرماً، وإضلاله للكافرين يُعدُّ عدلاً منه دون ظلم، فما ظلم هؤلاء، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]. فقد امتنَّ على هؤلاء وعلم أنَّهم أهلُّ للفضل والنعمَّة والهداية، فهداهم وسدَّهم.

أمَّا المعتزلة، فقالوا إنَّه ليس لله أيُّ قدرة، وإنَّ العبد هو الذي يهدي نفسه أو يضلُّها، ونفوا مدلول الآيات ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٧﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ﴿٣٦﴾ [الزمر: ٣٦، ٣٧]، وقد عرفنا الرَّدَّ عليهم بمثل هذه الآيات: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا

حَرَجًا ﴿[الأنعام: ١٢٥]، هذا أنعم عليه، وهذا خذله. فإنعامه على هذا يُعدّ فضلًا، وخذلانه لذلك يُعدّ عدلًا^(١).

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ كَلَّا وَلَا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعٌ
 إِنْ عُدُّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نَعَّمُوا فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الْكَرِيمُ الْوَاسِعُ

إنّ من أركان الإيمان: الإيمان بالقدر. وكلمة القدر كلمة لها أهميتها وقدرها، لها معنويتها: بمعنى أنّ من آمن بقدره الله، وأنّ الله على كلّ شيء قدير؛ صدق بالقدر.

ويدخل في القدر تقدير الأشياء قبل أوقاتها. ويدخل فيه كتابتها قبل أن تخلق وتوجد، ويدخل فيه إرادة كلّ ما يحدث، ومشيتها العامّة، ويدخل فيه خلقها وإيجادها وتكوينها، وأنّها لا تكون إلا بإرادة الله وبخلقه وبتقديره وتكوينه، هذه تسمّى مراتب القدر الأربع: الأولى العلم، والثانية الكتابة، والثالثة الإرادة، والرابعة الخلق.

فيؤمّن العباد بهذه المراتب الأربع، ومن كذب بشيء منها نقص إيمانه بالقدر. فأنكر ذلك طوائف من الغلاة، أنكروا أن يكون الله يعلم الأشياء قبل أن تحدث، وهم الذين يقول فيهم الإمام الشافعي - رحمه الله -: ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خصموا، وإن جحدوه كفروا. أي: سلوهم: أتقرّون بأنّ الله تعالى موصوف بالعلم، وأنّ الله بكلّ شيء عليم، فإذا اعترفوا بذلك خصموا وقيل لهم: ما الفرق

(١) راجع (٤/٣٢٧).

بين علم الماضي وعلم المستقبل؟ فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، فإذا علم ما قد مضى، فلا يخفى عليه ما هو آت وما هو مستقبل. وأما الخلق والتكوين فإنه يدخل في القدرة، يدخل في الإيثار بقدرة الله، فإذا كنا نؤمن بأن الله على كل شيء قدير، فلا بد أن يدخل في هذه القدرة كل ما في الكون، لا يخرج عن قدرة الله شيء من الوجود ولا من الحركات التي تكون في هذا الكون، كلها كائنة بقدرة الله وبمشيئته وبخلقه وتكوينه، فلا يكون في الوجود إلا ما يريد.

ونعتقد أن ربنا سبحانه أعطى الإنسان قدرة على مزاوله أفعاله، وأن العباد لهم إرادة، وقدرة الله غالبية على قدرتهم وغالبية على إرادتهم، فإذا أراد الله شيئاً فلا بد أن يكون. وهذا معنى قول الشافعي في أبيات مشهورة^(١):

فَمَا شِئْتَ كَانَ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ وَمَا شِئْتُ إِنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ
خَلَقْتَ الْعِبَادَ عَلَى مَا عَلِمْتَ فَفِي الْعِلْمِ يَجْرِي الْفَتَى وَالْمِسْنُ
عَلَى ذَا مَنَنْتَ وَهَذَا خَدَلْتُ وَهَذَا أَعْنَتْ وَذَا لَمْ تَعْنُ

ومع ذلك فإن للعباد قدرة تناسبهم، وبهذه القدرة أصبحوا مكلفين، وبها أصبحوا مأمورين ومنهيين، ولو سقطت عنهم هذه القدرة، سقطت عنهم التكاليف. ومن أجل هذا تسقط التكاليف عن العاجز، ويُنفى عنه الحرج، فلا يكلف إلا ما يطيق. فمن فقد العقل، لم يكن إلى إفهامه من سبيل، فلا يكلف. ومن فقد البصر لم يكلف بالغزو والقتال. وكذا سائر العاجزين ونحوهم. يقول

(١) تقدم تحريجه (١/٥٤٧).

تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُفْقُونَ حَرْجٌ﴾ [التوبة: ٩١]، يعني: إذا تخلفوا عن الجهاد. فدلّ على أن غيرهم عليهم حرج؛ لأنّ لهم استطاعة، وإن كانت تلك الاستطاعة مخلوقةً لله، وداخلة تحت قدرته.

وبكلّ حال، فالاستطاعة التي منحها الإنسان، هي التي في إمكانه أن يزاول بها الأعمال، مع أنّها داخلة في خلق الله تعالى، وأنّ الله سبحانه لا يكلفهم إلا ما بقدرتهم واستطاعتهم ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. ولذلك أسقط الحجّ عن غير المستطيع، بل جعل فرضه على من استطاع إليه سبيلاً، وكذلك أسقط ما يعجز عنه الإنسان أو يشقّ عليه: فرخص للمسافر أن يفطر؛ لأنّ عليه مشقة، وكذلك المريض له أن يفطر ويقضي لما في الصيام عليه من الصعوبة، وكذلك في سائر العبادات التي يعجز عنها العبد.

فالقدرة والاستطاعة التي في ملكية الإنسان، هي ما منحه الله، وما أودع فيه، وما قواه به، وإن كان ذلك كلّه داخلاً في عموم قدرة الإنسان.

وقد مرّ بنا أنّ الاستطاعة التي نفيت هي التي لا تدخل في مقدور الإنسان. كما نفي بقول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتْنَهَا﴾ [الطلاق: ٧]، أي: لا يكلفها بغير ما أعطاها، لا يكلف نفساً إلاّ وسعها.

قال الشارح:

وَأَيْضًا فَقَوْلُ الْقَائِلِ: يُرَجَّحُ بِلَا مُرَجِّحٍ. إِنْ كَانَ لِقَوْلِهِ: (يُرَجَّحُ) مَعْنَى زَائِدٌ عَلَى الْفِعْلِ، فَذَلِكَ هُوَ السَّبَبُ الْمُرَجَّحُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَعْنَى زَائِدٌ كَانَ حَالُ الْفَاعِلِ قَبْلَ وُجُودِ الْفِعْلِ كَحَالِهِ عِنْدَ الْفِعْلِ، ثُمَّ الْفِعْلُ حَصَلَ فِي إِحْدَى الْحَالَتَيْنِ دُونَ الْأُخْرَى بِلَا مُرَجِّحٍ! وَهَذَا مُكَابَرَةٌ لِلْعَقْلِ!! فَلَمَّا كَانَ أَصْلُ قَوْلِ الْقَدْرِيَّةِ: إِنَّ فَاعِلَ الطَّاعَاتِ وَتَارِكَهَا كِلَاهُمَا فِي الْإِعَانَةِ وَالْإِقْدَارِ سَوَاءٌ. ائْتَنَعَ عَلَى أَصْلِهِمْ أَنْ يَكُونَ مَعَ الْفِعْلِ قُدْرَةٌ مُخَصُّصَةٌ؛ لِأَنَّ الْقُدْرَةَ الَّتِي تُخَصُّصُ الْفِعْلَ لَا تَكُونُ لِلتَّارِكِ، وَإِنَّمَا تَكُونُ لِلْفَاعِلِ، وَلَا تَكُونُ الْقُدْرَةُ إِلَّا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. وَهُمْ لَمَّا رَأَوْا أَنَّ الْقُدْرَةَ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ قَبْلَ الْفِعْلِ، قَالُوا: لَا تَكُونُ مَعَ الْفِعْلِ؛ لِأَنَّ الْقُدْرَةَ هِيَ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْفِعْلُ وَالتَّرْكُ، وَحَالُ وُجُودِ الْفِعْلِ يَمْتَنِعُ التَّرْكُ، فَلِهَذَا قَالُوا: الْقُدْرَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا قَبْلَ الْفِعْلِ! وَهَذَا بَاطِلٌ مُطْلَقًا، فَإِنَّ وُجُودَ الْأَمْرِ مَعَ عَدَمِ بَعْضِ شُرُوطِهِ الْوُجُودِيَّةِ مُمْتَنِعٌ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ مَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ الْفِعْلُ مِنَ الْأُمُورِ الْوُجُودِيَّةِ مَوْجُودًا عِنْدَ الْفِعْلِ. فَتَقْبِضُ قَوْلَهُمْ حَقًّا، وَهُوَ: أَنَّ الْفِعْلَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ قُدْرَةٌ.

لَكِنْ صَارَ أَهْلُ الْإِبْتِهَاتِ هُنَا حِزْبَيْنِ: حِزْبٌ قَالُوا: لَا تَكُونُ الْقُدْرَةُ إِلَّا مَعَهُ، ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ الْقُدْرَةَ نَوْعٌ وَاحِدٌ لَا يَصْلُحُ لِلْمُضَادِّينِ، وَظَنًّا مِنْ بَعْضِهِمْ أَنَّ الْقُدْرَةَ عَرَضٌ، فَلَا تَبْقَى زَمَانَيْنِ، فَيَمْتَنِعُ وُجُودُهَا قَبْلَ الْفِعْلِ.

وَالصَّوَابُ: أَنَّ الْقُدْرَةَ نَوْعَانِ كَمَا تَقَدَّمَ: نَوْعٌ مُصَحَّحٌ لِلْفِعْلِ، يُمَكِّنُ مَعَهُ الْفِعْلَ وَالتَّرْكُ، وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي يَتَعَلَّقُ بِهَا الْأَمْرُ وَالتَّهْيِ، وَهَذِهِ تَحْصُلُ لِلْمُطْبِعِ

وَالْعَاصِي، وَتَكُونُ قَبْلَ الْفِعْلِ، وَهَذِهِ تَبْقَى إِلَى حِينِ الْفِعْلِ، إِمَّا بِنَفْسِهَا عِنْدَ مَنْ يَقُولُ بِيَقَاءِ الْأَعْرَاضِ، وَإِمَّا بِتَجَدُّدِ أَمْثَالِهَا عِنْدَ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الْأَعْرَاضَ لَا تَبْقَى زَمَانِينَ، وَهَذِهِ قَدْ تَصَلَّحُ لِلضَّادِّينَ، وَأَمْرُ اللَّهِ مَشْرُوطٌ بِهَذِهِ الطَّاقَةِ، فَلَا يُكَلِّفُ اللَّهُ مَنْ لَيْسَ مَعَهُ هَذِهِ الطَّاقَةُ، وَضِدُّ هَذِهِ الْعَجْزُ، كَمَا تَقَدَّمَ.

قال الشيخ:

يناقش الشارح بعض المبتدعة الذين يقولون: إن القدرة على الفعل تسبق الفعل وتسبق مزاولته، ولا تصحبه حالة وجوده. فيقولون مثلاً: إن الإنسان الذي عنده مال، وتمت قوته وقدرته على الإتيان بالحج، فإذا تمت أصبح مكلفاً، ولا تكون القدرة حالة مزاولته للعمل، مثل طوافه وسعيه وإحرامه ووقوفه ورميه ونحو ذلك، يقولون: لا تشترط القوة ولا القدرة في هذه الحالات، وما ذاك إلا أنها شرطت في أول الأمر، وزالت الحاجة إليها بعد ذلك، فلا حاجة إلى وجودها وبقائها حالة مزاوله الفعل، ويقولون كذلك في سائر العبادات؛ كصلاة الجماعة مثلاً: إذا أمن على نفسه، وكان معه قدرة وقوة، وكان صحيح البدن ليس به مرض، وليس بنخائف، ووجب عليه أن يصلي مع الجماعة، فإذا دخل المسجد، أو أقيمت الصلاة، أو بدأ في الصلاة، فلو زالت القدرة لم تضر، ولا تشترط القدرة ولا وجودها حالة مزاوله الصلاة. هذا تقرير قولهم.

ولا شك أن القدرة والقوة على الفعل لا بد من وجودها قبل الفعل وفي حالة وجود الفعل. فإن الإنسان مأمور بأن يصلي قائماً، فإن صلى ركعتين من

الظهر قائماً، ثم عجز، رخص له أن يجلس ويتم جالساً، فدل على أن القدرة مشرطة حالة الفعل من أوله إلى آخره. فلو أن إنساناً تجهز للحج، فلو قطع نصف الطريق مثلاً، ثم عجز وقلت نفقته، أو حصل له خوف أو مرض جاز له أن يرجع ويؤجل الحج؛ لأن القدرة لم تبق معه، بل حدث ما يصادها. وهكذا بقية الأعمال. ولكن قد يستثنى منها البعض: فمثلاً: إذا تم الحول على المال ووجب فيه الزكاة، تعلق بذمة المالك، ولو تلف المال بقيت الزكاة في الذمة؛ لأنه قرط حيث أخر إخراجها، وهناك من يقول: إنها تسقط عنه، فمثلاً إذا حصد زرع، وكسأ حصده كله وجمعه، وقبل أن يخرج زكاته احترق كله، أو حملته الرياح وقرقته، فالصحيح أنه لا يلزمه زكاة؛ لأنها ما وجدت مواساة، ومن أين يواسي والمال الذي وجبت فيه قد تلف. وكذا مثلاً لو تم حول نصاب الماشية السائمة، فلما تم الحول ماتت كلها، أو لم يبق منها قدر النصاب، سقطت الزكاة عنها وأصبح من غير أهل الزكاة.

وكذلك الإنسان إذا صام نصف النهار، أصبح وهو قادر وعنده قوة، وعنده استطاعة على إتمام ذلك اليوم، ولكن في أثناء النهار مرض أو أصابه مانع شديد منعه من الإتمام جاز له أن يفطر، ويقضي ذلك اليوم؛ لأنه أصبح من غير أهل الاستطاعة.

فتبين بهذا أن الاستطاعة التي أمرنا بها في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْتَغِي مَنَافِعَ النَّاسِ أَلَمْ تَكُنْ عَلَىٰ فِطْرَتِهِ لَمَّا بَدَأَ الْبَشَرَةَ ۗ إِنَّ عِندَ اللَّهِ لَلْعَلِيمَ﴾ [التغابن: ١٦]، أن المراد بها الاستطاعة التي قبل الفعل، والتي مع

أَسْتَطَعْتُمْ ﴿[التغابن: ١٦]، أن المراد بها الاستطاعة التي قبل الفعل، والتي مع

الفعل، فقبل الفعل يكون نشيطاً قوياً، قادراً على أن يكمل الفعل، ومع الفعل يحصل منه أنه قادر على إتمامه إلى آخره، فإذا لم يكمله فهو معذور. فهذا توجيه قول أهل السنة، ولا يلتفت إلى قول من يقول: إن القدرة تشترط قبل الفعل، ولا حاجة إلى اشتراطها، ولا إلى لزومها حالة مزاوله الفعل، وما ذاك إلا أنهم متناقضون كما مرّ بنا.

قال الشارح:

وأيضا: فالإستطاعة المشروطة في الشرع أحص من الإستطاعة التي يمتنع الفعل مع عدمها، فإن الإستطاعة الشرعية قد تكون ما يتصور الفعل مع عدمها وإن لم يعجز عنه، فالشارع يسر على عباده، ويريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر، وما جعل عليكم في الدين من حرج، والمريض قد يستطيع القيام مع زيادة المرض وتأخر برئه، فهذا في الشرع غير مستطيع، لأجل حصول الضرر عليه، وإن كان قد يسمى مستطيعا. فالشارع لا ينظر في الإستطاعة الشرعية إلى مجرد إمكان الفعل، بل ينظر إلى لوازم ذلك، فإن كان الفعل ممكنا مع المفسدة الرجحة لم تكن هذه استطاعة شرعية، كالذي يقدر على الحج مع ضرر يلحقه في بدنه أو ماله، أو يصلي قريبا مع زيادة مرضه، أو يصوم الشهرين مع انقطاعه عن معيشته، ونحو ذلك. فإذا كان الشارع قد اعتبر في المكنة عدم المفسدة الرجحة، فكيف يكلف مع العجز!

ولكن هذه الإستطاعة مع بقائها إلى حين الفعل لا تكفي في وجود الفعل، ولو كانت كافية لكان التارك كالفاعل، بل لا بد من إحداث إحالة أخرى تقارن، مثل جعل الفاعل مريدا، فإن الفعل لا يتم إلا بقدره وإرادته، والإستطاعة المقارنة تدخل فيها الإرادة الجازمة، بخلاف المشروطة في التكليف، فإنه لا يشترط فيها الإرادة. فالله تعالى يأمر بالفعل من لا يريد، لكن لا يأمر به من لو أراد لعجز عنه. وهكذا أمر الناس بعضهم لبعض، فالإنسان يأمر عبده بما لا يريد العبد، لكن لا يأمره بما يعجز عنه العبد، وإذا اجتمعت الإرادة الجازمة والقوة التامة، لزم

وَجُودُ الْفِعْلِ. وَعَلَى هَذَا يَنْبَغِي تَكْلِيفُ مَا لَا يُطَاقُ، فَإِنَّ مَنْ قَالَ: الْقُدْرَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا مَعَ الْفِعْلِ، يَقُولُ: كُلُّ كَافِرٍ وَفَاسِقٍ قَدْ كُتِّفَ مَا لَا يُطِيقُ. وَمَا لَا يُطَاقُ يُفَسَّرُ بِشَيْئَيْنِ: بِنَا لَا يُطَاقُ لِلْعَجْزِ عَنْهُ، فَهَذَا لَمْ يُكَلِّفْهُ اللَّهُ أَحَدًا، وَيُفَسَّرُ بِمَا لَا يُطَاقُ لِلِاسْتِغْثَالِ بِضِدِّهِ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ التَّكْلِيفُ، كَمَا فِي أَمْرِ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، فَإِنَّهُمْ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا، فَلَا يَأْمُرُ السَّيِّدُ عَبْدَهُ الْأَعْمَى بِنَقْطِ الْمَصَاحِفِ! وَيَأْمُرُهُ إِذَا كَانَ قَاعِدًا أَنْ يَقُومَ، وَيُعَلِّمُ الْفَرَقَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ بِالضَّرُورَةِ.

قال الشيخ:

هذه أمثلة ساقها الشارح لما تقدم من أن الله تعالى لا يكلف العباد إلا ما في وسعهم، وما في إرادتهم، وما تصل إليه قدرتهم، وما لا مشقة عليهم فيه، وإن كانوا قد يستطيعون فعل بعض الأشياء التي أسقطت عنهم، لكن مع مشقة تلحقهم، والمشقة تجلب التيسير، ولكن نفى الله الحرج في هذه الشريعة فقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. ولما ذكر أنهم يجوز لهم استعمال التراب عند فقد الماء أو عند التكلف في استعماله، بمرض ونحوه قال تعالى: ﴿لَا مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]. ولما أباح لهم الفطر في رمضان للسفر وللمرض قال بعد ذلك: ﴿لَا يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. فإنَّ المسافر قديماً يشقُّ عليه الصيام ولكنه يستطيعه، فإنَّ صام انقطع عن العمل، وانقطع عن خدمة نفسه، واحتاج إلى أن يخدمه رفقته،

ويرش عليه الماء لشدة جهده؛ فهذا قد يقول: إني أطيق، ولكننا نقول: إن ما فاتك أشد وأعظم؛ لأنك أعوزت غيرك إلى أن يخدموك، وإلى أن يقوموا عليك، وأبطلت مصالح نفسك، واحتجت إلى من يخدمك، ولو كنت تستطيع أن تكمل يومك.

وكذلك المريض لو قال: أنا أستطيع أن أصوم مع المرض، ولكن المرض يزداد مع هذا الصيام ويشتد ويتكلف صاحبه إذا صام، نقول: إنه قد كلف نفسه ما لا تطيق، وإنه ولو كان يستطيع الإكمال، لكن عليه مشقة من هذا الصيام، فله رخصة.

وكذا لو قال الفقير: أنا أستدين وأحج وأصبر على الدين الذي أتحمّله في ذمتي، نقول: إنك قد كلفت نفسك ما فيه مشقة؛ لأنك لست على يقين بأنك تقدر على وفاء هذه الديون التي تتحمّلها، أو أنك في سفرك قد تضيع أهلک، وقد يحتاجون إلى أن يتكفوا الناس؛ لأنك أنت الذي تتكسب لهم، وتفوق عليهم، فإن سافرت عنهم، أدى ذلك إلى أنهم يحتاجون، ويسألون الناس، فيسقط عنك الحج في هذه الحالة.

وكذلك في المصلي الذي أبيع له أن يصلي جالساً، ولكن يقول: في استطاعتي أن أقوم، ولو كان القيام يزيد في المرض، ويؤخر البرء والشفاء. نقول: لست بمكلف، وأنت لست بمستطيع، والذي يعجزه القيام يجزئه الجلوس، ويكون أجره كأجر القائم سواء. يقول النبي ﷺ: «صَلِّ قَائِمًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ

لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَىٰ جَنْبٍ»^(١). ولو كانت الاستطاعة قد تحصل مع نوع من المشقة. وبكل حال، فإنَّ المشقة التي نفاها الله تعالى هي التي فيها صعوبة على العباد. فهذا من جملة ما لم يكلفوا به، فإن كان عليهم شيء من الضيق والخرج والشدة، فإنَّ ذلك يجلب لهم الرخصة في أمورهم عامّة، وفي هذا الأمر خاصّة.

(١) تقدم تحريجه (٤/ ٣٣١).

قال الطحاوي:

وَأَفْعَالُ الْعِبَادِ خَلَقَ اللَّهُ وَكَسَبَ مِنَ الْعِبَادِ.

قال الشارح:

اختلف الناس في أفعال العباد الاختيارية.

فرعمت الجبرية ورئيسهم الجهم بن صفوان الترمذي: أن التدبير في أفعال الخلق كلها لله تعالى، وهي كلها اضطرارية، كحركات المرتعش، والعروق النابضة، وحركات الأشجار، وإضافتها إلى الخلق مجازاً! وهي على حسب ما يضاف الشيء إلى محله دون ما يضاف إلى محضله!

وقالبتهم المعتزلة، فقالوا: إن جميع الأفعال الاختيارية من جميع الحيوانات بخلقها، لا تعلق لها بخلق الله تعالى. واختلفوا فيما بينهم: أن الله تعالى يقدر على أفعال العباد أم لا؟!

وقال أهل الحق: أفعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة، وهي مخلوقة لله تعالى، والحق سبحانه وتعالى منفرد بخلق المخلوقات، لا خالق لها سواه. فالجبرية علموا في إثبات القدر، فتفوا صنع العبد أصلاً، كما خلت المشبهة في إثبات الصفات، فشبها. والقدرية نفاة القدر جعلوا العباد خالقين مع الله تعالى؛ ولهذا كانوا مجوس هذه الأمة، بل أزدأ من المجوس، من حيث إن المجوس أثبوا خالقين، وهم أثبتوا خالقين!!

وهدى الله المؤمنين أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي

مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

فَكُلُّ دَلِيلٍ صَحِيحٍ يُقِيمُهُ الْجَنَرِيُّ، فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ،
وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ مِنْ جُمْلَةِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ
وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَلَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ لَيْسَ بِفَاعِلٍ فِي الْحَقِيقَةِ وَلَا مُرِيدٍ
وَلَا مُخْتَارٍ، وَأَنَّ حَرَكَاتِهِ الْإِخْتِيَارِيَّةَ بِمَنْزِلَةِ حَرَكَةِ الْمُرْتَعِشِ، وَهُبُوبِ الرِّيحِ،
وَحَرَكَاتِ الْأَشْجَارِ.

وَكَوْنِ دَلِيلٍ صَحِيحٍ يُقِيمُهُ الْقَدْرِيُّ فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ فَاعِلٌ لِفِعْلِهِ
حَقِيقَةً، وَأَنَّهُ مُرِيدٌ لَهُ مُخْتَارٌ لَهُ حَقِيقَةً، وَأَنَّ إِصْطِفَاءَهُ وَنَسْبَتَهُ إِلَيْهِ إِضَافَةٌ حَقٌّ،
وَلَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ غَيْرٌ مَقْدُورٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ وَاقِعٌ بِغَيْرِ مَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ.

فَإِذَا ضَمَمْتَ مَا مَعَ كُلِّ طَائِفَةٍ مِنْهُمَا مِنَ الْحَقِّ إِلَى حَقِّ الْأُخْرَى، فَإِنَّمَا يَدُلُّ
ذَلِكَ عَلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ وَسَائِرُ كُتُبِ اللَّهِ الْمُنَزَّلَةِ، مِنْ عُمُومِ قُدْرَةِ اللَّهِ
وَمَشِيئَتِهِ لِجَمِيعِ مَا فِي الْكَوْنِ مِنَ الْأَعْيَانِ وَالْأَفْعَالِ، وَأَنَّ الْعِبَادَ فَاعِلُونَ لِأَفْعَالِهِمْ
حَقِيقَةً، وَأَنَّهُمْ يَسْتَوْجِبُونَ عَلَيْهَا الْمَدْحَ وَالذَّمَّ.

وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، فَإِنَّ أَدِلَّةَ الْحَقِّ لَا تَتَعَارَضُ، وَالْحَقُّ يُصَدِّقُ
بَعْضُهُ بَعْضًا. وَيَضِيقُ هَذَا الْمُخْتَصَرُ عَنْ ذِكْرِ أَدِلَّةِ الْفَرِيقَيْنِ، وَلَكِنَّهَا تَتَكَافَأُ
وَتَسَاقِطُ، وَيُسْتَفَادُ مِنْ دَلِيلِ كُلِّ فَرِيقٍ بُطْلَانُ قَوْلِ الْآخَرِينَ. وَلَكِنْ أَذْكَرُ شَيْئًا
مِمَّا اسْتَدَلَّ بِهِ كُلُّ مَنِ الْفَرِيقَيْنِ، ثُمَّ أُبَيِّنُ أَنَّهُ لَا يَدُلُّ عَلَى مَا اسْتَدَلَّ عَلَيْهِ مِنْ

الْبَاطِلِ.

قال الشيخ:

من هنا الكلام على أفعال العباد، فقال الطحاوي: (وَأَفْعَالُ الْعِبَادِ خَلَقَ اللَّهُ وَكَسَبَ مِنَ الْعِبَادِ)، فلم يثبتوا للعباد فعلاً، وإنما أثبتوا لهم كسباً، أي: هم الذين كسبوها، وهم الذين زاولوها، وإنما تنسب لهم؛ فالعبد يوصف بأنه: الذي صلى، وهو الذي صام، ولا يقال: خلق الله فيك الصوم، ولا خلق فيك الصلاة، ولا خلق فيك القتل والشرك أو الزنى؛ بل يقال: أنت المصلي أو الصائم، وأنت القاتل أو السارق، وأنت البرّ أو الفاجر، وأنت العامل للصالحات أو السيئات، وأنت الذي صبرت أو جزعت، وأنت الذي تشجعت أو جبت. يوصف بهذه الأفعال، ولو كانت خلق الله. الله تعالى خالق كل شيء، وهو الذي خلقها وهو الذي أرادها، ولو شاء ما آمن أحد، ولا كفر أحد، ولكنه تعالى أعطى العبد قدرة يزاول بها هذه الأعمال، فيصبح من أهلها وتنسب إليه، هو الذي تكلم عليه الطحاوي.

الأشاعرة لا يثبتون للعبد فعلاً، ويعتقدون أن الأفعال لا حقيقة لها أصلاً، الكسب عند الأشعري^(١) لا حقيقة له، وهو يثبت الكسب، ومع ذلك ينفي قدرة

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى (٨/ ١٢٨) عن الأشاعرة: «ثم أثبتوا كسباً لا حقيقة له، فإنه لا يُعقل من حيث تعلق القدرة بالمقدور فرق بين الكسب والفعل؛ ولهذا صار الناس يسخرون بمن قال هذا، ويقولون: ثلاثة أشياء لا حقيقة لها: طرفة النظام، وأحوال أبي هاشم، وكسب الأشعري».

العبد. والحال عند البهشمي^(١): لا يثبت للحال حقيقة. وطفرة النّظام^(٢) - الذي هو أحد المعتزلة - التي اعتقدها وذهب إليها لا حقيقة لها.

وقد جُمعت بقول بعض الشعراء^(٣):

مَّا يُقَالُ وَلَا حَقِيقَةً تَحْتَهُ مَعْقُولَةٌ تَدُنُو لِنِذِي الْأَفْهَامِ
الْكَسْبُ عِنْدَ الْأَشْعَرِيِّ وَالْحَالُ عِنْدَ الْبَهْشَمِيِّ وَطَفْرَةُ النَّظَامِ

والشارح - رحمه الله - ذكر أن للناس في هذه الأفعال ثلاثة مذاهب: مذهب باطل ن وهو مذهب الجبرية، ويقابله مذهب باطل آخر، وهو مذهب نفاة قدرة الله، ومذهب حق، وهو إثبات قدرة الله، وإثبات قدرة العبد التي تناسبه.

فالأول الذي قال أهله: إن العبد ليس له قدرة أصلاً، فهذا قول المجبرة أو الجبرية، الذين يقولون: إن العبد مجبور على أفعاله، وليس له أي اختيار، بل حركاته بمثابة حركات المرتعش، وهو الذي ترتعش يده، ولا يقدر على إمساكها، أو بمنزلة العروق النابضة التي تتحرك، ولا يقدر على إمساكها، أو

(١) هو: أبو هاشم عبد السلام بن أبي علي محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي المعتزلي، تُنسب إليه فرقة البهشمية. انظر: وفيات الأعيان (٣/١٨٣).

(٢) قال عبد القاهر البغدادي في الفرق بين الفرق (ص ١٣٤): «من فضائحه قوله بالطفرة، وهي دعواه أن الجسيم يتدحرج في مكان ثم يصير منه إلى المكان الثالث أو العاشر منه، من غير مرور بالأمكنة المتوسطة بينه وبين العاشر؛ ومن غير أن يصير معدوماً في الأول، ومعاداً في العاشر».

(٣) انظر: منهاج السنة النبوية (١/٤٥٩)، والنبوات (١٤٤).

حركاته بمنزلة حركات الأشجار التي تحركها الرياح. وهؤلاء جبرية، رئيسهم الجهم بن صفوان، فهو أول من قال: إن العباد ليس لهم قدرة وليس لهم اختيار، وأنهم مجبورون على أفعالهم. وهؤلاء يقولون: إن الله إذا عذب الخلق فإنه ظالم لهم؛ لأنه الذي خلق فيهم المعصية، فكيف يخلق فيهم القتل والشرك والزنى وما أشبه ذلك، ويعاقبهم على ذلك؟ فيعدون ذلك ظلماً من الله تعالى، مع أن الله قد نفى الظلم عن نفسه بقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

يقول قائلهم الذي ذكره ابن القيم في بعض كتبه^(١):

أَلْقَاهُ فِي الْبَحْرِ مَكْتَوْفًا وَقَالَ لَهُ إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالمَاءِ
يقولون: مثل العاصي الذي يُجبر على المعصية، كمثل الإنسان المكتوف
اليدين الذي يلقي في البحر ويقال له: لا تبتل بالماء. هو لا يستطيع الحركة، ومع ذلك ألقى في البحر.

ويقول في ميميته^(٢):

وَعِنْدَ مُرَادِ اللّٰهِ تَفَنَّى كَمَيِّتٍ وَعِنْدَ مُرَادِ النَّفْسِ تَسْدِي وَتُلْجِمُ
وَعِنْدَ خِلَافِ الْحَقِّ تَحْتَجُّ بِالقَدْرِ ظَهِيرًا عَمَلِي الرَّحْمَنِ لِلْجَبْرِ تَرْزُحُمُ
يقول: إن هؤلاء متناقضون، فإذا كان المراد للنفس فإنه يسدي ويلحم، أي:

يأتي الأمور من طولها وعرضها، ولا يتوقف جهده على شيء محدد، بل يبذل كل

(١) انظر: القصيدة الميمية بشرح مصطفى عراقي (ص ١٨٠).

(٢) انظر: شفاء العليل (ص ٤)، ومدارج السالكين (١/ ١٩٠).

ما في وسعه، ولكن إذا قيل له: إن الله أمرك بكذا، ونهاك عن كذا، فإنه يتقاعس ويتكاسل، فإذا قيل له: قال هذا مكتوب عليّ، وهذا ليس لي فيه اختيار، فيحتج بالقدر، ويزعم أنه مجبور على ذلك. هذا قول المجبرة الذين يزعمون أن العبد مجبور على فعله.

ويروى أنه تقدّم واحد منهم إلى شيخ الإسلام ابن تيمية وهو في مجلسه وحوله تلامذته، فألقى عليه أبياتاً أولها^(١):

أَيَا عُلَمَاءَ السُّدَيْنِ ذَمِّيْ دِيْنَكُمْ تَحْيِرَ ذُلُوهُ يَأْوُضِحْ حُجَّةَ
ويقول فيها:

دَعَانِي وَسَدَّ الْبَابَ عَنِّي فَهَلْ إِلَى دُخُولِي سَبِيلٌ بَيْنَا لِي قَضِيَّتِي
يحتج ويقول: إن إنساناً دعاني ثم سدّ الباب دوني، وقال لي ادخل: فكيف أدخل؟.

فردّ عليه شيخ الإسلام بأبيات مشهورة^(٢)، وقد شرحها عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله، ومطلعها:

سُؤَالُكَ يَا هَذَا سُؤَالٌ مُّعَانِدٍ مُخَاصِمُ رَبِّ الْعَرْشِ بَارِي الْبَرِيَّةِ
فَهَذَا سُؤَالٌ خَاصِمَ الْمَلَأِ الْعَمَلَا قَدِيمًا يَسُؤُ الْإِبْلِيسُ أَصْلُ الْبَلِيَّةِ
وَمَنْ يَكُ خَصْمًا لِلْمُهَيِّعِينَ يَرْجِعُونَ عَلَى أُمَّ رَأْسٍ هَاوِيًا فِي الْحَفِيرَةِ

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٢٤٥).

(٢) لساحة شيخنا عبد الله بن جبرين - حفظه الله - شرح مطبوع للمنظومة كاملة.

وَيُدْعَى^(١) خُصُومُ اللَّهِ يَوْمَ مُعَادِهِمْ إِلَى النَّارِ طُرًّا مَعَشَرُ الْقَدْرِيةِ
 سِوَاءَ نَفْوِهِ أَوْ سَعَوْا لِيُخَاصِمُوا بِهِ اللَّهَ أَوْ مَارَوْا بِهِ لِلشَّرِيعَةِ
 واستمرّ في ذكر ما يتناقضون فيه، وذكر أنّهم يتناقضون؛ وذلك أنّ أحدهم
 إذا لامه لائم على فعل، فإنه يحتجّ بالقدر، ولكن لا يحتجّ بالقدر إذا كانت المصلحة
 له، فهو إذا كانت المصلحة له في طلب رزق أو معيشة، فإنه يبذل قصارى جهده،
 فيقال له: لماذا لا تجلس في بيتك وتترك التكسب؟ ولماذا لا تترك الأكل وتقول: إن
 أراد الله لي حياة، فإني سأحيا ولو لم أكل، لماذا تلبس الثياب في الصيف تتقي الحر،
 وفي الشتاء تتقي البرد؟ لماذا تتزوج لتطلب الولد؟ ولماذا تغرس لتطلب الثمر؟!
 فأنت تفعل هذه الأفعال لطلب المعيشة. فكذلك نقول: لماذا لا تعمل أعمالاً
 صالحة فتؤهلك لدخول الجنة؟ ولماذا لا تترك الأعمال التي تؤهلك لدخول النار؟
 فإذا أنت معك قدرة واستطاعة على مزاولة الأعمال.

وقد ذكر أن رجلاً سرق وجيء به إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعزم على قطع
 يده، فقال ذلك السارق: إن هذا بقدر الله، كيف تقطعونني وقد قدر الله عليّ
 ذلك؟ فقال عمر رضي الله عنه: «أنت سرقت بقدر الله، وأنا أقطع يدك بقضاء الله
 وقدره»^(٢).

ولما توجه عمر رضي الله عنه إلى الشام، وذكر له وقوع الطاعون بالشام، عزم على أن

(١) وفي نسخة: (وَيُدْعَى).

(٢) تقدم تحريجه (١/٥٥٠).

یرجع بمن معه إلى المدينة، فقال له أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: أفراراً من قدرِ الله؟ فقال عمرُ: «لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نقرُّ من قدرِ الله إلى قدرِ الله»^(١)، أي: إن الله تعالى قدر لنا أن نرجع، فهو كتب علينا هذا، ولم يكتب علينا أننا نقدم على هذا الوباء.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فَرِّمَنِ الْمَجْدُومِ كَمَا تَقَرُّ مِنَ الْأَسَدِ»^(٢).

وبكل حال هذه أقوال هذه الطائفة، ولهم حجج طويلة اختصرها الشارح. والقدرية يخرجون أكثر الأفعال أو كلها عن قدرة الله تعالى، وهم أشبهوا بذلك المجوس، والمجوس هم الذين يجعلون الكون صادراً عن خالقين، والقدرية جعلوا مع الله من يخلق، وقد تقدّم أنهم يقولون أن القرآن مخلوق، واستدلوا بقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]. فأدخلوا صفة الله تعالى - التي هي علمه وكلامه - في هذه الآية. وتناقضوا فأخرجوا أفعالهم عن عمومها، وجعلوا أفعالهم خلقهم، وليست خلق الله، ولم يعمّموا، ولم يعملوا بعموم الآية:

ولا شك أن أفعال العباد أولى ما يدخل في عموم الآية، وهو أنها خلق الله سبحانه وتعالى، وأنها منسوبة إلى العباد نسبة فعل ومباشرة، ولهذا يقال: إن الله خالق كل شيء بما في ذلك حركات العباد وأفعالهم، ومع ذلك فإن الله تعالى هو

(١) تقدم تخريجه (٢/٤٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٠٧) معلقاً جازماً به، وأحمد (٤٤٣/٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الذي مكنهم، وأعطاهم قوّة وقدرة، فهم يزاولون الأعمال بقوّتهم وقدرتهم، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم. فقدرة الله غالبية على قدرتهم، وإرادته غالبية على إرادتهم. وبذلك أصبحت أفعالهم خلق الله تعالى، لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦]. وأفعالهم هم الذين باشروها، فتنسب إليهم مباشرة، وتنسب إلى الله خلقاً وإيجاداً. وبما أعطاهم من القوة والقدرة يثابون ويعاقبون. ولأجل ذلك نقول: إن العباد فاعلون حقيقةً، والله خالقهم وخالق أفعالهم. والعبد هو المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والمصلّي والصائم، والمطيع والعاصي. وأن للعباد قدرة على أفعالهم ولهم إرادة، ولكن هذه القدرة والإرادة مسبوقة بقدرة الخالق تعالى وبإرادته. وهذا هو قول أهل السنة.

وقد عرفنا القولين المتطرفين الذين هما طرفان في هذه المسألة:

الطرف الأول: هم المجبرة الذين سلبوا العباد القدرة والإرادة، وجعلوهم مجبورين ليس لهم أية قدرة ولا إرادة، ولا همّة، ولا أثر في الأعمال، وجعلوا حركاتهم بمنزلة حركات الأشجار التي تحركها الرياح، وأبطلوا حكم الله تعالى. فإذا سئلوا: لماذا أرسل الرسل، لماذا يعذب الله الكفار؟ ولماذا خصّ الله المؤمنين بأنهم أهل الثواب؟ لم يكن لديهم جواب، إلا أن ذلك محض المشيئة، ومحض الإرادة، ليس لأحد فيه تصرف، ويردّدون قول الله تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ويقولون: إنّه قدّر ذلك عليهم، وخلقهم فيهم، ويعذبهم على فعله فيهم. ولكن لا نسأل عن ذلك.

وأما الطرف الثاني: الذين هم المعتزلة: فأرادوا تنزيه الربّ تعالى عن أن يعذبهم على أمر خلقه فيهم، كما يقولون، فجعلوا أنفسهم هي التي تخلق الفعل، ولم يجعلوا الله أيّ قدرة، بل كثير منهم يقولون: إنّ الله لا يقدر على أن يهدي من يشاء، ولا على أن يضلّ من يشاء، بل هم يهدون أنفسهم ويضلّونها.

فهؤلاء طرف هالك بعيد عن الصواب، وكلا الطرفين على طرفي نقيض. ولكنّ الله هدى أهل السنّة، وآمنوا بعظيم قدرته، وآمنوا بأنّ له قدرة عامّة على أفعال العباد، وآمنوا بأنّه خلق أفعال العباد، وكتبوا في ذلك المؤلّفات، وألف البخاري رسالة مشهورة «خلق أفعال العباد». ويبيّن أنّ قدرة العبد هي التي تناسبه، والتي بها يثاب ويعاقب، وأنها مع ذلك مغلوبة بقدرة الله تعالى، وبها يصبح العبد مستحقاً للثواب والعقاب على ما يزاوله من أعمال تنسب إليه لكونه باشر فعلها، ومع ذلك لا يخرج عن قدرة الله تعالى، والهداية بيد الله، فهو الذي أضلّ هؤلاء حكمة وعدلاً، وهدى هؤلاء رحمة وفضلاً وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

قال الشارح:

فِيمَا اسْتَدَلَّتْ بِهِ الْجَبْرِئِيَّةُ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَنْ يَكُ اللَّهُ رَمِيًّا﴾ [الأنفال: ١٧]، فَانْفَى اللَّهُ عَنِ نَبِيِّهِ الرَّمِيِّ، وَأَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ سُبْحَانَهُ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا صُنْعَ لِلْعَبْدِ. قَالُوا: وَالْجَزَاءُ غَيْرُ مُرْتَبِّ عَلَى الْأَعْمَالِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»^(١).

وَمِمَّا اسْتَدَلَّتْ بِهِ الْقَدْرِيَّةُ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، قَالُوا: وَالْجَزَاءُ مُرْتَبَّبٌ عَلَى الْأَعْمَالِ تَرْتِيبَ الْعِوَاضِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، ﴿وَذَلِكَ الْجَعَةُ الَّتِي أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

فَأَمَّا مَا اسْتَدَلَّتْ بِهِ الْجَبْرِئِيَّةُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَنْ يَكُ اللَّهُ رَمِيًّا﴾، فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى أَثْبَتَ لِرَسُولِهِ ﷺ رَمِيًّا، بِقَوْلِهِ: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾، فَعَلِمَ أَنَّ الْمُثْبِتَ غَيْرُ الْمُنْفِيِّ، وَذَلِكَ أَنَّ الرَّمِيَّ لَهُ ابْتِدَاءٌ وَانْتِهَاءٌ، فَابْتِدَاؤُهُ الْحَدْفُ، وَانْتِهَاؤُهُ الْإِصَابَةُ، وَكُلُّ مِنْهُمَا يُسَمَّى رَمِيًّا، فَالْمَعْنَى حِينَئِذٍ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ: وَمَا أَصَابَتْ إِذْ حَدَفَتْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَصَابَ. وَإِلَّا فَطَرْدُ قَوْلِهِمْ: وَمَا صَلَّيْتَ إِذْ صَلَّيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ صَلَّى! وَمَا صُمَمْتَ إِذْ صُمَمْتَ! وَمَا زَنَيْتَ إِذْ زَنَيْتَ!

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة ؓ.

وَمَا سَرَقْتَ إِذْ سَرَقْتَ!! وَفَسَادُ هَذَا ظَاهِرٌ.

وَأَمَّا تَرْتُبُ الْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ، فَقَدْ صَلَّتْ فِيهِ الْجَزِيئَةَ وَالْقَدْرِيَّةَ، وَهَدَى اللَّهُ أَهْلَ السُّنَّةِ، وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ. فَإِنَّ الْبَاءَ الَّتِي فِي النَّفْيِ غَيْرُ الْبَاءِ الَّتِي فِي الْإِثْبَاتِ، فَالْمَنْفِي فِي قَوْلِهِ ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ»، بَاءُ الْعَوَاضِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ كَالثَّمَنِ لِدُخُولِ الرَّجُلِ إِلَى الْجَنَّةِ، كَمَا زَعَمَتِ الْمُعْتَزِلَةُ أَنَّ الْعَامِلَ مُسْتَحِقُّ دُخُولِ الْجَنَّةِ عَلَى رَبِّهِ بِعَمَلِهِ! بَلْ ذَلِكَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ. وَالْبَاءُ الَّتِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وَنَحْوُهَا، بَاءُ السَّبَبِ، أَي: بِسَبَبِ عَمَلِكُمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ خَالِقُ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ، فَرَجَعَ الْكُلَّ إِلَى مُحَضِّ فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ.

وَأَمَّا اسْتِدْلَالُ الْمُعْتَزِلَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، فَمَعْنَى الْآيَةِ: أَحْسَنُ الْمَصُورِينَ الْمُقَدَّرِينَ. وَالْخَلْقُ يُذَكَّرُ وَيُرَادُ بِهِ التَّقْدِيرُ، وَهُوَ الْمُرَادُ هُنَا، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢].
أَي: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ مَخْلُوقٍ، فَدَخَلَتْ أَفْعَالُ الْعِبَادِ فِي عُمُومِ: (كُلِّ).
وَمَا أَفْسَدُ قَوْلُهُمْ فِي إِدْخَالِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى فِي عُمُومِ: (كُلِّ)، الَّذِي هُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ، يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مَخْلُوقًا! وَأَخْرَجُوا أَفْعَالَهُمُ الَّتِي هِيَ مَخْلُوقَةٌ مِنْ عُمُومِ: (كُلِّ)!! وَهَلْ يَدْخُلُ فِي عُمُومِ: (كُلِّ) إِلَّا مَا هُوَ مَخْلُوقٌ؟ فَذَاتُهُ الْمُقَدَّسَةُ وَصِفَاتُهُ غَيْرُ دَاخِلَةٍ فِي هَذَا الْعُمُومِ، وَدَخَلَ سَائِرُ الْمَخْلُوقَاتِ فِي عُمُومِهَا. وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وَلَا نَقُولُ لِأَنَّ: (مَا)

مَصْدَرِيَّةٌ، أَي: خَلَقَكُمْ وَعَمَلَكُمْ، إِذْ سَيَأْتِي الْآيَةَ يَأْبَاهُ؛ لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامَ - إِنَّمَا أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ عِبَادَةَ الْمُنْحُوتِ، لَا النَّحْتِ، وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُنْحُوتَ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ مَا صَارَ مَنْحُوتًا إِلَّا بِفِعْلِهِمْ، فَيَكُونُ مَا هُوَ مِنْ آثَارِ فِعْلِهِمْ مَخْلُوقًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَلَوْ لَمْ يَكُنِ النَّحْتُ مَخْلُوقًا لِلَّهِ تَعَالَى لَمْ يَكُنِ الْمُنْحُوتُ مَخْلُوقًا لَهُ، بَلِ الْحَشَبُ أَوْ الْحَجَرُ لَا عَيْزَ.

وَذَكَرَ أَبُو الْحُسَيْنِ الْبَصْرِيُّ إِتِمَامَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْمُعْتَزَلِيَّةِ: أَنَّ الْعِلْمَ بِأَنَّ الْعَبْدَ يُجِدُّ فِعْلَهُ ضَرُورِيٌّ. وَذَكَرَ الرَّازِيُّ أَنَّ ائْتِقَارَ الْفِعْلِ الْمُحْدَثِ الْمُمْكِنِ إِلَى مُرْجِحٍ يَجِبُ وَجُودُهُ عِنْدَهُ وَيَمْتَنِعُ عِنْدَ عَدَمِهِ ضَرُورِيٌّ، وَكِلَاهُمَا صَادِقٌ فِيمَا ذَكَرَهُ مِنْ الْعِلْمِ الضَّرُورِيِّ، ثُمَّ ادَّعَاءُ كُلِّ مِنْهُمَا أَنَّ هَذَا الْعِلْمَ الضَّرُورِيَّ يُبْطِلُ مَا ادَّعَاهُ الْآخَرُ مِنَ الضَّرُورَةِ، غَيْرُ مُسَلِّمٍ، بَلِ كِلَاهُمَا صَادِقٌ فِيمَا ادَّعَاهُ مِنَ الْعِلْمِ الضَّرُورِيِّ، وَإِتْمَانًا وَقَعَ غَلْطُهُ فِي إِنْكَارِهِ مَا مَعَ الْآخَرِ مِنَ الْحَقِّ. فَإِنَّهُ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ كَوْنِ الْعَبْدِ مُجِدِّثًا لِفِعْلِهِ وَكَوْنِ هَذَا الْإِحْدَاثِ وَجَبَ وَجُودُهُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَفَقِيرٌ وَمَا سَوَّيْتَهَا ۗ﴾ ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ﴾ [الشمس: ٧، ٨]، فَقَوْلُهُ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ﴾، إِبْتِثَاتٌ لِلْقَدْرِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَلْهَمَهَا ۗ﴾، وَإِبْتِثَاتٌ لِفِعْلِ الْعَبْدِ بِإِضَافَةِ الْفُجُورِ وَالتَّقْوَى إِلَى نَفْسِهِ؛ لِئَعْلَمَ أَنَّهَا هِيَ الْفَاجِرَةُ وَالتَّقِيَّةُ. وَقَوْلُهُ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ۗ﴾ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ۗ﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، إِبْتِثَاتٌ أَيْضًا لِفِعْلِ الْعَبْدِ، وَنَظَائِرُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

قال الشيخ:

هذه مناقشة لأدلة الفريقين المتطرفين، وبهنا أن نعرف الجواب، وأما شرح أدلتهم والتوسع فيها وكيفية استدلالهم وترجيحها، فلا حاجة بنا إلى التوسع فيه، وقد عرفنا أن كلا القولين: قول الجبرية وقول المعتزلة في طرفي تقيض، وكلاهما لا يزال لهم بقية يقولون بمثل هذه الأقوال، ولا تزال مؤلفاتهم يُعنى بها، وتشر وتحقق وينفق عليها الأموال، مع أنها بسبب في ضلال كثير من الناس، ويدعون أنهم بذلك يقوون حججهم ومعتقدهم الذي اعتقدوه.

إذ قالوا: إن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، وقالوا: هذا دليل على أن الفعل ليس للإنسان، ولكنه لله؛ فالله هو الذي رمى، وأشار الشارح - كما مر بنا - إلى أن التقدير: وما أصبت الهدف، ولكن الله هو الذي وفق لإصابته، فأنت الذي رميت، والله وفق للإصابة.

وهذه القصة حصلت في غزوة بدر، وحصلت أيضًا في غزوة حنين، وذلك لما تواجه المسلمون مع المشركين، فأخذ رسول الله ﷺ قبضة من حصباء ورمى بها في وجوه القوم، ومعلوم أن رميته لو كانت بمجرد قوته لا تذهب إلا نحو عشرين مترًا أو ثلاثين، ولكن هذه الرمية وصلت إلى جميعهم أو أكثرهم، بحيث دخلت تلك الحجارة في عيونهم وأفواههم وأنوفهم، وأعمت عليهم الطرق، حصيات قليلة في يده رمى بها، وقال: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ»^(١). الله تعالى هو الذي

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٧) من حديث سلمة بن الأكوع ؓ.

أوصلها، وهو الذي وفق لإصابتها، فكيف يقال: إن الأفعال ليست للإنسان، بل الفعل حقاً لله، ما دام أن الله أثبت الرمي ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾، أي: حرّكت يدك بتلك الحجارة وقذفتها. هذا دليل على أن الفعل أصله من الإنسان، وأن الله تعالى هو الذي يسدّه ويوصله، وهو الذي يحرك همّة العبد إلى أن يفعل ذلك الفعل.

كثيراً ما يكون المسلمون قلة، وإذا وجهوا سهامهم إلى المشركين أصابتهم ولو كانوا بعيداً، فيسدّد الله سهامهم فتصيب العدو، وأما سهام أعدائهم، فإنها تخطئهم وتذهب يميناً أو شمالاً أو فوق أو تحت، ولا تصيبهم، يصرّفها الله تعالى، فمن الغزاة الرمي، ومن الله التسديد والإصابة، ومن هذا قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾، هذا من أدلة الجبرية.

ومن أدلتهم في أن العمل ليس سبباً في دخول الجنة قول النبي ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»^(١). قالوا: هذا دليل على أن الأعمال ليس لها أثر، وأن الأعمال ليست هي التي تسبب دخول الجنة، فالأعمال ليست من الإنسان، والإنسان ليس له حركة، بل هو مدفوع إلى هذه الحركة، ومغلوب على أمره، لا يقدر أن يحرك باختياره لا رأساً ولا يداً ولا لساناً ولا إصبعاً ولا قدمًا، بل هو متصرّف فيه، تحركه إرادة الله، كما تحرك الشجرة بغير اختيارها.

(١) تقدم تحريجه (٤/٣٦٦).

الجواب على ذلك: أن النبي ﷺ أرد به أن أعمالنا - ولو كثرت - لا تُقابل نِعَمَ الله. فنعم الله علينا كثيرة، ولو عملنا ما عملنا، فإنها قليلة بالنسبة إلى ما يجب علينا. وأعمالنا لو كثرت لم تكن سبباً وحيداً في دخول الجنة، وبدل لذلك حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «خَرَجَ مِنْ عِنْدِي خَلِيلِي جَبْرِيلُ أَنْفًا، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنَّ لِلَّهِ عَبْدًا مِنْ عِبَادِهِ عَبْدَ اللَّهِ حَمْسِيَّةَ سَنَةٍ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ فِي الْبَحْرِ، عَرْضُهُ وَطُولُهُ ثَلَاثُونَ ذِرَاعًا فِي ثَلَاثِينَ ذِرَاعًا، وَالْبَحْرُ مُحِيطٌ بِهِ أَرْبَعَةَ آلَافِ فَرَسَخٍ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَأَخْرَجَ لَهُ عَيْنًا عَذْبَةً بِعَرَضٍ، الْأَصْبَحُ تَبْضُ بِبَاءِ عَذْبٍ، فَيَسْتَنْقِعُ فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ، وَشَجَرَةٌ رُمَانٍ تُخْرِجُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ رُمَانَةً، يَتَعَبَّدُ يَوْمَهُ، فَإِذَا أَمْسَى نَزَلَ فَأَصَابَ مِنَ الْوُضُوءِ، وَأَخَذَ تِلْكَ الرُّمَانَةَ فَأَكَلَهَا، ثُمَّ قَامَ لِصَلَاتِهِ، فَسَأَلَ رَبَّهُ عِنْدَ وَقْتِ الْأَجْلِ أَنْ يَقْبِضَهُ سَاجِدًا، وَأَنْ لَا يَجْعَلَ لِلْأَرْضِ، وَلَا لِشَيْءٍ يُفْسِدُهُ عَلَيْهِ سَبِيلًا حَتَّى يَبْعَثَهُ، وَهُوَ سَاجِدٌ، قَالَ: فَفَعَلَ، فَنَحْنُ نَمُرُّ عَلَيْهِ إِذَا هَبَطْنَا، وَإِذَا خَرَجْنَا، فَنَجِدُ لَهُ فِي الْعِلْمِ أَنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ، فَيَقُولُ لَهُ الرَّبُّ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فَيَقُولُ: رَبِّ، بَلْ بِعَمَلِي، فَيَقُولُ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فَيَقُولُ: رَبِّ، بَلْ بِعَمَلِي، فَيَقُولُ اللَّهُ: قَائِسُوا عَبْدِي بِنِعْمَتِي عَلَيْهِ وَبِعَمَلِهِ، فَيُوجَدُ نِعْمَةٌ الْبَصَرِ قَدْ أَحَاطَتْ بِعِبَادَةِ حَمْسِيَّةَ سَنَةٍ، وَبَقِيَتْ نِعْمَةُ الْجَسَدِ فَضْلًا عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: أَدْخِلُوا عَبْدِي النَّارَ، فَيَجْرُ إِلَى النَّارِ، فَيُنَادِي: رَبِّ بِرَحْمَتِكَ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: رُدُّوهُ، فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَيَقُولُ: يَا عَبْدِي مَنْ خَلَقَكَ، وَلَمْ تَكُ شَيْئًا؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: مَنْ قَوَّكَ لِعِبَادَةِ حَمْسِيَّةَ سَنَةٍ؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: مَنْ

أَنْزَلَكَ فِي جَبَلٍ وَسَطَ اللَّجَّةِ، وَأَخْرَجَ لَكَ الْمَاءَ الْعَذْبَ مِنَ الْمَاءِ الْمَالِحِ، وَأَخْرَجَ لَكَ كُلَّ لَيْلَةٍ رُمَانَةً، وَإِنَّمَا تَخْرُجُ مَرَّةً فِي السَّنَةِ، وَسَأَلْتَهُ أَنْ يَقْبِضَكَ سَاجِدًا فَفَعَلَ؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ، قَالَ: فَذَلِكَ بِرَحْمَتِي، وَبِرَحْمَتِي أُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ، أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ، فَنِعْمَ الْعَبْدُ كُنْتَ يَا عَبْدِي، فَأَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ، قَالَ جِبْرِيلُ: إِنَّمَا الْأَنْبِيَاءُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ يَا مُحَمَّدُ^(١).

وإذا قيل: قد وردت أدلة في ترتب الجزاء على الأعمال، وهي التي استدلت بها المعتزلة، وجعلوا العمل هو السبب الوحيد في دخول الجنة. واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، ونحو ذلك. نقول: صحيح أن العمل سبب، ولكن رحمة الله مع ذلك السبب، فيدخل الجنة بسبب عمله، ولكن مع ذلك برحمة الله تعالى، فهو أرحم الراحمين.

وقد ورد في الحديث: «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ فِي مِئَةِ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاخَمُ الْخَلْقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنِ وِلْدِهَا خَشْيَةً أَنْ تُهَيِّبَهُ»^(٢). فإذا كان يوم القيامة،

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٢٥٠)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد»، والبيهقي في شعب الإيسان (٤/ ١٥١)، وتمام في فوائده (١٦٨٨)، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٩٥/١).

(٢) تقدم تخريجه (٣/ ٣١١).

ضمّه إلى تلك الأجزاء مئة جزء، فيرحم عباده يوم القيامة. وقد أخبر النبي ﷺ عن واسع رحمة الله لَمَّا رأى امرأة تضمّ ولدها إلى صدرها وترضعه، فقال: «أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟»، قالوا: لَا وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَيَّ أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فقال: «لَلَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدِهَا»^(١).

فإذَا: رحمة الله بالعباد أوسع لهم. ورد في الحديث: «لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ لَهُمْ خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ»^(٢). فحرفنا بذلك ضعف ما استدل به هؤلاء وهؤلاء.

أما استدلال المعتزلة بقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، ومثلها قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّزِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١]. يقولون: هذا دليل على أنّ الخالقين كثير، ليس الخالق هو الله وحده، ولكن الله أحسنهم، فجعلوا العباد خالقين مع الله، وجعلوهم رازقين مع الله.

والجواب: أنّ هذا ليس بصحيح، بل الله الخالق وحده، الله خالق كل شيء، فالخلق خلقه، والأمر أمره، والآية وردت في سياق التكوين والإيجاد، فيقال: إنّ الإنسان ليس هو الذي يخلق نفسه، وإن كان له سبب في وجود الولد، وهو

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٩) ومسلم (٢٧٥٤) من حديث عمر بن الخطاب ؓ.

(٢) أخرجه أحمد (١٨٢/٥، ١٨٥، ١٨٩)، وأبوداود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، وابن حبان

(٥٠٥/٢)، والبيهقي (٢٠٤/١٠) عن أبي بن كعب، وابن مسعود، وحذيفة بن اليمان

- رضي الله عنهم - موقوفًا، ومن حديث زيد بن ثابت ؓ مرفوعًا.

النكاح والوطء والمباشرة، فيُنسب إليه أنه له سبباً في خلق هذا الولد وتكوينه، ولكن الله تعالى أنشأه. قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨، ٥٩]، المنى الذي ينصب في الرحم، ليس الإنسان هو الذي يخلقه، بل قدرة الله، فالله هو الذي قدر أنه يكون نطفة ثم علقه ثم مضغه، ثم خلقاً آخر، إلى أن يخرج بشراً سوياً. فإذا من الإنسان السبب، ومن الله تعالى الخلق والتكوين والتطوير، إلى أن يخرج سوياً. فهذا معنى قوله: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

وقد يُراد بالخالقين الذين يكونون بعض المخلوقات في الدنيا، أو يبدعون بعض الأشياء، وإن كانوا مخطئين بذلك، ورد في الحديث القدسي: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ شَعِيرَةً»^(١). جعلوا أنفسهم خالقين، وهم المصورون الذين يضاؤون بخلق الله. فهم لهم إرادة وهمة في أنهم يضاؤون خلق الله، ويخلقون كخلقه، ولكن لا يستطيعون أن يضاؤوا أو يشابهوا خلق الله تعالى، فالخلق الأصل خلق الله تعالى، فهو الذي خلق الأرواح، ولا يستطيعون أن يخلقوها، وهو الذي يحيي الأموات، ولا يستطيعون أن يحيوها. وفي الحديث: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فَإِنَّ اللَّهَ مُعَذِّبُهُ حَتَّى يَنْفَخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ»^(٢).

واستدل المعتزلة بترتيب الجزاء على الأعمال بقوله تعالى: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥٣، ٧٥٥٩)، ومسلم (٢١١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٢٥)، ومسلم (٢١١٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢]، أو ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٤]، أو ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٢٤].

والجواب: أنّ أعمالكم سبب وليست مستقلة؛ فالأعمال من جملة الأسباب التي يثاب عليها العباد ويعاقبون.

واستدلّت الجبريّة بأيتين، الأولى: قوله - عز وجل -: ﴿ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الرعد: ١٦]، وقوله: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصفات: ٩٦]، في إثبات أنّ الإنسان ليست له أية نسبة وليس له أي خلق، وكذلك بقوله: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [الأنفال: ١٧]. وعرفنا كيف نردّ عليهم.

واستدلّوا بالنسبة إلى الأعمال، وأنها ليست سبباً في دخول الجنة، أو النجاة من النار، بالآية التي مرّت بنا. وبالحديث: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»^(١). وعرفنا بذلك أنّ أدلتهم لا تفيدهم شيئاً، وأنّ ترتيب الجزاء على الأعمال من ترتيب الأسباب على المسببات.

قال الشارح:

وَهَذِهِ شُبُهَةٌ أُخْرَى مِنْ شُبُهَةِ الْقَوْمِ الَّتِي فَرَّقْتَهُمْ، بَلْ مَزَقْتَهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ، وَهِيَ: أَنَّهُمْ قَالُوا: كَيْفَ يَسْتَقِيمُ الْحُكْمُ عَلَى قَوْلِكُمْ بِأَنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الْمُكَافِرِينَ عَلَى ذُنُوبِهِمْ وَهُوَ خَلَقَهَا فِيهِمْ؟ فَأَيُّ الْعَدْلِ فِي تَعْدِيبِهِمْ عَلَى مَا هُوَ خَالِقُهُ وَفَاعِلُهُ فِيهِمْ؟ وَهَذَا السُّؤَالُ لَمْ يَزَلْ مَطْرُوقًا فِي الْعَالَمِ عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ، وَكُلُّ مَنْهُمْ يَتَكَلَّمُ فِي جَوَابِهِ بِحَسَبِ عِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَعِنْدَهُ تَفَرَّقَتْ بِهِمُ الطُّرُقُ: فَطَائِفَةٌ أَخْرَجَتْ أفعالَهُمْ عَن قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَطَائِفَةٌ أَنْكَرَتْ الْحُكْمَ وَالتَّعْلِيلَ، وَسَدَّتْ بَابَ السُّؤَالِ، وَطَائِفَةٌ أَنْبَتْ كَسْبًا لَا يُعْقَلُ! جَعَلَتْ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ عَلَيْهِ، وَطَائِفَةٌ التَّرَمَّتْ لِأَجْلِهِ وَفُوعَ مَقْدُورٍ بَيْنَ قَادِرِينَ، وَمَنْعُوعٍ بَيْنَ فَاعِلِينَ! وَطَائِفَةٌ التَّرَمَّتْ الْجَبْرَ، وَأَنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُهُمْ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ! وَهَذَا السُّؤَالُ هُوَ الَّذِي أَوْجَبَ التَّفَرُّقَ وَالِإِخْتِلَافَ.

وَالجَوَابُ الصَّحِيحُ عَنْهُ، أَنْ يُقَالَ: إِنَّ مَا يُسْتَلَى بِهِ الْعَبْدُ مِنَ الذُّنُوبِ الوجودِيَّةِ، وَإِنْ كَانَتْ خَلْقًا لِلَّهِ تَعَالَى، فَهِيَ عُقُوبَةٌ لَهُ عَلَى ذُنُوبٍ قَبْلَهَا، فَالذَّنْبُ يُكْسِبُ الذَّنْبَ، وَمِنْ عِقَابِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةُ بَعْدَهَا، فَالذُّنُوبُ كَالْأَمْرَاضِ الَّتِي يُورِثُ بَعْضُهَا بَعْضًا.

يَبْقَى أَنْ يُقَالَ: فَالْكَلَامُ فِي الذَّنْبِ الْأَوَّلِ الْجَالِبِ لِمَا بَعْدَهُ مِنَ الذُّنُوبِ؟ يُقَالَ: هُوَ عُقُوبَةٌ أَيْضًا عَلَى عَدَمِ فِعْلِ مَا خُلِقَ لَهُ وَفُطِرَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَهُ لِعِبَادَتِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَفُطِرَهُ عَلَى حُبِّتِهِ، وَتَأْلَاهِهِ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، كَمَا

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَقْرَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠]، فَإِنَّ لَمْ يَفْعَلْ مَا خُلِقَ لَهُ وَفُطِرَ عَلَيْهِ؛ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَعُبُودِيَّتِهِ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، عُوقِبَ عَلَى ذَلِكَ بِأَنْ زَيَّنَ لَهُ الشَّيْطَانُ مَا يَفْعَلُهُ مِنَ الشَّرِّ وَالْمَعَاصِي، فَإِنَّهُ صَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا قَابِلًا لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَلَوْ كَانَ فِيهِ الْخَيْرُ الَّذِي يَمْنَعُ ضِدَّهُ لَمْ يَتِمَّكَنْ مِنْهُ الشَّرُّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤]، وَقَالَ إِبْلِيسُ: ﴿ قَالَ فِعْرِيكَ لَا أُعْذِبُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [٨٢] الإِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، وَقَالَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [١١] إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر: ٤١، ٤٢]. وَالْإِخْلَاصُ: خُلُوصُ الْقَلْبِ مِنْ تَأْلِيهِ مَا سِوَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِرَادَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ، فَخَلَصَ لِلَّهِ، فَلَمْ يَتِمَّكَنْ مِنْهُ الشَّيْطَانُ. وَأَمَّا إِذَا صَادَفَهُ فَارِغًا مِنْ ذَلِكَ، تَمَّكَنَ مِنْهُ بِحَسَبِ فَرَاغِهِ، فَيَكُونُ جَعْلُهُ مُذْنِبًا مُسِيئًا فِي هَذِهِ الْحَالِ؛ عُقُوبَةٌ لَهُ عَلَى عَدَمِ هَذَا الْإِخْلَاصِ، وَهِيَ تَحْضُ الْعَدْلِ.

قال الشيخ:

في هذا السؤال الذي يردده المعتزلة أو الجبرية وهو قولهم: إذا كان الله خلق فينا المعاصي فكيف يعذبنا؟ وإذا كان الله لم يهدنا بل أضلنا، كيف يعذبنا؟ وإذا نصحت أحدهم يقول: الله ما هدانا، وإن لم يهدنا الله فأنت لا تهدينا! وكثيرا ما يقولون: الله لم يهدنا، وكتب علينا ذلك، فإذا عذبنا فقد ظلمنا أو نحو ذلك من

العبارات الشنيعة البشعة.

ولسنا بحاجة إلى مناقشة تلك الأقوال السيئة الشنيعة، وقد ذكر لنا الشارح من أقوالهم قول من لم يجعل للعبد أيّ اختيار، وقول من جعل العبد مستقلاً. وقول من أثبت له كسباً، ولكن لا حقيقة لذلك الكسب. وقول من جعل الفعل صادراً عن فاعلين، ومن جعل القدرة صادرة عن قادرين.

ونحن نقول: إنّ الإنسان أعطاه الله هذه القوّة والقدرة والمباشرة والهمّة التي يزاول بها الأعمال، وتنسب إليه، ويثاب بسببها، أو يعاقب بسببها، مع أنّه قادر على أن يضلّه، وعلى أن يعجزه، وأنّه هو الذي أمده وقواه، ومن أجل ذلك تنسب الأفعال إلى الإنسان مباشرة، وتنسب إلى الله خلقاً وتقديراً، فيقال: هي خلق الله من حيث إنه قدرها، وقووى العباد عليها، وهي أعمال العباد من حيث إنهم باشروها، وفعلوها بأبدانهم، فنسبت إليهم، ونسبت إلى الله تعالى، ولا منافاة بين النسبتين.

ثمّ مرّ معنا أنّ الله تعالى يعاقب العباد في الدنيا، ويعاقبهم أيضاً في الآخرة على السيئات، فيقول الشارح: إنّ هذه العقوبة على الذنوب، وإنّ الأصل أنّه عاقب على هذه الذنوب بذنوب أخرى، فلمّا أتهمّ أذنبوا كان من عقوبة الذنب أن أذنبوا ذنباً آخر عقوبة، ثمّ ذنباً آخر عقوبةً للثاني... وهكذا استمرّت بهم السيئات، وتماذوا فيها، فيكون الوقوع في هذا الذنب أنّ الله خلّى بينه وبين نفسه، وخلّى بينه وبين هواه، وسلّط عليه أعداءه من شياطين الإنس والجنّ، فلمّا تمكّنوا منه صرفوه عن الهدى، وإن كان ذلك بتقدير الله، ولما صرفوه واستهوته الشياطين، صارت

أعماله سيئات، عقوبة له على سيئة اقترفها سابقاً.

ومما نقله الشارح: أن من عقوبة السيئة السيئة بعدها، ومن ثواب الحسنة

الحسنة بعدها، فإذا عمل العبد حسنة، قالت الحسنة بعدها: اعملني، وإذا عمل

العبد سيئة، قالت السيئة بعدها: اعملني، فتتابع في السيئات المسيؤون، وفي

الحسنات المحسنون، فهذا من ثواب الحسنة، وعقوبة السيئة.

فإن قالوا: السيئة الأولى عقوبة على أي شيء ما دام أنه وقعت منه هذه

السيئة، فكيف وقعت منه، وكيف خلقت فيه، وكيف فعلها ولم يسبقها سيئة؟

أجاب الشارح بأنها: عقوبة على ترك الإخلاص، أو ترك الأعمال الصالحة التي

أمر بها وكُلف بها، وما ذاك إلا لأننا خلقنا لعبادة الله، فإذا انشغلنا عن هذه

العبادة أليس هذا يعدّ ذنباً؟ إما في هو وبطالة، وإما في غفلة، وإما بإقبال على

شهوات تفوّت عليك الخير، وإما قطع الزمن الذي أنت مأمور أن تستغله في

الطاعة، تقطعه في غير الطاعة. هذا كلّه يعدّ ذنباً، فيستحقّ من فعله أن يقع منه

ذنبٌ آخر، عقوبة على ما فعله من هذا الترك.

الله خلق العباد لعبادته وحده، وأمرهم أن يشكروه، وأن يعرفوا حقّه عليهم،

فلما خلقهم للعبادة وأمرهم بالإخلاص في قوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ

لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، فإذا تركوا هذه العبادة في وقت من الأوقات، عدّ ذلك ذنباً

وقع منهم وإن لم يكن سيئة، ولكنه ترك لعمل صالح، فاستحقوا بهذا الذنب أن

تسلط عليهم الأهواء والأعداء، فيوقعونهم في الذنوب وتتابع عليهم السيئات

وتتابع منهم كذلك.

وهذا التعليل علل به العلماء في عقوبة السيئة. فقالوا: كيف يعاقب الله على السيئة وهو الذي خلقها، وأجيب على ذلك: بأنه ولو كان هو الذي قدرها، لكن العبد هو الذي باشرها، ولذلك عوقب عليها، وعوقب بسيئة تبعتها. والعقاب الذي في الدنيا قد يكون عقاباً حسيّاً أو معنوياً. فالعقاب الحسيّ: هو ما أنزل الله على المعذّبين. فمنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسف بهم الأرض، ومنهم من أرسل عليه حاصباً، ومنهم من أغرق، وأما العقوبات المعنوية: فهي تسليط الأعداء والأهواء عليهم وحرمانهم الطاعة.

فإذا رأيت المكبّ على المعاصي فاعلم أنّه معاقب، وأنّ حرمانه من طاعة الله عقوبة عليه. وإذا رأيت المنهمك في الشهوات، المفوّت للأوقات، فاعلم أنّه معاقب، فإذا قال: على أيّ شيء يعاقبني الله ويقول: أنا ما أذنبت، أنا ما كفرت، أنا ما عصيت، كيف يعاقبني بأن يوقيني في هذا المصائب وفي هذه الذنوب؟ فقل له: إنك أذنبت أولاً في غفلتك؛ لأنك أضعت وقتاً ثميناً في الغفلة، وثانياً: بتركك العمل، إذ كان عليك أن تشغل وقتك بأعمال صالحة، وبحسنات، فلما لم تفعل كنت مذنباً، وكانت عقوبة هذا الذنب أن توات عليك الذنوب.

وقد ورد عن النبي ﷺ أنّه ذكر أنّ الذنوب تؤثر في القلوب وتقسّيها وتعميها وتصدها عن الهدى، كما في قوله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ حَظِيئَةً نَكَتَتْ فِي قَلْبِهِ نَكْمَةً سَوْدَاءً، فَإِذَا هُوَ نَزَحَ وَاسْتَغْفَرَ وَنَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلَسُوا

قَلْبُهُ، وهو الرَّانُ الذي ذَكَرَ اللهُ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [المطففين: ١٤] (١). فإذا غلبه هذا السواد الذي هو بسبب المعاصي، فعندئذ تثقل عليه الطاعات، وتحفّ عليه المحرّمات.

من أركان الإيمان: الإيمان بالقدر. ويدخل في القدر الإيمان بعموم قدرة الله تعالى، وأنه على كلّ شيء قدير، ويدخل في قدرة الله تعالى أنه قادر على أن يعذب من يشاء، وقادر على أن يرحم من يشاء، وقادر على أن يتقمم من الظلمة ويهلكهم في أسرع وقت ممكن، وقادر على أن يبسط لهم الرزق، وقادر على أن يعمّم فضله على القاصي والداني، وقادر على أن يحرم هذا ويهلكه، وقادر على أن يغيّر هذا الكون، ويبدّل المخلوقات، فلا يعجزه شيء ولا يخرج عن قدرته شيء.

كذلك لا يكون في الوجود شيء إلا بإرادته، وبعد أن يشاء ذلك ويقدره، فلا يكون فسوق ولا طاعة ولا معصية ولا هداية ولا ضلال، ولا كفر ولا إيمان، لا يكون إلا بعد أن يشاء ذلك، ﴿لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]، ﴿إِنْ يَشَاءُ يُسَكِّنِ الرِّيحَ﴾ [الشورى: ٣٣]، ﴿إِنْ شَاءَ نُنزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

ولكن اقتضت حكمته أن أضلّ أناسًا بعدله، فضلّوا سواء السبيل، ومنّ على

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٣٤)، والنسائي في الكبرى (١٠١٧٩)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، وابن

حبان (٢١٠/٣)، والحاكم (٥١٧/٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

آخرين بفضله، فاهتدوا إلى سواء السبيل. وأولئك داخلون تحت قدرته، وهؤلاء كذلك، والجميع عبيده، وتحت تصرّفه، يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء، ويعطي ويمنع، ويصل ويقطع، ويخفض ويرفع، لا معزّ لمن أذلّ ولا مدلّ لمن أعزّ، بيده الخير وهو على كلّ شيء قدير.

ويدخل في ذلك حركات العباد وأفعالهم فهو الذي قدرهم، وهو الذي أعطاهم القوّة، وهو الذي بعث هممهم، وهو الذي شاء ما أرادوه وما فعلوه، ولو شاء لما عصوه، وكلّ ذلك بمشيئته وقدرته، فإن أطاعوه بفضله، فهو الذي منّ عليهم حتّى أطاعوه، وإن عصوه فبعده، فهو الذي خذلهم حتّى عصوه. وقد مرّ بنا أن في هذا خلافاً بين ثلاث طوائف:

الأولى: الجبرية، فقد غلوا في نفي قدرة العبد، وجعلوا حركته كحركة الأشجار، ولم يجعلوا له أيّ اختيار واستدلّوا بقول الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، ولكنّه ردّ عليهم بأن الله سبحانه أثبت الرمي لنبيه ﷺ، فمنه الرمي ومن الله تعالى الإصابة.

الثانية: القدرية، وهم الذين أنكروا قدرة الله على أفعال العباد، وجعلوا العباد هم الذين يخلقون أفعالهم، وليس لله قدرة على هداية هذا ولا إضلال هذا، ولا توفيق هذا ولا خذلان هذا، فجعلوا العبد أقدر من الله، وجعلوا قدرته تفوق قدرة الخالق، وجعلوا مع الله من يخلق، فهؤلاء يقال لهم: مجوس هذه الأمة.

وتوسّط أهل السنّة، وجعلوا للعبد قدرة وإرادة، ولكنّها مسبوقة بقدرة الله

وإرادته، ومغلوّبة بها، فإذا أراد الله هداية عبد وفقه وأطلق جوارحه فاختار الفعل الطيّب، فأصبح مطيعاً مؤمناً، فتنسب إليه طاعاته ومعاصيه؛ لأن له إرادة، ولأن له قدرة زاوّل بها الأعمال، وتنسب إلى الله؛ لأنه هو الذي أقدره عليها، وهو الذي قوّاه ورزقه القوّة ورزقه التوفيق. وكذلك المعصية؛ تنسب إلى الله؛ لأنّه هو الذي قدرها، وتنسب إلى العبد؛ لأنه هو الذي باشرها وهو الذي فعلها.

وجميع الحركات من الله تعالى إيجاباً وتكويناً، ومن العبد فعلاً ومباشرة. فعلى هذا لا يكون هناك من يشترك في خلق الفعل وإيجاده، بل الله هو الذي مكّن العبد حتّى فعله وأظهره، والعبد هو الذي باشره، فتنسب إليه المباشرة، فلا يكون هناك خلاف ولا إجبار ولا إنكار لقدرة الله تعالى.

قال الشارح:

فَإِنْ قُلْتَ: فَذَلِكَ الْعَدَمُ مَنْ خَلَقَهُ فِيهِ؟ قِيلَ: هَذَا سُؤَالَ فَاسِدٍ، فَإِنَّ الْعَدَمَ
كَاسْمِهِ، لَا يَفْتَقِرُ إِلَى تَعَلُّقِ التَّكْوِينِ وَالْإِحْدَاثِ بِهِ، فَإِنَّ عَدَمَ الْفِعْلِ لَيْسَ أَمْرًا
وَجُودِيًّا حَتَّى يُضَافَ إِلَى الْفَاعِلِ، بَلْ هُوَ شَرٌّ مُحْضٌ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَى اللَّهِ
سُبْحَانَهُ، كَمَا قَالَ ﷺ فِي حَدِيثِ الْإِسْتِفْتَاكِ: «لَبَيْتِكَ وَسَعْدَيْتِكَ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي
يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»^(١). وَكَذَا فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حِينَ يَقُولُ
لَهُ اللَّهُ: «يَا مُحَمَّدُ، فَيَقُولُ: لَبَيْكَ وَسَعْدَيْتِكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ
إِلَيْكَ»^(٢).

وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ تَسْلِيَطَ الشَّيْطَانِ إِنَّمَا هُوَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ
هُمُ بِهِ مُشْرِكُونَ، فَلَمَّا تَوَلَّوْهُ دُونَ اللَّهِ وَأَشْرَكُوا بِهِ مَعَهُ، عَوْقِبُوا عَلَى ذَلِكَ
بِتَسْلِيَطِهِ عَلَيْهِمْ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْوِلَايَةُ وَالْإِشْرَاكُ عُقُوبَةً خُلُوَ الْقَلْبُ وَفَرَاغَهُ مِنْ
الْإِخْلَاصِ، فَيُلْهَمُ الْبِرَّ وَالتَّقْوَى نَمْرَةً هَذَا الْإِخْلَاصِ وَتَبَيَّجَتْهُ، وَإِلْهَامُ الْفُجُورِ
عُقُوبَةٌ عَلَى خُلُوهِ مِنَ الْإِخْلَاصِ.

(١) تقدم تحريجه (٢/٤٤٩).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٢٣٠)، وابن أبي شيبة (٧/١٣٩)، والبخاري (٧/٣٢٩)،
والحاكم (٢/٣٦٣)، وأبو نعيم في الحلية (١/٢٧٨) عن حذيفة ؓ موقوفًا. قال الهيثمي
في مجمع الزوائد (١٠/٣٧٧): «رواه البخاري موقوفًا ورجاله رجال الصحيح». وأخرجه
الطبراني في الأوسط (٢/٩)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/٣٦٧)، والبيهقي في القضاء
والقدر (ص ٢٧٥) من حديث حذيفة ؓ مرفوعًا.

فَإِنْ قُلْتَ: إِنْ كَانَ هَذَا التَّرْكَ أَمْرًا وَجُودِيًّا عَادَ السُّؤَالُ جَدْعًا، وَإِنْ كَانَ
أَمْرًا عَدَمِيًّا فَكَيْفَ يُعَاقَبُ عَلَى الْعَدَمِ الْمُحْضِ؟

قِيلَ: لَيْسَ هُنَا تَرْكٌ هُوَ كَفُّ النَّفْسِ وَمَنْعُهَا عَمَّا تُرِيدُهُ وَتُحِبُّهُ، فَهَذَا قَدْ يُقَالُ:
إِنَّهُ أَمْرٌ وَجُودِيٌّ، وَإِنَّمَا هُنَا عَدَمٌ وَخُلُوعٌ مِنْ أَسْبَابِ الْخَيْرِ، وَهَذَا الْعَدَمُ هُوَ مُحْضٌ
خُلُوعًا بِمَا هُوَ أَنْفَعُ شَيْءٍ لَهَا، وَالْعُقُوبَةُ عَلَى الْأَمْرِ الْعَدَمِيِّ هِيَ بِفِعْلِ السَّيِّئَاتِ،
لَا بِالْعُقُوبَاتِ الَّتِي تَنَالُهُ بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ بِالرُّسُلِ. فَلِلَّهِ فِيهِ عُقُوبَتَانِ:

إِحْدَاهُمَا: جَعَلُهُ مُذْنِبًا خَاطِئًا، وَهَذِهِ عُقُوبَةُ عَدَمِ إِخْلَاصِهِ وَإِنَابَتِهِ وَإِقْبَالِهِ
عَلَى اللَّهِ، وَهَذِهِ الْعُقُوبَةُ قَدْ لَا يُحْسِبُ بِأَلْفِهَا وَمَضَّرَتْهَا، لِمَوَافَقَتِهَا شَهْوَتَهُ وَإِرَادَتَهُ،
وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ أَعْظَمِ الْعُقُوبَاتِ.

وَالثَّانِيَةُ: الْعُقُوبَاتُ الْمُؤَلِّمَةُ بَعْدَ فِعْلِهِ لِّلْسَّيِّئَاتِ. وَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ
هَاتَيْنِ الْعُقُوبَتَيْنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا فَسَّخُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ
كُلِّ شَيْءٍ﴾، فَهَذِهِ الْعُقُوبَةُ الْأُولَى، ثُمَّ قَالَ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ
بِقَتَّةٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]، فَهَذِهِ الْعُقُوبَةُ الثَّانِيَةُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلْ كَانَ يُمَكِّنُهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِالْإِخْلَاصِ وَالْإِنَابَةِ وَالْمَحَبَّةِ لَهُ وَحَدَهُ،
مِنْ غَيْرِ أَنْ يَخْلُقَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَيَجْعَلُهُمْ مُحْلِصِينَ لَهُ مُنِيبِينَ لَهُ مُجِبِّينَ لَهُ؟ أَمْ
ذَلِكَ مُحْضٌ جَعَلَهُ فِي قُلُوبِهِمْ وَالْقَائِمُ فِيهَا؟ قِيلَ: لَا، بَلْ هُوَ مُحْضٌ مِمَّتِهِ وَفَضْلِهِ،
وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْخَيْرِ الَّذِي هُوَ بِيَدِهِ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْهِ، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَأْخُذَ
مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا مَا أَعْطَاهُ، وَلَا يَتَّقِي مِنَ الشَّرِّ إِلَّا مَا وَقَاهُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا لَمْ يُخْلَقْ ذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ وَلَمْ يُؤَفَّقُوا لَهُ، وَلَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَيْهِ بِأَنْفُسِهِمْ، عَادَ السُّؤَالُ؟ وَكَانَ مَنَعُهُمْ مِنْهُ ظُلْمًا، وَلَزِمَكُمُ الْقَوْلُ بِأَنَّ الْعَدْلَ هُوَ تَصَرُّفُ الْمَالِكِ فِي مَلِكِهِ بِمَا يَشَاءُ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ.

قِيلَ: لَا يَكُونُ سُبْحَانَهُ بِمَنَعِهِمْ مِنْ ذَلِكَ ظَالِمًا، وَإِنَّمَا يَكُونُ الْمَانِعُ ظَالِمًا إِذَا مَنَعَ غَيْرَهُ حَقًّا لِذَلِكَ الْغَيْرِ عَلَيْهِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي حَرَّمَ الرَّبُّ عَلَى نَفْسِهِ، وَأَوْجَبَ عَلَى نَفْسِهِ خِلَافَهُ. وَأَمَّا إِذَا مَنَعَ غَيْرَهُ مَا لَيْسَ بِحَقِّ لَهُ، بَلْ هُوَ مُحَضُّ فَضْلِهِ وَمَتَّبِعِهِ عَلَيْهِ، لَمْ يَكُنْ ظَالِمًا بِمَنَعِهِ، فَمَنَعَ الْحَقَّ ظُلْمًا، وَمَنَعَ الْفَضْلَ وَالْإِحْسَانَ عَدْلًا، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْعَدْلُ فِي مَنَعِهِ، كَمَا هُوَ الْمُحْسِنُ الْمَنَانُ بِعَطَائِهِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا كَانَ الْعَطَاءُ وَالتَّوْفِيقُ إِحْسَانًا وَرَحْمَةً، فَهَلَا كَانَ الْعَمَلُ لَهُ وَالْعَلْبَةُ، كَمَا أَنَّ رَحْمَتَهُ تَغْلِبُ غَضَبَهُ؟

قِيلَ: الْمَقْصُودُ فِي هَذَا الْمَقَامِ بَيَانُ أَنَّ هَذِهِ الْعُقُوبَةَ الْمُتَرْتِبَةَ عَلَى هَذَا الْمَنَعِ، وَالْمَنَعِ الْمُسْتَلْزِمَ لِلْعُقُوبَةِ لَيْسَ بِظُلْمٍ، بَلْ هُوَ مُحَضُّ الْعَدْلِ.

قال الشيخ:

مناقشات لاعتراض المعتزلة الذين ينكرون قدرة الله على أفعال العباد، فيوردون هذه الشبهات ليلبسوا على غيرهم.

وقد مرّ بنا أن الشرّ لا يُضَاف إلى الله على أنه شرٌّ، نقول: كلُّ أفعال الله تعالى خير، ولو كانت عقوبات، أو إهلاكًا أو انتقامًا، فلا يقال إنه شرٌّ، ولا يقال إنه مرصّ بل هو خير بالنسبة إليه سبحانه وتعالى.

وإذا تتبعنا الأدلة وجدنا أن الله تعالى لا ينسب الشر إلى نفسه، ولكنه يذكره على صيغة المبني للمجهول، كما في قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الجن: ١٠]، فالشر قالوا أريد بهم، وأراده الله؛ لأن الشر المحض لا ينسب إلى الله، وأما الخير فيفصح بأنه من الله، فقالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، فدل على أن كل ما يصدر من الله فهو خير، فالصواعق التي تنزل، والأمراض التي تحدث بتقدير الله، والجذب والقحط الذي يصيب الكثير من البلاد، لا يقال: إنه شر، بل هو خير بالنسبة إلى الله؛ وذلك لأنه قدره لعاقبة حسنة، وقدره لينبه عباده على عزته وقدرته، ولينبهم على خطئهم وذنبهم، وأنه غير ظالم لهم، «لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ لَهُمْ خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ»^(١)، ومما يستحقونه. فإذا كل ما يحدث فهو بتقدير الله، ولكن لا ينسب إلى الله الشر.

مر بنا أن النبي ﷺ كان يقول في التلبية: «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»^(٢)، جعل الخير كله من الله وإليه، والشر ليس إلى الله، أي: لا ينسب إلى الله، ولو كان هو الذي قدره، ولو كان هو الذي شاءه، ولكن لا نسميه شرًا بالنسبة إلى إحداث الله له، فإنه خير؛ لأنه سبحانه ما أراد إلا الخير، وما أراد بعباده إلا أن ينبهم، فإن كانوا عصاة سلط الله عليهم قحطًا أو مرضًا،

(١) تقدم تحريجه (٤/٣٧٣).

(٢) تقدم تحريجه (٢/٤٤٩).

فهذا خير، حتى يتبها لعصيتهم، ويعلموا أن ما أصابهم فهو عقوبة لهم. وإن كانوا مطيعين، علموا أن ذلك ابتلاء وامتحان وتنبية لهم، ليكون ذلك زيادة في حسناتهم. لذا فإن جميع ما يحدث وما يقدره الله في الكون، فهو خير إذا صدر من الله تعالى.

ومعلوم أيضًا أنه سبحانه هو الذي يكون الكائنات ويقدرها، وأنه يعاقب العباد بما يستحقون، وقد يعفو عنهم، وتكون عقوباته نوعين: عقوبة ظاهرها أثمها نعمة، وهي محنة وامتحان واختبار. وعقوبة يظهر فيها أثمها عذاب وألم. والكل قد يسمى عقوبة، ولا يكون ذلك إلا إذا عصوا ما أمرهم، أو ما كلفوا به، وخالفوا ما أمروا به. فقد وجه الله إليهم الأوامر، وبين لهم، ولكنهم بطبعهم خالفوا وارتكبوا المعاصي فعاقبهم بعقوبتين، كما في آية سورة الأنعام، وهي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]، وهذه نعمة، ولكنها عقوبة ومحنة، بمعنى: فتحنا عليهم الأرزاق، وسرنا لهم الأسباب، وقوتناهم، وأعطيناهم الأموال والأولاد والأمن والرخاء، وكثرة النعم، وكثرة الخيرات، فازدهرت لهم الدنيا، وأعجبوا بما أصابوا، وانخدعوا واغترؤا، وظنوا أن ذلك كرامة ومنحة، وقالوا هذا بسبب أفعالنا وما نستحقه، وعند ذلك يطغون ويغنون، ويتكبرون ويتكبرون، ويكفرون نعم الله، ويستعينون بها على المحرمات والمعاصي، وكل ذلك بتقدير الله تعالى، ولو شاء لهداهم، ولكنه خلى بينهم وبين أنفسهم وأهوائهم، فأختاروا الضلال، فحقت عليهم الكلمة، فعند ذلك تنزل

عليهم العقوبة الثانية، ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَشْتَةً فَاذَاهُمْ مُبَسِّئُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، أخذهم الله على حين غرة وغفلة.

فإذا قول الشارح: إن الذين قالوا: لماذا خلق الله فيهم عدم الإيمان؟ أجاب بأنه: لا يُسمى العدم شيئاً، وكذلك قولهم: لماذا لم يسوّ بينهم، فيهديهم كلّهم، ويعطيهم العقول التي تهديهم إلى الخير، فأجاب بأنه سبحانه له الحكمة، حيث إنه خلق دارين: داراً للنعيم، وداراً للجحيم، ولو سوّ بينهم في الاختيار والهداية، لتعطلت إحدى الدارين، فمن حكمته أن جعل أهواءهم تختلف، فمنهم من اختار الهدى، ومنهم من اختار الضلالة، منهم من حقت عليه كلمة العذاب، ومنهم من اختار أسباب الثواب. ولا يقال: إنه ظلم هؤلاء حيث لم يوفقهم، بل يقال: إنه خلّى بينهم وبين أنفسهم، وإنه لم ير هؤلاء أهلاً لنعمة، ولا أهلاً لحكمته، ولا أهلاً لرحمته، بل رأى فيهم من الميل للهوى ما لا يكونون معه أهلاً للفضل.

وأنت تشاهد أبناء رجل واحد، وترى أن تربيتهم واحدة، وتعليمهم واحد، وكذلك يقرؤون كتباً واحدة، ومع ذلك إذا كبروا يتفاوتون؛ فمنهم من يميل إلى الخير ويؤثره ويحبّه ويكون خيراً محضاً، فيعمل الصالحات ويتقبلها، ومنهم من يميل إلى الشرّ، ويميل إلى البطالة، وإلى المعصية والضلالة. فتقول: لماذا حصل هذا التفاوت، أليست تربيتهم وتعليمهم وتثقيفهم سواء؟ يقال: بلى، ولكن هؤلاء كتب الله لهم السعادة، وهؤلاء حكم عليهم بالشقاوة، هؤلاء هداهم،

وهؤلاء أضلهم، والجميع لم يظلمهم، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. ولكن بسبب أنه لم ير هؤلاء أهلاً، بل علم أن طبعهم وميلهم وعقولهم متكسة، وليست أهلاً لأن تقبل الهدى، فخلّى بينهم وبين أنفسهم، فانخذلوا وخرجوا عن الطاعة والاستقامة، بخلاف أولئك.

مع أننا نؤمن بأن هناك أسباباً جعلها الله مؤثرة في هذه الدنيا، والسبب الوحيد في هداية الإنسان هو توفيق الله تعالى له، وإعطاؤه قابلية للحق وميلاً إليه، ويقذف في قلبه محبة للدين وميلاً إليه، هذا هو السبب الأصل، ثم هناك أسباب أخرى: فنشئة الوالدين، جعلها الله سبباً للخير أو سبباً للشر، فإن كان الوالد محباً للخير وربى أولاده على الخير وعلى العلم وعلى الدين، وعلى التقوى، وعلمهم كل شيء ينفعهم، كان ذلك سبباً، وإن كان قد يتخلف في بعضهم.

وكذلك إذا أراد الله بعبده الخير، وفق له جليساً خيراً، ويسر له أصدقاء صالحين يهدونه ويدلّونه، ويأخذون بيده إلى سبيل النجاة. وكان ذلك كله من أسباب الهداية والاستقامة. ولكن ذلك كله بتقدير العزيز العليم، فجعل قلبه يميل إلى هذا أو إلى هذا، وهذه الأسباب قد تفعل مع الشخص الآخر ولكن لا تزيده إلا عُتُوًّا ونفوراً. فأنت قد تدعو إنساناً، وتبذل له الأسباب فتعطيهِ نصائح وترشده، وتخوّفه، وتهدي إليه كتباً ونشرات وأشرطة مفيدة؛ فيسمعها ويهتدي ويتقبل، بعد أن كان عاصياً عاتياً، وتأتي إلى أخيه أو زميله، وتعمل معه ذلك العمل وتنصحهُ وتهديه، ولكن لا ينفع معه ذلك، ولا يتقبل، ولا يزيده

ذلك إلا عتواً ونفوراً، بل قد يحتقر من يدعوه إلى الخير، ويتنقصهم، ويرى نفسه أفضل منه. فليس هناك إلا أن هذا من الله عليه وجعل فيه هذه القابلية للهداية، وذلك خذله وخلق بينه وبين نفسه، وسلط عليه أعداءه فحبسوه، وتمكنوا من قيادته حيث يشاؤون، ولم تجد فيه الحيل. وقال تعالى: ﴿لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١].

قال الشارح:

وَهَذَا سُؤَالَ عَنِ الْحِكْمَةِ الَّتِي أَوْجَبَتْ تَقْدِيمَ الْعَدْلِ عَلَى الْفَضْلِ فِي بَعْضِ الْمَحَالِّ؟ وَهَلَا سَوَّى بَيْنَ الْعِبَادِ فِي الْفَضْلِ؟ وَهَذَا السُّؤَالُ حَاصِلُهُ: لِمَ تَفْضَلُ عَلَى هَذَا وَلَمْ تَفْضَلْ عَلَى الْآخَرِ؟ وَقَدْ تَوَلَّى اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْجَوَابَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]، وَقَوْلِهِ: ﴿لِنَلَّيْكُمْ أَهْلَ الْكِتَابِ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩]. وَلَمَّا سَأَلَهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى عَنْ تَخْصِيصِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِأَجْرَيْنِ وَإِعْطَائِهِمْ هُمُ أَجْرًا أَجْرًا، قَالَ: «هَلْ ظَلَمْتُمْ مَن حَقَّكُمْ شَيْئًا؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيَهُ مَن أَسَاءَ»^(١). وَلَيْسَ فِي الْحِكْمَةِ إِطْلَاعُ كُلِّ فَرْدٍ مِّنْ أَفْرَادِ النَّاسِ عَلَى كَمَالِ حِكْمَتِهِ فِي عَطَائِهِ وَمَنْعِهِ، بَلْ إِذَا كَشَفَ اللَّهُ عَن بَصِيرَةِ الْعَبْدِ، حَتَّى أَبْصَرَ طَرَفًا يَسِيرًا مِّنْ حِكْمَتِهِ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، وَثَوَابِهِ وَعِقَابِهِ، وَتَخْصِيصِهِ وَجَزَائِهِ، وَتَأَمَّلَ أَحْوَالَ مَحَالِّ ذَلِكَ، اسْتَدَلَّ بِمَا عَلِمَهُ عَلَى مَا لَمْ يَعْلَمَهُ.

وَلَمَّا اسْتَشَكَلَ أَعْدَاؤُهُ الْمَشْرُكُونَ هَذَا التَّخْصِيصَ، قَالُوا: ﴿أَهْتَوَلَاءَ مَن اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَن يَشَاءُ﴾، قَالَ تَعَالَى مُجِيبًا لَهُمْ: ﴿لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]. فَتَأَمَّلْ هَذَا الْجَوَابَ، تَرَفِّي فِي ضَمْنِهِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِالْمَحَلِّ الَّذِي

(١) أخرجه البخاري (٥٥٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

يَصْلُحُ لِعَرْسِ شَجَرَةِ النَّعْمَةِ فَتُثْمِرُ بِالشُّكْرِ، مِنَ الْمَحَلِّ الَّذِي لَا يَصْلُحُ لِعَرْسِهَا،
فَلَوْ عُرِسَتْ فِيهِ لَمْ تُثْمِرْ، فَكَانَ عَرْسُهَا هُنَاكَ ضَائِعًا لَا يَلِيْقُ بِالْحِكْمَةِ، كَمَا قَالَ
تَعَالَى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

قال الشيخ:

هذا المعنى قد ذكرنا ما يدل عليه، وقد عرفنا أنّ الربّ سبحانه وتعالى هو
الحكيم، الذي يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها، وآنه من حكمته قسم خلقه
إلى سعيد وشقي، وإلى فاجر وتقيّ. وعلم من هو أهل للتقوى فوفقه، ومن هو
أهل للشقاء فخذله، ولا يظلم ربك أحدًا.

فله الحكمة في أمره ونهيه، وله الحكمة في خلقه وتدبيره، وكذلك له الحكمة
في هدايته وإضلاله، وتوفيقه وخذلانه، يهدي من يشاء فضلًا، ويضلّ من يشاء
عدلاً.

وفضله سبحانه على عباده كلّهم حيث خلقهم على أحسن تقويم، وحيث
رزقهم وحيث أنعم عليهم، وأعطاهم ما يعيشون به، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا
عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، فهذا هو الفضل العام الذي عممه على جميع الخلق.
وأما الفضل الخاص فهو الهداية والتوفيق، والمنّة على العبد، وهو الذي يختصّ به
من يشاء، ولا يُعاتب على تخصيصه، فلا يقال: لماذا خصّ هذا بالهداية دون هذا،
ولماذا أغنى هؤلاء وأفقر هؤلاء، ولا يقال: لماذا أصحّ هذا وأمرض هذا، ولا يجوز

الاعتراض على تصرف الله تعالى، فلا يقال: فلان لا يستحق أن يُبتلى، أو لا يستحق أن يمرض، فالأمر بيد الخالق سبحانه، فله الحكمة في أن أضل هؤلاء وهدى الآخرين وأن أنعم على هؤلاء وخذل غيرهم، وأنه أعطى هذا ومنع هذا، له الحكمة في ذلك، وله النعمة والمنة.

والآيات التي استدلت بها الشارح واضحة الدلالة على أن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء من خلقه، وليس الفضل خاصًا بالمال، ولا بالشهوات، ولا بالنعم، ولا بالبني، ولا بالخيرات، بل هو التوفيق والهداية، وهو إلهام العبد إيمانًا صادقًا ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٩]. ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]، فهذا الفضل ليس لأحد أن يعترض على الله تعالى في أنه خص به قومًا دون قوم.

ولمَّا قال المكذَّبون للرَّسول: ﴿إِن أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، قالت لهم رسالهم: ﴿إِن نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١]، يمتن عليهم: فهدايتهم منة عليهم، والله ورسوله أمن، أي: له المنّ وله الفضل. كما دعا بذلك رسول الله ﷺ، كان من دعائه بعد الصلاة أن يقول: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، لَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، لَهُ الْمُنُّ، وَلَهُ النِّعْمَةُ، وَلَهُ الْفَضْلُ وَالشَّانُ الْحَسَنُ»^(١)، المنّ: الامتنان على خلقه، يمتن عليهم بما يشاء، بمعنى أن له المنّة

(١) أخرجه ابن حبان (٣٥٠/٥)، وأصله في صحيح مسلم (٥٩٤) من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما.

عليهم، أي: الإعطاء والتفضل عليهم، والفضل: العطاء والهداية والتوفيق.
 فإذا: ما دام أنه سبحانه يعطي هؤلاء دون هؤلاء، فلا يُعترض ويقال:
 إنه يعطي هذا دون هذا، فمثلاً قد يعظم أجر هذا ويضاعف له الحسنات
 أكثر من هذا، لماذا؟ الله أعلم. لا شك أنه رآه أهلاً، وتذكر قول الله تعالى لنساء
 النبي ﷺ: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَعَّفَ لَهَا الْعَذَابُ
 ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣١﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَدِيقًا
 نَزَّهَاً أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴿٣٠﴾ [الأحزاب: ٣٠، ٣١]، تخصيصها إذا أحسنت أن لها الأجر
 مرتين، ذلك فضل الله. وتخصيصها بأنها إن فعلت ذنباً تعاقب عليه مرتين؛
 لأنها ذات منزلة وذات فضيلة، فلا يليق بها أن تفعل الذنب الذي تعاقب عليه.
 فتخصيصه بعض عباده بمضاعفة الثواب فضل منه ومنته، مع أننا نعرف أن
 جميع الخلق سواسية، لا فرق بينهم أمام الله سبحانه، وليس لهم عنده حسب
 ولا نسب، ولا يعطي هؤلاء لكونهم ذوي شرف وذوي فضيلة، ولا يمنع هؤلاء
 لكونهم ذوي نسب دنيء أو نحو ذلك، فرب شخص يكون من أشرف الناس
 ومن مشاهيرهم، ومن أفاضلهم وأرفعهم نسباً، ومع ذلك يكون بعيداً عن الخير،
 بعيداً عن الهداية، وآخر يكون من ذوي النسب الدنيء الذي لا يؤبه له، ولكن
 يكون له فضل ومنزلة ورفعة وشرف، وذلك بفضيلة التقوى.

ولذلك يقول بعضهم^(١):

(١) من شعر أبي العتاهية، انظر: ديوانه (ص ١٧٠).

وَحُبُّكَ لِلدُّنْيَا هُوَ الدُّلُّ وَالسَّقَمُ
وَلَيْسَ عَلَى عَبْدٍ تَقْيِي نَقِيصَةٌ
إِذَا حَقَّقَ التَّقْوَى وَإِنْ حَاكَ أَوْ حَجَمَ
ويقول آخر أيضاً^(١):

لَعَمْرُكَ مَا الْإِنْسَانُ إِلَّا بِدِينِهِ
فَلَا تَدَعِ التَّقْوَى اتِّكَالًا عَلَى الْحَسَبِ
لَقَدْ رَفَعَ الْإِسْلَامُ سَلْمَانَ فَارِسٌ
وقد ذكرنا أن لذلك أسباباً، وأن من أسباب الهداية: كون العبد يرغب إلى ربه، ويرفع إليه أكف الضراعة، ويتملقه، ويدعوه في أوقات الإجابة، يسأله هداية قلبه، وهداية روحه، وهداية فطرته، ويسأله الإقبال من قلبه إلى ربه. فهذا من أهم الأسباب الدعاء لله سبحانه. إذا رأيت في قلبك شيئاً من القسوة، دعوت الله أن يلينه حتى يتقبل العظة ونحوها، وإذا رأيت من قلبك كراهية وإعراضاً عن الخير سألت ربك ودعوته أن يقبل به إلى الخير، وإن رأيت من نفسك تشاقلاً عن الطاعة، سألت ربك أن يهديك ويعينك على الطاعة، فذلك سبب من أسباب الهداية، والله تعالى جعل لأحكامه ولما قدره أسباباً مشاهدة فهذا منها.

كذلك من الأسباب كثرة العبادات والطاعات، فالعبد إذا أكثر من الحسنات وأكثر من القربات كانت سبباً في محبته للخيرات وفي إكثاره من الحسنات، وبغضه

(١) البيتان لمحمد بن علي الزدي، أخرجهما الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (٢/٢٤٦).

للسيئات، إن الحسنات يذهبن السيئات، فالحسنة تجرّ إلى أختها، والسيئة تجرّ إلى مثلها. فهذه بلا شك أسباب. كما أن للشقاوة أسبابًا، وللضلالة أسبابًا، بعد خذلان الله، وبعد تخليته بينه وبين نفسه، وكثرة المعاصي تقسي القلوب، والإعراض عن الطاعات والأذكار تقسيها وتصدها عن الخير، وتثقل عليها الطاعات، وهذا كله داخل تحت إرادة الله ومشيئته وتقديره.

نحمد الله سبحانه وتعالى على أن هدانا للإسلام، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، ونحمده لأنه منّ علينا بالفطرة الحسنة وبالشريعة الإسلامية، وبالعقيدة السنية، وبالطريقة المحمدية، وبالهداية إلى الصراط المستقيم، الذي من سلكه فاز ونجا، ومن حاد عنه تردى وهلك. نحمد الله أن جعلنا من أهل السنة، وحمانا وحفظنا من البدع والمنكرات والحوادث التي تخالف السنة وتنافي الشريعة.

وهذا من أكبر النعم، فقد منّ الله علينا أن عرفنا السنة، وعرفنا سبيل السلام، والطريق السوي، وحرم ذلك خلقًا كثيرًا. هناك خلق كثير من القبائل والدول والأمم لا يعرفون الإسلام، ولا يدينون به، بل يرونه عائقًا وقاطعًا عن السير في هذه الحياة التي هي غاية مطلبهم والتي هي نهاية مقصدهم. وهناك فئام من الناس يدينون بديانات أخرى ضالة، يدعون أنّها أهدى سبيلًا وأقوم طريقًا وأتّهم على سبيل النجاة، وأتّهم تفوقوا على المسلمين، وأتّهم دانوا بطريقة وبسنة أهدى من الشريعة الدينية، وهناك فئام ودول وقبائل وخلق كثير ينتسبون إلى الإسلام، ولكن ما معهم منه إلا مجرد التسمي، فيتسمون بأتّهم مسلمون، وعقائدهم تخالف العقيدة الإسلامية، وأعمالهم تخالف الإسلام، فهم على شفا جرف هار، حري أن

يموتوا وهم على تلك البدع، وتلك المعاصي والمنكرات، فيكونون من أهل العذاب والعياذ بالله. وهناك فقام وأمم كثيرة يتسمون بأنهم مسلمون ولكن معهم منكرات ومحدثات وبدع، ولكن سؤل الشيطان لهم وأملى لهم وزين لهم أنهم على الحق والهدى، وأنهم أهدى من أهل السنة والجماعة، وهم يفتخرون بهذه الأسماء التي يتحلونها، وهم يظنون أنهم على حق، وهم على باطل، ولم يرعوا ولم يقبلوا هدى الله ولم يقبلوا الدليل، ولم يميلوا إلى الشريعة، بل زين لهم الشيطان أن تلك النحل والبدع هي السنة، فجعل السنة بدعة، والبدعة سنة، والحق باطلاً، والباطل حقاً، وهذا من انتكاس البصائر ومن عمى القلوب والعياذ بالله.

وهناك كثير ممن يدينون بالسنة، ويتسبون إلى أنهم من أهل الجماعة، وأنهم على معتقد السلف، لكن زين الشيطان لهم بعض الذنوب، ووقعوا في المعاصي والمخالفات، وإن لم تكن مكفّرات أو بدعيّات، فإنها ذنوب عظيمة أصروا عليها واستمروا عليها، فقصوا أعمارهم وهم على تلك المعاصي والكبائر، وهم على خطر إذا لم يتوبوا ولم يتب الله عليهم، استحقوا من العذاب بقدر ذنوبهم وسيئاتهم. وهناك آخرون لم يخالفونا في المعتقد، ولم يرتكبوا كبائر الذنوب، ولكنهم استمروا على صغائر احتقروها، وتهاونوا بها. والاستمرار على الصغيرة والإصرار عليها والاستهانة بها يصيرها كبيرة. وهذه الأقسام موجودة، وأشدّها الذين لا يعترفون بالله ربّاً، ولا بالشريعة الإسلامية أو غيرها ديناً.

وحيث إن الله سبحانه قد نجانا من هذه الأخطار كلّها، أفلا يكون ذلك حافزاً لنا على أن نتعلّم السنة النبويّة، -حتى إذا عرفناها تمسكنا بها، ورددنا على من

يخالفنا سواء كانت المخالفة في الأصول أو الفروع، وهذا والحمد لله ما نقوم به بكل ممكن، وهو من الأسباب التي يفتح الله بها على عباده، وينجيهم.

وفي هذا الكتاب ناقشنا مسائل القضاء والقدر والإرادة والمشيئة، ووردت معنا شبهات القدرية والجبرية التي شبهوا فيها على العباد، ولكن الله قيّض لهم من أهل السنّة من ردّ عليهم شبهاتهم فإذا عرف الإنسان جواب هذه الشبهات من أهل السنّة قنع إن شاء الله، بأن الله هو الذي أمر العباد ونهاهم، وقنع بأنّه ما أمرهم إلا لأتّهم قادرون على عمل هذه الأوامر، وكذلك قنع أيضًا بأنّهم لا يقدرّون إلا على ما أقدرهم الله عليه، وأنّ الله سبحانه قوَاهم وأقدرهم ومكّنهم، وجعل لهم استطاعة يزاولون بها الأعمال، ويتمكّنون بها من الأفعال، وتُنسب بها إليهم أفعالهم طاعات ومعاصي، كما يكتسبون بها، وكما يتسبّبون بها بتحصيل أسباب الرزق، وكلّ ذلك لا يخرج عن قدرة الخالق، فله القدرة وله الاستطاعة الغالبة لكلّ قدرة، ولكنّه سبحانه لما أعطاهم هذه القدرة نسبت إليهم، وأصبحوا هم المزاولين للأعمال، فهم الذين يصلّون ويصومون ويتصدّقون، وهم الذين يؤمنون ويسلمون ويحسنون ويتعبّدون، وهم الذين يسرقون ويزنون ويفعلون المعاصي والمحرمات، ويعاقبون على هذا، ويثابرون على هذا، وإن كان الله سبحانه هو الذي قدر ذلك كلّّه في هذا الكون، وإن كان هو الذي مكّن هؤلاء وأعطاهم القدرة التي زاولوا بها الطاعات، وزاولوا بها المعاصي، ﴿فَلِلَّهِ الْحُكْمُ﴾ [البقرة: ١٤٩].

قال الشارح:

فَإِنْ قِيلَ: إِذَا حَكَمْتُمْ بِاسْتِحَالَةِ الْإِجَادِ مِنَ الْعَبْدِ، فَإِذَا لَا فِعْلَ لِلْعَبْدِ أَصْلًا؟
قِيلَ: الْعَبْدُ فَاعِلٌ لِفِعْلِهِ حَقِيقَةً، وَلَهُ قُدْرَةٌ حَقِيقَةٌ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَفَعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَسْأَلُهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧]، ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]،
وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

وَإِذَا نَبَتَ كَوْنُ الْعَبْدِ فَاعِلًا، فَأَفْعَالُهُ نَوْعَانِ:

نَوْعٌ يَكُونُ مِنْهُ مِنْ غَيْرِ اقْتِرَانِ قُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، فَيَكُونُ صِفَةً لَهُ، وَلَا يَكُونُ
فِعْلًا، كَحَرَكَاتِ الْمُرْتَعِشِ.

وَنَوْعٌ يَكُونُ مِنْهُ مُقَارِنًا لِإِجَادِ قُدْرَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ، فَيُوصَفُ بِكَوْنِهِ صِفَةً وَفِعْلًا
وَكَسْبًا لِلْعَبْدِ، كَالْحَرَكَاتِ الْاِخْتِيَارِيَّةِ. وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي جَعَلَ الْعَبْدَ فَاعِلًا
مُخْتَارًا، وَهُوَ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَهَذَا أَنْكَرَ السَّلْفُ الْجَبْرَ،
فَإِنَّ الْجَبْرَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ عَاجِزٍ، فَلَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ الْإِكْرَاهِ، يُقَالُ: لِلْأَبِ وَوَلَايَةٌ
إِجْبَارِ الْبِكْرِ الصَّغِيرَةِ عَلَى النِّكَاحِ، وَلَيْسَ لَهُ إِجْبَارُ الثَّيِّبِ الْبَالِغِ، أَيْ: لَيْسَ لَهُ أَنْ
يُرَوِّجَهَا مُكْرَهَةً.

وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُوصَفُ بِالْإِجْبَارِ بِهَذَا الْاِخْتِيَارِ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ خَالِقُ الْإِرَادَةِ
وَالْمُرَادِ، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَجْعَلَهُ مُخْتَارًا بِخِلَافِ غَيْرِهِ. وَهَذَا جَاءَ فِي أَلْفَاظِ الشَّارِحِ:
«الْجَبْلُ» دُونَ «الْجَبْرِ»، كَمَا قَالَ ﷺ لِأَسْحَجِ عَبْدِ الْقَيْسِ: «إِنَّ فِيكَ لِخَلْقَيْنِ يُحِبُّهُمَا
اللَّهُ: الْحِلْمُ وَالْأَنَاءُ»، فَقَالَ: أَخْلَقْتَنِي تَخَلَّقْتَنِي بِيَهُمَا؟ أَمْ خُلِقْتَنِي جَبِلْتُ عَلَيَّ بِهِمَا؟

فَقَالَ: «بَلْ خُلِقَيْنِ جُبِلْتَ عَلَيْنِهَا»، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خُلُقَيْنِ يُجِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ^(١).

وَاللَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا يُعَذِّبُ عَبْدَهُ عَلَى فِعْلِهِ الْإِخْتِيَارِيِّ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْعِقَابِ عَلَى الْفِعْلِ الْإِخْتِيَارِيِّ وَغَيْرِ الْإِخْتِيَارِيِّ مُسْتَقَرٌّ فِي الْفِطْرِ وَالْعُقُولِ.

وَإِذَا قِيلَ: خَلَقَ الْفِعْلُ مَعَ الْعُقُوبَةِ عَلَيْهِ ظُلْمٌ؟! كَانَ بِمَنْزِلَةِ أَنْ يُقَالَ: خَلَقَ أَكَلَ السَّمَّ ثُمَّ حُصُولُ الْمَوْتِ بِهِ ظُلْمٌ!! فَكَيْمَا أَنَّ هَذَا سَبَبٌ لِلْمَوْتِ، فَهَذَا سَبَبٌ لِلْعُقُوبَةِ، وَلَا ظُلْمَ فِيهَا.

فَالْحَاصِلُ: أَنَّ فِعْلَ الْعَبْدِ فِعْلٌ لَهُ حَقِيقَةٌ، وَلَكِنَّهُ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَمَقْصُودٌ لِلَّهِ تَعَالَى، لَيْسَ هُوَ نَفْسُ فِعْلِ اللَّهِ، فَفَرْقٌ بَيْنَ الْفِعْلِ وَالْمَفْعُولِ، وَالْمَخْلُوقِ وَالْمَخْلُوقِ. وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: (وَأَفْعَالُ الْعِبَادِ خَلْقُ اللَّهِ، وَكَسْبٌ مِنَ الْعِبَادِ)، أَثْبَتَ لِلْعِبَادِ فِعْلاً وَكَسْبًا، وَأَضَافَ الْخَلْقَ لِلَّهِ تَعَالَى. وَالْكَسْبُ: هُوَ الْفِعْلُ الَّذِي يَعُودُ عَلَى فَاعِلِهِ مِنْهُ نَفْعٌ أَوْ ضَرَرٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال الشيخ:

في هذا الكلام الذي تكرر وأتضح معناه والحمد لله، نعرف أن الله سبحانه وتعالى أثبت للعباد أفعالاً، قال تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾

(١) أخرجه مسلم (١٧) مختصراً، وأخرجه بلفظه: أحمد (٤/٢٠٥)، وأبو داود (٥٢٢٥).

[الكهف: ٢٩]، وأثبت أيضاً جزاءهم على تلك الأفعال، فقال: ﴿جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، ﴿جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨٢]، فنسب الفعل إليهم، فهم الذين يعملون، وهم المؤمنون والمسلمون والمحسنون. كما أنهم إذا خالفوا فهم الفاسقون والكافرون والخاسرون والظالمون، فتنسب المعاصي إليهم، وكذلك تنسب الطاعات إليهم، لماذا؟ لأنهم الذين زاولوها، وباشروها ظاهراً. فأنت تشاهد المصلي فتقول: هذا يصلي؛ يركع ويسجد، ولا تقول: هذا مجبور على الطاعات، ولا تقول: هذا مجبور على النفقة، بل تقول: هو يصلي، أو ينفق باختياره، فالصدقة منه تنسب إليه، ويطيع الله بامثال أمره في الإنفاق: ﴿لِيُفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ [الطلاق: ٧]. وفي قوله: ﴿أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [الرعد: ٢٢]، كما ينسب إليه فعل العبادات في قوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١].

أليس ذلك دليلاً على أنهم قادرون، يأمر الله العجزة؟ كلا، إنه لا يأمر من لا يقدر، فالله لا يكلّف نفساً إلاّ وسعها، والناس يعرفون القادر والعاجز، فلا يقال للمقعد: امش، ولا يقال له: احمل هذا إلى البيت الفلاني، ولا يقال للأعمى: اكتب هذه الرسالة؛ لأنه معذور، وليس في إمكانه أن يكتبها كغيره. فالله تعالى عندما قال: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا بِسِرِّ اللَّهِ وَعَمَلِكُمْ وِرْسُولَهُ، وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، لا شك أنه ما أمرهم إلاّ لأتهم قادرين على العمل، ولأجل ذلك يثابون على أعمالهم، وعلى تنافسهم، وعلى طاعتهم، وتُنسب إليهم خلافاً لما تقوله المجبرة، فتنسب إليهم لأتهم زاولوها.

فإن الله تعالى يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢]، ويقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧]، ويقول: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]. أليس ذلك نسبة للأفعال إليهم؟ هذه صفات أمر الله بها، ومدح أهلها، وجعلها مقدورة للمخاطبين، وعلى هذا العباد أعطاهم الله هذه القوة وهذه القدرة، ونحن نعتقد أنه لو شاء الله ما فعلوا، ولولا مشيئة الله وتمكينهم ما حصلت منهم هذه الأفعال.

ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٦، ٣٧]، فأخبر بأنه هو الذي هداهم ووقفهم وأعانهم، ولكن هو الذي أمرهم ونهاهم، وهو الذي خلقهم وقوَاهم، وهو الذي مكّن لهم وأعطاهم، وهو الذي سخرهم، كما أنه هو الذي يعاقب ويثيب، ويعطي ويمنع، ويهدي ويضل. ولكن لما أنه أمرهم كانوا متمكّنين من فعل ما أمرهم به، فلا يأمرهم إلا بما في إمكانهم، ولذلك يقول تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتَنَهَا﴾ [الطلاق: ٧]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، يعني: أنه ما أمركم إلا بما تستطيعون وتقدرون عليه، ولو كان الأمر كما يقول المجبرة، لكان يأمرهم بما لا يقدرون عليه، وذلك ولا شك من تكليف ما لا يطاق.

فالمجبرة يقولون: العبد مجبورٌ على فعله، وليس له فعل، ولا ينسب إليه، بل حركته كحركة المرتعش - مثل بعض البشر عند الكبر ترتعش يده من دون

اختياره - حركة قهريّة، وليست اختياريّة.

والمجبرة يزعمون أنّ العباد كلّهم ليس لهم أيّ اختيار أو أيّ قدرة، وإنّما حرّكاتهم؛ ركوعهم وسجودهم وكسبهم وعطاءهم ومنعهم وحجهم وعمرتهم وصدقهم، كلّها ليست اختياريّة بل قهريّة، وكذلك عندهم المعاصي يعدّونها قهريّة، ويعذرون من زنى ومن قتل ومن سرق ومن نهب ومن سلب؛ لأنّهم في زعمهم ليس لهم فعل، بل هم مجبورون على هذا الفعل.

ويقولون هذا تبطل الحكم، وتبطل الأحكام، وتتعلّط الشرائع، ولا حاجة إلى إرسال الرسل مادام أنّ المطيع مجبور على الطاعة، والعاصي مجبور على المعصية، فلماذا إذن أمر الله ونهى؟ لا شك أنّ هذا تجرؤٌ على الله تعالى، ثمّ هو مخالفة للعقول والبدائه، فالإنسان بفطرته يعرف أنّ عنده قدرة على المزاولة، فإذا رأيت إنساناً نشيطاً وليس له عمل أو حرفة، مع أنه مفكّر وعارف وقادر وقويّ البنية وسليم الأعضاء، ألسنت تلومه على هذه البطالة، وتقول له: إنّ الله يبغض الفارغ البطال، لماذا هذا الكسل، لماذا لا تتعلّم نفسك الكسب، وطلب الرزق، أتريد أن يأتيك رزقك إلى بيتك أو ينزل عليك طعامك وشرابك من السماء؟ فأنت تلومه، وهو يستحقّ أن يلام.

وذلك لأنّ الله تعالى كما أمر بالطاعات، كذلك أمر بالكسب، وأباحه، في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ الْأَشْورُ﴾ [الملك: ١٥]، وفي قوله: ﴿وَسَخَّرْ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾

[الجاثية: ١٣]، فما دام كذلك فإنه سبحانه أمرنا بأن نبتغي الرزق، وأن نتطلبه، وكلّ عاقل إذا تمكّن وقويّت بنيته، وكملت أعضاؤه واكتمل نموّه، ما بقي عليه إلا أن يتكسّب كما تكسّب آباؤه وأجداده، ويطلب ما يطلبون، ويُعفّ نفسه ويغنيها عن السؤال فإذا كان ذلك جبلةً وطبيعةً، فكذلك يقال أيضًا في الجبلة الإيمانية وفي الأوامر الشرعية، يقال: إن الله أمرك بأن تطلب النجاة، وأن تعمل الأعمال التي تكون سببًا في سعادتك عاجلاً وآجلاً.

نقول بعد ذلك: أن الإنسان قد جُبل على بعض الصفات، فيسمّى جبلةً ولا يسمّى إجبارًا.

وقد ذكر الشارح أنه لا يقال: مجبورٌ على فعله، ولكن يقال: مجبول على هذه الأخلاق. الجبلة: الطبيعة والخلطة. يقال: طبيعة فلان وجبلة الصدق، أو الحلم، أو اللين، أو الكرم، أو السخاء، أو النصيحة، أو الاهتداء، طبعه الله وجمبه عليها، وكذلك على أصدادها، فيقال مثلاً: هذا جُبل على البخل، وعلى الشحّ، وعلى الجبن، وعلى الخوف، وعلى الكذب، وعلى الخيانة، والغشّ، أي: إتمام صفات جبليّة مركوزة في نفسه، فنفسه الشريرة تميل إليها، أو نفسه الخيرية تميل إلى ضدها. هذا فرق بين الجبلة والجبر.

أمّا الجبر الذي تقول به الجبرية، فهو الإكراه والإلزام على الفعل من دون اختيار أو قدرة، فلا يُجبر إلا من كان عاجزاً عن الفعل، فمثلاً الأمير أجبر فلاناً على القتل، أو فلان أجبر على السكر، وفلانة أُجبرت على الزنى، يعني: هناك من أكرهها عليه، وهكذا. ففرق بين هذا وهذا.

فالصفات الجبلیّة هذه أخلاق، وليس فيها إكراه، بل يفعلها باختیاره سواء
أكانت طاعات أم معاصي.

وأما الجبر: فالله تعالى تنزه عن أن يكره أحدًا أو يجبر أحدًا، بل قال: ﴿لَا
إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وإنما هو اختيارات وجبالات وما أشبهها.

قال الطحاوي:

وَلَمْ يُكَلِّفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا مَا يُطِيقُونَ، وَلَا يُطِيقُونَ إِلَّا مَا كَلَّفَهُمْ. وَهُوَ تَفْسِيرٌ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»، نَقُولُ: لَا حِيلَةَ لِأَحَدٍ، وَلَا تَحْوِيلَ لِأَحَدٍ، وَلَا حَرَكَةَ لِأَحَدٍ عَنِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، إِلَّا بِمَعُونَةِ اللَّهِ، وَلَا قُوَّةَ لِأَحَدٍ عَلَى إِقَامَةِ طَاعَةِ اللَّهِ وَالتَّابَاتِ عَلَيْهَا إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكُلُّ شَيْءٍ يَجْرِي بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِلْمِهِ وَقَضَائِهِ وَقَدْرِهِ. غَلَبَتْ مَشِيئَتُهُ الْمَشِيئَاتِ كُلَّهَا، وَغَلَبَ قَضَاؤُهُ الْحِيلَ كُلَّهَا، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ أَبَدًا: ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

قال الشارح:

فَقَوْلُهُ: (لَمْ يُكَلِّفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا مَا يُطِيقُونَ)، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢]. وَعَنْ أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ أَنَّ تَكْلِيفَ مَا لَا يُطِيقُ جَائِزٌ عَقْلًا، ثُمَّ تَرَدَّدَ أَصْحَابُهُ أَنَّهُ: هَلْ وَرَدَ بِهِ الشَّرْعُ أَمْ لَا؟ وَاحْتَجَّ مَنْ قَالَ بِوُرُودِهِ بِأَمْرِ أَبِي هَبٍ بِالْإِيمَانِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ بِأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَأَنَّهُ سَيَصِلُ نَارًا ذَاتَ هَبٍ، فَكَانَ مَأْمُورًا بِأَنْ يُؤْمِنَ بِأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ. وَهَذَا تَكْلِيفٌ بِالْجَمْعِ بَيْنَ الضَّدَيْنِ، وَهُوَ مُحَالٌ. وَالْجَوَابُ عَنْ هَذَا بِالْمَنْعِ، فَلَا نُسَلِّمُ أَنَّهُ مَأْمُورٌ بِأَنْ يُؤْمِنَ بِأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَالِاسْتِطَاعَةُ الَّتِي بِهَا يَقْدِرُ عَلَى الْإِيمَانِ كَانَتْ حَاصِلَةً، فَهِيَ غَيْرُ عَاجِزٍ عَنِ

تَحْصِيلِ الْإِيمَانِ، فَمَا كُفِّفَ إِلَّا مَا يُطِيقُهُ كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ الْإِسْتِطَاعَةِ. وَلَا يَلْزَمُ قَوْلُهُ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ [البقرة: ٣١]، مَعَ عَدَمِ عِلْمِهِمْ بِذَلِكَ، وَلَا لِلْمُصَوِّرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»^(١)، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِتَكْلِيفِ طَلَبِ فِعْلٍ يُثَابُ فَاعِلُهُ وَيُعَاقَبُ تَارِكُهُ، بَلْ هُوَ خِطَابٌ تَعْجِيزِي.

وَكَذَا لَا يَلْزَمُ دُعَاءُ الْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦]؛ لِأَنَّ تَحْمِيلَ مَا لَا يُطَاقُ لَيْسَ تَكْلِيفًا، بَلْ يُجُوزُ أَنْ يُحْمَلَهُ جَبَلًا لَا يُطِيقُهُ فَيَمُوتَ. وَقَالَ ابْنُ الْأَثَرِيِّ: أَيُّ لَا تُحْمَلْنَا مَا يَثْقُلُ عَلَيْنَا أَدَاؤُهُ، وَإِنْ كُنَّا مُطِيقِينَ لَهُ عَلَى تَحْمِيلِ مَكْرُوهِهِ، قَالَ: فَخَاطَبَ الْعَرَبَ عَلَى حَسَبِ مَا تَعْقِلُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ يَقُولُ لِلرَّجُلِ يُبَغِضُهُ: مَا أُطِيقُ النَّظَرَ إِلَيْكَ، وَهُوَ مُطِيقٌ لِذَلِكَ لِكَيْتَهُ يَثْقُلَ عَلَيْهِ. وَلَا يُجُوزُ فِي الْحِكْمَةِ أَنْ يُكَلِّفَهُ بِحَمْلِ جَبَلٍ بِحَيْثُ لَوْ فَعَلَ يُثَابُ، وَلَوْ ائْتَنَعَ يُعَاقَبُ، كَمَا أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا.

قال الشيخ:

يدين أهل السنة بأن الله تعالى أمر القادرين، ولم يأمر العاجزين، أمرهم بما في وسعهم، ولم يأمرهم بما ليس في وسعهم، وإذا قيل: لماذا سُميت العبادات

(١) أخرجه البخاري (٢١٠٥)، ومسلم (٢١٠٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

تكاليف؟ نقول: سميت بذلك لكون الذي يفعلها يوصف بأنه مكلف، يعني: مأمور ومنهياً. ومع ذلك فليس في فعلها كلفة ولا مشقة، صحيح أن الكلفة هي الشيء الثقيل، كما قالت الخنساء في صخر^(١):

يُكَلِّفُهُ الْقَوْمُ مَا نَابَهُمْ وَلَوْ كَانَ أَصْغَرَهُمْ مَوْلِدًا
أي: إنهم يأمرونه بما ينوبهم، فيقوم بذلك، ولو كان أصغرهم، فدل على أنه يفعل شيئاً في إمكانه وقدرته.

ونحن نعتقد بأن الله تعالى لم يأمرنا إلا بما هو في الإمكان، ولم يكلف الإنسان إلا بما يستطيعه، فمثلاً الصيام، قد يقال إن فيه كلفة، خاصة في الأيام الشديدة الحر والطويلة، ولكن هو في الإمكان وفي الاستطاعة، غالباً أنهم قادرون على الإمساك إلى غروب الشمس، والقدرة على ذلك معتبرة، فإذا كان هناك مشقة فياتهم يفطرون، ومن أجل ذلك قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَتْ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، يعني: يفطر ويقضي في أيام أخرى. وإذا قلت: إن هناك بلاد يطول فيها النهار بحيث يكون ثمان عشرة ساعة، أو عشرين، أو نحوها، فصيام هذه الأيام فيه كلفة وفيه صعوبة. أجاب العلماء بأنهم يمكنهم إذا عجزوا أن يفطروا ويقضوه من أيام آخر، إذا قصر النهار أو توسط؛ لأنه أحياناً يقصر عندهم النهار فيصبح أربع ساعات، أو ست ساعات، ونحوها. فإذا ليس في الأمر مشقة.

(١) انظر: ديوان الخنساء (ص ٢٠).

وإذا قلت مثلاً: إنَّ الوضوء فيه مشقة فلماذا كلّف به؟ نقول: ليس فيه صعوبة، وإن كان الإنسان يجد برودة في الماء أو في الزمان، ولأجل ذلك إذا كان مريضاً لا يستطيع أن يتطهّر، فإنّه يعدلّ إلى التيمّم؛ لرفع الحرج. فليس في الشريعة شيء من الكلفة الشاقّة على العباد، بل المشقة تجلب التيسير، فالله سبحانه ما كلّف العباد إلاّ بما يطيقون، ولا يطيقون إلاّ ما كلّفهم به، ولا يطيقون الشيء الزائد على ذلك. صحيح أنّهم قد يطيقون أكثر من ذلك، فقد يقول قائل: الله ما أمر إلاّ بصيام شهر واحد، ونحن نطبق صوم شهرين، أو ستة أشهر أو نحو ذلك.

فالجواب: أنّ القدرة العامّة التي يشترك فيها النّاس عمومًا هي فرض هذا الشهر، أمّا القدرة الخاصّة؛ فالإنسان يتعبّد بقدر قدرته. معلوم أنّه لو فرض شهران أو ثلاثة أشهر، لشقّ على كثير من النّاس، ولو أنّ آخرين لا يشقّ عليهم، وكذلك لو فرض عليهم أن يحملوا الماء في الأسفار الطويلة لشقّ على كثير، وإن كان آخرون لا يشقّ عليهم. ويقال هكذا في سائر العبادات. فالعبادة إنّما كلّف الإنسان منها بما يستطيعه. فالمصلّي مأمور بأن يصليّ قائمًا، ولكنّه قد لا يستطيع، فيصلّي جالسًا، وكذلك قد يشقّ عليه أن يصليّ جالسًا، فينتقل إلى الصلاة على جنب. كما ورد ذلك في الأحاديث، فليس في الشريعة كلفة ولا مشقة، بل ما أمرنا الله إلاّ بما هو مقدور للعباد، والأدلة واضحة كما مرّ بنا: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وسعها: طاقتها، أو لا تكلف إلاّ قدرتها وطاقاتها وتمكّنها، فلا تكلف فوق ذلك ممّا يشقّ عليها.

فلو فرض الله على العباد أن يُخرجوا زكاة من أموالهم النصف في كل عام،
 لكان في ذلك شيء من الكلفة، يقول قائلهم: أنا جهدت بهذا المال، وتعبت فيه،
 وما حصلته إلا بعريقي، فكيف مع ذلك أعطيه هذا الذي ما تعب فيه؟ ولكن لما
 علم الله أن هناك من الضعفاء والعجزة والفقراء، جعل لهم حقاً في مال الأغنياء،
 وجعل ذلك الحق يسيراً لا يكلفهم، إذ ليس في ربع العشر كلفة، فهذا دليل على
 أن الشريعة جاءت بما في الاستطاعة، ولم يأت أمر فيه مشقة على النفوس.

معلوم أن هناك نفوساً ضعيفة، قد تتناقل عن الأشياء الخفيفة، وقد لا تصبر
 عن الشهوات المحرّمات، فهذه ليست عبرة، ولا يؤخذ بها. فلو قلت مثلاً: إن
 هناك أناساً يستثقلون الصلاة، ويستثقلون إذا قرأ الإمام بورقة أو ورقتين،
 فيقولون: أتعبنا وشق علينا وكلفنا، وكادت ظهورنا أن تقطع، وكادت أرجلنا أن
 تنهار. فهؤلاء لا نصدّقهم؛ لأننا نشاهدهم أقوياء وأشداء في أبدانهم، ونجدهم في
 المباريات أقوياء، وفي طلب الدنيا أشدّاء، فقولهم هذا غير صحيح.

كذلك هناك نفوس ضعيفة يقولون: إن منعنا عن شهواتنا تكليف بما
 لا يطاق. فيقولون: نفوسنا لا تصبر عن هذه الأفعال. فإن اشتدت بأحدهم
 الشهوة، لم يصبر إلا أن يزني مثلاً، أو يفجر، ويقول: إن تكليفي بالعفاف تكليف
 بما لا يطاق. وإن تكليفي بالصبر عما أشتهيه وتندفع إليه نفسي تكليف بما
 لا يطاق، وتكليفي بمنعي عن الخمر، تكليف بما لا تستطيع نفسي الصبر عنه.

سبحان الله! هذا تكليف بما لا يطاق؟ إذا منعنا الله عن الزنى، ومنعنا عن
 المسكرات مثلاً، فهل هو تكليف بما لا يطاق؟! الله تعالى ما حرّم علينا شيئاً إلا

وجعل له بدلاً يقوم مقامه، فأحلّ لنا من النكاح ما يقوم مقام الزنى، فيقول تعالى:
﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنٍ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾ [النساء: ٣]، ويقول:
﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، فكيف يقول
هذا: إن تكليفي بالتعفف وبالامتناع عنه تكليف بما لا أطيق؟ هذا كذب، بل
الإنسان يستطيع أن يقيم نفسه ويمنعها عن المحرمات، وليس عليه مشقة.

فعلى كل حال، نقول: هذه قاعدة مطردة، وهي أن التكاليف الشرعية ليس
فيها مشقة، سواء أكانت أفعالاً أم تروكاً. أشق ما فيها الجهاد مثلاً، الذي فيه
تعرض للقتل، ولكن لما علم المؤمنون بعاقبته الحميدة، وبما فيه من نصر للإسلام
وإعزاز له، هانت عليهم نفوسهم، ولما علموا بأنّ الرب يمدّهم ويقويهم، وينزل
عليهم الملائكة لتدافع معهم، ويخذل أعداءهم، كان ذلك دافعاً لهم إلى أن
يستمتتوا، ولما علموا أنّهم إذا قتلوا فهم أحياء عند ربهم، كان ذلك أيضاً دافعاً لهم
إلى التفاني في سبيل الله، ولما علموا أيضاً أن الأعداء من الكفار يقاتلون وهم على
كفرهم، وتهون عليهم أنفسهم وهم على كفرهم، كانوا هم أولى بذلك أن يفتدوا
دينهم الدين الصحيح، فإن كانوا هم يفتدون دينهم الباطل، فإننا نفتدي ديننا
الصحيح. ولأجل ذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا
تَالِمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْتُمُونَ كَمَا تَأْتُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

يعتقد المسلمون عموم قدرة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]. يدخل في ذلك الموجود والمعدوم، ويدخل في ذلك

الأعراض والجواهر، والحركات والأفعال والمخلوقات، كلُّها داخله في عموم قدرة الله تعالى، ولا يخرج عن قدرته شيء، ودلّ على ذلك الأدعية المأثورة؛ فمنه قول النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟»، قال: بلى، فقال: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»^(١)، تأمل هذه الجملة: لا حول: أي لا تحوّل لأحد من حال إلى حال إلا بالله، ولا قوّة: أي لا قدرة لأحد إلا بالله، فإن أقدره الله فهو قادر فاعل، فإن منعه، أو حال بينه وبين الفعل، فليس بقادر وليس بفاعل. هذه الكلمة كثيرًا ما يدين بها العباد، وكثيرًا ما يقولونها، وأهل السنة يدينون بمعناها، ويعتقدون أنّ الحول أي التحوّل والانتقال من الفقر إلى الغنى، أو من الضعف إلى القوّة، أو من القوّة إلى الضعف، ومن العطاء إلى المنع، ومن الهدى إلى الضلال وأضداد ذلك كلّها، الانتقال من حال إلى حال هو بقدرة الله وقوته، والقوّة معناها: الاستطاعة، والإنسان قوته التي يزاوّل بها الأعمال، هي من الله، فإذا شاء سلبك هذه القوّة، فجعلك عاجزًا مقعدًا، وإذا شاء منحك القوّة، وزادك قوّة على قوتك. فهو الذي خلق الإنسان ﴿مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤]، فالضعف الذي في المخلوق الإنساني مبدؤه أنّ الله خلقه ضعيفًا، ثمّ أمده بقوّة منه، فإذا شاء سلب هذه القوّة في أوانها وفي عنفوانها، وإذا شاء زادها ومكّنها. فما شاء الله لا بدّ أن

(١) أخرجه البخاري (٤٢٠٥)، ومسلم (٢٧٠٤).

يحصل ولو كره العباد كلهم، وما لم يشأه، فلا يحصل ولا يقع ولا يحدث ولو شأوه وأرادوه وحاولوه. فالحول حوله، والطول طوله، والقدرة منه سبحانه. فالعباد مأمورون، ولكن القوة التي يزاولون بها فعل الأوامر إمداد من الله، وكذلك هم منهيون، والقوة التي يمتنعون بها عن المنهيات، هي أيضًا من الله، فهو الذي يمدّمهم بالقوة التي يمارسون بها الأفعال، ويمدّمهم بالقوة التي تحميهم عن المنهيات.

وكذلك إذا نخذل من شاء من عباده، وفعل ما فعل من المعاصي والمحرمات، فذلك أيضًا بقضاء الله وقدره، ولو شاء لمنعهم من ذلك، ولحال بينهم وبينه، ولكن له الحكمة في ذلك، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، له التصرف في العباد، ولا يكون في الوجود إلا ما يريد، ولو شاء لهدى الناس أجمعين، ولو شاء لأضلّهم أجمعين، ولو هداهم لهداهم بفضلته، وإذا أضلّ من شاء فبحكمته وبعده.

لكن إذا هداك الله، وأهلك رشداً وسدّدك، فعليك أن تشكره على هذه الهداية، وأن تستعين بها أعطاك من القوة على الطاعة، فإذا رأيت من أضله الله، وحرمه من الخير، فإنك تحمد ربك على العافية، وتقول: الحمد لله الذي عافانا مما ابتلاهم به، وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً.

فله الأمر والنهي، وله القدرة التامة، وله التصرف في العباد، فهو الذي كلّفهم وأمرهم ونهاهم، وهو الذي أعطاهم ومنعهم، وهو الذي يهدي ويضلّ، ويُسعد ويُشقي، لا رادّ لقضائه، ولا مُعقّب لحكمه. وإذا منّ الله على بعض العباد، فإنّ

ذلك فضل منه، وعليهم أن يشكروه على هذا الفضل، وإذا خذل بعضًا من العباد، وسلط عليهم الشهوات، وخلّى بينهم وبين أنفسهم، وسلط عليهم أهواءهم، فذلك حكمة منه وعدل، فما حصل للمهتدين محض فضل منه ونعمة يجب أن يشكروه عليها، وما حصل للضالين من خذلان، فهو حكمته يجب عليهم أن يعرفوا السبب، فالسبب من أنفسهم، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، ويقول تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، أي: إنّه يستحق ذلك بسبب ما جُبل عليه، وبسبب الخلق الذي علم الله أنّه لا يناسبه إلا أن يجرمه ويجول بينه وبين الهداية، فهو الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها.

ومرّ بنا قوله: بأنّ الله تعالى كلّف العباد بما يطيقون، وأنّهم لا يطيقون إلا ما كلّفهم، ولم يكلفهم إلا ما في قدرتهم وما في وسعهم، فهو سبحانه لم يأمر العباد بما هو مستحيل، وبما يعجزون عن تطبيقه، ولا عن فعله، ولم يأمرهم إلا بالشيء الذي في وسعهم وفي قدرتهم وطاقتهم، لا يخرج عن إرادتهم. ولو كلّفهم بما يعجزون عنه، لكان لهم حجة أنّهم لا يستطيعون ذلك، ولا جرم أن يقال حينذاك: كيف يطيقون الشيء الذي فوق قدرتهم. وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فإذا علم العباد بذلك، ونظروا بأنّ التكاليف التي أمروا بها سهلة ويسيرة، ليس فيها مشقة، ولو استثقلت هذا بعض النفوس، فإنّ تلك النفوس التي تستثقلها، إنّما أتيت من ضعف في النفس،

لا أن ذلك عجز حسی كما هو مشاهد. ولأجل ذلك نجد أن الاثنين يتفاوتان في العبادة، أحدهما يفرح بطول الصلاة ويلتذ بذلك ويعجبه، وآخر يستثقل ذلك ولو كانت الصلاة خفيفة مع كونه بديناً قوياً. فهذا تفاوت من ضعف النفوس، لا أنه تكليف بما يعجز البشر.

قال الشارح:

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: يُجُوزُ تَكْلِيفُ الْمُتَنَعِ عَادَةً، دُونَ الْمُتَنَعِ لِذَاتِهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَتَّصِرُ وَجُودَهُ، فَلَا يُعْقَلُ الْأَمْرُ بِهِ، بِخِلَافِ هَذَا.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: مَا لَا يُطَاقُ لِلْعَجْزِ عَنْهُ لَا يُجُوزُ تَكْلِيفُهُ، بِخِلَافِ مَا لَا يُطَاقُ لِلِاسْتِغَالِ بِضِدِّهِ، فَإِنَّهُ يُجُوزُ تَكْلِيفُهُ. وَهُوَ لِأَنَّ مَوَافِقُونَ لِلْسَّلَفِ وَالْأَيِّمَةِ فِي الْمَعْنَى، لَكِنَّ كَوْنَهُمْ جَعَلُوا مَا يَتْرُكُهُ الْعَبْدُ لَا يُطَاقُ لِكَوْنِهِ تَارِكًا لَهُ مُسْتَغَلًّا بِضِدِّهِ، بِدَعَا فِي الشَّرْعِ وَاللُّغَةِ. فَإِنَّ مَضْمُونَهُ أَنَّ فِعْلَ مَا لَا يَفْعَلُهُ الْعَبْدُ لَا يُطِيقُهُ! وَهُمْ التَّزَمُوا هَذَا، لِقَوْلِهِمْ: إِنَّ الطَّاقَةَ - الَّتِي هِيَ الْإِسْتِطَاعَةُ وَهِيَ الْقُدْرَةُ - لَا تَكُونُ إِلَّا مَعَ الْفِعْلِ! فَقَالُوا: كُلُّ مَنْ لَمْ يَفْعَلْ فِعْلًا، فَإِنَّهُ لَا يُطِيقُهُ! وَهَذَا خِلَافُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ، وَخِلَافُ مَا عَلَيْهِ عَامَّةُ الْعُقَلَاءِ، كَمَا تَقَدَّمَ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ عِنْدَ ذِكْرِ الْإِسْتِطَاعَةِ.

وَأَمَّا مَا لَا يَكُونُ إِلَّا مُقَارِنًا لِلْفِعْلِ، فَذَلِكَ لَيْسَ شَرْطًا فِي التَّكْلِيفِ، مَعَ أَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هُنَاكَ إِرَادَةُ الْفِعْلِ. وَقَدْ يَحْتَجُّونَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ [هود: ٢٠]، ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧]، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ إِرَادَةُ مَا سَمَّوْهُ اسْتِطَاعَةً، وَهُوَ مَا لَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ الْفِعْلِ، فَإِنَّ اللَّهَ ذَمَّ هَؤُلَاءِ عَلَى كَوْنِهِمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ، وَلَوْ أَرَادَ بِذَلِكَ الْمُقَارِنَ لَكَانَ جَمِيعُ الْخَلْقِ لَا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ قَبْلَ السَّمْعِ! فَلَمْ يَكُنْ لِيَتَخَصَّصَ هَؤُلَاءِ بِذَلِكَ مَعْنَى، وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ لِبُغْضِهِمُ الْحَقَّ وَثِقَلِهِ عَلَيْهِمْ، إِمَّا حَسَدًا لِصَاحِبِهِ، وَإِمَّا اتِّبَاعًا

لِلْهُورَى، لَا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ. وَمُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَا يَسْتَطِيعُ الصَّبْرَ،
لِمُخَالَفَةِ مَا يَرَاهُ لِظَاهِرِ الشَّرْعِ، وَلَيْسَ عِنْدَهُ مِنْهُ عِلْمٌ. وَهَذِهِ لُغَةُ الْعَرَبِ وَسَائِرِ
الْأُمَمِ، فَمَنْ يُبْغِضُ غَيْرَهُ يُقَالُ: إِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ الْإِحْسَانَ إِلَيْهِ، وَمَنْ يُحِبُّهُ يُقَالُ: إِنَّهُ
لَا يَسْتَطِيعُ عُقُوبَتَهُ، لِشِدَّةِ حُبِّتِهِ لَهُ، لَا لِعَجْزِهِ عَنْ عُقُوبَتِهِ، فَيُقَالُ ذَلِكَ لِلْمُبَالَغَةِ،
كَمَا تَقُولُ: لَا ضَرْبَنَّهُ حَتَّى يَمُوتَ، وَالْمُرَادُ الضَّرْبُ الشَّدِيدُ، وَلَيْسَ هَذَا عُدْرًا،
فَلَوْ لَمْ يَأْمُرِ الْعِبَادَ إِلَّا بِمَا يَهْوَوْنَهُ، لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ
أَتَّبَعَ الْإِنْسَانُ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

قال الشيخ:

هذا معاتبه ومجادلة لبعض المبتدعة، وأنه لا فائدة فيه ولا طائل تحت هذه
المجادلة؛ لأنها أقوال تخالف المحسوس وتخالف المعقول؛ وذلك لأن العبد قد
أعطى قوة، وتلك القوة كامنة فيه، وأنه بواسطتها يستطيع أفعالاً وإن لم يفعلها،
فهؤلاء المبتدعة من جبرية وقدرية، ونحوهم، عندهم أن الأفعال التي لم تفعل
ولو كانت سهلة توصف بأنها غير مقدورة للعبد؛ فإذا رأوا إنساناً كافراً قالوا: هذا
لا يقدر أن يؤمن، مع أنه قادر. وإذا رأوا إنساناً لا يصلي قالوا: هذا غير قادر على
الصلاة، مع أنه يقدر. فكل شيء لم يفعله الإنسان مع قدرته عليه، يقولون: إنه
لا يقدر عليه، مع أنه قادر، وهذا يخالف الحسّ ويخالف الظاهر.
فمثلاً: أنت لو رأيت إنساناً قويّ البنية وقويّ البدن تستطيع أن تقول: إنه

يستطيع أن يحمل كيسًا أو كيسين، ولو لم يحملهما، ويكون ذلك أيضًا فيها سخر الله من الدواب التي تتركب، فتقول في جمل ما: إنه يستطيع أن يحمل مائة صاع، ولو أنه ما حُمّل عليه، فالاستطاعة والحمل ليس لما حصل ولما فعل، بل لما كمن فيه واستقرّ من الوصف، ويستطيعه ولو لم يباشره.

فهؤلاء المبتدعة لو رأوا إنسانًا ما قرأ، قالوا: هذا لا يستطيع القراءة، وليس في وسعه أن يقرأ. فإن وجد إنسان لا يحرث، قالوا: هذا لا يستطيع أن يحرث، أو أن يفرس، أو أن يرعى الإبل، هذا بالنسبة للأفعال المحسوسة.

ويقال كذلك أيضًا في الأعمال؛ سواء أكانت طاعات أم معاص، فالطاعات كمن يقولون لمن لم يصم: هذا لا يستطيع الصوم، ولو كان يستطيع الصوم لصام، مع أنه قادر وقوي. وكمن لا يستطيع أن يطعم الطعام، أو يخرج النفقة كما يفعل مثله، مع أنه غني وذو مال، وقالوا: لو كان يستطيع أن يخرج لأخرج، ولو كان يستطيع أن يتصدق لتصدق، كأثمهم يقولون: إنه لا يستطيع؛ لكون الله حال بينه وبين هذه الصدقة. الله تعالى أمره بالصدقة الواجبة في الزكاة والكفارة والنفقة على الأهل والولد وغير ذلك، ومع ذلك بخل بها، فهو قادر، ولو لم يكن قادرًا ما أمره الله بذلك، ولو لم يكن قادرًا على الصوم ما أمره.

فالله أمر الناس الذين يستطيعون الصوم، فمنهم من صام، ومنهم من لم يصم، وقد أمر الناس كلهم بالصلاة، فمنهم من صلى ومنهم من لم يصل. فلا يقال لمن لم يصل: هذا لا يستطيع الصلاة، لو كان يستطيع لصلى، نقول: بل هو مستطيع، ولكن حيل بينه وبينها، فهو محروم - والعياذ بالله - ويوصف بأنه

عاصٍ، ويعاقبُ على عصيانه، كما يعاقب على تلك الأفعال.
ويقولون كذلك في المنهيات، فيقولون فيمن زنى مثلاً أو ارتشى أو سكر:
لا يستطيع ترك هذا، ولو كان يستطيع تركه لما فعله.

نقول: بل يستطيعه، ولو لم يستطعه ما نهى عنه، فالله تعالى ما نهى إلا من
عنده قدرة على الانزجار وترك الشيء المنهي عنه. كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا
الزَّيْفَةَ﴾ [الإسراء: ٣٢]، فلو كانوا عاجزين عن الترك ما نهاهم، وقوله: ﴿وَلَا
تَقْتُلُوا النَّفْسَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ولو كانوا عاجزين عن ذلك ما نهاهم عنه.
وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ [الأنعام: ١٥١]، لو كانوا لا يستطيعون
ترك القتل ما نهاهم عنه.

وكذا يقال في الطاعات: لو كانوا عاجزين عن الصلاة لما أمروا بها، ولو كانوا
عاجزين عن الطهارة ما أمروا بها، فإن الله لا يأمر إلا بما هو مقدور، لا يأمر
بالشيء المستحيل، أو الثقيل على النفس، الذي يكون فوق طاقتها، وبذلك نعرف
أن هذا القول قول مخالف للعقل، حتى في عرف الناس.

فلو كان لك ولد نشيط قوي، فإنك تقول له: يا ولدي اذهب فاشتر لنا
طعامًا، فإذا ذهب واشترى فقد أطاع، فإن لم يذهب، فهل يقال بأنه ليس
بمستطيع، أو يقال: هو عاصٍ لأبيه!!

ولو كان لك ولد مريض أو مقعد، هل تأمره أن يذهب إلى السوق ليشتري
لك حاجة؟ كيف تأمره وهو مريض مقعد لا يستطيع؟ فهذا يدل على أن الله

ما أمر إلا من هو مستطيع، ولأجل ذلك أسقط الحرج عن غير المستطيع، فلما أمر بالجهاد في سبيل الله أسقطه عن أهل الأعذار، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ [الفتح: ١٧]، يعني: لا حرج عليهم في ترك القتال؛ لعجزهم عن ذلك. وقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمُرْضِيِّ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١]، أي: لا حرج عليهم إذا لم يخرجوا للجهاد. فدلّ على أنّه ما أمر إلا المستطيع ومن عنده قدرة، وبذلك نعرف أنّ التكاليف إنّما هي على حسب قدرة العباد، لم يأمرهم الله إلا بما هو في طاقتهم وفي وسعهم.

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (وَلَا يُطِيقُونَ إِلَّا مَا كَلَّفَهُمْ بِهِ)، إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ، أَي: وَلَا يُطِيقُونَ إِلَّا مَا أَقْدَرَهُمْ عَلَيْهِ. وَهَذِهِ الطَّاقَةُ هِيَ الَّتِي مِنْ نَحْوِ التَّوْفِيقِ، لَا الَّتِي مِنْ جِهَةِ الصَّحَّةِ وَالْوُسْعِ وَالتَّمَكُّنِ وَسَلَامَةِ الْأَلَاتِ، وَ«لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»، دَلِيلٌ عَلَى إِبْتِنَاتِ الْقَدْرِ. وَقَدْ فَسَّرَهَا الشَّيْخُ بَعْدَهَا.

وَلَكِنْ فِي كَلَامِ الشَّيْخِ إِشْكَالٌ، فَإِنَّ التَّكْلِيفَ لَا يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى الإِقْدَارِ، وَإِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى الأَمْرِ وَالتَّنْهِي، وَهُوَ قَدْ قَالَ: (لَا يُكَلِّفُهُمْ إِلَّا مَا يُطِيقُونَ، وَلَا يُطِيقُونَ إِلَّا مَا كَلَّفَهُمْ)، وَظَاهِرُهُ أَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى مَعْنَى وَاحِدٍ، وَلَا يَصِحُّ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ يُطِيقُونَ فَوْقَ مَا كَلَّفَهُمْ بِهِ، لَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ يُرِيدُ بِعِبَادِهِ الْيُسْرَ وَالتَّخْفِيفَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمُ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. فَلَوْ زَادَ فِيهَا كَلَّفَنَا بِهِ لِأَطْقَنَاهُ، وَلَكِنَّهُ تَفَضَّلَ عَلَيْنَا وَرَحِمَنَا، وَخَفَّفَ عَنَّا، وَلَمْ يَجْعَلْ عَلَيْنَا فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ. فَفِي الْعِبَارَةِ قَلْبٌ، فَتَأَمَّلْهُ.

وَقَوْلُهُ: (وَكُلُّ شَيْءٍ يَجْرِي بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ وَقَضَائِهِ وَقَدْرِهِ)، يُرِيدُ بِقَضَائِهِ: الْقَضَاءَ الْكُونِيَّ لَا الشَّرْعِيَّ، فَإِنَّ الْقَضَاءَ يَكُونُ كُونِيًّا وَشَرْعِيًّا، وَكَذَلِكَ الإِرَادَةُ وَالْأَمْرُ وَالِإِذْنُ وَالكِتَابُ وَالْحُكْمُ وَالتَّحْرِيمُ وَالكَلِمَاتُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

أَمَّا الْقَضَاءُ الْكُونِيُّ، فَنَفْسِي قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقَضَيْنَاهُمْ سَبْعَ مَمَوَاتٍ فِي

يَوْمَيْنِ ﴿ [فصلت: ١٢].

وَالْقَضَاءُ الدِّينِي الشَّرْعِي، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾
[الإسراء: ٢٣].

وَأَمَّا الإِرَادَةُ الكَوْنِيَّةُ وَالدِّينِيَّةُ، فَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا عِنْدَ قَوْلِ الشَّيْخِ: (وَلَا
يَكُونُ إِلَّا مَا يُرِيدُ).

وَأَمَّا الأَمْرُ الكَوْنِيُّ، فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ
فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا
فَتَفْسُقُوا فِيهَا فَهَوَّاهُمْ عَلَيْهَا أَلْقَوْا قَدْرَ مَرْنَهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]، فِي أَحَدِ الأَقْوَالِ، وَهُوَ
أَقْوَاهَا.

وَالأَمْرُ الشَّرْعِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل:
٩٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

وَأَمَّا الإِذْنُ الكَوْنِيُّ، فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ
اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وَالإِذْنُ الشَّرْعِيُّ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْتِهِ أَوْ تَرَكَتُمْوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ
أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٥].

وَأَمَّا الكِتَابُ الكَوْنِيُّ، فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُصْمَرُ مِنْ مُصَمَّرٍ وَلَا يُنْقَسُ مِنْ عُمُرِيهِ
إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ

مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنْتَ الْأَرْضَ بِرِثْهَا عِبَادِيَ الصَّالِحِينَ ﴿ [الأنبياء: ١٠٥].

وَالكِتَابُ الشَّرْعِيُّ الدِّينِيُّ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَكَلَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ
بِالنَّفْسِ ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وَأَمَّا الْحُكْمُ الْكُونِيُّ، فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ ابْنِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ فَلَنْ
أُتْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ إِبْرَاهِيمُ أَوْ يَتَّكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْفَاتِكِينَ ﴾ [يوسف: ٨٠].

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قُلْ رَبِّ أَسْكُرْ بِالْحَقِّ وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾
[الأنبياء: ١١٢].

وَالْحُكْمُ الشَّرْعِيُّ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ
غَيْرَ مَجْلِيِّ الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حَرَامٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة: ١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ [المتحنة: ١٠].

وَأَمَّا التَّحْرِيمُ الْكُونِيُّ، فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً
يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [المائدة: ٢٦]. ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْبَةٍ أَهْلُكُنْهَا أَنَّهُمْ لَا
يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٥].

وَالتَّحْرِيمُ الشَّرْعِيُّ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ ﴾
[المائدة: ٣]. ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾ الآية [النساء: ٢٣].

وَأَمَّا الْكَلِمَاتُ الْكُونِيَّةُ، فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَوَعَدْتُمْ كَلِمَتَ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي
إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وَفِي قَوْلِهِ ﷺ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ

التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ»^(١).

وَالكَلِمَاتُ الشَّرْعِيَّةُ الدِّيْنِيَّةُ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أُنزِلَ إِلَيْهِ عَرِّضَةٌ بِكَلِمَاتٍ فَآتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤].

قال الشيخ:

نعرف أن الله تعالى رحيم بعباده، وأنه ما أمرهم إلا بما يطيقونه، ولو أمرهم بزيادة عليه لأطاقوه، ولكنه رَحِمَهُمْ ولم يكلفهم ما فيه مشقة عليهم. فلو فرض الصيام شهرين، لقدروا على ذلك، ولكن قد يكون فيه مشقة. ولو فرض عليهم في الطهارة الاغتسال بدل الوضوء، لقدروا عليه، ولكن فيه مشقة. ولو فرض عليهم كل يوم عشر صلوات، لقدروا عليه، ولكن فيه مشقة. وكذلك لو فرض عليهم الحج مرتين في العمر أو أكثر، لاستطاع كثير منهم ذلك، ولكن مع مشقة، ولو فرض عليهم في الزكاة خمس المال، لاستطاع كثير منهم ذلك ولكن كان فيه مشقة. فلاجل ذلك خفف الله عنهم.

ولمَّا فرض عليهم أن يثبت العشرة للمئة في الجهاد، وأن تثبت المئة للألف، ولا يفرون منهم، علم أن في ذلك شيئاً من المشقة، فخفف عنهم إلى ألا يفرون الواحد من اثنين، وأنزل أو لا قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَقْلِبُوا

(١) تقدم تحريجه (٤٨/٢).

وَأَثْنَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا ﴿ [الأنفال: ٦٥]، الواحد يغلب عشرة، ثم بعد ذلك خفف عنهم: ﴿ أَكُنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّكُمْ صَعَفَاءُ فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾، الواحد يغلب اثنين، بشرط الصبر، ﴿ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٦]، فأخبر بأنهم يقدرون ولكن خفف عنهم، يعني: إذا كانوا صابرين محتسبين غلبوهم بإذن الله، وقد وقع ذلك: فأهل بدر غلبوا المشركين مع أنهم أضعافهم، أي ثلاثة أمثالهم، ولكن هزموهم بإذن الله. وكذلك حكى الله عن طالوت ومن معه أنهم قالوا: ﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وحكى عن الذين يظنون أنهم ملاقوا الله قولهم: ﴿ كُمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

والحاصل: أنه سبحانه وتعالى كلف العباد بما يقدرون عليه، بل على أكثر منه، وإنما أمرهم بما فيه يسر وسهولة، دون حرج ومشقة. فلما أمرهم بالطهارة بالماء، علم أن فيهم مرضى لا يستطيعون استعمال الماء، وعلم أن فيهم مسافرون لا يستطيعون حمل الماء في الصحراء، فأباح لهم التيمم، ثم قال بعد ذلك: ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ [المائدة: ٦]، فلو أراد أن يشق عليكم لأمركم بحمل الماء في الأسفار، ولكنه لم يرد أن يجرّجكم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨]. ولما أمر بالصيام، علم أن هناك من يشق عليهم من مرضى ومسافرين، فأباح لهم الفطر وقال:

﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَنْكَارِ أَخَرَ﴾، ثم قال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، أي: لا يشق عليكم ويأمركم بما فيه كلفة وتعب، فعلم بذلك أن هذه التكاليف التي أمرهم بها هي في وسعهم وقدرتهم وطاقتهم. هذا بالنسبة إلى الأفعال المأمور بها.

ويقال كذلك في الأفعال المنهي عنها، فالذنوب والمعاصي المنهي عنها، يقدرون على تركها، ولو كان هناك من يقول: إنه لا يستطيع تركها، فإنه غير صادق، وقد أشرنا إلى ذلك فيما مضى.

بعد ذلك مرّ بنا أن الشارح تكلم على الشرعي والقدري، يعني: أن الله سبحانه وتعالى له القضاء والقدر، وله الشرع والأمر. فالمراد بالشرع: هو الذي يكلف به، ويأمر به. والمراد بالقدر والقضاء: هو الذي قضاه أولاً وكتبه وقدره في عالم الغيب، ولم يختر فيه، بل جعله أمراً أزلياً مقدراً مخلوقاً.

فالإرادة مثلاً: شرعية وقدرية، والأمر: شرعي وقدري، والإذن: شرعي وقدري، والحكم: شرعي وقدري، والكتابة: شرعية وقدرية، والكلمات: شرعية وقدرية، وأدلتها مرّت في كلام الشارح رحمه الله. والفرق بينهما أن الأمر الشرعي مكلف العباد به، فإذا أمرهم أمراً شرعياً فإيتهم يمثّلونه، والأمر القدري: إذا أخبر بأن هذا أمر مقدّر عليهم، أزلي، فإنه لا يطلب منهم فعله؛ لأنه حكمه وقدره.

ويقال كذلك في التحريم، فإذا قيل: ما الفرق بين التحريم القدري والتحريم

الشرعي؟ فالجواب: التحريم القدري: إخبار بأن هذا الشيء لا يكون، وأن الله حرّمه ومنعه بحيث لا يُتصوّر ولا يكون أبداً. وأمّا التحريم الشرعي: فهو نهي، يعني: نهى الله العباد عن أن يفعلوا هذه الأشياء، وأخبرهم بأنّها محرّمة عليهم، والتحريم هو المنع، أي منعناكم من هذه الأشياء، كقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، وليس هذا مثل قوله: ﴿وَحَرَّمْ عَلَى قَرَبِي أَهْلَكُنَّهَا﴾ [الأنبياء: ٩٥]؛ لأن هذا معناه أن الله قدّر أنّها لا تعود، وجعل ذلك ممتنعاً أصلاً.

عرفنا بذلك أن هناك فرقاً ظاهراً بين الأوامر الشرعيّة والقدريّة، وبين الإذن الشرعيّ والقدريّ، وما أشبه ذلك. والذي يهّمنا أن نؤمن بالقدريّ، ونؤمن بأنّه حقّ وصدق، نقول: هذا قدرُ الله، وهذه كتابة الله، وهذا تقديره علينا لا مفرّ لنا منه، هذا حكمه الأزليّ على العباد. وأمّا الشرعي: فإننا نمثله ونعمل به، فإنّ قوله مثلاً: ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾ [المائدة: ٤٥]، كتب في الألواح، أي: أوامر شرعيّة، ومنها: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ...﴾ إلى آخره. بخلاف قوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، أي: في الأمور السابقة. والفرق بينهما: أن الشرعيّ يدين به العباد ويعملون به، والقدريّ يؤمنون به ويحتقدونه.

ولم يعرف أكثر المبتدعة الفرق بينها، ووقعوا في الخطأ وفي الضلال، فإنهم لما لم يفرّقوا بين الإرادة الشرعيّة والإرادة القدريّة، جعلوا الجميع مراداً لله، وجعلوا إرادة الله للمعاصي رضياً بفعلها، فقالوا: إنّ الله لو ما أرادها لما حصلت، ولو أراد

الطاعات لحصلت. نقول: إن هذه إرادة قدرية فلا تقيسوها بالإرادة الشرعية ومرت بنا أدلتها، فإن دليل الإرادة الشرعية هو قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٨]، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]، هذه شرعية. بخلاف قوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحْكِمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]. فهذه إرادة قدرية، دالة على أن قدرة الله تعالى أزلية قديمة، وأن العبد ليس له مفر مما قدره عليه. فكذا يكون الفرق بينهما، ويعرف العبد ما هو مأمور بفعله، وما هو مأمور باعتقاده.

يقول النبي ﷺ في خطبة الحاجة: «مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلِّهِ فَلَا هَادِيَ لَهُ»^(١)، ولا شك أن الهداية بيد الله تعالى وكذا الإضلال، من هداه الله فذلك نعمة من الله عليه، ومن أضله الله فلم يظلمه، وليس للعبد حجة على الله، بل لله الحجة البالغة، فإذا شاء هدى، وإذا شاء أضل، ومن هداه الله فقد أنعم عليه، وهدايته له فضل منه، ومن أضله الله فإنه عدل منه، وإنه تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وأيضاً هو المنعم المتفضل على خلقه.

ورد في بعض الأحاديث: «لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ لَهُمْ خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ»^(٢). خيراً من أعمالهم وفضلاً منه. وهو تعالى قد تبرّزه عن الظلم في الحديث القدسي:

(١) تقدم تخريجه (١/٦٦).

(٢) تقدم تخريجه (٤/٣٧٣).

«يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا»^(١).
وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، فإذا أهلك العباد، أو سلط بعضهم على بعض، أو سلط عليهم عقوبة ساءية، أو عاقبهم بالنار، كان ذلك غير ظلم، بل هم يستحقون ذلك، فإنه لا يمكن أن يعذبهم إلا بظلم منهم. يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، فالله لا يهلكهم ظلماً منه لهم، ولا يهلكهم حتى يقيم عليهم الحجة، وكذلك أيضاً إذا أنعم عليهم فهو المتفضل.

وكان النبي ﷺ يقول في دعائه بعد الصلاة: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، لَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، لَهُ الْمَنُّ، وَلَهُ النُّعْمَةُ، وَلَهُ الْفَضْلُ وَالثَّنَاءُ الْحَسَنُ»^(٢)، فالنعمة منه وحده، والتفضل على الخلق منه وحده، والمنّ منه وحده. ومن أجل ذلك كان له الثناء الحسن وحده. فنعم الله كثيرة: ﴿وَمَا يَكُم مِّن تَقْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥]، فما أصابنا من نعمة فهو محض فضل الله، ومحض منه على عباده، وليس هو باكتسابنا، ولا باستحقاقنا، بل أعمالنا تضعف عن أن نستحق هذا الفضل وهذه النعمة، ولكن هو الذي يتفضل علينا بالنعمة والخيرات والتمكين والعتاء

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر ؓ.

(٢) تقدم تخريجه (٤/٣٩٤).

والصحة والإعزاز. أو يسأل على من يشاء ما يشاء من المصائب والعقوبات، وكل ذلك محض عدله.

وعلى هذا فإن المسلم يعتمد على ربه، ويأتي بالأسباب التي تؤهله أن يكون من أهل الفضل، وتؤهله أن يستحق أن يكون أهلاً للنعمة والخير، ويتعد عن التَّقم والعقوبات التي تكون سبباً للعذاب، فإنه قد رتب للنعم أسباباً وهي الأعمال الصالحة، وجعلها سبباً لتفضله، فلنأت بالأسباب التي يرحمنا الله بسببها، ورتب للعقوبات أسباباً، وهي المعاصي، فلنبتعد عن أسباب العقوبات وهي المعاصي، حتى نسلم من العقاب ونحظى بالشواب.

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ أَبَدًا)، الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنْ تَنْزِيهِ اللَّهِ نَفْسَهُ عَنِ ظُلْمِ الْعِبَادِ، يَقْتَضِي قَوْلًا وَسَطًا بَيْنَ قَوْلِي الْقَدْرِيَّةِ وَالْجَبْرِيَّةِ، فَلَيْسَ مَا كَانَ مِنْ بَنِي آدَمَ ظُلْمًا وَقَبِيحًا يَكُونُ مِنْهُ ظُلْمًا وَقَبِيحًا، كَمَا تَقُولُهُ الْقَدْرِيَّةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ وَنَحْوُهُمْ! فَإِنَّ ذَلِكَ تَمَثِيلٌ لِلَّهِ بِخَلْقِهِ! وَقِيَاسٌ لَهُ عَلَيْهِمْ! هُوَ الرَّبُّ الْغَنِيُّ الْقَادِرُ، وَهُمْ الْعِبَادُ الْفُقَرَاءُ الْمَقْهُورُونَ. وَلَيْسَ الظُّلْمُ عِبَارَةً عَنِ الْمُتَمَنِّعِ الَّذِي لَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْقُدْرَةِ، كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُهُ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَغَيْرِهِمْ، يَقُولُونَ: إِنَّهُ يُمْتَنَعُ أَنْ يَكُونَ فِي الْمُمْكِنِ الْمَقْدُورِ ظُلْمًا! بَلْ كُلُّ مَا كَانَ مُمَكِّنًا فَهُوَ مِنْهُ. لَوْ فَعَلَهُ - عَدْلًا؛ إِذِ الظُّلْمُ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ مَأْمُورٍ مِنْ غَيْرِهِ مَنْهِيًّا، وَاللَّهِ لَيْسَ كَذَلِكَ.

فَإِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا ظَلَمْتُهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُحْزِنُ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧]. يَدُلُّ عَلَى تَقْبِيضِ هَذَا الْقَوْلِ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ الَّذِي رَوَاهُ عَنْهُ رَسُولُهُ: «يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى

نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَنْظَالُمُوا»^(١). فَهَذَا دَلٌّ عَلَى شَيْئَيْنِ:
 أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ حَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ الظُّلْمَ، وَالْمُتَمَتِّعُ لَا يُوصَفُ بِذَلِكَ.
 الثَّانِي: أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ حَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ، كَمَا أَخْبَرَ أَنَّهُ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ،
 وَهَذَا يُبَيِّنُ اجْتِنَابَهُمْ بِأَنَّ الظُّلْمَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ مَأْمُورٍ مِنْهُ، وَاللَّهُ لَيْسَ
 كَذَلِكَ. فَيُقَالُ لَهُمْ: هُوَ سُبْحَانَهُ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، وَحَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ الظُّلْمَ،
 وَإِنَّمَا كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ وَحَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ مَا هُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، لَا مَا هُوَ مُتَمَتِّعٌ عَلَيْهِ.
 وَأَيْضًا: فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَلَا تَحَافُظُوا ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، قَدْ فَسَّرَهُ
 السَّلَفُ، بِأَنَّ الظُّلْمَ: أَنْ تُوضَعَ عَلَيْهِ سَيِّئَاتُ غَيْرِهِ، وَالْهَضْمُ: أَنْ يُنْقَصَ مِنْ
 حَسَنَاتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُزِدُوا زِينَةً وَلَا تُزِدُوا أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤].

قال الشيخ:

توضيح لما حكاه عن المعتزلة الذين يقولون: إن الظلم هو غير المقدور عليه،
 الظلم الذي نزه الله نفسه عنه، هو الشيء الذي لا يمكن ولا يُقدر عليه؛ لأن معتقد
 هؤلاء المتكلمين من المعتزلة: أن العبد هو الذي يهدي نفسه، أو يضلها، والله
 لا يقدر أن يضل هذا، ولا يهدي هذا، ويجعلون الله عاجزاً، ويوجبون على الله أن
 يثيب المطيع، فيجعلون ذلك حقاً عليه، والله تعالى ليس عليه حقّ لعباده.

(١) تقدم ترجمته (٤/ ٤٣٠).

يقول بعضهم^(١):

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ كَلَّا وَلَا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعٌ
 إِنَّ عُدُّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نَعَّمُوا فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الْكَرِيمُ الْوَاسِعُ

وعلى هذا كونهم يوجبون على الله أن يثيب هذا، ويحرمون عليه أن يعاقب هذا، ويجعلون هذا مستحقاً بعمله، ولا يجعلون الله تصرفاً ولا يجعلون له منة، ولا يجعلون له فضلاً على عباده ورحمة، لا شك أن هذا تصرف في أفعال الخالق سبحانه. فمن أجل ذلك ردّ عليهم الشارح، ويبيّن أن الظلم الذي نفاه الله تعالى عن نفسه، ليس بممتنع ولا هو مستحيل، بل هو مقدور، ولكن الله تعالى لا يفعله، لكونه غير مستحسن، بل هو أمر مستهجن ومستقبح.

ولذلك نزه الله نفسه في هذه الآيات، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، دليل على أنه قادر على أن يظلم، ولكنه منزه عن ذلك. وكذلك قوله: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، لا يخاف ظلماً بأن يحمل عليه سيئات لم يعملها، ولا هضمًا: أي نقصاً من حسنات قد عملها، بل الله تعالى أعدل من العباد، ولا يمكن أن يظلم هذا فينقصه، أو يظلمه فيزيد في سيئاته، بل له الفضل عليه، فيضعف الحسنات ويمحو السيئات، ومن أوبقته سيئاته، فهو الموبق، ولا يهلك على الله إلا هالك.

(١) راجع (٤/٣٤٥).

قال الشارح:

وَأَيْضًا فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَخَافُ الْمُتَمَتِّعَ الَّذِي لَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْقُدْرَةِ حَتَّى يَأْمَنَ
 مِنْ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا يَأْمَنُ بِمَا يُمَكِّنُ، فَلَمَّا أَمِنَهُ مِنَ الظُّلْمِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا يَخَافُ﴾
 [طه: ١١٢]، عَلِمَ أَنَّهُ مُمَكِّنٌ مَقْدُورٌ عَلَيْهِ. وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ:
 ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْقَيْدِ﴾ [ق: ٢٨، ٢٩]، لَمْ يَعْنِ بِهَا نَفْسِي مَا لَا يُقَدَّرُ عَلَيْهِ وَلَا يُمَكَّنُ
 مِنْهُ، وَإِنَّمَا نَفَى مَا هُوَ مَقْدُورٌ عَلَيْهِ مُمَكِّنٌ، وَهُوَ أَنْ يُجْزَوْا بِغَيْرِ أَعْمَالِهِمْ. فَعَلَى قَوْلِ
 هَؤُلَاءِ لَيْسَ اللَّهُ مُنَزَّهًا عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْأَفْعَالِ أَصْلًا، وَلَا مُقَدَّسًا عَنْ أَنْ يَفْعَلَهُ،
 بَلْ كُلُّ مُمَكِّنٍ فَإِنَّهُ لَا يُنَزَّهُ عَنْ فِعْلِهِ، بَلْ فِعْلُهُ حَسَنٌ، وَلَا حَقِيقَةَ لِلْفِعْلِ السُّوِّءِ،
 بَلْ ذَلِكَ مُتَمَتِّعٌ، وَالْمُتَمَتِّعُ لَا حَقِيقَةَ لَهُ!!

وَالْقُرْآنُ يُدُلُّ عَلَى تَقْيِضِ هَذَا الْقَوْلِ، فِي مَوَاضِعَ، نَزَّهَ اللَّهُ نَفْسَهُ فِيهَا عَنْ
 فِعْلِ مَا لَا يَصْلُحُ لَهُ وَلَا يَتَّبِعِي لَهُ، فَعَلِمَ أَنَّهُ مُنَزَّهُ مُقَدَّسٌ عَنْ فِعْلِ السُّوِّءِ وَالْفِعْلِ
 الْمَعِيْبِ الْمَذْمُومِ، كَمَا أَنَّهُ مُنَزَّهُ مُقَدَّسٌ عَنْ وَصْفِ السُّوِّءِ، وَالْوَصْفِ الْمَعِيْبِ
 الْمَذْمُومِ. وَذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾
 [المؤمنون: ١١٥]، فَإِنَّهُ نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ خَلْقِ الْخَلْقِ عَبَثًا، وَأَنْكَرَ عَلَى مَنْ حَسِبَ
 ذَلِكَ، وَهَذَا فِعْلٌ. وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَتَجْعَلُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى كَالَّذِينَ آمَنُوا وَقَوْلِهِ
 تَعَالَى: ﴿أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُؤْمِنِينَ
 كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، إِنَّكَارٌ مِنْهُ عَلَى مَنْ جَوَّرَ أَنْ يُسَوِّيَ اللَّهُ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا،
 وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمُ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّلَاحُ كَلَّتْ سَوَاءٌ مَحَبَّتُهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿ [الجاثية: ٢١]، إِنْكَارٌ عَلَى مَنْ
حَسِبَ أَنَّهُ يَفْعَلُ هَذَا، وَإِخْبَارٌ أَنَّ هَذَا حُكْمٌ سَيِّءٌ قَبِيحٌ، وَهُوَ مِمَّا يُنَزَّهُ الرَّبُّ عَنْهُ.

قال الشيخ:

كُلُّ هَذَا رَدٌّ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُبْتَدِعَةِ، فَمَنْ عَقِدْتُمْ أَنَّ الظلم الذي نَزَّهَ اللهُ نفسه عنه هو المستحيل، الغير الممكن حصوله، وعلى موجب كلامهم يقال: إِنْ هُمْ آمَنُوا؛ لِأَنَّ الْمُسْتَحِيلَ مَمْتَنَعُ الْوُقُوعِ، فَيَاذَا لِمَاذَا لَا يَكُونُونَ آمِنِينَ مِنَ الظلم، وَإِذَا كَانُوا آمِنِينَ مِنْهُ، فَكَيْفَ مَعَ ذَلِكَ يُؤْمِنُهُمْ زِيَادَةً بِقَوْلِهِ: ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿ وَمَا اللَّهُ بِرَبِّدٍ ظَلَمًا لِلْبَّارِ ﴾ [غافر: ٣١]، وَقَوْلِهِ: ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١٢]؟ لَوْ كَانَ شَيْئًا مُسْتَحِيلًا، لَمَّا خَافُوا مِنْهُ، وَلَمَّا خَوَّفَهُمْ، وَدَلَّ عَلَى هَذَا أَنَّهُ مَا نَزَّهَ اللهُ عَنْهُ إِلَّا عَنْ شَيْءٍ مُقَدَّرٍ لَهُ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى نَزَّهَ اللهُ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَلِيقُ، وَلَا تَنَّهُ وَصِفَ لِلظلمة الذين يفعلون ما لَا يُسْتَحْسَنُ، فَيَقْسِرُونَ وَيَقْتُلُونَ ظُلْمًا، وَيَجْبَسُونَ، فَنَزَّهَ اللهُ عَنْهُ عَنِ مِثْلِ هَذَا. يُقَالُ: هَؤُلَاءِ مَلُوكٌ ظَلَمُوا، وَيُقَالُ: هَؤُلَاءِ أَمْرَاءُ ظَلَمُوا؛ لِأَنَّهُمْ يَبْطِشُونَ بِالنَّاسِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَنَزَّهَ اللهُ عَنْهُ عَنِ مِثْلِ هَذِهِ الْأَفْعَالِ.

عقيدة المجبرة الجبرية: هم الذين يجعلون لله الفعل لما يريد، ويقولون: يجوز لله أن يهلك المتقين، ويجوز له أن يعذب المؤمنين، ويجوز له أن يثيب الكفار، وأن يرفع درجاتهم ويجعلهم في أعلى عليين، وهم كفار فجار خارجون على الطاعة،

ويجوز أن يعذب المتقين المطيعين الذين ما عَصَوْهُ طرفة عين، وأن يجعلهم في أسفل سافلين. هذا قول المجبرة.

ويقولون إنهم ليس لهم اختيار، وليس لهم أفعال، وإنما الفعل فعله، والقول

قوله، ويستدلون بمثل قوله: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وعلى قولهم تكون الخليفة ليس فيها عدل، والله تعالى أعدل من أن يضيع

خلقه، وقد مرّت بنا الأدلة على أنه سبحانه وتعالى ما خلق الخليفة عبثاً: ﴿أَيَحْسَبُ

الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]؛ لا يؤمر ولا يُنهى؟ هذا حسابان باطل. وقال

تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، أي:

قد حسبتم ذلك، ولكنكم أخطأتم في هذا الحساب، وما كان ربكم ليخلقكم ثم

ليترككم عبثاً، وكقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ

كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، دلّ على أن من اعتقد بأنه خلقهم لغير

حكمة، وخلق المخلوقات هملاً وسُدًى، أنه من الكافرين الضالين.

ومرّت الأدلة التي تنفي التسوية بين أهل الحق وأهل الباطل، وتأبى حكمة

الله هذه التسوية؛ فالله تعالى يقول: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، أي:

لا نجعلهم، بل تأبى حكمة الله أن نجعل المتقين كالفجار، وأن نجعل المحسنين

كالمفسدين في الأرض، بل لا بدّ أن نميّز بينهم، وكما في قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ

الْمُسْلِمِينَ كَالْمُشْرِكِينَ﴾ [القلم: ٣٥]، لا يجوز، هذا خلاف حكمة الله، أن يسوّي بين

المسلم وبين المجرم، فالمسلم له الثواب، والمجرم يستحقّ العقاب. ومثل قوله

تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجنائفة: ٢١]، هل حسبوا ذلك؟ هذا حسبان باطل، كيف حسب الذين اقترفوا السيئات أن نجعلهم مثل أهل الحسنات والأعمال الصالحة؟ هذا خطأ، ولا يكون أبداً.

هذا كله من مقتضى قول الأشاعرة أو المجبرة الذين يجعلون لله التسوية بين الفاجر والمؤمن، ولذلك رد عليهم الشارح بهذه الآيات: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ (٣٧) ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٧، ٢٨]، أي: لا نجعلهم، بل لا بد أن نميز بينهم، فالله تعالى خلق هؤلاء وميزهم وجعلهم سعداء، وخلق هؤلاء وحكم عليهم بالشقاء، وهؤلاء يستحقون النصر والتمكين في الدنيا، وهؤلاء يستحقون الخذلان والعذاب في الدنيا، وفي الآخرة فريق في الجنة وفريق في السعير.

قال الشارح:

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ، وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، وَزَيْدِ بْنِ نَابِتٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ»^(١).

وَهَذَا الْحَدِيثُ مِمَّا يَحْتَجُّ بِهِ الْجَبَرِيَّةُ، وَأَمَّا الْقَدَرِيَّةُ فَلَا يَتَأَتَى عَلَى أَصُوهِمْ

الْفَاسِدَةِ! وَهَذَا قَابِلُوهُ إِمَّا بِالتَّكْذِيبِ أَوْ بِالتَّأْوِيلِ !!

وَأَسْعَدُ النَّاسِ بِهِ أَهْلُ السُّنَّةِ، الَّذِينَ قَابَلُوهُ بِالتَّصَدِيقِ، وَعَلِمُوا مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَجَلَالِهِ، قَدْرَ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَعَدَمَ قِيَامِ الْخَلْقِ بِحُقُوقِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ، إِمَّا عَجْزًا، وَإِمَّا جَهْلًا، وَإِمَّا تَفْرِيطًا وَإِضَاعَةً، وَإِمَّا تَقْصِيرًا فِي الْمَقْدُورِ مِنَ الشُّكْرِ، وَلَوْ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ. فَإِنَّ حَقَّهُ عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، وَيُذَكَّرَ فَلَا يُنْسَى، وَيُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرُ، وَتَكُونَ قُوَّةُ الْحُبِّ وَالْإِنَابَةِ، وَالتَّوَكُّلِ وَالْحَشْيَةِ، وَالْمُرَاقَبَةِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، جَمِيعَهَا مُتَوَجِّهَةً إِلَيْهِ، وَمُتَعَلِّقَةً بِهِ، بِحَيْثُ يَكُونُ الْقَلْبُ عَاكِفًا عَلَى حَبَّتِهِ وَتَأْلِيهِهِ، بَلْ عَلَى إِفْرَادِهِ بِذَلِكَ، وَاللِّسَانُ مَحْبُوسًا عَلَى ذِكْرِهِ، وَالْجَوَارِحُ وَفَقًا عَلَى طَاعَتِهِ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا مَقْدُورٌ فِي الْجُمْلَةِ، وَلَكِنَّ النُّفُوسَ تَشِيخُ بِهِ، وَهِيَ فِي الشُّحِّ عَلَى مَرَاتِبَ لَا يُخْصِيهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى. وَأَكْثَرُ الْمُطْبِعِينَ تَشِيخُ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ وَجْهِهِ،

(١) تقدم تخرجه (٤/٣٧٣).

وَإِنْ أَتَى بِهِ مِنْ وَجْهِ آخَرَ، فَأَيُّنَ الَّذِي لَا تَفْعُ مِنْهُ إِرَادَةٌ تُزَاحِمُ مُرَادَ اللَّهِ وَمَا يُجِبُّهُ مِنْهُ؟ وَمَنِ الَّذِي لَمْ يَصْدُرْ مِنْهُ خِلَافٌ مِمَّا خُلِقَ لَهُ، وَلَوْ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ؟ فَلَوْ وَضَعَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ عَدْلَهُ عَلَى أَهْلِ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ بِعَدْلِهِ، وَلَمْ يَكُنْ ظَالِمًا لَهُمْ.

وَعَايَةٌ مَا يَقْدَرُ، تَوْبَةُ الْعَبْدِ مِنْ ذَلِكَ وَاعْتِرَافُهُ، وَقَبُولُ التَّوْبَةِ مُحَضُّضٌ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَإِلَّا فَلَوْ عَذَّبَ عَبْدَهُ عَلَى جِنَايَتِهِ لَمْ يَكُنْ ظَالِمًا وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ تَابَ مِنْهَا. لَكِنْ أَوْجَبَ عَلَى نَفْسِهِ - بِمُقْتَضَى فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ - أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ مَنْ تَابَ، وَقَدْ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، فَلَا يَسَعُ الْخَلَائِقَ إِلَّا رَحْمَتُهُ وَعَفْوُهُ، وَلَا يَبْلُغُ عَمَلُ أَحَدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَنْجُوَ بِهِ مِنَ النَّارِ، أَوْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، كَمَا قَالَ أَطْوَعُ النَّاسِ لِرَبِّهِ، وَأَفْضَلُهُمْ عَمَلًا، وَأَشَدُّهُمْ تَعْظِيمًا لِرَبِّهِ وَإِجْلَالًا: «لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»^(١).

وَسَأَلَهُ الصِّدِّيقُ دُعَاءً يَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِهِ، فَقَالَ: «قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاعْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَفْوُورُ الرَّحِيمُ»^(٢).

فَإِذَا كَانَ هَذَا حَالُ الصِّدِّيقِ، الَّذِي هُوَ أَفْضَلُ النَّاسِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ

(١) تقدم تحريجه (٤/٣٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٤).

وَالْمُرْسَلِينَ، فَمَا الظَّنُّ بِسِوَاهُ؟ بَلْ إِنَّمَا صَارَ صِدِّيقًا بِتَوْفِيَةِ هَذَا الْمَقَامِ حَقُّهُ، الَّذِي يَتَضَمَّنُ مَعْرِفَةَ رَبِّهِ، وَحَقُّهُ وَعَظَمَتُهُ، وَمَا يَنْبَغِي لَهُ، وَمَا يَسْتَحِقُّهُ عَلَى عَبْدِهِ، وَمَعْرِفَةَ تَقْصِيرِهِ. فَسُحْقًا وَبُعْدًا لِمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَخْلُوقَ يَسْتَعْنِي عَنِ مَغْفِرَةِ رَبِّهِ، وَلَا يَكُونُ بِهِ حَاجَةٌ إِلَيْهَا! وَلَيْسَ وَرَاءَ هَذَا الْجَهْلِ بِاللَّهِ وَحَقِّهِ عَاقِبَةٌ!! فَإِنْ لَمْ يَتَسَّعْ فَهَمُّكَ لِهَذَا، فَانزِلْ إِلَى وَطْأَةِ النَّعْمِ، وَمَا عَلَيْهَا مِنَ الْحُقُوقِ، وَوَارِزْ مِنْ شُكْرِهَا وَكُفْرِهَا، فَحَيْثُ تَعْلَمُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ.

قال الشيخ:

خلاصة هذا الكلام دائر حول هذا الحديث الذي أورده الشارح، وهذا الحديث أنكرته المعتزلة، واحتجّت به القدرية، ولكنه حجة لأهل السنة. صحيح أن الله تعالى لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم؛ لأنّ ما عملوه من الأعمال، فهو بفضله، فهو الذي هداهم، وهو الذي أعطاهم، وهو الذي خوّلهم، وهو الذي سخر لهم، إذن فإذا عذبهم فإنه لا بدّ أن يعذبهم على شيء من التقصير، حتى ولو كانوا مؤمنين ومتمقين؛ لأنّ هذا الإيمان وهذا التقي محض عطاء الله، ومحض فضله؛ ولذلك يقول النبي ﷺ: «لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ»^(١)، فأعمالنا لا تدخلنا الجنة بمحضها، حتى يرحمنا الله معها، يدخل الجنة

(١) تقدم تخرجه (٤/٣٦٦).

برحمته من يشاء، يقول تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: ٣١].

وإذا كان العباد مهملوا، فإيتهم بحاجة إلى رحمه الله، عُلِمَ أنهم دائماً يسألون ربهم أن يعفهم بواسع رحمته، وهو سبحانه أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم. وقد أخبر النبي ﷺ أن رحمة الله تعالى واسعة يرحم بها عباده، فقال ﷺ: «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ فِي مِثَّةِ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاخَمُ الْخَلْقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشِيَةً أَنْ تُصِيبَهُ»^(١). وهذا معنى كونه كتب على نفسه الرحمة، وقال ﷺ: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ كِتَابًا، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنْ رَحِمْتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»^(٢). ولأجل ذلك كان من أسائه الحسنی الرحمن الرحيم، وأخبر بأنه يرحم من عباده الرحماء، وقال ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، أَرْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمُهُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»^(٣)، وقال: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ»^(٤). فكل ذلك دليل على أنه تعالى يجود على من يشاء ويرحمهم.

ولكن أعمالهم مهملوا كانت ومهما كثرت فهي تقل عن أن يستحقوا بموجبها

(١) تقدم تخريجه (٣/٣١٠).

(٢) تقدم تخريجه (٢/٨٢).

(٣) تقدم تخريجه (١/٦٥).

(٤) أخرجه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨) من حديث أبي هريرة ؓ.

وحدها الجنة، ولو عملوا ما عملوا، ولو كُفُوا بأن يعملوا كل الأعمال ما أطاقوا، ولأجل ذلك لما نزل قول الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، استقلوا هذه الآية، حتى أنزل الله قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. وقد فسّر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ﴿حَقَّ تَقَاتِهِ﴾، قال: «أن يطاع فلا يعصى، وأن يُذكر فلا ينسى، وأن يُشكر فلا يُكفر»^(١).

فالإنسان مخلوق للعبادة، مأمور بأن يشغل كل أعماله وكل أفكاره وكل جوارحه بعبادة الله، ونظره وبصره يجعله كله عبادة، فلا ينظر إلا نظر اعتبار ونظر رحمة وإذا نظر فيما يضره أو نظر إلى ما لا يحلّ له، فقد عصى الله بهذا النظر، وكذلك السمع الذي جعله الله واسطة يسمع به الأصوات نعمة من الله، مأمور بأن لا يستعمله إلا فيما ينفعه من العلم والوعظ والخير والإرشاد والتوجيه والكلام النافع، ولا يستمع به ما يضره من اللهو واللعب والضحك والباطل والغيبة والنميمة، ومن استمع إلى ذلك فقد كفر هذه النعمة، وما شكرها.

وهكذا أيضًا نعمة النطق بهذا اللسان الذي جعله الله معبرًا عن حاجته، فيجب ألا يتكلم به إلا بخير ويجعله مستعملًا في الذكر والشكر وفي الأمر بالخير والدلالة عليه، والنهي عن الشر، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإصلاح بين الناس وغير ذلك كما قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١/١٢٩)، والطبري (٤/٢٧)، وابن أبي حاتم (٣/٧٢٢).

إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۗ [النساء: ١١٤].

فإذا فعل ذلك كان شاكراً لهذه النعمة، وإن تكلم فيما لا يعنيه، أو لا يجوز له، أو ما لا فائدة فيه، يكون كافراً لهذه النعمة.

وهكذا يقال في التفكير والعقل الذي من الله به على الإنسان، فيجب أن يستعمله فيما يفيد، فيفكر في خلق الله وفي آياته، وتدبر آياته وتدبر أول الأمر وآخره، فإذا فعل ذلك كان شاكراً لهذه النعمة، ولكن إذا صرف شيئاً من ذلك فيما يضره وجعل تفكيره وعقله في الأشياء الدنيئة، أو في ضرر الإسلام والمسلمين، أو صرف عقله وتفكيره في تدبير أموره الدنيوية، ونسي أموره الدينية فقد كفر هذه النعمة.

وهكذا يقال في نعمة الجوارح، فاليدان يشكر ربه إذا استعملهما وبطش بهما في الشيء الذي يقربه إلى الله، والرجلان يسير بهما في الشيء الذي ينفعه، وهكذا. وقد عرف أن الناس قد يقعون في أخطاء، فكيف مع ذلك يزكون أنفسهم ويدعون أنهم من المقربين، ويدعون أنهم مستحقون لكذا وكذا، وأن حقاً على الله أن يعطيهم، وأنه إذا لم يعطهم كان ظالماً لهم، وأنه إذا عاقبهم وأجذب عليهم وسلط عليهم الفقر والفاقة فهو ظالم لهم منه، ونحو ذلك.

نقول: إن هذا سوء ظن بالله تعالى، وأن القائلين بذلك أحسنوا الظن بأنفسهم، والإنسان عليه أن يعود إلى نفسه، وأن يلومها، وأن ينسب التقصير إليها، وأن يحاسبها أشد المحاسبة، بذلك يكتبه الله تعالى من أهل الرحمة والثواب،

أما إذا لم يحاسب نفسه، واعتقد أنه من المحسنين ومن المتقين، وأنه فعل وفعل، وأخذ يمدح نفسه، ويرفع من شأن نفسه، ونحو هذا، فإن هذا يسبب بطلان عمله، وردّه عليه، وإذا كان نبينا ﷺ يعترف بأن لا يدخل هو الجنة إلا أن يرحمه الله، فيقول: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»^(١).

وكذلك الملائكة، فمن الملائكة من هم ساجدون من حين خلقوا إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة، يقولون: يا ربّ سبحانك، ما عبدناك حقّ عبادتك. فكيف بنا نحن الذين أضعنا الوقت الكثير من حياتنا، ونحن الذين اتبعنا كثيرا من أهوائنا، ومع ذلك نركي أنفسنا، والله تعالى يقول: ﴿فَلَا تَزْكُرُوا أَنْفُسَكُمْ هِيَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]؛ لأنّ الله سبحانه هو أرحم بعباده، فيأتي العبد بأسباب الرحمة، ويعتقد بأنه إذا لم تعمّه رحمة الله، فإنه خاسر وأنه جعل للرحمة أهلا فقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، إلى آخر الآيات. ذكر أهل الرحمة، فليس كلّ من تمنّاها تحصل له، وإذن فليس كلّ واحد ينجيه عمله إلا برحمة الله، ورحمة الله لها أهلها، وأسباب رحمة الله سهلة يسيرة على من يسرّها الله عليه.

نسأل الله سبحانه أن يوزعنا أن نشكر نعمته التي أنعم علينا وعلى والدينا، ونسأله أن يعاملنا برحمته ولا يعاملنا بعدله، فإنه سبحانه هو المنعم بكلّ أنواع

(١) تقدم تحريجه (٤/٣٦٦).

الإنعام، فهو الذي أعاننا على ذكره وشكره، وهو الذي هدانا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، فالهداية فضل منه ونعمة، وكذلك الإعطاء والمنة والإلهام، كل ذلك محض فضله على عباده، ولأجل ذلك عباداتهم إلهام منه وتوفيق، فهو الذي أعانهم ووقفهم وسددهم وقوَاهم وجعلهم مطيعين له، ولو شاء لأضلَّهم جميعًا، ولو شاء لهداهم جميعًا، وله المشيئة النافذة، وله الحكمة البالغة، ولا يسأل عما يفعل، وهم يسألون، ونعمه على عباده لا تحصى، وأيديه عليهم لا تستقصى، وإذا مسَّهم بخير فهو محض فضله، وإذا مسَّهم بضرٍّ فهو ابتلاء منه وامتحان، وفي الصبر على ذلك أجر عظيم. ولذلك يقول بعضهم^(١):

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللَّهِ نِعْمَةً عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ بُلُوغَ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَأَتَّصَلَ الْعُمُرُ
إِذَا مَسَّ بِالسَّرَّاءِ عَمَّ سُورُهَا وَإِنْ مَسَّ بِالضَّرَّاءِ أَعْقَبَهَا الْأَجْرُ
وَمَا مِنْهَا إِلَّا وَلَهُ فِيهِ مِنَّةٌ تَضِيْقُ بِهَا الْأَوْهَامُ وَالْبُرُّ وَالْبَحْرُ

فالعبد إذا قال: الحمد لله، فهذه نعمة ألهمه الله وأعانه أن حمده، فهذه النعمة التي هي الإلهام، تحتاج إلى نعمة أخرى يشكرها بها، فإذا قال أشكر الله وأحمد الله، فهذه نعمة أخرى يستحق أن يشكرها، وإذا قال: ربي لك الحمد، فهذه نعمة أخرى تستدعي الحمد. وكذلك إذا ذكر الله وكبره وهلَّله وسبَّحه واستغفره، فكل

(١) الأبيات لمحمود الوراق، أخرجها البيهقي في شعب الإبان (٤/ ١٠٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥/ ١٩٠).

هذا من فضل الله، وكلها نعم لها أن تشكر، ولأجل ذلك كانت لله النعمة على عباده، وله الفضل عليهم. كما مرّ بنا في الحديث: «لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ لَهُمْ خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ»^(١)؛ وذلك بأنّه لا يظلم أحداً، ولا يعذبهم إلا على تقصير منهم، أي تقصير في شكر الربّ، ولو حاسبهم على أعمالهم، ولو كانت أمثال الجبال، لم تقاوم أصغر نعمة عليهم، سواء أكانت نعمة حسنة أم معنوية؛ كهدايتهم وتعليمهم وفطرتهم الحسنة، ونحو ذلك. فإنّه لو حاسبهم على هذا العطاء لعذبهم.

ومن أجل ذلك يقول النبي ﷺ في الحساب اليسير، بأن ذلك حساب العرض؛ أن تعرض عليهم أعمالهم دون أن يناقشوا فيها، ومن أجل ذلك يقول ﷺ: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُدْبَ»^(٢). من ناقشه الله الحساب على دقيق النعم وجليلها، ودقيق الأعمال وكبيرها، فإنّه لو كانت حسناته أمثال الجبال، لا تقوم أمام أصغر نعم الله - عزّ وجلّ - عليه، فإن حاسبهم حساباً شديداً عسيراً لا بد أن يعذبهم. فالنبي ﷺ يقول: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»^(٣). وهذا وهو

(١) تقدم تحريجه (٤/٣٧٣).

(٢) تقدم تحريجه (٤/٢٥٩).

(٣) تقدم تحريجه (٤/٣٦٦).

سيد العالمين وخاتم الأنبياء والمرسلين، وهو الذي غَفَرَ اللهُ له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، وهو الذي تَفَطَّرت قدماه لطول قيامه في الصلاة، ويقول: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟»^(١)؛ يعترف بأنّه بحاجة إلى رحمة الله، فنحن أولى بأن نحتقر أعمالنا، وأن نظهر فقرنا وفاقتنا، ونحن أحرى بأن نتضاعف عند ربّنا، ونظهر العجز، ونظهر الذلّ الذي نحتاج معه إلى التقوية، ونظهر الذنوب التي نحتاج معها إلى المغفرة، فلو لم يأخذ عباده بعفوه لهلكوا.

ولذلك لا ينبغي لنا أن نزكّي أنفسنا، ونتباهى بكثرة أعمالنا، ونقول: نحن أكثر عملاً من فلان، ونحن أكثر حسنات من هذا وهذا، فإنّ هذه التزكية قد تكون سبباً لأن يحبط الله العمل، ولذلك يقول تعالى: ﴿لَا تَرَى إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٩]. فهو الذي يمدح من يريد، ومن يستحقّ المدح، ولذلك فليحتقر المرء عمله حتى يضاعفه الله له أضعافاً كثيرة، وليطلب من ربّه المغفرة، وليدخل عليه من باب الذلّ والافتقار، وربّنا سبحانه عند المنكسرة قلوبهم من أجله.

(١) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩) من حديث المغيرة بن شعبه رضي الله عنه.

قال الطحاوي:

وَفِي دُعَاءِ الْأَحْيَاءِ وَصَدَقَاتِهِمْ مَنْفَعَةٌ لِلْأَمْوَاتِ.

قال الشارح:

اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ أَنَّ الْأَمْوَاتَ يَنْتَفِعُونَ مِنْ سَعْيِ الْأَحْيَاءِ بِأَمْرَيْنِ:
أَحَدُهُمَا: مَا تَسَبَّبَ إِلَيْهِ الْمَيْتُ فِي حَيَاتِهِ.

وَالثَّانِي: دُعَاءُ الْمُسْلِمِينَ وَاسْتِغْفَارُهُمْ لَهُ، وَالصَّدَقَةُ وَالْحَجُّ، عَلَى نِزَاعٍ فِيمَا
يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ ثَوَابِ الْحَجِّ، فَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : أَنَّهُ إِنَّمَا يَصِلُ إِلَى
الْمَيْتِ ثَوَابُ النَّفَقَةِ، وَالْحَجِّ لِلْحَاجِّ. وَعِنْدَ عَامَّةِ الْعُلَمَاءِ: ثَوَابُ الْحَجِّ لِلْمَحْجُوجِ
عَنْهُ، وَهُوَ الصَّحِيحُ.

وَاخْتُلِفَ فِي الْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ، كَالصَّوْمِ، وَالصَّلَاةِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ،
وَالذِّكْرِ، فَذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَحْمَدُ وَجُمْهُورُ السَّلَفِ إِلَى وُضُوعِهَا، وَالْمَشْهُورُ مِنْ
مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ وَمَالِكٍ عَدَمُ وُضُوعِهَا.

وَذَهَبَ بَعْضُ أَهْلِ الْبِدْعِ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ إِلَى عَدَمِ وُضُوعِ شَيْءٍ الْبِتَّةِ،
لَا الدُّعَاءِ وَلَا غَيْرِهِ. وَقَوْلُهُمْ مُرْدُودٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، لِكَيْتَهُمْ اسْتَدَلُّوا بِالْمِثْلِ
مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ [النجم: ٣٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿ وَلَا
تُجْزَوْنَكَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ نَعْمُونَ ﴾ [يس: ٥٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا
أَكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ، أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ»^(١). فَأَخْبَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا يُنْتَفَعُ بِمَا كَانَ تَسَبَّبَ فِيهِ فِي الْحَيَاةِ، وَمَا لَمْ يَكُنْ تَسَبَّبَ فِيهِ فِي الْحَيَاةِ فَهُوَ مُنْقَطِعٌ عَنْهُ.

وَاسْتَدَلَّ الْمُتَصَرُّونَ عَلَى وُضُوحِ الْعِبَادَاتِ الَّتِي تَدْخُلُهَا النَّيَابَةُ، كَالصَّدَقَةِ وَالْحَجِّ، بِأَنَّ النَّوْعَ الَّذِي لَا تَدْخُلُهُ النَّيَابَةُ بِحَالٍ، كَالْإِسْلَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، يَخْتَصُّ نَوَابَهُ بِفَاعِلِهِ لَا يَتَعَدَّاهُ، كَمَا أَنَّهُ فِي الْحَيَاةِ لَا يَفْعَلُهُ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ، وَلَا يَتُوبُ فِيهِ عَنْ فَاعِلِهِ غَيْرُهُ. وَقَدْ رَوَى النَّسَائِيُّ^(٢) بِسَنَدِهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «لَا يُصَلِّي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ، وَلَا يَصُومُ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ، وَلَكِنْ يُطْعَمُ عَنْهُ مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مُدًّا مِنْ حِنْطَةٍ».

قال الشيخ:

بعدها انتهى الكلام على القضاء والقدر جاء الطحاوي بهذه العبارة ردًا على المبتدعة، وهي: هل ينتفع الأموات بشيء من أعمال الأحياء أو لا؟ صحيح أن الأموات قد طُوِيَتْ صحف أعمالهم، وقد ختم عليهم، فلا يستطيعون زيادة الحسنات ولا نقص السيئات؛ لأنهم أنهم أحياءهم ودخلوا في

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في السنن الكبرى (٢٩٣٠) موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما.

عالم البرزخ الذي هو أوّل منازل الآخرة، فكأثمهم ختم على أعمالهم، ولكن الأحياء قد يهدون إليهم بعض الأعمال، هذه الأعمال التي يهديها إليهم الأحياء قد تكون أعمالاً بدنية أو أعمالاً قولية أو أعمالاً مالية. فالأعمال البدنية: كالصلاة والطواف والصوم وما أشبهها، والأعمال المالية: كالصدقات والتفقات والأضاحي، والأعمال القولية: كالدعاء والذكر والاستغفار وما أشبهها.

ولا شك أنّهم يتنفعون بالدعاء، بأن يدعو لهم الأحياء، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: 10]، نحن ندعو بهذا للذين سبقونا بالإيمان، ولو كنا لم نعرفهم، ولو كان بيننا وبينهم مئة سنة أو أكثر.

وكذلك يتنفعون بالصلاة عليهم، وأولها: الصلاة على الميت، ولو لم يكن لهم بها نفع لم تُشرع. وكذلك الأعمال التي كانوا سبباً فيها يبقى لهم أجرها، فإذا تصدق أحدهم بصدقة، واستمرت تلك الصدقة، يبقى ذلك الأجر مستمراً، وذلك مثلي: الأحياس والأوقاف التي يتنفع بها، فهذه يصل أجرها إليهم. وكذلك البيوت التي يُنتفع بها، كالمساجد، فإذا بنى مسجداً فإنه يأتيه أجره، ولو بعد موته بمئة سنة أو أكثر، ما دام يُصلّى في هذا المسجد. وكذلك إذا بنى مدرسة لتحفيظ القرآن وطلب العلم النافع، فإن ذلك أيضاً يجري عليه أجره، وهو من باب الصدقة الجارية. وكذلك غلات الأوقاف، فإذا جعل غلة هذا الوقف صدقات أو في جهاد، كان ذلك أيضاً من الصدقة الجارية التي يأتيه أجرها بعد

موته. وكذلك إذا كان قد أورث علماً ينتفع به، وألّف كتباً كتبها وجعل فيها علوماً نافعة، فإنه مادام يُقرأ فيها ويدعى له فأجره عليها مستمر إن شاء الله. وهكذا إذا نشر علماً أو طبع مصاحف أو أنفق على كتب علم ونشرها، وصار ينتفع بها وتقرأ ويدعى لمن نشرها، فهذه من الأعمال المألّية التي ينتفع بأجره منها بعد موته.

وكذلك كل إنسان كان متسبباً بعملٍ من الأعمال النافعة، ذكروا من ذلك مثلاً: الأعباس التي في الطرق وينتفع بها، كالمياه التي ينتفع بها ويشرب منها أبناء السبيل، وكذلك حفر الآبار التي ينتفع بها المارة ونحوهم، وإجراء الأنهار، وإصلاح الطرق التي يمرّ بها المسلمون وينتفعون بها، وإضاءتها إن احتاجت إلى ذلك، وجعل المرافق فيها كالمياه مثلاً، كل ذلك من الأعمال الخيرية التي إن فعلها احتساباً كان له أجر. وكذلك إذا جعل غلّة أو قافه في تجهيز الجيش للجهاد، أو تجهيز الأموات، فإن ذلك أيضاً من الأعمال الصالحة، ويستمرّ أجره عليها مادام يُنتفع بها؛ لأن هذا مما أنفق فيه.

أما الأعمال البدنية فقد اختلف فيها، وقد ورد في الأثر: «لَا يُصَلِّي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ، وَلَا يَصُومُ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ، وَلَكِنْ يُطْعِمُ عَنْهُ مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مُدًّا مِنْ حِنْطَةٍ»، ولكن ذلك محمول على الأحياء؛ لأن الأحياء قادرون، ولا يجوز لأحدهم أن ينوب عن أحد، فلا تقول لولدك: صلّ عني الظهر أو العصر ولو كان ولدك؛ لأن هذه العبادة تتعلّق ببدنك، فلا ينوب بها عنك أحد، وكذلك لو أحرمت بنسكك فلا تقل لولدك أو عبدك: طف عني طواف الإفاضة، أو قف عني بعرفة؛ لأنّها

عمل بدني لا يقوم فيه أحدٌ عن أحدٍ. وكذلك لا تقل لأحد: صم عني هذا الشهر، فإن هذا لا يجوز ذلك.

ولا يجوز التوكيل في مثل هذه الأعمال؛ لأنها متعلّقة بالبدن، ولأنّ الحكمة فيها أن يفعلها العامل ببدنه، ويشعر بذله وضعفه بين يديّ ربّه، فإذا كان المتذلل غيره لم يتأثر بذلك، فالحكمة في شرعيّة الصلاة: أن المصلّي يخضع ويخشع ويتواضع، ولا يحصل له أجر إذا تواضع غيره، ولو قال المصلّي: أهديت صلاتي لك، لم يجز ذلك؛ لأنّه لا بدّ وأن يكون هذا العمل من نفسه. وكذلك الحكمة في الصيام: حصول ألم الجوع والجهد والصبر على ذلك، فإذا كان هو يأكل ويشرب ويتمتع، والذي صام غيره، فلا تحصل المصلحة التي هي تأثره بهذا الصيام، فيكون أجر الصيام لمن صامه لا له. وإن كان في ذلك استثناء كما سيأتي.

قال الشارح:

وَالدَّلِيلُ عَلَى انْتِفَاعِ الْمَيِّتِ بِغَيْرِ مَا تَسَبَّبَ فِيهِ، الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ وَالْقِيَاسُ الصَّحِيحُ.

أَمَّا الْكِتَابُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠]. فَأَتَيْتُ عَلَيْهِمْ بِاسْتِغْفَارِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ قَبْلَهُمْ، فَدَلَّ عَلَى انْتِفَاعِهِمْ بِاسْتِغْفَارِ الْأَحْيَاءِ. وَقَدْ دَلَّ عَلَى انْتِفَاعِ الْمَيِّتِ بِالْدُّعَاءِ إِجْمَاعُ الْأُمَّةِ عَلَى الدُّعَاءِ لَهُ فِي صَلَاةِ الْجَنَازَةِ، وَالْأَدْعِيَةُ الَّتِي وَرَدَتْ بِهَا السُّنَّةُ فِي صَلَاةِ الْجَنَازَةِ مُسْتَفِيضَةٌ. وَكَذَا الدُّعَاءُ لَهُ بَعْدَ الدَّفْنِ، فَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ^(١)، مِنْ حَدِيثِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إِذَا فَرَّغَ مِنْ دَفْنِ الْمَيِّتِ وَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَاسْأَلُوا لَهُ التَّيْبَتَ، فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ».

وَكَذَلِكَ الدُّعَاءُ لَهُمْ عِنْدَ زِيَارَةِ قُبُورِهِمْ، كَمَا فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»^(٢)، مِنْ حَدِيثِ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحَصِيبِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يُعَلِّمُهُمْ إِذَا خَرَجُوا إِلَى الْمَقَابِرِ أَنْ يَقُولُوا: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، نَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمْ الْعَافِيَةَ». وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»^(٣)

(١) برقم (٣٢٢١).

(٢) برقم (٩٧٥).

(٣) برقم (٩٧٤).

أَيْضًا، عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - : سَأَلَتِ النَّبِيَّ ﷺ: كَيْفَ تَقُولُ إِذَا اسْتَعْفَرْتَ لِأَهْلِ الْقُبُورِ؟ قَالَ: «قُولِي: السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمُ اللَّهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لِلْآحِقُونَ».

وَأَمَّا وَصُولُ ثَوَابِ الصَّدَقَةِ، فِيهِ الصَّحِيحَيْنِ^(١)، عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - : أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أُمَّي افْتُلِتَتْ نَفْسُهَا، وَلَمْ تُوصِرْ، وَأَطْنَتْهَا لَوْ تَكَلَّمْتَ تَصَدَّقْتُ، أَفَلَهَا أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ».

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»^(٢)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : أَنَّ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ تُوَفِّيَتْ أُمُّهُ وَهُوَ غَائِبٌ عَنْهَا، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أُمَّي تُوَفِّيَتْ وَأَنَا غَائِبٌ عَنْهَا، فَهَلْ يَنْفَعُهَا إِنْ تَصَدَّقْتُ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: فَبِإِنِّي أَشْهَدُكَ أَنَّ حَائِطِي الْمُخْرَافِ صَدَقَةٌ عَنْهَا. وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ فِي السُّنَّةِ.

وَأَمَّا وَصُولُ ثَوَابِ الصَّوْمِ، فِيهِ «الصَّحِيحَيْنِ»^(٣)، عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ». وَلَهُ

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٨)، ومسلم (١٠٠٤).

(٢) برقم (٢٧٥٦).

(٣) أخرجه البخاري (١٩٥٢)، ومسلم (١١٤٧).

نظائرُ في «الصحيح».

ولكنَّ أبو حنيفةَ - رَحِمَهُ اللهُ - قَالَ بِالْإِطْعَامِ عَنِ الْمَيْتِ دُونَ الصَّيَّامِ عَنْهُ؛
لِحَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ الْمُتَقَدِّمِ. وَالْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ مَعْرُوفٌ فِي كُتُبِ الْفُرُوعِ.
وَأَمَّا وَصُولُ ثَوَابِ الْحَجِّ، فَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»^(١)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ
- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -: أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَتْ: إِنَّ أُمَّي
نَذَرْتُ أَنْ تَحُجَّ فَلَمْ تَحُجَّ حَتَّى مَاتَتْ، أَفَأَحُجُّ عَنْهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ حُجِّي عَنْهَا،
أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ عَلَى أُمَّكَ دَيْنٌ، أَكُنْتَ قَاضِيَتَهُ؟ اقْضُوا لِلَّهِ، فَإِنَّهُ أَحَقُّ
بِالْوَفَاءِ». وَنَظَائِرُهُ أَيْضًا كَثِيرَةٌ.

وَأَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ قِضَاءَ الدَّيْنِ يُسْقِطُهُ مِنْ ذِمَّةِ الْمَيْتِ، وَلَوْ كَانَ مِنْ
أَجْنَبِيٍّ، وَمِنْ غَيْرِ تَرَكْتِهِ. وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ حَدِيثُ أَبِي قَتَادَةَ، حَيْثُ ضَمِنَ
الدَّيْنَارَيْنِ عَنِ الْمَيْتِ، فَلَمَّا قَضَاهُمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الآنَ بَرَدَتْ عَلَيْهِ جِلْدَتُهُ»^(٢).
وَكُلُّ ذَلِكَ جَارٍ عَلَى قَوَاعِدِ الشَّرْعِ، وَهُوَ مُحَضُّ الْقِيَاسِ، فَإِنَّ الثَّوَابَ حَقُّ
الْعَامِلِ، فَإِذَا وَهَبَهُ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ لَمْ يُمْنَعْ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا لَمْ يُمْنَعْ مِنْ هِبَةِ مَالِهِ فِي
حَيَاتِهِ، وَإِبْرَائِيهِ لَهُ مِنْهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ.

(١) برقم (١٨٥٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/٣٣٠)، والحاكم (٢/٥٨)، والدارقطني (٣/٧٩)، والبيهقي (٦/٧٤)
من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/٣٩): «رواه
أحمد والبخاري، وإسناده حسن».

وَقَدْ نَبَّهَ الشَّارِعُ بِوُضُوحٍ ثَوَابِ الصَّوْمِ عَلَى وُضُوحٍ ثَوَابِ الْقِرَاءَةِ وَنَحْوِهَا
مِنَ الْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ، يُوَضِّحُهُ: أَنَّ الصَّوْمَ كَفَّ النَّفْسَ عَنِ الْمُفْطِرَاتِ بِالنِّيَّةِ، وَقَدْ
نَصَّ الشَّارِعُ عَلَى وُضُوحٍ ثَوَابِهِ إِلَى الْمَيِّتِ، فَكَيْفَ بِالْقِرَاءَةِ الَّتِي هِيَ عَمَلٌ وَنِيَّةٌ؟

قال الشيخ:

هذه الأدلة لمن قال بأنه ينتفع الميت بأعمال الحي التي يهديها إليه.

فانتفاعه بالأقوال مثل الذكر والاستغفار والدعاء له وما أشبه ذلك، دليله
هذه الأحاديث، ولو كانت جاءت في الاستغفار للأموات؛ لأن دعوة المسلم
لأخيه بظهر الغيب مستجابة، وقد قال رسول الله ﷺ: «دَعْوَةُ الْمُرءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ
بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ، كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ قَالَ الْمَلَكُ
الْمُؤَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَكَذَلِكَ بِمِثْلِ»^(١). وسواء كان ذلك الذي دعوت له حياً أو ميتاً.
وكذلك أيضاً أخبر الله تعالى بأن الملائكة تستغفر للمؤمنين، فدل على أنهم
يتفعلون بفعل غيرهم؛ لأن هذا العمل الذي يهدي إليهم يُعدّ تبرعاً من ذلك
العامل، فإذا دعا لك، واستغفر لك، فإنه متبرع لك، ولا يدخل ذلك في الآية التي
استدل بها المانعون من المبتدعة، وهي قول الله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا
سَعَى﴾ [النجم: ٢٩]. كثيراً ما يستدل بهذه الآية المانعون، الذين يمنعون الإهداء
إلى الأموات، فيمنعون الأضحية عنهم، ويمنعون القراءة لهم، أو نحو ذلك،

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٧٣٣) من حديث أبي الدرداء ؓ.

والآية إنما فيها الملكية، أي: لا يملك الإنسان إلا سعيه، أما سعي غيره فلا يقدر عليه، ولا يقدر الميت أن يأخذ من أعمال أولاده، أو أعمال زوجاته، ولو كانوا يحبونه، ولعل هذا أيضًا في الدار الآخرة، كما ورد في تفسير قول الله تعالى:

﴿يَوْمَ يُقْرَأُ لِلرَّءِىِٔىِٔ مِنْ أَخِيهِ ۖ وَأُمِّهِ ۖ وَأَبِيهِ ۖ وَصَاحِبِيهِ ۖ وَبَنِيهِ ۖ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤، ٣٧]؛ «أنَّ الوالد يتعلق بولده يوم القيامة، فيقول: يا بني، أي والد كنت لك؟ فيثني خيرًا، فيقول له: يا بني، إني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك، أنجو بها مما ترى، فيقول له ولده: يا أبت، ما أيسر ما طلبت، ولكني أخوف مثل ما تتخوف، فلا أستطيع أن أعطيك شيئًا، ثم يتعلق بزوجه فيقول: يا فافلانة، أي زوج كنت لك؟ فتثني خيرًا، فيقول لها: إني أطلب إليك حسنة واحدة تهبها لي، لعلني أنجو بها مما ترين، فتقول: ما أيسر ما طلبت، ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئًا، إني أخوف مثل الذي تتخوف»^(١). وهكذا. ففي الدار الآخرة لا ينتفع أحد إلا بعمله، أما في الدنيا فلا مانع من أن يهدي الحي للميت، أو يتصدق عنه، أو يدعو له؛ حيث إنه تبرع بذلك.

وقد وردت الأدلة في الدعاء للميت في «سنن أبي داود»^(٢) بسند صحيح أن النبي ﷺ يقول: «إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَيَّ عَلَى الْمَيِّتِ فَأَخْلِصُوا لَهُ الدُّعَاءَ». أي: ادعوا له وأنتم صادقون بالدعوات الجامعة. وأيضًا حديث عوف بن مالك ؓ قال: صلى

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٣١٧٨/١٠) عن عكرمة رحمه الله.

(٢) برقم (٣١٩٩) من حديث أبي هريرة ؓ.

رسول الله ﷺ على جنازة، فَحَفِظْتُ مِنْ دُعَائِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ
وَارْحَمْهُ، وَعَافِهِ وَاعْفُ عَنْهُ، وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ، وَوَسِّعْ مَدْخَلَهُ، وَاغْسِلْهُ بِالْمَاءِ وَالتَّلْجِ
وَالْبُرْدِ، وَنَقِّهِ مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَأَبْدِلْهُ دَارًا خَيْرًا مِنْ
دَارِهِ، وَأَهْلًا خَيْرًا مِنْ أَهْلِهِ، وَزَوْجًا خَيْرًا مِنْ زَوْجِهِ، وَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ فِتْنَةُ الْقَبْرِ
وَعَذَابِ النَّارِ»، قَالَ عَوْفٌ فَتَمَنَّيْتُ أَنْ لَوْ كُنْتُ أَنَا الْمَيِّتَ؛ لِدُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
عَلَى ذَلِكَ الْمَيِّتِ^(١). وهذا تعليم منه لأئمة أن يدعو بمثل هذه الدعوات على ذلك
الميت، وإن لم تكن معينة مخصوصة، بل يدعو بها وبما يماثلها، ولو كان ذلك لا ينفع
الميت لم تُشرع صلاة الجنازة.

وكذلك بعد الموت وبعد الدفن، مر بنا أيضًا أنه ﷺ كان يأمر أصحابه أن
يسألوا له التثبيت، ويقول: «إِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ»^(٢). أي: أن يقولوا: اللهم ثبته بالقول
الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، أو أن يقولوا: اللهم ثبته عند اللقاء، وما أشبه
ذلك. فبدل على أنه يتنفع بذلك.

وكذلك أيضًا مر بنا الدعاء للأموات عند زيارة قبورهم، وأنه ﷺ كان يعلم
أصحابه إذا زاروا القبور أن يقولوا: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لِلْآحِقُونَ، أَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمْ الْعَافِيَةَ»^(٣). فهذا دعاء

(١) تقدم تخرجه (٦٦٦/٣).

(٢) تقدم تخرجه (٤٥٤/٤).

(٣) تقدم تخرجه (٤٥٤/٤).

لهم بالمغفرة والعافية، مما يدل على أنهم ينتفعون بذلك، وأتّم يحتاجون، إليه وأتّم يأتيهم من دعوات الأحياء حسنة كثيرة، يزدادون بها حسنات.

والقصص في ذلك كثيرة مشهورة، أشار إليها كثير من العلماء، ومن أراد التوسّع في هذا فليقرأ كتاب «الروح» لابن القيم رحمه الله. فإنّه استوفى ما يتعلّق بهذه المسائل، ولعلّ الشارح لخصّ هذا منه. وكذلك لتلميذه ابن رجب كتابه الذي سمّاه «أحوال القبور»، وكلّها موجودة مشتهرة، وقد تكلم فيه عن هذه المسائل، وأوضح ما يقال فيها.

كذلك مرّت بنا الأعمال البدنيّة، التي يعملها الحيّ عن الميت، وفي ارتفاع الميت بها خلاف، فقد ذهب الإمام أحمد في المشهور عنه أنّه لا يُصام عن الميت إلّا النذر، أي: لا يُصام عنه أيام رمضان؛ لأنّ في الحديث أنّ امرأة قالت: إنّ أمّي ماتت وَعَلَيْهَا صَوْمٌ نَذْرٍ، أَفَأَصُومُ عَنْهَا؟ قال: «أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمَّكِ دَيْنٌ فَقَضَيْتِيهِ، أَكَانَ يُؤَدِّي ذَلِكَ عَنْهَا؟» قالت: نعم، قال: «فَصُومِي عَنْ أُمَّكِ»^(١). فشبه الصوم عنها بالدين، ولما كان صوم نذر خصّه أحمد بالنذر، ومنع صيام الفرض، واستدلّ بقول ابن عباس - رضي الله عنهما -: «لَا يَصُومُ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ»^(٢). وقد عرفنا أنّ هذا الحديث محمول على الأحياء، بمعنى: لا يصوم حيّ عن حيّ، ولا يصليّ حيّ عن حيّ. أمّا في الأموات فقد صحّ هذا الحديث، وصحّ

(١) أخرجه البخاري (١٩٥٣)، ومسلم (١١٤٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) تقدم تحريجه (٤٥٠).

حديث عائشة - رضي الله عنها - مرفوعاً: «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيَّهُ»^(١). ولم يخص ذلك بنذر ولا بفرض، فدل على أنه من المشروعات، فيصام عنه القضاء ونحو ذلك. وإذا أطمعوا عنه أجزاء عنه ذلك؛ سواء أكان الصوم عليه نذراً أم فرضاً.

أما النفل عنه: كأن تصوم يوماً نفلاً وتقول: أهدي ثواب صيام هذا اليوم لوالدي. ونحو ذلك. فهذا محل خلاف أيضاً، ولعل قياس الأدلة أنه جائز، ما دام سقط عنه الفرض بتطوعك عنه، ولعل السبب في ذلك أنك مأجور على هذا الصيام، ولو كان عملاً بدنياً، وقد أهديت لقريبك هذا تطوعاً واختياراً، فما المانع أن يكون أجره له؟! فهذا يقال في الصيام، ويقال أيضاً في الصلاة إذا أهدى صلاة له، وإن لم يكن ذلك مشهوراً.

وأما الصدقات: فلا شك في وصولها، سواء كانت من الميت كالأحباس التي يوصي بها، أو كانت تبرعاً من الحي، فلا شك في أنه يصله أجرها إذا تصدقت عنه صدقة خاصة، كصدقة الأضحية، وكذلك الصدقة في رمضان بطعام أو لحم أو كسوة على مستحق، أو نقود يُنتفع بها، وأهديت أجرها لأخيك أو لأبيك، فإنه ينتفع بذلك ويصل إليه أجرها. وكذلك كل الأعمال المالية ونحوها.

أما العمل الذي يتكون من العمل البدني والمال، مثل: الحج، فالبدني: ركوب الحاج وتعبه في بدنه وإحرامه وطوافه ووقوفه ورميه، وما أشبه ذلك. أما المالي:

(١) تقدم تحريجه (٤/٤٥٥).

فنفقته في ذهابه وإيابه، وذيبحته التي يذبحها فديةً، هذه أعمال مالية. فإن كان هذا المال من الميت أو من تركته إذا أوصى بها أو نحو ذلك فإن أعمال هذا العامل تكون لهذا الميت؛ لأنه وصل إلى تلك المشاعر بسبب هذا المال، وكأنه لم يكن يقوى على الوصول إليها لو لا ذلك المال، فكان العمل متسبباً عن ذلك المال، فكان أجره لصاحب ذلك المال. ولذلك يقولون: تصح الاستنابة في الحج والأجر للمحجوج عنه الذي دفع المال. والناس على هذا.

ونقول تعليقاً على هذا: إن الذي يحج عن غيره بإل يأخذه، لا يجوز ذلك له إلا إذا كان عاجزاً عن الحج بهاله، كالفقير الذي لا يستطيع الوصول إلى الحج لفقره، فيأخذ هذا المال ويستعمله ليصل إلى المناسك، فيؤجر على حجّه، ويكون الأجر الأصلي لصاحب المال.

أمور العقيدة تتعرض لكل شيء فيه خلاف مع المبتدعة، ولو كان من الفروع، ولو كان المخالف فيه مخالفاً لنص ظاهر، ولو كان المخالفون فيه قليلاً. ومن ذلك: مسألة وصول الثواب إلى الأموات، كالأعمال التي يعملها الأحياء إلى الأموات، ويسمى: إهداء الأعمال إلى الأموات. وقد ورد ما يدل على وصول بعض الأعمال، وخصّها بعضهم بما تسبب فيه الميت؛ كقوله ﷺ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(١).

(١) تقدم تخريجه (٤/٤٥٠).

فالصدقة الجارية: كالأوقاف والأحباس التي وقفها في حياته، كبناء المساجد، وعمل سبل الماء يتنفع بها ابن السبيل، وبناء المدارس، وكذا الصدقات التي فيها غلات، كوقف ثمار النخيل على الفقراء أو الحج أو الجهاد. ونحو ذلك. وأما العلم الذي يتنفع به: فهو الكتب التي كتبها وألفها، أو العلم الذي علمه من يوصله إلى الناس، فإنه ما دام يتنفع به يأتيه أجر.

وأما الولد الصالح: فيعم الذكر والأنثى من ذريته وذرية ذريته، الذين يدعون له. وأصل الدعاء: سؤال الله للميت مغفرة ورحمة وثواباً وتخفيف حساب، ونحو ذلك.

والأحياء يدعون للأموات، وأول ما يدعون له في صلاتهم على الجنائز، عندما يقدم الميت بين يدي المصلين، فيدعون له بالرحمة والمغفرة، وبتكفير الذنب، وإدخال الجنة، وما أشبه ذلك. وهو يتنفع بذلك؛ لأن هذا من السنة.

وأما بقية الأعمال: فانفقوا بأن من تبرع بصدقة عن ميت يصله أجرها، سواء كانت عيناً أو طعاماً أو لحماً أو كسوة، كل ذلك داخل في قوله ﷺ: «إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ». وتلك الصدقة تعم ما إذا كان الميت هو الذي سبب تلك الأسباب، أو تصدق بها عنه ذريته، أي: تبرعوا عنه بهال يتصدق بغلته، فيتنفع هو بتلك الصدقة التي تصدقوا بها عنه، وجعلوا أجرها للميت، ويدخل في ذلك الأضاحي إذا أوصى بها، أو ذبحت عنه، فإنها من جملة الصدقات.

وأما الصدقات الأخرى: فيصل أجرها، فإذا تصدق عنه ولده أو قريبه، صدقة على فقير أو مسكين، أو ابن سبيل، أو على ذي حاجة، قريب أو بعيد، ثم

أهدى أجرها للميت، نفعه ذلك. وكذلك إذا أطعم الطعام، أو كسا كسوة، ونوى أجرها لميته، نفعه ذلك؛ لأن هذا كله من الصدقات التي إذا تبرّع بها ونوى أجرها للميت، وصل أجرها بمجرّد النية. ويدخل في ذلك أيضًا الصدقات التي يتبرّع بها غير القريب، كأن يتصدّق عنه أحد معارفه؛ لأنّه نفعه، أو لأنّه نفع غيره من المسلمين، فإن ذلك يصل إليه.

ولا شك أيضًا أنّ الدعاء يصل إلى الأموات أجره، وقد علّمنا النبي ﷺ الصلاة على الميت، والدعاء له، وكذلك فعل ذلك بنفسه، فدعا بهذه الأدعية للميت، ودعا بالدعاء العام كقوله: «اللهم اغفر لحينا وميتنا، وصغيرنا وكبيرنا، وذكرنا وأنثانا، وشاهدنا وغائبنا»^(١). ولولا أنّه ينتفع بذلك لما شرع هذا الدعاء، وكذلك الدعاء إذا زار القبور، فقد علّم الصحابة أن يدعوا للأموات: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَلَاحِقُونَ، أَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمْ الْعَافِيَةَ»^(٢). والسلام وحده دعاء، فيسألون الله لهم السلامة من العذاب، والسلامة من الآفات ونحوها.

وكل ذلك دليل على أنّه يصلهم الدعاء؛ لأنّه سؤال من الله، يسأل العبد ربّه

(١) أخرجه أبو دود (٣٢٠١)، والترمذي (١٠٢٤)، والنسائي في الكبرى (١٠٨٥٢)، وابن

ماجه (١٤٩٨)، وأحمد (٣٦٨/٢)، وابن حبان (٣٣٩/٧)، والحاكم (٣٥٨/١)، من

حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخرجه (٤٥٤/٤).

أن يرحم الميت ويتجاوز عنه، فالله تعالى إن استجاب لهذا الدعاء، وصل أجره، ووصل أثره إلى ذلك الميت، وانتفع بهذا الدعاء، فكان للميت أجر، وللحيّ الداعي أجر أيضًا، كما يكون إذا دعا للغائب؛ لقوله ﷺ: «دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ، كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ»^(١). وكذلك الدعاء للميت.

كذلك أيضًا بقيّة الأعمال ولو كانت بدنيّة، الراجح أنه يصله أجرها، وقد يُستثنى من ذلك بعض الأشياء التي يكون فيها العمل لغير الله، أو العمل غير الخالص.

فمثلاً: يكثر التساهل في إعطاء الإنسان أجرة على أن يحجّ عن الميت، فهل يصل الثواب إلى المحجوج عنه، أو لا يصل إليه؟

نقول: يختلف ذلك باختلاف حالة الحاجّ الذي أخذ هذا المال ليحجّ به، ننظر في حالته إن كان قصده المال، فلا حجّ له، وإن كان قصده الحجّ فله حجّ. وكيف يكون قصده المال؟ إذا كان مثلاً: يريد أن يأخذ المال كتجارة، أو كرأس مال، أو يتزوج به، لا أنّه يريد أن ينفقه في الحجّ حتّى يتيسّر له الحجّ. فالذي يقصده بأخذه المال أن يحجّ، ويقول: أنا عاجز عن الحجّ، وعاجز عن نفقه الحجّ، وأحبّ أن أحج، وأتمنى أن أفق في تلك المشاعر، وأن تعمّني الرحمة، وأن تنزل عليّ المغفرة، وأكون ممن يباهي الله بهم الملائكة، وأتدللّ الله تعالى بإظهار الذل والاستضعاف

(١) تقدم تحريجه (٤/٤٥٧).

بين يديه، ولكن يعوقني المال، ولا أجده لفقري وفاقتي، فأخذ هذا المال، وأنفق منه على أهلي وولدي، وأنفق منه على سفري وطريقي، ولا أجعل الباقي زيادةً، ولا آخذ إلا قدر الكفاية. فمثل هذا يقبل حجّه، ويكون له أجر على حجّه، ويكون للمحجوج عنه أجرُ الحجّة التي هي ما دفعه إليه.

أما إذا كان قادراً على أن يحجّ بهاله، وليس له رغبة في الحجّ، ولكن ما أراده هو أن يأخذ هذا المال، ليزيد به ماله إن كان له مال، ولم يكن من الذين يشتاقون إلى الحجّ، وإلى الوقوف في المشاعر، ولا همّة له في ذلك، إنّما همته هذا المال الذي بذل له، والذي أخذه، فتراه مثلاً: يكفيه لذهابه وإيابه ألفان، ولكنّه يزاود، ويقول: فلان يعطي خمسة آلاف، وفلان يعطي ثمانية أو ستة أو نحو ذلك، وكأنّه ما يريد هذا الحجّ إلا لهذا المال، فيدخل فيمن يريد الدنيا بعمل الآخرة. ويدخل في قول النبي ﷺ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدَّرْهَمِ»^(١)، أي: أنّه عبد هذا المال؛ لأنّه عمل عملاً صالحاً يُتَبَغَى به وجه الله، ولكنّه لم يعمله إلا ابتغاء هذا الذي عبده وهو المال، فهذا ولو أعطيته عشرة آلاف فأجر حجّته ناقص، ويدخل في الذين ذمهم الله تعالى بقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِيَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ [هود: ١٥]، وقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٦) من حديث أبي هريرة ؓ.

فليتفطن من يدفع أجر حجّته، وليسأل ذلك الحاجّ: ماذا تريد من حجّتك؟ المال أو الحجّ؟ فإن كنت تريد الحجّ مشتاقاً إليه، فلك أجرك، وإن كنت تريد المال، فلن يكون لك أجر بهذه الحجّة، وخير لي أن أتصدّق بهذا المال على الفقراء والمساكين.

أمّا إن كان هذا الذي يريد أن يحجّ فقيراً، ونويت بالزيادة أن تتصدّق عليه؛ لكونه من الذين تحلّ لهم الصدقة، فلك أجر على هذه النية، ولو كانت نيته هو غير الحج، ووجدت أنّه قد ينتفع بهذا الحج، وإنما قصده المال، وهو من أهل الاستحقاق، كان للميت أجر الصدقة، فينتفع الميت سواء بأجر الصدقة وأجر الحج.

قال الشارح:

وَالْجَوَابُ عَمَّا اسْتَدَلُّوا بِهِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩]، قَدْ أَجَابَ الْعُلَمَاءُ بِأَجْوِبَةٍ: أَصَحُّهَا جَوَابَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْإِنْسَانَ بِسَعْيِهِ وَحُسْنِ عِشْرَتِهِ اِكْتَسَبَ الْأَصْدِقَاءَ، وَأَوْلَادَ الْأَوْلَادِ، وَنَكَحَ الْأَزْوَاجَ، وَأَسَدَى الْخَيْرَ وَتَوَدَّدَ إِلَى النَّاسِ، فَتَرَحَّمُوا عَلَيْهِ، وَدَعَوْا لَهُ، وَأَهْدَوْا لَهُ ثَوَابَ الطَّاعَاتِ، فَكَانَ ذَلِكَ أَثْرَ سَعْيِهِ، بَلْ دُخُولُ الْمُسْلِمِ مَعَ جُمْلَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي عَقْدِ الْإِسْلَامِ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ فِي وُصُولِ نَفْعِ كُلِّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى صَاحِبِهِ، فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ، وَدَعْوَةُ الْمُسْلِمِينَ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ.

يُوضِّحُهُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الْإِيمَانَ سَبَبًا لِانْتِفَاعِ صَاحِبِهِ بِدَعَائِ إِخْوَانِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَعْيِهِمْ، فَإِذَا أَتَى بِهِ فَقَدْ سَعَى فِي السَّبَبِ الَّذِي يُوصِلُ إِلَيْهِ ذَلِكَ. الثَّانِي - وَهُوَ أَقْوَى مِنْهُ -: أَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْفِ انْتِفَاعَ الرَّجُلِ بِسَعْيِ غَيْرِهِ، وَإِنَّمَا نَفَى مِلْكَهُ لِغَيْرِ سَعْيِهِ، وَبَيَّنَّ الْأَمْرَيْنِ مِنَ الْفَرْقِ مَا لَا يَخْفَى، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ إِلَّا سَعْيُهُ، وَأَمَّا سَعْيُ غَيْرِهِ فَهُوَ مِلْكٌ لِسَاعِيهِ، فَإِنْ شَاءَ أَنْ يَبْدُلَهُ لِغَيْرِهِ، وَإِنْ شَاءَ أَنْ يُثْقِيَهُ لِنَفْسِهِ.

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿الْأَنْزِلُ وَالرِّزْقُ وَالرِّزْقُ وَالرِّزْقُ﴾ (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٨، ٣٩]، آيَاتِنِ مُحْكَمَتَانِ، مُقْتَضِيَتَانِ عَدَلَ الرَّبِّ تَعَالَى:

فَالْأُولَى: تَقْتَضِي أَنَّهُ لَا يُعَاقِبُ أَحَدًا بِجُرْمِ غَيْرِهِ، وَلَا يُؤَاخِذُهُ بِجَرِيرَةِ غَيْرِهِ، كَمَا يَفْعَلُهُ مُلْكُ الدُّنْيَا.

وَالثَّانِيَةُ: تَقْتَضِي أَنَّهُ لَا يُفْلِحُ إِلَّا بِعَمَلِهِ؛ لِيَقْطَعَ طَمَعَهُ مِنْ نَجَاتِهِ بِعَمَلِ آبَائِهِ
وَسَلْفِهِ وَمَشَائِخِهِ، كَمَا عَلَيْهِ أَصْحَابُ الطَّمَعِ الْكَاذِبِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَقُلْ:
لَا يَنْتَفِعُ إِلَّا بِمَا سَعَى.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا
تُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤]، عَلَى أَنَّ سِيَاقَ هَذِهِ الْآيَةِ يُدَلُّ عَلَى أَنَّ
الْمَنْفِيَّ عُقُوبَةُ الْعَبْدِ بِعَمَلِ غَيْرِهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿فَالْيَوْمَ لَا نُظَلِّمُ نَفْسًا شَيْئًا وَلَا
تُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤].

وَأَمَّا اسْتِدْلَالُهُمْ بِقَوْلِهِ ﷺ: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ»^(١)، فَاسْتِدْلَالٌ
سَاقِطٌ، فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ انْقَطَعَ انْتِفَاعُهُ، وَإِنَّمَا أَخْبَرَ عَنِ انْقِطَاعِ عَمَلِهِ. وَأَمَّا عَمَلُ غَيْرِهِ
فَهُوَ لِعَامِلِهِ، فَإِنْ وَهَبَهُ لَهُ وَصَلَ إِلَيْهِ ثَوَابُ عَمَلِ الْعَامِلِ، لَا ثَوَابَ عَمَلِهِ هُوَ،
وَهَذَا كَالَّذِينَ يُوقِّفُهُ الْإِنْسَانُ عَنْ غَيْرِهِ، فَتَبَرَأَ ذِمَّتُهُ، وَلَكِنْ لَيْسَ لَهُ مَا وَفَى بِهِ الْمَدِينِ.

وَأَمَّا تَفْرِيقُ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْعِبَادَاتِ الْمَالِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ، فَقَدْ شَرَعَ النَّبِيُّ ﷺ
الصَّوْمَ عَنِ الْمَيْتِ. كَمَا تَقَدَّمَ. مَعَ أَنَّ الصَّوْمَ لَا تُجْزَى فِيهِ النَّيَابَةُ، وَكَذَلِكَ حَدِيثُ
جَابِرٍ ﷺ، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِيدَ الْأَضْحَى، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَى
بِكَبْشٍ فَذَبَحَهُ، فَقَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُمَّ هَذَا عَنِّي وَعَمَّنْ لَمْ يُضْحَ مِنْ
أُمَّتِي». رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ^(٢).

(١) تقدم تخريجه (٤/٤٥٠).

(٢) أخرجه أحمد (٣/٣٥٦)، وأبو داود (٢٨١٠)، والترمذي (١٥٢١).

وَحَدِيثُ الْكَبَشِيِّنِ اللَّذِينَ قَالَ فِي أَحَدِهِمَا: «اللَّهُمَّ هَذَا عَنْ أُمَّتِي جَمِيعًا»،
وَفِي الْآخَرِ: «اللَّهُمَّ هَذَا عَنْ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ». رَوَاهُ أَحْمَدُ^(١). وَالْقُرْبَةُ فِي الْأُصْحَابِيَّةِ
إِرَاقَةُ الدَّمِ، وَقَدْ جَعَلَهَا لِغَيْرِهِ.

وَكَذَلِكَ عِبَادَةُ الْحَجِّ بَدَنِيَّةٌ، وَلَيْسَ الْمَالُ رُكْنًا فِيهِ، وَإِنَّمَا هُوَ وَسِيلَةٌ، أَلَا تَرَى
أَنَّ الْمَكِّيَّ يَجِبُ عَلَيْهِ الْحَجُّ إِذَا قَدَرَ عَلَى الْمَشْيِ إِلَى عَرَفَاتٍ، مِنْ غَيْرِ شَرْطِ الْمَالِ.
وَهَذَا هُوَ الْأَظْهَرُ، أَعْنِي أَنَّ الْحَجَّ غَيْرَ مُرَكَّبٍ مِنْ مَالٍ وَبَدَنِ، بَلْ بَدَنِيٌّ مُحْضٌ، كَمَا
قَدْ نَصَّ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ الْمُتَأَخِّرِينَ.

وَأَنْظُرْ إِلَى فُرُوضِ الْكِفَايَاتِ: كَيْفَ قَامَ فِيهَا الْبَعْضُ عَنِ الْبَاقِيْنَ؟
وَلِأَنَّ هَذَا إِهْدَاءُ ثَوَابٍ، وَلَيْسَ مِنْ بَابِ النَّيَابَةِ، كَمَا أَنَّ الْأَجِيرَ الْخَاصَّ لَيْسَ
لَهُ أَنْ يَسْتَنْبِ عَنَّهُ، وَلَهُ أَنْ يُعْطِيَ أَجْرَتَهُ لِمَنْ شَاءَ.

قال الشيخ:

تقدم أن مذهب الجمهور أن الميت يتنفع بأعمال الحي إذا أهداها إليه، وأن
هناك بعض المبتدعة الذين أنكروا الانتفاع كلياً، وهناك البعض منهم فرق بين
الأعمال البدنية والأعمال المالية والأعمال القولية، فأوصل ثواب الأعمال القولية
كالدعاء، والمالية كالصدقة، ومنع وصول الأعمال البدنية كالحج والجهاد والصلاة
والصوم.

(١) في المسند (٦/ ٣٩١) من حديث أبي رافع مولى رسول الله ﷺ.

وأما قول الجمهور: فإنهم يرون وصول الجميع، وانتفاع الميت بالجميع.
والذين منعوا استدلوا بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ نَزَرُوا نَزْرَهُمْ وَزَرُّوا آخَرِيَّ﴾ (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ
لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿ [النجم: ٣٨، ٣٩]، فقالوا: معنى قوله: ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا
مَا سَعَى ﴾، أي: لا ينفعه إلا سعيه وعمله، أما سعي غيره وعمله، فلا ينتفع به
وليس له. هكذا قالوا.

وأجاب العلماء بجوابين:

الأول: أن الإنسان إذا اكتسب بأفعاله، ويحسن معاملته الأصدقاء، فكأثم
له، ينتفع بدعائهم؛ لأثم من سعيه وكسبه، وكذلك إذا تزوج الزوجة فقد
اكتسبها، وأنجب الأولاد، فالأولاد أيضًا من كسبه وسعيه، فأصدقائه الذين
اكتسبهم في حياته، يدعون له فينتفع بدعائهم، وينتفع بصدقاتهم، وكذلك أولاده
الذين يدعون له ويتصدقون عنه، مقابل تربيته لهم، ومقابل برّهم، وحنانه
وحده عليهم، وكذلك زوجاته وبناته ونحو ذلك، كلهم لما أنه أسدى إليهم
معروفًا، وفعل معهم خيرًا، فإن عملهم يكون مقابل ما عمله، فذلك يكون في
سعيه وفي كسبه، ويدخل في قوله: ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾.

والثاني: أن الآية ليس فيها نفي الانتفاع، ولكن فيها نفي الملك، والمعنى:
ليس يملك الإنسان إلا سعيه، أما سعي غيره، فإنه ملك لذلك الغير. فالغير هو
الذي يملك عمله، فنقول: أنت الذي تملك دعائك، وأنت الذي تملك عملك،
وأنت الذي تملك صدقتك، وتملك بدنك ومالك، فإذا أهديت لذلك الميت الذي

بينك وبينه قرابة، وأشركته بعملك وبدعائك وبصدقتك، فقد أهديته له، فينتفع به. وليس في الآية إلا نفي الملكية، لا نفي الانتفاع، ولم يقل: ليس للإنسان أن ينتفع إلا بما سعى، بل قال: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾، أي: ليس يملك الإنسان إلا سعيه. وبذلك يعرف أن الآية نصّ في أن الميت ينتفع، أو ليس فيها نفي الانتفاع بعمل غيره.

وقد ذكرنا الحديث: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ...»^(١)، أي: عمله البدني؛ انقطع ذكره بلسانه، وانقطع صومه ببدنه، وانقطعت صلواته ببدنه، ولكن لا ينفي أن غيره إذا أهدى إليه شيئاً من الأعمال، فإنه ينتفع بذلك.

وقد ذكروا أن الأعمال إما أن تكون بدنية محضة؛ كالصلاة والصوم وحبّ أهل مكة إلى عرفة على أقدامهم، فهذا يعدّ عملاً بدنياً محضاً، وهناك عمل ماليّ محض كالكفّارات والزّكوات والصدقات، فهذا عمل ماليّ محض. وهناك أعمال قولية؛ كالدعاء، والأذكار، والقراءة، والأوراد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما أشبه ذلك. وهناك أعمال مركّبة من القول والبدن؛ كالصلاة، فإنّ فيها ركوع وسجود وقراءة وأذكار، فهي قولية بدنية. وهناك أعمال مركّبة من المال والأعمال البدنية كالحج؛ إذ فيه الطواف والوقوف بعرفة والسعي، والرمي، والمالي من نفقته على نفسه، وأجرة ركوبه، ونفقه أهله في غيابه، وذبح فديته، وما أشبه ذلك من الأركان الماليّة. وكذا الجهاد، فهو مركّب من المال والبدن، كما قال تعالى:

(١) تقدم تحريره (٤/٤٥٠).

﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٢]، فهذا من العمل البدني الواحد.

والأصل أن الجميع سواء في إهدائها للميت، وقد دلّ على الإهداء الماليّ هذه الأحاديث في الأضاحي: قد مرّ بنا أن النبي ﷺ: ضَحَّى بكبشين. أحدهما عن محمد وآل محمد، والثاني: عن أمة محمد، أو عمّن لم يضحّ من أمة محمد. وهذا دليل على أنهم ينتفعون بهذه الأضحية التي ذبحها عنهم نبينا ﷺ، سواء كانوا أحياء أو أمواتًا. فما المانع من أن تكون الأضحية للميت من جملة الصدقات يصل إليه أجرها، كما يصل إليه أجر الصدقة التي أجزاها هو وأوصى بها. فإذا تبرّع له صديقه بأضحية، أو بعض أضحية، استفاد من أجرها.

ومن هذا الحديث أخذوا جواز الاشتراك في الأضحية؛ لأن النبي ﷺ جعلها عمّن لم يضحّ من أمته، ولو كانوا مئات أو ألوفًا، فجعلها مشتركة بينهم. وكذلك التشريك للأحياء، يعني أنّها إذا ذبحها عن أهل بيته، وصل إليهم أجرها، ولو كانوا كثيرًا. ودلّ على أنهم ينتفعون بعمل غيرهم، وبمال غيرهم. هذا بالنسبة إلى الأعمال الماليّة.

وقد تقدّم قول النبي ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيِّهُ»^(١). مع أن الصيام عمل بدنيّ، ولا يخسر الصائم مالا، إنّما عمله كلّه بدني. وقد يقال مثلاً: إنّ المصلّي يخسر مالا إذا استأجر من يركبه إلى المسجد، أو إذا اشترى قيمة الوضوء

(١) تقدم تخريجه (٤/٤٥٥).

كالماء ونحوه، أو احتاج إلى سترة يستر بها عورته للصلاة، فإنه يحتاج إلى المال. فإذا صحَّ أن يصوم ويهدي صومه للميت، أو أن يقضي الصيام عن الميت، إن كان غلي الميت صيام كالكفارة والنذر، وهو بدني محض، فبطريق الأولى أن تصحَّ بقيّة الأعمال البدنيّة إذا تبرّع بها.

ويقال هذا أيضًا في الأعمال القوليّة، قياسًا على الدّعاء، فإذا ذكر الله وأهدى ثواب هذا الذكر للميت، أو ما أشبه ذلك، وصل إليه هذا الأجر.

وكذلك إذا تبرّع الحيّ للميت بالعمل؛ إلى أهلك أو أخيك أو صديقك وحبيبك الذي له حقّ عليك وله منّة عليك، فأنت تجازيه بأن تضحّي عنه، أو أن تحجّ عنه، أو أن تهديه ثواب عمل لك، أو تصدّق عنه، فلا شكّ أنّه ينتفع بذلك، ولو كان عمل غيره.

قال الشارح:

وَأَمَّا اسْتِجَارُ قَوْمٍ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ وَيُهْدُونَهُ لِلْمَيِّتِ!! فَهَذَا لَمْ يَفْعَلْهُ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ، وَلَا أَمَرَ بِهِ أَحَدٌ مِنْ أئِمَّةِ الدِّينِ، وَلَا رَخَّصَ فِيهِ. وَالِاسْتِجَارُ عَلَى نَفْسِ التَّلَاوَةِ غَيْرُ جَائِزٍ بِلَا خِلَافٍ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا فِي جَوَازِ الْإِسْتِجَارِ عَلَى التَّعْلِيمِ وَنَحْوِهِ، مِمَّا فِيهِ مَنَفَعَةٌ تَصِلُ إِلَى الْغَيْرِ. وَالثَّوَابُ لَا يَصِلُ إِلَى الْمَيِّتِ إِلَّا إِذَا كَانَ الْعَمَلُ لِلَّهِ، وَهَذَا لَمْ يَقَعْ عِبَادَةٌ خَالِصَةً، فَلَا يَكُونُ ثَوَابُهُ مِمَّا يُهْدَى إِلَى الْمَوْتَى!! وَهَذَا لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ: إِنَّهُ يَكْتَرِي مَنْ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيُهْدِي ثَوَابَ ذَلِكَ إِلَى الْمَيِّتِ، لَكِنْ إِذَا أُعْطِيَ لِمَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيُعَلِّمُهُ وَيَتَعَلَّمُهُ مَعُونَةً لِأَهْلِ الْقُرْآنِ عَلَى ذَلِكَ، كَانَ هَذَا مِنْ جِنْسِ الصَّدَقَةِ عَنْهُ، فَيَجُوزُ.

وَفِي الْإِخْتِيَارِ: لَوْ أَوْصَى بِأَنْ يُعْطَى شَيْءٌ مِنْ مَالِهِ لِمَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ عَلَى قَبْرِهِ، فَالْوَصِيَّةُ بَاطِلَةٌ؛ لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى الْأُجْرَةِ، انْتَهَى.

وَذَكَرَ الرَّاهِدِيُّ فِي «الْقُنْيَةِ»^(١): أَنَّهُ لَوْ وَقَفَ عَلَى مَنْ يَقْرَأُ عِنْدَ قَبْرِهِ، فَالْتَّعْيِينُ بَاطِلٌ.

وَأَمَّا قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ وَإِهْدَاؤُهَا لَهُ تَطَوُّعًا بِغَيْرِ أُجْرَةٍ، فَهَذَا يَصِلُ إِلَيْهِ، كَمَا يَصِلُ ثَوَابُ الصَّوْمِ وَالْحَجِّ.

فَإِنْ قِيلَ: هَذَا لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا فِي السَّلَفِ، وَلَا أُرْسَدَهُمْ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ؟

(١) هو: «قنية المنية لتتميم الغنية»، لأبي الرجاء نجم الدين مختار بن محمود الزاهدي الحنفي،

الموتى سنة ثمان وخمسين وستائة. انظر: كشف الظنون (٢/١٣٥٧).

فَالْجَوَابُ: إِنْ كَانَ مُورِدُ هَذَا السُّؤَالِ مُعْتَرِفًا بِوُضُوحِ ثَوَابِ الْحَجِّ وَالصَّيَامِ
وَالدُّعَاءِ، قِيلَ لَهُ: مَا الْفَرْقُ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ وُضُوحِ ثَوَابِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ؟ وَلَيْسَ
كَوْنُ السَّلَفِ لَمْ يَفْعَلُوهُ حُجَّةً فِي عَدَمِ الْوُضُوحِ، وَمِنْ أَيْنَ لَنَا هَذَا النَّفْيُ الْعَامُّ؟
فَإِنْ قِيلَ: فَرَسُوعُ اللَّهِ ﷺ أَرَشَدَهُمْ إِلَى الصَّوْمِ وَالْحَجِّ وَالصَّدَقَةِ دُونَ
الْقِرَاءَةِ؟ قِيلَ: هُوَ ﷺ لَمْ يَتَّبِعْهُمْ بِذَلِكَ، بَلْ خَرَجَ ذَلِكَ مِنْهُ مَخْرَجَ الْجَوَابِ لَهُمْ،
فَهَذَا سَأَلَهُ عَنِ الْحَجِّ عَنْ مِثِّهِ، فَأَذِنَ لَهُ فِيهِ، وَهَذَا سَأَلَهُ عَنِ الصَّوْمِ عَنْهُ، فَأَذِنَ لَهُ
فِيهِ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ، وَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ وُضُوحِ ثَوَابِ الصَّوْمِ - الَّذِي هُوَ
مُجَرَّدُ نِيَّةٍ وَإِمْسَاكِ - وَبَيْنَ وُضُوحِ ثَوَابِ الْقِرَاءَةِ وَالذِّكْرِ؟

قال الشيخ:

يقع في بعض البلاد التي يغمرها الجهل، أو تكثر فيها البدع، إذا مات الميت
في اليوم الأول والثاني والثالث، أو في الأسبوع الأول أو الثاني أو الثالث، أتهم
بجمعون عشرة أو عشرين من القراء، ويقولون لهم: اقرؤوا القرآن، وأهدوا ثوابه
إلى أبنائنا أو أرحامنا، ولكم بكل جزء تقرؤونه كذا وكذا من المال!! أولئك القراء
لم يقرؤوا لله، وإنما قرؤوا للمال، وإذا كانوا قرؤوا للدنيا والمال، فهل لهم ثواب؟
من قرأ من أجل الدنيا ليس له ثواب، فإن لم يكن له ثواب، فماذا للذي يهدونه؟
ليس له شيء؛ لأنها قراءة لأجل الدنيا، وليست لأجل الله ولا الثواب.

فلأجل ذلك يقال: هذا من البدع، ثم هو من الضياع، ثم هو من إقرار
الشرك، فإن هذا الذي قرأ عملاً أخروياً لأجل الدنيا، فيدخل فيمن أراد

الدنيا بعمل الآخرة. فهذا لا يجوز.

فلو طلب منك شخص أن تقرأ ختمة من القرآن وتجعل ثوابها لوالده أو والدته مقابل مبلغ من المال، فلا تفعل؛ لأنك تكون قد قرأت القرآن لأجل هذا المال، لا لأجل الله، ولا لأجل الحسنات، فقد عملت لأجل الدنيا عملاً أخروياً. فأولاً: مثل هذا لم يفعله السلف، ولم ينقل عن الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة.

وثانياً: فيه هذا المقصد السيئ، الذي هو العمل لأجل الدنيا، مع أن العمل من الأعمال الصالحة، فلا يكون للميت أجر على هذا. بخلاف ما إذا قرأت ختمة أو جزءاً أو أجزاء وقلت: اللهم اجعل ثوابها لوالدي أو لوالدي، أو لجددي أو لعمتي، فلا مانع من وصول الأجر؛ لأنك ما قرأت من أجل الدنيا، ولكن قرأت من أجل الآخرة، عملت عملاً أخروياً، ثم تبرعت به لقريبك المتوفى فلا مانع من وصول الثواب إليه.

ويدل على ذلك أن النبي ﷺ سُئِلَ عن الحج عن الميت، أو الحج عن العاجز، فأقر ذلك؛ كما ورد في حديث الخثعمية التي قالت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فَرِيضَةَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي الْحُجِّ أَذْرَكَتْ أَبِي شَيْخًا كَبِيرًا لَا يَتْبُتُ عَلَى الرَّاحِلَةِ، أَفَأَحُجُّ عَنْهُ؟ قال: «نعم»^(١). فهذا دليل على جواز الحج عن الأب ونحوه.

كذلك المرأة التي قالت: إِنَّ أُمَّي مَاتَتْ وَعَلَيْهَا صَوْمٌ نَذِيرٌ، أَفَأَصُومُ عَنْهَا؟

(١) أخرجه البخاري (١٥١٣)، ومسلم (١٣٣٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال: «أَرَأَيْتَ لو كان على أُمَّكَ دَيْنٌ فَقَضَيْتَهُ، أَكَانَ يُؤَدِّي ذَلِكَ عَنْهَا؟» قالت: نعم، قال: «فَصُومِي عَنْ أُمَّكَ»^(١). أمرها بأن ترضي الصوم عن والدتها؛ لأنه دين لله، كما يرضى الدين المالي عن العباد، فدين الله أحق بالوفاء.

وكذلك أمر بالصدقة، لَمَّا جاءه رجلٌ وقال: إِنَّ أُمَّي افْتَبَتَتْ نَفْسُهَا، وَلَمْ تُوصِ، وَأَظْنُهَا لو تَكَلَّمْتُ تَصَدَّقْتُ، أَفَلَهَا أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ»^(٢). فهذه الأعمال أقرها، ومع ذلك لم ينف غيرها، بل ظاهره أن ما يشبهها يلحق بها، فيلحق بذلك بقية الأعمال بدنية أو مالية.

وقد مر بنا أنهم اختلفوا في التعليم بأجرة، وهو تعليم القرآن: كمن استأجر من يعلم ولده، وذلك لأن ذلك أجرة على التلقين، وعلى التعب؛ فالذي يعلم الأطفال لا شك أنه يبذل جهداً، ويقطع وقتاً، ويتعب نفسه في تلقين هذه الآية، وفي تصحيح هذا الخطأ، ولذلك فالتعليم يعد عملاً. ولهذا أقر النبي ﷺ الذين أخذوا الأجرة على الرقية، فقد مرّ نَفَرٌ من أصحاب النبي ﷺ بِمَاءٍ فِيهِمْ لَدِيغٌ، فَعَرَّضَ لَهُمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَاءِ، فَقَالَ: هَلْ فِيكُمْ مَنْ رَاقٍ؟ إِنْ فِي الْمَاءِ رَجُلًا لَدِيغًا، فَانْطَلَقَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَقَرَأَ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ عَلَى شَاءٍ، فَبَرَأَ، فَجَاءَ بِالشَّاءِ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَكَرِهُوا ذَلِكَ، وَقَالُوا: أَخَذْتَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ أَجْرًا؟ حَتَّى قَدِمُوا الْمَدِينَةَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخَذَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ أَجْرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ أَحَقَّ مَا

(١) تقدم تحريجه (٤/٤٦٠).

(٢) تقدم تحريجه (٤/٤٥٥).

أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللَّهِ»^(١). فأقرهم على ذلك، وقال في رواية أخرى: «قد أَصَبْتُمْ، أَقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْمًا»^(٢)، تطيباً لنفوسهم. فيعدّ أخذ الأجر على تعليم القرآن كسائر أنواع التعليم، وقد ثبت أنه ﷺ: جعل تعليم القرآن قائماً مقام المهر قائلاً: «قَدْ رَوَّجْنَا كَهَا بِنَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»^(٣). كذلك يقال في تعليم بقيّة العلوم: يجوز أخذ الأجرة على التعليم؛ لأنه مقابل التعب، ومقابل التلقين، وما أشبه ذلك. بخلاف العمل الذي يعمله الله تعالى، والذي يتغني الأجر به.

وتقدّم أنّ النبي ﷺ نهى عن أخذ الأجرة على الأذان، فقال: «وَأَتَّخِذُ مَوْذِنًا لَا يَأْخُذُ عَلَيَّ أَجْرًا»^(٤). ومنعوا أخذ الأجرة على الأعمال التي يختصّ صاحبها أن يكون من أهل القرية، وإنها رخصوا فيما يبذل من بيت المال، مقابل الالتزام بتلك الأعمال، كعمل الحسبة، وعمل الإمامة، والخطابة، والدعوة، ونحو ذلك. فلا يدخل ما يبذل لهم من بيت المال، في أتمهم عملوا عملاً صالحاً مما يُتغنى به وجه الله، ولم يعملوه إلاّ للدنيا.

وبكلّ حال، فإهداء الأعمال التي يتبرّع بها صاحبها يصل أجرها بإذن الله إن لم يكن عاملها قد أخذ عليها أجراً.

(١) أخرجه البخاري (٥٧٣٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٧٦) من حديث أبي سعيد الخدري ؓ.

(٣) أخرجه البخاري (٢٣١٠)، ومسلم (١٤٢٥) من حديث سهل بن سعد الساعدي ؓ.

(٤) أخرجه أبو داود (٥٣١)، والترمذي (٢٠٩)، والنسائي (٦٧٢)، وأحمد (٢١/٤)، والحاكم

(١/١٩٩)، والبيهقي (١/٤٢٩) من حديث عثمان بن أبي العاص ؓ.

نقول: إن مسألة إهداء الأعمال إلى الميت وانتفاع الميت بها تلحق بالأمر العقديّة؛ لأنّها: أوّلاً خالف فيها المبتدعة، وثانياً أنّها من الأمور الغيبية؛ لأنّ الأموات في عالم غير عالمنا، في برزخ بين الدنيا والآخرة، وانتفاعهم بها غيب عنّا، لا ندري ولا يظهر لنا وجه الانتفاع جلياً، ولأجل ذلك اعتمدنا فيه على الدليل، والأدلة التي اعتمدنا عليهم وإن لم تكن قطعيّة الثبوت، لكنّها ظنيّة أو غاليّة، فلأجل ذلك جعل هذا الباب في باب العقائد. وتقدّم ذكر الأمثلة، وكذلك ذكر الخلاف، والجواب عمّا استدللّ به المخالف، وذلك لأنّ المخالفين من المبتدعة اعتمدوا على الآية التي في سورة النجم: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩]، فقالوا: ليس للإنسان إلا ما سعى، وليس له إلا عمله.

وأجيب بأنّ الإنسان اكتسب الأصدقاء والأقارب ونحوهم، فاكسبته هذا يعتبر من سعيه، فإذا تصدّقوا عنه أو دعوا له أو حجّوا عنه، فذلك من آثار سعيه وكسبه؛ لأنه أحسن في حياته إلى أصدقائه وأقاربه، فأحسنوا إليه بعد موته جزاءً له على إحسانه لهم في حياته.

وأجيب أيضاً: بأنّ الآية في ملكيّة الإنسان لعمله وكسبه، ولا يملك سعي غيره وعمله ولو كان من أقرب الأقارب له، لكن إذا تبرّع به كان ملكاً لمن تبرّع له به، ويقاس ذلك على المال الذي تكتسبه فهو ملكك، ولكن متى تبرّع لك صديقك به، أو أعطاك عطية، وسمحت بها لنفسه، فإنّك تملك تلك الهدية، وتدخل في ملكك، وتنتقل من ملكه، وكذلك إذا عمل عملاً صالحاً، كحجّ

وجهاد وصدقة ودعاء ونحو ذلك، وأهداه إلى فلان الميت أو الحي، وجعل ثوابه له، فهذا في منزلة الهبة والعطية، ويصبح ثواب هذا العمل له بمنزلة مال الهدية الذي يدخل في ملكه.

وأما الحديث الذي استبدلوا به وهو قول النبي ﷺ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(١). فهذا أيضًا ظاهر الدلالة، ولكن ليس المراد أنه لا ينتفع إلا بهذه الثلاثة، ولكن المراد أنه لا يجري عليه ولا يملك إلا هي، ولكن متى تبرّع له ولده أو غيره بشيء فهو له، وكذلك إن تبرّع له صديقه بحجة عنه، أو صدقة عنه، أو بجهد أهدى ثوابه إليه، فما المانع من وصولها إليه؟ ولا شك أن ذلك يصل إليه.

وقد اتفق المسلمون على أنه ينتفع الميت بصلاتهم عليه ودعائهم له، وزيارته في قبره، والدعاء له، فالأموات ينتفعون من دعوات الأحياء بأشياء كثيرة، تنور عليهم في قبورهم، وتزيد في حسناتهم، وتخفف من خطاياهم، ولولا ذلك لما تصدق أحد عن أبويه، ولا تقرب عنهما بشيء. وهذا ظاهر والحمد لله في أنه ينتفع بما يهدى إليه من الأعمال.

وقد مر بنا الخلاف في إهداء الأعمال البدنية والانتفاع بها؛ كالصلاة والصوم الذي هو عمل بدني محض، وقد ذكر بعضهم أنه لا ينتفع أحد بذلك من صلاة أو

(١) تقدم تخرجه (٤/٤٥٠).

صيام أو حج، واستدلوا بأثر ابن عباس - رضي الله عنهما -: «لَا يُصَلِّي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ، وَلَا يَصُومُ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ، وَلَكِنْ يُطْعِمُ عَنْهُ مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مُدًّا مِنْ حِنْطَةٍ»^(١)، ولكن وردت الأدلة في الانتفاع بالصوم في قوله ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيَّهُ»^(٢). وَلَمَّا جَاءَتْ امْرَأَةٌ وَقَالَتْ: إِنَّ أُمَّي مَاتَتْ وَعَلَيْهَا صَوْمٌ نَذِرٌ، أَفَأَصُومُ عَنْهَا؟ قَالَ: «أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكَ دَيْنٌ فَقَضَيْتِيهِ، أَكَانَ يُؤَدِّي ذَلِكَ عَنْهَا؟» قالت: نعم، قال: «فَصُومِي عَنْ أُمِّكَ»^(٣). فأمرها بأن تصوم عن أمها، وسواء أكان هذا الصوم فرضاً أم نذراً، فإنه أقرها عليه، بل أمرها بذلك، وشبهه بقضاء الدين.

وعلى هذا فمعنى قوله: «لَا يُصَلِّي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ»، أي: لا يصلي أحد عن أحد وهو قادر، أي: لا يوكل أحد أخاه أن يصلي عنه فيقول: صلّ عني صلاة المغرب أو العشاء، أو أن تصوم عني هذا اليوم من رمضان وهو قادر، فهذا لا يجوز؛ لأن العبادَةَ وَجَّهَتْ إِلَى الْإِنْسَانِ الْقَادِرِ، وَلِذَلِكَ لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يُنَيَّبَ غَيْرَهُ، أَوْ أَنْ يُوَكَّلَ مَنْ يَعْمَلُ عَنْهُ ذَلِكَ الْعَمَلُ وَهُوَ قَادِرٌ؛ لِأَنَّ الْحِكْمَةَ فِي هَذِهِ الْعِبَادَةِ ظُهُورُ الْعِبُودِيَّةِ عَلَى الْفَرْدِ، فَأَنْتِ أَيْمًا الْعَبْدَ مَكْلَفٌ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَهَذِهِ الْعِبَادَةُ مُوجَّهَةٌ إِلَيْكَ، وَلَا بَدَأَ أَنْ تَظْهَرَ آثَارُهَا عَلَيْكَ، فَالصَّلَاةُ فُرْضَتْ عَلَى كُلِّ

(١) تقدم تخريجه (٤/٤٥٠).

(٢) تقدم تخريجه (٤/٤٥٥).

(٣) تقدم تخريجه (٤/٤٦٠).

مكلف، ولا يجوز أن يوكل عنه، فإن تذلّل المصلي يفوت بالتوكيل، المصلي يتذلّل ويخضع ويتواضع، ويظهر عليه الخشوع بين يدي ربه، وهذا لا يكون له إذا وُكِّل من يصلي عنه، فلا ينتفع بهذه الصلاة، ولا يحصل له بها تذلّل ولا خشوع ولا تضرّع ولا مسكنة بين يدي ربه.

وكذلك الصيام، شرع للامثال بترك الشهوة لله سبحانه، وترك الطعام والشراب وزوجته لأجل امثال أمر الله، فإن وُكِّل من يصوم عنه، ولو كان ولده، فأكل والناس ينظرون في رمضان مثلاً، كان غير متقبل لأمر الله، ولم يُجزئ عنه توكيله، بل لأجل ذلك قالوا: لا يوكل في العبادات البدنية، التي الحكمة منها إظهار الاستكانة والخضوع بين يدي الرب.

ويلحق بذلك حجّ الفريضة للقادر، فإذا كان الإنسان قادراً على الحجّ بالبدن وبالمال، فإنه في هذه الحالة يكلف بفعله، ولا يوكل فيه، ولا ينيب فيه حتى ولو من ماله؛ لأن الحكمة تقتضي الأمرين، تقتضي إنفاق المال في هذا السبيل، وتقتضي عمله بيده هذه المناسك، والأصل هو الأعمال التي كلف بها، والمراد من شرعية الحجّ أن يظهر أثر هذه الأعمال على المكلف، ولا يحصل إذا وُكِّل غيره، فمثلاً الحاج إذا أحرم خضع وخشع، وتمسك لله، بلباسه الذي فيه تجرد عن لباسه المعتاد، ولا تحصل له هذه المسكنة إذا وُكِّل غيره؟ وإذا أخذ يطوف حول البيت العتيق، يحصل له استضعاف وتذلّل، ويحصل له دعاء وتضرّع، ويحصل له إخبارات بين يدي ربه، وهذا لا يحصل له إذا وُكِّل من يحج عنه! وكذلك إذا وقف بعرفات وقف وهو خائف راج، وهو ذليل متواضع، وهو خاضع رأسه متذلّل

لربّه، هل تحصل هذه الحالة إذا وُكِّل من ينوب عنه؟ فالحجّ في الأصل هو العبادة البدنيّة. وعرفنا أنّه يتركب من المال والبدن، ولكن قد يكون بدنيًا محضًا؛ كالمكّيّ الذي لا يقدر على أن يستأجر دابّة أو سيارة يركبها، ولكنّه يقدر أن يمشي إلى عرفات وإلى منى ومزدلفة، يكون مكلفًا بأن يحجّ ولا يسقط عنه الحجّ، وحجّه بدنيّ ليس فيه شيء من المال؟ فدلّ على أنّ الأصل في العبادة تحريك هذا البدن في طاعة الله، ومن أجل ذلك لم يصحّ أن يوكل فيه، ولكن إذا حجّ فرضه مع القدرة، ثم تبرّع له ولده، أو تبرّع له أخوه، بأن أدّى عنه حجة أخرى، وأهداها إليه، أو طاف عنه طواف تطوّع، فلا شكّ أنّه ينتفع بذلك، ولو كان قادرًا.

أمّا إذا عجز عن الحجّ: إمّا لعيب في بدنه أو لقلّة في ماله، أو للصعوبة والمشقّة بينه وبين الحرم، فهو معذور إن وُكِّل غيره، أو قام غيره مقامه في هذا العمل، أو تبرّع له متبرّع.

عرف بذلك الفرق بين العبادات البدنيّة المحضة، وهي الصلاة والحجّ لمن هو في مكّة، وكذلك الجهاد إذا كان في البلد بالبدن، فمثل هذا يكون مكلفًا إن كان فرضًا، أمّا إن كان تطوّعًا فأهدي إليه، فلا مانع من أن ينتفع به.

أمّا الأعمال الأخرى، فإنّها تدخلها النيابة، ففي الأذكار، يصحّ أن يفعلها، ثم يهديها إلى أخيه أو قريبه. وكذلك الدعاء، فالإنسان مأمور أن يدعوا لأقاربه، أو للمسلمين عمومًا، وكذلك الصدقات، إذا تصدّق عن قريبه حيًّا أو ميتًا، فإنّه ينتفع بذلك، وهكذا بقيّة الأعمال.

قال الشارح:

فَإِنْ قِيلَ: مَا تَقُولُونَ فِي الْإِهْدَاءِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟
قِيلَ: مِنَ الْمَتَأَخِّرِينَ مَنْ اسْتَحَبَّهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ رَأَهُ بِدَعَاةٍ؛ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ
يَكُونُوا يَفْعَلُونَهُ، وَلِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ كُلِّ مَنْ عَمَلَ خَيْرًا مِنْ أُمَّتِهِ، مِنْ
غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِ الْعَامِلِ شَيْءٌ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي دَلَّ أُمَّتَهُ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ،
وَأَرْشَدَهُمْ إِلَيْهِ.

وَمَنْ قَالَ: إِنَّ الْمَيِّتَ يَنْتَفِعُ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ عِنْدَهُ، بِاعْتِبَارِ سَمَاعِهِ كَلَامَ اللَّهِ،
فَهَذَا لَمْ يَصِحَّ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الْأَيِّمَةِ الْمَشْهُورِينَ. وَلَا شَكَّ فِي سَمَاعِهِ، وَلَكِنَّ انْتِفَاعَهُ
بِالسَّمَاعِ لَا يَصِحُّ، فَإِنَّ ثَوَابَ الْإِسْتِمَاعِ مَشْرُوطٌ بِالْحَيَاةِ، فَإِنَّهُ عَمَلٌ اخْتِيَارِيٌّ، وَقَدْ
انْقَطَعَ بِمَوْتِهِ، بَلْ رَبَّمَا يَنْضَرُّ وَيَتَأَلَّمُ؛ لِكَوْنِهِ لَمْ يَمْتَثِلْ أَوْامِرَ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ، أَوْ
لِكَوْنِهِ لَمْ يَرُدِّدْ مِنَ الْخَيْرِ.

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ عِنْدَ الْقُبُورِ، عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ: أَهْلُ تَكْرَهُهُ،
أَمْ لَا بَأْسَ بِهَا وَقَتَ الدَّفْنِ، وَتَكْرَهُهُ بَعْدَهُ؟

فَمَنْ قَالَ بِكَرَاهَتِهَا - كَأَبِي حَنِيفَةَ، وَمَالِكٍ، وَأَحْمَدَ فِي رِوَايَةٍ - قَالُوا: لِأَنَّهُ
مُحَدَّثٌ، لَمْ تَرِدْ بِهِ السُّنَّةُ، وَالْقِرَاءَةُ تُشْبِهُ الصَّلَاةَ، وَالصَّلَاةُ عِنْدَ الْقُبُورِ مَنْهِيٌّ عَنْهَا،
فَكَذَلِكَ الْقِرَاءَةُ.

وَمَنْ قَالَ: لَا بَأْسَ بِهَا - كَمُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ، وَأَحْمَدَ فِي رِوَايَةٍ - اسْتَدَلُّوا بِمَا نَقَلَ
عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: أَنَّهُ أَوْصَى أَنْ يُقْرَأَ عَلَى قَبْرِهِ وَقَتَ الدَّفْنِ بِفَوَاتِحِ
سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَخَوَاتِمِهَا. وَنُقِلَ أَيْضًا عَنْ بَعْضِ الْمُهَاجِرِينَ قِرَاءَةُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

وَمَنْ قَالَ: لَا بَأْسَ بِهَا وَقَتَ الدَّفْنِ فَقَطْ - وَهُوَ رَوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ - أَخَذَ بِمَا نُقِلَ
عَنْ عُمَرَ وَبَعْضِ الْمُهَاجِرِينَ.

وَأَمَّا بَعْدَ ذَلِكَ، كَالَّذِينَ يَتَنَابُونَ الْقَبْرَ لِلْقِرَاءَةِ عِنْدَهُ، فَهَذَا مَكْرُوهٌ، فَإِنَّهُ لَمْ
تَأْتِ بِهِ السُّنَّةُ، وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ السَّلَفِ مِثْلَ ذَلِكَ أَصْلًا. وَهَذَا الْقَوْلُ لِعَلَّةِ
أَقْوَى مِنْ غَيْرِهِ؛ لِئَمَا فِيهِ مِنَ التَّوْفِيقِ بَيْنَ الدَّلِيلَيْنِ.

قال الشيخ:

أما ما يتعلق بالإهداء إلى رسول الله ﷺ، فقد بين الشارح - رحمه الله - الحكم
فيه، وذكر أنه لا يشرع أن تعمل عملاً وتقول: أجره لرسول الله ﷺ، سواء أكان
قراءة أم ذكر أم جهاداً، أم غير ذلك.

واحتج بدليلين:

الأول: أنه لم يفعل في عهد النبي ﷺ، ولا في عهد الصحابة رضوان الله
عليهم، فلم يكن أحد من الصحابة يعمل عملاً ويقول: أجره لرسول الله ﷺ.
ولو كان خيراً سبقونا إليه؛ لأنهم أعرف به، وأعرف بما يكون في شريعته، وهم
الذين يحبونه ويؤثرونه على أنفسهم، وهم الذين صحبوه، وأحبوه، وقاتلوا معه،
وعرفوه، وتلقوا عنه السنة، وهم الذين يقدمون محبته على كل محبة، ويقدمونه
بأنفسهم، فكيف لم يهدوا إليه ثواب صلاة ولا صدقة ولا غير ذلك من الأعمال؟
إلا ما روي عن عليٍّ ؓ، أنه ضحى بكبشين، وقال: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَوْصَانِي

أَنْ أَضْحَىٰ عَنْهُ، فَأَنَا أَضْحَىٰ عَنْهُ»^(١)، ولو أن الحديث فيه ضعف.

وعلى كل حال، فهذا دليل واضح على عدم إهداء السلف للرسول ﷺ. والدليل الثاني: أنه ﷺ لا حاجة به إلى إهداء تلك الأعمال؛ لأن الله سبحانه، يكتب له مثل عمل العاملين من أمته، مهما كثر العاملون، ومهما كثرت الأعمال، فقد ثبت أنه ﷺ قال: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»^(٢). وقال: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ، فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»^(٣). أليس نبينا ﷺ هو الذي دلَّ على الإسلام، وهو الذي دلَّ على الحسنات والصالحات، وهو الذي دلَّ على الصلوات والقربات، وهو الذي دلَّ على الخيرات كلها وحذَّر عن الشرور؟

فأنت متى صليت صلاة، كتب لك أجرها تامًّا، وكتب له ﷺ مثل أجر تلك الصلاة، وإذا جاهدت كتب لك أجر جهادك كاملاً، وكتب مثله للنبي ﷺ؛ لأنك اهتديت بدعوته، وإذا دعوت الله، أو ذكرته، أو قرأت في كتاب الله عزَّ وجلَّ،

(١) أخرجه أبو داود (٢٧٩٠)، والترمذي (١٤٥٩)، وأحمد (١٠٧/١)، والحاكم (٢٢٩/٤)، والبيهقي (٢٨٨/٩). قال ابن حجر في التلخيص الحبير (٩٤/٣): «وفي إسناد حنشن بن ربيعة، وهو غير حنشن بن الحارث، وهو مختلف فيه، وكذا شريك القاضي النخعي، وقال ابن القطان: فيه أبو الحسناء لا يُعرف حاله».

(٢) تقدم تخريجه (٣٣٣/٤).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٩٣) من حديث أبي مسعود الأنصاري ؓ.

كُتِبَ لَكَ أَجْرُكَ تَامًّا، وَكُتِبَ لِلنَّبِيِّ ﷺ مِثْلَهُ.

إِذَا، فَهَذَا فَضْلُ اللَّهِ لَهُ، فَلَا حَاجَةَ أَنْ يُهْدَى إِلَيْهِ مَا دَامَ أَنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - قَدْ أَعْطَاهُ.

وَأَيْضًا فَأَنْتَ أَحْوَجُ إِلَى عَمَلِكَ؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ غَفَرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، أَمَا أَنْتَ فَإِنَّكَ بِحَاجَةٍ لِلْأَسْبَابِ الَّتِي تَغْفِرُ بِهَا خَطَايَاكَ، وَتَمْحَى بِهَا سَيِّئَاتِكَ، وَيُنْقَلُ بِهَا مِيزَانُكَ، فَأَنْتَ أَحْوَجُ إِلَى عَمَلِكَ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنِ إِهْدَائِكَ، وَأَنْتَ تَتْرِكُ حَاجَتَكَ؟! هَذَا فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْخَطَأِ وَالْغَلْطِ.

أَمَّا الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَّةُ: فَهِيَ الْقِرَاءَةُ عِنْدَ الْقُبُورِ. وَقَدْ مَرَّبْنَا أَنْ فِيهَا ثَلَاثُ رَوَايَاتٍ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ: رَوَايَةٌ: أَنَّهُ يَجُوزُ وَقْتُ الدَّفْنِ فَقَطْ، وَرَوَايَةٌ: أَنَّهُ يَجُوزُ مُطْلَقًا، وَرَوَايَةٌ: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ مُطْلَقًا؟ وَالْأَرْجَحُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ قَصْدَ الْقُبُورِ وَالِدُعَاءِ وَالْقِرَاءَةِ عِنْدَهَا، كَمَا لَا يَجُوزُ أَنْ تَقْصِدَ لِلصَّلَاةِ عِنْدَهَا. وَثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى أَنْ تَتَّخِذَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَقَالَ: «أَلَا وَإِنَّ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنْ أَمْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»^(١). وَثَبَتَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ: نَهَى عَنِ الصَّلَاةِ فِي الْمَقْبَرَةِ، فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ، وَقَالَ ﷺ: «لَا تَصَلُّوا عَلَى الْقُبُورِ، وَلَا تَحْلِسُوا عَلَيْهَا»^(٢).

وَالْعِلَّةُ فِي النَّهْيِ عَنِ الصَّلَاةِ فِي الْمَقْبَرَةِ: مَخَافَةُ الْغُلُوفِ، أَوْ اعْتِقَادُ أَنَّ الَّذِي يَدْعُو

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٥٣٢) مِنْ حَدِيثِ جَنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ؓ.

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٩٧٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي مَرْثَدِ الْغَنَوِيِّ ؓ.

عند القبر أو يصلي أو يقرأ، يعظم أجره، وأن أهل القبور يتسببون في رفع عمله، ومضاعفته وقبوله. ويكون ذلك وسيلة وذريعة إلى الاعتقاد في صاحب ذلك القبر.

ومعلوم أن الاعتقاد في أن أصحاب القبور ينفعون ويشفعون، ويرفعون الأعمال الصالحة ونحو ذلك، اعتقاد في مخلوق قد انقطع عمله، واعتقاد في مخلوق لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، فكيف يملك لغيره؟ فيكون ذلك من وسائل الشرك، وهو الواقع، فإن الذين صاروا يعظمون القبور، ويطوفون بها، ويعكفون حولها، ويقروون عندها، كانت نهايتهم أن عبدوا تلك القبور، وخيل لهم أن أصحابها من الأولياء.

وكان أول ما عملوه أنهم تردّدوا إلى ذلك القبر لمجرد الزيارة، ثم بعد ذلك ظنوا أن الأعمال عنده أفضل منها عند غيره، ثم صاروا يفضلون الصلاة عند القبر على الصلاة في المسجد، ويفضّلون القراءة عند القبور على القراءة في المسجد، ويفضّلون الدعاء عند القبور، عليه في المساجد، ثم اعتقدوا أن للقبور تأثيرًا، وأن للأموات تأثيرًا، وأن الأموات يضاعفون الأعمال، أو يرفعونها، ثم زاد الأمر إلى أن أصبحوا ينادون الميّت ويهتفون باسمه، ويقولون مثلًا: يا عيدروس، يا عبدالقادر، يا نقشبندي، يا جيلاني، أو ما أشبه ذلك من الأسماء التي أصبحوا يعتقدون فيها.

إذا الصواب: هو المنع مطلقًا من قصد القبور للقراءة عندها، ولعلّ الدليل عليه أنه قول الجمهور، وهو قول أبي حنيفة، ومالك، وأحمد في الرواية المشهورة

عنه، وكذا عند أصحابه، ورَّجَّحها المحققون؛ كابن تيمية وغيره، فذكروا أنه: لا تجوز القراءة عند القبور بأي سبب، وبأي نية، وبأي معتقد، مخافة أن تكون وسيلة إلى دعاء الأموات والاعتقاد فيهم.

وأما ما نقل عن ابن عمر - رضي الله عنهما - بأنه أمر أن تقرأ عنده فواتح سورة البقرة وخواتيمها:

فأولاً: قد تكون الرواية عنه غير صحيحة ولا ثابتة؛ لأنها لم تشتهر ولم يشتهر العمل بها.

وثانياً: لعله أراد في حالة الدفن، أن يكون ذلك بمنزلة الدعاء، فإن الدعاء للميت عند القبر مشروع، كما كان النبي ﷺ إذا مات الميت ودفنه، قام على قبره وقال: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَاسْأَلُوا لَهُ التَّيْبَتَ، فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ»^(١). يكون ذلك من باب الدعاء له؛ لأن هذه الآيات فيها دعاء مثل قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فكانه أراد أنكم تدعون بها، فتقرؤونها وتجعلونها دعاء له، فلا يكون القصد منها القراءة، بل الدعاء له، سواء قبل الدفن أو بعده، وسواء اعتقد أنه ينتفع بهذه القراءة، أو أن القارئ ينتفع بهذه القراءة. فالقول بأنه ينتفع بها. هذا فيه نظر؛ لأنه لو كان مباحاً لعله الصحابة رضوان الله عليهم.

وأيضاً القراءة في المساجد وإهداء ثوابها له أكثر أجراً من القراءة عند القبور،

(١) تقدم تخريجه (٤/ ٤٥٤).

فإن المساجد مأمور بالقراءة فيها، والقبور منهيّ عن الصلاة عندها، فالدعاء في المساجد أفضل من الدعاء عند القبور، وكذلك الصلاة في المسجد مأمور بها، ومنهيّ عنها عند القبور. فعرف بذلك أن القول الصواب هو قول الجمهور، وهو: أنه لا يقصد القبر للقراءة عنده، بل إذا أراد أن يهدي للميت قراءة أو ذكرًا، قرأها عند أهله، أو في بيته ونحو ذلك. أمّا أن يقصد القبر ويتحرّاه، فهذا لم يكن مشروعًا، فلا يكون جائزًا.

والمسلم عليه أن يتبع الدليل، وعليه أن يأخذ بقول جماهير الأمة، ويترك الأقوال الشاذّة، ولو رويت عن بعض العلماء، ونحن نحسن الظنّ بهم، ونقول: أولاً: إنهم مجتهدون، وليس كلّ مجتهد بمصيب.

ثانيًا: أنهم ولو كان عندهم شيء من الاجتهاد ونحوه، فإنهم عرضة للخطأ. ثالثًا: لم يكن عندهم من الاعتقاد ما عند من بعدهم، بل هم مأمونون أن يقع فيهم هذا الخطأ. والدليل على ذلك: أنهم لم يقع منهم الغلوّ الذي وقع من المتأخرين في القرن الثامن، وإلى القرن الثالث عشر في هذه البلاد، بل إلى هذا القرن في كثير من البلاد، سبب غلوّهم في هذه القبور دعاؤها من دون الله، بل وأصبحوا يعتقدون تلك القبور آلهة مع الله، وسبب ذلك تساهل علمائهم بقصدهم هذه القبور، فاقتدى بهم السفهاء، واعتقدوا أنّ صاحب القبر له تأثير، فكان ذلك الشرك بالله صريحًا أو وسيلة من وسائل الشرك.

قال الطحاوي:

وَاللَّهُ تَعَالَى يَسْتَجِيبُ الدَّعَوَاتِ، وَيَقْضِي الْحَاجَاتِ.

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وَالَّذِي عَلَيْهِ أَكْثَرُ الْخَلْقِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَسَائِرِ أَهْلِ الْمَلِكِ وَغَيْرِهِمْ: أَنَّ الدُّعَاءَ مِنْ أَقْوَى الْأَسْبَابِ فِي جَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ، وَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْكُفَّارِ أَنَّهُمْ إِذَا مَسَّهُمُ الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا مَسَّهُ الضَّرُّ دَعَاهُ لِحَنِيهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَاتِلًا. وَإِجَابَةُ اللَّهِ لِدُعَاءِ الْعَبْدِ، مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا، وَإِعْطَاؤُهُ سُؤْلَهُ، مِنْ جِنْسِ رِزْقِهِ لَهُمْ، وَنَصْرِهِ لَهُمْ. وَهُوَ مِمَّا تُوجِبُهُ الرُّبُوبِيَّةُ لِلْعَبْدِ مُطْلَقًا، ثُمَّ قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ فِتْنَةً فِي حَقِّهِ وَمَضَرَّةً عَلَيْهِ، إِذْ كَانَ كُفْرُهُ وَفُسُوقُهُ يَقْتَضِي ذَلِكَ. وَفِي «سُنَنِ ابْنِ مَاجَةَ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»^(١). وَقَدْ نَظَّمَ بَعْضُهُمْ هَذَا الْمَعْنَى، فَقَالَ:

الرَّبُّ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤْلَهُ وَبُنَى آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ^(٢)

(١) أخرجه بلفظه: الترمذي (٣٣٧٣)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٢٩٩)، وأخرجه

بنحوه: أحمد (٤٤٣/٢)، وابن ماجه (٣٨٢٧)، وابن أبي شيبة (٢٢/٦).

(٢) ذكره الخطابي في كتابه العزلة (ص ٦٧) ونسبه إلى الخزيمي.

قَالَ ابْنُ عَقِيلٍ: قَدْ نَدَبَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الدُّعَاءِ، وَفِي ذَلِكَ مَعَانٍ:

أَحَدُهَا: الْوُجُودُ، فَإِنَّ مَنْ لَيْسَ بِمَوْجُودٍ لَا يُدْعَى.

الثَّانِي: الْغِنَى، فَإِنَّ الْفَقِيرَ لَا يُدْعَى.

الثَّلَاثُ: السَّمْعُ، فَإِنَّ الْأَصَمَّ لَا يُدْعَى.

الرَّابِعُ: الْكُرْمُ، فَإِنَّ الْبَخِيلَ لَا يُدْعَى.

الخَامِسُ: الرَّحْمَةُ، فَإِنَّ الْقَاسِيَّ لَا يُدْعَى.

السَّادِسُ: الْقُدْرَةُ، فَإِنَّ الْعَاجِزَ لَا يُدْعَى.

وَمَنْ يَقُولُ بِالطَّبَائِعِ يَعْلَمُ أَنَّ النَّارَ لَا يُقَالُ لَهَا: كُفِّي! وَلَا النَّجْمُ يُقَالُ لَهُ:

أَصْلِحْ مِرَاجِي!! لِأَنَّ هَذِهِ عِنْدَهُمْ مُؤَثَّرَةٌ طَبْعًا لَا اخْتِيَارًا، فَشَرَعَ الدُّعَاءَ وَصَلَاةَ

الِاسْتِسْقَاءِ؛ لِيُبَيِّنَ كَذِبَ أَهْلِ الطَّبَائِعِ.

قال الشيخ:

هذا بحث جديد يتعلق بحكم الدعاء، وبشرعيته من العبد لربه، وبفائدة

الدعاء. فذكر أن الله تعالى يجيب من دعاه، ويعطي من سأله، وأنه سبحانه يفرح

بدعاء الداعي، وأنه يستجيب دعوتهم.

ذكر أن المشركين قبل الإسلام كانوا يدعون الله، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمْ

الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، أي: ذهبت عنكم آلهتكم،

وأصنامكم، ومن تعبدون من دون الله، ولم تتذكروا إلا الربَّ تعالى، الذي

تعلمون أنه لا يجيب دعوتكم في مثل هذا الحال من الضرورة والضيق إلا الله سبحانه وتعالى. ويقول في آية أخرى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا بَخَّسَهُمُ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]؛ دعوا الله في حالة ما يكونون على خطر الهلاك. ويقول في آية أخرى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ [لقمان: ٣٢]؛ والموج تدفعه الريح، فيرتفع فوق مستوى البحر، فإذا جاءت الأمواج إلى السفينة اضطربت، وكادت أن تغرق، فإذا رأوا الأمواج تضرب السفينة، خافوا من الهلاك، ورفعوا أيديهم وقالوا: يا رب أنجنا من الهلاك، فلا يذكرون إلا الله.

إذا: الله تعالى يستجيب لهم مع أنهم كفّار؛ لأنهم أخلصوا له الدعاء، والمسلمون أولى بأن يدعوا الله في الضرر والشدة والرّخاء، والله سبحانه يحب من يدعوه، ويبغض من لم يدعّه. وقد مرّ معنا الحديث الذي يقول فيه رسول الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ».

ما نحبّ أن يغضب الله علينا، بل نريد رضاه، ورضاه يتوقّف على المسألة والدعاء، نستعينه عند العجز، ونستنصر به عند الخوف، نطلب منه أن يؤمّننا، وأن يقوّمنا، ويغنينا، ويعزّنا، ويغفر لنا، ونطلب منه كلّ حاجاتنا، ونرغب عن غيره من ذكر أو أنثى، ونجعل رغبتنا إليه سبحانه. وقد قال الشاعر:

لَا تَسْأَلَنَّ بَنِيَّ آدَمَ حَاجَةً وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لَا تُحْبَبُ
الرَّبُّ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَه وَبَنِيَّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

يقول بعضهم: لو أنك مشيت مع إنسان، وأنت كل ساعة تقول له: أعطني حفنة تراب، أليس يغضب منك ويمَل، ويقول: أتعبتني! لا شك أن ذلك يكلفه أن ينحني ويناوئك التراب. فبنو آدم لو سُئلوا تراباً لملّوا، فكيف إذا سُئلوا شيئاً يملكونه، أو لهم فيه نفع؟

فلذلك على الإنسان أن يعلّق رجاءه برّبّه، ويطلب منه حاجاته كلّها، ولا يسأل غيره. يقول بعضهم^(١):

لَا تَجْلِسَنَّ بِيَابِ مَنْ يَا أَبِي عَلَيَّكَ دُخُولَ دَارِهِ
وَتَقُولُ حَاجَاتِي إِلَيْهِ يَعُوقُهَا إِنْ لَمْ أَدَارِهِ
وَأَتْرُكُهُ وَأَقْضُدُ رَمِّهَا تُقْضِي وَرَبُّ الدَّارِ كَارِهِ

إذا قصدت الرّبّ سبحانه وتعالى، وأنت صادق مخلص قضيت حاجتك، سواء كانت متعلقة بإنسان، أو متعلقة بما بينك وبين الرّبّ.

حكى أن إبراهيم بن أدهم - رحمه الله - اشتكى إليه بعض أصحابه جوعاً بهم؛ لأنهم لا يكتسبون، فعند ذلك نظم أبياتاً يقول في أولها^(٢):

أَنَا حَامِدٌ أَنَا شَاكِرٌ أَنَا ذَاكِرٌ أَنَا جَائِعٌ أَنَا حَاسِرٌ أَنَا عَارِي
هِيَ سِتَّةٌ وَأَنَا الضَّمِينُ بِنِصْفِهَا فَكُنِ الضَّمِينُ بِنِصْفِهَا يَا بَارِي
لم يتعلّق إلا برّبّه، كتب تلك الأبيات، ولمّا اطّلع عليها بعض المحسنين،

(١) ذكر هذه الأبيات أبو طاهر الأصبهاني في معجم السفر (ص ٣٨٢) ونسبها لمجبر بن محمد الصقلي.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨ / ٣٨).

أعطاهم ما يسد حاجتهم، فالرب هو الذي يسر لهم هذا الرزق بيد هذه الإنسان، ولم يسألوه، ولم يسألوا إنساناً، وعلقوا قلوبهم بربهم.

نقول: على الإنسان أن يجتهد، في دعائه لله سبحانه وتعالى، وأن يسأل ربه كل حاجاته، ولا يترك حاجةً يظن أنه سيحتاج إليها في يوم من الأيام، إلا ويسألها ربه.

يقول بعض العلماء: سأل الله كل شيء حتى ملح طعامك، فإنك بحاجة إلى أن يمدك ربك بكل شيء، فأنت مأمور بأن تسأله، وتفعل السبب، وتعرف أن الله تعالى يسر لك هذه الأشياء، ويجعلها مفيدة ومؤثرة.

الأدلة كثيرة على أهمية الدعاء، كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠].
 وورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»^(١)، وقرأ هذه الآية. فجعل الدعاء عبادة. ومثل ذلك أيضاً: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾^(٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٥، ٥٦].

والدعاء ينقسم إلى قسمين: دعاء عبادة، ودعاء مسألة. وكلُّ منهما ملازم

(١) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، والنسائي في الكبرى (١١٤٠٠)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وأحمد (٦٦٧/٤)، وابن حبان (١٧٢/٣)، والحاكم (٤٩٠/١) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

للآخر. فالمصلي في صلاته يدعو ربه في كثير من أركان الصلاة وهيئاتها، يسأل ربه؛ ففي الفاتحة يقول: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]، وهذا دعاء. وفي الركوع وفي السجود يقول: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي، وهذا دعاء. وبين السجدين يقول: رب اغفر لي، رب اغفر لي. ويكرر ذلك، وهذا دعاء. وكذلك في السجود مأمور بأن يكثر من الدعاء، وكذلك في آخر التشهد مأمور بأن يدعو. فالصلاة فيها دعاء، وكذلك الحج فيه دعاء في الطواف والسعي والوقوف والرمي. وذلك دليل على أن الله يحب من عباده أن يكثروا من دعائه، وأن لا يملؤوا من هذا الدعاء، وأنه سبحانه لا بد وأن يجيبهم إذا تمت الشروط.

مر معنا كلام ابن عقيل على هذه الأدلة، وقد استدلل بها على أن الله موجود، فإن المعدوم لا يدعى، وأنه سبحانه قادر، والعاجز لا يطلب منه شيء، وأنه غني، والفقير لا يطلب منه شيء، ويستدل على أنه كريم، فالكريم هو الذي يوجد، وهو الذي يهب مما عنده، فهو الذي لا تغيض نفقته، ولا ينقص ما عنده. كما يقول النبي ﷺ: «يُدُّ إِلَهُهُ مَلَأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةُ سَحَاءِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِيضْ مَا فِي يَدَيْهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَيَبِيدُهُ الْمِيزَانَ يُخْفِضُ وَيَرْفَعُ»^(١).

ويقول الله تعالى في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْمْ وَأَخْرَكُمْمُ وَإِنْسَكُمْمُ وَجَنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ،

(١) تقدم ترجمته (٢/٢٨٨).

مَا نَقَصَ ذَلِكَ عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبُحْرَ^(١). والآيات والأحاديث والأدلة على هذا كثيرة.

العقيدة: هي ما يعقد عليه القلب، وتشتمل على أعمال بدنية وأعمال مالية، وتفاوت فيها بينها، فمن الأمور الاعتقادية: ما يكفر بمخالفته، ومنها ما لا يكفر بمخالفته، وتقدم لنا في هذه العقيدة ذكر المسح على الخفين، وهو من الفروع، ومن الأمور العملية، ولا يكفر المخالف فيه، فقد خالف فيه بعض الصحابة رضي الله عنهم، وبعض الأئمة، ولكن استقر قول أهل السنة على القول به. وقد جاءتنا مسألة أيضًا فروعية، وهي مسألة إهداء الأعمال إلى الأموات أو الأحياء، فهي فروعية، ولا يكفر المخالف فيها، ولو كانت مما ذكر في العقيدة؛ وذلك لسببين:

أولاً: أن لهم شبه الدليل، وهو تمسكهم بقول الله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩].

وثانياً: أن لهم عملاً يرونه، واجتهاداً اجتهدوه، فلأجل ذلك لم يكفروا بذلك. ولكنهم يخطئون.

وذكر إهداء الأعمال في باب العقيدة؛ لأن الخلاف فيه مع المخالفين في العقيدة.

معلوم أن العقيدة هي الإيمان بالأسماء والصفات، والبعث بعد الموت،

(١) تقدم تحريجه (١/٤٢٥).

والإيمان بالملائكة والرسول والكتب المتقدمة، وما حصل فيها، وهذه من الأمور الاعتقاديّة، ولكن يلحق بها أيضًا أمور عمليّة، وتعطى حكم العقيدة، وإن كانت ليست من العقيدة التي يعقد عليها القلب، بمعنى أنه يؤمن بها وإن لم ير لها دلالات، وقد يكون إدخال الأعمال إلى الأحياء أو الأموات في العقيدة من باب أنه أمر غيبي. ولكن لما جاءت الشواهد والدلائل تدلّ على أنه يتفجع الميت بعمل الحيّ إذا أهداه إليه، قام بذلك أهل السنّة. فنراهم مثلًا: يصلّون على الأموات، فالأموات ينتفعون بصلاتهم عليهم، ونراهم يدعون لهم: فيدعو الإنسان لأبويه، كقول نوح - عليه السلام -: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ [نوح: ٢٨]، وقد ذكروا أن والديه كانا مسلمين.

وكذلك النهي عن الاستغفار للمشركين، ولو كانوا أولي قربي، مما يدلّ على أنهم لو كانوا مسلمين لانتفعوا بهذا الاستغفار. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه حضر زمن موت عمّه أبي طالب، وطلب منه أن ينطق بالشهادة فلم يفعل، وكان آخر كلامه أن قال: هو على ملّة عبد المطلب، وأبي أن يقول: لا إله إلا الله! فقال النبي ﷺ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»^(١). فأنزل الله: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣].

ومفهومه: أنهم يستغفرون للمسلمين، وثبت أن النبي ﷺ قال: «اسْتَأذَنْتُ

(١) رواه البخاري برقم (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤) من حديث المسيب بن حزن ؓ.

رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمَّي فَلَئِمَّ يَأْذَنُ لِي، وَاسْتَأْذَنَتْهُ أَنْ أُرْوَرَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي»^(١)، يعني: بعموم هذه الآية: ﴿وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣]. فهذا يفيد أنهم يتتفعون بالاستغفار إذا كانوا مؤمنين، ولا يتتفعون به إذا كانوا مشركين. ومعلوم أنّ الاستغفار دعاء، فإنه إذا قال: رب اغفر لي، فقد دعا الله، ثم يقول: ولوالديّ، فقد دعا الله، ثم يقول: وللمؤمنين، فقد دعا الله لنفسه ولوالديه وللمؤمنين، وهذا الدعاء يفيد وينفع.

وقد اشتهر أيضًا الاستدلال بعموم الآيات، مثل قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠]، فنحن نقوله: ندعو لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، قديماً وحديثاً، فدعوا للصحابة - رضي الله عنهم - وبيننا وبينهم عدد من القرون، وللتابعين وللعلماء في كلّ زمان إلى أن تعمّ هذه الدعوة آباءنا وأمهاتنا وأبناءنا وأصحابنا وأصدقاءنا من المؤمنين الذين سبقونا بالإيمان، وهذا بإذن الله ينفعهم.

وحكي أن إنساناً رأى ميتاً في منامه، فأخبره بأنهم يأتهم من دعاء الأحياء أمثال الجبال من الهدايا التي هي دعاء وصدقات، ونحو ذلك، تنور عليهم قبورهم، وتزداد بها حسناتهم، وتخفّ بها سيئاتهم، ويتتفعون بها، ويزاد بها في نعيمهم. والأعمال التي تهدي إليهم ثبت منها الدعاء ولا شك فيه. ومنها الصدقة

(١) أخرجه مسلم (٩٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والحج والصوم، كما ورد ذلك في الأحاديث التي ذكرناها، ومنها قصة المرأة التي قالت للنبي ﷺ: إِنَّ فَرِيضَةَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي الْحُجِّ أَذْرَكَتْ أَبِي شَيْخًا كَبِيرًا لَا يَثْبُتُ عَلَى الرَّاحِلَةِ، أَفَأَحُجُّ عَنْهُ؟ قال: «نعم»^(١).

وحديث المرأة التي قالت: إِنَّ أُمَّي مَاتَتْ وَعَلَيْهَا صَوْمٌ نَذْرٌ، أَفَأَصُومُ عَنْهَا؟ قال: «أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمَّكِ دَيْنٌ فَقَضَيْتِيهِ، أَكَانَ يُؤَدِّي ذَلِكَ عَنْهَا؟» قالت: نعم، قال: «فَصُومِي عَنْ أُمَّكِ»^(٢).

وحديث الرجل الذي جاء على النبي ﷺ وقال: إِنَّ أُمَّي افْتَلَتَتْ نَفْسَهَا، وَمَ تُوُصِّ، وَأَطْنَهَا لَوْ تَكَلَّمْتُ تَصَدَّقْتُ، أَفَلَهَا أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟ قال: «نعم»^(٣). هذا كله يفيد أن الأموات يتفعلون بعمل الأحياء المهدي إليهم.

(١) تقدم تخريجه (٤/٤٧٧).

(٢) تقدم تخريجه (٤/٤٦٠).

(٣) تقدم تخريجه (٤/٤٥٥).

قال الشارح:

وَذَهَبَ قَوْمٌ مِنَ الْمُتَفَلِّسِفَةِ وَعَالِيَةِ الْمُتَصَوِّفَةِ إِلَى أَنَّ الدُّعَاءَ لَا فَائِدَةَ فِيهِ!
 قَالُوا: لِأَنَّ الْمَشِيئَةَ الإِلَهِيَّةَ إِنِ افْتَضَّتْ وَجُودَ الْمَطْلُوبِ فَلَا حَاجَةَ إِلَى الدُّعَاءِ، وَإِنْ
 لَمْ تَقْتَضِهِ فَلَا فَائِدَةَ فِي الدُّعَاءِ!! وَقَدْ يُحْصَى بَعْضُهُمْ بِذَلِكَ خَوَاصَّ الْعَارِفِينَ!
 وَيَجْعَلُ الدُّعَاءَ عِلَّةً فِي مَقَامِ الْخَوَاصِّ!! وَهَذَا مِنْ غَلَطَاتِ بَعْضِ الشُّيُوخِ. فَكَمَا
 أَنَّهُ مَعْلُومٌ الْفَسَادُ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الإِسْلَامِ، فَهُوَ مَعْلُومٌ الْفَسَادُ بِالضَّرُورَةِ
 الْعَقْلِيَّةِ، فَإِنَّ مَنَفَعَةَ الدُّعَاءِ أَمْرٌ اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ تَجَارِبُ الأُمَّمِ، حَتَّى إِنَّ الْفَلَسِيفَةَ
 تَقُولُ: ضَحِيحُ الأَصْوَاتِ فِي هَيَاكِلِ العِبَادَاتِ، بِفُنُونِ اللُّغَاتِ، يُحَلِّلُ مَا عَقَدَتْهُ
 الأَفْلَاكُ الْمُؤَثِّرَاتُ!! هَذَا وَهُمْ مُشْرِكُونَ.

وَجَوَابُ الشُّبْهَةِ بِمَنْعِ الْمُقَدِّمَتَيْنِ: فَإِنَّ قَوْلَهُمْ عَنِ الْمَشِيئَةِ الإِلَهِيَّةِ: إِمَّا أَنْ
 تَقْتَضِيَهُ أَوْ لَا، ثُمَّ قِسْمٌ ثَالِثٌ، وَهُوَ: أَنْ تَقْتَضِيَهُ بِشَرْطٍ لَا تَقْتَضِيهِ مَعَ عَدَمِهِ، وَقَدْ
 يَكُونُ الدُّعَاءُ مِنْ شَرْطِهِ، كَمَا تُوجِبُ الثَّوَابَ مَعَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَلَا تُوجِبُهُ مَعَ
 عَدَمِهِ، وَكَمَا تُوجِبُ الشَّبَعِ وَالرَّيِّ عِنْدَ الأَكْلِ وَالشُّرْبِ، وَلَا تُوجِبُهُ مَعَ عَدَمِهِمَا،
 وَحُضُورِ الوَلَدِ بِالْوَطْءِ، وَالزَّرْعِ بِالبُذْرِ. فَإِذَا قُدِّرَ وَقُوعُ المَدْعُوِّ بِهِ بِالدُّعَاءِ
 لَمْ يَصِحَّ أَنْ يُقَالَ: لَا فَائِدَةَ فِي الدُّعَاءِ، كَمَا لَا يُقَالُ: لَا فَائِدَةَ فِي الأَكْلِ وَالشُّرْبِ
 وَالبُذْرِ وَسَائِرِ الأَسْبَابِ. فَقَوْلُ هَؤُلَاءِ، كَمَا أَنَّهُ مُخَالَفٌ لِلشَّرْعِ، فَهُوَ مُخَالَفٌ
 لِلْحِسِّ وَالْفِطْرَةِ.

وَمَّا يَتَّبِعِي أَنْ يُعْلَمَ، مَا قَالَهُ طَائِفَةٌ مِنَ العُلَمَاءِ، وَهُوَ: أَنَّ الإِلْتِفَاتَ إِلَى
 الأَسْبَابِ شِرْكٌ فِي التَّوْحِيدِ! وَخَوُّ الأَسْبَابِ أَنْ تَكُونَ أَسْبَابًا، نَقْصٌ فِي العَقْلِ،

وَالْإِعْرَاضُ عَنِ الْأَسْبَابِ بِالْكُلِّيَّةِ قَدْخُ فِي الشَّرْعِ. وَمَعْنَى التَّوَكُّلِ وَالرَّجَاءِ،
يَتَأَلَّفُ مِنْ وُجُوبِ التَّوَجُّهِ وَالْعَقْلِ وَالشَّرْعِ.

وَبَيَانُ ذَلِكَ: أَنَّ الْإِلْتِفَاتَ إِلَى السَّبَبِ هُوَ اعْتِدَادُ الْقَلْبِ عَلَيْهِ، وَرَجَاؤُهُ
وَإِلْتِنَادُ إِلَيْهِ. وَلَيْسَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ مَا يَسْتَحِقُّ هَذَا؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِمُسْتَقِلٍّ، وَلَا بُدَّ
لَهُ مِنْ شُرَكَاءٍ وَأَصْدَادٍ. وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ، فَإِنْ لَمْ يُسَخِّرْهُ مُسَبَّبُ الْأَسْبَابِ لَمْ يُسَخَّرْ.
وَقَوْلُهُمْ: إِنْ اقْتَضَتْ الْمَشِيئَةُ الْمَطْلُوبَ فَلَا حَاجَةَ إِلَى الدُّعَاءِ؟ قُلْنَا: بَلْ قَدْ
تَكُونُ إِلَيْهِ حَاجَةٌ، مِنْ تَحْصِيلِ مَصْلِحَةٍ أُخْرَى عَاجِلَةٍ وَآجِلَةٍ، وَدَفْعِ مَضَرَّةٍ
أُخْرَى عَاجِلَةٍ وَآجِلَةٍ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ: وَإِنْ لَمْ تَقْتَضِهِ، فَلَا فَائِدَةٌ فِيهِ؟ قُلْنَا: بَلْ فِيهِ فَوَائِدٌ عَظِيمَةٌ،
مِنْ جَلْبِ مَنَافِعٍ، وَدَفْعِ مَضَارٍّ، كَمَا نَبَّهَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، بَلْ مَا يُعَجَّلُ لِلْعَبْدِ، مِنْ
مَعْرِفَتِهِ بِرَبِّهِ، وَإِقْرَارِهِ بِهِ، وَبَيَانِهِ سَمِيعٍ قَرِيبٍ قَدِيرٍ عَلِيمٍ رَحِيمٍ، وَإِقْرَارِهِ بِفَقْرِهِ
إِلَيْهِ وَاضْطِرَّارِهِ إِلَيْهِ، وَمَا يَتَّبِعُ ذَلِكَ مِنَ الْعُلُومِ الْعَلِيَّةِ، وَالْأَحْوَالِ الزَّكِيَّةِ، الَّتِي
هِيَ مِنْ أَعْظَمِ الْمَطَالِبِ.

فَإِنْ قِيلَ: إِذَا كَانَ إِعْطَاءُ اللَّهِ مُعَلَّلًا بِفِعْلِ الْعَبْدِ، كَمَا يُعْقَلُ مِنْ إِعْطَاءِ
الْمَسْئُولِ لِلْسَّائِلِ، كَانَ السَّائِلُ قَدْ أَثَّرَ فِي الْمَسْئُولِ حَتَّى أُعْطَاهُ؟!

قُلْنَا: الرَّبُّ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي حَرَّكَ الْعَبْدَ إِلَى دُعَائِهِ، فَهَذَا الْخَيْرُ مِنْهُ، وَتَمَامُهُ
عَلَيْهِ. كَمَا قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: إِنِّي لَا أَحْمِلُ هَمَّ الْإِجَابَةِ، وَإِنَّمَا أَحْمِلُ هَمَّ الدُّعَاءِ، وَلَكِنْ
إِذَا أُلْهِمْتُ الدُّعَاءَ فَإِنَّ الْإِجَابَةَ مَعَهُ. وَعَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُدِيرُ الْأُمُورَ﴾

السَّمَلُ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿ [السجدة: ٥] ،
فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ يَبْتَدِئُ بِالتَّدْبِيرِ، ثُمَّ يَصْعَدُ إِلَيْهِ الْأَمْرُ الَّذِي دَبَّرَهُ، فَاللَّهُ
سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَقْدِفُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ حَرَكََةَ الدُّعَاءِ، وَيَجْعَلُهَا سَبَبًا لِلْخَيْرِ
الَّذِي يُعْطِيهِ إِيَّاهُ، كَمَا فِي الْعَمَلِ وَالثَّوَابِ، فَهُوَ الَّذِي وَفَّقَ الْعَبْدَ لِالتَّوْبَةِ ثُمَّ قَبِلَهَا،
وَهُوَ الَّذِي وَفَّقَهُ لِلْعَمَلِ ثُمَّ أَثَابَهُ، وَهُوَ الَّذِي وَفَّقَهُ لِلدُّعَاءِ ثُمَّ أَجَابَهُ، فَمَا أُنْفِرَ فِيهِ
شَيْءٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، بَلْ هُوَ جَعَلَ مَا يَفْعَلُهُ سَبَبًا لِمَا يَفْعَلُهُ. قَالَ مُطَرِّفُ بْنُ
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ - أَحَدُ أئِمَّةِ التَّابِعِينَ -: نَظَرْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، فَوَجَدْتُ مَبْدَأَهُ
مِنَ اللَّهِ، وَتَمَامَهُ عَلَى اللَّهِ، وَوَجَدْتُ مَلَكَ ذَلِكَ الدُّعَاءِ.

قال الشيخ:

وهذا يتعلّق بالدُّعَاءِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَحَثَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَنَهَجَ عَلَيْهِ عُلَمَاءُ
الْأُمَّةِ، وَرَغَّبُوا فِيهِ، وَهُوَ سُؤَالُ اللَّهِ تَعَالَى، وَطَلَبُ الْعَبْدِ حَاجَاتِهِ مِنْ رَبِّهِ، وَأَنْ يَنْزِلَ
الْعَبْدَ حَاجَاتِهِ بِرَبِّهِ، وَأَنْ يَسْأَلَهُ قَضَاءَهَا، وَأَنْ يَرْغَبَ إِلَيْهِ فِي أَنْ يَسِّرَ لَهُ كُلَّ عَسِيرٍ،
وَأَنْ يُعْطِيَهُ كُلَّ مُطْلَبٍ.

وَقَدْ تَقَدَّمَتْ أَدَلَّةٌ تَفِيدُ الْأَمْرَ بِالدُّعَاءِ، وَالْحَثَّ عَلَيْهِ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُحْيِبُّ
دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. هَذَا كَلَامُ اللَّهِ، لِمَا قَالَ الصَّحَابَةُ - رِضْوَانُ اللَّهِ
عَلَيْهِمْ -: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَقْرَبُ رَبَّنَا فِتْنَانِجِيهِ، أَمْ بَعِيدُ فِتْنَانِيهِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَإِذَا

سَأَلْتُكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴿١﴾. فهذا خبر من ربنا تعالى أنّه قريب، وأنّه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه. وكذلك أمر بالدعاء بقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وهذا أمر بالدعاء، وخبر بأنّه يستجيب الدعاء. وقد حثّ النبي ﷺ على الدعاء، وقال: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»^(٢)، وقرأ هذه الآية: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وكذلك حثّ - عليه الصلاة والسلام - على الإكثار من الدعاء.

وإذا قيل: إنّ الكثير قد يدعون ولا يرون أثراً للإجابة، فأين معنى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؟ نقول: وزد في بعض الأحاديث: «ما من مُّسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا أُنْثَمُ وَلَا قَطِيعَةٌ رَّحِمٍ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا»، قالوا: إذا نُكِّثُ، قال: «اللهُ أَكْثَرُ»^(٣).

فلا يخلو من ثلاث حالات: إما أن تجاب دعوته عاجلاً، ويرى أثرها. وإما

(١) أخرجه الطبري (٢/١٥٨)، وابن أبي حاتم (١/٣١٤)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/٥٣٥) عن الصلب بن حكيم عن أبيه عن جده ﷺ.

(٢) تقدم تحريجه (٤/٤٩٦).

(٣) أخرجه أحمد (٣/١٨) واللفظ له، وابن أبي شيبة (٦/٢٢)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٢٤٨)، وعبد بن حميد (ص ٢٩٢)، والطبراني في الأوسط (٤/٣٣٧)، والحاكم (١/٤٩٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/٤٨) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

أن يدفع الله شراً عنه بسبب هذه الدعوة، كما يدفع بالأعمال الصالحة. وإما أن يدخرها له الله في الآخرة، فيثبته عليها كما يثبته على الأعمال الصالحة مثل الصلاة والصدقات والحج والجهاد ونحوها.

ومعلوم أيضاً أن الدّعاء - وإن أُجيب الداعي وأُعطى سؤاله في الدنيا - فإن الله بكرمه يثبته في الآخرة؛ بمعنى أنه: يدفع عنه السوء، أو يعظم له الأجر، أو يجزل له الثواب؛ لأنه قام بدعاء ربه. وسبب ذلك: أن الإنسان الذي يعلم أن ربه هو الذي يقضي الحاجات، وهو الذي يفرّج الكربات، وهو الذي يجيب الدعوات، يعلم ذلك، ثم ينزل حاجته بربه، فهو بذلك يكون قد عبد ربه، فيكون بدعائه متعبداً. فأنت إذا رفعت يديك تدعو الله تعالى، ولم تعلق قلبك بأي مخلوق، فهذا دليل على أنك عرفت أنه الذي يقضي حاجتك، وأنه الذي يملكها وحده، وأنه الذي يفرّج الكرب، وأنه علام الغيوب، فهذه عبادة قلبية، ألا يستحق الداعي ثواباً على ذلك؟!

إذا فالدعاء يُثاب عليه في الدنيا بأن يُجاب دعاؤه، وفي الآخرة بأن يُجازى على عبادته ومعرفته.

وتقدم اعتراض الفلاسفة والقدرية ونحوهم، وقولهم: إن الدّعاء لا فائدة فيه، وقولهم: إذا كان هذا الأمر قد قدر الله أنه يأتي، فإنه سيأتي دعوت أو لم أدع. وإذا لم يقدره الله لي فلا يأتي لو دعوت ثم دعوت، فما الموجب لهذا الدعاء؟ هذه شبهتهم.

فإذا قلنا لأحدهم: ادع ربك أن يفرّج عنك هذا الكرب، ويقضي عنك هذا

الدين، ويزيل عنك هذا الهمّ والغم، وأن يوسع عليك في رزقك، وأن يعافيك في بدنك، ويرزقك أهلاً وولداً. يقول أحدهم: إن كان الله قد قدر أنه يرزقني، وأنه يأتيني رزق، فسوف يأتيني دعوت أو لم أدع، وإن كان الله لم يكتب لي هذا الرزق، فلا فائدة في هذا الدعاء. هل هذا القول صحيح؟

نقول: ليس بصحيح؛ لأننا نقول: إن ربنا سبحانه، قد قدر لك هذا الأمر، ولكن جعل له سبباً؛ يعني: قدر لك رزقاً، وجعل سببه الدعاء، وقدر لك صحّة، وجعل لها سبباً هو الدعاء، فكأنه كتب في الأزل أنك تدعو فتصحّ، ولو لم تدع لم تصحّ، وكأنه كتب في الأزل أنك تدعو فترزق، ولو لم تدع لم ترزق. فيكون الدعاء سبباً من أسباب هذا الأمر الذي حصل لك.

ومعلوم أن الأسباب مرتبطة بمسبباتها، وأن الله جعل في هذه الدنيا أسباباً، وأمر العباد بمباشرتها، وجعل لتلك الأسباب تأثيراً، وإن كان قد قدر ذلك أزلاً، وكتبه في اللوح المحفوظ. وقد تقدّم كلام الشارح في الأسباب الحسيّة، والأسباب الحسيّة لا ينكرها منكر.

فمن المعلوم أن الإنسان لو ترك الأكل وهو ينظر إليه ويجده حتى مات، يعد قاتلاً لنفسه؛ الله تعالى جعل هذا الأكل سبباً في بقاء الحياة، وقدر أن الإنسان يأكل من هذا الطعام فيعيش، وأمر بذلك بقوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]. وقدر أن الشراب سببٌ في بقاء هذه الحياة، ولو تركه الإنسان وهو قادر على أن يشرب، فمات، عدّ قاتلاً لنفسه. وكذلك الأسباب الأخرى مشاهد أنّها مؤثّرة

في مسيبتها، فالنكاح سبب في حصول الولد، والله أمر بذلك، فقال: ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣]، وقال: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنَكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور: ٣٢]؛ لأن النكاح سبب في حصول الولد، فلو قال إنسان: لا أتزوج، إن كان الله قدّر لي أولادًا حصلوا وإن لم أتزوج، وإن كان لم يقدر لي أولادًا فلا فائدة في الزواج.

نقول: ليس كذلك، فالله إذا قدّر لك ولدًا، فإنه لا بدّ له من سبب، جعل من سببه النكاح، فأنت افعل هذا السبب حتى يحصل ما قدّره، عليك أن تفعل والله هو الذي يقدر ذلك.

ولو قال إنسان مثلاً وهو يملك أرضاً: لا حاجة لي أن أبذر في هذه الأرض أو أسقيها، فإن كان الله قدّر أن ينبت فيها قمحًا، أو زرعًا حصل ذلك، وإن لم يقدر، فلا فائدة في الزرع. هل هذه المقالة صحيحة؟ لا شك أنّها باطلة؛ لأن الله تعالى قد أمر بهذا السبب، وهو بذر الأرض وسقيها، وهو إذا شاء جعلها مثمرة، يقول تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (١٣) ﴿أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ وَأَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣]، [٦٤]، أثبت لهم حرثًا، ثم أخبر بأنّه هو الذي ينبتّه، ولو شاء ما نبت، ومن أجل ذلك قال: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَمًا﴾ [الواقعة: ٦٥]. فهذا بيان أنّ الأسباب لها فائدة، ولو كان ذلك مكتوبًا أزلًا، فإذا: الدعاء سببٌ، كما أنّ الزرع والنكاح والغزو سبب، وما أشبه ذلك. فهذه الأسباب تؤثر بإذن الله تعالى.

هناك من يعتمد على الأسباب كلاً، وتقدّم أنّ الاعتماد على الأسباب،

والاعتقاد بأن السبب هو وحده المؤثر يُعدّ شركًا بالله؛ لأنه جعل لغيره تأثيرًا لم يجعله بتقدير الله. والله تعالى أخبر بأنّه هو يخلق الخلق، وهو يرزقهم: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ (٥٨) **ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ**؛ **أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ** ﴿[الواقعة: ٥٨، ٥٩]، لو قال إنسان: إن الإنسان هو يخلق ولده؛ لأنّه صبّه في الرحم، ثمّ تكوّن إلى أن يكون ولدًا، ولم يجعل لله سببًا، كان ذلك كفرًا؛ لأنّ الله هو مسبّب الأسباب.

وقسم ثانٍ، وهم الذين يعرضون عن الأسباب، ولا يلتفتون إليها، وهذا نقص في العقل، فلا يليق بالعاقل أن يترك الأكل ويقول: إذا قدر الله أني أعيش، فإنني أعيش ولو لم أكل. وكذلك أيضًا يترك التكسّب وطلب الرزق، ويقول: ينزل عليّ من السماء طعامي وشرابي وكسوتي وحاجاتي، وإن لم أتحرك ولم أطلب. فذلك نقص في العقل. إذن الاعتماد على الأسباب يعدّ شركًا وقدحًا في التوحيد، وترك الأسباب نقص في العقل وقدح في الشرع.

وبكلّ حال، هذا الدعاء أمر الله به، وحثّ عليه، ورغب فيه، وأخبر بأنّه يحبّ الذين يدعونّه. وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»^(١). فحثّ المسلم على أن يدعو الله حتّى يحصل على رضاه. وقد قال بعض السلف: اسألوا الله حاجاتكم كلّها حتّى الملح للطعام. وإن كان ذلك يستدعي أيضًا أن الإنسان يفعل الأسباب، مع عدم اعتماده عليها، ومن جهلتها أن يدعو الله تعالى. والدعاء يحصل لخيري الدنيا والآخرة، ويعلم أن أمور الدنيا والآخرة بيد الله، ويعلم أنّه

(١) تقدم تخريجه (٤/٤٩٢).

هو الذي يعطي عباده، ولا تنفذ خزائنه مهما أنفق ومهما أعطى. كما في الحديث: «يُدُّ اللَّهُ مَلَأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةُ سَحَاءِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِيضْ مَا فِي يَدِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَيَبِيدُهُ الْمِيزَانُ يَخْفُضُ وَيَرْفَعُ»^(١).

وكما في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْبَاطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبُحْرَ»^(٢). وأشبه ذلك.

وقد وردت أحاديث كثيرة تحض على الدعاء وتحث عليه، وقد أسلفنا أن الدعاء فيه فائدة كبيرة بتعجيل استجابته في الدنيا، أو الثواب عليه في الآخرة، أو دفع شر بقدره. ولو لم يكن في الدعاء إلا تذلل الإنسان لربه، وخضوعه له، وتضرعه، وتمسكه بين يدي ربه؛ لكان فيه خيراً عظيماً. وهذا رد على من ألغى فائدة الدعاء.

والواقع يشهد بفائدة الدعاء، فالنبي ﷺ لما سئل مرة وهو على المنبر، أن يدعوا الله تعالى بالغيث، رفع يديه، وقال: «اللَّهُمَّ اغْثِنَا»، مرتين أو ثلاثاً، فاستجاب الله دعاءه، فنزل المطر في ذلك اليوم، واستمر نزوله أسبوعاً، وفي الجمعة الثانية دعا بقوله: «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا»، فانفرجت السماء، وأصبحت

(١) تقدم تخرجه (٢/٢٨٨).

(٢) تقدم تخرجه (١/٤٢٦).

المدينة في مثل الإكليل استجابةً لدعوته^(١). فدلّ على أنّ الدعاء يؤثر ويفيد، لاسيّما إن كان من مسلم مستجاب الدعوة، ومن تتمّ فيه الصفات التي تجعله أهلاً أن تُجاب دعوته، ويقوم بشروط إجابة الدعوة؛ فإنّ لها شروطاً مذكورة في الكتب المطوّلة.

وقد جمع العلماء ما صحّ عندهم من الأدعية؛ ففي «صحيح البخاري» كتاب اسمه كتاب الدعوات، أورد فيه الكثير من الأدعية المرفوعة تتعلق بأمر الدنيا والآخرة، طلباً أو منعاً؛ فالطلب: مثل سؤال الجنة، وسؤال الخير ومحو الشرّ وما أشبه، والمنع مثل الاستعاذة من الشرور ونحوها. وكذلك في «صحيح مسلم» كتاب الذكر والدعاء، جمع فيه أيضاً أدعية كثيرة. وأخرجت الأدعية في كتب، من أوسعها كتاب «الدعاء» للبيهقي، و«الدعاء» للطبراني. واهتمّ بذلك العلماء المتقدّمون والمتأخرون، وكلّ أخرج ما اطلع عليه، وما عنّ له من الأدعية. وذلك كله دليل على فائدة الدعاء.

(١) أخرجه البخاري (١٠١٣)، ومسلم (٨٩٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

قال الشارح:

وَهَذَا سُؤَالٌ مَعْرُوفٌ، وَهُوَ: أَنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ قَدْ يَسْأَلُ اللَّهَ فَلَا يُعْطَى شَيْئًا، أَوْ يُعْطَى غَيْرَ مَا سَأَلَ؟ وَقَدْ أُجِيبَ عَنْهُ بِأَجُوبَةٍ، فِيهَا ثَلَاثَةٌ أَجُوبَةٍ مُحَقَّقَةٌ: أَحَدُهَا: أَنَّ الْآيَةَ لَمْ تَتَضَمَّنْ عَطِيَّةَ السُّؤَالِ مُطْلَقًا، وَإِنَّمَا تَضَمَّنَتْ إِجَابَةَ الدَّاعِي، وَالِدَّاعِي أَعْمٌ مِنَ السَّائِلِ، وَإِجَابَةُ الدَّاعِي أَعْمٌ مِنْ إِعْطَاءِ السَّائِلِ. وَهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟»^(١).

فَفَرَّقَ بَيْنَ الدَّاعِيِ وَالسَّائِلِ، وَبَيَّنَّ الْإِجَابَةَ وَالْإِعْطَاءَ، وَهُوَ فَرْقٌ بِالْعُمُومِ وَالْخُصُوصِ، كَمَا أَتَى ذَلِكَ بِالمُسْتَغْفِرِ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ السَّائِلِ، فَذَكَرَ الْعَامَّ ثُمَّ الْخَاصَّ ثُمَّ الْأَخْصَّ. وَإِذَا عَلِمَ الْعِبَادُ أَنَّهُ قَرِيبٌ، يُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي، عَلِمُوا قُرْبَهُ مِنْهُمْ، وَتَمَكَّنْتَهُمْ مِنْ سُؤَالِهِ، وَعَلِمُوا عِلْمَهُ وَرَحْمَتَهُ وَقُدْرَتَهُ، فَدَعَا دُعَاءَ الْعِبَادَةِ فِي حَالٍ، وَدُعَاءَ الْمَسْأَلَةِ فِي حَالٍ، وَجَمَعُوا بَيْنَهُمَا فِي حَالٍ؛ إِذِ الدُّعَاءُ اسْمٌ يَجْمَعُ الْعِبَادَةَ وَالِاسْتِعَانَةَ، وَقَدْ فُسِّرَ قَوْلُهُ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، بِالدُّعَاءِ، الَّذِي هُوَ الْعِبَادَةُ، وَالدُّعَاءِ الَّذِي هُوَ الطَّلَبُ. وَقَوْلُهُ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، يُؤَيِّدُ الْمَعْنَى الْأَوَّلَ.

الجواب الثاني: أَنَّ إِجَابَةَ دُعَاءِ السُّؤَالِ أَعْمٌ مِنْ إِعْطَاءِ عَيْنِ السُّؤَالِ، كَمَا

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة ؓ.

فَسَرَّهُ النَّبِيُّ ﷺ فِيهَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو اللَّهَ بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةٌ رَحِمٍ، إِلَّا أَعْطَاهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: إِمَّا أَنْ يُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، أَوْ يَدَّخَرَ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ مِثْلَهَا، أَوْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مِثْلَهَا»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا نُكْثِرُ، قَالَ: «اللَّهُ أَكْثَرُ»^(١). فَقَدْ أَخْبَرَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي الدَّعْوَةِ الْخَالِيَةِ عَنِ الْعُدْوَانِ مِنْ إِعْطَاءِ السُّؤَالِ مُعَجَّلًا، أَوْ مِثْلِهِ مِنَ الْخَيْرِ مُؤَجَّلًا، أَوْ يَصْرِفُ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مِثْلَهُ.

الجواب الثالث: أَنَّ الدُّعَاءَ سَبَبٌ مُقْتَضٍ لِتَيْلِ الْمَطْلُوبِ، وَالسَّبَبُ لَهُ شُرُوطٌ وَمَوَانِعُ، فَإِذَا حَصَلَتْ شُرُوطُهُ، وَانْتَفَتَ مَوَانِعُهُ، حَصَلَ الْمَطْلُوبُ، وَإِلَّا فَلَا يَحْضُلُ ذَلِكَ الْمَطْلُوبُ، بَلْ قَدْ يَحْضُلُ غَيْرُهُ. وَهَكَذَا سَائِرُ الْكَلِمَاتِ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الْأَذْكَارِ الْمَأْثُورَةِ الْمُعَلَّقِ عَلَيْهَا جَلْبُ مَنَافِعَ، أَوْ دَفْعُ مَضَارٍ، فَإِنَّ الْكَلِمَاتِ بِمَنْزِلَةِ الْأَلَةِ فِي يَدِ الْفَاعِلِ، تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ قُوَّتِهِ وَمَا يُعِينُهَا، وَقَدْ يُعَارِضُهَا مَانِعٌ مِنَ الْمَوَانِعِ. وَنُصُوصُ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ. الْمُتَعَارِضَةِ فِي الظَّاهِرِ. مِنْ هَذَا الْبَابِ. وَكَثِيرًا مَا تَجِدُ أَدْعِيَةً دَعَا بِهَا قَوْمٌ فَاسْتَجِيبَ لَهُمْ، وَيَكُونُ قَدْ اقْتَرَنَ بِالدُّعَاءِ ضَرُورَةٌ صَاحِبِهِ، وَإِقْبَالُهُ عَلَى اللَّهِ، أَوْ حَسَنَةٌ تَقَدَّمَتْ مِنْهُ، جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِجَابَةَ دَعْوَتِهِ شُكْرًا لِحَسَنَتِهِ، أَوْ صَادَفَ وَقْتِ إِجَابَتِهِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، فَأَجِيبَتْ دَعْوَتُهُ، فَيُظَنُّ أَنَّ السَّرَّ فِي ذَلِكَ الدُّعَاءِ، فَيَأْخُذُهُ مُجَرَّدًا عَنْ تِلْكَ الْأُمُورِ الَّتِي قَارَنَتْهُ مِنْ ذَلِكَ الدَّاعِي.

(١) تقدم تخريجه (٤/٥٠٥)، ولم يروه مسلم في صحيحه.

وَهَذَا كَمَا إِذَا اسْتَعْمَلَ رَجُلٌ دَوَاءً نَافِعًا فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَنْبَغِي، فَأَنْتَفَعَ بِهِ، فَظَنَّ آخَرَ أَنَّ اسْتِعْمَالَ هَذَا الدَّوَاءِ بِمُجَرِّدِهِ كَافٍ فِي حُصُولِ الْمَطْلُوبِ، فَكَانَ غَالِطًا.

وَكَذَا قَدْ يَدْعُو بِاضْطِرَارٍ عِنْدَ قَرِي، فَيُجَابُ، فَيُظَنُّ أَنَّ السَّرَّ لِلْقَبْرِ، وَلَمْ يَنْدِرْ أَنَّ السَّرَّ لِلِاضْطِرَارِ وَصِدْقِ اللَّجِّءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَإِذَا حَصَلَ ذَلِكَ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى كَانَ أَفْضَلَ وَأَحَبَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

فَالْأَدْعِيَّةُ وَالتَّعَوُّذَاتُ وَالرُّقَى بِمَنْزِلَةِ السَّلَاحِ، وَالسَّلَاحُ بِضَارِبِهِ، لَا بِحَدِّهِ فَقَطُّ، فَمَتَى كَانَ السَّلَاحُ سِلَاحًا تَامًّا، وَالسَّاعِدُ سَاعِدًا قَوِيًّا، وَالْمَحَلُّ قَابِلًا، وَالْمَانِعُ مَفْقُودًا، حَصَلَتْ بِهِ النِّكَايَةُ فِي الْعُدُوِّ، وَمَتَى تَخَلَّفَ وَاحِدٌ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ تَخَلَّفَ التَّأثيرُ. فَإِذَا كَانَ الدُّعَاءُ فِي نَفْسِهِ غَيْرَ صَالِحٍ، أَوْ الدَّاعِي لَمْ يَجْمَعْ بَيْنَ قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ فِي الدُّعَاءِ، أَوْ كَانَ تَمَّ مَانِعٌ مِنَ الْإِجَابَةِ: لَمْ يَحْصُلِ الْأَثَرُ.

قال الشيخ:

هذه الأجوبة قد تقدمت الإشارة إلى بعضها. والسؤال: أن بعض الناس يدعو ويكرر الدعاء، ومع ذلك لا يستجاب دعاؤه، فكيف والله تعالى يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]؟ قد يقول: لماذا لا يستجيب وقد وعد بالإجابة، وكذلك قوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، كيف لم تحصل الإجابة؟

ذكر الشارح عدّة أجوبة، ومنها: القول بأنّ الإجابة أعّم من الإعطاء، فقد قال تعالى: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، و﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَاكَ﴾، ولم يقل: أعطيه مطلبه! فالإجابة يدخل فيها الثواب، ويدخل فيها التلبية لطلبه، ونحو ذلك. والسّماع: أي إنّهُ سمع دعوته سماع قبول. فيقول: هناك فرق بين إعطائه سؤاله، وإجابة الدعوة، والله تعالى ذكر إجابة الدعوة، ولم يذكر إعطاء المسؤل، فلا يكون هناك اعتراض على الآية.

وتقدّم الاستشهاد بحديث النزول: يقول تعالى: «مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبْ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيهِ؟ مَنْ يَسْتَعْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟»، ففرّق بين السؤال والدّعاء، ففي السؤال قال: أعطيه، وفي الدّعاء قال: أجيبه، والآية فيها: أجيبه. فإنّ أجابه بأن سمع دعاءه، أو قبل دعاءه، صدق عليه أنّه أجابه، فيقال: أنت ممّن قبل الله دعاءك، وإن لم يعطك سؤالك.

أما الجواب الثاني: فيه أنّ الدّاعي لا يعدو أن يكون من هذه الثلاث: الأولى أن يعطى سؤاله في الدّنيا. والثانية: أن يدّخر له إلى الآخرة. والثالثة: أن يصرف عنه من الشرّ مثله. فهو رابح بكلّ حال.

أما الجواب الثالث: فهو أنّ الدّعاء قد يتخلّف سبب الإجابة فيه؛ لأنّ الإجابة لها أسباب، ولها موانع، فمثلاً: الإنسان المسلم المؤمن صحيح الاعتقاد، هذا يعد سبباً من أسباب الإجابة. كذلك الملحّ في الدّعاء، حاضر القلب، الذي اجتمع قلبه ولسانه على الدّعاء، وكذلك المضطرّ غاية الضرورة، الذي وقع في

الضيق، فالتجأ إلى ربه صادقاً في دعائه، وكذلك استعمل أدعيةً مأثورة، ومرويةً وجامعةً ومانعةً، وكذلك تحرى أوقات الإجابة، وتحرى أماكن الإجابة، تحرى فيه الأسباب، فأعطي سؤاله.

وإذا سمع بذلك آخر، فقال: فلان أعطي سؤاله لما أن دعا فاستجيب له. وأنا دعوت ولكن لم يستجب لي، فأنا لا أزال في شدة، ولا أزال في كرب!

نقول: تخلف فيك سبب من أسباب الإجابة، فلو اجتمعت فيك أسباب الإجابة، أجيب دعاؤك، ولكن لعله تخلف فيك سبب، أو وجد فيك مانع. كارتكاب شيء من الذنوب، أو تقصير في شيء من الأعمال، فيكون مانعاً من الإجابة.

وقد مثل الشارح - رحمه الله - لذلك بإنسان دعا عند قبر، ولكن دعا وهو مضطر، ودعا وهو صادق الرغبة، فظن أن إجابته بسبب ذلك القبر، فسمعه الآخرون وقالوا: هذا القبر تستجاب عنده الدعوة. وليس كذلك، بل الأمر إما حصل مصادفة، أو حصل بأمر سهاوي، أو الحاجة ما. فالحاصل أن الإنسان يجب عليه أن ينظر ويأتي بالأسباب التي تكون مفيدة في إجابة الدعاء.

الآيات كثيرة في أمر الله تعالى عباده أن يدعوه. وقد عرفنا أن الدعاء هو النداء، فإذا قلنا: اللهم اغفر لنا، اللهم ارحمنا، فهذا يستدعي منا نداءً لربنا، المعنى: يا الله، يا ربنا. وكذلك في الأدعية التي في القرآن: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]؛ التقدير: يا ربنا.

وقد ذكرنا أن الدعاء ينقسم قسمين: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، وأن كلاً منهما يلزم منه الآخر، فدعاء المسألة يستلزم دعاء العبادة، ودعاء العبادة يتضمن دعاء المسألة، ودعاء العبادة يدخل فيه كل العبادات، فيقال: الصلوات دعاء عبادة، والأذكار دعاء عبادة، والأوراد دعاء عبادة، والصدقات والصلوات والبر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما أشبه ذلك من الأعمال الخيرية، وكذلك ترك المنكرات، دعاء عبادة كلها. ولكن هي في الحقيقة تتضمن دعاء المسألة؛ لأن العابد ربه ما قصد إلا المسألة، فكأنه يقول: أقصد من صلاتي الأجر، وأقصد من صدقتي الثواب، وأقصد من دعائي ومن ذكري الحياة الطيبة، كأنه يقول: أصلي لك يا رب وأحج لك؛ لتغفر لي، ولترزقني، ولتصلح أحوالي، فإذا هو داعٍ في حقيقة أمره، ويقصد الأجر على هذه العبادة.

وقد ذكرنا أن الاشتغال بالثناء والذكر يقوم مقام السؤال، ولأجل ذلك وردت أدعية في القرآن، لفظها لفظ الدعاء ولكنها ذكر وثناء، مثل قول الله تعالى:

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَن تَشَاءُ بِعَتْرِ حِسَابٍ ﴿٦٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧]، ليس فيها سؤال، إنما فيها ثناء على الله، ولكن هذا الثناء يستلزم الدعاء. نقول: هذا هو حقيقة الدعاء.

وهناك من ينكر الدعاء؟ مثل فرقة من القدرية الذين يقولون لا فائدة في الدعاء؛ لأن ما كتب لك سوف يأتيك دعوت أو لم تدع، وإن كان لم يكتب لك،

فلا يأتيك دعوت أو لم تدع.

والجواب: أن الله كتب لك هذا، ولكن كتب له شرطاً، والشرط هو الدعاء؛ يعني: جعل لك رزقاً يأتيك بشرط الدعاء، وقدّر الله أنك تدعو، وقدّر أنه يجيب دعوتك، وأمرك بأن تدعو، وأخبرك بفائدة هذا الدعاء، ولو كان ما قالوه صحيحاً لم يكن في العمل كلّ فائدة. ونحن نعترف بأن الأعمال الصالحة لها تأثير، والأعمال السيئة أيضاً لها تأثير. وعلى هذا فالدعاء له فائدة، كما أن العمل الصالح له فائدة، وفائدته الحياة الطيبة، كما قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ

أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. فعرّفنا بذلك أننا مأمورون بالدعاء، وأنه يجيب الدعوات، وأنه قدّر أن يوفّق الداعي بالدعاء، ويلهمه الله ذلك، فيحصل له فائدة.

كذلك أيضاً: قد يقول بعضهم: إنّنا ندعو دائماً، ونكثر من الدعاء، ولا نرى له فائدة، ولا يُستجاب لنا؟!

والجواب: أن حرمان الإجابة أو تأخرها له أسباب، وإجابتها أيضاً لها أسباب، وقد سمعنا أخباراً عن الصالحين الذين استجاب الله لهم وعلى الأخصّ في وقت الشدّة، وسمعنا كثيراً عن الصالحين الذين اشتدّت بهم الأزمات، وضاق بهم السبيل، فدعوا الله وأخلصوا له الدعاء، فاستجاب الله لهم وفرّج عنهم.

يذكر بعض آبائنا أنّهم كانوا مسافرين للحجّ في زمن شديد القحط، وأنّ

الطريق الذي سلكوه ليس به ماء، فساروا نحو خمسة أيام أو ستة، لم يردوا موردًا، واشتدّ عليهم العطش حتى كادوا يموتون عطشًا، ولما أيقنوا بالهلاك ألهمهم الله الدعاء، فتضرّعوا لله وهم في أشدّ ما يكونون من الحرّ؛ فأرسل الله عليهم سحابةً أمطرت عليهم قدر ما شربوا ورووا إبلهم وملئوا قربهم، وأزال عنهم هذه الشدة. وهناك الكثير من هذه العجائب التي تبين ما للدعاء من تأثير كبير.

وقد تقدّم الحديث عن النبي ﷺ: « ما من مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا أُنْسٌ وَلَا قَطِيعَةٌ رَحِمَ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثِ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا»، قالوا: إِذَا نُكِّرُ، قَالَ: «اللَّهُ أَكْثَرُ»^(١). أي: أكثر أجرًا وثوابًا.

(١) تقدم تخريجه (٤/٥٠٥).

قال الطحاوي:

وَيَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَا يَمْلِكُهُ شَيْءٌ. وَلَا غِنَى عَنِ اللَّهِ تَعَالَى طَرْفَةَ عَيْنٍ،
وَمَنْ اسْتَغْنَى عَنِ اللَّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، فَقَدْ كَفَرَ وَصَارَ مِنْ أَهْلِ الْحَيْنِ.

قال الشارح:

كَلَامٌ حَقٌّ ظَاهِرٌ لَا حَقْفَاءَ فِيهِ. وَالْحَيْنُ، بِالْفَتْحِ: الْهَلَاكُ.

قال الشيخ:

قوله: (وَيَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَا يَمْلِكُهُ شَيْءٌ)، كلام ظاهر يدل على أن الله تعالى هو المالك لكل شيء، كما أخبر الله تعالى بقوله: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ [التغابن: ١]، ﴿بِتَرَكِ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]. والمَلِكُ: اسم من أسماء الله، وكذلك من أسماء المالك، الذي يملك التصرف الكامل، فهو مالك الدنيا والآخرة، ومالك العباد، ومالك البلاد، ومذلل الصعاب، مالك كل شيء، ولا يمكنه شيء، تعالى الله فهو الخالق وما سواه مخلوقون، وهو المالك وما سواه مملوكون.

هذا معنى هذه الجملة: الاعتراف بأن الملك ملكه، وبأن العبيد كلهم وما بأيديهم مملوكون له، وملكهم بها تحت أيديهم وما تحت تصرفهم، ملك خاص لا يملكونه استقلالاً، وهو ملك مؤقت. فإن قلت: هذه الدولة يملكها فلان، أو

رئيسها فلان. نقول: إن ملكه خاصّ ومؤقت، وكذلك الأرض والعمارة يملكونها ملكًا خاصًا ومؤقتًا، ربّما تنتزع منه، أو ينتزع منها، أو يموت ويتركها. فعرف بذلك أنّ الملك الحقيقي هو ملك الله سبحانه المالك: ﴿فَسَبِّحْنِ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس: ٨٣].

وأما قول الطحاوي - رحمه الله -: (وَلَا غِنَى عَنِ اللَّهِ تَعَالَى طَرْفَةَ عَيْنٍ)، فقد تقدّم ذلك في الجمل المتقدّمة، والتي ذكر فيها أنّ العباد بحاجة إلى ربّهم، وأتّهم مضطّرون إلى سؤاله، بل هو يحبّ منهم أن يدعوه ويسأله، ويرغب عباده أن يسأله ويستعطوه من فضله، مع كونهم بحاجة إلى عطائه، وهو غنيّ عنهم، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَسْتَأْذِنُ الْفُقَرَاءَ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]. فوصف نفسه بأنّه الغنيّ، والعباد فقراء إلى الله.

وقد ورد في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِيكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعَمُونِي أُطْعِمُكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ غَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكَسَوْنِي أَكْسِكُمْ»^(١). فلا يستغني أحدٌ عن الله طرفة عين، والذين يظهرون أنّهم في غنى عن الله، هم في الحقيقة فقراء، ولو حصل لهم ما حصل، ولو ذللت لهم الدنيا، وضحكت لهم

(١) جزء من حديث تقدم تحريجه (٤/ ٤٣٠).

حیاتهم، حتی انخدعوا، أو انخدع كثير منهم.

وذكر أن بعض الكفرة الذين كانوا بين المسلمين، لما قيل له: اعبد الله، فإن الله هو الذي رزقك. أنكر ذلك. والعياذ بالله. وقال: إنما رزقتني يميني. فاعتمد على أنه هو الذي يكسب، ونسي أن الله هو الذي حنّ عليه أبويه في طفولته، ووكّل به من يطعمه ويسقيه في حالة عجزه، حتّى اشتدّ عوده، ونسي فضل الله عليه، ولو شاء الله لسلبه ما أعطاه. فعلى هذا يعترف الإنسان أنه فقير إلى الله، وأنّ العباد لا غنى لهم عن ربّهم طرفة عين.

قال الطحاوي:

وَاللَّهُ يَغْضَبُ وَيَرْضَى، لَا كَأَحَدٍ مِنَ الْوَرَى.

قال الشارح:

قَالَ تَعَالَى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩]، ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ
يَأْتِيُوكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾
[المائدة: ٦٠]، ﴿وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [النساء: ٩٣]، ﴿وَيَأْذُو وَيَغْضَبُ مِنَ
اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]، وَنَظَائِرُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

وَمَذْهَبُ السَّلَفِ وَسَائِرِ الْأَئِمَّةِ: إِثْبَاتُ صِفَةِ الْغَضَبِ، وَالرَّضَى، وَالْعَدَاوَةِ،
وَالْوِلَايَةِ، وَالْحُبِّ، وَالْبُغْضِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ، الَّتِي وَرَدَ بِهَا الْكِتَابُ
وَالسُّنَّةُ، وَمَنْعُ التَّأْوِيلِ الَّذِي يَضُرُّهَا عَنْ حَقَائِقِهَا اللَّائِقَةِ بِاللَّهِ تَعَالَى. كَمَا
يَقُولُونَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ وَسَائِرِ الصِّفَاتِ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ
الشَّيْخُ فِيمَا تَقَدَّمَ بِقَوْلِهِ: (إِذْ كَانَ تَأْوِيلُ الرُّؤْيَا وَتَأْوِيلُ كُلِّ مَعْنَى يُضَافُ إِلَى
الرُّبُوبِيَّةِ: تَرَكَ التَّأْوِيلَ، وَلَزُومَ التَّسْلِيمِ، وَعَلَيْهِ دِينُ الْمُسْلِمِينَ).

وَأَنْظُرْ إِلَى جَوَابِ الْإِمَامِ مَالِكٍ رحمته الله فِي صِفَةِ الْإِسْتِوَاءِ كَيْفَ قَالَ: «الْإِسْتِوَاءُ
مَعْلُومٌ، وَالْكَيفُ مَجْهُولٌ»^(١). وَرُويَ أَيْضًا عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .

(١) تقدم تخرجه (١/٤٠٤).

مَوْفُوفًا عَلَيْهَا، وَمَرْفُوعًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ^(١).

وَكَذَلِكَ قَالَ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِيمَا تَقَدَّمَ: (مَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ، زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ). وَيَأْتِي فِي كَلَامِهِ أَنَّ الْإِسْلَامَ بَيْنَ الْعُلُوِّ وَالتَّقْصِيرِ، وَبَيْنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّعْطِيلِ.

فَقَوْلُ الشَّيْخِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (لَا كَأَحَدٍ مِنَ الْوَرَى)، نَفْيُ التَّشْبِيهِ. وَلَا يُقَالُ: إِنَّ الرِّضَى إِرَادَةُ الْإِحْسَانِ، وَالغَضَبُ إِرَادَةُ الْإِنْتِقَامِ. فَإِنَّ هَذَا نَفْيٌ لِلصِّفَةِ، وَقَدْ اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَإِنْ كَانَ لَا يُرِيدُهُ وَلَا يَشَاءُوهُ، وَيَنْهَى عَمَّا يَسْخَطُهُ وَيَكْرَهُهُ، وَيُبْغِضُهُ وَيَغْضَبُ عَلَى فَاعِلِهِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ شَاءَهُ وَأَرَادَهُ، فَقَدْ يُحِبُّ عِنْدَهُمْ وَيَرْضَى مَا لَا يُرِيدُهُ، وَيَكْرَهُهُ وَيَسْخَطُ وَيُبْغِضُ لِمَا أَرَادَهُ.

وَيُقَالُ لِمَنْ تَأَوَّلَ الْغَضَبَ وَالرِّضَى بِإِرَادَةِ الْإِحْسَانِ: لِمَ تَأَوَّلْتَ ذَلِكَ؟ فَلَابِدَّ أَنْ يَقُولَ: لِأَنَّ الْغَضَبَ عَلَيَانُ دَمِ الْقَلْبِ، وَالرِّضَى الْمَيْلُ وَالشَّهْوَةُ، وَذَلِكَ لَا يَلِيقُ بِاللَّهِ تَعَالَى! فَيُقَالُ لَهُ: عَلَيَانُ دَمِ الْقَلْبِ فِي الْأَدَمِيِّ أَمْرٌ يَنْشَأُ عَنِ صِفَةِ الْغَضَبِ، لَا أَنَّهُ الْغَضَبُ. وَيُقَالُ لَهُ أَيْضًا: وَكَذَلِكَ الْإِرَادَةُ وَالْمَشِيئَةُ فِينَا، فَهِيَ مَيْلُ الْحَيِّ إِلَى الشَّيْءِ أَوْ إِلَى مَا يُلَابِئُهُ وَيُنَاسِبُهُ، فَإِنَّ الْحَيَّ مِنْهُ لَا يُرِيدُ إِلَّا مَا يَجْلِبُ لَهُ مَنْفَعَةٌ أَوْ يَدْفَعُ عَنْهُ مَضَرَّةً، وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى مَا يُرِيدُهُ وَمُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ، وَيَزْدَادُ بِوُجُودِهِ، وَيَنْتَقِصُ بِعَدَمِهِ. فَالْمَعْنَى الَّذِي صَرَفْتَ إِلَيْهِ اللَّفْظَ كَالْمَعْنَى الَّذِي صَرَفْتَهُ عَنْهُ

(١) تقدم تخرجه (١٩/٣).

سَوَاءً، فَإِنْ جَارَ هَذَا جَارَ ذَلِكَ، وَإِنْ اِمْتَنَعَ هَذَا اِمْتَنَعَ ذَلِكَ.

فَإِنْ قَالَ: الْإِرَادَةُ الَّتِي يُوصَفُ اللَّهُ بِهَا مُحَالِفَةٌ لِإِرَادَةِ الَّتِي يُوصَفُ بِهَا الْعَبْدُ، وَإِنْ كَانَ كُلُّ مِنْهُمَا حَقِيقَةً؟ قِيلَ لَهُ: فَقُلْ: إِنَّ الْغَضَبَ وَالرَّضَى الَّذِي يُوصَفُ اللَّهُ بِهِ مُحَالِفٌ لِمَا يُوصَفُ بِهِ الْعَبْدُ، وَإِنْ كَانَ كُلُّ مِنْهُمَا حَقِيقَةً. فَإِذَا كَانَ مَا يَقُولُهُ فِي الْإِرَادَةِ يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ فِي هَذِهِ الصِّفَاتِ، لَمْ يَتَعَيَّنِ التَّأْوِيلُ، بَلْ يَجِبُ تَرْكُهُ؛ لِأَنَّكَ تَسَلَّمُ مِنَ التَّنَاقُضِ، وَتَسَلَّمُ أَيْضًا مِنْ تَعْطِيلِ مَعْنَى أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ بِلاَ مُوَجِبٍ. فَإِنَّ صَرْفَ الْقُرْآنِ عَنِ ظَاهِرِهِ وَحَقِيقَتِهِ بِغَيْرِ مُوَجِبٍ حَرَامٌ، وَلَا يَكُونُ الْمَوْجِبُ لِلصَّرْفِ مَا دَلَّهُ عَلَيْهِ عَقْلُهُ؛ إِذِ الْعُقُولُ مُحْتَلِفَةٌ، فَكُلُّ يَقُولُ: إِنَّ عَقْلَهُ دَلَّهُ عَلَى خِلَافِ مَا يَقُولُهُ الْآخَرُ!

وَهَذَا الْكَلَامُ يُقَالُ لِكُلِّ مَنْ نَفَى صِفَةً مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، لِامْتِنَاعِ مُسَمَّى ذَلِكَ فِي الْمَخْلُوقِ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُثَبَّتَ شَيْئًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى خِلَافِ مَا يَعْهَدُهُ، حَتَّى فِي صِفَةِ الْوُجُودِ، فَإِنَّ وُجُودَ الْعَبْدِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ، وَوُجُودَ الْبَارِي تَعَالَى كَمَا يَلِيقُ بِهِ، فَوُجُودُهُ تَعَالَى يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ الْعَدَمُ، وَوُجُودُ الْمَخْلُوقِ لَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ الْعَدَمُ، وَمَا سَمَّى بِهِ الرَّبُّ نَفْسَهُ وَسَمَّى بِهِ مَخْلُوقَاتِهِ، مِثْلَ الْحَيِّ وَالْعَلِيمِ وَالْقَدِيرِ، أَوْ سَمَّى بِهِ بَعْضَ صِفَاتِهِ، كَالغَضَبِ وَالرَّضَى، وَسَمَّى بِهِ بَعْضَ صِفَاتِ عِبَادِهِ، فَتَحْنُ نَعْقِلُ بِقُلُوبِنَا مَعَانِيَ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ حَقٌّ نَابِتٌ مَوْجُودٌ، وَنَعْقِلُ أَيْضًا مَعَانِيَ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ فِي حَقِّ الْمَخْلُوقِ، وَنَعْقِلُ أَنْ بَيْنَ الْمَعْنَيْنِ قَدْرًا مُشْتَرَكًا، لَكِنَّ هَذَا الْمَعْنَى لَا يُوْجَدُ فِي الْخَارِجِ مُشْتَرَكًا؛ إِذِ الْمَعْنَى الْمُشْتَرَكُ الْكُلِّيُّ لَا يُوْجَدُ مُشْتَرَكًا إِلَّا فِي الْأَذْهَانِ، وَلَا يُوْجَدُ فِي الْخَارِجِ إِلَّا مُعَيَّنًا

مُخْتَصًّا. فَيُثَبِّتُ فِي كُلِّ مِنْهُمَا كَمَا يَلِيْقُ بِهِ. بَلْ لَوْ قِيلَ: غَضِبُ مَالِكٍ حَازِنِ النَّارِ
وَوَغَضِبُ غَيْرِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: لَمْ يَجِبْ أَنْ يَكُونَ مُمَثِّلًا لِكَيْفِيَّةِ غَضَبِ الْأَدَمِيِّينَ؛ لِأَنَّ
الْمَلَائِكَةَ لَيْسُوا مِنَ الْأَخْلَاطِ الْأَرْبَعَةِ، حَتَّى تَعْلِي دِمَاءَ قُلُوبِهِمْ، كَمَا يَعْطِي دَمَ قَلْبِ
الْإِنْسَانِ عِنْدَ غَضَبِهِ. فَغَضِبُ اللَّهِ أَوْلَى.

قال الشيخ:

هذا الكلام يتعلق ببعض صفات الله تعالى، ومنها: صفة الغضب، والرّضى،
والسخط، والحبّ، والبغض، ونحوها، وهذه تسمى صفات فعلية. وقد مرّ فيما
تقدّم أنّ الصفات تنقسم قسمين: صفات فعلية، وصفات ذاتية.

فالصفات الذاتية: هي الملازمة للموصوف، كصفة الكلام والحياة والوجه
واليد والسمع والبصر، ونحوها. وأمّا صفات العلوّ والتزول والكرهية والسخط
والغضب والرّضى، فهي صفات فعلية، أي إنّ الله تعالى يفعلها إذا شاء. وقد
تكاثرت الأدلّة في هذه الصفات.

ففي إثبات الصفات الفعلية وردت أدلّة كثيرة في القرآن والحديث. وهذه
الأدلّة مع كثرتها أنكرها الكثير من المبتدعة، فقد أنكرها المعتزلة، مع أنّهم أنكروا
كذلك الصفات الذاتية وغيرها. وأنكر الأشعرية هذه الصفات الفعلية. ولكن
أهل السنّة لم ينكروها، بل أقروا بها؛ لأنّهم رأوا الأدلّة عليها واضحة من القرآن
والسنّة، وهي متواترة. فقول الله تعالى: ﴿وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ

وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿ [الفتح: ٦]، هل نكر دلالة هذه الآية على صفة الغضب؟
 وقوله - عز وجل -: ﴿ وَاللَّحْمَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا ﴾ [النور: ٩]، وقوله في القاتل:
 ﴿ وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ [النساء: ٩٣]، وكذلك قوله تعالى حكاية عن هود - عليه
 السلام - لَمَّا أَغْضَبَهُ قَوْمُهُ: ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَضِبْتُ ﴾
 [الأعراف: ٧١]، وقال في اليهود: ﴿ وَبَاءَ وَيَعَضِبُ مِنَ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٦١]، وكذلك
 آيات السَّخَطِ، كقوله تعالى: ﴿ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٦٢]،
 وكذلك آيات الرِّضَى كثير ورودها في القرآن: ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾
 [المائدة: ١١٩]. فنقول: لا شك أن هذا وصف ظاهر.

وكذلك أيضًا في الأحاديث، ففي حديث الشفاعة: «فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي
 غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ»^(١)، وكذلك يقول
 إبراهيم - عليه السلام - وأولوا العزم من الرسل، يقرّون بأن الله سبحانه يغضب في
 هذا اليوم غضبًا شديدًا. وهذا دليل على أن الأنبياء والرسل يعترفون لربهم بصفة
 الغضب الذي يليق به.

وعلى هذا، فلا بد من إثبات هذه الصفة، ولكن إذا أثبتناها، فإننا لا نكفيها،
 ولا نقول كيفية الغضب كذا وكذا في حق الله، وكذلك ننزهها عن مشابهة غضب
 المخلوق. ولذلك يقول الطحاوي: «لا كأحد من الورى»؛ أي: لا كغضب أحد

(١) تقدم تحريجه (١/٤٣٥).

من الخلق، فغضب الله يليق به، وغضب المخلوق يليق به.
وقد أنكر الأشاعرة هذه الصفة، وقالوا: إن الغضب الذي نعرفه: هو غليان
دم القلب لطلب الانتقام. وهذا لا يليق بالله، ولا يليق به أن يوصف بهذا الغضب
الذي بهذه الصفة. قال لهم أهل السنة: فبم تفسرون الآيات والأحاديث التي فيها
إثبات الغضب. فقالوا: نفسره في حق الله بأنه إرادة الانتقام. قلنا: كيف صرفتم
غضب الله إلى إرادة الله أن ينتقم، أي: إلى إرادة الانتقام؟ وهم صرفوه لأنهم
يعترفون بالإرادة، فهم يثبتون صفة الإرادة لله. فإذا قلنا لهم: الإرادة: ميل النفس
إلى المراد. قالوا: لا، هذه إرادة المخلوق. فإن قلنا: الغضب الذي هو غليان دم
القلب بإرادة الانتقام، وهذا أيضًا غضب المخلوق، فأنتم فررتم من شيء ووقعتم
في مثله، فالأولى لكم أن تثبتوا صفة الغضب، وتنفوا عنها التشبيه، وتكلموا كيفيتها
إلى الله تعالى، كما تفعلون ذلك في سائر الصفات؛ لأن المخلوق قد وصف بكثير
من الصفات التي هي من صفات الله، ومع ذلك يوجد فارق بين صفات الخالق
وصفات المخلوق.

فإذا أثبتنا صفتي السمع والبصر اللتين أثبتهما الله تعالى لنفسه، كما في قوله
سبحانه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]، وقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي
تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ مَخَاوَرِكُمْ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].
وكذلك يوصف بها الإنسان، فيقول تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]،
﴿أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ﴾ [مریم: ٣٨].

فإذًا: الإنسان سميع والله سميع، هل يلزم التشابه بين سمع الخالق وسمع المخلوق؟ معلوم أنّهما اشتركا في معنى عام. فإذا قيل ما هو السّمع؟ نقول: هو إدراك الأصوات. ولكن سمع الله لا يحجبه شيء، فهو يسمع ديب النملة السوداء على الصفاة الصّماء في الليلة الظلماء، وسمع الله لا يختلف عليه الأصوات، ولا تغلقه كثرة المسائل مع اختلاف اللغات. وسمع المخلوق ليس كذلك، فأنت إن تكلمت عندك اثنان معًا، اشتبه عليك ما يقول هذا بما يقول هذا. أمّا الرّب تعالى فلا يشغله سمع عن سمع. فإذا حصل الفرق.

وكذلك البصر، الاشتراك في المعنى العام، وهو أن يقال: ما هو البصر؟ نقول: هو إدراك الصور والأشباح. لكن بصر الله غير بصر المخلوق. فالله تعالى موصوف بالبصر، ولا يستر بصره حجاب. أما المخلوق فلا يخرق بصره الحجاب، ولا يرى ما يبعد عن مدى بصره، فهناك فارق.

وكذلك نقول في الغضب والرّضى، وفي السخط والبغض، والكرهية والمحبة. فنقول: إنّ بين محبة الله ومحبة المخلوق فرقًا. ولا نقول: إنّ محبة الله هي ميل النفس إلى المحبوب، أو الانعطاف نحو الشخص المحبوب.

وكذلك قول النبي ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، أَرْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمُهُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ»^(١). رحمة المخلوق معناها عطفه وحده على هذا الضعيف، ورقته عليه حتّى ينقذه من شدّة، أو يفرّج عنه همًّا، أو نحو ذلك من باب

(١) تقدم تحريجه (١/٦٥).

الإنسانية. ولما رأى الصحابة - رضي الله عنهم - امرأة من السبي تبغى صبيًا لها في السبي، فلما وجدته أخذته، فألصقته بطنها وأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: «أترؤن هذه المرأة طارحةً ولدها في النار؟» قالوا: لا والله، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: رسول الله ﷺ: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»^(١). فالأم: تحب ولدها وترحمه وتشفق عليه، وإذا بكى رفعته وقبلته، وألصقته ثديها. هذه رحمة جعلها في قلوب عباده، والله تعالى موصوف بأنه رحيم وأنه يرحم، ولكن هل رحمة الخالق مثل رحمة المخلوق؟ ليس بينهما تقارب، فالله تعالى رحيم بعباده، ولكن لا يلزم أن تكون من باب الرقة التي تكون للمخلوق أو نحوها، فرحمة المخلوق تليق به، ورحمة الخالق تليق به. إنما تشتركان في أنهما تعديان، فرحمة المخلوق تصل إلى الضعفاء، ورحمة الخالق تصل إلى عباده، يرحمهم بمعنى: أنه ينقذهم من الشدائد، ويرحمهم بمعنى: يغفر لهم، ويكفر عنهم سيئاتهم، ويدخلهم جنّته، ومن آثار رحمته أنه ينزل الغيث.

فيقال كذلك في الغضب والرضى. وقد مرّ ذلك في كلام الشارح أن غليان الدم في القلب ليس هو حقيقة الغضب، ولكنه أثر من آثار الغضب. فعندما يأتي الإنسان ما يغضبه، يشتدّ غليان قلبه، ويحرق ويحقد على هذا الذي أغضبه، فإذا غضب أثار ذلك حماسته، حتى اندفع بأن ينتقم منه. فتراه مثلاً قد يحمّر وجهه وتنتفخ أوداجه، وذلك أثار. مثل الاحمرار والانتفاخ والشدّة في الكلام،

(١) تقدم تخرجه (٤/٣٧٣).

والانطلاق في السباب، وليس هذا نفس الغضب، ولكنه أثر من آثاره، فيقال مثلاً: من آثار غضب الله أنه يعاقب العصاة العتاة، وأنه يريهم بأسه وشدته، ويرسل عليهم العقوبات؛ جزاء على كفرهم وعنادهم. ويقال: أغضبوا الله، بمعنى: أنهم خالفوا أمره، وعصوه، أو نهاهم عن شيء فأتوه، وهذا يسبب غضب الله عليهم.

فلو أن الإنسان أمر ولده فعصاه، لغضب عليه، ومن آثار غضبه أن يضربه أو يؤذبه. الربّ تعالى يأمر خلقه الذين هم عبيده، وهو المنعم عليهم، ولا غنى لهم عن ربهم طرفة عين، ومع ذلك يعصيه هؤلاء، وهذا يسبب غضبه عليهم، فإذا غضب عليهم عاقبهم، كما أنهم إذا أطاعوه رضي عنهم، فرضاه له آثار، آثاره أن يفرّج عنهم الموموم والشدائد، وينصرهم ويعطيهم سؤالهم ويجيب دعوتهم، فيقال: هؤلاء قد رضي الله عنهم، ويشبههم في الآخرة، فيكون ثوابه أثراً من آثار رضاه عنهم. كما يقول تعالى في أهل الجنة: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]. وكذلك يقال في العصاة: هؤلاء الذين غضب الله عليهم. من آثار غضبه: أن سلط بعضهم على بعض، وأن أوقع بينهم الفتن والمصائب، وأن أحل بهم النكبات والعقوبات، ونحو ذلك.

نقول: علينا أن نثبت هذه الصفات، كما أثبتها الله، وألا نسلط عليها التأويلات؛ كقولهم: الغضب: إرادة الانتقام، والرضى: إرادة الإنعام، ونحو ذلك. حيث وقع هؤلاء في مثل ما هربوا منه، أو أنكروا صفة أثبتها الله لنفسه،

فإذا أثبتوها وقالوا: نثبتها كما يليق بالله، ونفوض كيفيتها إلى الله، ولا نسلط عليها التأويلات، ولا نتكلف في صرفها عن ظاهرها، سلموا من الاعتراض. وهذا ما سلكه أهل السنة. أما أهل البدع فإتهم تشددوا وتكلفوا حتى حملوا الآيات والأحاديث ما لا تطيق، وجعلوها خارجة عن معناها، ولو وُفقوا وسلكوا طريقة أهل السنة في الرضى والتسليم لم يقعوا في مثل هذه المخالفات.

ومن البدع أيضًا: التعطيل؛ أي: تعطيل الله عن صفات الكمال؛ لأن الذين روجوها وأدخلوها كأتهم اكتسبوا الناس بالعقول، وأقنعوا من اتصلوا به أو من دعوه إلى أن أدلتهم عقلية، وأنّ العقل هو الأصل في النقل، وأنهم ما عرفوا صدق الرسل إلا بالعقل، فلا يمكن أن يصدقوا الرسل فيما يخالف العقل، أو فيما لا يقره العقل، هكذا روجوا ودعوا وموهوا.

ومعلوم أنّ المعطلة يقال لهم الجهمية؛ لأنّ الجهم بن صفوان هو الذي نشر بدعة التعطيل، وأولهم هو الجعد بن درهم الذي قتله خالد بن عبد الله القسري، ثم تبعه الجهم بن صفوان الذي قتله سلم بن أحوز، ثم انتشرت هذه البدعة وصارت عقيدة لطائفة تسمّوا بالمعتزلة، أنكروا صفات الله تعالى، بل أنكروا أسماءه، وزعموا أنّها أعلام لا تدلّ على صفات، فقالوا: إنّ الله عليم بلا علم، سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، رحيم بلا رحمة. وأنكروا أيضًا صفات الأفعال، وصفات الذوات، فأنكروا علوّ الله تعالى على خلقه، وأنكروا ما أثبتته لنفسه: كالوجه، بقوله تعالى: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]، واليدين بقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ

مَبْسُوطَانِ ﴿ [المائدة: ٦٤]، والعين بقوله: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر: ١٤]. كذلك نفوا الصفات الفعلية؛ فنفوا أن الله تعالى يحب أو يكره، أو يغضب، أو يرضى.

ووافقهم على هذا النفي طائفة متأخرة تسموا بالأشاعرة، انتسبوا إلى أبي الحسن الأشعري، ولكنه تبرأ منهم ورجع عن طريقتهم، واعتقد معتقد أهل السنة ومعتقد الإمام أحمد، ومن كان على طريقته. لكن هؤلاء الذين تسموا بالأشاعرة أخذوا طريقة عن الأشعري كان رجوع عنها. ومن عقيدتهم أنهم لا يثبتون إلا سبع صفات، ومن عقيدتهم أنهم ينكرون صفات الأفعال: فأهل السنة يقولون: إن الله يغضب لا كغضب المخلوق، ويرضى لا كرضى المخلوق، ويحب لا كمحبة المخلوق، ويسخط لا كسخط المخلوق. وهذه صفات كمال، ولو كانوا يتوهمون أنها مستحيلة.

ولكننا نقول: إننا ثبت أن الله يحب من يشاء: ﴿ إِنْ أَلَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتُلُونَ فِي سَبِيلِهِ ﴾ [الصف: ٤]، وثبت أن الله يرضى: ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [المائدة: ١١٩]، وثبت أنه يغضب: ﴿ وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٦]، وثبت أن الله يكره: ﴿ وَلَٰكِنْ كَرِهَ اللَّهُ أُنْيَعَانَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٦]. ثبت جميع هذه الصفات، ولكن ننزه الله أن تكون صفاته مشابهة لصفات المخلوقين، بل صفات المخلوق تنسب إليه، وصفات الخالق تنسب إليه، ولا نفسرها تفسيراً أكثر من إثباتها وحقيقتها.

ولكن الذين نفوها قالوا: لا يتصف بها إلا المخلوق، وأنه يلزم من إثباتها كذا

وكذا من المشابهة التي لا يليق أن تكون في الخالق. ولكن عمدتهم - كما يقولون - أن العقل يستبعدها، وأنه لا يمكن أن يتّصف بها الخالق عقلاً، فقدّموا العقل على النقل، واعتمده دليلاً.

ويقال لهم: ما دتم اعترفتم بأن الرّسل صادقون، وأنّ عقولكم دلّت على صدق الرّسل، وعلى صدق ما جاءت به، فعليكم أن تتقبّلوا كلّ ما جاء عنهم، وأن لا تردّوا منه شيئاً، فإن رددتم بعضاً دون بعض، فقد صدّقتهم بشيء وكذّبتهم بشيء، فتكونون كالذين قال الله لهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥]، كما توعد الله بذلك اليهود.

وبذلك نعرف أننا يجب أن نؤمن بجميع ما جاء به النبي ﷺ من الأسماء والصفات والعبادات والمعاملات وسائر الأحكام. آمناً بالله، على ما جاء عن الله، وعلى مراد الله، وآمناً برسول الله، وبما جاء عن رسول الله، على مراد رسول الله، وآمناً بالكتاب كلّهُ ولم نقبل بعضاً ونردّ بعضاً، ووكّلنا ما لم نعرف تأويله إلى عالمه، وتركنا تلك التأويلات التي يتأولها الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، وصرنا بذلك مؤمنين بكتاب الله، متّبعين لرسول الله ﷺ، مصدّقين لما جاء به. وهذا هو الإيمان الذي أمر الله به وأمر به رسوله، يؤمنون بالكتاب كلّهُ، ولا يفرّقون بين أحد من رسله. فيحشرون مع سلف الأمة وأئمتها.

قال الشارح:

وَقَدْ نَفَى الْجَهْمُ وَمَنْ وَاَفَقَهُ كُلَّ مَا وَصَفَ اللّٰهُ بِهِ نَفْسَهُ؛ مِنْ كَلَامِهِ،
وَرِضَاهُ، وَغَضَبِهِ، وَحُبِّهِ، وَبُغْضِهِ، وَأَسْفِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَقَالُوا: إِنَّمَا هِيَ أُمُورٌ
مَخْلُوقَةٌ مُتَّفَصِّلَةٌ عَنْهُ، لَيْسَ هُوَ فِي نَفْسِهِ مُتَّصِفًا بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ!!

وَعَارِضٌ هُوَ لِأَنَّ مِنَ الصِّفَاتِيَّةِ ابْنَ كُلابٍ وَمَنْ وَاَفَقَهُ، فَقَالُوا: لَا يُوصَفُ
اللّٰهُ بِشَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ أَصْلًا، بَلْ جَمِيعُ هَذِهِ الْأُمُورِ صِفَاتٌ لِأَزْمَتِهِ
لِذَاتِهِ، قَدِيمَةٌ أَرْزَلِيَّةٌ، فَلَا يَرْضَى فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ، وَلَا يَغْضَبُ فِي وَقْتٍ دُونَ
وَقْتٍ. كَمَا قَالَ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ: «إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ
قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَكِنْ يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ»^(۱). وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»^(۲) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ
الْحَدْرِيِّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللّٰهَ تَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ،
فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟
فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبُّ؟ وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ،
فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبُّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ
ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أَحَلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْحَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا».

فَيُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى أَنَّهُ يُحِلُّ رِضْوَانَهُ فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ، وَأَنَّهُ قَدْ يُحِلُّ رِضْوَانَهُ
ثُمَّ يَسْحَطُ، كَمَا يُحِلُّ السَّخَطُ ثُمَّ يَرْضَى، لَكِنَّ هُوَ لِأَنَّ أَحَلَّ عَلَيْهِمْ رِضْوَانَنَا

(۱) تقدم تحريجه (۱/ ۴۳۵).

(۲) أخرجه البخاري (۶۵۴۹)، ومسلم (۲۸۲۹).

لَا يَتَعَقَّبُهُ سَخَطٌ.

وَهُمْ قَالُوا: لَا يَتَكَلَّمُ إِذَا شَاءَ، وَلَا يَضْحَكُ إِذَا شَاءَ، وَلَا يَغْضَبُ إِذَا شَاءَ، وَلَا يَرْضَى إِذَا شَاءَ، بَلْ إِمَّا أَنْ يَجْعَلُوا الرِّضَى وَالغَضَبَ وَالْحُبَّ وَالْبُغْضَ هَوَ الْإِرَادَةَ، أَوْ يَجْعَلُوهَا صِفَاتٍ أُخْرَى، وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ فَلَا يَتَعَلَّقُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ لَا بِمَشِيئَتِهِ وَلَا بِقُدْرَتِهِ؛ إِذْ لَوْ تَعَلَّقَتْ بِذَلِكَ لَكَانَ مَحَلًّا لِلْحَوَادِثِ!! فَتَقَى هَؤُلَاءِ الصِّفَاتِ الْفِعْلِيَّةِ الدَّائِيَّةِ هَذَا الْأَصْلِ، كَمَا نَفَى أَوْلَيْكَ الصِّفَاتِ مُطْلَقًا بِقَوْلِهِمْ: لَيْسَ مَحَلًّا لِلْأَعْرَاضِ. وَقَدْ يُقَالُ: بَلْ هِيَ أَفْعَالٌ، وَلَا تُسَمَّى حَوَادِثٌ، كَمَا سُمِّيَتْ تِلْكَ صِفَاتٍ، وَلَمْ تُسَمَّ أَعْرَاضًا. وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى، وَلَكِنَّ الشَّيْخَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - لَمْ يَجْمَعْ الْكَلَامَ فِي الصِّفَاتِ فِي الْمُخْتَصَرِ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، وَكَذَلِكَ الْكَلَامُ فِي الْقَدْرِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَعْتَنِ فِيهِ بِتَرْتِيبٍ.

وَأَحْسَنُ مَا يُرْتَبُ عَلَيْهِ كِتَابُ أُصُولِ الدِّينِ تَرْتِيبُ جَوَابِ النَّبِيِّ ﷺ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حِينَ سَأَلَهُ عَنِ الْإِيمَانِ، فَقَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدْرِ»^(١)، الْحَدِيثَ. فَيَبْدَأُ بِالْكَلامِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ، ثُمَّ بِالْكَلامِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، ثُمَّ، وَثُمَّ، إِلَى آخِرِهِ.

قال الشيخ:

يتعلق هذا الكلام بالرد على هؤلاء الذين ينفون الصفات، أو الذين يثبتون

صفات دون صفات. وعرفنا أن الجهمية ينفون الصفات، بل ينفون الأسماء، وعلّة النفي عندهم، إنه ليس محلاً للأعراض، ويقولون: إننا ننزه الله عن الحوادث والأعراض وما أشبه ذلك.

وهذا قول بعيد عن الصواب؛ لأننا لا نقول بالأعراض، بل نقول: إن الربّ سبحانه واحد بصفاته، فليس هناك أعراض، ولا أبعاد، ولا حوادث، ولا غير ذلك. فهؤلاء الجهمية الذين نفوا الصفات كلّها.

أما الأشاعرة، والكلائية، فيسمّون الصفاتية، وسمّتهم المعتزلة بهذا الاسم؛ لأنهم أثبتوا سبع صفات، وهي: العلم والإرادة والقدرة والحياة والسمع والبصر والكلام. وهؤلاء هم أتباع محمد بن سعيد بن كلاب، والأشاعرة أتباع أبي الحسن الأشعري، وهؤلاء أنكروا الصفات الفعلية؛ فأنكروا قول الله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقوله: ﴿وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٦]، وقوله: ﴿فَلَمَّا أَسْفُونَا﴾ [الزخرف: ٥٥]، وقوله: ﴿لَمَقَّتْ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [غافر: ١٠]. فأنكروا: الحب والمقت، والغضب والرضى، والكراهية والسخط والرّحمة؛ يقولون: لأنّها حوادث، والله لا تحلُّ به الحوادث. هكذا يقولون، ويعلّلون بهذا التعليل في كتبهم قديماً وحديثاً، كما كان من آخرهم زاهد الكوثري الذي مات في أواسط القرن الماضي، في تعليقاته على كثير من الكتب وفي تحقيقه لها، ينكر هذه الصفات، ويردّ ويعلّل: بأنّهم جعلوا الله محلاً للحوادث؛ أي: حدث عليه الرّضى بعد أن لم يكن راضياً، وحدثت عليه المحبة

بعد أن لم يكن محباً، وحدث عليه السخط بعد أن لم يكن ساخطاً، والكرهية بعد أن لم يكن كارهاً. ونحن نقول: ليس كذلك، بل الله تعالى يحب إذا شاء، ويبغض إذا شاء، وله المشيئة التامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]؛ فجعل له المشيئة التامة، والإرادة متى شاء، وأخبر بأنه يكره من يشاء، ويغضب إذا شاء، ويحب متى شاء.

وأخبر النبي ﷺ بأن الله يغضب في وقت دون وقت، في حديث الشفاعة يقول الرسل إذا جاءهم الناس يطلبون منهم الشفاعة: «إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضِبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ»^(١). وهكذا يقول آدم وأولو العزم من الرسل، فيثبتون أن الله تعالى غضب ذلك اليوم غضباً شديداً على أولئك الذين وافوه بالكفر والشرك وبالمعاصي والمخالفات، فغضب عليهم؛ لمقابلتهم له بهذه الأعمال، فلا بد أن ينتقم منهم وأن يعذبهم، وأن ينزلهم دار عذابه التي يستحقونها. هكذا ورد في هذا الحديث، فدل على مخالفة قول ابن كرام ومن معه، من أن الغضب لا يحل في وقت دون وقت. هؤلاء الصفاتية يقولون: هذه الصفات لا تتغير، فإن كان موصوفاً بالغضب، فالغضب صفة له دائمة، وإن كان موصوفاً بالرّضى، فالرّضى له صفة دائمة، فجمعوا بين النقيضين، ويجعلونها صفات ملازمة له، هكذا جعلوها، وخالفوا الأدلة كما مرّ بنا.

ومن الأدلة التي وردت في هذا الحديث الذي في أهل الجنة؛ حيث يسألهم

(١) تقدم تحريجه (١/ ٤٣٥).

تعالى عما يتمنون بعدما أنالهم جنته، فلا يدرون ماذا يقولون! فيقول تعالى: «أَجِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْحَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»^(١). فدلّ على أنه رضي عنهم رضيً مستمرًا، وأنّ هذا الرّضى هو الذي أحلّهم في دار الكرامة، وهو أكبر نعيم. قال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، أي: أكبر نعيمًا لهم هو هذا الرّضى عنهم. فالله تعالى يرضى إذا شاء ويغضب إذا شاء، وكذلك نقول في بقيّة الصفات.

(١) تقدم تحريجه (٤/ ٥٣٥).

قال الطحاوي:

وُحِبُّ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا نُفِرُ طِي فِي حُبِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَلَا نَتَبَرَّأُ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَنُبْغِضُ مَنْ يُبْغِضُهُمْ وَبِعْزِ الْخَيْرِ يَذْكُرُهُمْ، وَلَا نَذْكُرُهُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ، وَحُبُّهُمْ دِينٌ وَإِيمَانٌ وَإِحْسَانٌ، وَبُغْضُهُمْ كُفْرٌ وَنِفَاقٌ وَطُغْيَانٌ.

قال الشارح:

يُشِيرُ الشَّيْخُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ - إِلَى الرَّدِّ عَلَى الرَّوَافِضِ وَالنَّوَاصِبِ. وَقَدْ أَتَى اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الصَّحَابَةِ هُوَ وَرَسُولُهُ، وَرَضِيَ عَنْهُمْ، وَوَعَدَهُمُ الْحُسْنَى.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّيِّقُونَ الْأَوْلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا

سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩] إلى آخر السورة.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾

[الفتح: ١٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ

اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ﴾ [الأنفال: ٧٢]، إلى آخر السورة،

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَاءِ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ

أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ [الحديد: ١٠].

وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ

فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ
وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا
وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُقْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا
الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾

[الحشر: ٨-١٠].

وَهَذِهِ الْآيَاتُ تَتَضَمَّنُ الشَّاءَ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَعَلَى الَّذِينَ جَاءُوا
مِنْ بَعْدِهِمْ، يَسْتَغْفِرُونَ لَهُمْ، وَيَسْأَلُونَ اللَّهَ أَنْ لَا يَجْعَلَ فِي قُلُوبِهِمْ غِلًّا لَهُمْ،
وَتَتَضَمَّنُ أَنَّ هَؤُلَاءِ هُمُ الْمُسْتَحِقُّونَ لِلْفِيءِ. فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ غِلٌّ لِلَّذِينَ آمَنُوا
وَلَمْ يَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَا يَسْتَحِقُّ فِي الْفِيءِ نَصِيبًا، بِنَصِّ الْقُرْآنِ.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»^(١) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ بَيْنَ خَالِدِ بْنِ
الْوَلِيدِ وَبَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ شَيْءٌ، فَسَبَّهُ خَالِدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي، فَإِنْ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذُهَبًا، مَا أَدْرَكَ مَدَّ
أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ». أَنْفَرَدَ مُسْلِمٌ بِذِكْرِ سَبِّ خَالِدٍ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ، دُونَ
الْبُخَارِيِّ.

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).

فَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ لِحَالِدٍ وَنَحْوِهِ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي»، يَعْنِي: عَبْدَ الرَّحْمَنِ وَأُمَّثَالَهُ؛ لِأَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ وَنَحْوَهُ هُمُ السَّابِقُونَ الْأَوْلُونَ، وَهُمْ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلُوا، وَهُمْ أَهْلُ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ، فَهُمْ أَفْضَلُ وَأَخْصُ بِصُحْبَتِهِ مِمَّنْ أَسْلَمَ بَعْدَ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ، وَهُمْ الَّذِينَ أَسْلَمُوا بَعْدَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَبَعْدَ مُصَالِحَةِ النَّبِيِّ ﷺ أَهْلَ مَكَّةَ، وَمِنْهُمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَهَؤُلَاءِ أَسْبَقُ مِمَّنْ تَأَخَّرَ إِسْلَامُهُمْ إِلَى فَتْحِ مَكَّةَ، وَسَمُّوا الطَّلَقَاءَ، مِنْهُمْ أَبُو سُفْيَانَ وَإِبْنَاهُ يَزِيدٌ وَمُعَاوِيَةُ.

قال الشيخ:

هذا ابتداء كلام في فضل الصحابة رضي الله عنهم، والحامل على الكلام في الصحابة أنه وجد طوائف يطعنون في الصحابة رضوان الله عليهم، ويرمونهم بالنفاق، ويرمونهم بالردة، ويتبرؤون منهم، بل ويشتمونهم ويلعنونهم قديماً وحديثاً، وهؤلاء الطوائف فرقتان: الروافض، والنواصب.

الروافض: هم الذين يغفلون في أهل البيت، في علي رضي الله عنه وذريته فقط، ويزيدون في حبهم، وأما بقية الصحابة رضي الله عنهم أو أكثرهم، فإنهم يكفرونهم، وأما النواصب: فهم الذين يضللون علياً رضي الله عنه وذريته، ومن كان قريباً منهم، ويميلون إلى بني أمية، أو إلى من والاهم، وسموا نواصب؛ لأنهم نصبوا العداوة لأهل البيت.

ولكن الرافضة هم الذين تمكّنوا وكثروا، فأصبحوا يتشرون في الأرض، وتقوى شوكتهم.

نقول: لاشك أن حب الصحابة رضي الله عنهم من الإيمان؛ ولهذا قال النبي ﷺ في الأنصار: «لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ، مَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ»^(١)، ومعلوم أن المهاجرين أقدم وأفضل من الأنصار، فقدم الله تعالى ذكرهم في الآيات التي ساقها الشارح هنا، ومع ذلك فإن الأنصار لهم ميزتهم، ولهم فضلهم، ولهم مكانتهم في السبق والفضل.

كذلك أيضًا قد أثنى الله تعالى على جميع الصحابة رضوان الله عليهم كما مر معنا في الآيات: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الفتح: ٢٩]، لم يخص الله بعضهم، كل الذين يجاهدون معه، والذين يجلسون معه، والذين يصلون معه مدحهم الله بقوله: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وهذا يجب أن يكون وصفًا لأتباعهم: فيجب أن تكون أيها المسلم رحيماً مع المسلمين، شديداً على الكافرين: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾، يعني: تبغضهم، وتحقرهم وتغلظ لهم القول، وتبرأ من طريقتهم، وتجاهدهم بما تستطيع من أنواع الجهاد، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحریم: ٩]، فوصف الله الصحابة رضوان الله عليهم بأتهم أشداء على الكفار، وكأنه يمدح الذين كانوا على هذه الطريقة في الشدة عليهم، ومدحهم بأتهم رحاء بينهم، أي يرحم بعضهم بعضاً، وما أجله من وصف أن يكون المسلم رحيماً ياخوانه، مشفقاً عليهم، محباً لهم؛

(١) أخرجه البخاري (٣٧٨٣)، ومسلم (٧٥) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

لأنهم مسلمون، ووصف الله سبحانه الصحابة رضي الله عنهم بقوله: ﴿تَرْتَهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]؛ دائمًا يشتغلون بالركوع والسجود، تظهر علامته على وجوههم من أثر السجود، وهذا دليل على أن من أخل بهذا الوصف، أو ترك الصلاة والسجود والركوع، فإنه مخالف لطريقة الصحابة رضوان الله عليهم، ومخالف لطريقة الأمة.

وصفهم الله بأنهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، ووصفهم في آخر الآية بقوله: ﴿كَرَّجٍ أَخْرَجَ سَطْعَهُ، فَفَازَرَهُ، فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سَوْقَيْهِ، يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، فنقول لمن يبغضهم: إنهم قد غاظوك، فأنت داخل في هذه الآية، كل من أبغضهم فقد صار في قلبه غيظ عليهم وحقد وشنآن وبغضاء، هكذا حالة من يبغضهم، فهو داخل في هذه الآية، من غاظه الصحابة فهو كافر.

وكذلك مدحهم الله تعالى بالسبق: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٠]، السابقون: المتقدمون الذين أسلموا قديماً من المهاجرين، ومن الأنصار، ومن الذين أسلموا بعد الهجرة، ومن الذين أتبعوهم بإحسان إلى يوم القيامة؛ مدح الله الجميع بقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وذلك فضل من الله تعالى.

وكذلك مدحهم في سورة الأنفال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٢]؛ آمنوا إيماناً راسخاً في قلوبهم،

وجاهدوا بالأموال وبالأنفس، هؤلاء هم المهاجرون، ﴿وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا﴾
هؤلاء هم الأنصار، ثم قال بعد ذلك: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٧٤]،
مدحهم بأنهم هم المؤمنون حقًا، وقال بعد ذلك: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدِ وَهَاجَرُوا
وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥]. هذه كلها مدائح لهؤلاء الصحابة
رضوان الله عليهم، ولكن الرّوافض قوم لا يعقلون، قوم لا خلاق لهم!

وكذلك أيضًا الآية التي في سورة الحديد وهي قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُمْ

مَنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلِ أُولَئِكَ أَكْبَرَ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ

اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ [الحديد: ١٠]. وعدهم الله الثواب العظيم والثواب الكبير للجميع.

وكذلك أيضًا الآيات التي في سورة الحشر لما ذكر الله تقسيم الخلق في هذه

السورة، وأولهم الفقراء من المهاجرين في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾

[الحشر: ٨]، يعني: الفقراء الذين هاجروا بأنفسهم وتركوا ديارهم وأموالهم

وعشائرهم وأهلهم، ونجوا بأنفسهم ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا﴾ [الحشر: ٨]؛ لما ضيق

عليهم هربوا ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا

وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، ثم قال في الأنصار: ﴿وَالَّذِينَ

تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَن هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٩]، أي هؤلاء الأنصار

يحبون المهاجرين إليهم، ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ من الفيء

ومن الغنائم، بل يوافقون على ذلك ﴿وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ أي: ويقدمونهم

على أنفسهم، ولو كانوا بحاجة ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، ومن جاء من بعدهم من أواخر الصحابة ﷺ الذين أسلموا بعد الفتح، فهؤلاء منهم بشرط أن يدعو لهم ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠]، ومن كان في قلبه بغض وغلّ وشنآن، فإنه بريء منهم؛ ولذلك استنبط العلماء أنّ من لديه حقد على الصحابة ﷺ، ولا يدعو لهم، أتهم بلا شكّ ليسوا من أهل الفياء، ولا يستحقون أن يعطوا من بيت المال؛ وذلك لحقدهم على المسلمين، وبالأخصّ الصحابة ﷺ.

وقد اشتهر أنّ هؤلاء الراضية يبغضون الصحابة ﷺ، ويشتمونهم ويدعون عليهم، ولكن ذلك خير للصحابة ﷺ؛ لأنهم قد ختمت أعمالهم، بعد الذي حصلوا عليه من الثواب العظيم. ولكن هؤلاء الذين يسبّونهم كأتهم يهدون إليهم حسناتهم.

وقد روي عن بعض السلف أنّه قال: ما أرى الناس ابتلوا بسبّ الصحابة ﷺ إلا ليجري عليهم عملهم؛ أي: ليكون عمل الصحابة ﷺ مستمرّاً غير منقطع، وليأخذوا من حسنات أولئك الذين يسبّونهم، فكأتهم يهدونهم حسناتهم، وكأتهم لما حقدوا عليهم رأوا أتهم ضلالاً وكفّاراً، فعاد الضلال والكفر على هؤلاء والعياذ بالله، ودخلوا في قوله تعالى: ﴿لَيَخِيطَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، وهذا الوصف يعمّ المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان.

وبلا شك أن الصحابة رضي الله عنهم يتفاوتون كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلِ أَوْلِيَّكَ أَكْثَرَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلِ أَوْلِيَّكَ وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠]، أي: لا يستوي الذين أنفقوا وقتلوا قبل صلح الحديبية، مع الذين أسلموا بعد الفتح، فنحن نفضل الذين آمنوا قبل بيعة الرضوان، الذين رضي الله بها عنهم، وأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، تحت شجرة هناك بالحديبية وكانوا نحو ألف وأربعمئة وزيادة، وكلهم بايعوه على أن يقاتلوا حتى يتصروا ولا يفرّوا حتى الموت. وصدقوا في ذلك. قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣]؛ صدقوا في هذا أتمّ صدق، ووفوا في هذه البيعة، ورضي الله عنهم، فقال في هذه السورة: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، ومن رضي الله عنهم يعلم أنهم يثبتون على هذا الرضى، وأنه لا يسخط عليهم وقد علم أنهم أهل للرضى، كيف يرضى عنهم وهو يعلم أنهم سيرتدون؟ أو سيكفرون فيما بعد، ما استثنى الله أحداً من أهل البيعة. وقد ثبت أنه ﷺ قال: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا»^(١)، أي: كلهم من أهل الجنة.

(١) تقدم تخرجه (٦/٤).

وكذلك قال للذين أسلموا بعد البيعة: «لا تَسْبُوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي، فلو أن أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، ما أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»^(١). المدّ: هو ربع الصاع، والنصيف: نصف المدّ. فكيف بمن أنفقوا أكثر أموالهم أو كلّها في سبيل الله. رضي الله عنهم وأرضاهم؛ فهم عدولٌ لا يدخلهم طعن، ومن طعن فيهم، فقد كذب خبر الله، ومن كذب خبر الله يُعدّ كافرًا؛ لأنه خالف كلام الله وطعن فيما أقرّ الله به، فهو يعلم ما كان وما يكون، يعلم إيمانهم وما في قلوبهم، ويعلم أن قلوبهم مطمئنة بالإيمان.

إذا الذين طعنوا فيهم يطعنون في الله تعالى، وأنه لم يعلم أنهم سيرتدون، وهذا معتقد الرافضة، فهم يقولون: إنّ هذه الصفات التي ذُكروا بها كانت من قبل، وبطل مفعولها بعد أن ارتدّوا. هكذا يقولون، ويكفّرون أجلاء الصحابة رضوان الله عليهم، فعلى هذا يكونون قد طعنوا في خبر الله، وقالوا: إنّ الله لم يعلم ما في قلوبهم.

لم يزل المسلمين يحبّون الصحابة رضي الله عنهم ويجلّونهم، ويعترفون بفضلهم، ويعرفون أنّ الله اختارهم لصحبة نبيه صلى الله عليه وآله، ويعلمون أنّهم خيرة الأمة، وصفوة قرون هذه الأمة، وأنّ هذه الأمة خير الأمم، وأزكاها عند الله تعالى. كما قال صلى الله عليه وآله: «نَحْنُ الْأَخْرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢)؛ الآخرون وجودًا، والسابقون يوم القيامة،

(١) تقدم تخريجه (٤/٥٤١).

(٢) أخرجه البخاري (١٧٦)، ومسلم (٨٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فهذه الأمة تسبق الأمم غيرها، ولا شك في أن خيرها صحابة النبي ﷺ. وقال ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُومُهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُومُهُمْ»^(١)، فخير الناس من الأولين والآخرين القرن الذي بُعث فيهم رسول الله ﷺ من المؤمنين، وهذه تزكية من النبي ﷺ لهم، ولما قال لأصحابه: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ أَرَجُّوْا أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرُوا، فقال: «أَرَجُّوْا أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَكَبَّرُوا، فقال: «أَرَجُّوْا أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(٢) فَكَبَّرُوا.

وقد زكاهم الله سبحانه: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾^(٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿[الواقعة: ١٣]، [١٤]؛ يُرَادُ بِالْأَوَّلِينَ عَلَى الصَّحِيحِ: الْأَوَّلِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، أَيِ الصَّحَابَةِ، فَذَكَرَ أَنْ أَكْثَرَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَكَذَلِكَ مِنْ تَبِعِهِمْ وَسَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ. لَقَدْ فَضَّلَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ هَؤُلَاءِ الصَّحَابَةَ وَذَكَرَ مِيزَتَهُمْ، وَذَكَرَ فَضْلَهُمْ قَبْلَ الْمُسْلِمِينَ خَبَرَ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَبِلُوا مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ، وَفَضَلُوا هَؤُلَاءِ الصَّحَابَةَ ﷺ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ حَمَلُوا هَذِهِ الشَّرِيعَةَ، وَهُمْ الَّذِينَ بَلَّغُوا الْقُرْآنَ كَلَامَ اللَّهِ، وَهُمْ الَّذِينَ بَلَّغُوا سُنَّةَ النَّبِيِّ ﷺ لِمَنْ بَعْدَهُمْ، وَعَمَلُوا بِقَوْلِهِ ﷺ: «وَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ»^(٤)، وَقَوْلُهُ ﷺ: «بَلَّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»^(٤)، فَحَمَلُوا السُّنَّةَ وَبَلَّغُوا.

(١) تقدم تخريجه (١١٢/١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكره ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٦١) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

فإن كانوا - كما تقول الروافض - كفارًا فكيف يقبل خبرهم؟ وكيف يقبل تبليغهم؟

ومعنى كلام الرافضة أن دين الله مغير، وأن كلام الله مبدل، وأن شريعة الله غير محفوظة، وأن الله ما صدق في كلامه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، لم يحفظه، بل وكل أمره إلى كفره فجرة - في زعمهم - غيروا فيه وكتبوا وزادوا ونقصوا، وحرفوا، وقالوا ما يريدون، هذا مقتضى قول الرافضة، فما حفظ الله الشريعة، وليست هذه هي الشريعة الإسلامية في زعمهم.

فالتعني في الصحابة رضوان الله عليهم طعن في خبر الله، وطعن في الإسلام، وطعن في القرآن، وطعن في السنة، وفي الأحاديث النبوية، وفي الأحكام، وفي الأوامر والنواهي، وطعن في كل ما جاء في هذه الشريعة.

ولكن - بحمد الله - أن الله تعالى قيضهم حتى حفظوا الشريعة وبلغوها، وقيض لهم تلامذة يتقبلون منهم، ويأخذون عنهم السنة، وقيض للآخرين تلامذة إلى أن حفظت الشريعة الإسلامية، وحفظت بالأقوال وبالأفعال. وصدق كلام الله في هذه الآية في أنه يحفظ شريعته عن الضياع؛ لتقوم الحجّة على العباد، على الآخرين كما قامت على الأولين، ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وليس للعباد، فإن كانت الحجّة لله، فإن كلامه لم يتغير لتقوم الحجّة علينا وعلى من بعدنا، وعلى الخلق كلهم حتى تقوم الساعة، وحتى لا يقول الناس: ما جاءنا بشير ولا نذير، بل جاءكم بشير ونذير يحمل الشريعة، قيض الله له صحابة أتقياء أنقياء

اعترفت الأمة بفضلهم، وفضائلهم التي اعترف بها الجميع، وألقوا بها الكتب والمؤلفات، فتجدون كتاباً للإمام أحمد في فضل الصحابة، وكذلك في «صحيح البخاري»، تجدون كتاب فضائل الصحابة، يبدأ بالخلفاء الراشدين، وكذلك في «صحيح مسلم» كتاب فضائل الصحابة، وكذا أكثر المؤلفين رووا فضائلهم بالأسانيد الصحيحة الثابتة، التي لا طعن فيها. كل ذلك اعتراف منهم بأن الصحابة ﷺ هم أفضل هذه الأمة. وأجمعت الأمة على تفضيل الخلفاء الراشدين فيهم، ثم العشرة المبشرين بالجنة، وهكذا بقية الصحابة ﷺ، ولم تزل الأمة تترضى عنهم، والله تعالى قد رضي عنهم بقوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح:

١٨]، وإذا رضي الله عنهم، فمتى علمتم يا أيها الرافضة، أنه سخط عليهم؟؟ يجب على المؤمن أن يعرف فضلهم، وأن يعترف بفضائلهم، وأن يصدق ما جاء في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ، وأن يترضى عنهم، وأن يحبهم، وأن ينشر بين المسلمين فضائلهم، وأن يحذر من الرافضة الذين يطعنون فيهم ويكفرونهم، ويطبّقون عليهم الآيات التي جاءت في المنافقين، ويجعلونهم منافقين أو مرتدّين بعد النبي ﷺ، وبذلك تعرف طريقة أهل السنة، وطريقة الرافضة، الذين سمّوا أنفسهم شيعةً.

قال الشارح:

وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ نَهَى مَنْ لَهُ صُحْبَةٌ آخِرًا أَنْ يَسُبَّ مَنْ لَهُ صُحْبَةٌ أَوَّلًا، لِامْتِيَاظِهِمْ عَنْهُمْ مِنَ الصُّحْبَةِ بِمَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَشْرَكَوَهُمْ فِيهِ، حَتَّى لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُهُمْ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ.

فَإِذَا كَانَ هَذَا حَالَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا بَعْدَ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَإِنْ كَانَ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ، فَكَيْفَ حَالُ مَنْ لَيْسَ مِنَ الصَّحَابَةِ بِحَالٍ مَعَ الصَّحَابَةِ؟ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ. وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ - مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ - هُمُ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلُوا، وَأَهْلُ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ كُلُّهُمْ مِنْهُمْ، وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ.

وَقِيلَ: إِنَّ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مَنْ صَلَّى إِلَى الْقِبْلَتَيْنِ، وَهَذَا ضَعِيفٌ. فَإِنَّ الصَّلَاةَ إِلَى الْقِبْلَةِ الْمَنْسُوخَةِ لَيْسَ بِمُجَرَّدِهِ فَضِيلَةٌ؛ لِأَنَّ النَّسْخَ لَيْسَ مِنْ فِعْلِهِمْ، وَلَمْ يَدُلَّ عَلَى التَّفْضِيلِ بِهِ دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ، كَمَا دَلَّ عَلَى التَّفْضِيلِ بِالسَّبْقِ إِلَى الْإِنْفَاقِ وَالْجِهَادِ وَالْمُبَايَعَةِ الَّتِي كَانَتْ تَحْتَ الشَّجَرَةِ.

وَأَمَّا مَا يُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ، بِأَيِّهِمْ اقْتَدَيْتُمْ اهْتَدَيْتُمْ»، فَهَذَا حَدِيثٌ ضَعِيفٌ، قَالَ الْبَزَّازُ: هَذَا حَدِيثٌ لَا يَصِحُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. ^(١) وَلَيْسَ هُوَ فِي كُتُبِ الْحَدِيثِ الْمُعْتَمَدَةِ.

(١) قال ابن حجر في التلخيص الخبير (٤/١٩٠): «رواه عبد بن حميد في مسنده من طريق حمزة

النصيب عن نافع عن ابن عمر، وحمزة ضعيف جدًا، ورواه الدارقطني في غرائب مالك من

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»^(١) عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: قِيلَ لِعَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -: إِنَّ نَاسًا يَتَنَاولُونَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ! فَقَالَتْ: وَمَا تَعْجَبُونَ مِنْ هَذَا! انْقَطَعَ عَنْهُمْ الْعَمَلُ، فَأَحَبَّ اللَّهُ أَنْ لَا يَقْطَعَ عَنْهُمْ الْأَجْرَ.

وَرَوَى ابْنُ بَطَّةٍ بِإِسْنَادِ صَحِيحٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ قَالَ: لَا تَسْبُوا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَلَمَقَامُ أَحَدِهِمْ سَاعَةٌ - يَعْنِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ - خَيْرٌ مِنْ عَمَلٍ أَحَدِكُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً. وَفِي رِوَايَةٍ وَكَيْعٍ: خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ أَحَدِكُمْ عُمْرَةً^(٢).

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيثِ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ وَعَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ

طريق جميل بن زيد عن مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر، وجميل لا يُعرف ولا أصل له في حديث مالك ولا من فوقه، وذكره البزار من رواية عبد الرحيم بن زيد العمي عن أبيه عن سعيد بن المسيب عن عمر، وعبد الرحيم كذاب، ومن حديث أنس أيضًا، وإسناده واه، ورواه القضاعي في مسند الشهاب له من حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة، وفي إسناده جعفر بن عبد الواحد الهاشمي، وهو كذاب، ورواه أبو ذر الهروي في كتاب السنة من حديث مندل عن جوير عن الضحاك بن مزاحم منقطعًا، وهو في غاية الضعف، قال أبو بكر البزار: هذا الكلام لم يصح عن النبي ﷺ.

(١) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٢٧٦/١١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٨٧/٤٤). والذي أخرجه مسلم (٣٠٢٢) عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: «أمروا بالاستغفار لأصحاب النبي ﷺ فسبوهم».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٤٠٥/٦)، وأحمد في فضائل الصحابة (٥٧/١)، وابن ماجه (١٦٢)، وابن أبي عاصم في السنة (٤٨٤/٢) من قول ابن عمر رضي الله عنهما.

ﷺ قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»، قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَدْرِي أَذْكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً. الْحَدِيثُ (١).

وَقَدْ ثَبَتَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» (٢) عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ».

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ

اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧] الآيات.

وَلَقَدْ صَدَقَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي وَصْفِهِمْ، حَيْثُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، وَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وَرَاءَ نَبِيِّهِ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ، فَمَا رَأَاهُ الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَاهُ سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ سَيِّئٌ (٣).

وَفِي رِوَايَةٍ: وَقَدْ رَأَى أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ جَمِيعًا أَنْ يَسْتَحْلِفُوا أَبَا بَكْرٍ (٤).

(١) تقدم تخريجه (١١٢/١).

(٢) برقم (٢٤٩٦) بنحو هذا اللفظ. وأخرجه بلفظه: أبو داود (٤٦٥٣)، والترمذي (٣٨٦٠)، والنسائي في الكبرى (١١٤٤٤)، وأحمد (٣/٣٥٠).

(٣) أخرجه أحمد (١/٣٧٩)، والبخاري (٥/٢١٢)، والطبراني في الكبير (٨٥٨٢)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/١٧٨): «رواه أحمد والبخاري والطبراني في الكبير، ورجاله موثقون».

(٤) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١/٣٦٧)، والطبراني في الأوسط (٢/٣٤١)، والحاكم (٣/٧٨).

وَتَقَدَّمَ قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ: مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسْتَنًّا فَلَيْسَتْ بِيَمَنْ قَدْ مَاتَ... إلخ. عِنْدَ قَوْلِ الشَّيْخِ: (وَتَتَّبِعُ السُّنَّةَ وَالْجَمَاعَةَ).

فَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَكُونُ فِي قَلْبِهِ غَلٌّ لِحَيَارِ الْمُؤْمِنِينَ، وَسَادَاتِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى بَعْدَ النَّبِيِّينَ؟ بَلْ قَدْ فَضَلْتَهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بِخَصَلَةٍ، قِيلَ لِلْيَهُودِ: مَنْ خَيْرٌ أَهْلٍ مِلَّتِكُمْ؟ قَالُوا: أَصْحَابُ مُوسَى. وَقِيلَ لِلنَّصَارَى: مَنْ خَيْرٌ أَهْلٍ مِلَّتِكُمْ؟ قَالُوا: أَصْحَابُ عِيسَى. وَقِيلَ لِلرَّافِضَةِ: مَنْ شَرُّ أَهْلٍ مِلَّتِكُمْ؟ قَالُوا: أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ!! لَمْ يَسْتُنُّوا مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلَ، وَفِي مَنْ سَبُّهُمْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِمَّنْ اسْتُنُّوهُمْ بِأَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ.

وَقَوْلُهُ: (وَلَا نُفَرِّطُ فِي حُبِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ)، أَي: لَا تَتَجَاوَزُ الْحَدَّ فِي حُبِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ، كَمَا تَفْعَلُ الشَّيْعَةُ، فَكَوْنُ مِنَ الْمُعْتَدِينَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١].

قال الشيخ:

فضائل الصحابة ﷺ أكثر مما مرّ معنا، ولو لم يكن إلا هذا الحديث عن النبي ﷺ: «لا تُسَبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي، فلو أن أحدكم أنفقَ مثلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، ما أدركَ مُدَّ أَحَدِهِمْ ولا نَصِيفَهُ»^(١). وكذلك هذا الأثر الوارد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - الذي يقول: «لا تُسَبُّوا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ، فَلَمَقَامُ أَحَدِهِمْ سَاعَةٌ خَيْرٌ مِنْ

(١) تقدم تخريجه (٤/٥٤١).

عَمَلٍ أَحَدِكُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً»، أي: خير من عبادة أحدكم أربعين سنة.

وما ذلك إلا أنهم آمنوا في وقت أزمة وشدة، وفي وقت كفر وضلال، وفي وقت شرك وعبادة أوثان، فأمنوا واهتدوا، وفارقوا الأهل والبلد والمال، وأخلصوا دينهم لله، ووقرت محبة الله ومحبة الرسول ﷺ في قلوبهم، وثبت الإيمان في قلوبهم ورسخ، حتى كان أرسى من الجبال، ثم ظهرت عليهم آثار ذلك، ففدوا رسول الله ﷺ بأبائهم وأمهاتهم وأنفسهم وأموالهم، وأنفقوا جل ما يملكون في طاعة الله وطاعة رسوله، واجتهدوا بالعمل الصالح، وتفوقوا على من بعدهم بأضعاف مضاعفة، الذين ولدوا في الإسلام ونشؤوا فيه، ولو كانوا أكثر منهم عملاً، ولو كانوا أقوم منهم أعمالاً، ولو كانوا أكثر منهم جهاداً أو نفقةً.

وقد جاءت الدلائل التي تدل على الرضى عنهم، فقد قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وهذا مدح لهم وإخبار برضاه عنهم، وفي قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ١٠٠]؛ وذلك إخبار بأنهم من أهل الجنة، وخبر الله تعالى صدق، ومن أصدق من الله حديثاً، وفي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧]؛ يعني في غزوة تبوك، وهم أربعون ألفاً أو نحوهم، ذكر أنه تاب عليهم كلهم، لم يستثن منهم أحداً. وكذلك ما ذكره الله تعالى من رضاه عن أهل بيعة الرضوان في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]؛ وأخبر بأن بيعتهم كأنها بيعة

الله: ﴿إِنَّمَا يَبَايَعُونَ اللَّهَ بِدُءِ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]؛ وحاشاهم أن ينكثوا ببيعة الله، وحاشاهم أن يكذبوا في مبايعته، سواء كانت مبايعتهم على الموت أو على أن لا يفروا.

وقد ذكر أنه لما نزل أول سورة الفتح، وفيه قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ ① لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ② وَيُنصِرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا﴾ [الفتح: ١-٣]؛ فقال الصحابة: هنيئًا مريئًا، فيما لنا؟ فأنزل الله: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الفتح: ٥] ③.

ولكن الرافضة لما أن الله طمس قلوبهم، وأعمى بصائرهم، صُدّوا عن هذه الآيات، ولم يتفكروا فيها، وأخذوا يُنقبون في الآيات التي وردت في المنافقين، وأخذوا يطبقونها على الصحابة، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وإلا فنحن نقول لهم: متى سخط الله عليهم بعد الرضى؟! ومتى لم يتب عليهم بعد أن تاب؟! والله تعالى لا يخلف وعده، وقد صدقهم ما وعدهم.

وقد مرّ كلام ابن مسعود ؓ، من أن الله سبحانه نظر في قلوب العباد، فاختار قلب محمد ﷺ، ونظر في قلوب الأمم، فوجد قلوب أصحابه أبرّ وأزكى وأطهر، فاختارهم لصحبة هغه النبي ﷺ، مما يدلّ على أن الصحابة ؓ هم

(١) أخرجه البخاري (٤١٧٢) من حديث أنس بن مالك ؓ.

خلاصة الأمم، وهم صفوة الأمة. ومرّ قوله أيضًا: من كان مستنًا فليستنّ بمن مات. أولئك أصحاب محمد ﷺ، أبرّ هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، فاعرفوا لهم حقهم وفضلهم، فإنهم كانوا على الهدى، وهذه شهادة منه ﷺ بأنهم كانوا على الهدى، وأن من خالفهم وخرج عن طريقتهم ليس على الهدى، بل هو على الضلال.

الأدلة الواضحة من الكتاب والسنة شاهدة بفضائلهم ﷺ، وهي أكثر من أن تحصر. ولكن كما قالت عائشة - رضي الله عنها - في الأثر السابق الذكر: أنهم لما انقطع عملهم بموتهم، أجرى الله لهم حسنات غيرهم. فهؤلاء الذين يسبّونهم يعطونهم من حسناتهم، فهؤلاء الرافضة، والحاقدون على الصحابة ﷺ، يهدون إليهم أعمالًا كثيرة، فيصلّون ويتصدّقون ويصومون، ويذهب ثوابهم إلى غيرهم، فيأخذها الصحابة الأبرار.

وروي أيضًا عن الإمام أحمد: لم أرَ الناس ابتلوا بسبّ الصحابة إلا ليُجري الله لهم عملهم؛ لأنه «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة»^(١)، ولكن إن كان هناك من يسبه فإنه يأخذ من حسنات الذين يسبّونه، وتُضاف إلى حسناته. ويكون ذلك زيادة في حسناته، ورفعًا في مكانته.

وقد مرّ قول ابن مسعود ﷺ: «فما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن»؛ يعني: الصحابة. وقد رأى المسلمون أنّ أبا بكر ﷺ أولى بالخلافة، فاتفقوا عليه،

(١) تقدم تحريجه (٤/٤٥٠).

وولّوه أمر المسلمين، كما سيأتي. وذلك بلا شك اتفاق منهم على أهليته وأفضليته، وأحقّيته بالخلافة؛ ولهذا سمّوه خليفة رسول الله ﷺ، وهو لا شكّ أنّه أهل لهذه الخلافة، وقد قام بها خير قيام، وصمد وصبر، وعمل بما كان يعمله رسول الله ﷺ.

مرّ أيضًا ما يُقال عن اليهود والنصارى، وأنهم خير من الرافضة؛ فاليهود يقولون: أفضل بني إسرائيل أصحاب موسى عليه السلام، والنصارى يقولون: أفضل أتباع عيسى - عليه السلام - أصحابه الذين هم الحواريون. أمّا الرافضة فهم يقولون: شرّ هذه الأمة أصحاب محمد ﷺ. فتفوقوا على اليهود، فصاروا أكثر من اليهود كفرًا؛ لأنهم جعلوا أشرّ قرون هذه الأمة وأكفرها، وأكذبها، وأبعدها عن الحقّ أصحاب النبي ﷺ. فهم ممن زين له سوء عملهم فرأوه حسنًا، ولم يستنوا من أصحاب النبي ﷺ إلا عددًا قليلًا؛ كعليّ وأولاده، وعمار وسلمان وخبّاب ؓ، ونحوهم، وكذلك أقارب النبي ﷺ القدامى كحمزة ؓ ونحوهم. أمّا بقية أصحاب النبي ﷺ فهم عندهم ضلال وكفّار، قاتلهم الله أنى يؤفكون، فلا يُغترّ بقولهم.

وبذلك نعرف أفضليّة الصحابة رضوان الله عليهم، مع أنّ أهل السنة لا يشكّون بذلك، ولكن من باب التأكيد والتذكير.

قال الشارح:

وَقَوْلُهُ: (وَلَا تَتَبَرَّأْ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ كَمَا فَعَلَتِ الرَّافِضَةُ)! فَعِنْدَهُمْ لَا وِلَاءَ إِلَّا
بِبِرَاءِ، أَي: لَا يَتَوَلَّى أَهْلَ الْبَيْتِ حَتَّى يَتَبَرَّأَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا!!
وَأَهْلُ السُّنَّةِ يُؤَالِفُونَ كُلَّهُمْ، وَيُنزِلُونَهُمْ مَنَازِلَهُمُ الَّتِي يَسْتَحِقُّونَهَا، بِالْعَدْلِ
وَالْإِنصَافِ، لَا بِالهُوَى وَالتَّعَصُّبِ. فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنَ الْبَغْيِ الَّذِي هُوَ مُجَاوِزَةٌ
الْحَدِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَعْدُ بِقِيَامِ يَتْنَهُمْ﴾ [الجاثية:
١٧]، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مَنْ قَالَ مِنَ السَّلَفِ: الشَّهَادَةُ بِدَعَاةٍ، وَالْبِرَاءَةُ بِدَعَاةٍ. يُرَوَى
ذَلِكَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ السَّلَفِ، مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، مِنْهُمْ: أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ،
وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ، وَالضَّحَّاكُ، وَغَيْرُهُمْ.
وَمَعْنَى الشَّهَادَةِ: أَنْ يَشْهَدَ عَلَى مُعَيَّنٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَوْ أَنَّهُ
كَافِرٌ، بِدُونِ الْعِلْمِ بِمَا خَتَمَ اللَّهُ لَهُ بِهِ.

وَقَوْلُهُ: (وَحُبُّهُمْ دِينٌ وَإِيمَانٌ وَإِحْسَانٌ)؛ لِأَنَّهُ امْتِثَالٌ لِأَمْرِ اللَّهِ فِيهَا تَقَدَّمَ
مِنَ النَّصُوصِ. وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ^(١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغْفَلٍ، قَالَ: سَمِعْتُ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُ اللَّهُ فِي أَصْحَابِي، لَا تَتَّخِذُوهُمْ عَرَضًا بَعْدِي، فَمَنْ
أَحَبَّهُمْ فَيَحِبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَيَبْغِضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي،
وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّهَ، وَمَنْ آذَى اللَّهَ فَيُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ».

وَتَسْمِيَةُ حُبِّ الصَّحَابَةِ إِيْمَانًا، مُشْكِلٌ عَلَى الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لِأَنَّ الْحُبَّ

(١) برقم (٣٨٦٢).

عَمَلُ الْقَلْبِ، وَلَيْسَ هُوَ التَّصَدِيقُ، فَيَكُونُ الْعَمَلُ دَاخِلًا فِي مُسَمَّى الْإِيمَانِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي كَلَامِهِ: أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ الْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ وَالتَّصَدِيقُ بِالْجَنَانِ، وَلَمْ يَجْعَلِ الْعَمَلَ دَاخِلًا فِي مُسَمَّى الْإِيمَانِ، وَهَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ مِنْ مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ هَذِهِ التَّسْمِيَةُ مَجَازًا.

وَقَوْلُهُ: (وَبُغْضُهُمْ كُفْرٌ وَنِفَاقٌ وَطُغْيَانٌ)، تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي تَكْفِيرِ أَهْلِ الْبِدْعِ، وَهَذَا الْكُفْرُ نَظِيرُ الْكُفْرِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي ذَلِكَ.

قال الشيخ:

نقول: إنَّ حبَّ الصحابة من الإيمان، وبغضهم من النفاق، فقد ثبت في «صحيح مسلم»، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْأَنْصَارُ لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ»^(١).

ويقال كذلك أيضًا في المهاجرين، فهم أقدم من الأنصار وأفضل، فبغضهم نفاق وكفر، وحبهم زيادة في الإيمان وقوة فيه، وباعث على الأعمال الصالحة، التي تنبعث من القلب.

ومن الأسباب الباعثة على حبهم:

أولاً: سبقهم لمن قبلهم ولمن بعدهم، فهم الذين سبقونا بالإيمان، فنقول:

(١) تقدم تخرجه (٤/٥٤٣).

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠]؛ أي: طهر قلوبنا من أي حقد أو غل أو بغض لهم، فهم الذين تقدّمونا وكانوا مؤمنين.

ثانياً: نجّهم؛ لأنّ لهم المنة علينا؛ لأنّهم حفظوا الشريعة، وبيّنوها، وبلغوها، ودعوا إلى الله، وجاهدوا في سبيل الله، ونصروا الله ورسوله، وانتصر بواسطتهم الإسلام.

ثالثاً: نجّهم؛ لأنّهم أهل الأعمال الصالحة، وأهل الأعمال في سبيل الله.
 رابعاً: نجّهم؛ لأنّهم أهل الإيمان القويّ، وأهل التصديق القويّ، وهم أولى بالمحبّة ممّن سمّوا أنفسهم شيعة، وادّعوا أنّهم يوالون ويعادون، ونحو ذلك.
 مرّ معنا قول الرافضة: لا ولاء إلاّ بالبراء. ومعنى ذلك: أنّ من تولّى أهل البيت لزمه أن يتبرأ من غيرهم، من الخلفاء الثلاثة، ومن غيرهم من الصحابة رضي الله عنهم!! لا بدّ من الولاية والبراء. هكذا عندهم، نحن نقول: لا ولاء إلاّ ببراء. وهذا كلام صحيح، ولكن من الذي نتولاه؟ نتولى الصحابة رضي الله عنهم، ومنهم أهل البيت، ومن الذي نتبرأ منه؟ نتبرأ من المنافقين، ومن الكافرين، ونتبرأ ممّن أمرنا بالبراء منه، ولو كانوا أقارب. كما قال إبراهيم - عليه السلام -: ﴿إِنَّا بُرءٌ وَأُوْمَنُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المتحنة: ٤]، هؤلاء هم الذين نتبرأ منهم، ولا ولاء إلاّ ببراء، ولاؤنا للمؤمنين ومن جملتهم الصحابة رضي الله عنهم، وبرائنا من الكفار ولو كانوا أقارب، ولاؤنا لمن أولياء الله ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ

ءَامَنُوا ﴿ [البقرة: ٢٥٧]، وتبرؤنا من أعداء الله، ومن جملتهم أولياء الشيطان، الذين قال الله: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وأما الرافضة؛ فعندهم الولاء لعليّ وذريته وزوجته وأمّ زوجته التي هي خديجة رضي الله عنها، وأما البراء، فهو من أبي بكر وعمر وجابر وأنس وابن عمر وابن عباس وأبي هريرة... وهم أجلاء الصحابة رضوان الله عليهم. ما معنى البراء منهم؟ يقولون: تبرأ منهم؛ لأنهم مرتدون خارجون عن الإسلام، وأهل السنة يقولون: نحن نحبتهم ولا نغلو في حبّهم، لا في حبّ الخلفاء الثلاثة، ولا في حبّ أهل البيت، بل نكنّ لهم حبّاً متوسطاً، ليس فيه غلوّ، فالرافضة غلّوا في حبّ أهل البيت حتّى رفعوهم عن قدرهم، وأعطوهم شيئاً من حقّ الله، بل صاروا يعبدونهم من دون الله، ويدعونهم في الشدائد، ويدعونهم في القربات، وأما بقيّة الصحابة ؓ فقد جفوا في حقّهم، وضلّوهم وبدّعوهم وكفّروهم، فقد جمعوا بين الغلوّ والجفاء، لم يتوسّطوا في واحد منهما توسّط أهل السنة، وخير الأمور - كما يُقال - أوساطها.

وقد هلكت في عليّ ؓ طائفتان: طائفة غلّوا وطائفة جفوا.

فالطائفة الذين جفوا هم النواصب، والخوارج. فإنّ الخوارج خرجوا على عليّ ؓ وكفّروه، وقالوا له: حكمت الرجال. وقالوا له: لا حكم إلاّ لله. هكذا يقولون. وقاتلوه إلى أن قتله أحدهم، وهو عبد الرحمن بن ملجم؛ زعم أنّه مرتدّ لتحكيمه الحكمين. واشتروطوا في رجوعهم، فقالوا لا نرجع إليك حتّى تعترف

أَنَّكَ قَدْ كَفَرْتَ، وَأَنَّ أَعْمَالَكَ وَجِهَادَكَ كُلَّهُ بَاطِلٌ، وَتَعْتَرِفُ بِأَنَّكَ تَسْتَقْبِلُ عَمَلًا جَدِيدًا، وَتَبْطُلُ ثَوَابِكَ كُلَّهُ. هُوَ لَاءَ مَاذَا نَسَمِّيهِمْ؟ نَسَمِّيهِمْ جَفَاءً، جَفَا فِي حَقِّ آلِ الْبَيْتِ، وَنَسَمِّيهِمْ هَالِكِينَ؛ لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا أَجْلَاءَ الصَّحَابَةِ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَمَنْ كَانَ فِي جَيْشِ عَلِيٍّ مِمَّنْ رَضِيَ عَنْهُ، وَقَدْ كَثُرَ ذَلِكَ الْمَذْهَبُ فِي الْقَرْنِ الْأَوَّلِ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَوْلِيَاءِ الْخَوَارِجِ، الَّذِينَ يَكْفُرُونَ عَلِيًّا عليه السلام، وَيَمْدَحُونَ مَنْ قَتَلَهُ.

وَرُوِيَ أَنَّ عِمْرَانَ بْنَ حَطَّانٍ كَانَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَقَدْ رَوَى أَحَادِيثَ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - وَغَيْرِهَا مِنَ الصَّحَابَةِ، ثُمَّ تَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنَ النَّوَاصِبِ؛ أَيَّ: مِنَ الْخَوَارِجِ، وَرَجَا لِذَلِكَ أَنْ يُوَثَّرَ عَلَيْهَا حَتَّى تَرْجِعَ وَتَكُونَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَلَكِنَّهَا أَثَرَتْ عَلَيْهِ، وَأَدْخَلَتْهُ مَذْهَبَ الْخَوَارِجِ، فَأَصْبَحَ مِنْهُمْ لَكِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمُقَاتِلِينَ، وَلَكِنْ مِنْ قَعْدَتِهِمْ، وَهُوَ مِمَّنْ مَدَحُوا ابْنَ مَلْجَمٍ بِأَبْيَاتٍ قَالَ فِي بَعْضِهَا^(١):

يَا صَرْبَةً مِنْ تَقِيٍّ مَا أَرَادَ بِهَا إِلَّا لِيُبْلَغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ رُضْوَانًا
إِنِّي لَأَذْكُرُهُ يَوْمًا فَأَحْسِبُهُ أَوْ فِي الْبَرِيَّةِ عِنْدَ اللَّهِ مِيزَانًا

يَمْدَحُونَ الَّذِي قَتَلَ عَلِيًّا عليه السلام، وَهُوَ لَاءَ لَا شَكَّ طَرَفٌ هَالِكٌ.

أَمَّا الشَّيْعَةُ فَمَذْهَبُهُمْ مَعْرُوفٌ، وَهُوَ الرِّفْضُ الَّذِي هُوَ التَّرْكُ، وَمِنْهُ: رَفَضْتُ هَذَا الْقَوْلَ، أَيَّ تَرَكْتَهُ. وَهُوَ لَاءَ الرَّافِضَةُ خَرَجُوا فِي عَهْدِ عَلِيٍّ عليه السلام، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ يَهُودِيًّا يُقَالُ لَهُ: عَبْدُ اللَّهِ بْنِ سَبَأٍ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ نِفَاقًا، أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ وَلَكِنْ بَاطِنَهُ الْكُفْرَ، وَأَرَادَ بِذَلِكَ أَنْ يَشْكَكَ فِي الْإِسْلَامِ، وَيَدْعُو إِلَى أَسْبَابِ الْإِنْحِلَالِ، فَهُوَ مِنْ

(١) أخرج ابن عساکر في تاريخ دمشق (٤٣/٤٩٥).

الذين دعوا الثوار إلى قتل عثمان رضي الله عنه، فهو جمع الجموع، وأثار من أثار حتى اجتمعت عصابات خرجت من مصر ومن العراق، وحاصروا عثمان رضي الله عنه، حتى قُتل شهيداً رضي الله عنه. وكان من أسباب ذلك هذا المنافق. ولما استشهد عثمان رضي الله عنه وتمت البيعة لعلي رضي الله عنه ورأى عبدالله بن سبأ أن علياً رضي الله عنه محبوب عند أهل العراق، حيث استقرّ عندهم، أراد أيضاً أن يبطل إسلامهم، وأن يوقعهم في الكفر، فدعاهم إلى أن يغلوا في علي، فبدل ما هو خليفة وإمام يجعلونه رباً وإلهاً، فزَيّن لهم وقال لهم: عليّ هو الربّ، وهو الإله. وانخدع به خلق كثير، واعتقدوا هذا الاعتقاد الفاسد، فقال: ابدؤوا بعبادته، فخرج عليهم علي رضي الله عنه مرة وهم صفوف، أعداد هائلة، فخرّوا له سجّداً، فقال لهم: ما هذا؟ قالوا: أنت إلهنا، فتعجّب من ذلك، ودعا أكابرهم ليتوبوا، ولكن أصروا ولم يتوبوا، ثمّ اشتهر أنّه أحرقتهم، وحفر لهم أخاديد، وأضرم لهم النيران، فكان يدعو أحدهم، ويقول له: تب، فمن لم يتب، أُلقي في تلك الأخاديد. وهو ينشد القول:

لَمَّا رَأَيْتُ الْأَمْرَ أَمْرًا مُنْكَرًا أَجَجْتُ نَارِي وَدَعَوْتُ قَبْرًا^(١)

قبر هو غلامه، وما زادهم هذا الإحراق إلا تمسكاً بما هم عليه، ويقولون: الآن عرفنا أنك الربّ؛ لأنك الذي تحرق بالنار، ولا يعذب بالنار إلا ربّ النار، فقتل من قتل منهم، وتمسكّ الباقيون بما هم عليه.

وقد أنكر ابن عباس على علي رضي الله عنه الإحراق، وقال: لو كنتُ أنا لم أحرقتهم؛

(١) أخرج ذلك الأثر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (ص ١٨٧).

لأنَّ النبي ﷺ قال: «لَا تُعَذِّبُوا بَعْدَابِ اللَّهِ»، وَلَقَتَلْتَهُمْ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَأَقْتُلُوهُ»^(١). وكان المسلمون جميعاً على أنهم يقتلون وأتهم كفار. هؤلاء هم غلاة الرافضة الذين جعلوا علياً ﷺ هو الإله، هم أتباع ابن سبأ، ولا يزال كثيرٌ منهم على هذه العقيدة، غلاة الباطنية والغرابية. ويحفظ من شعرهم:

أشهد أن لا إله إلا حيدر الأنزع البطين

ولا حجاب عليه إلا محمد الصادق الأمين

ولا طريق إليه إلا سلمان ذو القوّة المتين^(٢)

لما كان سلمان ﷺ من الفرس، جعلوه هو الحجاب على الله، وحيدرة هو

اسم علي؛ لأنه كان يقول في خير^(٣):

أنا الذي سمّني أمي حيدر^(٤)

كلّيت غابات كريبه المنظره

أوفّيتهم بالصّاع كيل السندرة^(٥)

(١) تقدم تحريجه (٣٦٦٥).

(٢) ذكره شيخ الإسلام في منهاج السنة النبوية (٥١٢/٢).

(٣) هذا الرجز أخرجه مسلم (١٨٠٧) في قصة فتح خير.

(٤) الحيدرة: الأسد، سُمي به لغلظ رقبته. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣٥٤/١).

(٥) أي: أقتلهم قتلاً واسعاً ذريعاً، والسندرة: مكيال واسع، وقيل: هي شجرة يُعمل منها النبل

والعصي. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤٠٨/٢).

فصار هذا الاسم علمًا عليه، فهم يقولون: لا إله إلا عليٌّ، لا إله إلا حيدرة. ومشهورٌ هذا الاعتقاد فيهم، وهؤلاء هم بقيّة ورثة ابن سبأ، وهم السبئيون، ويُقال لهم: الغلاة. لما قُتل عليٌّ ﷺ اعتقدوا أنّه لم يُقتل، بل قالوا: إنّهُ رفع في السحاب، واعتقدوا أنّه سوف يرجع؛ فلذلك يقال لأحدهم: فلان يؤمن بالرجعة. ولا يزال كثير منهم يؤمن بالرجعة إلى اليوم.

يذكر أحد أصحاب دور الكتب أنّه جاءه أحد علماء الرافضة، وقال له: إني ألقت كتابًا. قال: في أيّ شيء؟ قال: في الرجعة. فقال: كيف تكون الرجعة وقد قُتل عليٌّ ﷺ، وكيف يرجع وقد قال الله: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١١]، فقال: قد آمن بها مشايخنا، وقد كتبوا فيها. فقال: كلّ ذلك خطأ. فقال: بل أنت المخطئ. فلما رأى أنّه مشدّد في الإنكار، ذهب ذلك المؤلف وهو يقول: والإسلاماه! بمعنى: أنّه لم يجد من يؤيده على الإيمان بالرجعة. فهي عقيدة لا تزال موجودة، يؤمن بها الكثير في العراق، وفي إيران، وكثير من البلاد التي يكثر فيها الرافضة.

وهناك أيضًا طائفة منهم غلوا في عليٍّ ﷺ، ولكن جعلوه هو الرّسول، وادّعوا أنّ الرسالة له، وأنّ جبريل - عليه السلام - أخطأ، كان مأمورًا أن ينزل على عليٍّ ﷺ، ولكنّه خان ونزل على محمدٍ ﷺ، فعليٌّ أحقّ بالرسالة من محمدٍ ﷺ؛ ولذلك يقول أحدهم: خان الأمين وصدها عن حيدره.

فهذا جبريل - عليه السلام - الذي سماه الله أمينًا في قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ

الأميين ﴿الشعراء: ١٩٣﴾، وقوله تعالى: ﴿مُطَاعٌ ثُمَّ أَمِينٌ﴾ [التكوير: ٢١]، يخونهُ هؤلاء الباطنية، وهم موجودون أيضًا، ويعتقد هذه العقيدة كثير من الرافضة في العراق وإيران بل في المملكة، ذكر لنا بعض الذين نقلوا عنهم من رافضة المدينة، أنهم قبل التسليم من الصلاة يضربون بأيديهم على ركبهم ويكرّرون: خان الأمين خان الأمين. ثم يسلمون.

وأما أكثريتهم، فيقال لهم الإمامية، يسمّون أنفسهم الإمامية، وهم في الحقيقة الرافضة. هذا هو الحق، وعقيدتهم: أن عليًّا ﷺ هو الإمام، وأن الأئمة قبله مغتصبون، وأن أبا بكر ﷺ مغتصب للخلافة، وكذا عمر وعثمان رضي الله عنهما، وكذا من تولّى الخلافة غير عليّ ﷺ وذريته، يعتبرون عندهم مغتصبين لما ليس لهم. وهؤلاء أصل تكاثرهم في العراق، ثم انتشروا في غيره، وسببه - والله أعلم - ما حدث من بعض غلاة بني أمية، في وسط القرن الأول، لما تولّى ابن زياد على العراق، وسبب قتل الحسين ﷺ، واستمرّ فيها إلى أن قُتل ابن زياد، ثم مات بعده يزيد، فتولّى العراق بعد ولاية ابن الزبير الحجاج بن يوسف الثقفي في ولاية زياد، وفي ولاية أبيه، وفي ولاية الحجاج، كان هؤلاء الثلاثة يميلون إلى بني أمية، وفي أنفسهم حقد على عليّ، يُزيّن لهم أنه ممن داهن في قتل عثمان ﷺ، ويقولون: إنّه قادر على أن ينصر عثمان ﷺ، فلماذا لم ينصره؟ فكانوا يسبّونه في الخطب على المنابر في العراق وفي الشام.

ولا شك أن في العراق كثيرًا من المحبّين لعليّ ﷺ، ألفوه في حياته، وأحبّوه

بصدق، هؤلاء إما أن يكونوا معتدلين في حبه، وإما أن يكونوا غلاةً من أتباع الغلاة، إذا سمعوا هؤلاء الخطباء يلعنونه على المنبر، استأثروا لذلك، فيحبون أن يكون لهم أتباع، وأن يكون لهم على ما هم عليه من يشجعهم، فإذا سمعوا ذلك أخذوا في مجالسهم يذكرون فضائل عليٍّ عليه السلام، فدخل بينهم الغلاة، فصار أولئك الغلاة في مجالسهم الخاصة التي هي من مجالس المحبين لعلي عليه السلام يكذبون ويغلون في الكذب، ويوَلِّدون، وبدل أن يذكروا فضائله الصحيحة ومدائحه التي مدحه بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، صاروا يضيفون إلى ذلك أكاذيب ليست بحقيقة.

ولعلي عليه السلام فضائل، مثل قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم له: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى»^(١). ولكن الرافضة - بلا شك - لم يقنعوا بذلك، بل صاروا يزيدون^(٢). فصاروا لا يذكرون في مجتمعاتهم إلا فضائل علي عليه السلام، فلا يجدون من يقتنع بقولهم، فيذكرون أكاذيب.

فمثلاً: حديث غدير خم، الذي يجعلونه عيداً لهم يزيدون فيه. وفيه أنه صلى الله عليه وآله وسلم حمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر، ثم قال: «أَمَا بَعْدُ: أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولَ رَبِّي فَأَجِيبْ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ». ثُمَّ قَالَ: «وَأَهْلُ بَيْتِي أَذْكَرُكُمْ

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠٦)، ومسلم (٢٤٠٤) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. وانظر

كلام شيخ الإسلام في رد استدلالهم بهذا الحديث في مجموع الفتاوى (٤/٤١٦) ..

(٢) انظر كلام العلماء في بطلان هذه الزيادات في مجموع الفتاوى (٤/٤١٧).

الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»^(١)، هذا هو الثابت. ولكن ما اقتصروا عند هذا، فصاروا يضيفون إليه زيادات مكذوبة، حتى ألفوا كتباً في هذا الحديث، وجعلوه بألفاظٍ عديدة فقالوا: إنه قال: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَإِنَّ عَلِيَّ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ»^(٢)، وذكروا من أكاذيبهم أن اسم عليٍّ ﷺ مكتوب على قائمة العرش، وأنه ممن خلقه الله وقرنه باسم محمد ﷺ وفضله على خلقه، وأنه وزوجته مكتوبان في غرف الجنة كلها.

هذه الأكاذيب التي يروونها ويقولونها إذا سمعها تلاميذهم وأحبابهم، أخذوا يروونها، وإذا سمعها الآخرون فماذا يقولون؟ كيف تكون هذه مزاياه، وكيف تكون هذه فضائله؟ ومع ذلك يتقدم عليه غيره، كيف قدم عليه أبو بكر وعمر وعثمان ﷺ، لا بد أن يكون هو الأفضل وهو الإمام، ولما سمعوا تلامذتهم ومن كان حولهم وهم يتكلمون بهذا، أرادوا أن يسكتوهم، فلم يجدوا إلا أن يكذبوا أكاذيب يسكتون بها من حولهم حتى لا ينكروا عليهم ما هم فيه، فكذبوا أكاذيب لفقوها ورموا بها أبا بكر وعمر وعثمان وبقية الصحابة ﷺ، وادّعوا أنهم

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٨) من حديث زيد بن أرقم ﷺ. قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٤١٨/٤): «وأما قوله يوم غدیر خم: «أذكركم الله في أهل بيتي»، فليس من الخصائص، بل هو مساوٍ لجميع أهل البيت، وأبعد الناس عن هذه الوصية الرافضة، فإنهم يعادون العباس وذريته، بل يعادون جمهور أهل البيت، ويعينون الكفار عليهم».

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧١٣)، وأحمد (٣٧٠/٤)، والطبراني في الكبير (٥٠٦٩) من حديث زيد بن أرقم ﷺ.

مغتصبون، وادّعوا أنّهم خونة، وادّعوا أنّهم ظلمة، فامتلات كتب الرافضة بالسبّ والحمل على هؤلاء الصحابة عليهم السلام وهي أكاذيب ما أنزل الله بها من سلطان. سببها ومبدأ أمرها التسكيت لتلامذتهم حتى لا ينكروا عليهم.

ولما انتشرت هذه الأكاذيب فيما بينهم، اعتقد تلامذتهم كفر أئمة الصحابة، واعتقدوا أنّ الصحابة - رضوان الله عليهم - ليسوا على هدى؛ لأنّهم بايعوا غير الإمام الحقّ، وخلعوا الإمام الحقّ من إمامته وهو عليّ عليه السلام، وبايعوا أبا بكر رضي الله عنه وهو مغتصبٌ ظالم، وبايعوا عمر رضي الله عنه وهو ليس له حقّ - كما يزعمون - فجعلوهم بذلك مرتدّين، وأبطلوا بذلك فضائلهم التي ثبتت في كتب السنّة الصحيحة وغيرها، وقالوا: إنّ فضائلهم التي ذكرت في القرآن بطلت بسبب ردّتهم، ارتدّوا بعد موت محمّد صلى الله عليه وآله. وردّتهم أنّهم منعوا عليّاً عليه السلام من حقّه في الخلافة، وبايعوا مغتصباً ظالماً هو أبو بكر رضي الله عنه!

هكذا كانت أقوالهم، وهكذا رسخت هذه العقيدة في نفوسهم، وتوارثوها، وأخذوا يتناقلون هذه الأكاذيب في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني، يتناقلون هذه الأكاذيب، ثم ينقلون فضائل عليّ عليه السلام ويبالغون فيها، ويذكرون فضائل الحسين وفضائل الحسن وفضائل ابن الحنفية، وفضائل زين العابدين وأولادهم وأحفادهم، ويكذبون في فضائلهم أكاذيب لا تليق بعاقل، ولا يصدّقها ذو عقل سليم. ولو قرأتم في كتبهم التي يتناقلونها لعجبتكم كيف يصدّقون هذه الأكاذيب، وتنطلي عليهم، ولكن سلبت عقولهم. ولأجل ذلك ذكر بعض العلماء أنّهم ليس لهم عقول. والرّدود التي ردّت عليهم لو قرأتموها

لعجبتم كيف لم يرتدعوا عن هذه الأكاذيب، ولا يزالون على هذا المعتقد إلى اليوم، مع تفتح النَّاسِ، وتبصُّرهم.

ولا يزالون يروون ويتناقلون تلك الأكاذيب في كتبهم، وقد أولوا عليها الآيات القرآنية، وهناك تفسير لأحد أئمتهم فسَّر فيه قول الله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩]، البحرين: علي وفاطمة يلتقيان بالنكاح. ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْزُ وَالْمَرْجَاتُ﴾ [الرحمن: ٢٢]؛ هما الحسن والحسين. هكذا راجت هذه الأكاذيب بالنسبة إلى مديحهم.

أمَّا بالنسبة إلى ذمهم فمثلاً فسَّروا قول الله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١]؛ الجبْت: هو أبو بكر، والطاغوت: عمر، رضي الله عنهما، قاتلهم الله أنى يؤفكون. وكذلك فسَّروا قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]، يدا أبي لهب، يقولون: هما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. وفسَّروا قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]؛ البقرة: هي عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها. أعاجيب وأكاذيب راجت عليهم؛ لأنهم سلبوا العقل والمعرفة، وما يزالون مُصَرِّين على هذه العقيدة.

في آخر ولاية بني أمية خرج رجل من ذرية علي وهو أخوزين العابدين، وهو زيد بن الحسين، ولما خرج دعا النَّاسَ إلى بيعته، فجاءه الرافضة، فقالوا: نبايعك على أن تتبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؛ لأنهم قد ارتسم في أذهانهم أنهم أكفر من أبي جهل وفرعون، فلا بد أن يتبرأ منهما، ولكنه ﷺ قال:

هما صاحباً جدّي، ولا أتبّرأ منهما، قالوا: إذا نرفضك، فرفضوه. ومن هنا عرفوا بالرأفة. وهذا اسمهم، وهم الآن لا يعترفون به، ويشنعون على من سآهم بهذا الاسم مع أنهم هم الذين سموا أنفسهم، وسآهم به زيد أخو زين العابدين أحد أئمتهم، وزين العابدين هو أحد الأئمة الاثني عشر. والذين بايعوا زيدا سموا بالزيدية، وهم الذين يوالون أبا بكر وعمر وأكثر الصحابة رضوان الله عليهم، ولكنهم يتبرؤون من بني أمية.

أما تسميتهم بالشيعة، فهم يتمدحون بهذا الاسم، ويقولون: نحن شيعة عليّ يعني: أنصاره، الشيعة في الأصل: الأنصار والأعوان. مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ٨٣]، وكما في قوله: ﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَى الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [الفصص: ١٥]، يعني: أتباعه، ولكنهم في الأصل نسميهم نحن شيع، ولا نسميهم شيعة، فالشيع: هي الفرق الصّالة، الذين ذمهم الله بقوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلٌّ حِزْبٍ﴾ [الروم: ٣٢].

والحاصل أنهم فرق كثيرة متشعبة؛ منهم الباطنية الذين ظهروا في أواخر القرن الثالث واستولوا على شرق الجزيرة العربية، القطيف والأحساء والبحرين، وما اتصل بها، وصار لهم قوة ونفوذ، وهم الذين قتلوا الحجاج سنة سبع عشرة وثلاثمائة من الهجرة في الحرم، وهم يطوفون بالبيت، دخل كبيرهم وقائدهم على أنهم حجاج، ولما توسطوا الحرم سلّوا سيوفهم، وأخذوا يقتلون الحجاج في

داخل الحرم، وجعل الحجاج يلوذون بالكعبة، ويتعلقون بأستارها، فجعل زعيمهم يقتلهم وهم كذلك، ويقول:

أنا باللّهِ وباللّهِ أنا مخلّقُ الخلقِ وأفنيهم أنا

وأخذ كسوة الكعبة، وشققها بين أصحابه، وقلع الحجر الأسود وذهب به إلى بلاده القطيف، وبقي عندهم إلى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة، حيث ضعفت دولتهم، وقويت دولة الإسلام، فهدّدوا إن لم يردّوه بغزو دولة الإسلام لهم، فردّوه وهم كارهون، والحمد لله^(١).

وهذه الطائفة من أكفر الطوائف وأخبثها. يقول العلماء: إثمهم يظهر من الرّفص وهم كذبة، فظاهرهم الرّفص، وباطنهم الكفر المحض. وما تزال طائفة منهم تعيش بين المسلمين، يظهرون أثمهم إخواننا، ويدعون إلى التقارب، ويدعون أثمهم على الحق، وأنّ مذهبهم الذي هم عليه كسائر المذاهب الفرعية، كالشافعي ومالك وأحمد، فكذبوا بذلك؛ لأنّهم مخالفون للمسلمين في العقيدة التي هي الأصل والأساس، فكيف يجتمعون مع المسلمين؟ وكيف يأمنهم المسلمون؟ وهم يُضمرون للمسلمين العداوة والبغضاء، فهم أعداء الله وللإسلام والمسلمين، فلا يغترّ بدعوتهم إلى ما يسمّونه التقريب، فإنّ هذا الاعتقاد كفر وضلال، فلا ينخدع المسلم بدعاياتهم وأعمالهم، بل نأخذ حذرنا منهم.

والعلماء الأولون كانوا متبهين لهم، ولكن - مع الأسف - كان هؤلاء الرافضة

(١) انظر: البدية والنهاية (١١ / ١٧١).

متسّرين في ذلك الوقت - في القرن الأول والثاني والثالث - ولم يكونوا يظهرون أمرهم، وتولّوا ولايات ووثق بهم أكثر العامة، وصاروا يروون عنهم الأخبار، وصار منهم أخباريون، وإن لم يكونوا من غلاتهم، فدخل الكذب في كتب التاريخ بسبب الرواية عنهم.

فتجدون مثلاً في كتب التاريخ - حتى التي يكتبها أهل السنّة ما يدلّ على أنّها من وضع الرافضة؛ فمثلاً من المشهورين بالأخبار شيعي، ولكن يقولون أنّه إخباري يروي الأخبار ويجمعها، يُقال له: لوط بن يحيى، ويشتهر بأبي مخنف، يروون عنه في كتب التاريخ، فيقول ابن جرير: قال أبو مخنف، وروى أبو مخنف. هذا الراوي يظهر أنّه من أهل السنّة، ولكن يميل إلى الشيعة، ودليل ذلك: أنّه يتبع أخبار أهل البيت، ويبالغ في نقلها، ويطنل فيها، ويستقصي أخبارها، فمثلاً في تاريخ ابن جرير: مقتل الحسين، قصة واحدة قُتل فيها الحسين ومعه من أهل بيته نحو الأربعين، فعادة مثل هذه الواقعة يكفيها ثلاث أو أربع صفحات لكن استغرقت هذه الحادثة أكثر من نصف مجلّد، أكثر من خمسين ومائتي صفحة من تاريخ ابن جرير. وابن جرير - رحمه الله - من أهل السنّة، ولكن بلاده - طبرستان - كانت مليئة في زمانه بالرافضة، فكانوا يدخلون عليه شيئاً من أخبارهم، وإن كان محدثاً ومفسّراً وإماماً، فإنّه قد ينخدع بهم.

ففي خبر غدير خمّ ألف مجلدين، يقول ابن كثير عن ابن جرير: إنه ألف كتاباً ذكر فيه ما لا يصلح أن يذكر، حشد فيه الطيب والخبيث، والصحيح والسقيم، استوفى فيه ما سمعه، وذلك دليل على أنّه قد كثرت عنده تلك الأخبار، مما يدلّ

على أن أخبار الرافضة في ذلك الزمان قد كثرت.

في القرن الرابع استولى على العراق، بل على مصر وإيران دولة يُقال لهم: بنو بويه، وهذه الدولة رافضية، وكانت الخلافة لبني العباس، ولكن هؤلاء بمنزلة السلاطين الذين يديرون الدولة، أعلنوا مذهب الرافضة، وزادوا فيه ونشروه، وتمكّن في العراق؛ لأنها وطنهم، وإيران وما حولها. وصاروا يشجعون ويمكّنون كل من اعتنقه، ويولّونه الولايات، ولمّا تمكّن هذا المذهب الخبيث وكثر معتنقوه، صاروا يحشدون من الكتب في تقرير مذهبهم، ويؤلفون المؤلفات في معتقدتهم، فانتشرت الكتب وكثرت، ويوجد منها الآن ما لا يحصيه العدد، فتمكّن وقوي مذهبهم، وانخدع به من انخدع، ولا يزالون إلى الآن يمدعون الناس بمذهبهم الباطني، ويتقربون إلى الناس بحسن معاملتهم وملاطفتهم، ومدحهم لأنفسهم، ويقولون: إن معهم شيئاً من الأخلاق والأدب والصدق، فيجتذبون الناس بالمعاملة الحسنة، وإلّا فالأصل أن معتقداتهم وأخلاقهم سيئة.

ولا أتجرأ أن أذكر الحكايات عنهم التي حكاها لنا بعض من عمل معهم بالمنطقة الشرقية من الجزيرة العربية، وما فيها من احتيالهم على أهل السنة، ومقتهم وبغضهم وحقدهم عليهم، وحرصهم على أن يصلهم كلّ شرّ وكل سوء، ولكن ينخدع الكثير بهم. وقد ذكر لنا بعض المشايخ الذين ذهبوا إلى الأحساء أنّ منهم من يظن أنّهم مسلمون، ولا يفترون عن المسلمين إلا كما يفترون من يقول: أنا شافعي، وأنا حنفي، ولم يدروا أنّهم ضلال وكفار حتّى ظهر لهم الحق.

ولما كان كذلك، اهتم العلماء بذكر فضائل السلف، وفضائل الصحابة، واهتموا بذكر ذلك في عقائدهم، كما فعل ذلك الإمام الطحاوي رحمه الله. وكما ذكر ذلك أهل العقائد نظماً ونثراً، يقول أبو الخطاب الكلوذاني في عقيدته^(١) مبيّناً فضل الصحابة وعلى رأسهم الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم:

قَالُوا فَمَنْ بَعْدَ النَّبِيِّ خَلِيفَةً قُلْتُ الْمَوْحِدُ قَبْلَ كُلِّ مَوْحِدٍ

يعني: أبا بكر رضي الله عنه، ذكر ذلك في عقيدته. ثم ذكر خلافة من بعده من

الخلفاء رضي الله عنهم، إلى أن ذكر خلافة علي رضي الله عنه بوصفه رابعاً للخلفاء الراشدين رضي الله عنهم:

قَالُوا فَرَابِعُهُمْ فَقُلْتُ مُجَابِيًا مَنْ حَارَزَ دُونَهُمْ أُخُوَّةَ أَحْمَدٍ

فمن هنا اهتم الأئمة بذكر فضائل الصحابة، لأننا لو تنزلنا على عقيدتهم،

لرددنا الكتاب والسنة، فمن أين جاءنا الكتاب والأحاديث، فإذا كانوا كفاراً كما يقولون؛ فإن أخبارهم لا تقبل.

أما شبههم التي يرمون بها أهل السنة، فإن الآيات التي نزلت في المنافقين

يحملونها على الصحابة رضي الله عنهم، فقوله تعالى في معركة بدر: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ

بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥٠﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا

يَسْأَفُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٥١﴾ [الأنفال: ٥، ٦]؛ يقولون: هؤلاء جادلوا الرسول،

كأنها يساقون إلى الموت وهم ينظرون، هؤلاء كفروا بذلك، ونقول لهم: إن الله

تعالى ما كفرهم بذلك بل سآهم مؤمنين ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥٢﴾﴾

(١) لساحة شيخنا عبد الله بن جبرين - حفظه الله - شرح كامل على منظومة أبي الخطاب الكلوذاني.

[الأنفال: ٥]، نعم كرهوا مقابلة الكفار مخافة أن يقضي عليهم وهم عدة الإسلام والمسلمين، ومعهم الرسول ﷺ ومعهم خيار الصحابة، لكن الله تعالى نصرهم وأيدهم، وسبب هذه الكراهية وهذه المجادلة أنهم يقولون: لو ذهبنا إلى العير. فهل هذا القول يخرجهم من الإسلام؟ كلا، لم يخرجهم، بل سباهم الله المؤمنين، فهذا هو معنى المجادلة والكراهية، ولكن الراضة جعلوها دليلاً على أنهم كفار، وكفروهم بمثل ذلك.

وفي آية أخرى، وهي قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجمعة: ١١]؛ يقولون: هؤلاء الذين انفضوا عن الرسول ﷺ وهو يخطب، ارتدوا بذلك. لكن الله تعالى لم يكفرهم على ذلك، بل عفا عنهم. ثم نقول: من هم الذين بقوا ومن هم اللذين نفروا، معلوم أنهم خرجوا ينظرون إلى هذه الإبل، ثم عادوا ليتموا صلاتهم، ولا يليق بهم أن يتركوا الصلاة مع النبي ﷺ، ثم قد يكون معهم بعض أهل البيت، وقد يكون معهم بعض الذين يمدحونهم كعمار وصهيب وسلمان رضي الله عنهم؛ فلذلك لا دلالة لهم في الآيات التي يستدلون بها.

ثم لو قدر أنهم صادقون، وأن هذه الأشياء وقعت منهم حقيقة، فلا يليق أن نكفرهم بها، ولهم من السوابق ما يعفو الله به عنهم إذا ظهر منهم ذنب من الذنوب، ولا شك أنهم قد تابوا منه، والتوبة تجب ما قبلها، أو تحيت عنهم بثواب أعمالهم السابقة، التي ضاعف الله لهم حسناتهم فيها، وقد قال رسول الله ﷺ:

«لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنْ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَةً»^(١). فالحسنات يذهب السئات، فكيف ننسى فضائلهم السابقة وجهادهم، ونذكر لهم ذنبًا صغيرًا تابوا منه، على حد قول بعضهم:

يُنْسَى مِنَ الْمَعْرُوفِ طَوْدًا شَانِحًا وَلَيْسَ يَنْسَى ذَرَّةً مِمَّنْ أَسَا

فعلى المسلم أن تكون عقيدته نحو الصحابة رضوان الله عليهم: محبتهم والترضي عنهم، والثناء عليهم، وذكر فضائلهم، والاعتراف بما لهم من المزية والسبق، ومعرفة أنهم خير قرون هذه الأمة، لم يكن ولا يكون مثلهم، وأن فضائلهم لا يدركها غيرهم. فإذا اعترفنا بذلك، عرفنا كفر من كفرهم، وضلال من ضللهم وكرههم، ونصب العداوة لهم ولمن والاهم من أهل السنة، فما علينا إلا أن نشهر فضائلهم ونشرها كما نشرها الأئمة قبلنا، فالبخاري في صحيحه جعل كتابًا لفضائل الصحابة بدأ بفضائل الخلفاء الأربعة، وهكذا فعل مسلم في كتابه، وهكذا فعل الترمذي، وألف الإمام أحمد كتابه المشهور «فضائل الصحابة»، وهكذا الكتب المؤلفة في ذلك، كل ذلك بالثناء على الصحابة رضوان الله عليهم وأتباعهم، فإذا قرأ المسلم تلك الأخبار وعرف صحتها، عرف فضلهم وقدرهم، وعرف بأن من عاداهم ضالّ مضلّ، طاعنٌ في الله وفي شرعه، وطاعن في أصل الإسلام والسنة.

أما هؤلاء الرافضة وأعمالهم، فهم في ضلال، نبرأ إلى الله منهم ومن عقائدهم

(١) تقدم تخريجه (٤/٥٤١).

السيئة، ونسأل الله أن يحمينا على محبة الخير وأهله، ويميتنا على الإسلام والسنة.
 وبعد ذلك نقول: إن صحابة رسول الله ﷺ هم الذين اجتمعوا به بعد
 إسلامهم، وأدركوا حياته، ورأوه وهم مؤمنون مصدقون به، وقد اشتهر أنهم
 جاهدوا معه، وأنفقوا أموالهم في سبيل الله، ونصرة لرسوله ﷺ، وقد مدحهم الله
 تعالى في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ
 رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أُنْفُسِ
 الصُّرُورِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وهذا الوصف يعم جميع المهاجرين الذين ذكرهم الله تعالى
 بقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ
 وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، فإنهم تركوا بلادهم
 وعشائرهم وأموالهم؛ حباً لله ورسوله ﷺ، وتصديقاً بالرسالة، مع ما لقوه قبل
 الهجرة من الأذى والعذاب في الله تعالى.

ثم تكبدوا الصعوبات في سفر الهجرة، وركبوا الأخطار، ثم إن العرب جميعاً
 رمتهم بالعداوة، وقاطعتهم، فتعرضوا لحرب العرب وغيرهم، وكان الحامل على
 ذلك هو قوة الإيمان، والجزم بصحة ما هم عليه، والثقة بنصر الله تعالى الذي ذكره
 في قوله تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
 كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ
 بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]، وقد أخبرهم قبل ذلك بأنهم سوف يُبتلون ويختبرون،
 فقال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا

الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذْعِبَ كَثِيرًا ﴿١﴾ [آل عمران: ١٨٦]؛ ولهذا لما تسلط عليهم الأحزاب وضيّقوا عليهم، ثبتوا وقالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وأخبر الله تعالى أنه قد رضي عنهم في قوله تعالى: ﴿وَالسَّيْفُورُ الْأَوْلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٠]، ومن رضي الله عنه فقد غفر له، ورضي عمله، فلا يسخط بعد ذلك عليهم، بل يوفقهم ويحميهم ويتوفاهم على الإسلام.

وورد في السنة ما يدل على فضلهم على من بعدهم في قوله ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُوتُهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُوتُهُمْ»^(١)، ويريد بالقرن: أهله، ففضل أصحابه على من بعدهم، وكذا نبى عن سبهم في قوله ﷺ: «لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنْ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»^(٢).

وروى مسلم^(٣) من حديث أبي بردة ؓ قال: صَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ جَلَسْنَا حَتَّى نَصَلِيَ مَعَهُ الْعِشَاءَ. قَالَ: فَجَلَسْنَا فَخَرَجَ عَلَيْنَا، فَقَالَ: «مَا زِلْتُمْ هَاهُنَا؟» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّيْنَا مَعَكَ الْمَغْرِبَ، ثُمَّ قُلْنَا نَجْلِسُ حَتَّى نَصَلِيَ مَعَكَ الْعِشَاءَ، قَالَ: «أَحْسَنْتُمْ أَوْ أَصَبْتُمْ»، قَالَ: فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَكَانَ

(١) تقدم تحريجه (١١٢/١).

(٢) تقدم تحريجه (٥٤١/٤).

(٣) برقم (٢٥٣١).

كثيراً مما يرفع رأسه إلى السماء، فقال: «النجوم آمنة للسماء، فإذا ذهبَت النجوم أتى السماء ما تُوعَدُ، وأنا آمنة لأصحابي، فإذا ذهبَت أتى أصحابي ما يُوعَدُونَ، وأصحابي آمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يُوعَدُونَ»، أي: من الفتن والخلاف وكثرة البدع.

وقد شهد النبي ﷺ للعشرة بالجنة، وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وأبو عبيدة، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف، وسعيد بن زيد^(١)، كما ثبتت الشهادة لجماعة آخرين بالجنة، كثابت بن قيس، وبلال، وعمار، وسلمان^(٢)، وقال ﷺ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ، الَّذِينَ بَايَعُوا نَحْتَهَا»^(٣)، وقال: «وما يُدْرِكُ لَعَلَّ اللَّهِ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»^(٤)، وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر، وأهل البيعة ألف وأربعمائة وزيادة.

ثم اتفق السلف على أن أفضل الصحابة الخلفاء الأربعة، وهم: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي رضي الله عنهم جميعاً، وجمهور أهل السنة على أن ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة، وقد اتفق الصحابة رضي الله عنهم على تقديم أبي

(١) تقدم تحريجه (٤/٤).

(٢) تقدم تحريج أحاديث المبشرين بالجنة (٥/٤).

(٣) تقدم تحريجه (٦/٤).

(٤) تقدم تحريجه (٦/٤).

بكر رضي الله عنه ومبايعته خليفة بعد النبي صلى الله عليه وسلم؛ وذلك لما عرفوا من سابقته وصحبته وأعماله، ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم قدمه ليصلي بالناس في أيام مرضه، فصلى بهم تلك الأيام^(١)، فبايعوه، وقالوا: رضينا لديانا من رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لدينا، فهو ليس أكثرهم مالاً، ولا أقواهم بأساً، ولا أعزهم عشيرة، فلم يبايعوه خوفاً من سطوته وقهره وسلطته، وإنما عرفوا فضله وسابقته، وما تميز به، وتذكروا الإشارات الدالة على أنه أولى بالخلافة مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «أَقْتَدُوا بِاللَّذِينَ مِنْ بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ»^(٢)، وقوله صلى الله عليه وسلم: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمُهَيَّبِينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ»^(٣)، وثبت في «الصحيحين»^(٤) عن أبي سعيد رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم خطب في آخر حياته، قال: «إِنَّ أَمَّنَ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لَأَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ وَمَوَدَّةُ، لَا يَبْقَيْنَ فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سُدَّ إِلَّا بَابُ أَبِي بَكْرٍ». وفضائل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبقية الصحابة رضوان الله عليهم كثيرة مشهورة، ومن أراد الاطلاع فليراجع كتاب الفضائل من كتب السنة.

(١) كما ورد في حديث عائشة - رضي الله عنها - الذي أخرجه البخاري (٦٦٤)، ومسلم (٤١٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٦٢)، وابن ماجه (٩٧)، وأحمد (٣٨٢/٥)، وصححه ابن حبان

(٣٢٧/١٥)، والحاكم (٧٥/٣)، ووافقه الذهبي، من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

(٣) تقدم تخرجه (٤٣/١).

(٤) أخرجه البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢).

قال الطحاوي:

وَنُتِبَتِ الْخِلَافَةُ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْلَا لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ ، تَفْضِيلًا لَهُ
وَتَقْدِيرًا عَلَى جَمِيعِ الْأُمَّةِ .

قال الشارح:

اِخْتَلَفَ أَهْلُ السُّنَّةِ فِي خِلَافَةِ الصِّدِّيقِ ﷺ : هَلْ كَانَتْ بِالنِّصِّ ، أَوْ
بِالِاخْتِيَارِ؟ فَذَهَبَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ إِلَى أَنَّهَا تَبَتَّتْ
بِالنِّصِّ الْخَفِيِّ وَالْإِشَارَةِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ بِالنِّصِّ الْجَلِيِّ .
وَذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالْمُعْتَزَلَةِ وَالْأَشْعَرِيَّةِ إِلَى أَنَّهَا تَبَتَّتْ
بِالِاخْتِيَارِ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى إِنْبَاتِهَا بِالنِّصِّ أَحْبَابٌ:

مِنْ ذَلِكَ مَا أَسْنَدَهُ الْبُخَارِيُّ^(١) عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ ، قَالَ : آتَتْ امْرَأَةٌ النَّبِيَّ
ﷺ ، فَأَمَرَهَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ ، قَالَتْ : أَرَأَيْتَ إِنْ جِئْتُ فَلَمْ أَجِدْكَ؟ كَأَنَّمَا تُرِيدُ
الْمَوْتَ ، قَالَ : «إِنْ لَمْ تَجِدْنِي فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ» . وَذَكَرَ لَهُ سَيَاقًا آخَرَ^(٢) ، وَأَحَادِيثٌ أُخْرَى .
وَذَلِكَ نَصٌّ عَلَى إِمَامَتِهِ .

وَحَدِيثُ حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «اِقْتَدُوا بِاللَّذِينَ مِنْ

(١) برقم (٣٦٥٩) ، وأخرجه مسلم (٢٣٨٦) .

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٦٠) .

بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ. رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ^(١).

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»^(٢) عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَعَنْ أَبِيهَا - قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْيَوْمِ الَّذِي بُدِيَ فِيهِ، فَقَالَ: ادْعِي لِي أَبَاكَ وَأَخَاكَ، حَتَّى أَكْتُبَ لِأَبِي بَكْرٍ كِتَابًا، ثُمَّ قَالَ: يَا أَيُّهَا اللَّهُ وَالْمُسْلِمُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ.

وَفِي رَوَايَةٍ: «فَلَا يَطْمَعُ فِي هَذَا الْأَمْرِ طَامِعٌ»^(٣).

وَفِي رَوَايَةٍ: قَالَ: «ادْعِي لِي عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، لِأَكْتُبَ لِأَبِي بَكْرٍ كِتَابًا لَا يُخْتَلَفُ عَلَيْهِ»، ثُمَّ قَالَ: «مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَخْتَلِفَ الْمُؤْمِنُونَ فِي أَبِي بَكْرٍ»^(٤).

وَأَحَادِيثُ تَقْدِيمِهِ فِي الصَّلَاةِ مَشْهُورَةٌ مَعْرُوفَةٌ، وَهُوَ يَقُولُ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ

فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ»^(٥).

وَقَدْ رُوِيَ فِي ذَلِكَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، فَصَلَّى بِهِمْ مُدَّةَ مَرَضِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

(١) تقدم تخريجه (٤/٥٨٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٨٧)، وبنحوه أخرجه البخاري (٥٦٦٦، ٧٢١٧).

(٣) أخرجه أحمد (١٠٦/٦)، وابن سعد في الطبقات (٢/٢٢٥)، وابن أبي عاصم في السنة، والطبراني في الأوسط (٤٣٣١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٠/٢٦٧)، وفي سننه مقال، لكنه يتقوى بالروايات الأخرى المخرجة في الصحيحين.

(٤) أخرجه الطيالسي في مسنده برقم (١٨٠٥)، ومن طريقه ابن سعد في الطبقات (٣/١٠٨)،

وابن أبي عاصم في السنة (١١٦٣)، وفي إسناده محمد بن أبان، وهو ضعيف.

(٥) أخرجه البخاري (٦٦٤)، ومسلم (٤١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

«بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي عَلَى قَلْبٍ، عَلَيْهَا دَلْوٌ، فَزَعْتُ مِنْهَا مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَخَذَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ، فَزَعَّ مِنْهَا ذَنْبًا أَوْ ذَنْبَيْنِ، وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ، ثُمَّ اسْتَحَالَتْ غَرْبًا، فَأَخَذَهَا ابْنُ الْخَطَّابِ، فَلَمْ أَرِ عَبْرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَفْرِي فَرِيَّهُ، حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بَعْطَنَ»^(١).

وَفِي «الصَّحِيحِ»^(٢) أَنَّهُ ﷺ قَالَ عَلَى مِنْبَرِهِ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ حَلِيلًا لَأَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ حَلِيلًا، لَا يَبْقَيْنَ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا سُدَّتْ، إِلَّا خَوْخَةٌ أَبِي بَكْرٍ».

وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ، وَغَيْرِهِ^(٣)، مِنْ حَدِيثِ الْأَشْعَثِ عَنِ الْحَسَنِ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ رُؤْيَا؟» فَقَالَ رَجُلٌ أَنَا: رَأَيْتُ كَأَنَّ مِيزَانًا أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ، فَوُزِنَتْ أَنْتَ وَأَبُو بَكْرٍ، فَرَجَحَتْ أَنْتَ بِأَبِي بَكْرٍ، ثُمَّ وُزِنَ عُمَرُ وَأَبُو بَكْرٍ، فَرَجَحَ أَبُو بَكْرٍ، وَوُزِنَ عُمَرُ وَعُثْمَانُ، فَرَجَحَ عُمَرُ، ثُمَّ رُفِعَ الْمِيزَانُ، فَرَأَيْتُ الْكَرَاهَةَ فِي وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «خِلَافَةُ نُبُوَّةٍ، ثُمَّ يُؤْتِي اللَّهُ

(١) البخاري (٣٦٦٤ و ٧٠٢١)، ومسلم (٢٣٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ومسلم (٢٣٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري ؓ.

(٣) برقم (٤٦٣٤، ٤٦٣٥).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٢٨٧) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأحمد (٤٤/٥)، والحاكم (٧٠/٣)، جميعهم بدون زيادة: «خِلَافَةُ نُبُوَّةٍ...»، وهذه الزيادة لها شاهد من حديث سفينة ؓ، وسيأتي تحريجه قريباً.

الملك من يشاء».

فَبَيَّنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ وِلَايَةَ هُوَ لِأَيِّ خِلَافَةِ نُبُوَّةٍ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ مُلْكٌ.
وَلَيْسَ فِيهِ ذِكْرٌ عَلَيٍّ ؑ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَجْتَمِعِ النَّاسُ فِي زَمَانِهِ، بَلْ كَانُوا مُخْتَلِفِينَ، لَمْ
يَنْتَظِمُوا فِيهِ خِلَافَةَ النُّبُوَّةِ وَلَا الْمُلْكَ.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ^(١) أَيْضًا عَنْ جَابِرٍ ؑ، أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
قَالَ: «رَأَى اللَّيْلَةَ رَجُلٌ صَالِحٌ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ نِيطَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَنِيطَ عُمَرُ بِأَبِي
بَكْرٍ، وَنِيطَ عُثْمَانُ بِعُمَرَ»، قَالَ جَابِرٌ: فَلَمَّا قُفْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قُلْنَا: أَمَّا
الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَمَّا الْمَنُوطُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ فَهُمْ وُلَاةُ هَذَا
الْأَمْرِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ نَبِيَّهُ.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ^(٢) أَيْضًا عَنْ سَمُرَةَ بِنِ جُنْدَبٍ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ
اللَّهِ، رَأَيْتُ كَأَنَّ دَلْوًا دُلِّيَ مِنَ السَّمَاءِ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ بِعَرَاقِيهَا، فَشَرِبَ
شُرْبًا ضَعِيفًا، ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِعَرَاقِيهَا فَشَرِبَ حَتَّى تَضَلَّعَ، ثُمَّ جَاءَ عُثْمَانُ
فَأَخَذَ بِعَرَاقِيهَا فَشَرِبَ حَتَّى تَضَلَّعَ، ثُمَّ جَاءَ عَلِيٌّ فَأَخَذَ بِعَرَاقِيهَا، فَانْتَشِبَتْ مِنْهُ،
فَانتَضَّحَ عَلَيْهِ مِنْهَا شَيْءٌ.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُمَهَانَ، عَنْ سَفِينَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خِلَافَةُ

(١) برقم (٤٦٣٦).

(٢) برقم (٤٦٣٧).

النُّبُوَّةَ ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ يُؤْتِي اللَّهُ مَلِكُهُ مَنْ يَشَاءُ أَوْ الْمَلِكَ»^(١).

قال الشيخ:

تكلم العلماء في موضوع الخلفاء الراشدين، وهم: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي رضي الله عنهم أجمعين، وذكروا أن تسميتهم بالخلفاء الراشدين تسمية نبوية؛ ففي الحديث أن النبي ﷺ قال: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمُهَدِّدِينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ»^(٢) فجعلهم خلفاء، والخليفة: هو الذي يخلف غيره، وسماهم راشدين، والراشد: ضد الغاوي؛ أي إنهم على رشد، ووصفهم بالهداية، أنهم مهتدون غير ضالين، هذا ما يخص خلافة هؤلاء الأربعة، وكذلك من اقتدى بهم، أو سار على نهجهم؛ فقد قيل: إن عمر بن عبد العزيز من الخلفاء الراشدين؛ لأنه أشبه سيرتهم.

كذلك أشار النبي ﷺ إلى الخلافة ثم الملك، كما في حديث سفينة: «خِلَافَةُ النَّبِيِّ ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ يُؤْتِي اللَّهُ مَلِكُهُ مَنْ يَشَاءُ»؛ وقد وقع ذلك؛ فخلافة أبي بكر ﷺ سنتان ونصف، وخلافة عمر ﷺ عشر، وخلافة عثمان ﷺ اثنتا عشرة سنة،

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٤٦، ٤٦٤٧)، والترمذي (٢٢٢٦) وقال: «وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ».

وأحمد (٥/ ٢٢٠-٢٢١)، وصححه ابن حبان (٣٩٢/١٥)، والحاكم (٣/ ٧١)، ووافقه

الذهبي.

(٢) تقدم تحريجه (٤٣/١).

فهذه أربع وعشرون سنة، وخلافة عليّ ؑ خمس سنين إلا بعض سنة، وتتمتها خلافة الحسن، فأصبحت هذه ثلاثين سنة أو نحوها، فهذه هي الخلافة التي أخبر النبي ﷺ بأنها خلافة نبوة، ثم بعدها يكون ملك؛ لأن الملك لما انتقل إلى بني أمية، أصبحوا كأنهم يعملون عمل الملوك، ولو كان فيهم شيء من السيرة الحسنة والجهاد، ولكن عملهم ليس كعمل الخلفاء الراشدين؛ لأنهم جعلوها وراثية، وصاروا يعهدون بالخلافة إلى أبنائهم أو من يقرب منهم.

وقد أجمع الصحابة رضوان الله عليهم على تقديم أبي بكر ؑ، وفيهم أهل البيت، وفيهم عليّ والحسن والحسين والعباس، وابن العباس، وآل العباس، وآل عمر... جميع الصحابة اتفقوا على خلافة أبي بكر ؑ، والله تعالى لا يجمع الصحابة على ضلال، ولا يجمعون إلا على حق، وهذه حجة قوية على خلافة أبي بكر، أين الرافضة من هذا الإجماع؟ فالرافضة يقولون: إن أبا بكر مغتصب، وإنه تجرأ على ما ليس له، وإن الصحابة خانوا هذه الأمانة التي هي عهد لعليّ، وأن النبي ﷺ عهد إليه بالخلافة، ولكن خانوا وكتموا، وبايعوا أبا بكر ؑ خيانة وضلالاً، هكذا قالوا، وهذا معناه أنهم كلهم أجمعوا على هذا الظلم، وحاشاهم من ذلك!

ولا شك أنهم عندما بايعوا أبا بكر ؑ عملوا بتلك الإشارات التي وجدوها، فإن النبي ﷺ لما قالت له تلك المرأة: أَرَأَيْتَ إِنْ جِئْتُ فَلَمْ أَجِدْكَ؟ كَاتِبًا تَرِيدُ الْمَوْتَ، فمن آتى بعدك لقضاء حوائجي؟ فقال: «إِنْ لَمْ تَجِدْنِي فَأِنِّي

أبا بكر^(١)، فمعنى هذه الإحالة أن أبا بكر يكون الخليفة بعدي، وهذا ما كان. كذلك الحديث الذي روته عائشة وهي من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، لا يمكن أن تكذب في حق أبيها، ولا غيره. ذكرت أن النبي ﷺ أراد أن يكتب كتاباً بالولاية لأبي بكر، «حَتَّى أَكْتُبَ لِأَبِي بَكْرٍ كِتَابًا»، أي: ائتوني بكتاب أكتب فيه عهداً لأبي بكر ﷺ، ولكن علم بأن الله تعالى يجمع الصحابة على توليته، فترك الكتابة ثقة بما كانوا عليه من معرفة حقه، وقال: «يَأْتِي اللهُ وَالْمُسْلِمُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ»^(٢)؛ يعني: أنهم يعرفون أحقيته وأقدميته.

وقد عُرف أن النبي ﷺ قدّمه في الصلاة لما ثقل عليه مرضه، وصعب عليه أن يتولّى الصلاة بهم، وبقي عدة أيام لا يستطيع ذلك، وكان الذي يصلي بالمسلمين أبو بكر رضي الله عنه، لما قال: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ!» فقالت عائشة - رضي الله عنها -: «إِنَّهُ رَجُلٌ رَقِيقٌ إِذَا قَامَ مَقَامَكَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ»، قَالَ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ» فَعَادَتْ فَقَالَ: «مُرِي أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ فَإِنَّكَ نَصَوَاحِبُ يَوْسُفَ»^(٣). فأكد أن أبا بكر ﷺ هو الذي يصلح أن يكون إماماً، وقد تولّى هذه الإمامة التي هي الصلاة في حياة النبي ﷺ، فلما أن توفي النبي ﷺ نظر الصحابة في خلافة أبي بكر ﷺ فقالوا: رضينا لدنيانا من رضيه

(١) تقدم تخرجه (٤/ ٥٨٤).

(٢) تقدم تخرجه (٤/ ٥٨٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦٧٨)، ومسلم (٤٢٠) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

نبيّنا لديننا. نبيّنا ﷺ رضيه إمامًا لنا، رضيه لديننا وليصليّ بنا، وهذا دليل على أفضليّته؛ ولذلك نرضاه أن يكون إمامًا لنا في هذه الولاية التي فيها إصلاح ديانا، وضبط أحوالنا.

وقد ثبت أن النبيّ ﷺ خطب في آخر حياته، قبل مرضه بقليل، فقال: «إِنَّ عَبْدًا خَيْرُهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ وَيَبْنَ مَا عِنْدَهُ فَأَخْتَارَ مَا عِنْدَهُ» فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ ﷺ، وَقَالَ: «فَدَيْنَاكَ يَا أَبَانَا وَأُمَّهَاتِنَا»، فعجب الناس، أن النبيّ ﷺ يخبر عن هذا العبد الذي خيره الله، وأن أبا بكر يبكي ويقول هذه المقولة! فلما قال ذلك قال النبيّ ﷺ: «إِنَّ أَمَّنَ النَّاسَ عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أَبُو بَكْرٍ وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَأَتَّخِذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا وَلَكِنْ إِخْوَةَ الْإِسْلَامِ لَا تُبْقَيْنَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةَ إِلَّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ»^(١)، أليس ذلك دليلًا على أنه مقدّم في هذا الأمر؟ الخلة هي: المحبة التي تتخلل القلوب، إنه أحقّ أن يكون خليلاً، وأحقّ أن تكون له الخلة، ولو كنت متّخذًا خليلاً لكان أبو بكر أحقّ أن يكون خليلاً. ثمّ أمر أن تُسدّ النوافذ التي تطلّ على المسجد إلا نافذة أبي بكر ﷺ. فقد كان الصحابة قد بنوا بيوتًا فتحوا منها أبوابًا على الحرم، هذا الباب يدخل منه فلان، وهذا باب لفلان، فأمر بأن تُسدّ تلك الأبواب التي تُسمّى خوخات، وتبقى خوخة أبي بكر ﷺ، وفي ذلك إشارة إلى أنه سيتولّى الخلافة بعده، وأنه سيحتاج إلى أن يدخل المسجد ويتكرّر دخوله، أليس هذا دليلًا على أنه سيتولّى الخلافة، وعلم النبيّ ﷺ أنه سيكون والي

(١) تقدم تحريجه (٤/٥٨٣).

المسلمين بعده، فأمر بإبقاء خوخته حتى لا تتغير. كذلك قد مرّت كثيرٌ من الإشارات، ولكن مجموعها يكون صريحًا:

الإشارة الأولى: قصّة القليب: يقول ﷺ: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي عَلَى قَلِيبٍ»، والقليب: البئر التي فيها ماء، «عَلَيْهَا دَلْوٌ، فَزَعَتْ مِنْهَا مَا شَاءَ اللَّهُ» أي اجتذب الماء بالدلو، «ثُمَّ أَخَذَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ»، جعل أبا بكر ﷺ هو من أخذها بعده، «فَنَزَعَ مِنْهَا دَنُوبًا، أَوْ دَنُوبَيْنِ، وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ»، أي: ذلك لقصر خلافته، «ثُمَّ اسْتَحَالَتْ غَرْبًا، فَأَخَذَهَا ابْنُ الْخَطَّابِ»، والغرب: هو الدلو الكبير الذي يُسْتَقَى به من الآبار قديمًا، «فَلَمْ أَرْ عَبْرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَقْرِي قَرِيْبَهُ، حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بَعْطَنٍ»^(١)؛ وذلك لأنّ مدّته طالت عشر سنين، وفي مدّته اتسعت رقعة الإسلام، وكثرت الأموال في بيت المال.

أليس في هذا دليلًا على أن من يأخذ الخلافة بعده هو أبو بكر ﷺ؟ ولكن لا تطول مدّته، ويأخذها من بعده عمر ﷺ، فتطول مدّته.

أما الإشارة الثانية: فهي قصّة ذلك الدلو الذي تدلّ من السماء، يقول الرجل: «رَأَيْتُ كَأَنَّ دَلْوًا دَلَّى مِنَ السَّمَاءِ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ بِعَرِيقِهَا، فَشَرِبَ شُرْبًا ضَعِيفًا، ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِعَرِيقِهَا، فَشَرِبَ حَتَّى تَضَلَّعَ، ثُمَّ جَاءَ عُثْمَانُ فَأَخَذَ بِعَرِيقِهَا فَشَرِبَ حَتَّى تَضَلَّعَ، ثُمَّ جَاءَ عَلِيٌّ فَأَخَذَ بِعَرِيقِهَا فَانْتَشِطَتْ مِنْهُ،

(١) تقدم تخريجه (٤/٥٨٦).

فانتَضَحَ عَلَيْهِ مِنْهَا شَيْءٌ»^(١). أليس ذلك دليل على ترتيبهم بعد النبي ﷺ.

هذه الإشارات التي هي إما حقيقة واقعة أو أنها رؤيا فيها دليل واضح على أن هؤلاء يكونون خلفاء بعد رسول الله ﷺ.

وبكُلِّ حال، فإنَّ هذه الإشارات مجموعها يجزم بأنَّه نصٌّ صريح على أنه ﷺ قدَّم أبا بكر ﷺ وجعله خليفة بعده.

تأتي بعد ذلك قصَّة بيعته وتوليته الخلافة، وكيف اجتمع الصحابة رضوان الله عليهم على بيعته وفضِّلوه، ومعلوم أنهم لم يختاروه إلاَّ لميزة تميَّز بها، أليس هو أوَّل من أسلم من الرِّجال، فكما يقول الكلوذاني في عقيدته:

قَالُوا فَمَنْ بَعْدَ النَّبِيِّ خَلِيفَةً قُلْتُ الْمَوْحِدُ قَبْلَ كُلِّ مُوَحِّدٍ

حَامِيهِ فِي يَوْمِ الْعَرِيشِ وَمَنْ لَهُ فِي الْغَارِ أَسْعَدَ يَا لَهُ مِنْ مُسْعَدِ

الجمهور على أنَّ أبا بكر ﷺ أوَّل من أسلم من الرِّجال، فقد كان رجلاً عاقلاً موثوقاً كامل العقل، لما عرض النبي ﷺ عليه الإسلام، لم يتوقف، بل بادر، وقبل الدعوة، ودخل في الإسلام، ولما دخل في الإسلام صار أيضًا داعية لأكثر الصحابة الذين أسلموا في مكَّة، فأسلم عثمان، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو حذيفة، وسعد، كلهم بدعوة أبي بكر رضي الله عنهم.

أليس من فضائله أن يكون رفيق النبي ﷺ وصاحبه في الهجرة، فقد اختاره النبي ﷺ لصحبته بعد أن كان استعد للهجرة، فقال له النبي ﷺ: «أَقِم» فَقَالَ:

(١) تقدم تخرجه (٤/٥٨٦).

يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَطْمَعُ أَنْ يُؤْذَنَ لَكَ؟ فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنِّي لَأَرْجُو ذَلِكَ»، فَلَمَّا أذِنَ لَهُ، قَالَ: «أَشَعْرَتٌ أَنَّهُ قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ؟»، قَالَ: الصُّحْبَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «الصُّحْبَةُ»^(١). أَي: سوف تصحبنى. ومعروف أنه صاحبه في الغار، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿إِلَّا نُنصِرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

لا شك أن هذه الصحبة لا يناها إلا مثله، فهو ﷺ جمع نفسه مع النبي ﷺ، وعرض نفسه للقتل، المهاجرون غيره هاجروا بحجة أو بعلم، ولم يتعرض لهم المشركون، أما أبو بكر ﷺ والنبي ﷺ، فإن المشركين قد عزموا على قتل رسول الله ﷺ، فلما اجتمع معه أبو بكر ﷺ عزموا على أن يقتلوا أبا بكر معه، وجعلوا المن أتاهم بكل منهما مئة من الإبل، فعند ذلك أمرهما الله بأن يخرجوا بخفية، فخرجوا ليلاً، ودخلا في غار ثور ثلاثة أيام، يأتيهما عامر بن فهيرة بغنم لأبي بكر ﷺ، يحلب لهما ويسقيهما، وكذلك يأتيهما عبد الرحمن بن أبي بكر بالأخبار في الليل ثم يرجع. ليس مبيت أبي بكر ﷺ مع النبي ﷺ من التعرض للأذى، ومن الفداء له بنفسه؟ هذه ميزة لا يلحقه بها غيره، وكذلك صحبته له من مكة إلى المدينة، اثنان على راحلتين، ليس معهما إلا رجل مشرك يدلهم الطريق.

كذلك عندما خرج النبي ﷺ في غزوة بدر، ولما كانت الليلة التي وقعت

(١) أخرجه البخاري (٤٠٩٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الوقعة في صبيحتها، بات النبي ﷺ طوال الليل يصلي ويتهجد، وبات أبو بكر ؓ معه يحميه ويحرسه، وكلما سقط رداؤه عنه رده عليه أبو بكر ؓ، وقال آخر ما قال: «يا نبي الله كفناك مناشدتك ربك، فإنه سيُنجزُ لك ما وعدك»^(١).

هذه من الميزات التي ميز الله بها أبا بكر ؓ ليكون أهلاً للخلافة بعد رسول الله ﷺ. والصحابة الذين بايعوه علموا أهليته وكفاءته، فإذا نظرنا في سيرته ؓ، وكيف ضبط الأمور، وكيف نظم الجيوش، فأرسل الرسل للدعوة، وفي سنة واحدة كان ناس من العرب قد ارتدوا، ولم يبق إلا أهل مكة والمدينة والطائف، أما الأعراب حولهم، فقد ارتدوا إلا ما شاء الله، كيف قوي أبو بكر ؓ على ضبط هذه البلدة، مع أن الناس كلهم قد رموهم عن قوس العداوة، ولكن حزمه وفطنته وسياسته وسيرته دلّت على أنه ذكي عارف، ضبط الأمور إلى أن رجع في أقل من نصف سنة من كان ارتدّ، واجتمعت العرب كلهم في هذه السنة على الرجوع على الإسلام، وقاموا به بعدما كانوا تركوه، وذلك لفراسته القويّة التي تدلّ على حنكته وأهليته، وأن الله تعالى ما اختاره في هذه المرحلة الحرجة إلا لأهليته؛ لذلك يقول العلماء: إن الله حفظ الإسلام برجلين: أبي بكر ؓ يوم الردّة، وأحمد بن حنبل يوم المحنة.

ولأجل ذلك سمّاه الله تعالى بالصّدّيق، وقد سمّي بالصّدّيق أخذاً من قول الله تعالى في سورة الزمر: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر: ٣٣]، الذي

(١) أخرجه مسلم برقم (١٧٦٣) من حديث عمر بن الخطاب ؓ.

جاء بالصدق: النبي ﷺ، والذي صدق به: أبو بكر ؓ. فهذه بلا شك تدل على أهليته. وقد أجمع الصحابة على تسميته بالصدِّيق مبالغة في الصدق، والصدِّيقية هي الرتبة التي تلي النبوة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء: ٦٩]؛ بدأ بالصدِّيقين، ثم الشهداء والصالحين، والصدِّيقون: هم المبالغون في التصديق، وأبو بكر ؓ على رأسهم.

فهذه الميزات والفضائل هي التي جعلته أهلاً لأن يتولَّى أمر المسلمين، لكن طمس الله قلوب الرافضة، وأعمى بصائرهم، وحال بينهم وبين الحق فولدوا أكاذيب في أنه مغتصب، وأن الصحابة كلهم خونة، وأن علياً مظلوم، وجعلوه أيضاً من الظالمين؛ لأنه أقرّ بخلافة أبي بكر، وبإيعه، وصبر على خلافته في زمانه، ولم يطالب بالخلافة، بل كان عليٌّ يصلي خلفه طيلة مدة خلافته، ولم يقل أحد أن علياً كان له محراب، أو أنه كان يصلي وحده، وحاشاه ترك الجماعة، أليس في ذلك دليلاً على أنه أقرّ خلافته، وأنه رضي به كما رضي به بقية المسلمين.

في القرون السابقة قد يكون الرافضة معذورين؛ لأنهم لم يطلعوا على سير الصحابة رضوان الله عليهم، ولم تنتشر كتب السلف، ولم تشتهر الأحاديث التي فيها؛ لكونها مخطوطة في المكتبات الكبيرة، فلا يمكن انتشارها، ولا يalfون دخول هذه المكتبات، ولا ينسخونها، وإنما ينسخون ما يناسبهم من مؤلفات مشايخهم، ولكن في هذه الأزمنة لا شك قد قامت عليهم الحجة؛ لأن الحق قد استبان، ولكنهم عاندوا وأصروا واستكبروا عن الحق، وإلا لا عذر لهم، فالآن كتب

السنة وكتب الحديث وكتب السلف، بعد أن كان لا يوجد منها إلا نسخة أو اثنتان، توجد الآن ألوف منها في متناول الجميع، في إمكانهم أن يقرؤوها، بل قرأوها، ولكن أصروا واستكبروا.

كذلك في هذه الأزمنة وجدت الأشرطة التي فيها سيرة السلف، ولكتهم أصروا واستكبروا على العناد والبدع الشنيعة، وكذلك تنشر سير الصحابة رضوان الله عليهم ومآثرهم في الصحف وفي المجلات وفي الإذاعات، لا شك أن أولئك الشيعة يقرؤونها ويسمعونها، ولكنهم مع ذلك كلّه أصروا واستكبروا استكباراً، وكذلك تدرّس فضائل الصحابة في المناهج الدراسية في المدارس، وهم يدرسونها ويقرؤونها، وقد عرفوا صحّة ما فيها وثبوتها؛ لأنه يعتمد على الدليل، وعلى النقل الصحيح، ولكنهم أيضاً أصروا واستكبروا استكباراً؛ فهم قد قامت عليهم الحجّة، وليسوا كقدمائهم الأولين، وتمكّنوا بما لم يتمكّن منه أولئك.

أما بالنسبة إلى أهل السنة فقد كانوا في الزمان القديم لا يقرؤون كتب الرافضة، ولا يتمكّنون من الوصول إليها؛ لأن الروافض كانوا يخفونها، بل يخفون عقائدهم ولا يتمكّنون أحداً من قراءتها، وذلك لما فيها من فضائح، ومن أخطاء فاحشة، ومن الحمل على الصحابة رضوان الله عليهم، ولكن في هذه الأزمنة، لم يقدروا على إخفائها، بل طبعت كتبهم، وطبعت تفاسيرهم، واطّلع عليها أهل السنة، ورأوا فيها الفضائح، ونقلوا ما نقلوا منها، وردّوا عليهم الردود الواضحة، وجعلوها حجّة عليهم، وردّوا عليهم من كتبهم ذاتها، من تناقضهم، وأكاذيبهم وترهايمهم، وتأويلاتهم الفاسدة، وخرافاتهم التي يجعلونها أدلّة، اتّضح كذبها،

واتضح لكل عاقل أنها بعيدة عن الصواب، فبان بذلك كذبهم، وتناقضهم، واطلع على أسرارهم، ولكنهم مع ذلك كلّه أصروا واستكبروا.

في هذه البلاد معلوم أنّ المناهج موحّدة بالنسبة إلى السنّة والشيعّة، ولكن علماءهم يحرصون على ألا يقع في قلوب أبنائهم شيء مما درسوه على مدرّسيهم من أهل السنّة، فإذا تعلموا ذلك من السنّة الصحيحة، وسير الصحابة الأفاضل، عرضوا ذلك على شيخ أو كبير لهم، فيصوّب هذا ويخطئ هذا، ويقول: هذا لا تقولوا به، وهذا لا تعتقدوه، وهذا ليس بصحيح؛ فهذا يخالف معتقدكم، وهذا يخالف سيرتكم، حتى يمحوا أثر ما تلقى أولئك الطلاب من مدرّسيهم السنّيين، وحتى يقيهم على معتقد آبائهم وأجدادهم الباطل السيء، وهكذا سيرتهم.

ذكر لنا أحدهم أنّ هناك مدرّساً من أهل السنّة في إحدى البلاد التي يغلب على أهلها التشيع، فلما توجه أولئك الطلاب وفتّحوا، ورأى فيهم ذكاء، رأى أن يناقشهم بالدليل بالقرآن والسنّة الصحيحة، وأخذ يجعل لهم مجالس أسبوعيّة، يقرّر لهم فيها الحقّ، ويقول: نحن مع الحقّ أينما كان، إن كان معكم اتتونا به، وإن كان معنا أتينا به. واستمر معهم شهراً أو شهرين، ولكن انتبه أبأؤهم إلى أنّهم قد اقتنعوا بعض الاقتناع من هذا الشيخ، وأثر قليلاً في عقيدتهم، فعمدوا إلى هذا الشيخ وطرده وأبعده من بلادهم؛ لأنّ أبناءهم عرضوا عليهم توجيهاته، فلما وجدوا أنّها حُجج قويّة تغلبهم، قالوا: هذا سوف يفسد معتقدهم، ولا بدّ من إبعاده.

وهم بالنسبة إلى تولّيتهم، يحاولون اضطهاد أهل الخير، ويحاولون ألا يكون

لأهل السنة قوة ولا ملكة ولا نفوذ، ولا تسلط على شيء، فقد ذكر لنا بعض الإخوان من بعض البلاد التي يديرها مدرسون من الشيعة قرب المدينة النبوية، أن المدير شيعي، والمدرسون كلهم من الشيعة قد اتفقوا على ألا يدرّسوا الأولاد في المرحلة الابتدائية إلا دروساً قليلة، فلا يعلموهم هجاء ولا كتابة ولا قرآناً ولا تجويداً ولا حساباً، وأن ينجحوهم كل سنة من دون أن يعرفوا شيئاً، فإذا انتهى أحدهم إلى المرحلة المتوسطة وهو لا يحسن كتابة اسمه ترك الدراسة، ويبقون على جهلهم. وهذا من حيلهم، ليضربوا أهل السنة، كما قال تعالى:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطِغُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

فإذا من معتقد أهل السنة الاعتراف بخلافة الخلفاء الراشدين، وأن ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة، فأولهم وأفضلهم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي رضي الله عنهم أجمعين، وهم الخلفاء الراشدون الذين أمر النبي ﷺ بتابعهم، وسماهم الخلفاء، بقوله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمُهَدِّدِينَ الرَّاشِدِينَ»^(١)؛ شهادة هؤلاء بأئمة الخلفاء، وأئمة راشدون، وعلى الصراط المستقيم الذي سألوا الله أن يهديهم إياه.

وسيرة أبي بكر ﷺ معروفة، فهي أحسن السير؛ لأنه اقتدى بالنبي ﷺ في كل ما يفعل، فأنفذ جيش أسامة أول ما تولى، وبعث الجيوش لقتال المرتدين، فانتصر الإسلام، بعد أن كان العرب قد رموا أهل المدينة عن قوس العداوة، انتصر

(١) تقدم ترجمته (١/ ٤٣).

الإسلام في أربعة أشهر أو أقل، أرسل جيشًا لقتال بعض المرتدّين، فهدى الله طيًّا ومن معهم، فلما رأهم أولئك العرب والذين معهم فانضموا إليهم، ولم يمض إلا شهران أو ثلاثة أشهر حتى بعث أبو بكر ستة عشر أميرًا أو سبعة عشر لقتال المرتدّين البعيدين، انضموا كلهم إلى الإسلام، ورجعوا إليه، أليس ذلك دليلًا على حنكته وبراسته وقوته في أمر الله تعالى، ودليلًا على أن الله سدّده وهدى به، ونصر به الإسلام.

الرافضة بأيّ شيء يطعنون فيه، لما أتهم رخوا فيما يروونه أن عليًّا هو الإمام، في الحديث الذي يسمونه حديث الغدير، مع أن أكثره كذب، وفيه: أنه ﷺ قال: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَإِنَّ عَلِيَّ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ»^(١)؛ نقول: هذا صحيح. إن عليًّا من النبي ﷺ بمنزلة هارون من موسى، وهو مولى المسلمين، وكذلك نقول في أبي بكر ﷺ وفي بقية الخلفاء وسائر الصحابة، هم موالى المسلمين، وليست الولاية إلا ما تقتضي المحبة، فإذا كان عليّ وليًّا للمؤمنين ووليًّا للنبي ﷺ، والنبي ﷺ وليًّا للمؤمنين أيضًا، فكذلك بقية الصحابة رضوان الله عليهم، وليس هناك دليل على أن عليًّا ﷺ اختصّ بالولاية دون غيره، ودعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ»، دعاء صحيح إذا ثبت، نحن نواليه ونحبه، ولكن لا نفرط في حبه، ولا نجعله أحق بالولاية من أبي بكر ﷺ وغيره من الخلفاء، بل نجعلهم كلهم أهل ولاية وأهل محبة وأهل ترصُّ، وكذلك

(١) تقدم تخرجه (٤ / ٥٧٠).

بقية الصحابة الأبرار، ونجعل من حقهم علينا أن نواليهم وأن نحبهم. طعن الرافضة في أبي بكر طعنًا واحدًا؛ وهو أنه: لم يُعطِ فاطمة حقها من الميراث، ولم يورثها! هذا هو الذي طعنوا عليه فيه، وتحاملوا عليه تحاملاً شديداً، وأنكروا قول النبي ﷺ: «لَا نُورَثُ، مَا تَرَكَنَا صَدَقَةٌ»^(١)، مع ثبوته بطرق كثيرة، وجعلوا قول ذلك من أبي بكر ﷺ كذباً، مع أنه لم ينفرد بذلك، وجعلوه ﷺ مهتماً لأمر الدنيا، وأن الدنيا أكبر همّه، مع أنه يقول: «مَالِي وَلِلدُّنْيَا، مَا مِثْلِي وَمِثْلُ الدُّنْيَا إِلَّا كَرَائِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»^(٢).

ومع ما ثبت عن الحارث بن أبي ضرار أنه قال: «مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ دِرْهَمًا وَلَا دِينَارًا وَلَا عَبْدًا وَلَا أَمَةً وَلَا شَيْئًا إِلَّا بَغْلَتُهُ الْبَيْضَاءُ وَسِلَاحُهُ وَأَرْضًا جَعَلَهَا صَدَقَةً»^(٣). فبأي شيء يتقدون أبا بكر ﷺ ويقولون: إنه منع فاطمة - رضي الله عنها - حقها من أبيها؟
أولاً: الرّسل لا يورثون.

(١) أخرجه البخاري (٣٠٩٤)، ومسلم (١٧٥٧) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ، وأخرجه البخاري (٣٠٩٣)، ومسلم (١٧٥٨) من حديث عائشة رضي الله عنها، وأخرجه مسلم (١٧٦١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٣٠١/١)، وعبد بن حميد (٥٩٩)، وصححه الحاكم (٣٠٩/٤) ووافقه الذهبي من حديث ابن عباس رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٣٩).

وثانيًا: الدنيا ليست ذات أهمية عندهم حتى يخلفوها لأولادهم، ويقولون: لهم أن يرثوا، ولهم أن يأخذوا.

وثالثًا: الأرض التي جعلها صدقة قد صار عليٌّ هو المتولي عليها بعد موت فاطمة.

وبكل حال: فهذا أكبر ما طعنوا فيه، ولما قالوا هذا، أخذوا يجمعون ويلفّقون عليه الأكاذيب، ويعيبونه بكل عيب، ويقولون: إنه قاتل المسلمين، وهم يقولون: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. نعم، لكنهم لما فرّقوا بين الصلاة والزكاة، لم يكونوا مقرّين بالشهادة حقّ الإقرار، فلأجل ذلك رأى قتالهم وسماهم بالمرتدين، وأنه أقرّ خالدًا عليّ القتال، ويكفرون خالدًا بأمور أخذوها عليه، نقول: نعم: أقرّه؛ لأنه رآه أهلاً للقتال، وليس خالد قريبًا له، ولا صهرًا، بل هو سيف الله الذي سماه النبي ﷺ، فماذا نعموا عليه حتى يسبّوه ويلعنوه ويشتموه؟!!

إذا أبو بكر جعله النبي ﷺ خليفة في الصلاة كما سبق، وتقديمه بالصلاة دليل على أوليته، ودليل على أهليته للإمامة، كذلك أيضًا هو دليل على ميزته وكفاءته، وفيه إشارة إلى أنه سيخلفه ويقوم مقامه، بدليل خوخته التي لا تسدّ بأمر النبي ﷺ، فذلك إشارة إلى أن له أحقية في المسجد وفي الولاية، وكذا مرّ قوله ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكرٍ وعمر»^(١) فبدأ بأبي بكر، فدلّ على أنه يتولى بعده، وهذا ما وقع، ثم تولى عمر ﷺ.

(١) تقدم تحريجه (٤/٥٨٣).

فإذا هذه الإشارات واضحة في أن أبا بكر رضي الله عنه هو الخليفة بعده. وكذلك حديث القليب الذي سبق ذكره^(١)، وفيه إشارة إلى قصر خلافة أبي بكر رضي الله عنه، ومدة خلافة عمر رضي الله عنه الطويلة، وفي عصره فُتحت البلاد، وهذا - بلا شك - دليل على أنهما خليفتان بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وكذلك في الرؤيا التي رآها بعض الصحابة في الدلو الذي دلي من السماء... وفيه إشارة إلى تولي أبي بكر ثم عمر رضي الله عنهما^(٢)، وكذلك كثير من الإشارات، كقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا»^(٣). وأبو بكر رضي الله عنه هو الخليفة الراشد الذي تولّى أمر المسلمين، وسار فيهم السيرة الحسنة، وبعده لم يولّ الخلافة لأولاده ولا لأقاربه ولم يحاب بها أحدًا، وكذلك في خلال ولايته لم يولّ الأمراء لأجل قرباتهم أو محاباة، وإنما اختار منهم من فيه الأهلية والكفاءة، حتى ولو لم يكونوا من قريش، فولّى خالدًا رضي الله عنه وغيره لأهليتهم.

إذا نشهد أن أبا بكر رضي الله عنه أهل للخلافة، وأن الله عندما اختاره خليفة، وواليًا للمسلمين كان ذلك عين المصلحة، وهو الذي ثبت الله به الإسلام، وردّ به المسلمين، بعدما كادوا أن يخرجوا من الإسلام، وهو من سمّي بالصدّيق، وهو الذي فتح الله به قلوب العباد، ورزقهم الإنابة إليه، والثبات على دينه.

(١) تقدم تخريجه (٤/٥٨٦).

(٢) تقدم تخريجه (٤/٥٨٦).

(٣) تقدم تخريجه (١/٦٢٩).

قال الشارح:

وَاحْتَجَّ مَنْ قَالَ لَمْ يَسْتَخْلِفْ بِالْخَيْرِ الْمَأْتُورِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ عُمَرَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ قَالَ: إِنْ أَسْتَخْلِفُ فَقَدْ اسْتَخْلَفَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، يَعْنِي:
أَبَا بَكْرٍ، وَإِنْ لَا أَسْتَخْلِفُ، فَلَمْ يَسْتَخْلِفْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، يَعْنِي رَسُولَ اللَّهِ
ﷺ ^(١)

وَبِمَا رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَتَاهَا سُئِلَتْ مَنْ كَانَ رَسُولَ اللَّهِ
مُسْتَخْلِفًا لَوْ اسْتَخْلَفَ؟ ^(٢)

وَالظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَخْلِفْ بِعَهْدِ مَكْتُوبٍ، وَلَوْ كَتَبَ عَهْدًا
لِكُتْبِهِ لِأَبِي بَكْرٍ، بَلْ قَدْ أَرَادَ كِتَابَتَهُ ثُمَّ تَرَكَهُ، وَقَالَ: «يَأْتِي اللَّهُ وَالْمُسْلِمُونَ إِلَّا أَبَا
بَكْرٍ» ^(٣)

كَانَ هَذَا أَبْلَغَ مِنْ مُجَرِّدِ الْعَهْدِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَلَّ الْمُسْلِمِينَ عَلَى اسْتِخْلَافِ أَبِي
بَكْرٍ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَيْهِ بِأُمُورٍ مُتَعَدِّدَةٍ، مِنْ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَأَخْبَرَ بِخِلَافَتِهِ إِخْبَارًا
رَاضٍ بِذَلِكَ، حَامِدٍ لَهُ، وَعَزَمَ عَلَى أَنْ يَكْتُبَ بِذَلِكَ عَهْدًا، ثُمَّ عَلِمَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ
يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ، فَتَرَكَ الْكِتَابَ اكْتِفَاءً بِذَلِكَ، ثُمَّ عَزَمَ عَلَى ذَلِكَ فِي مَرَضِهِ يَوْمَ
الْحَمِيسِ، ثُمَّ لَمَّا حَصَلَ لِبَعْضِهِمْ شَكٌّ: هَلْ ذَلِكَ الْقَوْلُ مِنْ جِهَةِ الْمَرَضِ؟ أَوْ هُوَ

(١) أخرجه البخاري (٧٢١٨)، ومسلم (١٨٢٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٨٥).

(٣) تقدم تخرجه (٥٨٥/٤).

قَوْلٌ يَجِبُ اتِّبَاعُهُ؟ تَرَكَ الْكِتَابَةَ، اِكْتِفَاءً بِمَا عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ يَخْتَارُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ مِنْ خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ.

فَلَوْ كَانَ التَّعْيِينَ مِمَّا يَشْتَهُ عَلَى الْأُمَّةِ لَبَيَّنَهُ بَيَانًا قَاطِعًا لِلْعُنْزِ، لَكِنْ لَمَّا دَلَّهُمْ دَلَالَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ عَلَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الْمُتَعَيَّنُ، وَفَهِمُوا ذَلِكَ، حَصَلَ الْمَقْصُودُ. وَهَذَا قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه فِي خُطْبَتِهِ الَّتِي خَطَبَهَا بِمَحْضَرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ: «أَنْتَ خَيْرُنَا وَسَيِّدُنَا وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم»^(١)، وَلَمْ يُنْكَرْ ذَلِكَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَلَا قَالَ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ إِنَّ غَيْرَ أَبِي بَكْرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَمِيرٌ، وَهَذَا مِمَّا تَبَتَّ بِالنُّصُوصِ الْمُتَوَاتِرَةِ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بِطُلَانِهِ.

ثُمَّ الْأَنْصَارُ كُلُّهُمْ بَاتِعُوا أَبَا بَكْرٍ، إِلَّا سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ، لِكَوْنِهِ هُوَ الَّذِي كَانَ يَطْلُبُ الْوِلَايَةَ. وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ قَطُّ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم نَصَّ عَلَى غَيْرِ أَبِي بَكْرٍ، لَا عَلِيًّا، وَلَا الْعَبَّاسَ، وَلَا غَيْرَهُمَا، كَمَا قَدْ قَالَ أَهْلُ الْبِدْعِ!

وَرَوَى ابْنُ بَطَّةٍ بِإِسْنَادِهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ بَعَثَ مُحَمَّدَ بْنَ الزُّبَيْرِ الْحَنْظَلِيَّ إِلَى الْحَسَنِ، فَقَالَ: هَلْ كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم اسْتَخْلَفَ أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ: أَوْ فِي شَكِّ صَاحِبِكَ؟ نَعَمْ، وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ اسْتَخْلَفَهُ، لَهُوَ كَانَ أَتَقَى لِلَّهِ مِنْ أَنْ يَتَوَثَّبَ عَلَيْهَا^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه ابن عساکر في تاريخ دمشق (٢٩٧/٣٠).

قال الشيخ:

تقدم القول الأول: أن خلافة أبي بكر رضي الله عنه بالنص، وهذا قول أئمة بالإشارة. فهما قولان للعلماء.

الذين قالوا بالنص، استدلوا بقوله ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر»^(١). فهذا نص، واستدلوا بقوله للمرأة التي قالت: «أرأيت إن جئت فلم أجذك؟» فقال: «إن لم تجدني فأني أبا بكر»^(٢)، فإن هذا هو الذي يتولى الأمر بعده. واستدلوا بكون النبي ﷺ أمره بأن يصلي بالناس في مرضه^(٣)، وهذا نص في أنه يكون إمامًا متبعا؛ ولهذا قالوا: رضينا لدنيانا من رضيه رسول الله ﷺ لدينا. يعني: من قدمه إمامًا علينا في الصلاة.

أما القول الثاني: إنه لم يستخلف، وإنما أشار إشارات، وإن عمر رضي الله عنه قال: «وإن لا أستخلف، فلم يستخلف من هو خير مني، يعني رسول الله ﷺ»، هكذا قالوا: إن عمر رضي الله عنه شهد بأن النبي ﷺ لم يستخلف.

نقول: لم يستخلف بالنص، فهو لم يقل: أيها الناس بايعوا أبا بكر، فهو خليفتي عليكم. لكن قد عزم على أن يكتب له كتابًا، وقال لعائشة رضي الله عنها: «ادعي لي أبا بكر وأخاك حتى اكتب كتابًا»، حتى لا يختلفوا عليه، ثم إنه ترك

(١) تقدم تحريجه (٤/٥٨٣).

(٢) تقدم تحريجه (٤/٥٨٤).

(٣) تقدم تحريجه (٤/٥٨٥).

(٤) تقدم تحريجه (٤/٦٠٤).

الكتاب، وقال: «وَيَأْتِي اللهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ»^(١)، فهو لم يقل: بايعوا أبا بكر، أو أبو بكر خليفتي! لكن مجموع هذه الإشارات يصبح نصًّا ودليلاً واضحاً لا خلاف فيه.

ومرّ بنا كلام الحسن بن علي عليه السلام، الذي هو الإمام الثاني عند الرافضة، لما قيل له: هل أبو بكر استخلفه الرسول أو لا؟ قال: هو أروع من أن يتوثب عليها. يعني: لم يكن راغباً بالولاية، ولا متعلقاً فيها، ولكن لما اجتمعت عليه كلمة المسلمين، وجاءت هذه الإشارات باستخلافه قبلها، وإلا فهو وروع وزاهد ولا يمكن أن يقبلها من دون أن يكون أهلاً لها، ومن دون أن يجمع عليه أهل الحلّ والعقد من الصحابة رضي الله عنهم. فالنبي صلى الله عليه وآله أشار هذه الإشارات التي تدلّ على أن أبا بكر عليه السلام أحقّ بالإمامة، وعمر عليه السلام رأى أنه أحقّ بالولاية فبايعه، وبايعه بقية الصحابة لم يتخلفوا في أول يوم.

وقبل بيعة أبي بكر وبعد موت النبي صلى الله عليه وآله اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة، وأرادوا أن يبايعوا واحداً منهم أميراً، وهو سعد بن عبادة عليه السلام، فلما سمع بهم عمر وأبو بكر وأبو عبيدة رضي الله عنهم ذهبوا إليهم وخاطبهم أبو بكر لما قالوا: «مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ»، بقوله: «نَحْنُ الْأَمْرَاءُ وَأَنْتُمْ الْوُزَرَاءُ»، فتمت البيعة في السقيفة نفسها. فبايعوا أبا بكر واجتمعوا عليه^(٢)، ولم يتخلف أحد منهم،

(١) تقدم تحريجه (٤/٥٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٦٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وسعد بن عباد لم يبايع تلك الساعة عسى أن يكون له شيء في الإمارة، ولكنه فيما بعد بايع بيعة مختار راضٍ، وكذلك عليّ ؑ، قيل: إنه تأخر عن البيعة، ثم بايع. والصحيح أنه بايع باختياره وطوعه، ولما علمه من أهلية أبي بكر وأحقّيته بالخلافة، وقد ثبت أبو بكر ؑ من خلال أهليته وحنكته وسياسته فإن الله اختاره للإسلام والمسلمين في ذلك الوقت الحرج، الذي هم أشد ما يكونون حاجة إلى خليفة قويّ حازم يقيم فيهم أمر الله تعالى، ويحكم أمورهم، فيسرّ الله لهم أبا بكر ؑ، وأنعم عليهم بخلافته في ذلك الوقت.

قال الشارح:

وَفِي الْجُمْلَةِ: فَجَمِيعُ مَنْ نُقِلَ عَنْهُ أَنَّهُ طَلَبَ تَوَلِيَةَ غَيْرِ أَبِي بَكْرٍ، لَمْ يَذْكَرْ حُجَّةً دِينِيَّةً شَرْعِيَّةً، وَلَا ذَكَرَ أَنَّ غَيْرَ أَبِي بَكْرٍ أَفْضَلُ مِنْهُ، أَوْ أَحَقُّ بِهَا، وَإِنَّمَا نَشَأَ مِنْ حُبِّ قَبِيلَتِهِ وَقَوْمِهِ فَقَطْ، وَهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَ فَضْلَ أَبِي بَكْرٍ ﷺ، وَحُبَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَهُ. فَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»^(١) عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَهُ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السَّلَاسِلِ، فَاتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: عَائِشَةُ، قُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَ: أَبُوهَا، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: عُمَرُ، وَعَدَدُ رِجَالًا».

وَفِيهَا أَيْضًا، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: «كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ آخِذًا بِطَرْفِ ثَوْبِهِ، حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: إِنَّهُ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الْخَطَّابِ شَيْءٌ فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ، ثُمَّ نَدِمْتُ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي، فَأَبَى عَلَيَّ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ، فَقَالَ: يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، ثَلَاثًا، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ نَدِمَ، فَأَتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ، فَسَأَلَ: أَأَنْتُمْ أَبُو بَكْرٍ؟ فَقَالُوا: لَا، فَأَتَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَجَعَلَ وَجْهَ النَّبِيِّ ﷺ يَتَمَعَّرُ، حَتَّى أَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ فَجَنَأَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وَوَأَسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي؟ مَرَّتَيْنِ، فَمَا أُودِي بَعْدَهَا»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٦١)، ولم يخرج مسلم كما ذكر الشارح.

وَمَعْنَى: غَامَرَ: غَاظَبَ وَخَاصَمَ. وَيَضِيقُ هَذَا الْمُخْتَصِرُ عَنْ ذِكْرِ فَضَائِلِهِ.
 وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» أَيْضًا، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَاتَ
 وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ. فَذَكَرَتِ الْحَدِيثَ. إِلَى أَنْ قَالَتْ: وَاجْتَمَعَتِ الْأَنْصَارُ إِلَى سَعْدِ
 بْنِ عُبَادَةَ، فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ، فَقَالُوا: مِنَّا أَمِيرٌ، وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ! فَذَهَبَ إِلَيْهِمْ أَبُو
 بَكْرٍ، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، فَذَهَبَ عُمَرُ بِتَكَلُّمٍ، فَأَسْكَنَتْهُ أَبُو
 بَكْرٍ، وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا أَرَدْتُ بِذَلِكَ إِلَّا أَنِّي هَيَأْتُ فِي نَفْسِي كَلَامًا قَدْ
 أُعْجِبَنِي، خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْلُغَهُ أَبُو بَكْرٍ! ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ، فَتَكَلَّمَ أَبْلَغَ النَّاسِ، فَقَالَ
 فِي كَلَامِهِ: نَحْنُ الْأُمَرَاءُ، وَأَنْتُمْ الْوُزَرَاءُ، فَقَالَ حُبَابُ ابْنُ الْمُنْذِرِ: لَا وَاللَّهِ لَا نَفْعَ لَ،
 مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَا وَلَكِنَّا الْأُمَرَاءُ وَأَنْتُمْ الْوُزَرَاءُ، هُمْ أَوْسَطُ
 الْعَرَبِ، وَأَعَزُّهُمْ أَحْسَابًا، فَبَايَعُوا عُمَرَ، أَوْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ، فَقَالَ عُمَرُ: بَلْ
 نُبَايِعُكَ، فَأَنْتَ سَيِّدُنَا، وَخَيْرُنَا، وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ، فَبَايَعَهُ،
 وَبَايَعَهُ النَّاسُ، فَقَالَ قَائِلٌ: قَتَلْتُمْ سَعْدًا، فَقَالَ عُمَرُ: قَتَلَهُ اللَّهُ»^(١).
 وَالسُّنْحُ: الْعَالِيَةُ، وَهِيَ حَدِيقَةٌ بِالْمَدِينَةِ مَعْرُوفَةٌ بِهَا.

قال الشيخ:

معلوم أن التقديم يدل على الفضل، والاختيار يدل على الأهلية. وهم ما
 قدموا أبا بكر ﷺ إلا لفضيلته، ولا اختاروه خليفة إلا لكونه كفوًا لهذه الولاية،

(١) تقدم تخرجه (٦٠٨/٤).

ولذلك أجمعوا عليه، ونزه الله الأمة أن تجتمع على خطأ أو ضلالة، وقد ذكر العلماء أن إجماع الأمة حجة قاطعة، ويعترف بذلك الرافضة، ولكنهم ها هنا خالفوا معتقدهم، ونقول لهم: من الذي خالف في بيعة أبي بكر؟ سموا لنا شخصاً لم يرض بهذه البيعة فيما بعد؟ فعليّ الذي هو الإمام قد بايعه وجاهد معه، وصار مستشاراً له، وقريباً له في كل تدبيراته، يرجع كل منهما إلى قول الآخر، ولم ينقل عنه أنه سخط ببعته أو أنكرها، فهو من جملة من بايع.

وأما سعد بن عبادة الأنصاري رضي الله عنه فقد كان هياً نفسه ليكون أميراً للأنصار، ولكنه لما تمت البيعة لأبي بكر رضي الله عنه بايعه، وكان كسائر المقتدين بأبي بكر وكأحد الرعية.

في هذه الأحاديث دليل على فضيلة أبي بكر رضي الله عنه، وأن النبي صلى الله عليه وآله كان يحبه ويقدمه. فهذا عمرو بن العاص من أكابر قريش لما أمره النبي صلى الله عليه وآله على سرية تعرف بذات السلاسل، قبل أن يخرج جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله، وقال له: «أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «عَائِشَةُ»، قَالَ: «مِنَ الرَّجَالِ؟ قَالَ: «أَبُوهَا». فهذا دليل المحبة، وإن كان النبي يحبه ويقدمه فذلك لأهليته. وقد ذكر عمرو أنه صلى الله عليه وآله سمى بعده رجلاً^(١). وفي الحديث الثاني أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وَوَأَسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِصَاحِبِي؟»^(٢)

(١) تقدم الحديث (٣/٨٣).

(٢) تقدم تحريجه (٤/٦٠٩).

وذلك بأنه أول من أسلم من الرجال على الصحيح.

ويقول الكلوذاني في عقيدته:

قَالُوا فَمَنْ بَعْدَ النَّبِيِّ خَلِيفَةً قُلْتُ الْمَوْحِدُ قَبْلَ كُلِّ مُوَحِّدٍ
حَامِيهِ فِي يَوْمِ الْعَرِيشِ وَمَنْ لَهُ فِي الْغَارِ أَسْعَدَ يَا لَهُ مِنْ مُسْعِدٍ

فكان الموحد قبل كل موحد؛ لأنه لما دعاه النبي ﷺ لم يتلعثم، ولم يتوقف، فبمجرد ما عرف الإسلام أسلم، ولم يقل دعني أنظر في أمري، كان رجلاً كاملاً. فلما دعاه إلى الإسلام قال: صدقت. فلذلك سمي بالصدّيق.

وكذلك أيضاً ما ذكر في حديث السقيفة، فقد جاء إليها ومعه عمر وأبو عبيدة رضي الله عنهم، وخاطب الأنصار - لما طلبوا أن يكون منهم الأمير - قائلاً: «نَحْنُ الْأَمْرَاءُ، وَأَنْتُمْ الْوُزَرَاءُ»، وذكر لهم أن النبي ﷺ أرشد أن الإمارة في قريش، فرضوا بذلك، ولما قال: «فَبَايَعُوا عُمَرَ، أَوْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجُرَّاحِ»، قال عمر رضي الله عنه: لم يقل كلمة تؤلني إلا هذه، ما كنت أحب أن أكون والياً على قوم فيهم أبو بكر. أي لأهليته وأحقّيته، فهم قدّموه لصحبته، ومحّبته عند النبي ﷺ، وكونه صهراً، وأهليته وكفايته وفضائله التي ذكرها الله في القرآن الكريم: ﴿ثَانِيًا أَتَيْنَ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَكْفِيكَ اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقوله تعالى:

﴿وَسَيَجْزِيهَا الْأُنْفَىٰ (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا

أَنْبَاءً وَجُودِيَةً الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَسَوْفَ يُرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٧ - ٢١]، وغير ذلك من فضائله الكثيرة، ومن أراد أن يتوسّع فيها فليرجع إلى ترجمته وإلى ما كتبه عنه العلماء، ومن

أشهرها كتاب «فضائل الصحابة» للإمام أحمد، وهو مطبوع في مجلدين.
وفضيلته في حروب الردة معروفة للجميع، فبعد أن مات النبي ﷺ ارتد
الأعراب عن الإسلام، حتى قال قائلهم^(١):

أَطَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ مُذْ كَانَ بَيْنَنَا
فَيَا لِعِبَادِ اللَّهِ مَا لِأَبِي بَكْرٍ

يعني: ما لنا ولطاعته، إنما طاعتنا للرسول ﷺ وهو موجود بيننا.
ولكن لما أن الله استخلفه على المسلمين كان ذلك عين المصلحة التي أيد الله
بها الإسلام في ذلك الوقت العصيب، والوقت الشديد، فقد سار فيهم السيرة
الحسنة، وخلف النبي ﷺ فيما كان يفعله، لم يترك شيئاً يفعله إلا فعله، مثل توزيعه
للغنائم، وتقسيمه الخمس الخمس، وإعطائه لمن كان يعطيهم النبي ﷺ من سهم
ذوي القربى، وتوزيعه للصدقات، ولم يأل جهداً أن يفعل كفعل النبي ﷺ.

ولكن لما لم يعط فاطمة - رضي الله عنها - ميراثها من أبيها، نقت عليه
الروافض، وطعنوا في خلافته وإمامته، وصاروا يسبونه ويشتمونه، زعمًا منهم أنه
خان الأمانة، وأنه أخلف ما جاء من سيرة من قبله، ومعلوم أنه ﷺ لم يترك
تركة، وثبت عنه أنه قال ﷺ: «لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ»^(٢)، وتقدم
حديث الحارث بن أبي ضرار أنه قال: «مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ دِرْهَمًا
وَلَا دِينَارًا وَلَا عَبْدًا وَلَا أُمَّةً وَلَا شَيْئًا إِلَّا بَغْلَتَهُ الْبَيْضَاءُ وَسِلَاحَهُ وَأَرْضًا

(١) ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق (٩/١٢٥) ونسبه إلى حارثة بن سراقه الكندي.

(٢) تقدم تخريجه (٤/٦٠١).

جَعَلَهَا صَدَقَةً»^(١). فهذه شهادة من هذا الرجل الذي ليس من قريش، وإنما هو من بني المصطلق، وهو أب لإحدى أمّهات المؤمنين، وهي جويرية بنت الحارث. وقد أخبر بهذا الخبر، فدلّ على أنّه عليه الصلاة والسلام لم يكن وراءه تركة، حتّى لا يقول أحد إنّ أبا بكر رضي الله عنه لم يُعْطِ فاطمة رضي الله عنها حقّها، فما أعظم فريتهم! وما هذا من شدّة محبتهم لفاطمة رضي الله عنها، بل كان رسول الله صلى الله عليه وآله أشدّ منهم محبة لفاطمة رضي الله عنها، فهي بضعة منه، لو أراد أن يعطيها لأعطاه في حياته، فقد ورد: «أَنَّ فَاطِمَةَ اشْتَكَّتْ مَا تَلَقَى مِنَ الرَّحَى مِمَّا تَطْحَنُ، فَبَلَغَهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله أَبِي سَبَبِي فَأَتَتْهُ تَسْأَلُهُ خَادِمًا»، فلم يعطها شيئًا من ذلك، بل باع السببي، وتصدّق به وأعطاه للمستضعفين من أهل الصّفة وغيرهم، وأرشداهم مع زوجها إلى التسبيح والتكبير والتحميد عند النوم، وقال: «فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمُوهُ»^(٢).

فكيف يغار هؤلاء الرافضة لفاطمة والنبي صلى الله عليه وآله يجرمها ولم يعطها، وقال صلى الله عليه وآله لها أيضًا: «سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا»^(٣). ولو كان عنده مال لأخذت منه في حياته، فكيف يقولون: إنّه منعها من ميراثها؟! ومعلوم أنّ الأنبياء لا يورثون، والرافضة يتمسكون بآيات فيها شيء من ذكر

(١) تقدم تخرجه (٦٠١/٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣١١٣)، ومسلم (٢٧٢٧) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.(٣) أخرجه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الميراث، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦]. ويقولون: هذا دليل على أن الأنبياء يورثون!

عجباً لهم؛ الآية إنما فيها إرث النبوة، فهو ورثه في نبوته، بمعنى أنه ورثه في ملكه، فكان نبياً بعده، وكان ملكاً بعده. ومعلوم أن داود - عليه السلام - له أولاد كثير؛ لأن له نساء كثيرات، فكيف خصّ داود سليمان عليهما السلام بالإرث، إنما هو إرث النبوة. وكذلك يستدلون بقصة زكريا عليه السلام: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَسْعَىٰ سَالِكًا عَلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ إِنْ كُنَّا نَعْلَمُ الْغُيُوبَ﴾ [مريم: ٥، ٦]؛ ويقولون: هذا دليل على أن زكريا - عليه السلام - طلب ولداً حتى يرثه! وهذا تأويل منكر منهم! كأنه لا هم للأنبياء إلا المال، لا والله! إنما أراد يرثني في النبوة ويرث علمي، ويرث العلم الذي خلفه آل يعقوب. أما أن يهتم بمن يرث ماله، فحاشاه! ليست الدنيا أكبر همّه حتى يطلب من ربه الولد من أجل ذلك، ومن أخبركم بأن زكريا - عليه السلام - كان ذا مال لكي يطلب ولداً يرثه؟

فهكذا يتقنون عن مثل هذه ليطعنوا في أبي بكر رضي الله عنه؛ ولأجل ذلك يكفرونه ويضلّون، ويقولون إنه خان الأمانة، وأنه خالف السيرة النبوية، ولم يقيم بما قام به، وأنه حرم فاطمة حقها، وأنه بخش علياً حقّه وهو الإمامة؛ لأنه - في زعمهم - هو الوصي، وغير ذلك من أكاذيبهم.

قال الطحاوي:

ثم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال الشارح:

أَي: وَنُتِبَتِ الْخِلَافَةَ بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وَذَلِكَ بِتَفْوِيضِ أَبِي بَكْرٍ الْخِلَافَةَ إِلَيْهِ، وَاتِّفَاقِ الْأُمَّةِ بَعْدَهُ عَلَيْهِ. وَفَضَائِلُهُ رضي الله عنه أَشْهُرُ مِنْ أَنْ تُنْكَرَ، وَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُذْكَرَ.

فَقَدَرُوهُ عَنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ أَنَّهُ قَالَ: «قُلْتُ لِأَبِي: يَا أَبَتِ، مَنْ خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم? فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، أَوْ مَا تَعْرِفُ؟ فَقُلْتُ؟ لَا، قَالَ: أَبُو بَكْرٍ، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: عُمَرُ، وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ: ثُمَّ عُمَرَانُ! فَقُلْتُ: ثُمَّ أَنْتَ؟ فَقَالَ: مَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»^(١).

وتقدم قوله صلى الله عليه وسلم: «اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر»^(٢).

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»^(٣)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: «وُضِعَ عُمَرُ عَلَى سَرِيرِهِ، فَتَكَنَّفَهُ النَّاسُ يَدْعُونَ وَيُنْشُونَ وَيُصَلُّونَ عَلَيْهِ، قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ، وَأَنَا فِيهِمْ، فَلَمْ يَرُعْنِي إِلَّا بِرَجُلٍ قَدْ أَخَذَ بِمَنْكِبِي مِنْ وَرَائِي، فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧١).

(٢) تقدم تحريجه (٥٨٣/٤).

(٣) برقم (٢٣٨٩)، وأخرجه أيضًا البخاري (٣٦٨٥).

عَلِيٍّ، فَتَرَحَّمْ عَلَى عُمَرَ، وَقَالَ: مَا خَلَفْتُ أَحَدًا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ بِمِثْلِ عَمَلِهِ مِنْكَ، وَإِيمُ اللَّهِ، إِنْ كُنْتُ لَاظُنُّ أَنْ يَجْعَلَكَ اللَّهُ مَعَ صَاحِبَيْكَ، وَذَلِكَ أَنِّي كُنْتُ كَثِيرًا مَا أَسْمَعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «جِئْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَإِنْ كُنْتُ لَارْجُو - أَوْ لَاظُنُّ - أَنْ يَجْعَلَكَ اللَّهُ مَعَهُمَا».

وَتَقَدَّمَ^(١) حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي رُؤْيَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَزْعِهِ مِنَ الْقَلْبِ، ثُمَّ نَزَعَ أَبِي بَكْرٍ، ثُمَّ اسْتَحَالَتِ الدَّلُوعُ غَرْبًا، فَأَخَذَهَا ابْنُ الْخَطَّابِ، فَلَمَّ أَرْعَبَقْرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَنْزِعُ نَزْعَ عُمَرَ، حَتَّى ضَرَبَ النَّاسَ بِعَطَنِ.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»^(٢)، مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ: قَالَ: «اسْتَأْذَنَ عُمَرُ ابْنَ الْخَطَّابِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَعِنْدَهُ نِسَاءٌ مِنْ قُرَيْشٍ، يُكَلِّمْنَهُ، عَالِيَةً أَصْوَاتِهِنَّ...». الْحَدِيثَ، وَفِيهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيه يَا ابْنَ الْخَطَّابِ! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا لَقَيْكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ».

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ»^(٣) أَيْضًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «قَدْ كَانَ فِي الْأُمَّةِ قَبْلَكُمْ مُحَدِّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنْهُمْ».

(١) تقدم الحديث (٤٩/٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٩٤)، ومسلم (٢٣٩٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٦٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسلم (٢٣٩٨) من حديث عائشة

رضي الله عنها.

قَالَ ابْنُ وَهْبٍ: تَفْسِيرُ «مُحَدِّثُونَ»: مُلْهَمُونَ.

قال الشيخ:

اتَّفَقَ الصحابة رضي الله عنهم على مبايعة عمر بن الخطاب بن نفيل العدوي القرشي رضي الله عنه؛ لأن أبا بكر رضي الله عنه قد عهد إليه، فلما مرض وأحسّ بالوفاة، استحضر عمر رضي الله عنه وقال: «أنت الخليفة بعدي»، وأرشد الناس إلى مبايعته، وعهد إليه بالخلافة، فلم يختلف عليه اثنان، بل أجمعوا على مبايعته وأهليته، فتمت له البيعة، وتمّ أمره.

وفي ولايته رضي الله عنه اجتهد في توسعة رقعة الإسلام، حيث أنفذ الجيوش، وبعثهم إلى أطراف البلاد، ففتحت بلاد الشام في عهده، وكذلك العراق ومصر وإفريقيا وخراسان، ووقعت في عهده وقائع كثيرة، مثل اليرموك والقادسية ونهاوند، وغيرها من الوقائع المشهورة التي أعزّ الله بها الإسلام والمسلمين، وانتصر فيها أولياء الله على أعدائه. تمّ هذا بتوصية من عمر رضي الله عنه وتحريض منه، ولم يتوقف الأمر عند هذا، بل سار بنفسه إلى كثير من البلدان؛ ففتح بيت المقدس الذي هو «إيلياء»، والمعروف بلغتهم «أورشليم»، لم يفتح إلا بعدما غزاها بنفسه، ووقف عليها وحاصرها، فبعد ذلك فتحوا له الأبواب، وفتحوا المسجد الأقصى.

وبكلّ حال، فهو ثاني الخلفاء الراشدين، الذي وفقّ الله أبا بكر رضي الله عنه لتوليته، ووفق الأمة لاختياره، فكانت توليته عين المصلحة، ووافق على ذلك المسلمون، وبرزى عنه أهل السنة، ويعترفون بفضائله، وبقوته وصرامته وحنكته، وسيرته

الحسنة التي ضرب المثل فيها بعدله، وتواضعه، وفي منهجه، وفي سلوكه في الأمة وغير ذلك من سيرته.

ولا شك أن هذا من توفيق الله تعالى للأمة، حتى قوي الإسلام وانتشر، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وذل للإسلام أعداؤه من اليهود والنصارى، وأعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، ومكن الله للمسلمين في بلادهم، وحقق لهم وعده في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]. تحقق ذلك كله في عهد الخلفاء رضي الله عنهم، وبالأخص في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

ولا شك أن اختيار أبي بكر لعمر - رضي الله عنهما - لا بد أن يكون له مستند، فهو الذي قد صحب النبي ﷺ، وعرف إشاراته، وميله ومحبته له، وسمع منه ما يدل على أفضلية عمر وأهليته، وقد وردت إشارات إلى خلافته مع خلافة من قبله ومن بعده، كقول النبي ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمُهَدِّينَ الرَّاشِدِينَ...»^(١). ولا شك أن عمر رضي الله عنه منهم. وكذلك قوله: «اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر»^(٢)، سماه مع من بعده باسمه الصريح، وأمر بالاعتداء به؛ وذلك لأنه أهل

(١) تقدم تخريجه (٤٣/١).

(٢) تقدم تخريجه (٥٨٣/٤).

للاقتداء، وأنه أهل لحمل السنّة، فقد حمل من الشريعة ما حمل.
وفي عهده ﷺ كثرت المسائل الواقعيّة، فأفتى فيها بما قبله أهل السنّة، ولأجل ذلك يعرف فقهه وفهمه وفتاواه؛ لكثرة ما نقل عنه ووقع له. كذلك أيضًا من الإشارات حيث تقدّم فيه ما يدلّ على أنّه الخليفة بعد أبي بكر ﷺ، فقد تقدّم قول النبي ﷺ: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي عَلَى قَلْبِ، عَلَيْهَا دَلْوٌ، فَتَزَعْتُ مِنْهَا مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَخَذَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ، فَتَزَعَّ مِنْهَا ذَنْبِيًّا، أَوْ ذَنْبَيْنِ، وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ، ثُمَّ اسْتَحَالَتْ غَرْبًا، فَأَخَذَهَا ابْنُ الْخَطَّابِ، فَلَمَّ أَرَّ عَبْرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَفْرِي فَرِيَهُ، حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بَعْطَنٍ»^(١)؛ فأشار إلى خلافة أبي بكر ﷺ وأنّ مدتها قصيرة، فهو لم ينزع إلا دلّوا أو دلوين. أمّا عمر ﷺ فجعل ينزع بهذه الدلو التي استحالت غربًا، وهي الدلو الكبيرة، حتى روي الناس وضربوا بعطن؛ إشارة إلى طول خلافته، وإلى امتداد الإسلام والدولة في عهده، والانتصارات التي حصلت في خلافته.

كذلك يعترف أهل السنّة بأفضليّته، ومنهم عليّ ﷺ الذي تُقدّسه الشيعة، وترفعه وتُعلي من شأنه، وتغلو فيه غُلُوًّا زائدًا، يصل عند البعض إلى العبادة من دون الله، وتزعم أنّه عدو لهؤلاء الخلفاء، وتزعم أنّ من والى عليًّا لا بدّ أن يعادي أبا بكر وعمر، فإنّهما ضدّان، ويقولون: لا ولاء إلاّ لبراء، ويقولون: لا يمكن أن توالي عليًّا إلاّ أن تعادي أعداءه.

(١) تقدم تخريجه (٤/٥٨٦).

ونقول: كذبتهم، بل هما صاحبان، وأخوان، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي.
 وبقية الصحابة رضوان الله عليهم كلهم إخوة، وعلي عليه السلام واحد منهم، يحبهم
 ويحبونه، ويصلي خلفهم، ويتولى ولاياتهم، ويأخذ أعطياتهم، ويجالسهم
 ويؤانسهم، ويكلّمهم ويصحبهم، ولم يظهر لهم عداوة، ولم يقاطعهم ويهجرهم.
 ولكنكم أيها الرافضة نكست فطركم، ورأيتم الباطل حقًا والحق باطلاً، وصوّبتم
 ما كان خطأ، وزعمتم أنّ بين الصحابة عداوة ولم تكن، بل أنتم أهل الحقد وأهل
 البغضاء!

يذكر العلماء أنّ الآثار شبه متواترة، أنّ علياً عليه السلام كان يقول على المنبر: «خَيْرُ
 هذه الأُمَّة بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ»^(١) رضي الله عنهما. يعترف بذلك على المنبر،
 فأين عقول هؤلاء الرافضة من هذا الأثر المشهور غاية الشهرة، ومع ذلك
 يخالفونه في هذين الخليفتين وعثمان ويكفرونهم ويضلّلونهم ويشتمونهم، وإمامهم
 عليّ - على زعمهم - يعترف بهما ويفضّلهما. فهذا محمد بن الحنفية ابنه وهم يغلون
 فيه أيضاً؛ لأنّه من أولاد عليّ، ولكن يغلون كثيراً في الحسن والحسين. فهو يسأل
 أباه فيقول: «يَا أَبَتِ، مَنْ خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم؟» فيجيبه أبوه مستغرباً: «يَا
 بُنَيَّ، أَوْ مَا تَعْرِفُ؟» فيقول: «لَا»، فيقول: «أَبُو بَكْرٍ»، يعترف علي عليه السلام بأن أفضل
 الأُمَّة أبو بكر، وفضله اتّخذ خليفة للمسلمين، وفضله سمّوه خليفة رسول الله

(١) أخرجه أحد (١/١٠٦)، وابن أبي شيبة (٦/٣٥١)، والطبراني في الأوسط (١/٢٩٧) من

ﷺ، قال: «تُمْ مَنْ؟» قَالَ: «عُمَرُ»، هو ثانيه في الخلافة، وهو ثانيه في الفضل، قال: «وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ: تُمْ عُمَرَانُ! فَقُلْتُ: تُمْ أَنْتَ؟» خشي أن يقول عثمان ﷺ، وأحب أن يكون لأبيه الفضل، ولكن علياً ﷺ تواضع غاية التواضع وقال: «مَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»^(١)، مع أن له الفضل. وقد اختلف العلماء من أهل السنة: أيهما أفضل؟ والخلاف في ذلك ليس مخرجاً من الملة، ولا يُضلل به، يعني في الفضيلة، كما سيأتي.

نقول: إن فضائل عمر ﷺ أكثر من أن تحصى، وقد أفردت بالتأليف قديماً وحديثاً، فابن كثير رحمه الله صاحب «التاريخ» كتب في فضائل الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وأفرد بعضهم عمر ﷺ بالفضل، وأشهر من كتب فيه ابن الجوزي «مناقب عمر» رسالة مطبوعة منتشرة، ذكر فيها فضائله وأحواله وما بشره به النبي ﷺ.

وقد تقدم أنه أحد العشرة المبشرين بالجنة، وفي حديث أبي موسى ﷺ قال: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ حَائِطًا، وَأَمَرَنِي بِحِفْظِ بَابِ الْحَائِطِ، فَجَاءَ رَجُلٌ يَسْتَأْذِنُ فَقَالَ: ائْذَنْ لِي وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ، فَإِذَا أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ يَسْتَأْذِنُ فَقَالَ: ائْذَنْ لِي وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ، فَإِذَا عُمَرُ، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ يَسْتَأْذِنُ فَسَكَتَ هُنَيْهَةً ثُمَّ قَالَ: ائْذَنْ لِي وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ عَلَى بَلْوَى سَتُصِيبُهُ، فَإِذَا عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ»^(٢).

(١) تقدم ترجمته (٦١٦/٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٩٥)، ومسلم (٢٤٠٣).

وكذلك من فضائله ما تقدم في الحديث الذي أشار إليه الشارح: «اسْتَأْذَنَ عُمَرُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ نِسَاءٌ مِنْ قُرَيْشٍ يُكَلِّمُهُ وَيَسْتَكْثِرُنَّهُ عَالِيَةً أَصْوَاتُهُنَّ، فَلَمَّا اسْتَأْذَنَ عُمَرُ قَمْنَ يَبْتَدِرْنَ الْحِجَابَ، فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَضْحَكُ، فَقَالَ عُمَرُ: أَضْحَكَكَ اللَّهُ سِنَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: عَجِبْتُ مِنْ هَؤُلَاءِ اللَّاتِي كُنَّ عِنْدِي فَلَمَّا سَمِعْنَ صَوْتَكَ ابْتَدَرْنَ الْحِجَابَ قَالَ عُمَرُ فَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ يَهَبْنَ، ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: أَيَّ عَدَوَاتٍ أَنْفُسِهِنَّ أَتَهَبَنِي وَلَا تَهَبْنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ قُلْنَ: نَعَمْ أَنْتَ أَغْلَظُ وَأَفْظُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ»^(١)، والفتح هو الطريق، فالشيطان إن وجده هرب منه، وذهب إلى طريق آخر، وهذا دليل على صرامته في الحق. وكذلك شهد النبي ﷺ بأنه من المحذنين، أي الملهمين. يقول ﷺ: «قَدْ كَانَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدِّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنْهُمْ»^(٢).

ومن أجل ذلك يكثر موافقته للسنة وللقرآن، يقول ﷺ: «وَأَفَقْتُ اللَّهَ فِي ثَلَاثٍ - أَوْ وَأَفَقَنِي رَبِّي فِي ثَلَاثٍ - قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ اتَّخَذْتَ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّيًّا، وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ فَلَوْ أَمَرْتَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحِجَابِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْحِجَابِ، قَالَ: وَبَلَّغَنِي مُعَابَةَ النَّبِيِّ ﷺ بَعْضَ

(١) تقدم تخريجه (٤/٦١٧).

(٢) تقدم تخريجه (٤/٦١٧).

نِسَائِهِ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِنَّ قُلْتُ: إِنْ أَنْتَهَيْتُنَّ أَوْ كَيْدَلَنْ اللَّهَ رَسُولَهُ ﷺ خَيْرًا مِنْكُنَّ حَتَّى آتَيْتُ إِحْدَى نِسَائِهِ، قَالَتْ: يَا عُمَرُ أَمَا فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا يَعِظُ نِسَاءَهُ حَتَّى تَعْظَهُنَّ أَنْتَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسَلِمَاتٍ﴾ [التحریم: ٥] [الآية] (١).

فذلك دليل على أنه ﷺ كان من المحدثين الملهمين.

ومن أشهر فضائله: أنه دُفِنَ مع النبي ﷺ وأبي بكر ﷺ، وجمع بينه وبينهما، وذلك دليل على اعتراف الصحابة بفضله ومزيتته، حتى قال بعض العلماء في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما: منزلتهما مع النبي ﷺ في حياته كمنزلتهما معه بعد مماته، فهما قريناه في حياته، وكذلك بعد مماته، جعلنا معه في الحجرة النبوية، أليس ذلك دليلاً على أفضليتهما، وأتمها صاحباه وحببياه المقربان إليه؟! شهد بذلك علي ﷺ في الحديث الذي تقدم لما مات عمر ﷺ «فَتَرَحَّمَ عَلَى عُمَرَ، وَقَالَ: مَا خَلَفْتُ أَحَدًا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ بِمِثْلِ عَمَلِهِ مِنْكَ»، يعني: أنه لا يرجو أن يكون مثل أحد إلا عمر ﷺ، وأنه لا يتمنى أن يكون عمله إلا مثل عمل عمر ﷺ، حتى يلقي الله بذلك، فالنبي ﷺ كان يحبه، ويحبُّ أبا بكر ﷺ، ومن آثار تلك المحبة أن جمعا معه في المكان الذي قُبر فيه، ويقول: «إِنِّي كُنْتُ كَثِيرًا مَا أَسْمَعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «جِئْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ»

(١) أخرجه البخاري (٤٤٨٣) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

وَعُمْرُ^(١)، مما يجعله أهلاً أن يكون إلى جانب أبي بكر، والنبى ﷺ في المكان الذي دُفِنوا فيه.

ومن فضائله أن له أوليات كثيرة؛ فهو الذي أشار بجمع القرآن وكتابته في عهد أبي بكر، لما كثرت القتل في القراء في وقعة اليامة، وقتل فيها خمسمئة من حملة القرآن، فخشي أن يذهب منه شيء، فأشار بكتابته في الصحف، ووافقه أبو بكر ﷺ.

وكذلك هو الذي وضع التأريخ، واختار أن يكون التأريخ بالهجرة؛ لأنها التي أظهر الله بها الإسلام، فبعد الهجرة بدأ الإسلام يظهر وينتشر، وقد أجمعت عليه الأمة بعده إلى الآن.

وكذلك كان هو الذي سنّ هذه الأوقاف في الأرض المفتوحة عنوةً، مثل مصر والعراق والشام، فالأرض الزراعية المفتوحة، جعلها وقفاً على بيت المال، تُزرع وتكون أجرتها لبيت المال ممّوله عند انقطاع الفتوحات والغنائم، وأقره على ذلك بقيّة الصحابة رضوان الله عليهم، ويستدلّ بذلك على معرفته بمهمّ الأمور ومستقبلها. وقد كان في عهد النبى ﷺ جريئاً في إنكار ما رآه منكراً، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

ولكنّ الرافضة يتبعون ما يظنون أن فيه شيئاً من العيب والقدح فيه، فيجمعون أكاذيب ويجمعون أموراً لا مطعن فيها، ويجعلونها مطاعن في خلافته

(١) تقدم تخرجه (٤/٦١٧).

وأهليته، ويجعلونه مرتداً عن الإسلام، أو نحو ذلك.

ومن أكبر مطاعنهم عليه أنه لما مرض النبي ﷺ قال: «أَتُونِي بِكِتَابٍ أَكْتُبُ لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضِلُّوا بَعْدَهُ»، قَالَ عُمَرُ ﷺ: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ غَلَبَهُ الْوَجَعُ، وَعِنْدَنَا كِتَابُ اللَّهِ حَسْبُنَا»^(١) فعند ذلك قاموا ولم يكتب. فقال الرافضة: إنه حسد علياً، وإن علياً كان هو الخليفة، وإن أبا بكر ليس بخليفة، وإن عمر خاف أن يكتب النبي ﷺ الخلافة لعلي، فعند ذلك قال: لا تكتبوا، فحرّم الكتابة ومنعها، وتجراً، وقال: «وَعِنْدَنَا كِتَابُ اللَّهِ حَسْبُنَا». فهذا ما يطعنونه على عمر ﷺ، مع أنهم غائبون لم يحضروا ذلك الوقت، ولم يعرفوا الإشارات والقرائن، وعمر ﷺ عرف القرائن، وعليّ كان حاضراً، ولم يعترض، ولم يخطر بباله ﷺ، أن له ولاية، ولا أن عمر حرمه من الولاية أو الخلافة، فليس في هذا إشارة، ولو من بعيد، بأنه حسد علياً، فقال: لا تكتبوا، فعندنا كتاب الله.

والدليل على ذلك أن ابن مسعود ﷺ لما ذكر له أن النبي ﷺ أراد أن يكتب كتابة لا نضلّ بعدها، فقال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الصَّحِيفَةِ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُ مُحَمَّدٍ ﷺ فَلْيَقْرَأْ هَذِهِ الْآيَاتِ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَنْتَلِ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَا تُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ صَلَّى عَلَيْكُمْ وَصَلَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣]»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (١١٤)، ومسلم (١٦٣٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٧٠) وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وابن أبي حاتم (١٤١٤/٥)،

والبيهقي في شعب الإيمان (٢٠٧/٦).

فالصحابة فهموا أنّ وصيّة النبي ﷺ ليست وصيّة بخلافة ولا بغيرها، ولكنّها وصيّة بديانة وبأمانة؛ ولذلك ليس فيها إشارة إلى خلافة عليّ ؑ ولا غير ذلك. بل تقدّم في حديث عائشة رضي الله عنها أنّ النبي ﷺ قال: «ادْعِي لِي أَبَاكَ وَأَخَاكَ، حَتَّى أَكْتُبَ لَأَبِي بَكْرٍ كِتَابًا»، ثمّ قال: «يَأْتِي اللهُ وَالْمُسْلِمُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ»^(١). فهذا دليل على أنّه لو كتب لولّي أبا بكر. فكيف يزعمون أنّ عمرَ حال بين عليّ وبين الولاية.

وكذلك لهم مطاعن كثيرة يجعلونها في كتبهم، ويذكرونها في خطبهم، ويرمونهم رضي الله عنه بالفضائح والعظائم، والله حسبهم، ولكن ذلك لا يضرّه، بل يكتب له أجره عند الله موفّراً.

وللعلماء في الخلفاء الراشدين مسألتان:

المسألة الأولى: ترتيبهم في الخلافة، ومسألة ترتيبهم في الفضل.

ففي الخلافة خلافاً للرافضة إجماع الأمة الإسلامية على أنّ الخلافة بعد النبي ﷺ لأبي بكر، ثمّ لعمر، ثمّ لعثمان، ثمّ لعليّ رضي الله عنهم. وهؤلاء هم الخلفاء الراشدون، ومن طعن في خلافة أحدهم، فهو أضلّ من حمار أهله، اتفق أهل السنّة على أنّهم الخلفاء على هذا الترتيب، إلا أنّ الرافضة زعموا أنّ أبا بكر مغتصب للخلافة، وكذلك عمر وعثمان، وأنّهم لا يستحقون الخلافة، بل زادوا أن كفّروهم وشتموهم، وأخرجوهم من الإسلام، وطبقوا عليهم الآيات التي وردت في

(١) تقدم ترجمته (٤/ ٥٨٥).

المنافقين. ولكن بقي أهل السنة على عقيدتهم الواحدة في فضلهم، وحقهم في الخلافة حسب ترتيبهم فيها.

المسألة الثانية: مسألة ترتيبهم في الفضل، وقد ورد عن علي رضي الله عنه الذي تغلو فيه الرافضة: «خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ»^(١)، لم يختلف الصحابة في ذلك، ولم يختلف أهل السنة في تفضيل أبي بكر ثم عمر، ويروون ذلك مسنداً؛ فيروي عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -: «كُنَّا نُخَيِّرُ بَيْنَ النَّاسِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَنُخَيِّرُ أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، ثُمَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، ثُمَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو»^(٢)، فيبلغ ذلك النبي ﷺ فلا ينكره، أي: يعترف بهذا الترتيب.

ورجح أهل السنة أن ترتيبهم في الفضل مثل ترتيبهم في الخلافة، ولكن وقع خلاف في الترجيح بين علي وعثمان رضي الله عنهما، فقومٌ قَدَّموا عثمان رضي الله عنه، وهو القول الصحيح، وقوم قَدَّموا علياً. وهذه المسألة وهي: هل يُقَدَّمُ عثمان على علي، أو يُقَدَّمُ علي على عثمان - رضي الله عنهما - في الفضل هي مسألة اجتهادية، لا يضلُّ من قَدَّمُ علياً رضي الله عنه، ولا يضلُّ من قَدَّمُ عثمان رضي الله عنه. وأمَّا تقديم الشيخين، فلا خلاف في تقديمهما، ويضلُّ من قَدَّمُ عليهما أحداً من الصحابة أو من غيرهم. عرفنا خلافة أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - وأنها منصوبة؛ لقوله ﷺ:

(١) تقدم تحريجه (٤/٦٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٥٥).

«اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر»^(١). والواقع كذلك، ولعل عهد أبي بكر إلى عمر كان اعتماداً على هذا الحديث، ولعله كان اعتماداً على الأهلية والكفاءة، وقد وافقه الصحابة رضوان الله عليهم على هذا التقديم، وذلك لأهلية عمر رضي الله عنه وكفاءته وزهده وعبادته واجتهاده وحنكته وحرصه وحزمه وقوته وإدراكه وجهاده. ثم ظهر ذلك جلياً بعد توليه الخلافة التي امتدت عشر سنين، كلها كانت جهاداً، يجاهد بنفسه، وبآرائه، ويجهز جيوشه ويرسل إليهم التعليمات فيأخذون بها، ويحثهم على الصبر فيصبرون، وكان من أثر ذلك انتصار المسلمين انتصاراً عديم النظير، وظهر أمر الله ولو كره الكافرون. وكان من آثار صفاته أن انتشر العلم، فقد كان رضي الله عنه من أوعية العلم وحملته، فأرسل الدعاة إلى البلاد التي فتحت في زمانه، وأخذ يرسلهم ويكاتبهم، وكل ذلك لأجل أن يظهر دين الله على أعداء الله، ولو كره المشركون.

(١) تقييد تخرجه (٤/٥٨٣).